التاريخ الليبي القديم

من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي

(الجزء الأول)

تأليف: د. عبد اللطيف محمود البرغوثي

التاريخ الليبي القديم

من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي

(الجزء الأول)

أعده للنشر: تامغناست

تأليف: د. عبد اللطيف محمود البرغوثي

تصدير

بعد أن أقدم تعاقدت مع اليونيسكو في أُكتوبر - تشرين الأول سنة 1967م. للعمل في ميدان التاريخ بكلية التربية في الجامعة الليبية. قدمت إلى طرابلس الغرب حيث بدأت بأداء مهمتي التي كان من ضمنها تدريس تاريخ ليبيا القديم من بدايته حتى عشية الفتح الإسلامي سنة 643م. وظللت أُدرّس هذه المادة طيلة أربع سنوات متتالية (1967 - 1971 م.) واصلت البحث خلالها حول هذا الموضوع. وإذا صحت القاعدة القائلة إن خير طريقة لدراسة موضوع ما هي تدريسه. فإنني أعتز بأن أقول إنني اتبعت تلك الطريقة فأفدت واستفدت من الكشف عن عراقة تاريخ هذا الجزء من الوطن العربي الكبير؛ فما إن بدأت البحث عن حقائق التاريخ الليبي القديم. حتى بدأت تنفتح أمامي مجالات جديدة. واسعة سعة ليبيا ذاتها. ومثيرة بقدر ما في اكتشاف الحقيقة من متعة وإثارة.

وكان عليّ منذ البداية أن أُقرّر طبيعة البحث الذي ندبت نفسي للقيام به؛ فهل أُخصصه لدراسة جوانب محدودة من تلك الحقبة التاريخية أم أتصدى لتلك الحقبة بكاملها؟ وقلبت المسألة ذات اليمين وذات الشمال فوجدت أن مصلحة طلبتي تقتضي أن يكون البحث شاملاً لكل الفترة حتى يتسنى لكل من الطلبة أن تكون بيده نسخة من الكتاب في بداية

السنة الجامعية الأولى من التحاقه بكلية التربية. ونزولاً عند متطلبات المصلحة العامة بدأت البحث وفي ذهني أن يجيء جامعاً. قدر الإمكان. بين صفات الكتاب المقرر وصفات البحث المتخصص.

التعريف بليبيا

طبيعة ليبيا وسكانها في الوقت الحاضر:

كان الإغريق القدماء يسمون كل الشمال الإفريقي إلى الغرب من مصر ليبيا (Libya). والمناسبة الوحيدة قبل القرن العشرين التي أُطلق فيها اسم ليبيا على مناطق بعينها كانت حوالي 300م. عندما كون الإمبراطور ديوقلتيان ولايتي ليبيا العليا (Libya Superior) وليبيا الدنيا (Libya Inferior) في الجزء الشمالي من برقة. ولكن كلمة ليبيا كانت مقبولة دائماً كمرادف جغرافي لطرابلس أو بلاد البربر للدلالة على الجزء الأوسط من الشمال الإفريقي. ولم توحد ولاية طرابلس وولاية برقة إلا على الجزء الأوسط من الشمال الإفريقي. ولم توحد ولاية طرابلس وولاية برقة إلا سنة 1934م. عندما أكمل الإيطاليون عملية احتلالهم لهما وأسمياهما مستعمرة ليبيا (Libia). وبعد ذلك احتفظت المملكة الليبية المتحدة بهذا الاسم لدى استقلالها سنة 1951م. ضمن حدود شملت الولايات الثلاث: طرابلس وبرقة وفزان. ولقد ظل هذا الاسم معتمداً بعد إلغاء الدستور الاتحادي سنة 1964م. ونشوء ((المملكة الليبية)). وبعد ثورة أول سبتمبر سنة 1969م. وإلغاء النظام الملكي وإنشاء الجمهورية العربية الليبية.

وتتمتع ليبيا في الشمال بخط ساحلي على البحر الأبيض المتوسط يبلغ طوله ألفاً ومائتي ميل. وهو ساحل مكشوف في معظمه. قليل التنوع وخطر. وهي تشترك مع الجمهورية العربية المتحدة في الشرق في خط حدود

طوله ثمانمائة ميل كما تشترك مع الجمهورية التونسية في الغرب في خط حدود طوله مئتان وخمسون ميلاً ومع جنوب الجزائر في خط يبلغ طوله أكثر من ستمائة ميل. وهي في الجنوب الشرقي تشترك مع جمهورية السودان في خط حدود واحد كما تشترك في الجنوب مع جمهوريتي تشاد والنيجر.

وتشغل ليبيا ست عشرة درجة طولية (9° - 25°) وأكثر من أربع عشرة درجة عرضية (45" 18° - 33°) بمساحة تبلغ حوالي (680,000) ميل مربع تحلها في المرتبة الرابعة بين أكبر أربعة أقطار إفريقية. وهي إن قورنت من حيث المساحة بغيرها من البلدان زادت عن تكساس بضعفين ونصف الضعف وبلغت سبعة أضعاف بريطانيا العظمى وإرلندة الشمالية مجتمعين.

ويعتبر 95% من هذه المساحة صحراء وإن كان قسم من تلك الصحراء يتكون في الواقع من سهول استبس شبه صحراوية ومقفرة وقليلة التنوع.

أما الخمسة الباقية في المائة فتعتبر صالحة للاستغلال الاقتصادي وإن كان ما يزرع منها في الوقت الحاضر لا يتعدى ½ % من كامل مساحة البلاد مع العلم أنه يمكن مضاعفة تلك الرقعة المستغلة في الزراعة. ولا شك أن المناخ وتوفر الماء هما العاملان اللذان يجعلان مناطق الزراعة المستقرة مقصورة على الأحزمة الساحلية الضيقة وسلاسل التلال في شمالي منطقة طرابلس وفي برقة وفي بعض الواحات في الداخل. ويذكر بهذا الصدد أن ليبيا ليست فيها أنهار دائمة.

وفي القسم الشمالي من منطقة طرابلس يلتقي الشريط الساحلي الخصيب. الذي لا يزيد عرضه في أي مكان منه عن سبعة أميال والذي يتمتع بمناخ حوض البحر الأبيض المتوسط. مع سهل الجفارة الذي يسمى أحياناً ((بالصحراء المصغرة)). وينتهي هذا السهل عند حافة جبل نفوسة الشمالية الشديدة الانحدار. وجبل نفوسة هذا عبارة عن سلسلة من التلال

لا يتجاوز ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم وتمتد على شكل خط منحنٍ حتى تلتقي مع البحر قرب مدينة الخمس. أما من الجنوب فإن الجبل يتدرج في الانخفاض حتى يتلاشى في منطقة ريفية متكسرة تعرف باسم منطقة ((القبلي)) ولا تلبث أن تندمج في هضبة الحمادة الحمراء الصخرية التي تمتد مسافة مائتي ميل إلى الجنوب حيث تهبط إلى مستوى ثلاث من سلاسل الواحات في غرب فزان هي واحات وادي الشاطيء ووادي الآجال ومنخفض مرزق. وفي هذه الأودية الثلاثة تكون المياه الجوفية على عمق أقدام قليلة تحت السطح. وفي شمال برقة يقوم الجبل الأخضر، على شكل درجتين ضيقتين صاعدتين من الساحل، مكوناً هضبة يبلغ ارتفاعها ألفي قدم، وهو خصيب ومغطي إلى حد معقول بالأشجار والشجيرات. أمّا في شرق برقة فإن التلال تنحدر نحو مصر عبر منطقة وعرة مقفرة هي منطقة مارماريكا. وفي جنوب برقة تنحدر المرتفعات لتتلاشى في الصحراء الليبية التي هي أكبر صحراء حقيقية في العالم - وفي برقة ثلاث واحات رئيسية هي جالو والجغبوب ومجموعة واحات الكفرة الواسعة. وفي أقصى جنوب برقة وفزان تقوم جبال تبستي كحاجز بين ليبيا وإفريقيا الوسطى.

وإذا ما ألقينا نظرة على المنطقتين المأهولتين في شمالي ليبيا فإننا سنجدهما مفصولتين عن بعضهما بثلاثمائة ميل من الخلاء الصحراوي في منطقة سرت التي تلتقي رمالها مع أمواج البحر الأبيض المتوسط. وتعتبر صحراء سرت هذه من أعظم الحواجز الطبيعية في العالم ولذلك فإن الرحلة بين تونس وطرابلس أو بين برقة ومصر كانت حتى الثلاثينات من هذا القرن، عندما عبدت الطريق الساحلية الليبية، أسهل على المسافر منها بين طرابلس وبرقة عبر صحراء سرت المقيتة.

وليس بين سلاسل التلال الليبية مرتفعات تكفي لصد المؤثرات المناخية المتضادة والناشئة عن الصحراء من ناحية وعن البحر الأبيض المتوسط من الناحية الأخرى. ولذلك فإن الطقس الليبي يتميز بتغيرات مفاجئة وعنيفة في بعض الأحيان. ولذلك فإن الطقس الليبي يتميز بتغيرات مفاجئة وعنيفة في بعض الأحيان؛ فالمناطق الشمالية تقاسي في الشتاء من العواصف

والرطوبة المزعجة، وربما تتساقط الثلوج على جبل نفوسة والجبل الأخضر. وكثيراً ما تهبط درجة الحرارة في سبها بفزان في الشتاء إلى ما تحت الصفر. وبالرغم من أن التلال الشمالية تتلقى عشرين بوصة من المطر في السنة، إلا أن معظم تلك الكمية يتساقط بين شهري ديسمبر - كانون الأول، ومارس - آذار، على شكل وابل غزير قصير الأمد مما يجعل معظم المياه المتجمعة منه تندفع بعنف إلى البحر جارفة معها ما تصادفه في طريقها من تربة سطحية خصبة. ويقل سقوط المطر كلما اتجهنا جنوباً، كما أن مفعوله التخريبي يزداد. وفي فزان بالذات تذوِّب عواصف المطر النادرة جدران الأبنية المشيدة بآجر الطين وتسبب فيضانات غير متوقعة ممّا يحمل الأهلين على أعتبار مثل تلك العواصف نقمة أكثر منها نعمة. وتتعرض ليبيا كلّها أو جلها مرّة كل خمس أو ست سنوات لجفاف يستمر في بعض الأحيان طيلة فصلين متتاليين من السنة.

أما رياح «القبلي» الجنوبية الحارة فقد تهب في أي وقت خلال السنة وإن كان يغلب عليها أن تهب خلال ابريل – نيسان ومايو – أيار ويونيه – حزيران وفي نهاية الصيف. وهي عادة تجلب معها الغبار والرمل الناعم من جنوب الجزائر وتؤدي إلى ارتفاع درجة الحرارة على الساحل بثلاثين أو أربعين درجة فهرنهايتية خلال ساعات قليلة من هبوبها. وهي كذلك تحجب الشمس وتتلف المحصولات وتترك وراءها طبقات من الرمل الناعم في كل مكان حتى داخل المنازل المقفلة بإحكام. وفي منطقة طرابلس يندر أن تستمر رياح القبلي أكثر من ثلاثة أيام، اما في فزان، حيث يشتد أذاها، فإن خير ما يعبر عنها هو المثل الشعبي القائل: «إن هبت رياح القبلي طيلة اربعين يوماً - كفانا الله شرها – فإن الناقة تلقح دون ان يمسها الفحل».

وصيف ليبيا حار ورطوبته عالية فقد تصل على الساحل في أغسطس – آب إلى 90%. ولقد سجلت بلدة العزيزية الواقعة على حافة سهل الجفارة الشمالية أعلى رقم قياسي عالمي للحرارة في الظل عندما وصلت درجة الحرارة فيها إلى 136° فهرنهايتية في سبتمبر – أيلول سنة 1932 م. ولكن التلال الشمالية وخاصة الجبل الأخضر تتمتع بطقس معتدل ونسيم

منعـش. وخلاصة القول إن طقـس طرابلس يدعو للطمأنينـة والرضا خلال معظم أيام السنة وطقس ليبيا عامة طقس صحي.

ومعظـم الليبيـين من العرب المسـلمين الذين غمروا البلاد وأكسـبوها عروبتهـا منذ القرن الحادي عشـر للميلاد عندما زحفـت عليها جموع قبائل بني هلال وبني سـليم مـن مصر. وهنالك أقلية من البربر المسـلمين لا تزيد نسبتهم عن 4% من مجموع السـكان، وهم من نسل أبناء البلاد الأصليين الذين كانوا يسكنونها على وجه التحقيق منذ نهاية العصر الحجري القديم. ولا تزال أعداد منهم إلى الآن تعيش في منطقة طرابلس كمجتمعات زراعية صغيرة تنتشر قراها على أطراف جبل نفوسة بين يفرن ونالوت وفي زوارة على السـاحل الغربي. وهم لا يزالـون يخاطبون بعضهم البعض بلغة بربرية هي فرع مـن المجموعة اللغوية الحامية التي تنتمي إليهـا اللغة المصرية القديمة واللغة القبطية واللغة الصومالية واللغة الاثيوبية.

أما سكان جنوب برقة وفزان فهم خليط من العرب والبربر والزنوج الذين كان أسلافهم قد جلبوا كعبيد من وسط إفريقيا.

وبالنسـبة للطوارق، فرسان الصحراء، الذين ينفرد رجالهم دون نسائهم بلبس القناع، على عكس ما هو مألوف لدى غيرهم من إخوانهم المسـلمين، فـإن أصلهم، كأصـل إخوانهم البربر، لا يزال مسـألة جدلية تتقدم عدد من المؤرخـين بنظريات مختلفة حولها: فأبـن خلدون يقول: إن هؤلاء القوم كانوا أصلاً يعيشون في بلاد الشام وإنهم كانوا يعبدون الشمس وإنهم انحدروا من «مازغ» بن كنعان بن حام بن نوح. وهو يقسمهم إلى فرعين كبيرين تنتمي إليهما قبائلهم المختلفة. وهذان الفرعـان هما البربر والطوارق. ويقول بعض المؤرخين إنهم كانوا يعيشـون فـي الأصل في جنوب شـبه جزيرة العرب ثم اضطروا للهجرة منها عبر مضيق باب المندب إلى الحبشـة فوادي النيل. وهم يظهرون على النقوش المصرية القديمة تحت هذه الأسماء: برابرا (Barabra)، برابراتا (Baraberata)[1]، ليبو (Lebu) وأسـماء أخرى سـنتعرض لها فيما

1- Bereber - See also Encyclopaedia Britannica, William Benton (Publisher), London, 1970

بعد. وتدل صورهم على الآثار المصرية على أنهم قوم شقر. ويقول المؤرخ ف. ر. رُد (F. R. Rodd) إن أسرى ليبيين معينين ممن يظهرون في الصور والتماثيل المصرية القديمة هم من البربر.

ومن المؤكد أن لغة هؤلاء القوم المنتشرين من مصر إلى المحيط الأطلسي ومن سـاحل البحر الأبيض المتوسـط إلى السـودان تظهـر فيها خصائص تتشـابه مع خصائص اللغات السـامية بالرغم من أنهـا لغة حامية الأصل وإن كانـت تختلف بعض الشـيء عن اللغة الحامية التـي انقرضت منذ أمد بعيد. وتجدر الإشـارة هنا إلى أن بعض الأسـماء في جزر الكناري هي من هذه اللغة ذاتها.

وذهب عدد آخر من المؤرخين إلى ربط هؤلاء القوم الشقر من البربر بالأجناس الأوروبية القديمة من مثل الإيبيريين (Iberians) والكلت (Celts).

وبقـدر مـا عليه أصلهم مـن غموض فـإن وقت قدومهم إلى الشـمال الإفريقي والمكان الذي قدموا منه لا يزال سـراً غامضاً كذلك. ويقول الكاتب الفرنسـي جوته (Gautiers) إنهم انتشـروا دواخل إفريقيا قبل بدء عصر المعادن[2]. ومن المؤكد أن قبيلة زناتة ظهرت في الشـمال الإفريقي مع ظهور الجمل في العهد الروماني وانتشـرت كقبيلة مـن البربر الرحل في الصحراء الوسطى والغربية قبيل الفتح العربي.

ومـن الجديـر بالملاحظـة أن الطـوارق لم يكونـوا يلبسـون القناع خلال العهديـن الروماني والبيزنطي. ويعتقـد رُد (Rodd) أنهم تبنوا هذه العادة بين القرنين الميلاديين السـابع والحادي عشر إثر اندحارهم أمام المد العربي إلى الأقسـام الجنوبية مـن الصحراء حيث تكثـر العواصف الرمليـة التي ألجأت رجالهم، لكونهم يتعرضون للعواصف أكثر من النسـاء اللواتي يقمن عادة يقمن عادة في بيوتهن، إلى لبس الأقنعة اتقاء لشـر الرمال. ومنذ ذلك الحين حتـى وقت قريب كان الطوارق ملـوك الصحراء غير المتوجـين. فلم تكن أية قافلة تجارية ولا أية حملة علمية تستطيع عبور الصحراء دون حماية منهم.

2- Wright, John, Libya, London, Ernest Benn Limited, 1st Edition 1969, pp 21 – 25.

وقبائل الطوارق متعددة بصورة معقدة كتعقيد تاريخهم. فالبعض منهم حافظوا على نقاوة دمهم فلم يختلطوا بغيرهم، بينما اختلط البعض الآخر مع شعوب إفريقية أُخرى. ومع ذلك فقد ظلوا جميعاً يشتركون في عادات وتقاليد خاصة بهم. وينتسب الطوارق إلى الأم كما أن ابن الأخت هو الذي يخلف خاله في مشيخة القبيلة. وهم إجمالاً يقسمون إلى اربع طبقات هي: طبقة الإمفوكالن أي السلاطين وطبقة الإهكارن أي النبلاء والأمراء وطبقة الإمغادن أي الأتباع، وأخيرا طبقة الإكلان أي العبيد. وأبناء الطبقتين الأولى والثانية هم الطوارق الحقيقيون أي الذين ينحدرون من أم نبيلة بغض النظر عن الطبقة التي ينتمي إليها الأب.

أما أبناء الطبقة الثالثة فهم غالباً العبيد الذين أعتقهم أسيادهم وحرروهم ولكنهم ظلوا أتباعاً أو موالي لأسيادهم وقد يسمونهم أحياناً باسم طبقي آخر هو «إدرفن». والعبيد بالطبع هم تلك العناصر التي اسرها الطوارق إما من محيطهم وإما من المناطق الإفريقية المجاورة واستعبدوها في قضاء حوائجهم[3].

ويذهب أنطوني سلاري (Anthony Sillery) إلى رد أصل الطوارق للحاميين الشماليين الذين يقول إنهم يشملون البربر والطوارق والفلاني (القاطين في غرب إفريقيا) وفئة قديمة من البشر تعرف باسم جوانتشي (Guanche) سكنت جزر الكناري[4].

والطوارق إجمالاً قوم طوال القامة والوجه، رقاق البشرة، يتميز أطفالهم في الغالب بالشعر الأشقر.

وتعتبر واحتا غدامس وغات مشارف ديار الطوارق التي تنتشر في أنحاء فزان الغربية وفي أجزاء أخرى من الصحراء حتى تمبكتو على نهر النيجر. وهم يتكلمون لهجة بربرية، ومنهم نسبة كبيرة ممن يجيدون استعمال الشكل المكتوب من لغة الطوارق وهو الشكل المعروف باسم التفيناغ

3- Baker, Richard St. Barber, Sahara Challenge, Lutterworth Press, London, 1954, pp. 64 – 65

4- Sillery, Anthony, Africa, a social Geography, Oxford, 1961, p. 9

(Tifinagh).

أما التيبو (Tebu) ذوو البشرة السمراء الذين يقطنون جنوب برقة وفزان فالمعتقد أنهم ينتمون إلى سكان الصحراء القدماء الذين أسماهم المؤرخ الإغريقي هيرودوتس «التروجلودايت» ووصفهم بالسرعة الفائقة في العدو وبأنهم يتكلمون لغة «كزعيق الخفافيش». والملاحظ أن التيبو المعاصرين يتميزون بقدرتهم على التحمل. وقد ذكر المكتشف الألماني فردريك هورنمان (Hornmann Frederick) أن العرب وصفوا كلام التيبو بأنه «كزقزقة العصافير». ويبدو من ذلك أن نفس الجنس البشري هذا حسنوا لغتهم وجملوها بحيث تحولت مما يشبه زعيق الخفافيش إلى ما يشبه زقزقة العصافير خلال الاثنين والعشرين قرناً التي انقضت بين زيارة هيرودوتس وزيارة هورنمان. وتلك اللغة نفسها هي الآن إحدى لهجات السودان الجنوبي. ومما يرجح هذا الرأي أن التيبو قوم صغار الأجسام، خفاف البنية والحركة، يتميزون بأنف يكاد يكون أقنى، وبشفاه رقيقة وشعر سبط. وهم مسلمون ويعيش معظمهم في أكواخ ذات سقوف مخروطية دقيقة.

ولعل أغرب جماعة في ليبيا هم الدوّادة الذين يعيشون – ويبدو أنهم عاشوا كذلك منذ قرون – في ثلاث قرى في رمل الدوّادة بين وادي الآجال ووادي الشاطئ في غربي فزان. ويعيش هؤلاء الدوّادة الذين يبلغ عددهم أربعمائة نفس على نوع من الدود يوجد في ثلاث من البحيرات المالحة التي مازالت، بمعجزة، تقوم بين كثبان الرمل. وقد ذكر جيمس ويللّارد، أحد الكتاب الأجانب القليلين الذين تمكنوا من زيارة الدوّادة، أن الديدان التي يعيشون عليها إنما هي نوع من قريدس المياه المالحة المعروف علمياً أرتيميا سلينا (Artemia Salina)، وهم يجففونه ويسحقونه ثم يحولونه إلى معجون يجفف في الشمس ويصبح صالحاً للاستعمال كغذاء.

أما عدد السكان في ليبيا فإن إحصائيات وزارة التخطيط تشير إلى أنهم كانوا (1,559,399) نسمة وفقاً لتعداد سنة 1964م. ومعنى ذلك أن الكثافة السكانية لهذه البلاد هي 2,3 للميل المربع. وفي سنة 1967 م. قدر عدد السكان بـ (1,700,000) نسمة يعيش 60 % منهم في

الفصل الأول
ليبيا في عصر ما قبل التاريخ

مدينة طرابلس (235,000) وفي مدينة بنغازي (140,000) وأربع عشرة مدينة وقرية كبيرة أُخرى – ويزيد عدد سكان القسم الشمالي من منطقة طرابلس عن مليون نسمة بينما لا يزيد عدد سكان فزان عن (70,000) نسمة أي بمعدل شخص واحد لكل ثلاثة أميال مربعة. وقد يبدو غريباً أن تعلم أن نسبة البدو الرحل وشبه الرحل في ليبيا تصل إلى حوالي سدس مجموع السكان فقط.

وكانت أكبر الجاليات الأجنبية في ليبيا الجالية الإيطالية؛ وكان الإيطاليون قليلين في برقة ولكنهم كانوا يعدون أكثر من ثلاثين ألفاً في منطقة طرابلس. كان يعيش خمسة آلاف منهم في مزارع قريبة من مدينتي طرابلس ومصراته بينما تعيش بقيتهم في مدينة طرابلس نفسها؛ تلك المدينة التي توجد فيها أيضاً جالية مالطية صغيرة قديمة. وبعد قيام ثورة الفاتح من سبتمبر 1969 بقليل رحّلت حكومة الثورة الليبية جميع الإيطاليين عن ليبيا. وتوجد في كل من بنغازي وطرابلس جالية يونانية صغيرة وبقية من جالية يهودية. وبالإضافة لكل تلك الجاليات يعيش في ليبيا كثير من رجال النفط ورجال الأعمال والمدرسين والخبراء والمستشارين مع أُسرهم؛ وينتمي هؤلاء إلى عدة جنسيات. وقد تزايد عدد العرب غير الليبيين في ليبيا بعد قيام ثورة الفاتح من سبتمبر وسير ليبيا في الاتجاه العربي.

اسم ليبيا ودلالته

توصل أحد أبناء ليبيا في بحث له عن أصل هذه التسمية إلى النتيجة التالية: «ليبيا اسم عريق في قدمه... يرجع إلى أكثر من ألفي سنة قبل الميلاد. يستحيل تاريخياً ولغوياً الجزم بصحة رسمه «لوبيا» أو» ليبيا» على أحد الوجهين دون الآخر، إلا بالاقتصار تحيّزاً على لغة واحدة في عصر بذاته، وليس هذا ممّا يرضي منطق العلم ولا فضول العلماء. وهو الآن شعبياً ورسمياً ودولياً قد شاع وقبل وتأكد على أنّه «ليبيا»[5].

ويجدر بنا منذ البداية أن نشير إلى أن المدلول الجغرافي لأسماء الأقاليم والدول لم يكن في القديم محدداً واضحاً كما هو عليه الحال في أيامنا هذه بل كانت البلاد تسمي غالباً باسم الشعب الذي يسكنها. وواضح أن الشعوب مرت بعصور بدواة تختلف طولاً وقصراً وأن الشعب، أي شعب، في طور بداوته لم يكن ليستقر ضمن حدود جغرافية ثابتة، ممّا يجعل رقعة البلاد التي يسكنها أصلاً تمتد أو تتقلص تبعاً لتحركاته وانتصاره أو اندحاره. ومن الناحية الأخرى فإن مسألة الانتماء لوطن معين أو أمة معينة هي ظاهرة حضارية متأخرة لا تتولد عند الأفراد والجماعات إلا بعد خروجهم من دور البداوة، وتحررهم من الرابطة القبلية التي تحتم عليهم أن يكون ولاؤهم وانتماؤهم للقبيلة وليس للوطن أو الأمة.

وعلى هذا فإن الدلالة الجغرافية لاسم بلد من البلدان كانت تختلف من عصر لآخر قبل عصر الاستقرار؛ فالمصريون القدماء كانوا يعتبرون ليبيا الصحراء المجاورة لهم من الغرب والتي تمتد بعيداً حتى «عالم الأموات»، بينما استعمل المؤرخ الإغريقي هيرودوتس (القرن الخامس قبل الميلاد) كلمة ليبيا ليدل بها مرة على كل الشمال الإفريقي الواقع إلى الغرب من مصر، ومرة

5- بازامه، محمد مصطفى، ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية، اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب، وزارة الأنباء والإرشاد، بنغازي، 1963، ص 59

على برقة فقط. ومرة على إفريقيا عامة. ومن ناحية أُخرى فإن تحركات الأفراد والجماعات كانت طليقة إلى حد كبير ولا تخضع لأية قيود غير القيود التي كانت تفرضها عليها مصالحها وظروفها. وستتضح هذه الحقيقة فيما بعد عندما نلاحظ مثلاً مدى الحرية التي كانت القبائل الليبية القديمة تتحرك بها عبر الحدود الليبية – المصرية. ولهذه الحقيقة أهمية بالغة. كما سنرى فيما بعد. لما كان لها من أثر على المنطقتين. ثم هنالك مسألة أخرى هي اتساع ليبيا الهائل وغلبة الطبيعة الصحراوية عليها مما يجعل تعيين خط حدود لها (في الجنوب مثلاً) بصورة قاطعة وثابتة أمراً بالغ الصعوبة حتى في هذا القرن العشرين فما بالك في الأزمنة الموغلة في القدم؟ وإذن فإن كلمة ليبيا لم تحمل دلالتها الجغرافية الحالية إلا في مطلع هذا القرن – أما في الماضي فقد غلب استعمال كلمة «أنطابلس» (بنطابولس) أي المدن الخمس على المحافظات الشرقية في برقة. وكلمة أطرابلس (طرابلس) أي المدن الثلاث على المحافظات الغربية في منطقة طرابلس؛ وكان تاريخ هاتين المنطقتين يمثل إلى حد كبير تاريخ ليبيا بمفهومهما الجغرافي المعاصر – أما الداخل أي المحافظات الجنوبية في فزان فقلما سجل تاريخها بنفس المستوى الذي سجل به تاريخ المنطقتين السابقتين بل قلما حفظ من حقائقه ما يكفي لرسم صورة مرضية لأحوال هذه المنطقة في مراحل تاريخها القديم – ولهذا السبب فإن الدارس أو الباحث لن يستطيع أن يفي تاريخ هذه المنطقة حقه – والرجاء معقود على أن ينشط علم الآثار في إجراء الحفريات والدراسات الضرورية لفتح مغالق تاريخ هذه المساحة الداخلية الواسعة من ليبيا.

ليبيا في أقدم عصورها

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾. الآيتان 31/30 من سورة الأنبياء.

﴿ وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾. الآية 99 من سورة الأنعام

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾. الآية 24 من سورة يونس

لأسباب مختلفة أهمها المساعدة على فهم حالة ليبيا في عصور ما قبل التاريخ. وفهم ما كانت عليه صحراؤها من خصب وازدهار. قبل أن تصاب المنطقة بالجفاف. وتتحول إلى صحراء شاسعة قاحلة يجد الدارس أنه لابد أن يمهد لدراسته بالحديث عن الكرة الأرضية وتكوينها والأحوال الجيولوجية التي مرت بها. وما ترتب على ذلك من تغير في الأرض نفسها. وفي أجوائها ومناخها. مما أدى في النهاية إلى ظهور الحياة والإنسان والمجتمع البشري والتاريخ.

وتتلخص إحدى النظريات العلمية بهذا الشأن في أن الأرض والكواكب السيارة الأخرى كانت جميعها. بما فيها الشمس. أُم المجموعة. كتلة واحدة كبيرة ملتهبة تدور حول نفسها. ونتيجة لسرعة دورانها راحت تنفصل عنها أجزاء صغيرة تبدأ بالدوران حول ذاتها وحول الكتلة الأم في الوقت ذاته. ثم أخذت كرتنا الأرضية تبرد شيئاً فشيئاً فنجم عن ذلك تكون قشرة يابسة يحيط بها جوّ كثيف مشبع بالرطوبة. ولم تلبث الأبخرة في ذلك الجو أن تكثفت ونزلت على شكل أمطار غزيرة تجمعت محيطات وبحاراً وبحيراتٍ وأنهاراً. وأدى استمرار درجة الحرارة في الهبوط إلى برودة الأرض. وبالتالي إلى تقلصها. فنجم عن ذلك ارتفاع أماكن هي الجبال والهضاب والتلال.

وانخفاض أماكن أخرى هي السهول والأودية والقيعان. ومن الماء بدأت تظهر الأحياء الأولى وتتطور عبر العصور الطويلة حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن. واستغرق هذا التطور مدة يقدرها علماء الجيولوجيا بما يزيد عن أربعة آلاف وخمسمائة مليون سنة هي عمر الأرض. ولكن هؤلاء العلماء لا يستطيعون أن يتتبعوا بدرجة كافية من الدقة سوى الستمائة مليون سنة الأولى من عمرها، تلك الفترة التي سبقت تصلب القشرة الأرضية.

أما علماء التاريخ الذين يعتمدون على الاكتشافات الأثرية وعلى النقوش والكتابات التي خلفتها الحضارات القديمة، فهم لا يستطيعون التوغل في الماضي إلى أكثر من ستة آلاف سنة بينما يستطيع زملاؤهم علماء الجيولوجيا أن يصوروا لنا بكثير من التفصيل قصة الأرض قبل بدء التاريخ بستمائة مليون سنة، معتمدين في ذلك على نوع الصخور وعلى ما تحويه من بقايا نباتات وحيوانات متحجرة.

وبالرغم من أننا لا نعرف سوى القليل عن ثلاثة آلاف المليون من السنين التي انقضت على تصلب القشرة الأرضية، فإن الحياة بأشكالها البدائية الأولى لابد أن تكون قد استغرقت في تطورها عدة ملايين من السنين قبل أن تصل إلى مستوى الأشكال المتحجرة الموجودة في كثير من الصخور والتي يرجع تكوينها إلى ما قبل ستمائة مليون سنة. ولم تظهر الحيوانات الفقرية الأولى – وهي أنواع بدائية من الحيوانات التي تشبه الأسماك – إلا بعد انقضاء مائة مليون سنة أخرى. أما الأعشاب فلم تبدأ بالظهور إلا قبل ما يزيد قليلاً عن أربعمائة مليون سنة، والحيوانات البرمائية قبل حوالي ثلاثمائة وخمسين مليون سنة.

ويرجع تاريخ ظهور الثدييات – ومنها الإنسان الذي هو أرقاها بفضل عقله – إلى ما يقل قليلاً عن مائتين وخمسين مليون سنة، ويقدر المختصون أن الإنسان نفسه إنما خرج إلى حيز الوجود خلال مائة المليون سنة الأخيرة.

وجدير بالملاحظة أن التطور الحياتي لم يستمر سلساً دون انقطاع؛ فقد نشأت بعض النباتات والحيوانات وتطورت لتنقرض نهائيا بعد ذلك بملايين

السنين، بينما بقي البعض الآخر واستمر دون تغير يذكر.

ولقد نتج عن التغيرات التي طرأت على القشرة الأرضية تغيرات هامة في جغرافية الكرة الأرضية ومناخها، وهذه بدورها أثرت في تطور النباتات والحيوانات وفي توزيعها الجغرافي.

ويستطيع علماء الجيولوجيا بالاعتماد على الصخور وما تحويه من متحجرات أن يكشفوا عن النمط العام لتطور النباتات والحيوانات، وعن نشوء المحيطات والقارات وسلاسل الجبال والأنهار والتغيرات المناخية؛ فنحن نعرف من الأبحاث الجيولوجية أن الأسد ووحيد القرن والفيل وفرس النهر كانت تسرح في يوم من الأيام في بلاد هي خلو منها الآن مثل بريطانيا، كما نعرف أن قمة إفرست – حيث اكتشفت حيوانات بحرية متحجرة – تتكون من صخور كلسية تكونت أصلاً كرواسب تحت سطح البحر.

الصحراء الليبية في عصر ما قبل التاريخ

تزيد مساحة الصحراء الليبية عن 1,500,000 كم^2، وهي تشكل الجزء الأوسط من الصحراء الإفريقية الكبرى – وهذه الصحراء لم تكن طيلة الوقت صحراء قاحلة كما هي الآن بل كانت في وقت ماضٍ تتمتع بمناخ دافئ ممطر جعلها مليئة بالحياة النباتية والحيوانية. ولعل اكتشاف النفط مؤخراً فيها هو خير إثبات لما نقول إذ إن من المعروف أن النفط ناتج عن مواد عضوية (نباتية وحيوانية) غمرت في باطن الارض فتحولت إلى نفط نتيجة لأحوال معينة من الضغط والحرارة. ونحن إذا ألقينا نظرة واحدة على عصر البليستوسين (Pleistocene)[6] الذي بدأ قبل مليون سنة واستمر طيلة مليون سنة تقريباً سنلاحظ أنّه تميز بتغيرات مناخية حادة، وبظهور مخلوقات تشبه القرود، ولكنها كانت ذكية واستطاعت أن تنمي ذكاءها إلى حد أنها بدأت تسير معتدلة على القدمين، وصنعت أدوات حجرية كانت تقطع بها ما تقتله من حيوانات؛ فوضعت بذلك بداية الانتقال إلى مرحلة الإنسان الأول. وسنلاحظ أن علماء الجيولوجيا يميلون إلى الاعتقاد أن إفريقيا كانت موطن

6- انظر العصور الجيولوجية في الملحق (أ).

هذا الإنسان الأول وأنه انتشر منها إلى آسيا ثم إلى أُوروبا. وإذا نحن ألقينا نظرة أخرى على العصر الجيولوجي الحديث «الهولوسين» (Holocene)، الذي يبدأ قبل عشرة آلاف سنة، سنلاحظ أن الإنسان تعلم حوالي منتصف هذا العصر كيف يستأنس الحيوانات ويزرع النباتات. وإذن فإن ما نعرفها اليوم بالصحراء الليبية كانت خلال العصر الحجري القديم والمتوسط تعج بالنباتات والحيوانات والناس. أما كيف أقفز ذلك البستان وتحول إلى بحر قاحل من الرمال، فإن علماء الجيولوجيا يشيرون إلى أن عصر الهولوسين تميز بتزايد الجفاف في مناطق مختلفة من الأرض وخاصة في شمال إفريقيا والشرق الأوسط. وأدى استمرار تزايد الجفاف إلى تكوّن الصحاري الحالية في العالم، وإلى هجرة إنسان وحيوان تلك الصحاري، وانقراض نباتاتها. والذي يلفت النظر فيما يتعلق بتكوّن الصحاري، هو أننا إذا تصفحنا مصور العالم بادئين بالصحراء الإفريقية الكبرى سنجد أنها تتكون من عدة صحاري متجاورة: فالصحراء الكبرى الأولى في الغرب والصحراء الليبية في الوسط، ثم تأتي صحراء النوبة إلى الجنوب والصحراء الغربية في مصر. وإذا اتجهنا شرقاً فإنا سنجد الصحراء العربية أمامنا. وسنجد أيضاً أن هذا الحزام الواسع، الذي أصبح مجدباً نتيجة لما حل بأجوائه من جفاف حاد متزايد خلال عصر الهولوسين، يستمر في الامتداد شرقاً فيعبر سوريا والأردن والعراق وإيران وتركستان إلى أن ينتهي في صحراء غوبي في الصين.

والصحراء الليبية ليست كلها صحراء رملية بل تقوم فيها بعض السلاسل الجبلية فهناك مثلاً قمة بركان :أم الكوسي التي يبلغ ارتفاعها (11,204) أقدام، وتقوم بين الجبال مرتفعات صخرية تعرف بالحمادات، وسهول مكسوة بالحصى، وكثبان رمل متنقلة. وتخترق المنطقة كلها وديان جافة تشهد أنها كانت يوما من الأيام مجاري أنهار، ويشهد بعضها بعمقه وعرضه الكبيرين على قوة الأنهار التي كانت تتدفق فيها. ويؤيد هذا الاعتقاد بوجود أنهار في الصحراء في عصر ما قبل التاريخ وجود رسوم حيوانات مائية كالتمساح محفورة أو مصورة على الصخور. ولابد أن تلك الأنهار كانت تؤلف شبكة مائية واسعة ربما كانت تتصل بنهري النيل والنيجر وبحيرة تشاد.

ولابد كذلك أن بعض تلك الأنهار لا يزال جارياً تحت الأرض كمياه جوفية تمد الواحات والآبار الارتوازية بالماء الذي هو سبب الحياة في هذا الجزء من البلاد.

ولقد دلت الشواهد الجيولوجية على أن الصحراء الكبرى كانت في عصر البليستوسين أقل جفافاً مما عليه الآن؛ ولذلك فإن الصحراء الليبية كانت في أواخر ذلك العصر تعج بالنباتات والحيوانات والبشر. تكسو معظم رقاعها أدغال تكفي نباتاتها واشجارها لتغذية أضخم الحيوانات التي عاشت على وجه البسيطة، تشهد بذلك كومة عظام المستدون (Mastadon) الهائلة، الموجودة حالياً في قسم التاريخ الطبيعي بمتحف السراي الحمراء في طرابلس، والتي كانت قد اكتشفت في صحراء سرت الحالية. والمستدون حيوان يدل هيكله على انه كان يضاهي في حجمه الفيل الكامل النمو، وله أربعة أنياب طول الواحد منها ثمانية أقدام. ولما كان لا يأكل سوى النباتات فلابد أنه كان يستهلك أوراق شجرة كاملة في الوجبة الواحدة؛ ومع ذلك فقد أمكنه أن يعيش في هذه الرقعة التي نسميها اليوم الصحراء الليبية. وقس على هذا المثال عشرات الأمثلة لحيوانات أخرى متعددة ومتنوعة من مثل الفيل والزرافة والإيل ووحيد القرن وفرس النهر والنعامة. وقد كسا سكان هذه المنطقة جوانب آكام كاملة برسوم وأوصاف حيوانات منطقتهم عثر على عدد لا بأس به منها، وما يزال يعثر على المزيد منها في مناطق متباينة من الصحراء. وتلك الرسوم في معظمها هي لحيوانات انقرضت في الصحراء ولم يبق منها بعد سنة 2500 ق.م. سوى بعض الزرافات والنعامات التي لا تزال أعداد منها تعيش حتى يومنا هذا.

المخلفات الفنية

كان الرحالة الألماني بارث أول من عثر على النقوش الصخرية في وادي الزيغن (Ellissghen) غربي مرزق سنة 1850م. ثم توالت الاكتشافات على أيدي الرحالة المختلفين والبعثات العلمية المختلفة فاكتشف رسوم أخرى في وادي الآجال، والمكنوسة. وفي جبل زنككرا جنوبي جرما. وفي وادي برجوج غربي فزان. وفي جبل غنيمة في شرق فزان وعلى جميع السطوح الصخرية

من جبل نفوسة شمالاً إلى هضبة تسيلي جنوباً. وهضبة تسيلي تقع في الشمال الشرقي من الهجار وتمتد إلى داخل حدود فزان الشرقية. وقد قام العالم الفرنسي هنري لوت بحملة إليها سنة 1956 م. واستطاع هو وزملاؤه خلال ستة عشر شهراً قضوها في الهضبة أن يستنسخوا «المئات والمئات من الجدران الصخرية المرسومة والتي تصور الأشكال البشرية والحيوانية بالآلاف... في أعظم متحف فني لما قبل التاريخ في العالم كله»[7].

والواقع أن الرسومات والصور والنقوش الصخرية تملأ أرجاء الصحراء الليبية بل الصحراء الإفريقية الكبرى؛ فبالإضافة للمواقع التي اكتشفت في فزان، اكتشفت جبل عوينات[8] جنوبي شرق برقة رسومات كثيرة على جوانب الكراكير (الأودية) بعضها يرجع إلى ما قبل التاريخ والبعض الآخر يرجع إلى العصر التاريخي. ولا تزال هنالك مواقع كثيرة تنتظر الكشف والدرس.

ولقد استطاع العلماء المختصون، على ضوء ما تم اكتشافه حتى الآن، أن يقسموا رسومات وصور ونقوش الصحراء حسب موضوعاتها إلى أربع مجموعات رئيسية:

1- المجموعة الأولى وتمثل الحيوانات التي يستلزم وجودها كميات كبيرة من المياه والحشائش كالمستدون والفيل وفرس النهر والتمساح، أو الحيوانات المفترسة التي يستدعي وجودها وجود حيوانات كثيرة أخرى من الأنواع التي تعيش على النباتات، من مثل الأسود والفهود والنمور.

7- لوت، هنري، لوحات تسيلي، قصة لوحات كهوف الصحراء الكبرى قبل التاريخ، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى، بيروت، نوار (مايو) 1967، ص 8-9

8- - جبل عوينات هو كتلة جبلية مساحتها 1500 كم2، يقوم في الصحراء الليبية عند تقاطع خط عرض 22 ° شمالاً مع خط طول 25 ° شرقاً ويبلغ ارتفاعه 6132 قدماً وكأنه جزيرة في بحر من الرمال، وفيه ثمانية آبار صخرية معروفة تمتلئ بمياه المطر. أشهر الرسومات والصور التي وجدت على سفوحه هي تلك التي وجدها أحمد بيه حسنين في كركور الطلح ونشرها ووصفها في كتابه الواحة المفقودة، ثم ما وجده الأمير كمال الدين في كركور إبراهيم وكركور حامد، وتظهر في هذه النقوش صور رجال ونساء وزرافات ونعامات وبقر وحشية وخيول ومواش وضأن متوحش وكلاب أو فعالب وفرس نهر ووحيد القرن وسرطان ثم القسي والرماح والتروس.

2- المجموعة الثانية وتمثل الحيوانات البرية التي لا تحتاج إلا إلى قدر محدود من الرطوبة والحشائش كالبقر والزراف والنعام.

3- المجموعة الثالثة وتمثل رجالاً يركبون عربات تجرها الخيول أو يركبون الخيول نفسها.

4- المجموعة الرابعة وتمثل رعاة الجمال.

وواضح من التقسيم السابق أن المجموعة الأولى فقط ترجع لعصر ما قبل التاريخ بينما ترجع المجموعات الثلاث الباقية للعصر التاريخي؛ فالحصان لم يُعرف إلا في أيام الجرامنتيين أي في القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد بينما لم يُعرف الجمل إلا حوالي تاريخ الميلاد في الساحل وحوالي القرن الميلادي الرابع في الداخل. والجدير بالملاحظة أن التقسيم السابق للرسومات والنقوش يتفق مع تقسيم علماء الجيولوجيا والمناخ للفترات المناخية التي مرت بها الصحراء الكبرى – ومنها الصحراء الليبية – وهي:

1- الفترة الأولى الممطرة من 20000 إلى 12000 ق.م. وتصادف الزمن الجليدي الثالث في أوروبا.

2- الفترة الثانية وهي فترة الجفاف الأولى من 12000 إلى 5500 ق.م. وكانت الظروف المناخية بالصحراء خلالها تشبه ظروفها الحالية.

3- الفترة الثالثة وهي الفترة الممطرة الثانية من 5500 إلى 2500 ق.م. وتصادف الزمن الجليدي الرابع والأخير في أوروبا.

4- الفترة الرابعة وهي فترة الجفاف الثانية التي بدأت حوالي 2500 ق.م. ولا تزال مستمرة حتى الآن.

ومن الواضح أن الرسوم والصور والنقوش في عصر ما قبل التاريخ ترجع إلى الفترة المناخية الثالثة التي أُطلق عليها اسم عصر الصيادين وتظهر فيها الحيوانات المفترسة كالأسود والتماسيح وغير المفترسة كفرس النهر والخرتيت كما يظهر فيها الصيادون في جماعات منظمة يعملون على صيد الحيوانات بالشباك أو بالأسلحة البسيطة كالهروات التي كانوا يثبتون في

أطرافهـا أحياناً رؤوس حراب حجرية. وهم يرتـدون ملابس من جلود الحيوانات تغطـي عوراتهم كما يظهرون في رسـومات أخرى وهم يلبسـون أقنعة من رؤوس حيوانات الصيد كالغزلان والحمير الوحشية والخرتيت والذئاب والفهود لأغـراض التمويه علـى الحيوانـات وتسـهيل اصطيادها. وأوضـح مثال عل رسـومات هذا العصر هو ما وجد في أودية متخنـدوش الواقعة خلف مرزق. وقـد زار الدكتور محمد سـليمان أيوب[9]. مراقب آثـار المحافظات الجنوبية. هذا الموقع ودرس ما فيه من رسوم فوصفها بأنها «نتاج قوم على درجة عالية من المعرفة والذوق الفني» وبأنها مثلت الحيوانات المرسـومة «بواقعية منقطعة النظير».

والمجموعـة الثانية من الرسـوم تمثل صيادي الزراف والنعـام. ورعاة البقر. وهـي تمثل المراحل الأولى من الفترة المناخية الرابعة التي بدأت حوالي 2500 ق. م. ولا تزال مسـتمرة حتى الآن. وتجب الإشـارة هنا إلى أن الجفاف الذي حل بأجواء هـذه المنطقة من الأرض فحولها في النهايـة إلى الصحراء القاحلة التـي نعرفها الآن لم يحـدث فجأة وإنما بدأ حوالي 2500 ق. م. واسـتمر في التصاعد حتى بلغ ذروته حوالي سنة 1000 ق. م. وبين هذين التاريخين كانت هنالك أمطار موسمية تتساقط في هذه المنطقة وتكفي للإبقاء على حياة الحيوانات التي وردت رسوماتها في المجموعة الثانية. وتتميز هذه الفترة بتقدم فن الرسم الصخري وباسـتخدام الألوان (قبيل نهاية هذه الفترة) لتوضيح الأشـكال المنقوشـة. ومن أحسـن الأمثلة على رسـومات هذه الفترة تلك التـي وجدت على جـدران حقاف جبال الأتاكوس؛ وأبرزهـا لوحة تمثل رقصات حفلات المطر تظهر فيها الراقصات متهدلات الشـعور وهن يؤدين رقصاتهن الإيقاعيـة. وقد عرفت هذه الفترة بعصر الرعاة نسـبة للرعاة طوال القامة الذين نزلوا فزان في هذا الزمن والذين استخدموا الألوان الطبيعية في رسم أبقارهم كما أنهم رسموا أنفسهم باللون الأحمر.

والمجموعة الثالثة التي رسم فيها الرجال بأشكال هندسية وهم يركبون

9- أيـوب. محمد سـليمان. مختصر تاريخ فـزان منذ أقدم العصور حتـى 1811 م. المطبعة الليبية. طرابلس الغرب. ص40.

العربـات أو يمتطـون الخيل تمَّ التأكـد مؤخراً أنها من عمـل الجرامنتيين الذين استقروا في فزان حوالي القرن الثامن قبل الميلاد – ورسوم الفنانين الجرامنتيين الأول تظهـر بدائية سـاذجة إذا ما قورنت برسـوم عصر الرعـاة فقد اختفت الرشـاقة التي كانت تتميز بها رسـوم الأشـخاص وأصبح فنانو الجرامنتيين الأول يرسـمون الأشـخاص على شـكل خطوط متقاطعـة أو نقط ورؤوس أسـهم. ولكنهم لم يلبثوا أن تعلموا فن الرسـم الصخري وأجادوا فيه كما يظهر في رسـوم جبل زنككرا (جبل العسـل) التي تمثل عصر نهضة الفن الجرامنتي ويقول فرانكوا سـاتن (Franco Sattin) في مقال له عن نقوش زنككرا[10]: «يزدان الجانب الشـمالي لهضبـة زنككرا بنقوش حيوانية وأخرى آدمية ترتقي إلى الدور الأخير من حقبة الرعاة وتدجين المواشـي والخيول. كما يظهـر ضمن مجموعة النقوش نحت سـطحي يمثل رأس إنسـان من جنس البحر الأبيض المتوسـط (ويحتمل أنه جرامنتي)». وقد لاحظ صاحب المقال نقشـاً بشـكل أربع نعامات صغيـرة بالإضافة إلى نقوش علـى حدة تظهر فيها محاكاة الطبيعة بطريقة سـليمة. ولاحظ كذلك نقوشـاً أخرى شبه تخطيطية كما لاحظ تخاطيط مع أشكال آدمية وفارس وأشكال حيوانية.

حوافز المخلفات الفنية ودلالتها

قبل الاسترسـال في الحديث عـن دلالة هذه المخلفـات الفنية من الصور والرسـوم والنقوش الصخرية لابد لنا من التسـاؤل عـن الدوافع التي حفزت أبنـاء الصحراء القدامى للقيام بعمل تلـك النقوش. وهنا يجب أن نقرر منذ البداية أن الاجابة عاى هذا التسـاؤل لا تعدو نطاق التخمين والاسـتنتاج. إن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن الدوافع التي حركت فناني ما قبل التاريخ ومن بعدهـم قـد تكون دوافع سـحرية أو دينية. أو إنهم ربما كانـوا يقومون بتلك الأعمـال من بـاب الفن للفن أو من باب التلذذ والتسـلية[11]. بينما ذهب فريق

10- انظـر: ليبيا القديمة. نشـرة حوليـة تصدرها الإدارة العامة للآثـار والمتاحف والمحفوظات التاريخية بليبيا. وزارة التربية والتعليم. المجلد الثاني. 19965. ص 22.
11- لوت. هنري. لوحات تسـيلي. قصة لوحات كهوف الصحراء الكبرى قبل التاريخ. مكتبة الفرجاني. طرابلس. ليبيا الطبعة الأولى. بيروت. نوار (مايو) 1967. ص 59 – 61.

ثانٍ إلى أنهم كانوا يخلدون أعمال مشاهير صيادي العصر ويتلقون منهم مكافآت على شكل قطع إضافية من اللحم. ومن الطبيعي أن ما يرسمه الإنسان العادي من أشكال يأتي مرتبطاً بتجاربه ومعرفته وبالأشياء المهمة في حياته؛ ولا شك أن الحيوانات كانت من أهم الأشياء في حياة إنسان الصحراء الليبية القديم.

أما دلالة تلك الصور والرسوم والنقوش الصخرية وما يمكن أن يستخلص منها من نتائج فيمكن إجمالها فيما يلي:

1- إن الصحراء الليبية كانت في الفترة الممطرة الثانية (5500 – 2500 ق. م.)، وهي الفترة التي يعتقد المختصون أنها زمن هذه المخلفات الفنية، غنية بالمياه والغابات والأشجار[12] والنباتات بمعنى أنها كانت امتداداً شمالياً للغابات الاستوائية في إفريقيا الوسطى الحالية، وكانت بالتالي آهلة بالعرق الأسود الذي دفعه الرجل الأبيض فيما بعد إلى وسط القارة الإفريقية. والمؤرخون لا يعرفون من أين جاء الرجل الأبيض إلى الشمال الإفريقي وإن كان بعضهم يقولون إنه جاء « من وراء البحر» أي من أوروبا.

2- إن الرسوم الصخرية في كهوف الصحراء تبدأ بالصور المرسومة على جدران الكهوف وبنصب بسيطة من الحجارة تتحدث عن الموت والحياة في الصحراء في فجر التاريخ. ومن هنا فهي ذات دلالة دينية[13].

3- إن المستوى الفني المتقدم الذي يتجلى في هذه الرسومات والصور والمنقوشات الصخرية المرسومة أو المحفورة على وجوه الصخور الملساء في كهوف الصحراء في عصور ما قبل التاريخ تدل بتناسقها وقوة تعبيرها عن الحركة على ما أحرزه إنسان الصحراء من تقدم حضاري في عصر الصيادين كان الأساس الذي ازدهر عليه فن الرسم الصخري الملون بالألوان الطبيعية

12- يقول هنري لوت في الحديث عن جذوع أشجار التارو (فصيلة قريبة من شجر السرو) القديمة في تسيلي: «وقد أحطيت تلك الجذوع القديمة بعناية خاصة أثناء الحملة، لأنها هي بدورها قد سبقت التاريخ وظلت شواهد على الظروف الرطبة التي كانت موجودة في الماضي. وتدل الإحصائيات على أنه ليست هناك إلا حوالي مائة من هذه الجذوع رغم أنها كانت في زمن مضى شيئا مألوفاً أرض تسيلي» لوحات تسيلي ص 48.

13- المرجع السابق ص 77 – 85، 117 – 124، 196 – 209.

في فجر التاريخ منذ حوالي 2500 سنة ق. م.

4- إن وجود هذه الرسوم والصور في معظم أنحاء الصحراء الكبرى يدل على أنها كانت تعج بالسكان وبالحيوانات التي ملأوا جوانب الصحراء برسومها.

5- إن العدد الكبير من اللوحات المستنسخة من كهوف هضبة تسيلي يجعل المرء يتصور الصحراء الكبرى وكأنها متحف فني كبير لعصور ما قبل التاريخ والمراحل الأولى من العصر التاريخي. ويتجلى في هذه اللوحات أسلوبان بارزان أحدهما رمزي قديم يبدو أنه من ابتداع فنانين زنوج. وهو أسلوب الرسومات التي ترجع إلى ما قبل التاريخ. والآخر أحدث من الأول وهو صريح في محاكاة الطبيعة ويرجع إلى العصر التاريخي ويظهر فيه تأثير وادي النيل بكل وضوح. وربما ظهر فيه كذلك شيء من تأثير الفن الإيجي مما قد يعني قدوم عناصر مصرية أو إيجية إلى المنطقة أو عودة بعض أبناء المنطقة ممن ساقهم التجول أو الأسر أو الاسترقاق إلى مصر أو إلى غيرها فجلبوا معهم ما تأثروا به هم أنفسهم.

6- إن الفن الذي يتجلى في لوحات تسيلي وغيرها من النقوش الصخرية الكثيرة يساعد على تتبع الحياة الحيوانية في الصحراء الإفريقية الكبرى وبالتالي على تتبع التقلبات المناخية الكبرى التي نتج عنها ذلك الإمحال التدريجي فحول المنطقة في النهاية إلى صحراء.

7- إن التقسيم المذكور سابقاً بالنسبة للرسوم وللعصور الجيولوجية والمناخية التي مرت على الصحراء الكبرى يعطينا المزيد من المعلومات عن أنماط الحضارات التي تتابعت على الصحراء: حضارات صيادين مسلحين بالهراوات والبومراخ (Boomerang) أو المقذوفات الراجعة وحضارات رعاة ورماة نبال، وحضارات محاربين مسلحين بالجريد جاءوا بالحصان الأليف والعربات الحربية ذات العجلتين التي جرها الخيل إلى ليبيا.

8- تشير الصور والرسوم إلى أن حيوانات المنطقة لم تتغير خلال زمن طويل فهي مرسومة بأقدم الأساليب الفنية، ولا يبدو عليها أي تبدل

ملحـــوظ حتى حوالي منتصف الألف الثالـــث قبل الميلاد عندما تختفي صور الحيوانات الضخمة كأفراس النهر والفيل والكركدن بينما تستمر النعامة والزرافة في الظهور في الرسوم.

دلالة المخلفات الآثرية

يميز علماء التاريخ القديم في دراســته بــين عصرين: عصر ما قبل التاريخ والعصــر التاريخــي. ويقصدون بــالأول تاريخ الإنســان من أقــدم أيامه حتى حوالي سنة 3000 ق. م. عندما اخترعت الكتابة. كما يقصدون بالآخر تاريخ الإنســان منذ ســنة 3000 ق. م. فما بعدها. وعلى هذا الأساس فإن التاريخ يعتمد كلية على الأركيولوجيا (Archaeology) في دراســة عصر ما قبل التاريــخ بينما هو يعتمد عليهــا أقل من اعتماده علــى الوثائق المكتوبة في دراسة العصر التاريخي.

العصر الحجري القديم (Paleolithic Age):

تتنــاول أركيولوجية العصــر الحجري القديم تطور الحضارة البشــرية في الحقبة التي بدأت بظهور الإنســان كثديي يستعمل الأدوات الحجرية وانتهت مع بدء العصر الجيولوجي الحديث قبل حوالي عشــرة آلاف سنة. ومعنى هذا أننــا نبدأ في مرحلة مبكرة من عصر البليستوســين أو العصر الجليدي الذي بدأ قبل مليون ســنة وانتهى قبل حوالي عشــرة آلاف ســنة. وقد ظهرت في بداية هذا العصر مخلوقات شبيهة بالإنسان الأول وراحت تتطور ببطء شديد منشئة خلال تطورها حضارة إنسان العصر الحجري القديم الأدنى ثم حضارة إنسان العصر الحجري القديم الأوسط فحضارة العصر الحجري القديم الأعلى. وكان الإنســان في العصر الحجري القديم الأدنى والقديم الأوسط يعيش على جمــع المــواد الغذائية واقتنــاص الحيوانــات والطيور وصيد الأســماك وجمع الفواكه والحبوب البرية. وتجدر الإشــارة هنا إلى أن هذه الحضارة البشــرية البســيطة نشــأت وتطورت خــلال عصر البليستوســين الذي تميــز بأحداث مناخية كبرى من مثل تعرض الأقاليم الشمالية من الكرة الأرضية أربع مرات متفاوتة لزحف الجليد ومن مثل تكون أودية الأنهار والتغيرات الأساسية التي

طرأت على نباتات الأرض وحيواناتها.

وليســت لدينا معلومــات كافية عن العصر الحجري القــديم وإنما نعتمد فيما نعرفه عنه على ما تخلف من آثار الإنســان المادية التي صمدت لعوامل الزمن. وحتى تلك المخلفات تكاد تنحصر في الأدوات الحجرية أو تلك المصنوعة مــن العظــام والقــرون. بالإضافة إلــى بقايــا الحيوانــات التي كان أســلافنا يصطادونها.

ونســتطيع أن نقول بشــكل عام إن الأدوات التي استعملها الإنسان في هــذا العصر تدل علــى تطور تدريجي. إذ إنــه بدأ يســتعمل أداة واحدة لكل أغراضــه. ثــم توصل لصنع مجموعة أدوات محســنة يســتعمل كل واحدة منهــا لأداء وظيفــة معينة. ونســتطيع أن نقــول في هذا الصدد إن إنســان العصر الحجري مضى في تقدمه وتطوره من البسيط إلى المعقد ومن مراحل عــدم التخصص إلى مراحل تتميز بدرجة عالية نســبياً من التخصص على نحو ما حدث لإنسان العصر التاريخي.

وعلــى ضوء المعلومات القليلة المتوافرة لدينــا عن العصر الحجري القديم نستطيع أن نقول إن صناعة الأدوات الحجرية مرت بأربع مراحل:

1- مرحلة الأدوات المصنوعة من رضف الأودية.

2- مرحلة الفأس اليدوية والأدوات ذات الحدين.

3- مرحلــة الأدوات الرقيقــة المصنوعة من شــظايا الظــران أو الصوان (Flakes).

4- مرحلة الأدوات الحجرية المصنوعة على شكل نصال.

وهذا التقسيم لا يعني أن كل مرحلة من هذه المراحل سادت فترة زمنية معينــة قضت فيها على المرحلة الســابقة لهــا نهائياً. بل الواقــع أن أدوات المرحلة الواحدة كانت تبقى مستعملة إلى جانب أدوات المرحلة التالية ما دام هنالك ما يدعو لاســتعمالها. لكن الاتجاه العام هو في الســير من البسيط إلى المعقــد كالبدء مثلاً بــالأدوات المصنوعة من رضف الأوديــة بتحديد أحد

الجانبين لاستخدامه في القطع أو البشر. ثم الترقي إلى صنع الأدوات ذات الحدين وهكذا. وقد اهتدى الإنسان إلى طرق مختلفة لصناعة أدواته الحجرية خلال العصر الحجري القديم الأدنى الذي شغل ثلاثة أرباع عصر البليستوسين فصار مثلاً يعد نواة من الصوان ثم يطرق عليها بنحو معين بكتلة أخرى فيشق منها الشظايا التي كان يشحذها أو يسننها على الشكل المطلوب. وبالإضافة إلى هذا التطور فإن أهم اكتشاف اهتدى إليه الإنسان في هذا العصر هو معرفة استعمال النار وإشعالها أو إخمادها.

العصر الحجري القديم الأوسط (180000 – 80000 ق. م.)

في هذا العصر طور الإنسان الأساليب الصناعية القديمة وارتقى بها إلى درجة الإتقان فصارت الأدوات المصنوعة من الشظايا تنتج بكثرة ويخصص كل منها لأداء وظيفة أو وظائف معينة. كما ظهرت لأول مرة صناعة عظام بدائية. وسكن الإنسان في هذا العصر الكهوف ودفن موتاه عن قصد لأول مرة في تاريخه. وقد وجدت آثار إنسان هذا العصر في أوروبا وغربي آسيا والهند وإفريقيا مما يشير إلى أن الأفكار والمفاهيم الجديدة التي كانت تكتشف في منطقة ما كانت تنتقل بسرعة معقولة إلى المناطق الأخرى من هذا العالم. وكانت كثافة السكان في هذه الفترة قليلة كما إنهم كانوا يعيشون على شكل جماعات صغيرة متفرقة.

العصر الحجري القديم الأعلى (80000 – 10000 ق. م.)

هذا العصر الذي تعادل مدته حوالي عشر مدة العصر الحجري القديم هو القسم الثالث والأخير من الأقسام الرئيسية للعصر الحجري القديم وهو الفترة التي حقق الإنسان خلالها أعظم تقدم حضاري له؛ إذ إنه استغنى عن الأدوات الشظايا وعن الفؤوس اليدوية واستعمل بدلاً منها الأدوات النصال. وفي هذا العصر ظهرت أيضاً اختراعات أساسية عديدة من أمثال الخيط والإبرة وملابس الجلد والأدوات الحجرية والعظمية ذات المقابض، والرماح الخاصة بصيد الحيتان، وقاذفة الحراب، وأدوات خاصة بصيد الأسماك. ومن ناحية أخرى شاع استعمال العاج والعظام والقرون إلى جانب الصوان على

نطاق أوسع كثيراً مما كان عليه الحال قبل ذلك. وتجدر الإشارة هنا إلى أمر هام هو أن الأسس الفنية الأولى للرسم والنحت والنقش والطلاء إنما وضعت في هذا العصر. ثم ظهر الرقص وظهرت الموسيقى وصار الإنسان يستعمل الأقنعة ويقيم الحفلات كما إن المجتمع الإنساني صار ينظم على أسس أكثر تعقيداً من ذي قبل.

وفي هذا العصر اختفت الأنواع البدائية من البشر وحل محلها الإنسان العصري العاقل (Homo Sapiens) الذي يشبه إنسان العصر الحاضر.

وفي أوروبا الغربية تدل مخلفات إنسان هذا العصر وأدواته على أنه أقام مراحل متتابعة من الحضارة أعطى العلماء كل مرحلة منها اسماً مميزاً لها فسموا الأولى (hatelperronian) والثانية (Aurignacian) والثالثة (Gravettian) والرابعة (Solutrean) والخامسة (Magdalenian). وميزوا كل مرحلة من هذه المراحل بمجموعة من أنواع الأدوات التي استعملها الإنسان خلالها.

وقد حدث تطور مشابه للتطور الأوروبي الغربي في أوروبا الوسطى والشرقية وفي بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط بما في ذلك الشرق الأدنى، وكذلك في سيبيريا الوسطى. أما في الهند وفي شرق آسيا وشرق وجنوب إفريقيا فقد استمرت الأساليب الصناعية التقليدية القديمة التي كانت تعتمد على إنتاج الأدوات الحجرية من نواة معدة لذلك الغرض، وعلى إنتاج الأدوات الشظايا. وفي الواقع فإنه لا يبدو أن التقنية الجديدة المتقدمة قد انتقلت إلى هذه المناطق إلا بعد انتهاء العصر الحجري القديم بزمن.

العصر الحجري المتوسط (10000 – 7500) (Mesolithic ق. م.):

بدأ هذا العصر قبل حوالي عشرة آلاف سنة واستمر في أوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط حوالي 2500 سنة ممتداً إلى ما بعد مرحلة الزحف الجليدي. وفيه استمر الإنسان يتبع طرق جمع الفواكه وما إليها كما كانت الحال في العصر الحجري القديم. أمّا ففي بعض البلدان الأخرى من مثل جنوب إفريقيا وأستراليا وطسمانيا فقد استمرت طريقة الحياة التي كانت سائدة

في هذا العصر حتى العصر التاريخي. أما في أوروبا وشمال إفريقيا والشرق الأدنى فإن الأركيولوجيين يعرفون هذا العصر بأنه فترة واضحة تقع بين العصر الحجري القديم من ناحية والعصر الحجري الحديث من ناحية أخرى. ولكن حضارات هذا العصر المتوسط لا يجوز اعتبارها على أي حال حلقة تطور تربط بين هذين العصرين بل يجب اعتبارها تطويراً وتعديلاً تدريجياً لاقتصاد الصيد القديم حتى يتناسب والأحوال البيئية الناشئة عن تدافع الأقاليم ذات السلاسل الجبلة المرتفعة. وبالتدريج تغلغلت مؤثرات حضارية جديدة في غرب أوروبا من بلدان جنوب البحر الأبيض المتوسط حيث كانت جماعات حديثة من الصيادين قد أقامت سلسلة من الحضارات المرتبطة ترابطاً وثيقاً والتي تميزت أدواتها الرئيسية بأنها كانت عبارة عن قطع صوانية صغيرة ذات أشكال هندسية عرفت ميكروليث (Microliths) – وقد عرفت هذه الحضارات في الشمال الإفريقي باسم حضارة قفصة (Capsian) وحضارة وهران (Oranian). نسبة لوهران في الجزائر. ويدل تعدد الحضارات التي نشأت هنا وهناك في أوروبا وشمال إفريقيا وفي الشرق الأدنى خلال هذا العصر على تزايد سرعة النمو والتطور مما يجعل السجل الأركيولوجي من هذا الحد فصاعداً أكثر تعقداً وتشابكاً[14].

العصر الحجري الحديث (3000 – 7500) (Neolithic ق. م.):

لقد أتم الإنسان في العصر الحجري المتوسط بناء اقتصاد قائم كلية على جميع المواد الغذائية (جمع الفواكه والحبوب واقتناص الحيوانات والطيور وصيد الأسماك). وحدث بعد هذه الحقبة وخلال العصر الحجري الحديث تطور أدى بالإنسان إلى تغيير طريقة حياته تغيراً كلياً ذلك أنه أصبح مزارعاً يعتمد في اقتصاده على إنتاج المواد الغذائية بدلاً من جمعها. وصار يصنع الأوعية الفخارية ويربي الماشية والحيوانات التي استأنسها في هذا العصر كما إنه حسن أدواته الحجرية إلى درجة الإتقان.

ولعل الفخاريات هي أكثر مخلفات إنسان هذا العصر فائدة لنا في

14- The Encyclopedia Americana, International Edition (Vol. I – Africa, Vol. II – Archacology), American Corporation, New York, 1966.

التعرف على تاريخه. ذلك أن قطع الفخار لا تندثر كلية كما إنه يمكن التعرف عليها دون صعوبة. وتأتي العظام بعد الفخاريات في الأهمية فنحن نعرف مما اكتشف منها. بالرغم من صعوبة التمييز بين عظام الحيوانات الأليفة وغير الأليفة. أنه استأنس البقر والنعاج والماعز والخيل والكلاب. ونستدل على اكتشافه للزراعة بالحبوب المتحجرة والمتفحمة وبأحجار الطواحين والأدوات الحجرية الزراعية. وتدل المخلفات الآركيولوجية على أن المزارعين ومربي الماشية بدأوا بعد وقت غير طويل يبنون قبور موتاهم من الطين والحجارة. ويحصنون قراهم. ثم بدأوا يشيدون المعابد.

عصر المعادن:

صهر الإنسان النحاس في الشرق الأدنى في وقت لا يتأخر عن سنة 3000 ق. م. كما أنه صهر الذهب والفضة وربما الرصاص أيضاً في الأناضول بعد ذلك التاريخ. ولكن النحاس بقي المعدن الوحيد المستخدم في التكنولوجيا القديمة إلى ما بعد سنة 2000 ق. م. ولما كان اختراع الكتابة يعتبر بداية للعصر التاريخي سنة 3000 ق. م. فإن معظم عصر النحاس في الشرق الأدنى يقع في العصر التاريخي. وكانت الكتابة قد ظهرت في بابل ومصر حوالي سنة 3000 ق. م. ثم انتشرت خلال الألف التالي في جميع أرجاء الشرق الأدنى وفي كريت. ولا يزال العديد من الآركيولوجيين يقسمون العصر التاريخي إلى:

1- عصر البرونز من 3000 ق. م. إلى 1400 ق. م.

2- عصر الحديد من حوالي 1400 ق. م. إلى مطلع تاريخ الميلاد.

ويؤخذ على هذه التسمية أنها بالنسبة للبرونز تتضمن استعماله قبل ظهوره إذ إن البرونز الحقيقي (نحاس ممزوج بـ 10 % من التنك) لم يستعمل قبل سنة 1800 ق. م. وإن كانت محاولات تقوية النحاس وإكسابه صلابة بمزجه بالتنك قد تقدمت على هذا التاريخ. وبنفس الطريقة فإن الحديد الذي صهر في آسيا الصغرى حوالي سنة 1500 ق. م. أنما انتشر ببطء. إلى بقية الشرق الأدنى ولم يشع استعماله في مصر إلا في العصرين البطلمي

والرومانـي. وعصر المعادن في ليبيا يخص العصر التاريخي ولذلك سنؤجل الحديث عنه إلى موضع آخر من هذا الكتاب.

في إفريقيا وليبيا:

تميز العصر الحجري القديم في إفريقيا بمجموعات متنوعة من الأدوات الحجرية بعضها يمثل التطور المحلي والبعض الآخر يشبه إلى حد كبير أمثاله في أوروبا. ولقد بدأ هذا العصر في إفريقيا في وقت ماكر من عصر البليستوسين واستمر في بعض مناطقها إلى وقت حديث. أما عصر المعادن فقد بدأ في مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط خلال الألف الثاني قبل الميلاد ولكنه بقي في إفريقيا مقصوراً على المناطق الواقعة شمال الصحراء الكبرى ولم يتجاوزها إلى الجنوب إلا في مطلع سني الميلاد. وقد ظل رجال الغابات في جنوب غربي إفريقيا يستعملون الأدوات الحجرية حتى قبل مائتي سنة فقط. وفي الشمال الإفريقي أو المناطق الإفريقية الواقعة شمالي الصحراء الكبرى سارت حضارة عصر ما قبل التاريخ على النمط الذي سارت عليه في أوروبا فما لبثت الفأس الحجرية اليدوية أن استبدلت بنصال وأدوات بشر مصنوعة من شظايا الصوان ثم تطورت تلك النصال والأدوات إلى أدوات ذات حدين وبشارات تصنع من نواة صوانية معدة خصيصاً لهذا الغرض. ثم أضيفت إلى كل ذلك أدوات ذات مقابض عثر على بعض منها في برقة وقدر العلماء أنها ترجع إلى حوالي سنة 34000 ق. م. وهي دون شك من صنع الإنسان العاقل الذي كان لا يزال يحتفظ بصفات تدل على أنه انحدر من الجنس البشري الإفريقي الذي كان يعيش في المنطقة منذ منتصف عصر البليستوسين.

وحوالي سنة 30000 ق. م. أو سنة 28000 ق. م. قامت على ساحل برقة حضارة مغايرة لما سبقها وتميزت باستعمال النصال الصوانية الطويلة. وكان صناع النصال من نوع الإنسان العاقل وربما قدموا إلى المنطقة من جنوب غرب آسيا. وقد كانوا صيادين يعيشون على الكبش البربري والغزال وحمار الوحش وبقر الوحش مكيفين أنفسهم وحضارتهم الآسيوية لتتلاءم

مع البيئة الجديدة. وقد استمرت حضارتهم هذه حوالي اثنين وعشرين ألف سنة.

ولما كان العصر الحجري الحديث قد بدأ في الفيوم وفي وادي النيل في الألف الخامس قبل الميلاد فإن من المعتقد أن حضارة هذا العصر أخذت تمتد غرباً إلى برقة والشمال الإفريقي ثم جنوباً إلى غرب إفريقيا بعد حلول الجفاف الذي أدى إلى تكون الصحراء الكبرى سنة 2500 ق. م.

ولقد مرت ليبيا القديمة بالمراحل المختلفة لعصر ما قبل التاريخ وأقام الإنسان الليبي القديم الحضارات الحجرية متأثراً قليلاً أو كثيراً بحضارات جيرانه في الشرق والغرب.

وكما قلنا عن الصحراء الليبية إنها متحف فني كبير لعصور ما قبل التاريخ. نستطيع أن نقول عن ليبيا بحدودها الحالية إنها متحف آثار كبير لم تكتشف منه حتى الآن إلا زوايا قليلة. ولم يفتح من مغالق كنوزه الحضارية سوى النزر اليسير. إن دراسة أحوال ليبيا في عصر ما قبل التاريخ لا تزال موضوعاً بكراً بالنسبة لعلماء التاريخ وعلماء الأركيولوجيا على حد سواء؛ فقد ثبت أن قسطاً كبيراً من الآثار التي تم اكتشافها حتى الآن من مثل آثار مدينة جرما وقصر مارا وشرابا ولوروكو والحاسيا وزويلة. وما وجد فيها وحولها من قبور وأضرحة وقلاع منتشرة في وادي الآجال بفزان تعود جميعها إلى العصر التاريخي وإلى أيام الجرامنتيين على وجه التحديد (حوالي القرن الثامن قبل الميلاد) رغم ما وقع فيه بعض الكتاب من التباس فنسبوا الكثير منها إلى عصر ما قبل التاريخ كما فعل جيمس ويللارد[15].

العصر الحجري القديم الأدنى:

لعل أفضل ما نشر عن عصر ما قبل التاريخ في ليبيا حتى الآن هو كتاب: Prehistory and Pleistocene Geology in Cyrenaica, Libya لمؤلفيه (C.B.M. McBurney و R. W. Hey). فقد أظهر المؤلفان أن

15- ويللارد. جيمس. الصحراء الكبرى. مكتبة الفرجاني. طرابلس. ليبيا. الطبعة الأولى بيروت. نوار (مايو) 1967. ص 35.

ما تم كشفه من مخلفات آركيولوجية يثبت أن ليبيا مرت بجميع مراحل عصر ما قبل التاريخ. ففي شمال منطقة طرابلس بشكل عام وفي موقع بئر دوفان[16] بشكل خاص اكتشفت مخلفات من صناعة الفؤوس الحجرية اليدوية تدل على أن تلك الصناعة سادت خلال فترة ممطرة تتفق مع فترة انتشار هذا النوع من الصناعة في الصحراء الغربية وفي واحة الخارجة. واكتشف في توكرة ومواقع متفرقة من برقة في المدة الأخيرة مخلفات تدل على قيام حضارة العصر الحجري القديم الأدنى في ليبيا.

العصر الحجري القديم الأوسط:

أما حضارة العصر الحجري القديم الأوسط فقد أقيم الدليل على وجودها في ليبيا بملاحظة صناعات مختلفة هي:

1- صناعة الشظايا والأدوات الشظايا المحسنة وقد وجدت مخلفات لها في ثلاثة مواقع مختلفة في برقة.

2- صناعة أخرى قام بها الإنسان النياندرتال (Neanderthal) وهي تناظر الصناعة التي كانت قائمة في فلسطين في هذا العصر وتتشابه أدواتها مع الأدوات التي وجدت في جبل الكامل بحيفا في فلسطين. وفي الوقت ذاته فإن هذه الصناعة تعاصر بداية الزحف الجليدي الأخير في جنوب إيطاليا.

3- محاجر صنع الأدوات المحسنة قليلاً وهي تعاصر شبيهاتها من عهد الزحف الثاني للعصر الجليدي الأخير في جنوب إيطاليا.

والدليل الناصع الآخر هو اكتشاف موقع الحاج كريّم[17] حيث وجدت أدوات حجرية لها ما يماثلها في فلسطين وأوروبا. وتدل عظام الحيوانات التي وجدت ضمن مخلفات هذا الموقع على أن الجماعة التي كانت تعيش فيه كانت

16- قرب أحد مصبات رافد من روافد وادي مردم الذي هو رافد لوادي سوفجين وعلى بعد مائة كيلومتر من الشاطئ.

17- على الضفة الشرقية لوادي جحام قبل التقائه بوادي درنة وتحت ضريح المرابط سيدي الحاج كريم الذي سميت المنطقة باسمه وعلى بعد ستة كيلومترات ونصف الكيلومتر من الشاطئ.

تقتني تلك الحيوانات لأكل لحومها. وأهم هذه الحيوانات هب البقر والغزلان وحمر الوحش والسلاحف البرية والكباشُ البربرية.

وقد وجدت أدوات حجرية تشبه أدوات موقع الحاج كريم في وادي الناقة وعين مارا ومواقع أخرى غربي درنة وفي رأس عامر على ساحل برقة وفي وادي مردوم ووادي غان وسفوح جبل نفوسة بمنطقة طرابلس.

العصر الحجري القديم الأعلى:

وبالنسبة لحضارة العصر الحجري القديم الأعلى جاء اكتشاف حفقة الضباع في وادي الكوف إثباتاً قاطعاً لقيام هذه الحضارة في ليبيا. وتتماثل المخلفات التي وجدت في هذا الكهف مع ما وجد من مخلفات هذا العصر في فلسطين وسوريا من ناحية ومع ما وجد من مخلفات حضارة قفصة في تونس من الناحية الأخرى. وقد دل التحليل الكربوني على أن مخلفات هذا الكهف ترجع إلى حوالي سنة 14000 ق. م.

وهنالك كهف آخر هام هو كهف حفقة الطيرة (كهف الطيور) الذي اكتشفه سنة 1937 م. الآركيولوجي الإيطالي السنيور بتروكي (Signor C.T. Petrocchi). وتكمن أهمية هذا الكهف في أن محتوياته من الأدوات الحجرية والعظام وغيرها من المخلفات وجدت على ما تركت عليه دون أن تمتد إليها يد العبث. وفي أنه يحتوي أدوات يرجع بعضها إلى العصر الحجري القديم الأوسط بينما يرجع البعض الآخر إلى العصر الحجري القديم الأعلى[18].

ومن مخلفات هذا العصر ما وجد في موقع «هوا الفتايح» بالقرب من أبولونيا (= سوسة). وقد دل التحليل الكربوني لمخلفاته على أنها تعاصر مخلفات حفقة الضباع وحفقة الطيرة.

العصر الحجري المتوسط:

أما العصر الحجري المتوسط فإن ما اكتشف من أدواته في ليبيا قليل ولا

18- حفقة الطيرة كهف من الحجر الكلسي الذي تكون خلال عصر الميوسين وهو يقع في الطرف الشرقي من سهل برقة الساحلي وعلى بعد عشرة كيلومترات إلى الداخل من بنغازي وهو يفتح إلى الجنوب الغربي.

يكفي لإعطاء صورة عن الحضارة الليبية القديمة في هذا العصر. وبالرغم من ذلك فإن الإنسان الليبي القديم الذي مر بمراحل العصر الحجري القديم كلها لابد وأن يكون تابع تطوره فمر بهذا العصر. ولقد اكتشف حول خليج سرت أدوات تعود إلى قبيل العصر الحجري الحديث كما اكتشفت أدوات حجرية في وادي غان وعلى بعد خمسة عشر كيلومتراً إلى الجنوب من غريان ترجع إلى قبيل بدء العصر الحجري الحديث. وعلى الضفة الأخرى لهذا الوادي ومقابل الموقع المذكور اكتشفت أدوات حجرية تدل أيضاً على أن صناعها إنما عاشوا عشيةالانتقال إلى العصر الحجري الحديث. بالإضافة لذلك فقد اكتشفت أمثلة لصناعات هذا العصر في مواقع أُخرى متفرقة في ليبيا من الجبل الغربي حتى الجبل الأخضر.

العصر الحجري الحديث:

إن المكتشفات الآركيولوجية في واحة سيوة وفي شمالي منطقة طرابلس وفي برقة مضافة إلى أحدث ما تم التوصل إليه في مصر والمغرب تشير كلها إلى أن ليبيا كانت خلال هذا العصر تنقسم إلى منطقتين حضاريتين تتميز الواحدة منهما عن الأخرى: المنطقة الغربية وتشمل كل الأرض الليبية الواقعة إلى الغرب من خليج سرت، والمنطقة الشرقية وتشمل كل الأرض الليبية الواقعة إلى الشرق من ذلك الخليج[19]. وقد كان يغلب على المنطقة الغربية الطابع الإفريقي كما إنها كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحضارات نيجيريا والسودان والنيل الأعلى في هذا العصر. وقد أيد هذا الرأي ما تم اكتشافه من مخلفات شبيهة بمخلفات هذه المنطقة في جبال الهجار وتبيستي. ولقد وجدت في جبل نفوسة وفي سهل الجفارة بمنطقة طرابلس أدوات يرجع تاريخها إلى مرحلة متأخرة من العصر الحجري الحديث لحضارة قفصة[20]. أما المنطقة الشرقية فهي بواحاتها وما فيها من أماكن

19- يؤيد هذه القسمة امتداد تأثير حضارة قفصة العليا إلى المنطقة الغربية من ليبيا عبر سهل الجفارة، وانعدام ذلك التأثير تقريبا في المنطقة الشلاقية. وذلك بالإضافة لخصوبة الجفارة من ناحية وقحولة المنطقة الجنوبية الشرقية لخليج سرت من الناحية الأخرى.

20- حضارة قفصة الدنيا والعليا انتشرت في مساحة تبلغ مائة وعشرين ألف كيلومتر مربع تقريباً على السفوح الجنوبية الشرقية لكتلة جبال أطلس. فهي بذلك حضارة داخلية

صالحة للسكن تشكل مثلثاً يقع إلى الشمال والشمال الشرقي من بحر الرمال الليبي وتمتد من الجبل الأخضر غرباً إلى الفيوم شرقاً ومن شاطيء البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى واحة الخارجة جنوباً. وفي هذه المنطقة نشأ طراز مستقر من الحضارة أقامته جماعات بشرية منتجة للغذاء منذ حوالي بداية الألف الخامس قبل الميلاد. وربما كان هذا التحول الحياتي إلى إنتاج المواد الغذائية بدلاً من جمعها ناجماً عن اتصال حضاري بين أبناء المنطقة الأصليين الذين كانوا يعيشون على الصيد وجمع الغذاء وبين جماعات طارئة منتجة للغذاء قدمت من جنوب غرب آسيا. وقد أكد المؤلفان: (C.B.M. Mc Burney) و (R.W. Hey)[21] قيام حضارة مستقلة إلى حد كبير في المنطقة الشرقية من ليبيا ابتداء من المراحل المتأخرة من العصر الحجري المتوسط على الأقل عندما كان إنسان هذه المنطقة لا يزال يعتمد في معيشته على الصيد وجمع المواد الغذائية وحتى نهاية العصر الحجري الحديث. والقول بقيام حضارة مستقلة في المنطقة الشرقية من ليبيا يجب ألا يعني أن تلك الحضارة كانت في عزلة تامة عن الحضارات المجاورة وإنما يجب أن يعني أنها كانت حضارة لها شخصيتها الخاصة بها وأنها كانت تؤثر في الحضارات المجاورة وتتأثر بها محتفظة بشخصيتها الخاصة طيلة الوقت. ونحن نلاحظ أن أدوات العصر الحجري الحديث التي وجدت في هذه المنطقة الشرقية من ليبيا كالسهم المفوّق والعصا ذات السطوح الثلاثة وصناعة الشظايا بالضغط تشبه نظائرها بقية ساحل الشمال الإفريقي. وأقوى تقارب بين حضارة هذه المنطقة والحضارات المجاورة إنما كان بينها وبين المرحلة الثانية من حضارة الفيوم بمصر. ولقد اشتدت النزعة الاستقلالية لهذه الحضارة في الفترة ما بين انتهاء العصر الحجري الحديث وعهد استبدال الأدوات الحجرية بأدوات من مواد أُخرى. ولذلك فإنها لم تتأثر خلال تلك الفترة تأثراً يذكر بالحضارات المجاورة، بل من الأرجح أن حضارة النيل المتقدمة على هذه

قامت بمعزل عن الساحل التونسي الذي كانت تقوم على امتداده حتى خليج قابس في الشرق وحتى المحيط الأطلسي في الغرب حضارة وهران المعاصرة لحضارة قفصة العليا.

21- McBurney, C.B.M. & R.W., Prehistoryy and Pleistocene Geology in Cyrenaica, Libya, Cambridge University Press, 1955, p. 261.

الحضارة الليبية أخذت عنها الكثير[22]. أما سكان الواحات من ليبيا الشرقية فقد كانوا – كما هم عليه اليوم – شديدي المحافظة. ولذلك فإنهم لم يقتبسوا إلا القليل من تقنية الحضارات المجاورة. ولقد سبقت الإشارة إلى أن الرسوم والنقوش الصخرية الموجودة في مختلف أرجاء الصحراء الليبية دلّت على أنه كان يسكن تلك الصحراء في العصر الحجري الحديث رعاة بقر مسلحون بالقوس والنشاب وأنهم وصلوا درجة معقولة من التقدم الفني وتعرضوا لعدة مؤثرات خارجية.

والمعروف أن صناعات العصر الحجري الحديث في شمال غربي إفريقيا نمت من صناعات العصر الحجري القديم الأعلى عن طريق التطور التدريجي وتحت مؤثرات أجنبية مصرية. والعصر الحجري القديم الأعلى عن طريق التطور التدريجي لشمال غربي إفريقيا هو آخر فترة من عصر ما قبل التاريخ إذ يبدأ بعد ذلك خاصة في المناطق الساحلية – العصر التاريخي الحقيقي بنزول الفينيقيين في مطلع الألف الأول قبل الميلاد في هذه المنطقة. وبتأثير الفينيقيين صارت دائرة العصر التاريخي تتسع ممتدة شرقاً وغرباً وجنوباً واستمرت كذلك في العهود الروماني والبيزنطي والعربي. أما المناطق الداخلية والصحراوية فقد ظلت في عصر شبه تاريخي (Protohistoric) يمكننا أن نقول إنه بدأ بعصر هيرودوتس (القرن الخامس ق. م.) وانتهى بالفتح الإسلامي[23]. وبالنسبة لبرقة نستطيع أن نقول إنها عاشت في العصر التاريخي منذ بدء احتكاكها بالحضارة المصرية في عهد الدولة القديمة ولكنها لم تدخل العصر التاريخي الحقيقي إلا بعد نزول الإغريق فيها في القرن السابع قبل الميلاد.

22- Wulsin, Frederick, R., The Pre-Historic Archaedogy of Northwest Africa; Museum of American Archaeology and Ethnology, Haravard University, Vol; XIX – No.1, 1941, pp 96-99.

23- المرجع السابق، ص 99 وما يليها.

الفصل الثاني

ليبيا من فجر التاريخ حتى مقدم الإغريق والفينيقيين

ليبيا في فجر التاريخ

إن العقبة الرئيسية في سبيل دراسة تاريخ ليبيا القديم تكمن في كيفية تناول ذلك التاريخ نظراً لتشعبه، وانحصار مصادره، وتفاوت وجود تلك المصادر بالنسبة لمنطقة أو لأخرى. ولقد سبقت الإشارة[24] إلى وفرة المصادر الخاصة بمنطقتي برقة وطرابلس وندرتها بالنسبة للدواخل.

وتنوع علاقات الليبيين مع غيرهم من الشعوب أدى إلى تنوع تاريخهم من ناحية وتنوع مصادره من ناحية أخرى: ولذلك فنحن نجد تاريخ برقة مرتبطاً بتاريخ المصريين والإغريق والرومان على الترتيب، ونتيجة لذلك الارتباط فإن مصادر تاريخ برقة لا تتعدى أن تكون مصرية أو إغريقية أو رومانية، بينما احتكت بالإغريق احتكاك الند بالند، ثم بالوندال فالبيزنطيين؛ وعلى ذلك فمصادر تاريخها تكاد تكون تنحصر في المصادر الرومانية والإغريقية لأن الفينيقيين والوندال لم يتركوا مصادر تذكر. أما منطقة فزان فلا نجد عنها إلا النزر اليسير الذي ورد هنا وهناك في كتب التاريخ والجغرافيا والأدب لمؤرخين وجغرافيين وأدباء من العصر الكلاسيكي. ومما يزيد في صعوبة دراسة تاريخ فزان أن آثارها، بعكس ما عليه الحال بالنسبة لآثار برقة وطرابلس، خربت ونهبت عبر العصور من ناحية، ولم تكتشف وينقب عنها بما فيه الكفاية من الناحية الأخرى مما أدى إلى إبقاء تاريخها غامضاً وخالياً من التفاصيل.

وتسهيلاً للدراسة والبحث رأيت أن ألجأ إلى تقسيم التاريخ الليبي القديم إلى العصور التالية مع التأكيد أنه ليس هنالك حاجز زمني أو مادي يفصل بين عصر وعصر لأن الحياة لا تتوقف عند نهاية عصر لتبدأ من جديد في العصر الذي يليه بل تستمر في جريانها بغض النظر عن الظروف والعصور، فنجد نتيجة لذلك أن التاريخ يستمر في جريانه كذلك بحيث يسلم كل واحد من عصوره للذي يليه:

أ- تاريخ منطقة برقة، ويقسم إلى ما يلي:

24- - انظر ص 22.

1- من فجر التاريخ حتى حوالي سنة 631 ق. م. وهي السنة التي اتفق على أن الإغريق أسسوا فيها مدينة قورينة (= شحات).

2- تاريخ منطقة برقة في العهدين الإغريقي والبطلمي حتى سنة 97 ق. م. وهي السنة التي اوصى فيها بتوريث برقة للرومان.

ب- تاريخ منطقة طرابلس ويقسم إلى ما يلي:

1- من فجر التاريخ حتى بداية القرن السادس قبل الميلاد عندما أقام الفينيقيون أول محطة تجارية لهم في صبراته على الساحل الطرابلسي.

2- تاريخ منطقة طرابلس منطقة من بداية العهد الفينيقي (القرن السادس ق. م.) حتى سنة 46 ق. م. وهي بداية العهد الروماني في هذه المنطقة بعد وقوعها في يد يوليس قيصر في أعقاب انتصاره في معركة ثابسوس (رأس الديماس بتونس).

ج- تاريخ فزان ويقسم إلى ما يلي:

1- من فجر التاريخ حتى مقدم الجرامنتيين حوالي سنة 800 ق. م.

2- من مقدم الجرامنتيين حتى بدء العصر الروماني.

د- ليبيا في العهد الروماني الذي انتهى في منطقة طرابلس باحتلال الوندال لها سنة 445 م. أي بعد احتلالهم لقرطاجة بست سنوات.

ه- طرابلس في عهد الوندال من سنة 445 م. إلى سنة 534 م. وهي السنة التي انتعهى فيها حكم الوندال باستسلام ملكهم جليمر للقائد البيزنطي بليزاريوس.

و- طرابلس في العهد البيزنطي من سنة 534 م. حتى سنة 644م. وهي سنة الفتح العربي.

ز- برقة في العهد البيزنطي من سنة 305 م. عندما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وبيزنطية حتى سنة 643 م. وهي سنة الفتح العربي.

ح- فزان منذ حريق جرما سنة 395 م. حتى الفتح العربي سنة 644 م.

وقبل أن نبدأ بدراسة التاريخ الليبي القديم على أساس المخطط السابق، يجدر بنا أن نتوقف هنيهة عند عدد من المبادئ الأساسية التي ستساعدنا على فهم وتفسير الكثير من المواقف المعقدة في التاريخ الليبي. وبوسعنا أن نجمل تلك المبادئ فيما يلي:

1- إن الإنسان القديم لم ينشأ لديه إحساس واع بالشعور بالانتماء إلى وطن معين أو أمة معينة إلا بعد أن تحضر وأقام الإمبراطوريات والدول الكبيرة. وهذه مسألة سهلت عليه الهجرة من مكان لآخر وفقاً لأمنه ومصلحته وظروفه.

2- إن طبيعة الحياة البشرية في العصور القديمة كان يتحكم فيها قانون الغاب ومبدأ الحياة للإصلاح. ولذلك فإن الغارات والحروب كان يرافقها دائماً سبي النساء والأطفال واسترقاق الرجال وبالتالي امتزاج الأجناس.

3- إن الهجرات البشرية كانت ظاهرة عامة فلم تسلم منطقة مأهولة في العالم القديم من التعرض لموجات عاتية من الهجرات البشرية المتتالية الناجمة عن أسباب كثيرة مختلفة لا مجال لبحثها هنا.

4- إن البلدان المختلفة كانت تتفاوت في مدى تعرضها للهجرات والغارات تبعاً لأهمية موقعها الجغرافي من ناحية. وما فيها من مصادر الرزق من ناحية أخرى، وكثافة سكانها ومستواهم واتحادهم أو تفرقهم وقدرتهم أو عجزهم بالنسبة للوقوف في وجه المغيرين أو المهاجرين من ناحية ثالثة.

فإذا نحن طبقنا هذه المبادئ على ليبيا خرجنا بالصورة التالية: إن ليبيا كانت دائماً قليلة كثافة السكان وبالتالي ضعيفة القوة. وما زاد في ضعفها غلبة الطابع البدوي على سكانها، وتسلط النظام القبلي على أبنائها، مما حال دون قيام وحدة حقيقية بينهم وسهل على المغيرين أو المهاجرين التغلب عليهم. وهي كذلك واسعة الرقعة، ممتدة إلى أكثر من ألفي كيلومتر على ساحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبي في مواجهة أوروبا، ومتعمقة في القارة الإفريقية تعمقاً جعلها رئة لإفريقيا الوسطى وخاصة السودان.

ولذلك فإن تأثرها بأوروبا واتصالها بها وتأثرها بإفريقيا الوسطى واتصالها بها، وتأثرها بمصر المجاورة لها من الشرق واتصالها بها كانت أموراً حتمية لا مفر منها. فإذا أضفنا لما ذكر صعوبة المواصلات في العصور التاريخية القديمة، أدركنا سبب عدم قيام سلطة مركزية قوية في هذه البلاد تصد عنها غارات المغيرين، وسيل المهاجرين القادمين من المناطق المجاورة: من أواسط القارة الإفريقية في الجنوب، ومن الشمال من جزر البحر الأبيض المتوسط والبلدان الأوروبية الواقعة على ساحله الشمالي في مقابلة الساحل الليبي الطويل وغير البعيد، ومن الشرق عبر مصر أو عبر البحر الأبيض المتوسط. ومن الغرب من جبال الأطلس التي يسهل النزول منها إلى الأراضي الليبية المنبسطة. ولعل أحدث مثل للهجرات الكبرى هو هجرة قبائل بني هلال وبني سليم في القرن الهجري الخامس، وأحدث مثل للغزو الخارجي هو الغزو الإيطالي سنة 1911 م.

برقة من فجر التاريخ سنة 631 ق. م.

تتناول هذه الفترة من التاريخ الليبي القديم دراسة العلاقات الليبية – المصرية، ومصادرنا عنها تكاد تنحصر في النقوش والمخطوطات المصرية. ولابد أن تقرر منذ البداية أن العلاقات الليبية – المصرية كانت قائمة منذ أقدم الأزمنة ولكنها كانت علاقات عداء وغزو في معظم الأوقات إن لم نقل طيلة الوقت؛ وعلى هذا فإن مصادر التاريخ الليبي لهذه الفترة مصادر معادية كما هي الحال بالنسبة لمعظم مصادر التاريخ الليبي القديم بأسره. ومن هنا فإن أحداً لا يستطيع أن يدعي أن المخطوطات والنقوش المصرية تكون سجلاً كاملاً لعلاقة الليبيين بالمصريين في الفترة موضوع البحث، ولكنها على أي حال تعطي صورة تكفي لإثبات قيام تلك العلاقات وتبين نوعها. وتجدر الإشارة إلى أن المصريين كانوا يخرجون دائما منتصرين على الليبيين لأن التقليد الذي كان سائداً عندهم هو أن يسجل الملك أو الفرعون أخبار انتصاراته وأمجاده وليس كل تاريخه. وقبل الخوض في هذا الموضوع لابد من الإشارة إلى عاملين مهمين كان لهما أثر بالغ في خلق العلاقات الليبية – المصرية وفي تقرير طابعها العدائي، وهما: الجفاف التدريجي المتزايد الذي أصاب الديار الليبية منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، ثم الاضطراب السكاني الذي أصاب أواسط أوروبا في وقت لاحق وأسفر عن تدافع الشعوب الأوروبية وقدوم موجات متتالية منها نزلت في الشمال الإفريقي ابتداء من الساحل التونسي شرقاً حتى نهاية ساحل المغرب الأقصى على المحيط الأطلسي غرباً، ولم تلبث إلا قليلاً حتى بدأت تضغط على القبائل الليبية المجاورة لها من الشرق.

فإذا نحن تذكرنا ما سبق تبيانه من أن الصحراء الليبية كانت تزخر بالحياة في عصر ما قبل التاريخ، ثم بدأت تتحول تدريجياً إلى ما هي عليه الآن نتيجة لحلول الجفاف الحاد المتزايد في مناخها من ناحية وللدمار الذي ألحقته حيواناتها بأشجارها ونباتاتها من الناحية الأخرى، أمكننا أن نتصور أن الليبيين بدأوا منذ ذلك العهد السحيق يهاجرون من منطقتهم باتجاه مصر في الشرق لأن ذلك الاتجاه كان السبيل الوحيد الذي بقي مفتوحا

أمامهم إذ إنه لم يكن بوسعهم أن يبقوا في الداخل لجفافه كما أنه لم يكن بوسعهم أن يتجهوا إلى الغرب بسبب وعورة جبال أطلس من ناحية وبسبب ضغط «أقوام ما وراء البحر» التي هبطت تلك المنطقة فيما بعد من ناحية أخرى. وطبيعي أن يكون زحف الليبيين باتجاه مصر هرباً بحياتهم من منطقتهم المنكوبة إلى المنطقة المجاورة. وطلباً للرزق والأمن. ولما كان وادي النيل الدافئ الخصيب يمتد كواحة كبرى بين رمال الصحارى القاحلة التي تحيط به. فإن خضرته ومياهه العذبة كانت دون شك تشكل إغراءَ جباراً للقبائل الليبية المجاورة. ومن هنا فإن المهاجرين الليبيين لابد أن يكونوا نزلوا وادي النيل على شكل هجرات متتالية في عصر ما قبل التاريخ وفي العصر التاريخي. وقدومهم لوادي النيل على هذه الصورة لا يمكن أن يكون اتخذ طابعاً غير طابع الغزو والعنف لأن غايتهم من الهجرة كانت الاستيلاء على المواد الغذائية والأسلاب وربما الاستيطان. وكان هؤلاء المهاجرون لا يلبثون أن يمتزجوا بالسكان الأصليين حتى يذبوا فيهم ليصبحوا عنصراً في تكوين الأجيال المصرية التالية. ومن الطبيعي والحالة هذه ان يقف المصريون القدماء موقف الدفاع عن أنفسهم وأرزاقهم وبلادهم فيحاولوا صد المغيرين من الغزاة المهاجرين. وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى مهاجمة القبائل الليبية في مواطنها قبل انقضاضها على واديهم تطبيقاً للمبدأ القائل إن الهجوم الوقائي هو خير وسيلة للدفاع.

في عهد الدولة القديمة (3200 – 2300 ق.م.):

لقد وجدت مخلفات أثرية ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات في مصر وتشهد على قيام اتصال بين الليبيين والمصريين: فقد عثر على مقبض عاجي لسكين في جبل العركي مقابل نجع حمادي في مصر يرجع تاريخه إلى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد وقد نقشت على أحد جانبيه معركة برية بحرية بين فريقين واضح أن أحدهما مصري والآخر يشبه أن يكون ليبياً بسبب القراب الذي يرتديه أفراده لستر عوارتهم ولأنهم أرسلوا شعورهم الطويلة وجعلوا جدائل منها تنسدل على جانب الرأس وهذه كلها صفات تقرب من الصفات التي رسم بها المصريون الليبيين في العصور اللاحقة.

وقد وجدت أيضاً لوحة الملك الوجه القبلي الملقب بالعقرب وعليها أربعة صفوف من النقوش الأفقية تظهر في الثلاثة الأولى منها صور ثيران وحمير وكباش وفي الرابع صورة تشبه أن تكون شجرة زيتون وأمام الشجرة نقشت علامة تدل على كلمة تحنو مما قد يعني أن الملك عقرب خاض حرباً ضد التحنو وسجل ما غنمه منهم على لوحته تلك.

وفي مطلع عهد الأسرات عاد اسم التحنو للظهور مصورا بالهيروغليفية فقد وجدت في الكوم الأحمر إلى الشمال من إدفو بصعيد مصر أسطوانة عاجية نقش عليها اسم الملك نعرمر (Narmar) كما صور هذا الملك وهو يجلد جماعة من الأسرى نقش فوق رسمهم اسم التحنو[25]. وعلى آثار الملك عجا. خليفة نعرمر. إشارات كثيرة إلى حروب مع الليبيين كما أن اسم التحنو يتكرر في نصوص الأسرتين الثانية والثالثة (2778 – 2723 ق. م.) باعتبارهم قوما كان على فراعنة هاتين الأسرتين أن يتصدوا لهم فراعنة هاتين الأسرتين أن يتصدوا لهم ويضعوا حداً لهجماتهم. وقد روى مانيثو (Manetho)[26] أنه في بداية عهد الأسرة الثالثة ثار الليبيون في ممصر على الملك نفرقرع (Nefer-ka-ra) ولكنهم سرعان ما ألقوا أسلحتهم لتشاؤمهم من ازدياد حجم القمر زيادة غير طبيعية. وقد تكون هذه الرواية مجرد رواية موضوعة ولكن ليس هنالك ما ينفي احتمال أن يكون مانيثو قد نقلها عن كتاب أقدم منه. على أي حال لا نلبث بعد انتهاء عهد الأسرة الثالثة إلا قليلاً حتى نسمع عن نزاع مؤكد بين الليبيين والمصريين وعن احتكاك بين الليبيين وجيرانهم زنوج الجنوب فها هو الملك سنفرو. مؤسس الأسرة الرابعة (2723 – 2563 ق. م.) يقوم بحملة ضد الليبيين فيأسر منهم أحد عشر ألفاً ويغنم ثلاثة عشر ألفاً ومائة رأس من الماشية ويسجل

25- انظر: برستد. ج: ه: تاريخ مصر. ص 47. حيث ينص على أن الملك نعرمر قام في مطلع عهد الأسرات بإخضاع ثورة ليبية في الدلتل وأسر مائة وعشرين ألف ليبي كما غنم أربعمائة ألف رأس من المواشي – ويخالف أوريك بيتس برستد في هذه المسألة ويقول إنه يعتقد أن الذين قاموا بتلك الثورة كانوا مصريين من الدلتا وليس ليبيين.

26- مانيثو كاهن مصري عاش في عهد بطليموس الثاني فيلادلفوس وكتب تاريخ مصر بالإغريقية. وقد وصلت أجزاء منه في كتب المؤرخين العرب واليهود وخاصة تاريخ المؤرخ اليهودي يوسف.

كل ذلك على حجر بالرمو. ومن أهم النصوص التي تتحدث عن النزاع الليبي – المصري بعيد هذه المرحلة نقوش الملكين (ني – أوسر – رع) و (سحورع) من ملوك الأسرة الخامسة (2563 – 2423 ق. م.) وهي نقوش سجلها كل من الملكين على جدران معبده في قرية أبي صير وسجل فيها انتصاراته على الليبيين. ويتبين من أوضاع نقوش سحورع أن التحنو الليبيين الذين هزمهم ذلك الملك كانوا يعيشون إلى الجنوب من ممفيس (ربما في وادي النطرون والفيوم). وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرؤساء الليبيين كانوا في هذه الرحلة المبكرة من تاريخهم يتحلون بحلي شخصية تمتاز في صنعها عن مثيلاتها حتى في المراحل اللاحقة. وقد وردت في نقوش سحروع عبارة «ضرب تحنو» كما رسمت فيها الثيران والحمير والأغنام وقطعان الماعز التي غنمها هذا الملك ورسمت فوقها وتحتها صور أسرى التحنو الليبيين يرسفون في الأغلال كما نقش فوقهم اسما إقليمين من أقاليمهم هما «باش» و«بكت». ورسمت كذلك خلف أسرة أمير التحنو صورة إله الغرب وصورة الإله «عش»، إله بلاد التحنو. وهما يقدمان للملك سحورع خيرات البلاد الأجنبية. ولنقوش معبد الملك سحورع هذه قيمة أخرى مهمة لأنها تعطينا الكثير من التفصيلات عن التحنو فهم يظهرون فيها، رجالاً ونساء، قوماً طوال القامة، سمر البشرة، تتهدل فوق أكتافهم شعورهم السوداء الطويلة المتموجة، وتزين جباههم خصل من الشعر تميزهم عن غيرهم، وتظهر وجوههم نحيفة، ووجناتهم ناتئة، وشفاهم غليظة، كما يتميز رجالهم بلحي قصيرة تنتهي بطرف مدبب وتحدد شكل الفك بصورة واضحة. أما الزي فهو ذاته للرجال والنساء إذ يرتدي كل من الرجل والمرأة شريطين عريضين من الجلد يتقاطعان على الصدر، ويتمنطق بحزام مزين بخطوط عمودية وأخرى أفقية وينتهي من الأمام بقراب يستر العورة. وتحيط بالعنق بنيقة مرتفعة نسبياً تتدلى منها بعض الأشرطة. وكان رجال التحنو يتميزون عن نسائهم بما كانوا يتحلون به من ذيول الحيوانات كما يتميزون عن غيرهم من الليبيين بعدم وضع الريشة أو الريشتين في شعورهم. أما أطفالهم فلم يكونوا يرتدون الحزام أو قراب العورة أو ذيل الحيوان.

وخلال الألف الثالث قبل الميلاد كان شعب جديد من أقوم ما وراء البحر، يتميز بالبشرة البيضاء والشعر الأشقر قد استقر في ليبيا ووطد مكانته فيها. وقد فطن المصريون لما بين هؤلاء الليبيين الجدد والليبيين الآخرين من فروق فسموهم «التمحو» أي الشقر[27]. وقد ورد ذكر هذه القبيلة لأول مرة في النصوص المصرية في عهد الملك ببي الأول من الأسرة السادسة (2420 – 3280 ق. م.) عندما نسمع أن الجيش المصري الذي سار بقيادة «وتي» لمقاتلة القبائل الآسيوية كان يضم بين فرقه فرقة من مرتزقة «التمحو». ثم ورد ذكرهم ثانية في عهد الملك مرنرع، من هذه الأسرة أيضاً، وذلك في النقوش التي خلفها حرخوف، التاجر والرحالة المصري، على قبره في جزيرة الفنتاين (فيلة) قرب أسوان، ودل فيها وهو يسرد أخبار رحلته إلى أرض «يام» (جنوب وادي حلفا) إنه وصل أرض التمحو إلى الغرب من «يام». وفي رحلته الثالثة إلى درب الأربعين في طريقه إلى دارفور بالسودان قال هذا الرحالة إنه سافر على درب الواحات ورأى قبيلة من زنوج «يام» تزحف على قبائل التمحو الذين كانوا يعيشون في غرب مصر. «وإن رئيس «يام» كان ذاهباً إلى أرض التمحو ليضرب التمحو حتى الركن الغربي من الأفق، فذهبت في أثره، وأدخلت السكينة على نفسه».

في عهد الدولة الوسطى (2300 – 1580 ق. م.):

وقامت حروب أخرى بين الليبيين والمصريين في عهد الدولة الوسطى بمصر، ففي عهد الأسرة الحادية عشرة نسمع أن الملك إنتف (Intef)، أول ملوك هذه الأسرة، كان يملك بين كلاب صيده كلباً باسم ليبي مما قد يدل على أنه كان أرسل إليه ضمن جزية كان الليبيون يؤدونها له. وفي عهد خليفته منتوحتب (Mentuhotep) الأول تمكن المصريون من هزيمة الربو (Rebu) والتحنو – ولكن هذه الحروب لم تكن عامة أو على نطاق واسع وإنما كانت غزوات أو غارات تقوم بها القبائل الليبية تقابلها غارات مصرية مضادة. ونحن نقرأ عن غارة من هذا النوع في مطلع قصة سنوحي (Sinuhe) أحد

27- كانوا يقيمون في منطقة تقع إلى الغرب من منطقة التحنو وينتشرون على طول ضفة النيل الغربية وقد استقرت جماعة منهم في المنطقة الواقعة بين الشلالين الأول والثاني.

قادة الملك «أمنمحات» الأول (1961 – 1991) (Amenemhat I ق. م.): فقد أرسل هذا الملك ابنه وشريكه في الملك «أسرتسين» (سنوسرت) الأول (Usertesen 1) إلى الغرب للإغارة على الريبو. يقول سنوحي:

« انظروا لقد بعث جلالته جيشاً لجباً ضد الليبيين تحت إمرة نجله الأكبر، الرب الكريم أسرتسين. والآن ها هو أسرتسين يعود من الغزو وهو يجر وراءه أعداداً من الأسرى الليبيين أحياء، وأعداداً لا تحصى من المواشي...»

ويبدو أن هذه الغزوة كانت حقيقة لأن صداها تردد حتى العصر الإغريقي اللاحق – وقد أشار إليها ديودورس الصقلي بقوله: «إن الأمير الشاب أسرتسين أُرسل إلى بلاد الغرب ثم أخضع قسماً واسعاً من ليبيا» وربما كان الرسم الممتاز لهذا الأمير في متحف القاهرة على هيئة الغرفين (gryphons)[28] يدوس الجنوبيين والليبيين بقدميه إنما هو تذكار لهذه الغارة.

ولعل مما يلفت النظر عند هذا الحد أن المصريين هم الذين كانوا يتعدون في هذه الفترة وليس الليبيين كما حدث من قبل وكما سيحدث فيما بعد. فنحن نسمع أن الليبيين كانوا متأثرين بعظمة القوة المصرية إلى حد أنه في السنة الرابعة والثلاثين من حكم أسرتسين الأول قام أحد ضباطه وأسمه إتنديدي (Itendidi) برفقة نخبة قليلة من الجنود بزيارة «لأرض سكان الواحات» أي الليبيين. ولم يكن هدف هذه الزيارة معروفاً ولكن يبدو أنها كانت بمثابة استعراض للعضلات المصريو فقط. ويبدو أن الليبيين كانوا يحترمون القوة المصرية ويهابونها مهابة حقيقية خلال عهد الأسرة الثانية عشرة فقد تمكن أحد ضباط الملك أسرتسين الثالث (1887 – 1850 ق. م.) أن يجلب لملكه «منتجات التحنو الجديدة اعتماداً على شهرة جلالته العظيمة». كما أن هذا الملك ذاته صور نفسه وهو يهزم أحد الليبيين. ولعل هذا العامل، مضافاً إليه استقرار التحمو في مصر وعلى حدودها الغربية، وبالتالي عزوفهم عن المناوشات، يفسر ضآلة المعلومات عن الليبيين طيلة القرون الثلاثة التي تلت عهد الملك أسرتسين الثالث وحتى مطلع عهد الأسرة الثامنة عشرة (1580 – 1320 ق. م.) عندما يبدأ نزاع متواصل بين

28- حيوان خرافي نصفه العلوي نسر ونصفه السفلي أسد.

الليبيين والمصريين يستمر طيلة عهد هذه الأسرة.

في عهد الدولة الحديثة (1580 – 1085 ق. م.)

وأول ما نسمعه عن هذا النزاع يرد على لسان أحد المسؤولين المصريين في عهد الملك أمنحوتب الأول (1557 – 1530 ق. م.) عندما يذكر أنه أسر باسم الملك «ثلاث أيدٍ» من قبيلة إموكهك (Imukehek) في الشمال. وقد يكون هذا إشارة لمهاجمة هذه القبيلة للمقاطعات الغربية من الدلتا مما حمل الملك أمنحوتب الأول على مهاجمتها وهزمتها وتخليد انتصاره عليها على لوحة تصوره ملوحاً بسيفه وقد جثا عدوه عند قدميه. وفي عهد تحتمس الثالث قدم الرؤساء الليبيون من الواحات الجنوبية والشمالية الجزية كما أن أخته وزوجته وشريكته الملكة حتشبسوت (Hqtshepsut) حصلت جزية ضخمة من التحنو كانت تتألف « من كمية من العاج ومن سبعمائة سن فيل ومن عدد كبير من جلود الفهود الجنوبية». وباختصار فإن هيبة المصريين في عهد الملكة حتشبسوت والملك تحتمس الثالث بلغت في نفوس الليبيين حداً جعل «نهي Nehi» حاكم مقاطعة كوش في السنة الثالثة والعشرين من حكم الملك يمجد تلك الهيبة بقوله: « إن بلاد التحنو تخضع للملك بسبب شهرة جلالته، وتأتي حاملة جزيتها علة ظهورها إعراباً عن الولاء والطاعة ... كالكلاب، راجية أن توهب لها نسمة الحياة». ويفهم من نصوص أخرى أنه لم تحدث في عهد هذا الملك غارات ليبية على الحدود المصرية، ولكن اضطراب الجبهة الداخلية في مصر إثر ثورة إخناتون (1370 1352- ق. م.) الدينية شجع الليبيين على استئناف هجماتهم على مصر غير أن الملك حور محب تصدى لهم وأكد قوة مصر وسيطرتها على حدودها الغربية. وفي منتصف عهد الأسرة الثامنة عشرة شن الملك أمنحوتب الثالث حرباً ناجحة ضد التحنو وأخذ منهم أسرى كثيرين شغلهم فيما بعد في بناء إحدى القلاع المصرية – ويظهر أن الليبيين القريبين من الحدود المصرية كانوا قد أخضعوا نسبياً في أيام الملوك المحاربين في أوائل عهد الدولة الحديثة.

ولم تتوقف هذه المناوشات بقدوم الأسرة التاسعة عشرة بل ازدادت كما أن تغلغل الليبيين في الدلتا تزايد إلى حد أن الملك سيتي الأول ((Seti I[29] 1298 – 1318 ق. م.) أحس في بداية حكمه أن مصر ستواجه عما قريب تهديداً حقيقياً من الغرب. ولذلك فقد قام هذا الملك بحملتين كبيرتين قادهما بنفسه ضد الليبيين، قبل قيامه بحملته على سوريا. وقضى السنة الثانية من حكمه يحاربهم في الدلتا حتى انتصر عليهم في النهاية «وركعت بلاد التحنو على ركبتيها أمام الفرعون» فأخذ منها أسرى كثيرين تقدمة للإلهة آمون (Amon) بالإضافة للجزية المعهودة. وسجل أخبار ذلك على جدران الكرنك. ولو أن هذا الملك المحارب القدير تابع انتصاراته متوغلاً في ليبيا إلى الغرب بدلاً من التحول إلى سوريا في الشرق لتغير مجرى التاريخ الليبي - المصري فيما بعد. ولكن عمله الذي لم يتم لم يكن حرباً حاسمة بل كان مجرد حلقة أخرى في سلسلة حروب الردع التي كانت مصر تشنها على القبائل الليبية بين الفينة والأخرى. وبسبب ذلك استعاد الليبيون نشاطهم في أيام ابنه وخلفه رمسيس الثاني (Rameses II). ولكن حروب رمسيس الثاني ضد الليبيين غامضة وإن كانت هنالك آثار مختلفة تدل على انتصاره عليهم: فعلى معبد أبي سمبل نرى رمسيس الثاني واقفاً فوق جسم ليبي مطروح على الأرض وهو يطعن ليبياً آخر بحربته. ولعل أهم ما نذكره نقوش الآثار بالنسبة لهذه الحروب هو ظهور عنصر «الشردن Sherden» (= السردينيين) البحري حليفاً لليبيين في غاراتهم على مصر. وبعد حين نجد رمسيس الثاني[30] يستخدم الشردن كمرتزقة في جيشه ليصد بهم غارات

29- صور هذا الملك على مقبرته أجناس العالم الأربعة التي كان المصريون قد عرفوها. وكان شعب التمحو من بينها. وتدل هذه الرسوم على أن التمحو كانوا من البيض ذوي العيون الزرقاء أو السوداء والشعور الشقراء المزينة بجدائل صغيرة بعضها مرسل إلى الخلف والبعض الآخر على الجبهة. وكان الرجل منهم برخي لحيته ويطلق شاربه ويضع رشتين في رأسه. أما ملابسهم فكانت عبارة عن عباءة فضفاضة من الجلد تغطي الكتف الأيمن وأعلى الذراع ثم تعقد على الكتف الأيسر عقدة عريضة وتترك الذارع الأيسر مكشوفاً. والعباءة مزخرفة بألوان مختلفة كما أن ذيلها محلى بشريط عريض مخطط – وتحت العباءة يظهر قراب العورة كما أن السيقان والأذرع تبدو محلاة بأشكال معينة من الوشم كثيراً ما تظهر بينها العلامة الخاصة بالإلهة الليبية نيت.

30- Breasred, James Henry, A History Of Egypt, 2nd edition, Hodder and Stoughton, London 1959, Book VI, p. 424, «Sheden or Sardinians… were taken into Ramses II>s army in considerable numbers».

الليبيين وحلفائهم من الشردن الآخرين. وهو من أجل تحقيق هذه الغاية يبدأ بإقامة سلسلة من الحصون في الصحراء الغربية تمتد مسافة (341) كيلومتراً بين راقودة وزاوية الرخم. وكان أهمها حصن راقودة وحصن ماريا (جنوب بحيرة مريوط) والغربانيات والعلالمين. ثم ينصرف لمواصلة حروبه في سوريا التي لم يكن من الممكن ان يختل ميزان القوى فيها دون إلحاق الاذى بمصر. ورغم النصر الذي أحرزه رمسيس الثاني على التحنو وحلفائهم من الشردن وسجله على لوحة «تانيس» إلا أنه كرر خطأ والده عندما أكتفى بصدهم وردعهم. وهم الذين كانوا خطراً على مصر في أيام والده حين كانوا وحدهم. فكيف بهم الآن في عهده بعد أن تحالفوا مع الشردن من شعوب البحر؟ إننا قد لا نخطئ إذا اعتبرنا حروب الليبيين مع رمسيس الثاني مقدمة للغزوات الكبرى التي تلتها وهي أكبر أحداث التاريخ الليبي في عهد الاسرتين التاسعة عشرة والعشرين. وتلك الغزوات حسب الترتيب الذي ظهرت به الآثار المصرية هي:

1- الغزوة التي وقعت في السنة الخامسة من حكم الملك مرنتباح (منفتاح) (Merneptah) سنة 1227 ق. م. وقد سجلت أخبارها أربعة مصادر أصلية هي: نقوش الكرنك الكبيرة. عمود القاهرة. لوح إسرائيل. وأنشودة النصر – وقد وصف العلامة برستد هذه الغزوة بأنها كانت «واحدة من اخطر الغزوات ... التي تعرضت لها مصر في تاريخها»[31]. وقد وقعت في أواخر مارس في السنة الخامسة من حكم مرنتباح وهو في الثالثة والستين من عمره. وتفيد نقوش الكرنك أن مصر قبل توليته «كان جزء من ارضها غير معتنى به. وقد ترك ليكون مرعى للماشية بسبب» أقوام الاقواس التسعة» (الليبيين). وقد تركت خراباً منذ زمن الاجداد. وكل ملوك الوجه البحري ظلوا وسط مدنهم محصورين في القصور الحكومية لقلة الجنود...». وقد تزايد التهديد الليبي من جديد وكان المغيرون من الليبيين يكتسحون الحقول المصرية استمرار حتى ضفاف النهر العظيم حيث كانوا

31- المرجع السابق ص 466 – 478.

يقضون أياماً بل أشهراً يسرحون ويمرحون في الارضي المصرية باحثين عن مقومات معيشتهم. وفي هذه المرحلة الحرجة تحالفت القبائل الليبية ضد مصر وهددت مدينة هليوبوليس مما دعا الفرعون الطاعن في السن إلى التشمير عن ساعد الجد للوقوف في وجههم وحماية رعاياه من خطرهم.

وقد بدأت هذا التحالف الليبي – البحري قبيلة الربو بزعامة رئيسها مريي بم دِد (Meryey son of Ded) في موطنهم إلى الغرب من التحنو المتاخمين لمصر، وانضمت إليهم قبائل «إكوش Ekwesh» و «ترش Teresh» و «لوكا Luka» والشردن «Sherden» والشكلش «Shekelesh» و «شماليون قادمون من جميع البلاد». وبهذه القوات المتحالفة هاجم الربو التحنو وأجبروهم على الانضمام إليهم[32]. وكان التحالف قد أبرم في شهر مارس، وبدأ الزحف شرقاً في شهر إبريل من السنة نفسها. وأمر مرنبتاح في الثامن من إبريل «بتجهيز الحشد العظيم في «مبر Meber»[33] حيث احتشد خير رماته، وجيء بعرباته الحربية من كل مكان. فهو لم يكن يهتم بمئات الآلاف في أيام القتال. وسار مشاته يتقدمهم المقاتلون بالسلاح الابيض، وكان مظهرهم جميلاً وهم زاحفون، ومن ورائهم رماة النبال، ضد كل البلدان». وكان الملك قد جمع رجال بلاطه، وكان جلالته «ثائراً كالأسد» وقد خطب فيهم قائلاً « ... إنكم تنزعجون كالطيور ... هل ستخرب البلاد ... وأقوام الاقواس التسعة قد أتوا إلى أرض مصر ليبحثوا عن طعام لبطونهم...؟» وفي الخامس عشر من ابريل – نيسان تواقف الجيشان في مكان اسمه «بر – إر» (Perire)، في الدلتا الغربية[34] الجيشان وجهاً لوجه بدأ المشاة المصريون والعربات المصرية الحربية بالهجوم. وعندما أصبحت

32- كان التحنو غير ميالين للعنف نتيجة للردع الذي لقوه على أيدي الملكين رمسيس الثاني وسيتي الأول.

33- مكان معروف حتى الآن.

34- - اقترح احد المؤرخين الالمان ان هذه المجابهة حصلت في مكان في جنوب الفيوم بينما اقترح بعض المؤرخين الاخرين أنها كانت بجوار كفر الزيات – وذكر الدكتور مصطفى كمال عبد العليم في كتابه دراسات في تاريخ ليبيا القديم أنها كانت في موقع (بر – إر) على حافة وادي النطرون إلى الشمال الغربي قليلا من منف. ووجود كلمة (RWD) في النص المصري يؤكد وقوع المجابهة على حافة الدلتا الغربية لأن هذه الكلمة لا تستعمل إلا في الحديث عن الدلتا. أما مكان المعركة بالضبط فلا يزال غير معروف.

مقدمة جيش الحلفاء في مرمى السهم أمطرهم الرماة المصريون طيلة ست ساعات بوابل من سهامهم التي كانت تفوق في مداها وقوتها سهام الليبيين. ونتيجة لذلك دبت الفوضى بين صفوف الليبيين وبدأوا يتراجعون. وحاول مريي عبثاً أن يعيد تنظيمهم، إذ لم يلبث تراجعهم أن تحول إلى هزيمة فراح الفرسان المصريون يطاردونهم بينما استمروا هم «يمعنون في الهرب تاركين طلائعهم خلفهم، ولم تثبت أقدامهم بل أمعنت في الهرب بينما ألقى رماتهم قسيهم، وتعبت قلوب العدائين منهم لكثرة العدو، فألقوا بقرب الماء التي كانوا يحملونها لشربهم». واستمرت القوات المصرية تطاردهم حتى «جبل قرون الأرض» أي الحافة الجبلية المطلة على الدلتا من الغرب. وقتل من الحلفاء (6200) من الليبو و(2370) من رجال البحر، وأسر منهم جميعاً (9367) أسيراً، وكان بين القتلى ستة من أبناء مريي وعدد من أقربائه وضباطه، بينما «سبيت أمام ناظري الرئيس الليبي المهزوم اثنتا عشرة امرأة من حريمه اللواتي كان قد اصطحبهن معه». واجتاح المصريون المعسكر الليبي وأشعلوا النيران في خيامه، كما استولوا على أمتعة الأمير مريي الخاصة بما فيها فضته وذهبه وأوانيه البرونزية وأثاث حريمه وعرشه وقسيه وسهامه وكل ما كان قد أحضره معه من بلاده بالإضافة إلى ثيرانه وغنمه وحميره. وكانت الغنائم التي استولى عليها المصريون ضخمة وقد أدرجت في قائمة على الوجه التالي:

الأدوات الحربية التي كانت بأيدي المغيرين

سيوف المشواش النحاسية (1119)

أسلحة ليبية صغيرة (412021)

الخيول التي حملت الأمير الليبي المهزوم

أطفال الأمير الليبي وقد أخذوا أحياءهم واثنتا عشرة من زوجاته

مواشٍ متنوعة (8031) رؤوس

ماعز

أواني شرب من الفضة

أوان مختلفة (4713)

قسي (0002)

واستطاع مريي أن ينجو بنفسه من تلك الكارثة بأعجوبة. وكان وحيداً أو مع عدد قليل من أتباعه. ونجد على لوح إسرائيل هذه الكلمات في وصف هربه: «هرب الرئيس الليبي التعيس المهزوم وحيداً تحت جنح الظلام دون ريشة على رأسه. ... ولم يكن في قربته من الماء ما يكفي لإبقائه على قيد الحياة». وأثناء هربه مر بمركز مصري على الحدود يدعى «قلعة الغرب» وقد علم ضابط القلعة بهرب الرئيس الليبي وبإفلاته وبعث للبلاط المصري بتقرير عن الحادثة جاء فيه:

مريي المهزم مر من هنا.

وقد هربت أطرافه بسبب جبنه.

لقد اجتاز عني بسلام.

تحت جنح الظلام.

إنه مهزوم.

وكل الآلهة تقف مع مصر.

ولا يعرف ما إذا كان هذا الأمير قد مات.

أم ما إذا قد بقي على قيد الحياة.

لكنه إن عاش.

لن يتمكن من تولي القيادة من جديد؛

لأنه أصبح عدواً حتى لجنده أنفسهم.

فقد ولوا على أنفسهم أميراً غيره.

واحداً من إخوته.

وهذا الأمير الجديد سيحارب مريي حينما تقع عليه عيناه.

وقد اشمأز كل الرؤساء من مريي.

والاسطر الاخيرة من هذا التقرير تلقي ضوءاً على الاوضاع التي كانت تسود ليبيا بعد الهزيمة فها هو مريي كغيره من زعماء البربر القدماء يكتشف أن سلطته على قومه كانت تتوقف على نجاحه العسكري. أما وقد فشل فقد انقلب عليه رجاله في حنقهم على ما أصابهم من مصائب تحت زعامته. وأطاحوا به. ولم يبقوا على حياته الا احتراماً لامارة أسرته. وكان «العداء ظاهرا على ملامح إخوته الذين ارادوا أن يفتكوا به. كما أن قادته كانوا في صراع ضد بعضهم البعض ... وعندما وصل إلى بلاده كان كل واحد في البلاد ناقماً عليه. وكان هو يتعثر في خزيه ويسير مطأطئاً رأسه بعد أن أطار الحظ السيء الريشة التي كانت تزدان بها هامته. وكان أهل بلدته جميعاً يتحدثون ضده قائلين: «لقد وقع تحت أيدي الالهة. ملوك ممفيس. وقد لعن ملك مصر اسم مريي ولقبه (بغيض ممفيس). وهذه وصمة لاميرنا ستبقى في مصر تتناقلها الاجيال جيل عن جيل إلى الأبد».

وكان هذا الامير المنكود يسمع في كل مكان الثناء على عدوه الفرعون مرنبتاح الذي أصبح مضرب المثل في ليبيا حتى صار الشاب الليبي يقول للآخر: «لم يسبق لنا أن أصبنا بمثل ذلك منذ زمن رع». ويقول كل شيخ مسن لأبنه: «واحسرتاه لليبيا». أما رجال القبائل «فقد توقفوا عن الاستمتاع بالحياة والسير في الحقول. فقد شلت حركتهم تلك في يوم واحد. كما أن مستوطناتهم أضحت مهجورة وصاروا يقولون: «إن الاختفاء جميل وإن السلامة في الكهوف».

ومن الناحية الأخرى ساد مصر شعور بالارتياح. وحماس شديد. واعتراف بالجميل للفرعون مرنبتاح. وقد سجلت هذه الظاهرة على لوح إسرائيل كما يلي: «لم تعد تسمع في الليل صيحة: قف! انظروا هاهو أحدهم قادم. إنه يتكلم لغة أجنبية! ... ولقد هدأت الأحوال في الحصون من جديد. أما ذلك الذي يزرع زرعه فإنه بالتأكيد سيكنيه وسيأكله». وجاء في أنشودة النصر التي كتبت بعد هزيمة مريي: «... لقد أشرق السرور العظيم على مصر. ولنبعث الفرح من بلدان مصر. وتحدث الناس عن الانتصارات التي احرزها

مرنبتاح على التحنو ... آه وإنه يجلس الانسان ليتحدث، والناس تغدو وتروح ثانية دون وجود أي عائق في الطريق، وليس هنالك أي خوف في قلوبهم ... وقد تركت المعاقل وشأنها وأصبحت الآبار مفتوحة، ومسالكها سهلة، ومعاقل الأسوار أصبحت هادئة، لا يوقظ حراسها إلا الشمس ... وليس هناك صياح بليل: «قف .. قف، بلغة الأجانب».

ويبدو أن مرنبتاح أتبع ننصره الحاسم بحملات آنية ضمنت له تحصيل الجزية من أعدائه، وقيل إنه «توغل في أراضي التحمو». وسواء قام مرنبتاح بغزوات إلى الأراضي الليبية أم لم يقم، فقد قنع المصريون بانتصارهم وتفوقهم ولم يقوموا بحملة كبرى على جيرانهم الليبيين تكفي لطرد الربيو بعيداً إلى الغرب بحيث تؤدي بهم إلى الضغط على جيرانهم من الغرب، وإن كانوا ربما قاموا بحملات صغيرة متفرقة – وعلى أي حال فقد كان انتصار مرنبتاح رادعاً لليبيين إلى حد أنه كان كافياً لإراحة مصر من غزواتهم لأمد طويل لو أن مصر لم تغرق في فترة من الفوضى الداخلية في أعقاب وفاة مرنبتاح مما أدى إلى إضعاف الأمبراطورية، وانحطاط الروح العسكرية، وتشجيع الليبيين من جديد على محاولة دخول وادي النيل بقوة السلاح. ولكن لسوء حظهم جاءت محاولتهم هذه متأخرة إذ إن الفرعون «ستناخت Setnakht» النشيط كان قد أسس الأسرة العشرين وتلاه في تأسيسها وترسيخها في الحكم الفرعون القوي الطموح رمسيس الثالث الذي بعث الحياة في البلاد من جديد.

2- حروب رمسيس الثالث (1198 – 1166 ق. م.) الأولى ضد الليبيين:

لقد وجد الكثير من النقوش على الآثار المصرية فيما يتعلق بحروب رمسيس الثالث ضد الليبيين، ولكن ما احتوته من معلومات جاء مضطرباً إلى حد أن العلامة برستد لم يكن راضياً عن ترجمته هو نفسه للنقوش الموجودة على جدران المعبد الكبير لرمسيس الثالث وهو المعروف بمعبد مدينة هبو في طيبة الغربية مقابل مدينة الأقصر. وهذه النقوش هي المرجع الرئيسي لحروب رمسيس الثالث هذه.

والحرب الأولى منها وقعت بين الليبيين ورمسيس الثالث في السنة الخامسة من حجمه (1194 ق. م.) أي بعد انتصار مرنبتاح على الليبيين بثلث قرن. وكما حدث في حالة الحرب السابقة فإن الجولة الجديدة تقدمها تسلل أعداد من الليبيين إلى مصر حتى «صار الليبيون والمشواش يعيشون في مصر بعد أن نهبوا مددن الشاطئ الغربي». وهكذا فقد استؤنفت الهجرة الليبية عبر حدود الدلتا الغربية، وصارت عصابات من قطاع الطرق الليبيين تتجول بين المدن في المنطقة الواقعة ما بين ممفيس وشاطئ البحر الأبيض . وفي هذا الظرف المعقد المضطرب بينما كان «ستناخت» ومن بعده رمسيس الثالث يبذل كل ما في وسعه لاعادة النظام والحياة للبلاد، وبينما كانت الجاليات الليبية تتغلغل في الدلتا، وقعت في سوريا وآسيا أحداث خطيرة حفزت الليبيين في النهاية على تكرار محاولة أميرهم مريي التي حدثت قبل ثلث قرن من الزمن؛ وكانت تلك الاحداث عبارة عن اضطرابات في الشمال أدت إلى الزحف الكبير الذي قامت أقوام متعددة منهم إلى الجنوب تحت ضغط جيرانها في الشمال؛ وكان من بين تلك الاقوام: «الثكل Thekel» و(البليست Peleset) (= الفلسطينيون في الانجيل، وكانوا قد استقروا قبل ذلك في جزيرة كريت اليونانية) والدنين (Denyen) والوشش «Weshesh» والشكلش «Shekelesh» والشردن (Sherden). وبدأ الثكل والفلسطينيون يتحركون جنوباً وشرقاً كما أن عدداً من المغامرين منهم بدأوا يغيرون على شواطئ الدلتا. وكان من الطبيعي أن تلتقي مصالحهم مع مصالح مع مصالح الليبيين مما أذكى في نفوس الليبيين الحماس لتلك المطامح التي كان مرنبتاح قد أخمدها إلى حين.

وكان مريي بن دِد قد عزل وعين بدلاً منه أحد إخوته. وقد ورد فيما كتبه رمسيس الثالث، ثاني ملوك الأسرة العشرين، في بردية هاريس أنه نظم قوى مصر على شكل طوائف كان من جملتها «جنود كهك الذين لا يحصون» ثم يرد في هذا النص قوله: «... كان الليبيو والمشواش يسكنون مصر، وقد نهبوا مدن الشاطئ الأيمن من منف حتى كربن (Kerben)[35] ... وبلغوا

35- قرب قرية أبي قير.

ضفتي النهر العظيم ... تأمل. لقد أهلكتهم وأخضعت المشـواش والليبيو والإسبت والكيكش والشاي والهس والبكن». وسجل هذا الملك. على جدران معبـده الكبير في طيبـة الغربية أخبار حربه هذه ضـد الليبيين حيث قال: «لقد أتى أهل بـلاد التمحو مجتمعين معاً في مكان واحد. ومعهم الليبيو والسبد والمشواش. غير أن خططهم حطمت ... وقد طلبوا رئيساً بأفواههم. غيـر أن ذلـك لم يكن في قلوبهـم ... وأن الإله الواحد الممتـاز هو الذي عرف خطة صائبـة ... ليجعل أهل الممالك الأجنبية يطلبـون بقلوبهم من الملك العظيم أن ينصب رؤسـاء لهم ... وكان جلالته قد ربى ولداً صغيراً من أرض تمحو وقد عضده بقوة ساعديه ونصبه رئيساً عليهم لينظم الأرض. وهذا ما لم يسمع به من قبل منذ بدأ الملوك».

نستنتج من النص السابق أن رمسيس الثالث تدخل في شؤون الليبيين وحـاول أن يفرض عليهـم ملكاً منهم ربـاه في مصر فرفـض الليبيون لأنه كان فـي نظرهم حاكماً مصريـاً وأدى هذا الموقف إلى نشـوب الحرب بينهم وبين رمسـيس الثالث. وقد ورد في نصوص هذه الحرب المنقوشـة على معبد رمسـيس الثالث المذكور أن هذا الفرعون تغلب على الرؤسـاء الليبيين «دِد» و «مشـكن» «Meshken» و «مريـي» و «ويرمـر Wermer» و «ثيمـر Themer» وكل رئيـس معـادٍ «اجتاز الحدود المصرية مـن ليبيا». ومما يلفت النظر في سـجل هذه الحرب ظهور اسمي «دِد» و «مريي» وهما إما أن يكونا اسمي الرئيسين السابقين اللذين قادا الحرب ضد مرنبتاح وعادا الآن بعد ثلاث وثلاثين سـنة ليشـاركا في غزو مصر من مصر جديد. وإما أن يكونا اسـمي شـخصين من نسـل الغزاة الأولين. وإما أن يكون الكتاب قد استخرجوهما من سجل مرنبتاح وأدخلوهما في سجل حرب رمسيس الثالث الأولى تمجيداً لـه. وتبدو الفرضية الأولى مسـتبعدة لأن مريي كان له سـتة أولاد كبار أيام حربـه مع مرنبتـاح فلو قدرنا أن عمره آنذاك كان أربعين سـنة وعمر والده دِد سـتين فإن من المستبعد أن نجدهما يعودان ليشاركا في الغزو وقد نيفا على السـبعين والتسـعين – والفرضية الثانية لا يسـتبعد وقوعها وإن كان من المشـكوك فيه أن نجـد اثنين من الأسـماء التي حاربت ضـد مرنبتاح يعودان

ليمثـلا في حرب جديدة – وتبقى الفرضية الثالثة وهي أكثر هذه الفرضيات الثلاث احتمالاً. ويؤيدها أن برسـتد رتب هؤلاء الأمراء زمنياً على النحو التالي: -1 دِد. -2 مشكن. -3 مريي (المخلوع). -4 ويرمر (معاصر لسيتي الثاني). -5 ثيمر (قائد الحرب الثانية)[36].

وتبدأ وقائع هذه الحرب تتأكد تاريخياً من اللحظة التي اتحد فيها التمحو وتحالـف معه الشكل والبلسـت[37] ضد مصر. وقد حدث هـذا عندما تجمعت قبائل الربيو (الليبيو) والمشـواش و «السبد Seped» وتحركت شرقاً لينضم إليهل «أقوام البحر» والليبيون الذين كانوا يقيمون في الدلتا من قبل. وعلى هذا الأسـاس فإن عدد المحاربين المتحالفين لم يكن يقل كثيراً عن ثلاثين ألفاً. وبـدأت الحرب بالغزو فخرب الغـزاة ريف الدلتا ونهبـوا مدنها من كربن حتى ممفيـس في الجنـوب بادئين من ناحيـة البحر والطريق السـاحلي لكي يبقوا علـى اتصـال بأقربائهم وحلفائهم. ولـم يلق الغزاة في بـادئ الأمر مقاومة تذكر فبدأو يخلدون للسـكينة والاسـتقرار. واعتبر «ثيمر» نفسـه مهمته منتهيـة. وفـي هذه الآونـة فوجيء الغـزاة بجيش رمسـيس الثالث ينقض عليهـم كالصاعقة فهزمهم هزيمة سـاحقة وقتل منهـم ما يزيد عن اثني عشـر ألف أكثرهم من أبناء البحر. وأسـر منهم حوالي ألف أسـير. ويظهر الملك رمسـيس الثالث على جدران مدينة هبو وهو يتطي عربته الحربية ومن

36- القرابة المحققة بين هؤلاء الأمراء الليبيين هي تلك التي يمكن اسـتخلاصها من سـجلات مرنبتاح كما يلي:

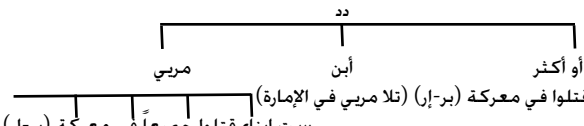

أما قرابة «مشكن» و «ويرمر» و «ثيمر» فهي غير معروفة.

37- انظـر أيضـاً: عبد العليم. مصطفى كمال. دراسـات في تاريخ ليبيا القديم. منشـورات الجامعة الليبية. المطبعة الأهلية. بنغازي. يناير 1966. ص 29. حيث يذكر أن النقوش المصرية لم تورد انضمام الشكل والبلست إلى الليبيين في هذه الحرب. ونحن مع تقديرنا لهذه الإشارة لا نرى أن سكوت النقوش المصرية ينفي إمكانية قيام التحالف المشار إليه خاصة ونحن نعرف أن التحالف بين الليبيين وأقوام البحر صار ظاهرة مألوفة قبل هذه الحرب وبعدها.

ورائه نبالته وسيافته وهو يطارد رجال القبائل. أما الاسرى فقد وسموا باسم الملك وأرسلوا ليستخدموا في الجيش أو وزعوا رقيقاً بين المعابد. ولا يعرف ما حدث لثيمر ولكن عدداً من مشتشاريه كانوا بين الاسرى الذين مثلوا أمام الملك. الذي حق له أن يفتخر بقوله: «لقد فللت هؤلاء الذين غزوا حدود بلادي وتركتهم منثورين في أماكنهم فوق أرض المعركة ... لقد أخضعت بلاد التمحو ... والمشواش. وتركتهم جميعاً يلتصقون بالأرض خشية مني».

أما بقية الغزاة فقد رضوا من الغنيمة بالإياب. ورضوا أن يستقروا في بلادهم ويخلدوا للهدوء والراحة. ولكن تلك الأسباب لم تهيأ لهم لسوء حظهم.

3- حرب رمسيس الثالث الثانية:

إننا نذكر أن الربيو. قبيل حربهم مع مرنبتاح. أرغموا جيرانهم التحنو على مشاركتهم في غزوهم لمصر. وها نحن نجد حادثة مشابهة لهذه تقع بعد انتصار رمسيس الثالث بست سنوات. إذ إن المشواش. المجاورين للربيو من الغرب. والذين يبدو أنهم قاموا بدور كبير في الحروب الليبية المصرية قبل عهد الأسرة العشرين وظهروا بأعداد كبيرة محالفة للربيو في الحرب الأولى ضد رمسيس الثالث. لم يرضوا بنتائج الحرب وصاروا يحتقرون الربيو المجاورين لهم في الشرق بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك فاستغلوا حالة الضعف التي أصابت قبائل الربيو والتحنو بعد هزيمتها على يدي رمسيس الثالث فانقضوا على هؤلاء بقيادة زعيمهم كبر «Kepper» وابنه مِشِشر «Meshesher» وغلبوهم وأخضعوهم لحكمهم. ولم يقنع المشواش بهذا النصر بل اغتروا به وبما سمعوه من قصص عن غنى مصر. وخيراتها من التحنو والربيو المغلوبين فأغراهم ذلك على القيام بحملة على مصر. وواضح أن تشجيع الربيو والتحنو للمشواش على غزو مصر كان يهدف إما إلى أخذ الثأر من مصر وإما إلى التخلص من المشواش بضربهم في المصريين. على أي حال استجاب المشواش للإغراء وكونوا حلفاً كالمعتاد كان من بين القبائل الداخلة فيه قبيلة اسبت «Esbet» وقبيلة شاي «Shai» وقبيلة بكن «Beken» وقبيلة كيكش «Keykesh» وقبيلة هس «Hes». وربما

كان الحلفاء في هذه المرة قد توصلوا إلى نوع من التفاهم مع العموريين في سوريا. لأن هذه الغزوة الليبية والحرب العمورية ضد رمسيس الثالث وقعتا في السنة الحادية عشرة من حكمه (1187 ق. م.) وتظهر على جدران معبد هبو نقوش تبين هذا الفرعون وهو يقود ملك العموريين والرئيس الليبي معاً أمام الاله آمون. ومثل هذا التفاهم بين الليبيين والعموريين كان من الممكن أن يتم بسهولة بواسطة الثكل الذين كانوا حلفاء لليبيين في حرب السنة الخامسة من حكم رمسيس الثالث. كما أنهم في هذه الحرب الثانية وقفوا إلى جانب العموريين في سوريا دفاعاً منهم عن قراهم ومدنهم هناك من مثل مدينة دور «Dor».

وفي وقت متأخر من السنة الحادية عشرة من حكم رمسيس الثالث زحف حلف القبائل الليبية على مصر وقد عقدوا النية على احتلالها وكانوا على حد تعبير النقوش الأثرية يقولون: «إننا سنقيم في مصر. كانوا جميعاً يقولون. ثم أخذوا يعبرون الحدود المصرية فوجاً إثر فوج». وربما كان عبور الحدود على هذا النحو لاغراض الاستطلاع ولجس نبض العدو وتلمس مدى قوته واستعداده. ويبدو أن القسم الرئيسي من القوات المتحالفة لم يصطدم بأية مقاومة حقيقية حتى وصل إلى معقل «هاتشو Hatsho» (في الدلتا على بعد أحد عشر ميلاً من حافة الصحراء الغربية) وبدأوا بحصاره. وهنا. كما تدل آثار مدينة هبو. انقض عليهم رمسيس الثالث بنبالته وعرباته الحربية. وكان النبالة يسيرون في المقدمة ومن ورائهم كتائب المشاة التي كانت تنتظر حتى يفرق النبالة صفوف الأعداء, وبدأ الهجوم فوجد المشواش وحلفاؤهم أنهم كأسلافهم عاجزون عن الصمود في وجه المصريين الذين راحوا يضيقون عليهم الخناق في نفس الوقت الذي كانت فيه النيران تنصب عليهم من الحصن الذي دارت رحى هذه المعركة تحت أسواره. فاختلت صفوفهم ولاذوا بالفرار غرباً باتجاه حافة الصحراء.

أما كبر. منكود الحظ. فقد وقع أسيراً وسلم نفسه وسلاحه وجنده. وكان يستغيث بالسماء من أجل ابنه مششر – ولكن استغاثة كبر لم تستجب فقد قتل ابنه في المعركة وقتلت معه زوجة أبيه وأسرته. وبلغ

عـدد القتلى من الحلفاء في هـذه المعركة (2175) قتيلاً كما بلغ أسـراهم (2025) أسـيراً. وقد نقشـت على جدران معبد رمسيس الثالث في مدينة هبو التفاصيل التالية عن هذه الحرب:

الأسرى الذين ساقهم سيف الفرعون القوي من بين المشواش المغلوبين:

رؤساء المشواش	1 (رجل)	
رؤساء من الأعداء	5 (رجال) [**هل كان هؤلاء زعماء القبائل الخمس المتحالفة؟**]	
مشواش	5021	(رجال)
شباب	251	
أولاد	131	
المجموع	4941	
زوجاتهم	243	(امرأة)
شابات	56	
فتيات	151	
المجموع	855	

مجمـوع ما أخذه سـيف الفرعون القوي من الأسـرى الأحيـاء (2025) شخصاً.

أما الغنائم التي تم الاستيلاء عليها فكانت كما يلي:

ماشية وثيران	911
سيوف بطول خمسة سواعد	511
سيوف بطول ثلاثة سواعد	421
أقواس	306
عربات حربية	39
جعب سهام	00132
رماح	29

وكان مصير هؤلاء الأسـرى أن وسموا باسـم الملك وأرسلوا ليستخدموا في الجيش بينما أرسل ألف منهم للعناية بقطعان أحد المعابد.

وهكـذا انتهت آخر غـزوة ليبية كبرى لمصر وكان الانتصار الحاسـم الذي حققه رمسـيس الثالث كافياً لبث الذعـر في قلوب الليبيين من حدود مصر حتـى «المنحنى العظيم» (= بداية خليج سـرت). وتيقـن الليبيون أنهم لا يستطيعون الوقوف أمام المصريين في الحرب.

ولكـن بالرغم من كل ما جرى اسـتمر الليبيون في التسـلل إلى الدلتا بأعـداد صغيرة واسـتقروا فيها على صـورة جاليات. وتمكنوا فـي النهاية أن يحققوا سـلماً ما فشـلوا في تحقيقه حرباً – ألا وهو ارتقاء العرش المصري. وقبل الاسترسـال فـي الحديث عن هذا الموضوع. يجدر بنـا أن نتوقف هنيهة لنتسـاءل عن سـبب هذا الزحف الليبي المتواصل باتجاه الشرق. ذلك الزحف الذي لم تكن الحروب التي استعرضناها سوى تعبير عنيف عنه.

إن ضغـط القبائـل الأوروبيـة[38] المندفعة من أواسـط أوروبا نحو آسـيا الصغـرى وبلـدان أوروبا الجنوبية حمل سـكان هذه البلـدان. الذين كانوا قد خرجـوا من عصر البرونز إلى عصر الحديد. في القرن الثالث عشـر قبل الميلاد على الاتجاه جنوباً مستفدين من سفنهم للاحتماء بها في عرض البحر الذي كانت القبائل المغيرة من أواسط أوروبا تجهل ركوبه. ثم ضغطوا بدورهم على سـكان جزر البحر الأبيض المتوسـط وبلدان شاطئه الشمالي فتحرك هؤلاء في جموع كبيرة على شكل موجات من المهاجرين إلى أقرب الأماكن المناسبة للسـكن والمعيشة. والقليلة المقاومة في الشمال الإفريقي الذي كان لا يزال فـي أواخر العصر الحجري الحديث. وتركزت هذه الهجرات على المغرب. المواجه لإسبانيا. وتونس. المواجهة لصقلية وإيطاليا. ومصر التي استطاعت أن تصد الغزاة عن أرضها. لهذا أصبح سكان الشمال الإفريقي الأصليين واقعين تحت ضغـط المهاجرين الذين حلوا بالمغـرب وتونس وكان لهـم أن يتحركوا فكان

38- انظر ص 103.

الشرق أسهل جهة يتحركون إليها نظرا لطبيعة الساحل الليبي من ناحية. ونظـراً لصعوبـة الهجرة غرباً في وجه قبائل البحـر وجبال أطلس. وصعوبة الهجرة إلى الجنوب الليبي الصحراوي في الداخل. ونظراً لأن هذه المناطق في الغـرب والجنوب لا تتوافر فيها الخيرات الموجودة في مصر. من الناحية الأخرى. وعلى هذا الأساس وقعت الغزوات والحروب الآنفة الذكر بين المصريين والليبيين الذين رأيناهم يصطحبون معهم نسـاءهم وأطفالهم ومواشيهم مما يشير إلـى أنهم لم يكونـوا مجرد غزاة وإنما مهاجرين موجة تلو الأخرى اسـتجابة للضغـط الواقع عليهم من موجات هجرات أقوام البحر التي كانت تسـتقر إلى الغرب منهم ثـم لا تلبث أن تزحف عليهم. ولكن المصريين الذين تمكنوا من صد تلك الموجات الليبية والقضاء عليها لم يسـتطيعوا ان يقضوا على الدوافع التي سببتها. ولذلك فنحن نرى في عهود من خلفوا رمسيس الثالث مباشرة اسـتمرار التسلل الليبي إلى الدلتا خاصة في عهد «الأسرة الحادية والعشرين الضعيفة المخزية». وهكذا فنحن نجد الغزو الليبي المسلح يتوقف بعد معركة «هاتشـو» ليبدأ بدلاً منه الزحف الليبي السـلمي منذ حوالي سـنة ألف قبل الميلاد. ولعلنا نتمكن من إلقاء شـيء من الضوء على أحداث هذه الفترة بالنسـبة للمهاجرين الليبيين بدراسـة تاريخ أسـرة «بويوواوا» «Buyuwawa» الليبيـة التـي ظهـرت في وقـت متأخر من عهـد الدولة الحديثة بمصر. والتي تعتبر مثالاً جيداً لسـلوك الأسر الليبية المتسللة لمصر. ففي أوائل عهد الأسـرة الحادية والعشـرين استقر أحد أفراد التحنو الليبيين المسـمى بهذا الاسـم فـي مدينـة «هراكليوبولـس» «Heracleoplis» فـي مقاطعة أهناسـية. وصار ابنه موسـن «Musen» كاهناً لمعبد الإلهة «حري شـف» القائم في هذه المدينة ورئيسـاً لقواتها من المرتزقة. وشـغل خلفاؤه هذين المنصبين من بعده مما أدى إلى ازدياد نفوذ أسرته. وتزايد تمصرها بتزايد نفوذها وتقدمها. وفي أيام شيشـنق. الحفيد الثالث لبويوواوا «ورئيس المشـواش العظيم» توفي له ابن اسمه «نمرود» فدفنه في أبيدوس. وعندما وقع اعتداء على قبره. تقدم شيشـنق بشكوى للملك «بتانيس» من الأسرة الحادية والعشـرين فعطف هـذا على قضيته. وقدم الرجـلان معاً إلى معبد

الإله آمون في طيبة ليسـتمعا إلى حكـم الإله في هذه القضية. ولم يلبث موحي الإله أن حكم بإدانة المعتدين. وبعث لشيشـنق على سـبيل الترضية تمثالاً على صورة ابنه ليوضع في معبد أبيدوس كما أنه ثبت ملكية شيشنق لمسـاحة واسـعة من الأراضي الخصبة فـي هراكليوبولس مـا مكن حفيده المسمى باسـمه أن يصبح ثرياً وأن يعيش في مستوى الأمراء. وعندما بلغت الأسـرة الحادية والعشرون أقصى درجات الضعف. ولم يعد بوسعها أن تبقى قائمة على رأس الحكم انتقل شيشـنق الحفيد من هراكليوبولس إلى مدينة «بوباسـتس Bubastis» وانتظر هناك حتى توفي آخر ملوك الأسرة الحادية والعشـرون فأعلن نفسه فرعوناً على مصر سـنة 945 ق. م. وأسس الأسرة الثانية والعشرين.

وهكـذا وبعد انقضاء ما يزيد قليلا عـن قرنين من الزمن على وفاة خصم الليبيـين اللدود. رمسـيس الثالـث. كان الليبيون الأشـداء قـد أضافوا إلى صلابتهم وبأسهم الثقافة المصرية التي تثقفوا بها مما سهل عليهم اعتلاء عرش مصر دون مقاومة في وقت كانت مصر فيه لا تزال أقوى دولة على حوض البحر الأبيض المتوسط الشـرقي. وفيما يلي شجرة أسرة بويوواوا حتى رقي شيشنق الثاني عرش مصر:

1- بويوواوا Buyuwawa

2- موسن Musen

3- نبنيشي Nebneshi

4- بيثوت Pethut

5- شيشنق (Mehetnushet) Sheshonk

6- نملوت (= نمرود) (Temsepheh) Namlot

7- الملك شيشنق الأول (Kerome) Sheshonk I

8- الملك أوسركون الأول Osorkon I

ابن شيشنق الأول وخليفته

وتاريخ هذه الأسرة التي أسسها شيشنق الأول[39] والأسرة الثالثة والعشرين التي تلتها وكانت من أصل ليبي كذلك يتعلق بالتاريخ المصري أكثر من تعلقه بالتاريخ الليبي. ولذلك فنحن نمسك عن الخوض فيه عند هذا الحد مكتفين بالإشارة إلى أن شيشنق الأول هو الذي غزا فلسكين وهزم الإسرائيليين ونهب أورشليم (القدس)، عاصمة مملكة يهوذا، وكان من جملة ما نهبه منها تروس الملك سليمان المصنوع من الذهب. ولم تكن أسرة شيشنق هي الأسرة الوحيدة التي تسللت إلى مصر واستقرت فيها على النحو الذي ذكرنا؛ فهنالك ما يثبت أن أسراً ليبية ككثيرة كانت تأتي إلى الدلتا وتستقر فيها حتى مرحلة متأخرة من تاريخ مصر القديم. وهذه الأسر، وإن كانت لم تبلغ شأو أسرة شيشنق الأول، إلا أنه كان يظهر منها رؤساء أو أمراء صغار يحملون لقب «ما» (مختصر مشواش) ويتمتعون بسلطة أسبه بسلطة الرؤساء الإقطاعيين وينظرون للرجل الليبي الذي يتربع على عرش مصر نظرتهم لرئيس كبير منهم في الوقت الذي كان فيه المصريون ينظرون إليه نظرتهم المعتادة للفرعون. ومعنى هذا أن هؤلاء الرؤساء احتفظوا بشيء من الاستقلال تجاه التاج وتقاسموا فيما بينهم حكم الدلتا والجزء الشمالي من مصر الوسطى. واستفلحت سلطتهم على حساب السلطة المركزية مما أسهم في إضعاف الأخيرة ودفع إلى براثن الفوضى ومهد الطريق أمام بغنخي (Piankhi) النوبي الذي قضى على سلطة هؤلاء الرؤساء وأطاح بالأسرة الثالثة والعشرين وأسس على أنقاضها أسرة جديدة.

وعند هذا الحد من تاريخ العلاقات الليبية – المصرية القديمة تصمت المصادر المصرية عن الحديث عن الليبيين حتى لا نستطيع أن نسمع عنهم أية معلومات ذات قيمة تمكننا من متابعة رسم هيكل وتفاصيل الصورة التاريخية التي أبرزناها على النحو السابق. وأمام هذا الموقف لا يسعنا إلا أن نفترض أن القبائل الليبية في منطقة برقة أخذت تستقر في مواطن إقامتها لسببين رئيسيين هما:

-39 Breasted, James Henry, A History of Egypt, 2nd edition, Hodder & Stoughton, London, 1059, Book VII, pp. 526 – 536.

1- انكسار شوكة هذه القبائل نتيجة للحروب الطويلة بينهما وبين القوات المصرية مما أدى إلى اقتناعها بالتوقف عن مهاجمة مصر وبالقناعة بالاستقرار في الأرض التي كانت تسكنها.

2- تضاؤل ضغط شعوب البحر على سكان الساحل الليبي إلى حد أصبح يسمح بإسقاطه من الحساب كعامل فعال في حركة دفع الليبيين نحو مصر.

ولكن هذا يجب إلا يعني بأي حالٍ من الأحوال، أن الليبيين كأفراد وأسر قد توقفوا تماماً عن التسلل إلى مصر، بل بالعكس فإن عملية التسلل الفردي هذه استمرت، ولكن على نطاق ضيق، فنحن نلمح ظهور أُسر ليبية في مصر وخاصة في الدلتا؛ ومن أمثلة هذه الأسر، الأسرة التي ظهر منها في ووقت لاحق «إنارس Inarus» زعيم الثورة الفاشلة ضد «آرتكزركسيس الأول الفارسي Artaxerxes I» خلال حكم الفرس لمصر.

ويستمر هذا الغموض في تاريخ ليبيي منطقة برقة حتى قدوم الإغريق واستيطانهم ساحلها في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، وآنذاك تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ هذه المنطقة هي موضوع فصل آخر من هذا الكتاب.

وفي ختام هذا الفصل، نلتفت إلى القبائل الليبية القديمة التي استوطنت منطقة برقة وحاولت الاستيلاء على مصر كما أسلفنا، وكان احتكاكها بالمصريين سبباً في تسجيل شيء من تاريخها على الآثار المصرية، التي لها الفضل في تزويدنا بمعلومات قيمة عن تلك القبائل. والقبائل التي عرفها المصريون وسجلوا أخبارها على آثارهم هي:

1- التحنو (Tehenu): وكانوا يشغلون القسم الساحلي الشرقي من ليبيا إلى الغرب من مصر مباشرة، بل إنهم كانوا يقتربون كثيراً من الدلتا المصرية كذلك. وكانت قبائلهم تنحصر بين المصريين في الشرق والربيو في الغرب.

2- التمحو (Temehu): وكانوا يشغلون الواحة الخارجة وينتشرون على موازاة النيل جنوباً حتى النوبة. ويعتقد أن جماعة منهم أقامت في

النوبة واتخذتها وطناً لها.

3- اليبو (Rebu) أو الليبو (Lebu): ويظهر اسمهم على الآثار المصرية في مرحلة متأخرة عن المرحلة التي عرف فيها المصريون القبيلتين السابقتين؛ ومعنى ذلك أنهم كانوا يشغلون المنطقة الواقعة إلى الغرب منهما حول جبل العقبة وفي برقة.

4- المشواش (Meshwesh): وكانوا يقطنون المنطقة الواقعة إلى الغرب من الريبو. وتدل أسلحتهم وارتباطاتهم بأقوام البحر على أنهم كانوا يتبعون الطريق الساحلي في زحفهم من الغرب إلى الشرق نحو مصر. وهذه القبيلة هي آخر قبيلة ليبية مهمة يرد ذكرها على الآثار المصرية.

5- الإسبت (Esbet): وهي قبيلة صغيرة ذكر اسمها مرة واحدة على الآثار المصرية.

6- هس (Hes): وهذه أيضاً قبيلة صغيرة ذكر اسمها مرة واحدة على الآثار المصرية. وربما كانت الأرومة التي انحدرت منها فيما بعد القبيلة البربرية التي عرفها المسلمون باسم «هسه»

7- قبيلة بِكن (Beken): وقد ورد اسمها مرة واحدة على الآثار المصرية. وربما كان أبناء هذه القبيلة هم أسلاف قبيلة البكالة (Bacaies) التي ظهرت في وقت لاحق في المكان الذي وضعت فيه قبيلة بِكن على الخريطة.

الفصل الثالث

الحضارة الليبية القديمة

طرابلس من فجر التاريخ

حتى بداية القرن السادس قبل الميلاد عندما أسس الفينيقيون أول محطة تجارية لهم في صبراتة

تاريخ الإقليم الطرابلسي في هذه المرحلة أشبه بتاريخ فزان من حيث غموضه وقلة مصادره. وأحسن مصدر لنا عن تاريخ هذه المنطقة وبعد الفترة التي نتحدث عنها هو هيرودوتس الذي حدثنا بالكثير عن القبائل الليبية وعاداتها. وليس أمامنا من خيار سوى أن نرسم صورة لأحوال هذا الإقليم ونمط الحياة فيه كما صورها هيرودوتس. ونفترض قياساً عليها أن أحواله منذ أقدم عصوره التاريخية حتى زمن هيرودوتس (القرن الخامس قبل الميلاد) كانت إلى حد كبير تشبه ما كانت عليه أيام هيرودوتس وإن كانت أكثر بدائية من ذلك.

كانت ليبيا عند هيرودوتس تبدأ من غربي النيل وتمتد حتى شاطيء المحيط الاطلسي. ومن الجنوب كانت تحدها بلاد الإثيوبيين السود ذوي الشعور التي تشبه الصوف. ووصف هيرودوتس ليبيا الشرقية (وهي تقريباً ليبيا الحالية) بأنها مأهولة بالبدو الرحل. وقد عدد من قبائلها:

1- الأدرماخيدي (Adyrmachidae): وكانت تشغل المنطقة من دلتا النيل في الشرق إلى ميناء بلاينوس (Plynos)[1] في الغرب.

2- الجليجامي (Giligamae): وكانت منازلها تمتد بين ميناء بلاينوس في الشرق إلى جزيرة أفروديسياس (Aphrodisias)[2] في الغربْ

3- الاسبستي (Asbystae): وكانت تشغل المنطقة إلى الغرب من ديار الجليجامي وتمتد في الداخل بعيدة عن الساحل حتى موازاة قورينة التي كان الإغريق قد استوطنوها.

1- ميناء البردية أو سيدي براني؟
2- جزيرة الشرقية أو الحمام أو جزيرة كرسة إلى الغرب من درنة؟

4- الأوسخيزي (Auschisae): وكانت ديارها تمتد إلى الجنوب من مدينة برقة (= المرج) وحتى يوسبيريدس (= بنغازي).

5- البكالي (Bacales) وهي قبيلة صغيرة كانت تعيش ضمن أراضي القبيلة الرابعة حول ساحل توكرة.

6- الناسامونيون (Nasamones): قبيلة كبيرة كانت تنتشر إلى الجنوب الغربي من القبيلة الرابعة. وكانوا يحتلون المنطقة الساحلية حتى خليج سرت الكبير وينتشرون في الداخل حتى أوجلة.

7- البسلّي (Psylli): وكانوا في الأصل يقيمون حول خليج سرت الكبير ولكن منطقتهم خضعت للناسامونيين.

8- المكاي (Macae): وكانوا يقيمون على شواطئ خليج سرت إلى الغرب من الناسامونيين ويجري نهر كينبس (Kinyps) (= وادي كعام) إلى بحرهم قادماً عبر أراضيهم من تل يقال له تل الحسان (= مرتفع إلاهات الجمال الثلاث (Three Graces) بهضبة ترهونة؟).

9- الجندانيون (Gindanes): وكاننوا يقطنون أقصى غرب الساحل الليبي. يبدو أنهم كانوا يشكلون قسماً قوياً من اللوتوفاجي (أكلة اللوتس أو النبق).

10- الماخلاي (Machlyes): وكانوا يقيمون إلى الغرب من الجندانيين «وتصل مواطنهم إلى نهر عظيم يقال له تريتون وهو يصب في بحيرة تريتون العظيمة (= شط الجريد)».

ونحن لا نزعم أن القبائل التي ذكرها هيرودوتس كانت على الساحل الطرابلسي (الأرقام 6-10) منذ فجر التاريخ. ولكنا نقول إن هذا الساحل كان مأهولاً منذ بداية تاريخه بقبائل تعيش عيشة بدوية كان قوامها في مراحلها الأولى جمع المواد الغذائية ثم الصيد. ثم امتهنت الرعي إلى جانب الصيد. ولم تلبث أن بدأت في عصر هيرودوتس تمارس الرعي والزراعة جنباً إلى جنب. ويستفاد مما كتبه هيرودوتس أن سكان الساحل الطرابلسي القدماء

كانــوا أقل تقدماً من جيرانهــم الليبيين الغربيين الذين عرفــوا حياة الزراعة والاســتقرار في منازل ثابتة في وقت كان ســكان الساحل الطرابلسي فه لا يزالون غارقين في بداوتهم. وسنتحدث عن عادات ليبيي الساحل الطرابلسي وتقاليدهم وما قطعوه نحو التقدم الحضاري في الفصل التالي.

فزان من فجر التاريخ

حتى ظهور الجرامنتيين حوالي القرن الثامن قبل الميلاد

تحدثنــا قبل قليل عــن أحوال الصحراء الليبية في عصــر ما قبل التاريخ وبيَّنا كيف كانت تعج بالحيوانــات والوحوش والنباتات والناس. وقد عرفنا أنه ابتداء من حوالي ســنة 2500 ق. م. كان الإنسان الذي يعيش في مناطق فزان يخــرج من عصر حضارة الصيادين ويدخل عصر حضارة الرعاة نســبة للرعاة طــوال القامة الذين نزلوا فــزان في هذا الزمن[3]. ولما كانــت مصادرنا عن هذه الفترة من تاريخ هذا القسم من ليبيا لا تزودنا إلا بالنزر اليسير من المعلومات فليس أمامنا إلا أن نفترض أن سكان هذه المنطقة استمروا يعيشون عيشة الصيادين والرعاة. ونحن عندما نتحدث عن هذه المنطقة تحت عنوان فزان فإننا إنما نقصد بهــا كل المناطق الداخلية في ليبيــا بمفهومها الجغرافي الحديث؛ ذلك إن فزانيا كانت في العصر الروماني، ولابد أنها كانت قبله كذلك، تشمل «جميع الأراضي الواقعة خلف الجبال إلى الجنوب من ناحية غريان الحالية كما كانت تقترب من البحر اقتراباً شديداً في المنطقة الواقعة شرقي لبدة وتمتد حتى قرب أوجلة شرقاً، ومن المحتمل أنها كانت تشمل منطقة واحات الكفرة والعوينات الشــرقية. أما غرباً فقد كانت تمتد من غدامس شــمالاً حتى غات وربما وارجلا جنوباً»[4].

أما عن ســكان هذه المنطقة الداخلية الواسعة التي كانت تغلب عليها الطبيعة الصحراوية بشكل يشــبه ما هي عليه اليوم، فنحن لا نكاد نعرف شــيئاً ســوى ما رواه المؤرخ الإغريقي هيرودوتس في القرن الخامس قبل الميلاد، فــي أعقاب جولة لــه في ليبيا زار خلالهــا مدينة قورينة (= شــحات) وجمع كثيــراً من المعلومات الهامة عن ليبيا ســجلها في كتابه الرابع[5] حيث يقول

3- انظر ص 32.

4- أيوب، محمد ســليمان، مختصر تاريخ فزان منذ أقدم العصور حتى سنة 1811 م، المطبعة الليبية، طرابلس الغرب، ص 11.

5- انظر الملحق «ب» من هذا الكتاب.

عن هـذه المنطقة: «ويسـكن الجنـوب الجرامنتس (والصحيـح الجامفزانتس Gamphasantes) فـي أرض الوحوش، وكانوا يفرون من منظر الناس، وينفرون من صحبتهم، ولم تكن لهم أسلحة حرب، ولم يكونوا يعرفون كيف يدافعون عن أنفسـهم». وفـي موضع آخر يقول هيرودوتس: «تحدثـت عن كل الليبيين الرعاة الذين كانوا يعيشون على ساحل البحر. وفي أعماق الداخل توجد بلاد ليبيا التي تسـرح فيها الوحوش، ولكن بعـد أرض الوحوش هذه، يوجد نطاق من الرمال يمتد من طيبة في مصر إلى أعمدة هرقل. وعلى مراحل كل واحدة منها تستغرق مسيرة عشرة أيام توجد أكمات من الملح في نجاد رملية، ويعلو كل نجد نبع يقذف من وسـط الملح بماء بـارد عذب. وحولها يقيم القوم الذين تقع مضاربهم بعيداً في الصحراء وإلى الداخل من أرض الوحوش».

ولقد أكد الكاتب الروماني استرابو (66 ق. م. - 24 م) ما ذكره هيرودوتس وأضـاف إليـه عن دواخل ليبيا قوله: «إننا لا نعرف شـيئاً عن أغلب القبائل التي تسـكن ليبيا لأن الجيـوش الأجنبيـة والرحالة الأجانب قليـلاً ما ارتادوا البقاع الداخلية. كما وأن القليل جداً من سكان تلك الجهات هم الذين جاءوا إلى مدننا بالشـاطئ، وحتى هؤلاء القلة قلما يذكرون أية أخبار مفصلة عن بلادهم. وعلى كل حال فإنني أروي المعلومات التالية نقلاً عنهم: «يسكن في أقصى جنوب ليبيا الأقوام المسـمون باسـم الإثيوبيين. وإلى الشـمال منهم يسـكن الجرامنت أغلب الجهات. وإلى جوارهم الفاروسـي (Pharusii) والزنوج (Nigriti)، وإلى الشمال هؤلاء يعيش الجتّولي (Gattoli).

ويفهم مما كتبه هيرودوتس والكتاب الكلاسـيكيون من بعده أن سـكان فـزان قبل قـدوم الجرامنتيين كانوا عبارة عن سـلالتين مختلفتين: السـلالة الأولى إثيوبية وكان أبناؤها طوال القامة، سـمر الوجوه، ماهرين في الرسـم والتصوير الصخري، مسـالمين، يسـتعملون أسـلحة وأدوات بسيطة لأنهم يجهلـون الأسـلحة والأدوات المعدنية، ويشـتغلون برعي الأبقـار في الأدوية والسـهول، ولعلهم لم يتعدوا حضارة العصر الحجري الحديث. أما السلالة

الثانية فكانت من الزنوج الذين كانوا يسكنون الكهوف في حمادة مرزق وما جاورها، وكانوا قوماً قصار القامة يعيشون على الأفاعي والديدان والحشرات. ولعـل هـؤلاء الأقوام الذيـن أطلق عليهـم هيرودوتس اسـم «التروجلودايت Troglodytes» هـم أسـلاف «الـدوادة» فـي أيامنا هـذه من سـكان مندرة وقبرعـون. وقد كان مصير هؤلاء الأقوام الخضـوع للجرامنتيين الأقوياء الذين تغلبوا عليهم بفضل أسـلحتهم وعرباتهم الحربية وأسموهم جامفزانتس واسـترقوهم ليراعوا لهم الماشـية أو يشتغلوا في المزارع أو يؤدوا أية خدمات أُخـرى يكلفهـم بها أسـيادهم الذين كانـوا قد نصبوا أنفسـهم كطبقة عسكرية حاكمة في البلاد حوالي القرن الثامن من قبل الميلاد.

الحضارة الليبية القديمة

نعني بكلمة حضارة كل ما ينتجه الفرد وكل ما ينتجه المجتمع الإنساني في جميع مجالات الحياة سواء كان ذلك الإنتاج فكرياً أو مادياً. وإذن فإن أسهل الطرق لدراسة حضارة شعب من الشعوب هي أن نأخذ مظاهر تلك الحضارة وندرسها واحداً واحداً ثم ندمج تلك الجزئيات في كل واحد، هو الصورة الشاملة المجملة للحضارة موضوع البحث. ولقد سبق لنا أن لمحنا شيئاً من حضارة الليبيين في عصر ما قبل التاريخ. وسنحاول الآن أن نبرز ملامح هذه الحضارة في الفترة التي نبدأ ببدء التاريخ الليبي، وتمتد عبر مرحلة جديدة من مراحل هذا التاريخ تتحدد معالمها بنزول الإغريق في منطقة برقة، ونزول الفينيقيين في منطقة طرابلس واستقرار الجرامنتيين في منطقة فزان، ومظاهر هذه الحضارة أو مقوماتها هي: اللغة، والمجتمع ونظام الحكم، والاقتصاديات من صيد ورعي وزراعة وتجارة وصناعة، والعادات والتقاليد والأزياء والمساكن والعمران والأدوات والفنون والدين.

1- اللغة الليبية القديمة:

يقول أوريك بيتس (Oric Bates) في فصل ممتع عن هذا الموضوع[6]: «إن أصل اللغة التي تكلمها الليبيون منذ فجر التاريخ غير معروف تماماً كما هي الحالة بالنسبة لأصل الليبيين أنفسهم. ولعل من الأفضل أن توضع كل التكهنات الخاصة بهذا الموضوع على الرف إلى أن يتم تجميع المزيد من الأدلة والبينات».

وقد خرج بيتس من مقارنة عقدها بين اللغة الليبية (البربرية) القديمة واللغة المصرية إلى أن العلاقة بينهما في القواعد والمفردات علاقة وثيقة ولكن ليس من المعروف أين تم ذلك الاتصال والتداخل وما إذا كان قد تم بينهما في مصر السفلى أو العليا. وعلى أي حال فإن الدلائل تشير إلى أن اللغة

6- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin>s St., London, 1914, p. 74.

الليبية القديمة تمتعت بقسط وافر من الاستمرارية منذ عصر ما قبل التاريخ حتى العصور الحديثة.

ولا يتعدى أقدم نقش كتب بأبجدية اللغة الليبية القديمة القرن الرابع قبل الميلاد. وقد تم في القرن السابع عشر الميلادي اكتشاف نقش اشتهر باسم نقش «ثجّا Thugga» وقد سجل باللغتين الليبية والفينيقية[7]، ومنذ ذلك الحين كثرت التكهنات حول أصل أبجدية الشمال الإفريقي التي تطلق عليها أسماء مختلفة فتسمى ليبية أو نوميدية أو بربرية أو ليبية – بربرية، وحول أصل سليلتها التفيناغ (Tefinagh). وقد عزي أصل الأبجدية الليبية للمصرية وللإغريقية والوندالية والفينيقية الحديثة. وبالرغم من كثرة النظريات التي ظهرت حول هذا الموضوع إلا أن نظرية هاليفي (Halevy) – أواخر القرن التاسع عشر – لا تزال أقواها. وقد قارن هاليفي الأبجدية الفينيقية التي كانت شائعة في الشمال الإفريقي فوجد ستة من الحروف الليبية الثلاثين لها نظائر قديمة في الأبجدية الفينيقية الحديثة تمثل نفس الأصوات مما يدل على أن فكرة الكتابة وبعض الحروف الليبية – ليس كلها – اشتقت من الفينيقية ثم أُضيفت لها علامات من مختلف بلدان البحر الأبيض المتوسط أخذت عن العلامات التي كان الملاكون أو الصناع يسجلونها على منتوجاتهم من الخزفيات وغيرها، وضمت إلى الحروف الليبية لاستكمال أبجدية ليبية تكون بسيطة وعملية وتفي بالحاجة. ويرى هاليفي وليتورنو (Letourneux) أن الأبجدية التي تطورت على هذا النحو تتكون – كما تظهر في النقوش الأثرية – من ثلاثين حرفاً.

ويذكر أن أكثر النقوش التي وجدت باللغة الليبية إنما تم العثور عليها في الجزائر وتونس، وهما منطقتان كان سكانهما الأصليون يعيشون عيشة مستقرة، ويحتكون كثيراً بالفينيقيين[8]. وقد وجدت نقوش باللغة الليبية

7- هذا النقش موجود حالياً في المتحف البريطاني في لندن.

8- كان الليبيين في شمال غربي إفريقيا نظامهم الوطني للكتابة فكانت اللهجات الليبية (البربرية) تكتب بأبجدية خاصة بها. وقد وجدت في نوميديا نقوش بالأبجدية الليبية ترجع

خارج هاتين المنطقتين حتى سيناء شرقاً ولكن بأعداد قليلة مما يدل على أن الليبيين الغربيين في تونس والجزائر، ولذلك فإن حاجتهم للأبجدية وللكتابة كانت أقل بكثير من حاجة سكان نوميديا مثلاً، فكثيراً ما كان النوميديون يخلدون ذكرى موتاهم بكتابة أشياء مناسبة على حجارة قبورهم. ولذلك فإن استثناء النقوش الليبية القليلة التي وجدت في سيناء، ووفي برقة، وفي بعض الواحات يثير مجالاً واسعاً من الشك في القول إن الليبيين القدماء قد عرفوا فن الكتابة.

2- **نظام الحكم والمجتمع والتقاليد:**

من المسلم به أن الأسرة هي أساس المجتمع – وفي الحديث عن الأسرة الليبية القديمة لابد أن نشير منذ البداية إلى أن الآثار المصرية والمصادر الإغريقية والرومانية تجمع على أن تعدد الزوجات كان أمراً شائعاً بين الليبيين القدماء. فهذا «سلّوست Sallust»[9] يشير إلى أن الزواج السياسي بين المواطنين الإفريقيين لم تكن له أهمية تذكر « لأن الرجل الواحد منهم يستطيع أن يقتني أي عدد يريده من الزوجات ما دام متناسباً مع مقدرته على إعالتهن، فبعضهم له عشر زوجات، والبعض الآخر له أكثر من ذلك، ولكن الملوك هم الذين يقتنون من الزوجات أكثر من غيرهم، وعلى هذا الأساس يتقسم حب الزوج بين عدد كبير من الزوجات فتكون النتيجة ألا تصبح أية

إلى القرن الثاني قبل الميلاد وأخرى ترجع إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد. ولكن لم يقرأ منها إلا بعض كلماتها. ويبدوا أن أبجديتها كانت صوتية مكونة من ثلاثة وعشرين حرفاً صحيحاً، ولذلك اعتقد «جزل Gsell» أن الأبجدية الليبية لم تكون سوى تطوير محلي لأفكار نقلها الليبيون القدماء عن قدماء التجار الفينيقيين. انظر أيضاً:
The Pre-Historic Archaeology of Northwest Africa, Museum of American Archaeology & Ethnology, Harvard University, Vol. XIX – No. 1, 1941, pp 102 – 107.

9- مؤرخ لاتيني ولد سنة 87 ق. م. وكان من أنصار يوليس قيصر فولاه الحكم بالولاية الجديدة في إفريقيا ومنحه لقب برايتور «Praetor». واستمر سلوست في الولاية من 46 – 45 ق. م. وجمع ثروة طائلة بوسائل مفضوحة وطرق غير شرعية. وقد ألف سلوست كتابه المشهور «حروب يوغرثا».

منهن رفيقة للزوج بل يتساوين كلهن في الإهمال». ويتفق هذا القول مع ما رواه المؤرخ البيزنطي «بروكوبيس Procopius» عن رد الرؤساء الليبيين على القائد البيزنطي سليمان «Solomon» عندما هددهم بأن يقتل رهائنهم لديه، فكان جوابهم على ذلك التهديد أن قالوا له: «إنه يتحتم عليك، أنت الذي لا يستطيع أن يتزوج أكثر من واحدة، أن تقلق بشأن ذريتك، أما نحن الذين يستطيع الواحد منا أن يتزوج أكثر من خمسين زوجة إن شاء، فإنا لا نخشى أن تنقطع ذريتنا».

ويقول هيرودوتس إن كل رجل من الناسامونيين كان له عدة زوجات. وقد سبق أن لاحظنا أن نقوش الكرنك ذكرت أن الفرعون مرنبتاح أسر «اثنتي عشرة امرأة من نساء الأمير الليبي مريي». ويفهم من النقوش المصرية أن عادة تعدد الزوجات كانت شائعة على نطاق واسع بين الليبيين، ولكن يبدو أنهم كانوا يحتفظون بما نعرفه بجناح حريم تحتل إحدى الزوجات فيه المرتبة الأولى بين بقية الزوجات.

ولعل ظاهرة تعدد الزوجات على نطاق واسع بين الليبيين القدماء هي التي أدت إلى وقوع عدد كبير من الكتاب الإغريق والرومان في الخطأ عندما تحثوا عن انتشار ما يشبه أن يكون إباحية جنسية. فها هو هيرودوتس يقول عن الناسامونيين والمساجيتي «Massagetae» إن الرجل منهم، حتى ولو كان متزوجاً، كان يتمتع بنساء الآخرين من أبناء قبيلته، ويقول عن الجندانيين إن نساءهم كن يلبسن خلاخيل من الجلد في سيقانهن بحيث يمثل كل خلخال واحداً من عشاق المرأة الذين نالوا وصالها والمرأة التي تبرز أكبر عدد من هذه الخلاخيل على ساقيها تحظى بأكبر تقدير في القبيلة لأن ذلك يعتبر برهاناً على جمال خَلْقها وخُلُقها وبالتالي على مقدرتها في اجتذاب العدد الأكبر من رجال القبيلة. ويقول عن الأوزيين «Auses» إنهم لا يتزاوجون وإنما يعيشون سوية كقطيع من الحيوانات، وعندما يكبر الأطفال كان مجلس القبيلة الذي يضم كل رجالها البالغين يجتمع ليقرر إلحاقهم

بمن يشبهونهم من الرجال».

ويناقش أوريك بيتس[10] هذه التهم فيعتبرها أخطاء وقع فيها قدماء الكتاب الإغريق والرومان لعجزهم عن تفهم ظاهرة تعدد الزوجات ويورد حجتين يدعم بهما رأيه: الأولى أن الأوزيين كانوا ينزلون عقوبة الموت بالفتاة المشتركة في بعض طقوسهم الدينية إذا تبين لهم أنها كانت فاقدة لعذريتها. وقوم هذه صفتهم لا يمكن أن يصح عليهم ما قاله هيرودوتس عنهم. والثانية أن نمطاً من قرابة الدم كان شائعاً في شمال إفريقيا ممّا يدل على أن القوم كانوا متفقين على نوع من الزواج يكفي لتحديد قرابة الدم في نطاق الأسرة والعشيرة والقبيلة.

وعادات الزواج المعروفة عن قدماء الليبيين قليلة؛ فمن المعروف أن قبيلة الأدرماخيدي كانوا يحضرون كل الفتيات المقبلات على الزواج إلى ملكهم ليختار من شاء من بينهن فيتمتع بها قبل زواجها[11]. وبين قبيلة الأوجلي «Augilae» كانت العادة أن تسمح العروس عشية زفافها لمن أراد أن يتمتع بها أن يفعل ذلك مقابل أجر معين. وكان ذلك يعتبر تكريماً لها. ولكنها كانت بعد ذلك تبقى مخلصة لزوجها[12]. وربما كانت العادة الأولى ترتبط بنوع من الخوف الديني من تحمل المسؤولية الناجمة عن إزالة البكارة. أما الثانية فترتبط بعادة الجندانيين البدائية في السماح للفتاة بممارسة ذلك التقليد لكي تجمع مهراً كافياً لإعانتها في حياتها الزوجية المقبلة.

وأغرب من هاتين العادتين ما قيل عن قبيلة «الماخلاي» (Machlyes) أنه عندما كان يتقدم لخطبة الفتاة أكثر من خاطب. كان ولي أمرها يقيم لهم جميعاً حفلة تحضرها الفتاة ويتنافس المتقدمون لخطبتها في إلقاء النكت على مسامعها فمن نجح منهم في إضحاكها قبل غيره كانت زوجة له.

ويجب ألا يتبادر لأذهاننا ممّا سبق أن مكانة المرأة الليبية كانت منحطة فإن العكس هو الصحيح. فالتقاليد البربرية والأدلة التاريخية تشير إلى أن

10- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin>s St. London, 1914, pp 110111-.
11- Herodotus, The Histories, The Penguin Classics, 1966. iv, p. 300.
12- Mela 1. 8

المرأة كانت تحتل مكانة مرموقة. ويكفي دليلاً على ذلك معرفتنا أن نظام الإرث القائم على جهة الأم كان شائعاً بين سكان الشمال الإفريقي البدائيين.

وبالنسبة للأعمال التي كانت تمارسها فإنها تمارسها فإنها كانت تكاد تنحصر في إعداد الطعام. وحلب المواشي. وغزل الخيوط اللازمة لإعداد الملابس. ونحن لا نعرف الكثير عن دور المرأة الرئيسي ألا وهو تربية الأطفال والعناية بهم؛ ولكنّا نعرف من هيرودوتس أن النساء كن يقمن بكي الأطفال عند بلغوهم سن الرابعة وذلك باستعمال لفافة من الصوف الملطخ بدهن الخروف. تشعل وتوضع على وسط الرأس أو على عروق الصدغ. وكن يقمن بهذا العمل حماية للأطفال في حياتهم المستقبلة من الأمراض الناجّة عن نزل الرأس وإفرازاته. وكن يقلن إن عملية الكي هذه هي السبب في أن صحة الليبيين أجود من غيرها.

ولابد أن المرأة كانت لها مكانة مرموقة وأنها كانت تتمتع بعدة امتيازات ناجمة عن نظام الإرث القائم على أساس التسلسل من نسل الأم. وممّا يؤيد وجهة النظر هذه أن النساء الليبيات يظهرن بزي الرجال في نقوش سحروع ما يدل على أنهن كن موضع تكريم. فنحن نعرف أن الملكة حتشبسوت كانت. من أجل هذه الغاية ذاتها. تظهر آثار عصرها بزي الرجل.

أما نظام الحكم الذي كان سائداً بين الليبيين القدماء فهو النظام القبلي الذي كانت القبائل بموجبه تخضع لرؤساء تتراوح سلطاتهم بين سلطات شيخ القبيلة العربي وسلطات الأمير العربي على النحو الذي عرف عن قبائل شمال شبه الجزيرة العربية في جاهليتها. وكانت رئاسة القبيلة منصباً وراثياً في الأسرة الحاكمة وإن كان الرجل المؤسس يختار أصلاً لأنه اشتهر بالتزام جانب العدل في حياته وتصرفاته. وتستطيع القبيلة عزل رئيسها أو تنحيته لصالح أحد أقربائه إذا ما ثبت عدم كفايته. وأوضح مثال على هذا هو ما حدث للأمير مريي بن دِد بعد هزيمته. وكان يساعد رئيس القبيلة في بعض الحالات. إن لم يكن دائماً. مجلس للقبيلة يتكون من عشرة أشخاص. ونحن نسمع أن رمسيس الثالث استدعى للمثول بين يديه «عشرات» أسرى أعدائه الليبيين أي أعضاء مجالسهم القبلية. وفي

حالة الأوزيين نلمح مجلساً من نوع مغاير. ذلك أنه كان لهذه القبيلة مجلس يضم جميع الرجال البالغين وينعقد مرة كل ثلاثة أشهر أي مرة كل فصل من فصول السنة[13]. وتدل النقوش المصرية على أن رؤساء القبائل الليبية كانوا من طبقتين: رؤساء كبار ورؤساء آخرون من مرتبة أدنى. وكان الرؤساء من الطبقة الأولى يتحلون بريشتين بينما يتحلى الرؤساء من الطبقة الثانية بريشة واحدة. أمّا واجبات وامتيازات الرئيس الليبي فهي غامضة. وتدل النقوش المصرية على أن الرؤساء الليبيين كانوا قادة في الحروب أو مستشارين للاتحاد القبلي في حالة وجوده. أما في وقت السلم فسلطنهم كانت ضئيلة إلا أنهم على أي حال كانوا يتمتعون بغذاء وكساء أعلى من مستوى غذاء وكساء أفراد القبيلة العاديين. وهكذا فإن الرئيس وحده لقبيلة من الليبيين الفقراء كان يتنعم بحصيرة من الجلد في منزله.

ويخبرنا بروكوبيس أن رؤساء القبائل القديمة في منطقة طرابلس قدموا في مناسبة معينة لمقابلة القائد البيزنطي بليزاريوس وفقاً للتقليد السائد ليثبتوا في مناصبهم وليتسلموا الشارات الرسمية التي كانت عبارة عن:

1- صولجان مطعم بالفضة.
2- قبعة من خيوط فضية ولها عصبة فضية كذلك.
3- عباءة بيضاء تثبت على الكتف بمشبك مذهب.
4- إزار أبيض مزركش.
5- صندل مذهب.

وأقدم من كل هذه الشارات الرياسية استعمال ريشة النعام وجناحي الطائر والرداء الطويل المزركش الذي تجمع شواهد النقوش المصرية على أنّه كان لا يلبسه إلا الأمراء والرؤساء من المرتبة الأولى. وكان الرؤساء يتميزون عن أبناء قبائلهم بالوشم وبلبس ذيل الحيوان كما أن نساء الرؤساء الكبار كن يبجّلن بارتداء زي الرجال.

وكان رئيس القبيلة الليبية يجمع في يديه السلطتين الزمنية والدينية.

13- ذكر هيرودوتس أن هذا المجلس كان يجتمع من أجل إلحاق الأطفال بمن هم أشبه بهم من الرجال انظر Herodotus iv. 303 في الملحق «ب».

وليس لدينا ما يمكننا من معرفة نمط السلوك الذي كان الرؤساء يلتزمونه تمييزاً لأنفسهم عن أتباعهم. ولعل ما ذكره أحد الكتاب الرومان فيما بعد من أن الرؤساء النوميديين لم يكونوا يسمحون لأتباعهم بتقبيلهم لأنهم كانوا يرون في ذلك انتقاصاً من هيبة الحكم يكون ذا دلالة موروثة عن سلوك قديم خاص بالرؤساء.

3- الاقتصاديات:

كان سكان المناطق الخصيبة من السواحل الليبية يعيشون عيشة شبه مستقرة: ذلك أنهم بسبب سقوط أمطار شبه منتظمة تحولوا تدريجياً من عادة الترحال إلى شبه الاستقرار فصاروا يقيمون في فصل الشتاء الممطر لأداء الأعمال الزراعية وينتقلون في الصيف طلباً للمرعى. وخير مثال على هذا هم الناسامونيون، الذين كانوا يقيمون حول خليج سرت الكبير. فقد كانوا يتركون قطعانهم هناك في الصيف ويذهبون إلى أوجلة لجني التمور. وكان المكاي كذلك يتنقلون بمواشيهم على الشريط الساحلي في الشتاء، فإذا حل الصيف وقلت المياه بالقرب من الشاطئ ابتعدوا عنه إلى الداخل. وربما كانت غايتهم في مثل هذه الحالة هي جبل غريان الخصيب. ولابد أن البسلّي كانوا شبه مستقرين أيضاً فقد وصل إلينا أنهم كانت لهم آبار ماء دائمة.

أما في داخل البلاد فقد كان طابع حياة البدو الرحل هو الطابع السائد الغالب على حياة سكان هذه المناطق. ونحن نعرف أنه حتى عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين في مصر كان الليبيون لا يزالون واقعين تحت سيطرة الميل للهجرة من مكان إلى آخر. وما كان غزوهم لمصر إلا من هذا القبيل. وبعد هذه الفترة بألف سنة أي في أيام هيرودوتس في القرن الخامس قبل الميلاد توقفت الهجرات وبدأ البدو شبه المستقرين يشغلون المناطق الساحلية بينما بقيت قبائل الداخل، باستثناء سكان الواحات الذين ربما كانوا قد استقروا منذ وقت مبكر واشتغلوا بالزراعة البدائية في واحاتهم، تعيش عيشة البدو الرحل. وبعد مضي أقل من ألف سنة أُخرى كان سكان السواحل من الليبيين قد استقروا في مدن وقرى في مناطق مارماريكا وبرقة

وحول خليج سرت الكبير. ولكن البدو الرحل في الدواخل بدأوا يهاجمون القرى والمدن الليبية المستقرة كما حدث عندما قام الأوزوريون (Ausurians) (= الأستوريون؟) باجتياح منطقة المدن الخمس قبيل الفتح العربي.

الصيد:

وقد كان الصيد أول عامل من عوامل الاقتصاد الليبي الذي نحن بصدده. ولابد بهذا الخصوص أن نشير إلى ليبيا بأسرها كانت منذ عصر ما قبل التاريخ مليئة بأصناف شتى من الحيوانات والوحوش. وقد وصفها هيرودوتس في وقته «بأنها مليئة بالوحوش» في مناطقها الداخلية الواقعة ما وراء السواحل. وكان من بين الحيوانات والوحوش الي ذكرها هيرودوتس الظباء، والغزلان، والجواميس، والحمير ... التي كانت لا تحتاج إلى الشرب، وبقر الوحش الإفريقي ... الذي كانت الواحدة منه تبلغ حجم الثور، والثعالب، والضباع، والأنياص، والكباش البرية، وبنات آوى، والنمور، وتماسيح البر التي كان طول الواحد منها يصل إلى ثلاثة سواعد وكانت تشبه السحالي في شكلها[14]، والنعام وأفاعٍ صغيرة للواحدة منها قرن صغير.

وكان الليبيون يستفيدون من لحوم ما يؤكل من هذه الحيوانات ومن جلودها التي كانوا يستعملونها في صنع ملابسهم. ونحن ما زلنا نذكر أن الملكة حتشبسوت استولت من التحنو على «عدد من جلود الفهود كان طول الواحد منها خمسة سواعد أربعة». واستعمال الليبيين لريش النعام كحلية شخصية دفعهم إلى اصطياد هذا الطير باستمرار. ولقد سبقت الإشارة إلى استعمال الصيادين لرؤوس الحيوانات وجلودها كأقنعة تمكنهم من خداع الحيوان وتسهل عليهم اصطياده.

استئناس الحيوان:

من الثابت أن الليبيين استأنسوا الحيوانات من وقت مبكر في تاريخهم القديم. وقد سبق أن لاحظنا في الحروب الليبية-المصرية أعداد المواشي التي كان المصريون يستولون عليها من الليبيين منذ عهد سحورع من الأسرة

14- هل لهذا الحيوان علاقة بالورل؟

الخامسة. وكان من بينها البقر ذوات القرون الطويلة والحمير والماعز. ولقد كانت النساء الليبية تعمل ملابسها من جلود الماعز كما أنن أثنين من المؤرخين الإغريق هما «بوزانياس Panusanias» و «سينيسيوس Synesius» ذكرا وجود الماعز في برقة. وقد ذكر هيرودوتس وعدد آخر من جمهرة الكتاب الكلاسيكيين أن القبائل البدوية التي كانت تسكن الأقسام الداخلية من ليبيا كانت تربي نوعاً من الثيران تتميز عن غيرها بسيرها إلى الوراء أثناء الرعي. ذلك أنها بسبب قرونها الطويلة الملتوية إلى الأمام باتجاه الأرض كانت لا تستطيع أن تسير إلى الأمام وهي ترعى لأنها لو فعلت لاشتبكت قرونها بالأرض. وجدير بالذكر في هذا الخصوص أن أحداً من الرحالة الحديثين الذين جابوا أرجاء ليبيا والقارة الإفريقية لم يشر إلى وجود مثل هذا النوع من الثيران في أية منهما. وربما كانت المسألة لا تعدو تفسيراً وهمياً لملاحظة عدد من الثيران ذات القرون الطويلة وهي صدفة تسير إلى الوراء أثناء رعيها. وفيما عدا هذه الملاحظة فقد وصف هيرودوتس تلك الثيران بأنها كانت كغيرها من الثيران باستثناء أن جلودها كانت أصلب وأسمك.

أما الضأن فهو، وإن لم يكن قد ورد له ذكر على الآثار المصرية، قد ذكر استرابوا وجوده في الأجزاء الداخلية من البلاد. كما أن هوميروس أشار إلى صلاحية ليبيا لتربية الضأن. ونحن نلاحظ أيضاً أن الضأن كان متوافراً بأعداد كبيرة في ليبيا خلال العهد البيزنطي، وهو قطعاً لم يوجد فجأة في ذلك العهد.

وبالنسبة للحصان فإنه لم يعرف في ليبيا إلا في مرحلة متأخرة بعد أن تم إدخاله إليها من مصر. وأقدم إشارة إلى وجوده في ليبيا وردت في عهد الفرعون مرنبتاح (القرن الثالث عشر قبل الميلاد)، الذي استولى على «الخيل التي كانت تحمل الرئيس الليبي المهزوم». وفي الحرب الثانية بين الليبيين ورمسيس الثالث (القرن الثاني عشر قبل الميلاد) استولى الأخير على (183) حصاناً وحماراً من أيدي الليبيين. ولكن ووجود الحصان لم يعمم في الشمال الإفريقي والأجزاء الساحلية والداخلية من ليبيا إلا في بداية العصر الكلاسيكي وإن كانت فزان قد عرفته على أيدي الجرامنتيين الذين يقدر أنهم

نزلوهـا في القرن الثامن قبل الميلاد. ويقول استرابو: «إن الملوك [في الأجزاء الداخلية من ليبيا] يعتنون عناية فائقة بتربية الخيول إلى حد أن عدد المِهار التي تنتج لديهم بلغ مائة ألف مهر في السنة». هذا وقد ذكر هيرودوتس خيل قبيلة الاسبستي. كما أن خيل برقة كانت تلقي شهرة فائقة عند الإغريق إلى حد أن عدداً كبيراً من كتابهم وصفوا برقة بأنها منطقة الخيول الممتازة.

وهذه الخيول وإن كانت صغيرة الحجم إلا أنها كانت قوية صلبة، سريعة العدو. وكان ترويضها وتدريبها ممتازاً في أغلب الأحوال إلى درجة لأن الواحد منها كان يتبع صاحبه على نحو ما يفعل الكلب. وكان الفارس يمتطي صهوة جواده دون سرج وحتى دون لجام في أغلب الأحيان ويكتفي لتوجيهه بحمل عصا قصيرة خفيفة لا ليضربه بها بل ليوجهه فقط. ويبدو أن العنان الذي كان شائع الاستعمال كان عبارة عن طوق من الألياف يوضع في عنق الحصان وتتصل به وصلة أُخرى هي الرسن.

وظل الحصان من أكثر الحيوانات أهمية في ليبيا حتى ظهور الجمل، وانتشر استخدامه في المناطق الصحراوية والرملية بشكل خاص فبدأت أهمية الحصان تتضاءل نظراً لقدرة الجمل على تحمل العطش وعلى السير في المناطق الرملية التي تغوص فيها قوائم الحصان بما أعطى الجمل ميزة الصبر على السفر الطويل من ناحية واختصار المسافات الطويلة بالسير في خط مستقيم، عبر الكثبان الرملية التي يحول خفّه دون غوص قوائمه فيها فيها، من الناحية الأخرى. ولقد ظهر الجمل في إفريقيا لأول مرة عهد سيتي الأول بمصر (1328 – 1298 ق. م.) ثم عرف في مارماريكا في القرن الرابع قبل الميلاد وعم استخدامه بين الليبيين في العهد الروماني[15].

15- عاش الجمل في شمال غرب إفريقيا (تونس والجزائر والمغرب) في عصر ما قبل التاريخ كحيوان متوحش، ولكن يبدو أنه انقرض خلال العصر الحجري الحديث أو تراجع إلى أعماق الصحراء، ثم أدخل ثانية إلى المنطقة بعد دخوله إلى مصر مع الفتح الفارسي سنة 525 ق. م. ومن مصر بدأ ينتشر تدريجياً إلى الغرب. وقد استولى يوبيس قيصر بعد معركة ثابسوس سنة 26 ق. م. على أسلاب جيش كبير ولكن لم يكن بينها سوى اثنين وعشرين جملا مما يدل على أن الجمال لم تكن حتى ذلك التاريخ تستخدم على نطاق واسع للنقل ولم تكن كثيرة في البلاد. وبعد ذلك بما يزيد قليلا على أربعة قرون نسمع أن أحد القادة الرومانيين كلف لبدة أن

ومن الحيوانات الأليفة الأخرى الكلب. وقد ورد رسم له على لوح من عهد الأسرة الحادية عشرة في أوائل الدولة الوسطى. وهو رسم يدل على أنه كان من نوع كلاب الصيد.

ويذكر هيرودوتس أن الجيزانتيين (Gyzantes)، سكان فزان، كانوا يربون النحل وينتجون نوعاً من العسل الصناعي.

يتضح مما تقدم أن سكان الأجزاء الداخلية من ليبيا كانوا يكرسون الكثير من جهودهم للعناية بالمواشي وتربيتها لأنها أساس معيشتهم بينما كان سكان السواحل شبه المستقرين أقل اعتناء بالمواشي نظراً لانشغالهم بفلاحة الأرض خلال قسم من السنة. وعلى أي حال فإن الليبيين بشكل عام كانت عندهم أعداد كافية من الحيوانات الأليفة كما أنهم أظهروا ذكاء واجتهاداً فائقين في تربيتها واستكثارها.

الزراعة:

وفي مجال الزراعة تحول سكان المناطق الخصبة من الأراضي الليبية إلى مزارعين في وقت مبكر من التاريخ الليبي. فقد ذكر هيرودوتس أن منطقة نهر كينبس (Kinyps) (= وادي كعام) كانت خصوبتها في إنتاج الحبوب تعادل خصوبة أية منطقة أُخرى في العالم القديم، كما أن محصولها منها كان يعادل محصول منطقة بابل الخصيبة في جنوب العراق. وكانت منطقة يوسبريدس (= بنغازي) أيضاً صالحة لزراعة الحبوب. وأقدم إشارة للزراعة الليبية وردت في عهد مرنبتاح من الأسرة التاسعة عشرة عندما نسمع أنه في أعقاب انتصاره على الليبيين «خلعت من حقول الرئيس الليبي المهزوم كل النباتات ولم يترك حقل واحد ينمو حتى لا يتمكن أصحابه من الحصول

تحشد له أربعة آلاف جمل (سنة 363 م) وهذا يدل على أن الجمال أصبحت في القرن الميلادي الرابع موجودة بكثرة في الشمال الإفريقي ومستخدمة بانتظام في النقل البري.
انظر أيضاً:
Wulsin, Frederick, R., The Pre-Historic Archaeology of Northwest Africa, Vol. XIX – No. I, Museum of American Archaeology and Ethnology, Harvard University, 1941, P. 108.

على لقمة العيش. كما أم مخازن الرئيس الليبي نهب ما كان فيها من حبوب».

وفي العصر الكلاسيكي كانت منطقة برقة الخصيبة تخضع للإغريق وحدهم أو لهم ولليبيين معاً، بينما كانت منطقة وادي كعام تخضع للفينيقيين. أما بالنسبة لليبيين أنفسهم فقد سبقت الإشارة إلى هجرة الناسامونيين سنوياً إلى أوجلة لجني التمور. كما أن سكان الواحات لابد أن يكونوا قد عرفوا الزراعة منذ عهد استقرارهم في واحاتهم.

وفي شمال فزان كان الجرامنتيون. وفقاً لما ذكره هيرودوتس. يغطون الأرض السبخة بالتراب ويزرعونها. وربما كانت الكرمة تزرع في أنحاء مختلفة من ليبيا منذ وقت مبكر وخاصة في ماريماريكا التي اشتهرت برداءة نبيذها.

ونستطيع أن نعتبر اللوتوفاجيين مزارعين. إلى حد ما. لأنهم كانوا يعيشون على ثمار شجرة اللوتس (= النبق أو الزيزفون) (Rhammus Zizyphus). وبالرغم من أنهم لم يكونوا يزرعون تلك الأشجار فإنهم كانوا يعتمدون في معيشتهم على ثمارها. وقد أكد هيرودوتس أن بعضهم كانوا يعتمدون في معيشتهم على ثمار تلك الأشجار باعتبارها الغذاء الوحيد لهم. وكانوا كذلك يستحضرون منها نوعاً من النبيذ.

وقد أثبتت الآثار أن زراعة الزيتون كانت منتشرة انتشاراً واسعاً في منطقة طرابلس منذ العهد الفينيقي وكذلك في العهد الروماني الذي وجدت بين آثاره أعداد مختلفة من معاصر زيت الزيتون. ويذكر هيرودوتس أن شجرة الزيتون كانت موجودة في كل الأماكن الصالحة لنموها في منطقة البنطابولس (= شمال برقة).

وكانت هنالك أشجار النخيل التي كان الليبيون يستفيدون من تمورها كغذاء لهم. ويصنعون منها نوعاً من النبيذ كما كانوا يصنعون من لفائفها ما يحتاجونه من حبال.

وكان الليبيون يعيشون على القمح والشعير يأكلون حبوبه كما هي أو

يدقونها ويخبزون معجونها بدفنه في النار. وكان بعضهم يتغذون بجذور النباتات والخضروات والبعض الآخر مثل الجزانتيين كانوا يأكلون لحوم القرود المغربية «Barbary Apes » بينما كان التروجلودايت يأكلون لحم الأفاعي لعدم وجود غيرها عندهم. وكان الليبيون القاطنون حول خليج سرت يلتقطون الأسماك المتخلفة بعد انحسار المد. كما كانت عادة أكل الجراد شائعة فقد اشتهر الناسامونيون بتجفيفه وسحقه ثم خلط مسحوقه مع الحليب وشربه.

كانت حركة النقل منذ أقدم الأزمنة التاريخية تسير شمالاً – جنوباً أكثر منها شرقاً – غرباً في ليبيا. وكانت أشهر تلك الطرق طريق طرابلس – تشاد التي كان يتم بوساطتها تبادل السلع التجارية بين الشمال والجنوب منذ آلاف السنين. وكانت السودان تفضل دائماً طرق القوافل هذه على استخدام الطرق المائية كالنيل والنيجر والسنغال. ولقد كان هدف الفينيقيين القرطاجيين إنشاء المصانع والسيطرة على طرق القوافل هذه عندما أنشأوا محطاتهم التجارية على الساحل الطرابلسي وحول خليج سرت الكبير. ويبدو أن الليبيين كانوا يتاجرون في السلع السودانية والتشادية منذ عهد الملكة حتشبسوت من الأسرة الثامنة عشرة؛ فقد ذكر ضمن الجزية التي حصلتها هذه الملكة من التحنو «العاج وسبعمائة ناب فيل». ونحن نسمع مع حلول العهد الروماني باشتداد أعمال القرصنة ضد القوافل على طرق القوافل البرية في داخل ليبيا مما استدعى قيام الرومان بحملات شريعة مؤقتة لوضع حد لنشاط قطّاع الطرق. ونسمع كذلك أن الناسامونيين المقيمين حول خليج سرت كانوا يقومون بمباغتة المراكب الراسية في ذلك الخليج ثم يحطمونها وينهبونها.

وإذا حاولنا تقدير أهمية التجارة الليبية القديمة من وجهة نظر اقتصادية فلا يسعنا إلا أن نقول إنها كانت تجارة بدائية وإن سلعها كانت سلعاً طبيعية؛ إما كمالية مثل الأبانوس والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات المفترسة وإما خامات مثل الجلود عامة والملح.

أما الواردات فكانت عبارة عن الأسلحة والأدوات المعدنية والأقمشة

والخزفيات والزجاج والحاجيات الأخرى التي كان الليبيون يرغبون في اقتنائها ولكن لا يعرفون كيف يصنعونها.

وقد كان للتجارة الليبية أثران هامان على الليبيين أنفسهم فقد تقدم سكان السواحل منهم أكثر من سكان الدواخل نظراً لاحتكاك سكان السواحل الدائم المباشر مع الأجانب المتقدمين على الليبيين. كما أن طرق القوافل للتجارة مع السودان أدت تدريجياً إلى نشوء المدن التجارية في المواقع المهمة على طرق القوافل من مثل مدينة غدامس ومدينة جرما.

الأزياء والحلي:

كانت الملابس التي استعملها الليبيون حتى العهد الروماني قليلة جداً إلى درجة برّرت وصف الكتّاب القدماء «للجرامنتيين والناسامونيين بالعري». ويقول المؤرخ البيزنطي بروكوبيس إن اللباس الليبي كان عبارة عن إزار خشن لا يغيره صاحبه طوال العام. ويقول هيرودوتس إنه مع أن الأدرماخيدي الليبيين كانوا يشبهون المصريين في طباعهم إلا أنهم كانوا يرتدون الزي الليبي.

وأبسط أنواع الألبسة القبلية، وإن لم تكن أكثرها شيوعاً، تظهر على الآثار المصرية منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة. ولعل أحسن تصوير للزي الليبي هو ما يظهر على آثار مدينة هبو بمصر من عهد الأسرة العشرين حيث يظهر قراب العورة الليبي كإزار بسيط مثبت من الأعلى بحزام فوق الخصر ومنسدل إلى ما فوق الركبتين بقليل، وبه في بعض الأحيان فتحة من الأمام.

أما العباءة الطويلة لأول مرّة في عصر الدولة الفرعونية الحديثة فهي وإن لم تكن لباس الأغلبية الليبية إلاّ أنها كانت أكثر شيوعاً من القراب. وتجمع شواهد الآثار على أنها كانت لباساً مميزاً لذوي الجاه والمكانة. وعلى هذا الأساس كان البيزنطيون فيما بعد يقدمون عباءات طويلة للرؤساء الليبيين بمناسبة تثبيتهم في مناصبهم سنوياً. وكانت تلك العباءات تثبت على أحد الكتفين بمشابك ذهبية. ويصفها استرابو[16] بأنها كانت فضفاضة عريضة

16- يقول استرابو إن سكان الشمال الإفريقي عامة كانوا «يرتدون جلود الأسود والنمور

الحواشي. ويبدو أن طريقة تفصيلها نقلت، كما تدل الآثار المصرية، عن الأردية الجلدية التي سبقتها في الاستعمال. وكانت عباءة القماش عبارة عن قطعة مستطيلة، عرضها عند طرفها العلوي أكبر منه عند الطرف السفلي وذلك حتى يمكن لفّها حول الكتفين وتعقد قرنتاها العلويتان المستطيلتان على الصدر. وهنالك نوع آخر معقد من هذه العباءات كان له كم قصير وكان يشبك على كتف واحد فقط. وهو النوع الذي يظهر به أربعة من الليبيين في صور ضريح سيتي الأول. وكانت هذه العباءة مفتوحة من المقدمة من أعلى إلى أسفل ويأتي تحتها حزام قراب العورة. وكانت العباءات تزين في بعض الحالات بأشكال ملونة أو بخياطة قطع عليها من قماش مخالف. ويبدو أن استعمال قراب العورة أصبح أكثر انتشاراً بين الليبيين المتحضرين فيما بعد. والسؤال الذي يطرح نفسه بهذه المناسبة هو: من أين كان الليبيون يعتمدون الجلد أكثر من غيره مادة للبسهم من أين كانوا يأتون بالأقمشة الجيدة لعباءاتهم؟ إن الجواب على ذلك السؤال يتلخص في القول إن الليبيين كانوا يأتون بالأقمشة من نفس المصدر الذي كان يستوردون منه أسلحتهم البرونزية أي من الشردن (= السردينيين).

أما كيفية إعداد الملابس الجلدية للاستعمال فكانت في الغالب عبارة عن إحداث فتحة للرأس في وسط الجلد غير المدبوغ وغير المعالج ثم يسدل الجلد متدلياً من العنق حول الجسم. أما الجلد الذي عولج فربما كان يعمل على شكل قميص أو معطف.

وكان استعمال الملابس المذكورة آنفاً شائعاً بين سكان الشمال الإفريقي بشكل عام، ولا نستطيع أن نعتبر أياً منها «الزي المميز للشمال الإفريقي» لأن تلك مرتبة انفرد بها «البنستاشي Penistasche» أو قراب العورة الذي كانت الغاية منه وقاية الأعضاء التناسلية مما قد تتعرض له من أذى. وتظهر أقدم مراحل استعمال هذا القراب في آثار سحورع و «ني – أوسر – رع»

والدببة وينامون بها». ثم يقول :»إن الرداء الليبي هو جلد يكون لصاحبه بمثابة لوح يقي صدره». ويقول ميلا (Mela) إن الليبيين في الدواخل كانوا يلتفون بجلود الحيوانات المفترسة والأليفة بينما كان المكاي يرتدون جلود الماعز. ونحن نعرف أن أفراد الفرقة الليبية في جيش كزركسيس الفارسي بمصر كانوا يرتدون الجلود.

«Ne – User – Ra» من الأسرة الخامسة. ثم يبدو أنه حل محله نوع آخر من الغطاء لأن الكتّاب الإغريق والرومان لم يشيروا إليه علماً بأنهم لو رأوه لأثار اهتمامهم دون شك لما فيه من غرابة بالنسبة لهم. وكان هذا القراب في الغالب يعمل من الجلد أو من الألياف ثم يربط في الحزام ويتدلى منه إلى الأمام ليتمكن الرجل من إدخال عضوه التناسلي فيه.

وكان الليبيون يرتدون أحزمة جلدية مازلنا نجهل كيف كانوا يعقدونها. وإن كان يظهر من النقوش المصرية أن الحزام كان يلف أكثر من مرة حول الخصر ثم تثبت نهايته بوضعها بين الجسم ولفات الحزام وترسل متدلية على الفخذ الأيسر. وربما كان الحزام والقراب في بعض الحالات يكونان قطعة واحدة.

وكان ارتداء القراب شائعاً بين الليبيين عامة سواء في ذلك الرؤساء والرجال العاديون. ومن الجدير بالذكر أن الغلمان الذين تظهر صورهم في نقوش معبد سحورع لا يرتدون هذا القراب مما يرجح الميل للاعتقاد أن ارتداءه لم يكن لوقاية أعضاء التناسل فقط وإنّما كان أيضاً شارة لبلوغ سن الرشد. أمّا المادة التي كان القراب يعمل منها فليست معروفة على وجه التحقيق وأغلب الظن أنه كان يعمل إما من الجلد وإما من الألياف النباتية وهما المادتان اللتان استعملتا لنفس الغاية في كل من مصر القديمة وإفريقيا الجنوبية على الترتيب. وفي بعض الحالات كان القراب يلون بخطوط طولية حمراء وزرقاء وبيضاء.

وفي الحديث عن الأحذية يجدر بنا أن نلاحظ مسبقاً أن ظهور الليبيين على الآثار المصرية حفاة في معظم الحالات. حتى في حالة الرؤساء والأمراء منهم. لا يعني أنهم كانوا حفاة في واقع حياتهم وإنّما قد يعني إما الإهمال من جانب الفنانين المصريين وإمّا المبالغة في إظهار أولئك الرؤساء والأمراء بمظهر الذل والخضوع وإمّا لأن الفنانين اتخذوا ذلك أسلوباً فنياً لطريقتهم في الرسم. وعلى أي حال فهنالك صورة لأحد الليبيين على آثار مدينة هبو يظهر فيها وقد انتعل صندلاً. وتذكر نصوص حرب مريي أن هذا الأمير ترك وراءه. ساعة هربه من ممفيس «صندله ... لأنّه كان مستعجلاً». وقد سبق أن

أشرنا إلى أنّه كان من جملة الهدايا التي كان الرؤساء الليبيون يتلقونها في العهد البيزنطي الصنادل المذهبة. وبالإضافة للصنادل كان الليبيون يلفون سيقانهم برباطات من الجلد أو الصوف.

أمّا لباس الرأس فلم يكن شائعاً بين الليبيين بشكل عام بالرغم من شدة حرارة الشمس في ليبيا. ويظهر بعض الليبيين. خاصة المشواش. على الآثار المصرية وهم يرتدون نوعاً من غطاء الرأس يشبه ما نعرفه اليوم باسم الكوفية. وكانوا يثبتونه على رؤوسهم بالعصبة بدلاً من العقال عند العرب. ولم تكن القبعة التي تغطي قحف الرأس مجهولة عندهم. ويثبت معرفتهم لها صورة المرأة الليبية التي تظهر على آثار مدينة هبو وصور الليبيين المرسومين على آثار ختمس الرابع.

وكان لباس المرأة الليبية يعادل لباس الرجل الليبي في خشونته إن لم يكن أخشن منه. ويقول هيرودوتس بعد أن يعرب عن اعتقاده أن زي الإلهة الإغريقية أثينا كان مقتبساً عن الزي الليبي للمرأة: «لأننا إذا استثنينا حقيقة أن لباس المرأة الليبية من الجلد وأن حاشيته مزينة بالعقد الجلدية بدلاً من الأفاعي. فإن الزيين يتشابهان تماماً في كل شيء آخر... لأن المرأة الليبية ترتدي فوق ملابسها (التي ربما كانت من القماش) جلد الماعز الذي جرد من شعره وعملت له حواشٍ وصبغ بالزُّنْجِفْر أو الصباغ القرمزي». وتدل الآثار والمنحوتات المصرية من العهد الروماني على أن الليبيات كن يرتدين جنلّة بسيطة تنضم على الخصر ثم ترسل على شكل ثنيات بسيطة حتى القدمين.

وإذا تذكرنا أن تجميل الإنسان لشخصه هو عملية تسبق حضارياً عملية تجميله لملابسه فلن يدهشنا أن نجد أنه بينما كانت ملابس الليبيين لا تزال بسيطة كانوا قد طوروا عدداً من الحلي كالأطواق وحلق الأذنين وأساور الذراع.

ولعل أشهر الحلي الليبية كانت ريش النعام فنحن نجد أن المحاربين الليبيين عامة كانوا يزينون به رؤوسهم كما هو ظاهر في النقوش المصرية. ويمكن

تعليل عدم ظهور الريشة في بعض النقوش بواحد من الأسباب التالية:

1- ضحّى بها الفنان توفيراً للسطح الذي يرسم عليه.

2- استحال رسمها على الفنان نتيجة لصعوبات فنية روتينية متكررة.

3- كون الصورة تخص رجلاً ليبياً عادياً لا يحق له لبس الريشة.

وفيما عدا السببين الأول والثاني فإن الرئيس الليبي لا يظهر على الآثار المصرية دون ريشة من عهد الدولة الوسطى فصاعداً. وهو قد يظهر بريشة واحدة حتى ولو كان من مرتبة عالية كمرتبة الأمير مريي مثلاً الذي قالت عنه نقوش مرنبتاح «إن الحظ السيئ ضيع ريشته». وقد تميز وجهاء الدلتا من الليبيين في أواخر عهد الدولة الحديثة باستعمال ريشة واحدة. وفي واحة سيوة نجد نقشاً لأمير ليبي يمثله وهو يركع أمام الإله آمون ويجمل رأسه بريشة واحدة. ومن الناحية الأخرى فنحن نجد استعمال الريشتين يدل على أن صاحبهما يحتل مركزاً أعلى من مركز الرؤساء بريشة واحدة. أمّا كيف كانت تلك الريشة أو الريشتان تثبت فهي مسألة غير معروفة بالتأكيد وإن كان من المحتمل أنهم كانوا يغرسون الريشة في أصل إحدى خصل الشعر الجانبية.

وكما هو الحال مع معظم الناس البدائيين فإن الليبيين قد عرفوا أنواعاً عديدة من حلي الأذنين التي كانت تثبت إما بالحلق أو بالأزرار. وكانت هذه الحلي تلبس دائماً في شحمة الأذن والليس في طرفها العلوي كما هي الحالة في النوبة مثلاً في الوقت الحاضر.

وتظهر على نقوش معبد سحورع من الأسرة الخامسة صور ليبيات وليبيين يتحلون بعقود من الخرز المنبسط والمدور. وعلى آثار مدينة هبو يظهر فيها ليبيان يتحليان بالعقود التي يتدلى منها الخرز.

أمّا الأساور فيبدو أنها لم تكن شائعة كثيراً بين الليبيين ولكنها كانت معروفة إذ إنها تظهر على أذرع الليبيين ومعاصمهم في نقوش أبي صير ومدينة هبو.

وكان الأمراء الليبيون يتحلون بحلية أُخرى غريبة عرفت عند الملوك المصريين كحلية تدل على علو المكانة وهي ذيل الحيوان. فقد كان الليبيون يرتدونها متدلية من مؤخرة الحزام. ولعلها حلية موروثة عن عادة قديمة ترجع للوقت الذي كان فيه الصيادون يلبسون جلد الحيوان الذي يقتلونه. وكان الذيل الليبي ينتهي بطرف مزين يشكل تحت الحزام.

أما الخلاخيل فقد وردت في نقوش تحتمس الرابع حيث يظهر أحد الربيو أنها أصبحت بشكل عام سمة مميزة لليبيين لدى كل المعنيين بدراسة النقوش المصرية. وتظهر في النقوش أشكال متعددة من هذه التسريحة. فالخصلة قد ترسل خلف الأذن أو أمامها. وقد تكون عبارة عن خصلة ملوية أو مجدولة من عدة مسائح أو ذؤابات وبطرق متنوعة مختلفة. ويبدو أن الطراز الغالب كان إطلاق خصلة واحدة على الجانب الأيمن أو الأيسر من الرأس ثم تقصير الشعر على الجانب المقابل حتى يكون بمستوى الصدغ. وبعد هذا ليس غريباً أن نجد اللغة المصرية الهيروغليفية تعبر عن كلمة «الغرب» أي ليبيا بما يشبه أن يكون قبعة ذات ريشة يتدلى من جانبها خطان يرمزان للخصلتين الجانبيتين.

وأخيراً تجب الإشارة إلى تسريحة ليبية نادرة تظهر في صور الدهان على آثار بني حسن ويبدو الشعر فيها وقد جمع بنوع من العصبات المزينة بما يشبه الأصداف ثم يرسل من العصبة ليكوّن ما يشبه الفرشاة خلف الرقبة.

وسبب تنوع التسريحات عند الليبيين غير معروف. وإن كان هيرودوتس قد أشار إلى أن التسريحة ربما تستخدم كعلامة فارقة تتميز بها بنات وأبناء القبيلة الواحدة من غيرهم. وربما كانت هنالك أسباب أُخرى لاعتماد التسريحة ذات الخصلة الجانبية الواحدة أو الخصلتين الجانبيتين كأن تكون مثلاً علامة مميزة للشباب. ولما كنا نعرف أن الرؤساء فقط هم الذين كانوا يستعملون التسريحة ذات الخصلة الجانبية المزدوجة فإنا لن نخطئ إذا قلنا إن هذه التسريحة قصدوا بها أن تكون شارة لمركزهم الرئاسي.

والرجال الليبيون يظهرون على الآثار المصرية ملتحين في أغلب الأحيان، ولحاهم ليست طويلة بل هي مهذبة بعناية فائقة. ومن ناحية أُخرى كانوا يطلقون شواربهم خفيفة كذلك.

أما بالنسبة للوشم عند الليبيين القدماء فإن أحسن شاهد عليه هو صور الرؤساء الليبيين المرسومة بالدهان في تل العمارنة على ضريح سيتي الأول من الأسرة التاسعة عشرة، وبلاط هبو الأملس. ويدل رسم الأمير الليبي الموجود في تل العمارنة على أنه كان رئيساً كبيراً لأنه يتحلى بريشتين. ونلاحظ على الكتف الأيمن لهذا الرئيس رسماً من طراز بسيط هو عبارة عن خط مزدوج موج تليه أربع نقط. وعلى صدره وبطنه ستة معينات في صف عمودي، تليها أدنى منها أربعة أُخرى. وهذا الوشم يختلف قليلاً عما كان مألوفاً عند الليبيين عامة، ولقد دل فحص صور الرؤساء التمحو الأربعة، الموجودة على ضريح سيتي الأول، على وجود علامات سوداء على أذرعهم وسيقانهم.

ويرجع أوريك بيتس[17] أن الرؤساء من الليبيين هم فقط الذين كانوا يستعملون الوشم وأن رجال الأسر الحاكمة دون نسائها هم الذين كانوا يستعملونه، ثم يشير إلى أن استعمال الوشم عند الليبيين القدماء كان مناظراً لما ذكره هيرودوتس عن بعض القبائل التراكية (Tracians) التي كانت تستخدم الوشم كعلامة مميزة تشهد أن صاحبها ولد من أصل نبيل، كما أن عدم وجود الوشم كان دليلاً على انحطاط الأصل[18].

أما أنماط الوشم التي استخدمها الليبيون فقد كانت أنماطاً محلية بسيطة وربما كانت في أغلب الأحيان من صنع خيال الفنانين المصريين أنفسهم. ولذلك فإن من الخطأ نسبتها إلى مؤثرات خارجة عن المحيط الإفريقي والأصول الإفريقية. وأهم هذه الأنماط نمط اعتبر أن له دلالة دينية لأنه يتعلق بالإلهة نيث «Neith» إلهة الجلتا (ليبية – مصرية)، ولأنه

17- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin>s St., London, 1914, P. 138.
18- Herodotus V, P. 312.

يعطينا أيضاً تفسيراً لاستخدام الليبيين للوشم.

وليس هنالك ما يثبت أن الوشم هذا كان عبارة عن وسم يوسم به الأسرى الذين وهبوا رقيقاً للربة نيث. ومع ذلك فإن هذا لا يستبعد إمكانية كون الوشم على الأسرى الليبيين رمزاً لهذه الإلهة.

وعلى ذلك فقد كان الوشم عند الليبيين في البداية علامة مميزة للرؤساء الكبار، ثم صار شيوع استعماله بين الرؤساء علامة تدل على أنهم كانوا بذلك يضعون أنفسهم تحت حماية الإلهة نيث.

أما الأنماط الأخرى من الوشم فهي بسيطة للغاية ويمكن ردها إلى العصر الحجري الحديث. وربما كان الوشم بأنماطه المختلفة مجرد دهان على الجسم من ناحية، وربما كان، من الناحية الأخرى، ووشماً حقيقياً ناجماً عن حقن المادة السوداء تحت الجلد، إذ من المعروف أن الجيزانتيين والماكساي كانوا يطلون أجسامهم بالدهان الأحمر.

وأخيراً تدل الآثار المصرية على أنه بالرغم من أن الشردن وغيرهم من حلفاء الليبيين كانوا يمارسون عادة الختان، إلا أن الليبيين أنفسهم لم يكونوا يختتنون. وقد أكد هيرودوتس فيما بعد هذه المسألة وعزا أصولها للمصريين الذين قال عنهم كانوا يفضلون الطهارة بالرغم مما يترتب على الاختتان من تشويه. وعندما يعد هيرودوتس الشعوب التي تمارس عادة الاختتان، لا يذكر الليبيين بينهما، وهو يقول في هذا الصدد بحق إن هذه العادة مصرية، وإنها كانت معروفة في مصر وإثيوبيا[19] منذ وقت قديم جداً. ومن الواضح أن هيرودوتس هنا لا يخلط بين الإثيوبيين والليبيين كما هي الحال بالنسبة للكتّاب الإغريق وبالنسبة له هو ذاته في موضعين من كتابه؛ ذلك أن شواهد آثار الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، ولوح بعنخي تثبت ما ذهب إليه فيما يتعلق بأُصول عادة الختان؛ فنحن نعلم أن بعنخي، في أعقاب إخضاعه للدلتا ومن فيها من الأسر الليبية، منع الليبيين من الدخول عليه لأنهم كانوا يأكلون السمك – وهو محرم عند الإثيوبيين – ولأنهم، كما يظهر،

19- Herodotus, II, p. 140.

كانوا غير مختتنين. والشخص الليبي الوحيد الذي سمح له بالدخول هو نملوت (= نمرود). وكان ذلك إما تقديراً لمركزه كأعلى رئيس ليبي. وإما لأنه كان قد «حمل على الاختتان» وفقاً للعادة المصرية.

الفن والمادة: استعمال المعادن:

أجمع عدد كبير من المؤرخين في صمت على أن الليبيين في عصر الغزوات الليبية الكبرى لمصر كانوا في مرحلى حضارية متقدمة إلى حد كبير. لأنهم كانوا يستعملون الأسلحة والأواني المعدنية؛ وهذه قضية خطيرة جديرة بالبحث الواعي العميق لأنها ذات أثر كبير على الحضارة الليبية القديمة وذات دلالة تاريخية عميقة.

ومما لا شك فيه أن الليبيين القدماء كانوا يستعملون المعادن إلى حد ما. وقد سبق أن لاحظنا في قائمة الغنائم التي استولى عليها المصريون من الأمير الليبي مريي «ذهبه وفضته وأوانيه البرونزية» وأكثر من تسعة آلاف «من سيوف المشواش البرونزية» ثم «أواني الشرب الفضية» و«السكاكين». وكان من جملة الغنائم التي استولى عليها رمسيس الثالث من الليبيين (115) سيفاً بطول خمسة سواعد و(124) سيفاً بطول ثلاثة سواعد.

ويؤكد هذه المعلومات ما نجده من تمثيل للأوعية الليبية في النقوش المصرية وما ذكره الكتاب الكلاسيكيون عن السيوف الليبية.

ولكنا نخطئ إن خرجنا من هذه المعلومات إلى القول إن الليبيين جميعاً كانوا يعيشون في «عصر المعادن الشامل» لأنهم في الواقع إنّما كانوا صدفة يستعملون المعادن: فقد كانت المعادن المفيدة في الماضي كما هي الحالة اليوم تأتي لليبيين من الخارج. وتدل أشكال الزّهريات المعدنية الخاصة بالأمراء الليبيين على أنها من أُصول أجنبية. أما السيوف الطويلة فقد كانت من النوع المتداول في جنوب أوروبا وبين الشردن بالذات. ونحن نعلم أن هؤلاء كانوا حلفاء لأبناء الشمال الإفريقي الليبيين. والحقيقة المعروفة عن قلة المعادن المحلية وندرتها في الشمال الإفريقي من تونس إلى مصر في العصور التاريخية القديمة هي في حد ذاتها كافية للتشكيك فيما إذا كان

الليبيون أنفسهم قد عرفوا فن صناعة المعادن. وإذا استثنينا خام الحديد الممتاز «الهيماتيت»[20] الأحمر اللون في مارماريكا. وعروق النحاس الأحمر في جبل العقبة فإنه لم توجد في ليبيا القديمة أية معادن أُخرى قابلة للتصنيع. صحيح أنه كان هنالك بعض الرواسب الحديدية على حدود ليبيا الغربية. وكميات صغيرة من رواسب النحاس الأحمر في المنحدرات الشرقية لجبال أطلس ولكن ليس هنالك ما يدل على أنها اكتشفت قبل العصر الروماني. وحتى في أيامنا هذه فإن ليبيا تعتمد كلية على العالم الخارجي للحصول على حاجتها من المعادن.

ولابد من القول بهذا الصدد إن تمحيص الكتابات الكلاسيكية ذات العلاقة بالأسلحة الليبية أمرٌ له مغزى كبير بالنسبة لهذا الموضوع لأن شعباً محباً للقتال مثل الليبيين يزود بكميات كبيرة من أدوات النحاس الأحمر والبرونز والحديد لابد أنه كان بالتأكيد يزود بالأسلحة المعدنية ولكن الحالة لم تكن كذلك في العهدين الإغريقي والروماني. وصحيح أن كلاًّ من «هلاَّنيكوس Hellanicus» نيوكولاس «Nicolaus» الدمشقيين تحدث عن السيوف الليبية ولكنهما كانا يعنيان الليبيين الغربيين الذين كانوا قد تأثروا بالفينيقيين في قرطاجنة وليس الليبيين الشرقيين (سكان ليبيا بحدودها الحالية) الذين قال عنهم ديودورس الصقلي (Deodorus Siculus) إن الواحد منهم كان يتسلح بثلاثة رماح وحقيبة حجارة وكانوا يجهلون السيوف والخوذات والأسلحة الأخرى. واستكمالاً لهذه الصورة التي رسمها ديودورس تضيف هنا أنهم كانوا أيضاً يتسلحون بالقوس والنشاب. وصحيح كذلك أن الأوزيين كانوا في احتفالاتهم الدينية يجعلون إحدى عذراواتهم تلبس «الخوذة الكورنثية والدرع الإغريقي»[21]. ولكن هذه الأشياء كانت مستوردة؛ يدل على ذلك أن هيرودوتس نفسه لا يلبث أن يعلن أنه لم يكن يعرف «كيف كان هؤلاء القوم يلبسون مثل تلك العذراء قبل استيطان الإغريق في المناطق المجاورة». ويفترض أنهم ربما كانوا يستعملون أسلحة مصرية. ثم يؤكد أن

20- الهيماتيت (Haematite) هو أكسيد الحديديك ($ح_2أ_3$) ولونه أحمر بني ويحتوي 57% من الحديد.

21- Herodotus, iv, p. 302.

الإغريق أنفسهم إنما أخذوا الدرقة والخوذة عن المصريين[22]. وجدير بالذكر في هذا الخصوص أن الأوزيين أنفسهم كانوا يستعملون النبابيت والحجارة في القتال الذي كان يشكل جزءاً من احتفالاتهم الدينية. ونحن نعلم أن الليبيين أجهزوا على من كان متأخراً من الفرس من جند أرياندس «Aryandes» من أجل ملابسهم وأسلحتهم أثناء تقهقر الجيش الفارسي من منطقة برقة. كما نعلم أن الفرق الليبية في جيش كزركسيس بمصر كانت مسلحة برماح صليت رؤوسها الخشبية على النار لتكتسب شيئاً من الصلابة. أما الحراب ذات الأسل التي ذكر الشاعر الإيطالي «Silius Italicus» أنها كانت سلاحاً ليبياً فليس من الضروري أنها كانت ذات رؤوس معدنية لأن الشاعر نفسه يشير في مكان آخر إلى جماعة أُخرى من الليبيين كانت مسلحة بالحراب ذاتها ومع ذلك فهو يصفها بأنها كان ينقصها الحديد.

وقد ذكر كوريبوس «Corippus» أن أسلحة الليبيين في أوائل العهد البيزنطي كانت في بعض الحالات – بل ربما في أكثرها – من المعدن. وتجدر الإشارة إلى أن الأدلة المتعلقة بالأسلحة لا تشير فقط إلى ندرة المعادن وإنما تذكر أيضاً أن الزهريات الذهبية والفضية والبرونزية الواردة في النصوص المصرية لا ذكر لها عند كتاب العصر الكلاسيكي فهم لا يذكرون إلا الكؤوس والأواني الخزفية أو الخشبية أو المصنوعة من لحاء الشجر[23]. ومن ناحية ثانية فنحن في الوقت الذي نجد فيه نساء قبيلة الأدرماخيدي المتأثرة بالحضارة المصرية يحلين سيقانهن بخلاخيل برونزية، نجد أخواتهن نساء الأوزيين البعيدين عن مصر وتأثيرها يقنعن بالخلاخيل الجلدية[24].

ممّا تقدم يتبين لنا أن المعدن كان شيئاً نادراً ولكن الرؤساء الكبار كانت لديهم كميات كبيرة منه، كما أن المحاربين الليبيين الذين كانوا على احتكاك بالمصريين في الشرق أو بالقرطاجيين في الغرب كانوا يتمكنون من الحصول عليه. أما أغلبية رجال القبائل فلم يكن لديهم منه ما يكفي لأن يستعملونه

22- المرجع السابق، نفس الصفحة.

23- Mela, 1. 8.

24- Herodotus, iv, pp 299 – 301.

رؤوساً لأسلحتهم أو ليصنعوا منه سيوفهم. والواقع أن الليبيين يظهرون في العصر التاريخي، وقد تعدوا فقط مرحلة حضارة العصر الحجري الحديث، كحلفاء لمستعملي المعادن من أمثال الشردن والقرطاجيين. وهذه نقطة هامة لأن جزيرة سردينيا التي كانت إلى حد ما خاضعة لسيطرة الشردن كانت غنية بالمعادن. وقد سبق أن قلنا إن سيوف رجال القبائل الليبية الطويلة كانت من النوع المعروف في جنوب أوروبا. وتظهر رسوم هذه السيوف على الآثار المصرية من عهد الدولة الحديثة بمصر كأسلحة مميزة للشردن والشكلش العاملين كمرتزقة في الجيش المصري. وبناء على هذا يمكننا أن نستنتج باطمئنان أن الشردن، جوالة البحر، المتحالفين مع الليبيين ضد مصر، هم الذين سلحوا حلفاءهم بالأسلحة المعدنية. ولهذه القضية دلالة بالغة على مدى توثق العلاقات بين الشماليين (أبناء جنوب أوروبا) والإفريقيين (سكان شمال إفريقيا) وعلى طبيعة الغزوات التي قامت بها أحلافهم ضد مصر.

الأسلحة والحروب:

لم يأنف الليبيون من استعمال أبسط الأسلحة كأسلحة هجومية، فقد سبقت الإشارة لاستعمالهم للنبانيت والحجارة التي كانوا يقذفونها بقوة إما باليد أو بالمقلاع. أما عصيهم فكانت إما مستقيمة أو منحنية بعض الشيء عند نهايتها. وإذا قصدوا بها أن تقذف فإنهم كانوا يحنونها على شكل الترمباش «Turumbash» السوداني الحالي.

وقد استعمل الليبيون بشكل عام أسلحة بدائية للغاية. أما سلاحهم الممتاز فقد كان دون شك القوس والسهام والرمح القصير. ونحن نراهم في مناظر المعارك الكبرى على آثار الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين مسلحين بالأقواس. وتقول نصوص مرنبتاح عن الأمير الليبي مريي إنه هاجم التمحو بنبالته وإنه أثناء انهزامه فيما بعد خلف وراءه قوسه وسهامه وحقيبته. وكان ضمن الغنائم التي استولى عليها مرنبتاح أكثر من ألفي قوس بينما استولى رمسيس الثالث على عدد من الأقواس وعلى (2310) جعب. وتظهر الأقواس الليبية صغيرة جداً – كما هي الحال في بعض الأحيان بالنسبة

للأقـواس المصرية – إلى حد أنها تجعلنا نميل للاعتقاد أنها كانت تستعمل لقـذف السـهام الصغيرة السـامة. ويدل شـكلها أيضاً على أنها أشـبه بالأقواس الآسـيوية المنقوشـة على الآثار المصرية منهـا بالأقواس الإفريقية الحديثـة. وكان القـوس الليبي المألوف أشـبه بضلعي زاويـة منفرجة بمقدار (140) درجة. أما أقواس الرؤساء فكانت في بعض الحالات معقوفة الطرفين. وفـي حالة واحدة يظهـر القوس صغيراً للغاية إلى حـد يحملنا على وجوب اعتبـاره إمـا نموذجاً لقوس وإمـا أن يكون الفنان قد صغره لأسـباب تقليدية كالحاجة لتوفير الفراغ مثلاً.

أما رؤوس السهام الليبية فكانت من أشكال مختلفة. وقد وجدت أعداد كبيرة منها. وهي من الصوان أو العقيق الأحمر أو حجارة أخرى. في الصحراء وفـي الواحات المصرية وفي الفيوم مما يرجح الاعتقاد أن هذه الرؤوس هي التي كانت مستعملة بصفة عامة. ومن الناحية الأخرى فإن الرؤوس المحسنة التي ترجع إلى العصر الحجري الحديث. والتي كانت شـائعة الاسـتعمال في مصر حتـى قبيل عصر الأسـرات. يرجح أنها كانت مسـتعملة مـن قبل الليبيين الأقـل تقدماً خـلال عصرهم التاريخـي. ونحن نجد نظيراً لهـذه الرؤوس بين رؤوس السـهام الإثيوبية. فقد كان الإثيوبيـون حتى القرن الخامس قبل الميلاد – عندما كانوا يعملون في جيش كزركسيس الفارسي بمصر – يستعملون سـهاماً «ليسـت لها رؤوس من حديد وإنما من حجر محدد إلى درجة عالية. كالنوع الذي كان يسـتخدم في حفر الأختام»[25]. ويمكـن التأكيد أن الرؤوس الصوانية التي وجدت في الفيوم هي رؤوس سـهام ليبية من العصر الحجري الحديث وذلك بسبب التوزيع الجغرافي الواسع لعدة أنواع منها ولوجودها في أماكن صالحة للسكن ولعدم وجودها في وادي النيل.

أمـا الرماح التي كان يتميز بها الليبيون. علـى الأقل بعد ظهور الحصان. فيبـدو أنها لم تكن شـائعة فـي وقت الغـزوات الليبية لمصـر. ففي قائمة الأسـلحة الليبيـة التـي غنمها رمسـيس الثالث ذكـرت اثنتان وتسـعون حربة فقط. ومع بدء العصر الكلاسـيكي عم اسـتعمال السـهام والرماح

25- Herodotus VII. P, 440.

الصغيرة والحراب في الشـمال الإفريقي. وهذه الأسلحة كانت رؤوسها مثل رؤوس السـهام الليبية. وإذا لاحظنا أشكال المجموعة الثانية من هذه الرؤوس سـنجد بينها أمثلة متنوعة من رؤوس الحراب الصغيرة والكبيرة وقد وجدت جميعها في منطقة الفيوم. ولقد سـبق أن ذكرنا أن رؤوس الحراب كانت في بعـض الحالات تمّـتن بصليها على النار. وتدل الكتابات الكلاسـيكية على أن الرماح الليبية كانت تستخدم غالباً للقذف وليس للطعن. وكانت العادة أن يحمل المحارب رمحين أو ثلاثة من أجل هذه الغاية.

وبالإضافة لكل الأسـلحة التي سـبق ذكرها اسـتعملوا السـيف على نطـاق محدود فـي الأوقات التي تحالفـوا فيها مع أقوام أكثـر منهم تقدماً. ونحـن نعلم أن المصريين غنموا (9111) سـيفاً برونزياً من المشـواش. كما سـبق أن ذكرنا السيوف الليبية من طول خمسة (263 سم) وثلاثة سواعد (159 سم) ضمن الغنائم التي استولى عليها رمسيس الثالث.

هذه السـيوف الضخمة كانت. كما سـبق أن ذكر. من صنع أجنبي. وقد ذكر سيليوس الإيطالي نوعاً آخر من السيوف قال إن الأدرماخيدي استعملوه. ويتضمن وصف سـيليوس لهذا النوع أنه كان محنيـاً كالمنجل وبذلك فهو يشبه النوع الذي استعمله المصريون القدماء والذي ترجع أصوله إلى العصر الحجري الحديث.

وفي العصر الكلاسـيكي اسـتعمل الليبيـون المتصلـون بعالم البحر الأبيـض المتوسـط. في بعض الحـالات. نوعاً قصيـراً من السـيوف المنحنية القاطعة هو المشـيرا «Machaera» بينما استعملوا في العصر البيزنطي سـيوفاً قصيرة مسـتقيمة هي في الواقع عبارة عن سكاكين طويلة. ولابد من التمييز بين هذه السـيوف القصيرة والسـيوف التي غنمها مرنبتاح من الليبيـين: فقد كانت الأولى عبارة عن خناجـر كالتي تظهر في أيدي الليبيين منذ عهد ني – أوسـر – رع وخلال عهد الدولة الحديثة في مصر. والواقع أنه من الصعب أن نميز بين هذه الخناجر والأسلحة المصرية فهي في الحقيقة من النوع الذي كان شـائعاً في بلدان البحر الأبيض المتوسـط. ونحن نعرف أنها

كانت لها أغماد من شكل نصابها. ونعرف كذلك من شكل النصاب أنها إنما كانت تستعمل للطعن. وفي إحدى صور الدهان على آثار بني حسن يظهر احد المرتزقة الليبيين وهو يحمل فأساً هلالية الحد. وذلك هو الشكل الذي كان شائعاً في مصر. ومن المحتمل أن يكون حاملها قد سلحه بها مستخدِموه المصريون. ويذكر بهذا الصدد أن سيليوس الإيطالي أشار مرتين لوجود ليبيين في الجيش القرطاجي مسلحين بالفؤوس. وإن كانت الفؤوس المقصودة في هذه الحالة هي فؤوس من النوع المزدوج أي ذي الحدين.

وفي الحديث عن أنواع الأسلحة تجدر الإشارة إلى أن الشعب المتأخر حضارياً يغلب على أسلحته أن تكون هجومية أكثر منها دفاعية لأن المبدأ ينطبق تماماً على حالة سكان الشمال الإفريقي القدماء. ولكن ذلك لا يعني أن أياً من شعوب هذه المنطقة كان مجرداً تماماً من وسائل الدفاع والوقاية كما ذكر هيرودوتس عن الجمفزانيتين؛ فالمعاطف الجلدية السميكة تعتبر وسيلة وقاية وقد كانت شائعة بشكل عام إلى حد أن جنود المراتب الدنيا من المرتزقة الليبيين في جيش كزركسيس الفارسي بمصر كانوا يرتدونها. وفي العصر الكلاسيكي نجد التروس الجلدية مستعملة بانتظام. وكان النوع الشائع منها هو الشكل الكبير الذي كان مدوراً ومحدباً إلى حد ما. وقد ذكر هيرودوتس أن المكاي كانوا يستعملون ترساً صغيراً مدوراً يصنعونه من جلد النعام[26]. ويخبرنا سيليوس الايطالي أن الليبيين كانوا يطلون تروسهم بالدهان.

ولا يبدو أن الدرقات والدروع كانت مستعملة على نطاق واسع وإن كان الكتّاب الرومان قد أشاروا لها بين الحين والآخر في معرض وصفهم للرؤساء الليبيين. وبالعكس فإن ديودورس الصقلي ذكر بصراحة أنها لم تكن مستعملة على الاطلاق[27].

وحينما نبدأ بالحديث عن المعدات فلا بد أن نعيد للذاكرة ما سبق أن

26- Herodotus, iv, p. 301.

27- عاش ديودورس في القرن الميلادي الأول 4 .49 ,Diodorus Siculus, iii.
وألف تاريخه المذكور (Bibliotheque Historique)

أشرنا إليه من أن الليبيين كانوا يستعملون جعب السهام منذ وقت غزواتهم لمصر. كما أنهم كانوا يستعملون نوعاً من الحقائب الجلدية فيه رماة الحجارة حجارتهم. ولعل أهم المعدات الليبية القديمة هي قربة الماء التي كان يستحيل عليهم عبور الصحراء دونها؛ وقد ورد ذكرها لأول مرة على آثار الدولة الحديثة في مصر. وفي هذا العصر وفي العصر الكلاسيكي من بعده كانت القرب تحمل بربطها تحت بطون الخيل حتى لا يتبخر الماء منها. وهذه عادة لا تزال دارجة حتى اليوم.

ومن المعدات الأخرى العربات الحربية؛ فقد كان بين ما استولى عليه رمسيس الثالث من الليبيين حوالي مائة عربة حربية. ويقول هيرودوتس إن الإغريق عرفوا العربة ذات الخيول الأربعة عن طريق الليبيين[28]. ولكن هذا القول، إن صح، لا ينفي أن يكون الليبيون قد أخذوا استعمال هذه العربات الحربية عن المصريين. وعلى أي حال فإن نوعاً من العربات ذات العجلات كان قد عم انتشاره في الشمال الإفريقي مع بدء العصر الكلاسيكي. وفي ليبيا عرفها الاسبستي على الساحل وعرفها الجرامنتيون في الداخل[29]. كما أن الفرقة الليبية في جيش كزركسيس الفارسي بمصر كانت تمتطي هذه العربات. ومن المعروف بهذا الخصوص أن كل قوم من الأقوام المختلفة في الجيش الفارسي إنما كانوا يحاربون بأسلحتهم الوطنية. وقد اشتهرت قورينة بالعربات والسباق الخاص بها. ولكن شأن العربة لم يلبث أن انحط في العصر الروماني. ولا شك أن العربة الليبية كانت من النوع البسيط كما أنها كانت تصنع محلياً. وهي قطعاً لم تكن من النوع الفاخر المصنوع من الخشب والبرونز. وهو النوع الذي كان شائعاً في مصر وآسيا وبلاد اليونان. وفي حديثنا عن المعدات عامة والعربات خاصة يجدر بنا أن نتذكر ما قلناه سابقاً عن الخيل الليبية التي تظهر لأول مرة في فترة الغزوات الليبية الكبرى لمصر.

28- Herodotus IV, 305. The four horse chariot is at least as early as the Homeric poems – Iliad viii 185, Odyss xiii. 81 – and appeared in the Olympic contests in the Seventh century B.C.

29- هنالك نموذج للعربة الجرامنتية تمكن مشاهدته في متحف السراي الحمراء بطرابلس.

وفيما يتعلق بأساليب القتال نجد الليبيين في فترة الغزوات الكبرى لمصر يتبعون تكتيكاً يختلف عن التكتيك الذي صاروا يتبعونه في عصر لاحق بعدما أصبح أكثرهم يقاتلون من على ظهور الخيل. فعلى سبيل المثال نحن نعلم أن المشواش عندما أخضعوا التحنو، المجاورين لهم من جهة الشرق، أجبروهم على الانضمام إليهم في غزوتهم لمصر. وكان أميرهم مريي قد حالف أعداداً من الشردن والشكلش والإكوش واللوكا والتراكيين «منتخباً لهذه الغزوة أحسن المحاربين وأشجع الرجال في بلاده». ولما تم له ما أراد زحف بذلك الجيش على مصر وراح في طريقه على المراكز المصرية المتقدمة حتى بلغ وادي النيل حيث دنا من ميدان المعركة الذي كانت تحتشد فيه قوات الفرعون مرنبتاح. وقبل فجر اليوم السابق ليوم المعركة، قام الرئيس الكبير بنفسه بجولة بين خيام جنده الجلدية يشجع جنوده ويحثهم على الاستبسال في القتال. وفي صبيحة يوم المعركة كانت مقدمة الجيش الليبي تقف ضد المصريين وجهاً لوجه. وبدأت بين الفريقين معركة رهيبة دارت رحاها طيلة ست ساعات كان المصريون خلالها يطلقون رفوفاً من السهام على صفوف الجيش الليبي برهنت على صلابتها رغم قلة تنظيمها. وأسفرت المعركة في النهاية عن اندحار المغيرين ثم انهزامهم مخلفين وراءهم أقواسهم وقربهم وأكثر من تسعة آلاف قتيل ومثلهم من الأسرى.

أما العصر الكلاسيكي فقد تغير تكتيك القتال الليبي وتطور، إذ نحن نجد المعارك الليبية تختلف كثيراً في أساليبها عن المعارك والحملات الأولى في عهد الغزوات الكبرى المذكورة. تلك الغزوات التي كانت، على ما تميزت به معاركها من وحشية وبربرية، تدل دلالة قاطعة على ثبات الليبيين وصلابتهم العسكرية. ويتجلى التطور الذي طرأ على أساليب القتال في العصرين الإغريقي والروماني في أن المحارب الإفريقي، شأنه في ذلك شأن المحارب الفارسي المعاصر له، كان فارساً خفيف الحركة، سريع الانقضاض، وسرعته في التراجع تفوق سرعته في الهجوم، ولا قبل لمشاة العدو بالدنو منه. ولذلك فنحن نجد أن الخيالة الإفريقيين، ومنهم الليبيون، كانوا في أيام يوليس قيصر نادراً ما يشتبكون مع عدوهم على أرض مستوية، لأنهم

كانوا يفضلون أن ينصبوا له الكمائن بخيولهم بين الأودية ثم ينقضون عليه فجأة. وفي بعض الأحيان فقط كانوا يحاربون بمؤازرة مشاة مسلحين تسليحاً خفيفاً وذلك لكي يتمكنوا من التحرك بسهولة وبسرعة ولكي يتمكنوا من المحافظة على التماسك والثبات. ونحن نلمح صفة الثبات القديم هذه ماثلة في منطقة طرابلس في مرحلة لاحقة عندما نجد الليبيين ينيخون جمالهم على شكل دائرة يضعون نساءهم وأطفالهم وأمتعتهم في وسطها ثم يستحمون هم أنفسهم خلف صفوف الجمال استعداداً لقتال العدو المهاجم.

وهنالك ناحية أُخرى تدل على أن الليبيين عرفوا أساليب القتال المنتظم من وراء خطوط محصنة: فقد وجدت آثار حصون جيدة في أماكن متفرقة من ليبيا وخاصة في مناطق قبيلة الأوسخيزي وقبيلة الناسامونيين. وهذه مسألة لم يرد لها ذكر في أية مصادر تاريخية باستثناء أحد النقوش المصرية الذي يظهر فيه رمسيس الثاني وهو يقتحم حصناً اسمه «ساتونا» «Satuna» – والمفروض أن هذا هو اسم إحدى المدن السورية القديمة -. والغريب في أمر هذا النقش أن حامية الحصن هي عبارة عن خليط من الآسيويين والليبيين؛ وهذه ظاهرة جديرة بالاهتمام حتى لو سلمنا جدلاً بان العملية، موضوع النقش ولم تقع في ليبيا وإنما وقعت في سوريا لأن مغزاها واضح وهو يؤيد ما ذهبنا إليه في بداية هذه الفقرة.

وفي وقت لاحق نجد القتال من داخل دائرة من الجمال يصبح لعبة محببة لدى الليبيين يلجأون إليها لاستيعاب هجوم أعدائهم. فقد كانت الجمال تناخ على شكل دائرة ثم يصطف المحاربون خلفها بينما يضعون نساءهم وأطفالهم وأمتعتهم في الوسط[30] - وفي بعض الأحيان كان الرجال ينصبون تروسهم أمام الجمال لوقايتها من أذى المهاجمين وسهامهم. ولم يكن البربر القدماء أقل شجاعة فردية من أحفادهم. ولكنهم كغيرهم من البدائيين كانوا يصابون بالذعر في بعض الأحيان كما حدث عندما تمكن بضعة من فرسان يوليس قيصر الغاليين (الفرنسيين) من تشتيت ألفي

30- Procopius, De bello Vandalico, ii, 11.

فارس من فرسان شمال إفريقيا. ولكن هؤلاء الأخيرين كانوا في الأحوال المواتية يتفجرون جرأة وعناداً في وجه أعدائهم. فثورة إنارس «Inarus» وتكفارياس (Tacfarinas) كانتا في حد ذاتهما عمليتين جريئتين تميزتا بالشجاعة والتصميم وإن كانتا فشلتا في تحقيق أهدافهما. ونحن ما نزال نذكر ما قاله ليفي (Livy) من أن سيوف المرتزقة الليبيين هي التي أدت إلى هزيمة روما في معركة كاني (canae)[31]. وبالرغم من أسلحة الليبيين كانت ضعيفة ومختلفة إلا انهم في حالات استقلالهم التام. كما حدث في عهد الدولة المصرية الحديثة مثلاً. كانوا يتميزون دائماً بكثرتهم وشجاعتهم التي كانت تكفي لتشكيل تهديد دائم لمصر لو لم يكن ينقصها التنظيم بصورة مركزة. وفي العصر الكلاسيكي ظل الليبيون يتحلون بشجاعتهم القديمة كما أنهم تمكنوا بفضل انتشار الحصان والجمل. من تطوير تكتيك حربي يعتمد على مناوشة العدو وإنهاكه. أما قدرتهم على الاتحاد فإنها لم تتطور كثيراً كما أن أسلحتهم. بعكس أسلحة أقوام البحر الأبيض المتوسط الأخرى. لم تتحسن. ولذلك فإنهم لم يستطيعوا الصمود أمام الخيالة الرومان المنظمين المدربين تدريباً حسناً. ولا أمام العرب المسلمين الذين كانت حرارة الإسلام في بداية عصره قد وحدت صفوفهم وقلوبهم. وبإيجاز فإن تاريخ الليبيين العسكري على غموضه يبرز مزية عامة لهم هي الشجاعة الفردية التي تصل حد التوحش والتي فقدت فعاليتها لانعدام الطاعة والثبات والانضباط.

31- Livy, xx, 47, 48.

الأدوات المنزلية:

يمكننا أن نجمل أدوات الليبيين المنزلية القديمة والتي وردت ما يثبت وجودها. كما يلي:

الكراسي:

فقج كان بين الغنائم التي استولى عليها المصريون من مربي عرش هذا الأمير الليبي. ولكن المفروض أن الكراسي لم تكن شائعة الاستعمال.

الزَّهريات:

لقد سبق ذكر الزهريات الذهبية والفضية والبرونزية بين الغنائم التي استولى عليها المصريون من الأمراء الليبيين. وتدل أشكال تلك الزهريات. كما صورتها النقوش المصرية. على أنها كانت من صنع سوري. ولتلك الزهريات أهمية خاصة من حيث دلالتها على ثراء الأمراء الليبيين وعلى علاقاتهم بالآسيويين.

الأواني الخزفية:

من المحتمل أن يكون المصريون قد قصدوا هذا النوع من الأواني عندما سجلوا في قوائم غنائمهم من الليبيين «الزهريات المتنوعة». ومن المؤكد أن الليبيين كانوا يستعملون فناجين خزفية وجراراً فخارية. وإن كانت الخزفيات إجمالاً نادرة لدى الجرامنتيين.

أواني قشر بيض النعام:

لما كان الجرامنتيون لا يستطيعون صنع الأواني الخزفية نظراً لأن تربتهم رملية فقد عملوا فناجين من قشر بيض النعام. وقد ذكر ميلا[32] أن الليبيين عرفوا نوعاً آخر من الأواني هو الأولني المصنوعة من الخشب أو لحاء جذوع الشجر.

الحبال:

وكانوا يصنعونها من الجلد أو من ألياف النخل كما أنهم كانوا يصنعون

32- Mela, I, 8.

مــن الليف أيضاً عصبة الرأس (نظير العقال عنــد العرب). أمّا المقلاع فلابد أنهم كانوا يصنعونه مــن الجلد – وكانوا كذلك يصنعون الحبال النباتية من نبات اســمه «Lygeum Spartum». وقج وجــد أوريك بيتس حبلاً من هذا النــوع حزم به كفن أحد البدو الرحل في قبر اكتشــفه بيتس في جربة. قرب سيوة سنة 1910م.

قرَب الماء:

سبقت الإشارة إليها وإلى كيفية حملها.

السّلال:

تدل إحدى الصور على آثار بني حســن أن الســلال كانت مستعملة عند الليبيــين. فقد ظهــرت الليبيات في تلك الصورة وهــن يحملن أطفالهن في سلال على ظهورهن.

الحصر الجلدية:

لقــد عرف الليبيون الحصــر الجلدية وإن كان بروكوبيــس[33] - إما لأنه كان يتحــدث عن بيئة ليبية فقيرة أو ميلاً منه للمبالغة في تأخر القبائل الليبية البدوية وهمجيتها – يقول إن عظماء الرجال فقط هم الذين كانوا يتمتعون بهــذه الكماليات ولا شــك أن الليبيين كانوا يقتنون أشــياء أُخرى كثيرة لم تذكرها مصادرنا من الإبر والخيوط والأكياس الجلدية والأدوات اللازمة لصنعها، وأوعية لغلي اللحــم، وأزندة من الصوان أو غيره وأدوات لتصنيع الجلود. وكان الليبيون الذين شــغلوا الأجزاء الشــمالية من الفيوم يمتلكون نوعاً بســيطاً من الطواحين اليدوية يســتعملونه في طحن حبوبهم. وما زالت أمثال هذه الطواحين تكتشف في المواقع التي كانوا يسكنونها.

الموسيقى والرقص:

كانت الموسيقى الليبية في منتهى البدائية. وكان أبسط أشكالها تلك الصرخات التي كانوا يطلقونها في حالة نشوتهم والتي لاحظها هيرودوتس بــين ليبيي عصره وقال في معرض حديــث عنها: «إن الصرخات العالية أثناء

33- Procopius, De belloo vandalico, ii, 6.

أداء الطقــوس الإغريقية إنمــا نقلت عن إفريقيا حيث تتميــز بهذا النوع من الصراخ. النســاء الليبيات اللواتــي يطلقن صرخاتهن بشــيء غير قليل من الحلاوة»[34]. ولعل هذه الصرخات هي أصل الزغاريد المألوفة في هذه الأيام.

وبالإضافــة إلــى هذه الصرخــات فلابــد أن الليبيين القدمــاء كانت لهم أغانيهــم التــي كانــت دينية في بعــض الحالات كالــذي ذكر من أن النســاء الليبيات في ســيوة كن وقــت عبادتهن للإله آمون «يتغنــين بترنيمة غريبة على طريقة أهل البلاد».

أما الآلات الموسيقية القديمة عند الليبيين فإن ما وردنا عنها قليل. ويبدو أن نوعاً من الصنج كان مســتعملاً كما يظهر في الرســوم المصرية. وكانت هنالك آلة أُخرى هي الطبل ذو الوجهين في الرســوم المصرية. وكانت هنالك آلة أُخرى هي الطبل ذو الوجهين الذي يدل شــكله على أنه كان مصنوعاً إما مــن الفخار أو الخشــب الذي غطيت نهاياته بالجلــد. وكان هذا الطبل يحمل برباط يشــده إلى الكتفين ويتركه يتدلى أفقياً بحيث تكون طبلتاه في وضع قريب من اليدين ليمكن الدق عليهما بسهولة.

وهنالك آلة موســيقية ثالثة هــي المزمار البســيط ذو القصبة الواحدة وكان يصنع في الغالب إما من الخشــب أو من عظام الســاق لنوع من الطيور الكبيرة. وكان به عدد غير معروف من الثقوب التي يستعملها العازف لعزف ألحانه المختلفة. ولعل هذا المزمار هو ســلف الشــبابة الحالية وإن كان يختلف عنهــا في أن طرفه من جهة الفم كان أدق من الطرف الآخر. وفي الحديث عن المزمار لابد أن نشــير إلى «دوريوس ســاميوس»[35] (Dorius Samius) ذكر وجود المزمار المزدوج (سلف المقرونة الحالية) عند الليبيين.

أما أكثر الآلات الموســيقية الليبية تقدماً، وهي آلــة وردت عليها إثباتات قديمــة، فقد كانــت القيثار الصغيــر ذا الزاوية القائمة. وقــد كان هذا النوع من القيثار شــائع الاســتعمال في مصر إلى جانب أنواع أُخرى من القيثارات

34- Herodotus iv, p. 305.
35- Dorius Samius, Frag. 34 in Fragmenta Historicorum Graecorum (Edited by Muller, Paris, 1841).

التـي كانت أكثر منه تعقيداً. ولعل الليبيين كانوا يستعملون جميع الآلات الموسيقية المذكورة في وقت واحد في مناسبات الاحتفالات العامة ولعل الليبيين كانوا يستعملون جميع الآلات الموسيقية المذكورة في وقت واحد في مناسبات الاحتفالات العامة إذ إننا نجد أحد النقوش المصرية يمثل جميع هذه الآلات أثناء استعمالها في آن واحد.

وكان الليبيون يقومون بالرقص ويسيرون في مواكب احتفالية؛ فقد كان المرتزقة منهم في الجيش المصري يمارسون الرقص الحربي في عهد الدولة الحديثة. وكان المرتزقة من التمحو ينقسمون وقت الرقص إلى فريقين أحدهما واقف يضبط الإيقاع «بالطق» أي القرع بعصا على أُخرى، والفريق الثاني يتحرك ويقفز على ذلك الإيقاع. وهنالك مشهد آخر في النقوش المصرية يذكرنا بالرقصات الحربية التي تمارسها الأقوام البدائية وخاصة القبائل الهندية الحمراء في أمريكا. وقد سبقت الإشارة إلى رقصة أُخرى هي ذلك الرقص الديني الذي كانت تمارسه عذارى الأوزيين والذي يمكن أن نعتبره نوعاً من الرقص الحربي. ويشير أوريك بيتس[36] بهذا الصدد إلى رقصة كان أهل سيوة يمارسونها وهي ليست عربية وليست سودانية وكان شباب سيوة يؤدونها مرة واحدة في السنة بمناسبة مولد سيدي الشيخ سليمان، ولي الواحة، فيقفون في صفين متواجهين ويقومون بحركات هي أقرب إلى الرقص الريفي في إنجلترا منها إلى الرقص العربي أو السوداني مما يرجح الاعتقاد أنها رقصة قديمة موروثة عن الليبيين الذين كانوا يسكنون الواحة.

ومن الواضح أن المواكب كانت تشكل جزءاً من الاحتفالات الليبية الدينية فقد كان الأوزيون يكرمون إلهتهم أثينا (الأوزية) بموكب سنوي يدورون فيه حول بحيرة «تريتونس Tritonis» (شط الجريد بتونس) كما أن طقوس عبادة الإله آمون كانت تتميز بالمواكب. وقد وصف سيليوس الإيطالي[37] مواكب الحداد حول جثمان الأميرة اسبستي (Asbystae). وكان

36- Bates, Oric, The Eastern Libyans,, Macmillan & Co. Limited, Sy. Martin>s St. London 1914, p. 156.
37- Siliuus Italicus ii. 265.

هنالك أيضاً موكب سنوي مقدس يحمل خلاله رمز آمون، إله طيبة، ويدار به في ليبيا طيلة اثني عشر يوماً.

النقش والنحت:

لقد سبقت الإشارة إلى النقوش الصخرية في الصحراء الكبرى عامة وفي الصحراء الليبية خاصة. أما المنحوتات التي عرفت فعلاً في ليبيا فهي قليلة وترجع إلى عصر متأخر. ولعل أهم هذه المنحوتات ما وجد في غرزة (على بعد سبعين فرسخاً[38] إلى الجنوب من طرابلس عند ملتقى خط عرض 10~ 31° شمالاً مع خط طول 41~ 14° شرقاً). وكان قد زار آثار غرزة هذه لأول مرة رجل اسمه كابتن سميث (Captain Smith R. N.) من الأسطول البحري الملكي البريطاني في مارس سنة 1817 م. وكتب يصفها بقوله:

« هذا الموقع عارٍ تظهر فيه كتل قاحلة من الحجر الجيري والحجر الرملي وتقطعها في عدة أماكن فروع وادي زمزم الكبير. وبالرغم من أنني كبحت جماح خيالي ولم أسمح له أن ينطلق متناسباً في تخليقه تناسباً تصاعدياً مع الروايات المثيرة التي سمعتها عن هذا الموقع، إلا أنني لم استطع تفادي الشعور بخيبة الأمل لدى رؤيتي للأبنية السيئة، التي ترجع إلى تاريخ حديث نسبياً وتقوم على حافة الرابية الجبلية، ولبعض القبور ذات الأساليب المختلفة التي تتميز باللامبالاة في الذوق، وتتحلى بأعمدة خالية من التناسب تعلوها تيجان ليس بينها وبين الأعمدة أي انسجام».

ولكن بالرغم من خيبة أمل الكابتن سميث فإن منقوشات ومنحوتات غرزة هذه تكتسب أهمية خاصة عندما نتذكر أن شكلها ومستواها الفني يدلان على أنها كانت من عملٍ محلي وأنها إنما تمثل مرحلة متوسطة بين النقوش الصحراوية القديمة وبين النقوش الرومانية.

وقد اكتشف «دوفيرييه Duveyrier» قرب غدامس لوحاً حفر عليه مشهد تظهر فيه فتاة ملتفتة نحو اليمين وهي جالسة على كرسي بسيط

38- League = الفرسخ = 4 ميل

من نوع كراسي المعسكرات. وقد وضعت قدميها على موطىء خشبي وهي ترتدي حلة طويلة. وشعرها مسرح تسريحة غريبة. وقد مدت ذراعها اليمنى ورفعت فيها جريدة نخل أو ريشة نعام ربط في نهايتها شيء صغير مثلث الشكل. وتظهر خلف هذه الصورة صورة أُخرى أصغر منها كثيراً ولكنها مشابهة لها وربما كانت تمثل إحدى وصيفات الفتاة الأولى. ويظهر أمام الشكل الكبير بناء نصف مقوس تمتد نحوه الجريدة أو الريشة. وتحت نصف القوس شكل ثالث تهشم حتى لم يبق منه إلا الذراع اليمنى. وليس من شك في أن هذا اللوح في مجمله وفي تفاصيله يعكس تأثيراً مصريا قويا يشير إلى عهد الدولة الحديثة ولكن من الثابت أنه من صنع محلي يدل على ذلك الزي البربري الذي كسيت به الصورتان. أما مغزاه فهو ديني: فشكل الفتاة الجالسة ووصيفتها يوحي بأنهما تؤديان طقساً دينياً أمام إله أو روح يسكن المكان المقدس نصف المقوس. وإذا سمحنا لأنفسنا بعقد مقارنة بين فن النقش الصخري في العصر الحجري الحديث وبين فن النحت. على ضآلة ما عرف عنه وما اكتشف منه حتى الآن خرجنا بالقول إن الليبين القدماء الذين بلغوا شأواً معقولاً من الإبداع في فن النقش الصخري لم يبلغوا في فن النحت مستوى يجعل هذا الفن وسيلة تعبير طبيعية وسهلة.

فن البناء:

إن مما يلفت النظر في الآثار الليبية أنه لم يكتشف بينها حتى الآن شيء من النصب الميجاليثية التي ترجع للعصر الحجري بعكس ما عليه الحال في المغرب الأقصى حيث توجد آثار ونصب ميجاليثية كثيرة. ويميل أوريك بيتس[39] إلى تأكيد النظرية القائلة إن البناة الميجاليثيين كانوا قوماً من غرب أوروبا قدموا عبر شبه جزيرة إيبيريا إلى المغرب ولكن موجتهم توقفت عند تونس.

وفي العصر التاريخي نجد لدى بعض الليبيين قلاعاً لا تزال آثارها قائمة في المنطقة الجنوبية الغربية من برقة. ولابد أن طبيعة حياة القبائل الليبية غير المستقرة كانت تقتضي وجود حصون هنا وهناك في مناطق تجوال تلك

39- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limiited, St. Martin>s St, London, 1914, p. 160

القبائل لتكون بمثابة معاقل يلجأون إليها عند الخطر. أو يخزنون فيها ما بأيديهم من أمتعة أو غنائم أو يستعينون بحماتها الأقوياء من أتباعهم. ويقول ديودورس الصقلي بهذا الخصوص: «إن زعماء البدو الرحل من الليبيين لم تكن لهم مدن تجمع شملهم وإنما كانت لهم معاقل قرب مصادر المياه يخزنون فيها ما لديهم من غنائم فائضة عن الحاجة». وقد أيد بلايني الكبير ما ذهب إليه ديودورس الصقلي.

ولدينا مزيد من الإثباتات عن وجود هذه القلاع؛ فكثيراً ما ورد ذكرها عند الكتاب والأدباء الكلاسيكيين. كما أن شيئاً من آثار هذه القلاع ذاتها ما زال قائماً إلى اليوم. وقد شاهد تلك الآثار عدد من الرحالة الحديثين وأعطونا فكرة عن حجومها ومخططاتها وبنائها. ولا تزال آثار واحد من هذه الحصون تشاهد في «هوا سيجال Haeah Segal» في الجنوب الغربي من برقة وهي تدل على أن البناء كان من نوع بدائي خشن يتكون من قطع مستطيلة من الحجارة مثبتة في الأرض بحيث تكون مستطيلاً أبعاده 36×45 متراً. ولابد أن هذا البناء كان في الأصل عبارة عن زريبة مبنية بالطين وأغصان الشجر أو الحجارة الصغيرة.

ولعل أهم هذه الآثار في ليبيا هي تلك القلاع المبنية من عدة أضلاع من الجدران الحجرية في الجزء الجنوبي الغربي لبرقة. ويقول بيتشي: «هنالك آثار عديدة لقلاع قديمة إلى الجنوب من بنغازي. وبعضها تختلف كلية في مخططها عن القلاع الإغريقية والرومانية»[40].

وهذه القلاع ذاتها مبنية «بحجارة كبيرة غير متساوية في حجومها رصت على بعضها البعض دون إسمنت أو طين على أسلوب البناء السيكلوبي «Cyclopian». وكانت أبعاد هذه الأبنية بصورة عامة تتراوح بين (30) إلى (45) متراً في الطول و(24) إلى (30) متراً في العرض. وكان شكلها مستطيلاً وزواياها أسطوانية كما وجدت في مناطق بعض القلاع قبور محفورة في الصخور. وكان يحيط بالقلعة في أغلب الحالات خندق

40- F.W. & H.W. Beechey, Expedition to the North of Africa, p. 244.

عميق أُقيم على حافته الخارجية جدار متين قصير مشيد بقطع كبيرة من الحجارة.

وليس ثمة أدنى شك في أن هذه القلاع وطنية محلية لأنها تختلف في مخططاتها وبنائها عن القلاع البونيقية والإغريقية والرومانية في الشمال الإفريقي. ولأنها موجودة في مناطق كان التأثير الأجنبي فيها ضعيفاً إلى حد يبرّر إهماله. وقد عزا بارث هذه القلاع لقبيلة الأوسخيزي لأن ما شاهده منها كان واقعاً على حافة منطقة سكنى هذه القبيلة قديماً قرب خليج سرت الكبير. ويرجح أوريك بيتس[41] أن تكون تلك القلاع من مخلفات الناسامونيين فقد وجدت آثار بعضها ضمن الحدود الشمالية لمنطقة سكناهم حول القسم الشرقي من خليج سرت الكبير. كما أن هذه القبيلة كانت أقوى من جيرانها الأوسخيزي وبالتالي أجدر بإقامة القلاع. وعلى أي حال هذه القلاع تشهد أن بناتها كانوا يتمتعون بقسط لا بأس به من المهارة في البناء أو أنهم كانوا يسيطرون على أصحاب تلك المهارة ويستخدمونهم. أما زمن هذه القلاع فيمكن رده إلى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد.

وكانت مساكن الليبيين القدماء إما الكهوف الطبيعية أو المنازل الثابتة أو الأكواخ المتنقلة. ومن الملاحظ أن بعض الليبيين كانوا لا يزالون حتى عهد قريب يسكنون الكهوف الطبيعية في مناطق متفرقة من البلاد وخاصة في تلال الجبل الأخضر في برقة. والكهوف الاصطناعية. كما لا يزال يشاهد حتى اليوم في غريان وجبلها[42].

ولما كانت أغلبية الليبيين تعيش عيشة البدو الرحل فإنهم لم يسكنوا منازل ثابتة وإنما سكنوا الخيام والأكواخ المتنقلة. وفي عهد الأسرة المصرية التاسعة عشرة كان الليبيون يستخدمون خيام الجلد التي كانت شائعة في فزان حتى وقت قريب. ولابد أن الخيام ظلت مستعملة لوقت طويل بعد ذلك التاريخ. وبالإضافة للخيام كان الليبيون يسكنون أكواخاً متحركة

41- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin>s St., London, 1914, p. 166.
42- Vischer, Across the Sahara, p. 38.

عرفها الرومان باسم «مباليا أو مجاليا Mapalia, Magalia»[43] وكانت هذه المباليا عبارة عن أكواخ متنقلة. وقد وصف هيرودوتس مساكن الناسامونيين «بأنها كانت تعمل من عروق البروق[44] أو من القصب المشدود بعضه إلى بعض». وكان نقل هذه الأكواخ من مكان لآخر[45] أمراً سهلاً لأنها لم تكن في الواقع سوى حواجز خفيفة تقي ساكنها من الشمس والريح. وكانت المباليا مستخدمة لدى النوميديين وفي داخل مارماريكا ولدى الرعاة الإفريقيين بصورة عامة مما يدل على مدى انتشار هذا النوع من المساكن المتنقلة ليس في ليبيا وحدها وإنما في الشمال الإفريقي بأسره. وفي زمن الحروب البونيقية لم يكن لدى الجنود النوميديين في الميدان أي مأوى غير هذه الأكواخ[46] ولهذا السبب تمكن القائد الروماني سكيبيو أفريكانوس «Scipio Africanus» في إحدى المناسبات من إحراق معسكر سيفاكس «Syphax»[47] النوميدي.

ولا شك أن شكل المباليا كان يختلف من منطقة لأخرى ومن بنّاء لآخر فقد كانت المباليا النوميدية أشبه بشكل القوارب المقلوبة وكان يدعمها من الداخل عصي أو أعمدة خشبية مغروسة في الأرض. وأغلب الظن أنها كانت شديدة الشبه بأكواخ منطقة طرابلس. وبعض الأكواخ كان شبيهاً بالأفران ولعل هذا النوع هو الذي تظهر أشكاله في الفسيفساء التي اكتشفت في موقع «العالية» بتونس. وتمثل هذه الفسيفساء مشهدين من النيل ولكن فنّان الشمال الإفريقي زين المشهدين بصور أكواخ من الواضح أنها كانت مباليا. وقد علمت هذه الأكواخ بشد عدد من العصي إلى بعضها البعض ثموضع فوقها سقف من الأغصان المنسوجة. ويتخذ هذا السقف شكل مخروط يستطيل ويستدق عند نهايته العُليا بشكل لافت للأنظار. ولعل الغاية من هذه النهاية المستطيلة المنحنية كانت امتصاص الدخان.

43- لعل هذه التسمية من أصل بونيقي.
44- البروق (asphodel) نبات من الفصيلة الزنبقية يرد ذكره كثيراً في الأساطير اليونانية.
45- Herodotus, iv, p. 305.
46- Livy, xxx. 3.
47- Ibid., xxx 5.

وهنالك نوع آخر من المباليا كان جداره الدائري يتكون من الوتل[48] وسقفه المخروطي من القش المنسوج. ونستطيع بصورة عامة أن نصنّف هذه الأكواخ إلى صنفين: الأول يشبه النوع الذي كان سائداً في منطقة طرابلس وكانت مصطبته أشبه بالمقطع الطولي لخيارة كما أن سقفه كان من الوتل وكان مقوساً أو منحنياً. والثاني هو النوع الذي يمثل في الشكل (47) وكانت مصطبته دائرية وسقفه مخروطياً.

أما المنازل الليبية الثابتة فقد كانت في الواحات وقد ذكر كل من هيرودوتس[49] وبلايني أن هذه المنازل كانت تبنى من الملح وهو وصف من السهل أن يكون مضللاً خاصة إذا قارنا هذه المنازل التي مازالت شائعة في واحة سيوة وهي تبنى بدعائم من جذوع النخل والحجارة وملاط من الطين والملح.

ولابد أن الليبيين شيدوا الآبار وخزانات المياه في وقت مبكر من تاريخهم. فقد ذكر هيرودوتس أن البسلّي كانوا يجمعون مياههم في خزانات كما أن الأعداد الكثيرة من الخزانات والآبار التي يصادفها المرء على طول الشمال الإفريقي من مصر إلى تونس، وإن كانن يغلب على بنائها الطراز الروماني، لابد أن أصولها كانت أقدم منها بكثير. وتوجد مخازن الحبوب في أماكن متفرقة من ليبيا ولكن من الصعب أن نقرر ما إذا كانت ليبية أو إغريقية أو رومانية لأنها مجرد حفر في الصخور على أشكال مكعبة أو على شكل الزجاجة. وتثبت وجودها في ليبيا آثارها من ناحية والمصادر الكلاسيكية من ناحية أُخرى. فقد ذكر مؤرخ حروب يوليس قيصر في إفريقيا «أنه كان من عادة الإفريقيين أن يضعوا حبوبهم في مستودعات مقوسة تحت الأرض لحمايتها أثناء الحروب. ولحمايتها من غارات الأعداء المفاجئة. وقد وجد مخزن حبوب من هذا النوع في جزيرة بلاتيا بخليج بمبا ووجد مخزن آخر في مرسى سوسة (= أبولّونيا).

48- قضبان تضفر مع الأغصان والقصب لإنشاء الأسيجة أو الجدران والسقوف = Wattle
49- Herodotus, iv, p. 304.

الدين :

يمكن تقسيم المراحل التي مرت بها الديانة الليبية القديمة إلى ثلاث:

1- مرحلة تقديس مظاهر الطبيعة والاعتقاد أن لها أرواحاً.

2- مرحلة الإيمان بالأخرويات من بعث وحساب.

3- المرحلة اللاهوتية.

المرحلة الأولى:

في هذه المرحلة كانت المعتقدات الدينية التي عرفها الليبيون من النوع البدائي البسيط المتعلق بعبادة الحيوانات وتقديسها شأنهم في ذلك شأن كل الشعوب في مراحل تاريخها البدائي. فقد كان ابن الشمال الإفريقي البدائي في المرحلة البكرة من تاريخه يشعر بأن العالم مليء بالقوى الروحانية وبأن كل ظاهرة من ظواهره الطبيعية مليئة بتلك القوى كذلك. وهكذا فإن الآبار واالأشجار والتلال والسحب والعواصف... الخ كانت تسكنها، في نظره، أرواح أعطت كلاًّ منها الطابع الذي يميزه عن غيره. وحتى بعد مضي زمن ليس بقصير وبعد أن حلت محل هذه العقائد مفاهيم أخرى أوسع منها وأعمق، فإن العقائد الأولى بقيت تسيطر على عقول الجماهير. ففي العصر الكلاسيكي نجد أن نافورة الشمس في سيوة لفتت أنظار عدد كبير من الكتاب فعزوا إليها صفات حرارية ربما كانت تتوافر فيها كما كما عزوا إلى لونها كثرة التغير والتقلب؛ وهي صفات من المؤكد أنها لم تكن فيه[50]. ومن المحتمل أن النافورة الرائعة في قورينة، وهي التي كرست لأبولّو بعد نزول الإغريق في ذلك المكان، كانت تحظى بكثير من الاحترام والتقديس قبل العصر الإغريقي. وكان الليبيون في العصر الكلاسيكي يعتقدون أن الحجارة الكبيرة كانت تسكنها الأرواح. وقد بلايني[51] ننقلاً عن ميلا[52] أن ليبي سيوة كانوا يقدسون حجراً من هذا النوع في تلك الواحة وكانوا يعتقدون أنه إن جرأ أحدهم ولمسه بيده فإن ذلك كان يؤدي فوراً إلى قيام عاصفة رملية

50- Herodotus, iv, p. 303 & Diodorus Siculus xvii. 50.
51- Pliny, ii, 45.
52- Mela, i. 8.

مهلكة تعصف بالواحة.

وبالإضافة للحجارة كان الليبيون في العصر الكلاسيكي يقدسون التلال – وكانوا يعتقدون أن لكل تلّة روحاً توافيها بكل ما تقف عليه هي من معلومات – وهذه النظرة ذاتها كانت تتجسم بشكل أوضح لدى سكان المناطق الجبلية إلى الغرب من ليبيا؛ فقد ذكر بلايني أن الخشوع الديني كان يملأ قلوب من يقتربون منهم من جبل أطلس خاصة عندما كانوا يشاهدون قمته المرتفعة فوق السحاب إلى درجة تجعلها تبدوا قاب قوسين من القمر نفسه[53]. وقد ذكر الجغرافي الروماني ميلا في حديثه عن حجر سيوة الذي سبقت الإشارة إليه «أن ذلك الحجر كانت قدسيته في الأذهان مرتبطة بتقديس الريح الجنوبي (القبلي). فإذا ما تجرأ أي إنسان ولمسه بيده كانت الريح الجنوبية تهب من فورها وتقذف الرمل في كل مكان كالمطر ويسمع لها هدير كأنه هدير الأمواج». وإذا ما أضفنا بعض القرائن الأخرى لقول ميلا هذا فإننا سنستنتج دون ريب أن الليبيين كانوا يعتقدون أن الريح الجنوبية ذات طبيعة روحانية، وهذه عقيدة كانت متعمقة في عقل البربر إلى حد أنها دامت حتى الوقت الحاضر. وهذه مسألة تذكرنا بما سبق أن سمعناه من هيرودوتس من أن البسلّي إنما قضت عليهم ريح جنوبية ظلت تعصف باستمرار حتى جففت مياه خزاناتهم مما حملهم على إعلان الحرب عليها، على حد ما رواه الليبيون لهيرودوتس، فساروا في الصحراء حيث هبت عليهم ريح من الجنوب فقضت عليهم بما كانت تحمله من رمال[54]. وهذه الاسطورة تذكرنا بأسطورة أُخرى تتعلق بالحملة التي كان قمبيز الثالث الفارسي قد بعث بها ضد سيوة. وقد روى هيرودوتس نفسه أن الفرس زحفوا من طيبة بمصر حتى بلغوا واحة الخارجة بسلام. وبعد ذلك «لم يعرف عنهم أي شيء سوى ما ذكره أهل سيوة ومن نقلوا معلوماتهم عنهم». فالجيش الفارسي لم يصل سيوة ولم يعد لمصر لأن المصيبة حلت به، كما تقول رواية أهل سيوة، عند نقطة في

53- Pliny, v. 1.

54- Herodotus, iv, p. 301. According to Nonnus (Dionysiaca, xiii – 381) the expedition of the Psylli was made by sea (!) and the ships were sun; by tempests from the south.

منتصف الطريق بين واحة الخارجة وواحة سيوة. فبينما كان الفرس يتناولون وجبة الغداء هبت عليهم من الجنوب ريح عاتية مهلكة تحمل معها أعمدة ضخمة من زوابع الرمال فدفنتهم كلية. ومن الواضح أن الشك يرجح على اليقين بالنسبة للقصة الأولى وهو أيضاً محتمل بالنسبة للقصة الثانية. أما قصة البسلي الحقيقية فتتلخص، على ما يبدو، في أنهم تراجعوا جنوباً مبتعدين عن الشاطيء تحت ضغط الناسامونييت الذين استولوا على ديارهم فكان في ذلك التراجع هلاكهم في الصحراء. وفي الحديث عن قصة الحملة الفارسية إلى سيوة لابد أن نلاحظ أن مسألة هبوب عاصفة رملية تغمر جيشاً بأجمعه هي مسألة ليس لها نظير في التاريخ الحديث. وقد تكون حدثت فعلاً في ذلك الزمن القديم ولكن يغلب على الظن أن يكون الفرس قد ضلوا طريقهم خلال عاصفة رملية عادية فدب الذعر في قلوبهم مما حملهم على قتل أدلائهم، أو حمل أدلاءهم على مغادرتهم فتاهوا بعد ذلك في الصحراء واستمروا يضربون في جنباتها على غير هدى حتى ماتوا عطشاً. ومهما يكن الأصل التاريخي لهاتين القصتين فإن هنالك أمرين يتعلقان بهما لابد من ملاحظتهما وهما:

1- أن هيرودوتس في روايته للقصتين إنما يسجل ما سمعه من الليبيين أنفسهم.

2- أن الإساءة للريح الجنوبية في إحدى القصتين، ولمعبد سيوة الصحراوي في الأخرى هي التي يفترض أنها جرت العقاب على المسيء بعواصف رملية عاتية أثارتها ريح الجنوب.

وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى أن مسألة الاعتقاد بوجود أرواح في الرياح ما زالت سائدة في أيامنا هذه بين سواد الشعوب العربية، فأنا شخصياً ما زلت أذكر أن الناس في الريف الفلسطيني يعتقدون أن الزوبعة «الفلاتينة» إنما تحدث نتيجة قتال بين الشياطين؛ ولذلك فهم يخاطبونها كلما ثارت قريباً منهم بقولهم «على الظالمين والقوم الكافرين» إيماناً منهم أن ذلك الخطاب يجنبهم شرها وشر شياطينها من ناحية، ويصرف ذلك الشر إلى الظالمين والكفار من ناحية أُخرى. ولا شك أن فكرة مشابهة فيما يتعلق

بريـاح «القبلي» لا تزال سـائدة في الريف الليبي. كمـا أن الناس. في صعيد مصر ما زالوا يعتقدون أن الزوبعة إنما تثور في أعقاب طيران أحد الشـياطين أو الجن الفاسـقين.

ولا شـك أن الليبيـين القدمـاء كانوا يعتقـدون كذلك بوجـود أرواح في قوس القزح وفي السـراب وفي النجوم. وأدى بهـم ذلك الاعتقاد إلى عبادتها وتقديسـها[55].

وهـذا الاعتقاد بوجود أرواح في الظواهر الطبيعية المختلفة إنما هو نتيجة لتفاعلهـم ببيئتهـم الطبيعية ذات الصحراء الواسـعة الممتدة والسـماء العالية الصافية مما يجعل تلك الظواهر تتجسم هنا أكثر منها في أي مكان آخـر: فالنجوم مثلاً تبدو هنا أكبر حجماً وأكثر تألقاً. وكذلك الحال بالنسـبة للشـمس والقمر. والليبيون ليسـوا وحدهم في ذلـك الموقف الخاص بعبادة

55- أنظـر أيضـاً: ليبيـا القديمـة. نشـرة حوليـة تصدرهـا الإدارة العامة للآثـار والمتاحف والمحفوظات التاريخية بليبيا. وزارة التربية والتعليم. المجلدين الثالث والرابع. 1966 – 1967 . ص 105-106 حيث يقول فروبينيسوس إن نقوش القرون التي تم اكتشافها في فزان إنما تهدف إلى أغراض رمزية. وإنها تشير إلى الضوء. وفي اعتقاده أن ثمة صلة تربط بين فكرة استعمال القـرون في عصور ما قبل التاريخ واسـتعمالها الرمزي فيما بعد فـي ثقافات أخرى. وهو يرى أن تلك الصلة بين القرون من جهة والقمر والشـمس والنـور من جهة أخرى تبدو واضحة في النقاط التالية

أ- إبراز القرون على هيئة هلال.

ب- إضافة الهلال إلى رسم القرون.

ج- وضـع القرن على هيشـة دائرة. وإن كان مـن الصعب تحديد ما إذا كانت تلـك الدائرة ترمز للشمس أو للقمر.

د- إضافة خطوط على هيئة شعاع قد يكون رمزاً لأشعة الشمس.

إضافة زخارف ترمز لأشعة الشمس من مثل الصليب بأشكاله المختلفة.

وهو يرى أن النماذج المختلفة ربما كانت تشـير إلى أن الناس كانوا يحاولون أن يربطوا بين الأرض وقـوى الفضاء التي تعـذر عليهم فهم ماهيتهـا. ويرى كذلك أن الآلهة والأجرام السـماوية والحيوانات ذات القرون ربما كانت تكون ثالوثاً رمزياً فيما قبل التاريخ مما جعل القرن يصبح فيما بعد أحد رموز القوة الروحية. ولقد تكهن البعض بأن القرن أصبح يمثل النور على الأرض نظراً للشـبه القائم بينه وبين الهلال. ونظـراً لخاصته الهجومية الدفاعية مما شـجع الاعتقاد أنه منبـع القوة والحياة وعندما أصبحت الماشـية من أهم مصادر الغـذاء. أصبح القرن يرمز ايضاً للخصوبة والتوالد بالإضافة إلى الاسـتمرار في اسـتعماله كعنصر فنـي. ومن ناحية أخرى فربمـا كانت له دلالة سـحرية: فنحن ما زلنا نرى بعض الرفيين يعلقـون العظام والقرون على أطفالهم لتكون رُقي لهم.

ظواهر الطبيعة فقد شاركهم فيه العرب الساميون في شبه جزيرة العرب. والحاميون في إفريقيا الشرقية.

أما بالنسـبة للمحرمـات من المأكـولات فقد ذكر هيرودوتـس أن بعض الليبيين كانوا يحرمون على أنفسهم أكل لحم البقر تقديساً للإلهة المصرية إيزيس التي كانت البقرة رمزاً لها. وحتى من تأغرقوا منهم في قورينة كانوا يسلكون سلوكاً مشابهاً. وزيادة على ذلك فإن نساء مدينة برقة لم يكتفين بتحـريم لحم البقر فقـط بل حرمن على أنفسـهن أكل لحـم الخنزير كذلك. وبالإضافـة إلى هذا يبـدو أن لحم الكلب كان محرماً: فـكان لا يجوز أكله إلا فـي حالات معينة ولأسـباب خاصـة. وبالرغم من أنه كان يعـرض للبيع في أسواق الشمال الإفريقي في القرون الوسطى إلا أن أكله كان يرتبط بخرافات شـائعة يسـتدل من طبيعتها علـى أنها وضعت في أوقـات قديمة كان لحم الكلب فيها محرماً.

وفي مجال التنجيم والعرافة والسـحر عرف عن أبناء الشـمال الإفريقي أنهـم كانـوا ماهرين فـي التنجيم فـي العصـر الروماني. وكمـا هي الحال بالنسبة لمعظم الشعوب البدائية الأخرى كان المنجم في أغلب الحالات امرأة وليس رجلاً. ومن الثابت بالنسبة لليبيين أن المنجم أو المنجمة كان في بعض الحالاتت يسـتلقي عند قبر أحد أسلافه مستعيناً به على كشف المستقبل ثم يفيق وقد رأى ربا يعتبرها وحياً من سـلفه. وفي أوجلة بالذات كانت أرواح السلف المؤلهين تعتبر ذات صلة بالسماء. وكانت تستشار بطريقة مشابهة أي عـن طريق النوم والأحلام[56]. وقد اعتبر هيرودوتس هذه العادة شـائعة بين الناسامونيين عامة حين قال: «إنهم كانوا يستعينون على التنبؤ بالمستقبل بالذهـاب إلى قبـور أجدادهم والنـوم عليها ثم يتصرفون وفقـاً لما يرونه من أحـلام هنـاك»[57]. ويذكر أوريك بيتس[58] أن نسـاء الطوارق فـي قرية الأصنام قرب غدامس كن في مطلع القرن الحالي يرتدين أجمل ملابسـهن ثم يذهبن

56- Mela, i. 8.

57- Herodotus, iv pp 300 – 302.

58- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin s St. London, 1914, p. 178.

إلى بعض القبور المشهورة مثل قبر «الزبار Zabbar» حيث ينادين الروح الساكنة بين القبور والتي يعرفنها باسم «إدِبْني Idebni»[59] فتظهر لهن على شكل عملاق ضخم عيناه بحجم عيني الجمل وتجيب على أسئلتهن التي لم تكن تعدو الاستفسار عن زوج أو قريب أو حبيب غائب. ويرى بيتس أن هذه العادة توضح وتؤكد ما ذهب إليه كل من ميلا وهيرودوتس.

ولقد مارس الليبيون القدماء السحر بنوعيه الأبيض والأسود. ويذكر بهذه المناسبة ما أحرزه المغاربة إجمالاً من الشهرة بالسحر في مختلف أرجاء العالم الإسلامي. فقد ذكر نيقولاوس الدمشقي «Nicoaus Damascenus»[60] نوعاً من السحر كانت تشترك في ممارسته قبيلة كاملة عندما قال إن ليبيين معينين كانوا يقيمون حفلاً سنوياً ينتهي مع غياب الثريا. وآنذاك كانت الأنوار تطفأ ويمارس المشتركون في الحفل العملية الجنسية مع المشتركات كيفما اتفق. ويقول أوريك بيتس[61] في تعليقه على هذا القول: «إن هذا العمل رغم بربريته كان دون شك يخدم غاية دينية هي تأمين محصولات وافرة».

ويشير هيرودوتس[62] إلى عادة التعاهد عند الناسامونيين فيقول إنهم كانوا عند إبرام العقود يتبادلون الماء فيسقى كل من الفريقين الفريق الآخر بيده. فإن لم يوجد الماء استعاضوا عنه بالتراب بحيث يأخذ كل من الفريقين شيئاً من التراب في راحة يده فيلعق الفريق الآخر شيئاً منه بلسانه. ويبدو أن غايتهم من ذلك كانت تثبيت الفريقين المتعاهدين على الوفاء بالعهد لاعتقادهم أن من نقضه بعد إبرامه على تلك الصورة سيقع فريسة لمرض عضال لا نجاة له منه. ولقد مارس الليبيون القدماء السحر من أجل ستنزال المصر كما مارسه البسلي الليبيون كحواة للأفاعي؛ فقد كان الاعتقاد السائد هو أم هؤلاء القوم يتحلون بقدة عجيبة على سحر

59- هذه الكلمة بلغة الطوارق تعني القبر = Idebni.

60- Nicolaus Damascenus, Frag. 135 in F.H.G.

61- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St Martin s St., London, 1914, p. 178.

62- Herodotus iv, p. 300.

الأفاعي ومعالجة عضاتها على نحو ما هي الحال في وقتنا هذا بالنسبة لأصحاب طريقة سيدي الرفاعي في مصر وغيرها. وكان من المعتقد أن ريق البسلي يضفي من عضة الأفعى السامة. ولذلك يقول بلايني عنهم: «إن في أجسام هؤلاء القوم نوعاً من السم الطبيعي القاتل للأفاعي[63] فإذا تعرضت الأفعى لرائحته تخدرت إلى حين ثم ماتت». وكانت عادتهم أن يعرضوا الطفل بعد ولادته مباشرة لأشرس الأفاعي؛ فإذا تجنبته الأفعى كان ذلك إثباتاً لصحة نسبه إلى والده من ناحية وإثباتاً لعدم خيانة الزوجة. أم ذلك الطفل. لزوجها من الناحية الأخرى. ومع أن بلايني لم يترك لنا وصفاً لتفاصيل أسلوب هؤلاء القوم في العلاج من عضة الأفعى. إلا أن قوله «إنهم كانوا يدهنون موضع العضة بريقهم» يشير إلى الطابع السحري الذي كان يتصف به أسلوبهم في العلاج. ومن المعروف أن البسلي كانوا يُستخدمون في العصر الكلاسيكي كأطباء لمعالجة عضة الأفعى السامة ولدغة العقرب[64] ولعل أشه مناسبة استعين فيها بخدماتهم دون جدوى هي عندما دعاهم أكتافيوس ليحاولوا إنقاذ كليونترة إثر إقدامها على الانتحار باستخدام أفعى سامة. ومن أجل هذا الغرض نفسه رافق عدد من البسلي جيش كاتو في مسيرته عبر منطقة خليج سرت الكبير. ويصف لنا كالياس السراقوسي[65] بوضوح أسلوب البسلي في علاج عضة الأفعى السامة عندما يقول إن الواحد منهم كان يعالج حالة التسمم البسيطة الناجمة عن عضة الأفعى بأن يبصق في الجرح الذي أحدثته العضة. أما في الحالات الخطرة فإنه كان يتمضمض بشيء من الماء ثم يفرغه من فمه في فنجان ويسقيه للمصاب. فإذا لم ينجح هذا العلاج تجرد البسلي والمصاب من ملابسهما واستلقيا متلاصقين إلى أن يتغلب البسلي بما أودع فيه من قوى عجيبة على آثار السم. ومن الواضح أن هذا الوصف يدل على عادة سحرية موقرة كان يتوارثها الأبناء في هذه القبيلة عن الآباء. ويبدو أن هذا النوع من السحر لم يلبث أن تحول إلى مجدر وسيلة لابتزاز الأموال.

63- ما زلت أذكر اعتقاد الناس في الريف الفلسطيني أن ريق الإنسان هو بمثابة السم القاتل للأفاعي.

64- Pliny, XI. 25.

65- Callias Syracusanus, Frag. In F.H.G., Vol ii.

وبالنسبة للسحر الأسود فإن أوريك بيتس[66] يعرب عن اعتقاده أن «الإصابة بالعين» ليست موروثة عن العرب فقط وإنما أيضاً عن قدماء البربر. وقد روى بلايني نقلاً عن اثنين من الكتّاب الإغريق «أن أسراً إفريقية معينة من السحرة كانت تستطيع عن طريق الاستحسان وإظهار الإعجاب أن تسبب الموت للقطعان والذبول للأشجار والموت للأطفال»[67]. ولقد سبق أن تعرضنا لمسألة استطلاع المستقبل بالنوم على قبور الأسلاف. ونحن نعرف أن لوسيوس أبوليوس (Lucius Apuleius)، الذي سنعرض لقصته فيما بعد، قدم لمحكمة صبراتة بتهمة أنه استخدم السحر الأسود ليحمل بدنتيلا (Pudentilla) على حبه والزواج منه. وقد مثل أمام المحكمة فعلاً في سنة 157 م. وقال في دفاعه عن نفسه: «أجيبوني أنتم، يا من تدَّعون أن أبولويوس حاول أن يغوي روح بدنتيلاّ لتحبه بأن استخدم السحر الأسود...»[68]

المرحلة الثانية:

أما فيما يتعلق بعبادة أرواح الأسلاف المؤهلين فإنها تتضح في طريقة الدفن وفي النظرة للموتى. وفي الحديث عن طرق الدفن التي اتبعها الليبيون القدماء يقول هيرودوتس[69]: طإن الليبيين الرحل، باستثناء الناسامونيين، كانوا يدفنون موتاهم على نحو ما يفعل الإغريق». أي إنهم كانوا يضعون الجثمان في اللحد ممدوداً من الشرق إلى الغرب أو بالعكس. أما الناسامونيون فكانوا يوارون الجثمان وهو في وضع الجلوس. ولذلك فإن أصدقاء المحتضر الناسامونى كانوا يساعدونه في لحظات حياته الأخيرة على البقاء جالساً حتى يفارق الحياة. ويضيف الشاعر سيليوس الإيطالي أن الناسامونيين كانوا أيضاً يتخلصون من موتاهم بإلقائهم في البحر كما يذكر في الإشارة للجرامنتيين أنهم كانوا يدفنون موتاهم في حفرة رملية قليلة العمق. وقد

66- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin s St., London 1914, pp 180 – 181.
67- Pliny,` vii-2, on the authority of Isogonus and Nymphodorus.
68- Ward, Philip, Apuleius on Trial at Sabratha, the Oleander Press, London, 1968. p. 13.
69- Herodotus, iv, p. 305.

عرف الليبيون كذلك دفن الموتى تحت كومة من التراب يسهل معها تمييز القبر. والجدير بالملاحظة هو أن عادة الدفن كانت شائعة بين الليبيين عموماً؛ أما الحرق فلم يرد له ذكر سوى في حالة واحدة ذكرها سيليوس الإيطالي في معرض وصفه لجنازة الأميرة أسبتي (Asbyte)[70] وأنواع الدفن التي ذكرت هي:

1- دفن الجثة ممدودة.

2- الدفن بإلقاء الجثة في البحر.

3- دفن الجثة وهي في وضع الجلوس.

4- الدفن تحت كومة تراب تذكارية.

وربما كانت عادة دفن الجثة ممدودة، كما لاحظ هيرودوتس، شائعة بين الليبيين المتأغرقين في منطقة برقة، ذلك أنا نجد هيرودوتس يلاحظ عادة أُخرى بمجرد وصوله للناسامونيين حول خليج سرت الكبير.

أما عادة الناسامونيين في إلقاء الجثة في البحر فربما كانت ناشئة من أُصول نبعت في وقت لاحق كأن يكون الناسامونيون اقتبسوها مثلاً عمن احتكوا بهم من الغزاة من أقوام ما وراء البحر، أو إنها كانت ناجمة عن عرفان الناسامونيين بالجميل لهذا البحر الذي طالما زودهم بالكثير من خيراته.

ولكن طريقة دفن الجثة وهي في وضع الجلوس لم تكن مقصورة على الليبيين فقد كانت شائعة بين معظم شعوب القارة الإفريقية وبين الشعوب البدائية إجمالاً.

وجدير بالملاحظة أن اهتمام الليبيين القدماء اهتماماً فائقاً بدفن موتاهم إنما يدل على أنهم كانوا يؤمنون بنوع من الحياة بعد الموت وإن لم يكن لدينا ما يثبت أنهم توصلوا لفكرة الحساب في الحياة الأخرى.

أما بالنسبة للكومة فإنما تدل على الطريقة التي كان الليبيون يميزون بها القبور ويخلدون بها ذكرى موتاهم. وقد كانوا يودعون الجثمان في لحد دائري أو

70- Silius Italicus, De Bello Punico, ii 263 sqq.

بيضوي مصفح من الداخل بقطع رقيقة من الحجارة ومسقوف بها بارتفاع يقارب نصف المتر. ثم يقيمون على ذلك اللحد كومة التراب التذكارية.

وقد كان الليبيون القدماء يسكبون بعض السوائل التي يقدمونها لموتاهم على قبور أولئك الموتى تركيماً لهم كما كانوا يزورون قبور مشاهير رؤسائهم كانت نظرة دينية دون ريب. والذي يؤكد هذه النتيجة التي خلصنا إليها هو ليس فقط ما لمحناه سابقاً من نومهم على القبور بقصد استطلاع المستقبل بل الحلفان بالموتى أيضاً. فقد ذكر هيرودوتس أن الناسامونى كان عندما يعقد يميناً «يضع يده على قبر أحد الموتى ممن عرف في حياته بالعدل والصلاح ثم يقسم اليمين باسم صاحب ذلك القبر»[71].

ولعل الحلفان باسم الأولياء والأنبياء بين المسلمين عامة في أيامنا هذه إنما هو صادر عن عاطفة مشابهة للعاطفة القديمة عند الليبيين. تلك العاطفة التي جرتهم للحلفان بموتاهم. وهذا في الواقع يقيم الدليل على أنهم كانوا يؤمنون بوجود حياة أُخرى[72].

المرحلة الثالثة:

بعد المرحلة الثانية انتقل الليبيون إلى مرحلة دينية متطورة عرفوا فيها آلهة متعددة ذات أسماء وأشكال مختلفة نذكر منها ما يلي:

1- الإله آش «Ash»: ذكر اسم هذا الإله الليبي في نقوش سحورع من الأسرة الخامسة. ويستدل من الصورة التي يظهر عليها هذا الإله في النقوش المصرية أنه كان من الآلهة المهمة عند الليبيين منذ أيام الدولة المصرية القديمة. وفيما عدا ذلك فنحن لا نعرف شيئاً عن طبيعته أو قدرته.

2- الإلهة شاهيدد «Shaheded»: لم يثبت أي شيء بالنسبة لهذا الاسم وإن كان البعض يعتقدون أنه اسم إلهة ليبية استناداً لما ورد على

71- Herodotus, iv, p. 300.

72- تجدر الإشارة بهذا الصدد إلى نقشين رومانيين متأخرين وجدا على آثار غرزة وتظهر فيهما الكتابات التي نقشها الأبناء تخليداً لذكرى آبائهم واختتموها برغبة غريبة فحواها أن يتمكن الموتى الذين تدل أسماؤهم على أنهم كانوا وطنيين. من زيارة أحفادهم «وجعلهم مثلهم هم أنفسهم».

بعض الألواح التي وجدت في الدلتا وذكرت عليها أسماء بعض الليبيين المقيمين هناك.

3- الإله سينيفيري «Sinefere»: ذكر كوريبّوس «Corippus»[73] إلهاً بهذا الاسم قال إن الليبيين كانوا يعبدونه. ويستنتج مما كتبه كوريبّوس عن هذا الإله أنه كان إله حرب قبلي بمعنى أنه كان يساعد أتباعه في الحرب وفي السلم على أساس نزعة قبلية.

4- إله البحر بوزايدن «Poseidon»: ذكر هيرودوتس أن الإغريق أخذوا هذا الإله عن «الليبيين الذين كانوا دائماً يعبدونه ولقد انفردوا بين الشعوب القديمة بأن كان لهم دون سواهم إله بهذا الاسم»[74]. وتدل كلمة هيرودوتس هذه على أن ليبيي الساحل كان لهم في القرن الخامس قبل الميلاد إله بحر مشهور ذو طبيعة عامة. وكان هذا الإله يعبد بصورة خاصة حول بحيرة تريتونس (= شط الجريد بتونس). ونحن لا نستطيع أن نقرر ما إذا كانن هذا الإله ليبي الأصل أم أنه قدم إلى ليبيا مع أقوام البحر التي تحالفت مع الليبيين في غزو مصر.

5- بسافون «Psaphon»: يذكر ماكسيموس الصوراني[75] «Maximus Tyrius» أن رجلاً ليبياً اسمه بسافون كان يطمح إلى الألوهية. ومن أجل تحقيق غايته جمع عدداً كبيراً من الطيور الناطقة وعلمها أن تردد «الإله بسافون العظيم» ثم أطلقها فانتشرت في الأحراش وهي تتغنى بتلك الكلمات. واعتقد من سمعوها من الليبيين البسطاء أن تلك الأصوات كانت إلهية فبدأوا يقدمون القرابين للإله بسافون. ولعل هذه الأقصوصة إنما هي محاولة متأخرة من جانب الكاتب لتفسير أسباب عبادة هذا الإله. وجدير بالذكر أنه لم تتوافر أية بينات أُخرى بهذا الصدد.

6- إله الشمس: لقد سبقت الإشارة إلى أن بعض علامات الوشم التي وجدت على رسوم الليبيين في النقوش المصرية كانت ذات مغزي ديني. ونضيف

73- Corripus, Johannis, iv. 681.
74- Herodotus, II, p. 123.
75- Maximus Tyrius, Dissertat – XIX.

هنا علامات الوشم المصلبة التي ما زالت توجد بين البربر الليبيين حتى اليوم. إنما كانت تشير إلى عبادة الليبيين القدماء للشمس باغتبار الصليب رمزاً لأشعتها. ومن المعروف أن عبادة الشمس كانت شائعة بين الليبيين عامة فقد ذكر هيرودوتس أن الليبيين كانوا يقدمون القرابين للشمس وللقمر[76]. وهو يصف كيفية تقديمهم للقرابين بقوله: «الطقوس التي يتبعها الليبيون الرحل ... هي كما يلي: إنهم يبدأون بأُذن الأضحية فيقطعونها ويرمونها فوق مسكنهم. وبعد الفراغ من هذا الطقس سقتلون الحيوان بليّ رقبته. وهم يقدمون القرابين للشمس والقمر فقط وليس لأي إله آخر. وهذه العبادة يشترك فيها الليبيون جميعاً. أما المقيمون منهم حول بحيرة تريتونس فإنهم بالإضافة للشمس والقمر يعبدون الإلهة تريتون والإله بوزايدن والإلهة أثينا بشكل خاص». وقد أيدت المصادر المختلفة عبادة الليبيين للشمس فقد وجدت في سيوة نافورة مكرسة للشمس كما أن ابن خلدون ذكر أن البربر بصفة عامة كانوا في الزمن القديم يعبدون الشمس. بينما ذكر آخرون أن الليبيين كانوا يعبدون الشممس الغاربة باسم هامون «Hammon»[77]. والاسم الوحيد المعروف لإله الشمس الليبي هو جرزل «Gurzil». وهذا الاسم هو ما حفظه لنا كوريبّوس[78]. وهذا الإله يظهر محبوباً للغاية بين رجال القبائل فكاهنه «ييرنا Ierna» يحارب ببسالة في المعارك كما أن الليبيين يحملون رمزه في وطيس المعركة. وهم يعتبرونه من نسل إله النبوءات في واحة سيوة. وكان هذا الأخير عبارة عن كبش ذي قرون وقد عرف فيما بعد بارتباطه الوثيق بالإله آمون طيبة المصري لأسباب سنبينها فيما بعد. وكان شكل جرزل شكل الثور ولعل تمثيل إله الشمس على هذا النحو نابع من قوة الشمس وروعتها ومزج هاتين الصفتين بقوة الثور وجماله. ويقابل هذه الظاهرة لدى الليبيين ظاهرة التقديس الذي كان

76- Herodotus, iv, p. 305. He has already excepted the Atarantes of the West, by Saying that they cursed the sun for its wasting heat (iv. P. 304).
77- Macrobius, Saturnalia, i. 21.
78- Corippos, Johannis, ii – 109, 405, iv. 665, 683, 1139, iv. 116, vii 304, 619.

يضفيه أهل هليوبولس في مصر على إله الشمس «الثور المقدس». ولقد وجدت على قاعدة مصباح روماني من القرن الميلادي الأول صورة رأس يظهر أنه رأس جرزل. كما وجد في القنيصية رأس منحوت نحتاً غير متقن يجمع بين صفات آمون وجرزل. ذلك أن له قرني الثور المقدس وقرني الكبش المقدس في آن واحد. ولا بد أن عبادة جرزل امتدت زمناً طويلاً في ليبيا فنحن نجد البكري يكتب في القرن الحادي عشر الميلادي أن قبائل متعددة في منطقة طرابلس من بينها قبيلة هوارة كانت تقدم الصلوات لصنم من الحجر أُقيم على رابية وكان اسمه «كرزا» وذلك من أجل حماية قطعانها. وموضع هذا الصنم والغرض من الصلاة والتقارب في الاسم. تشير جميعاً إلى أن المقصود بهذا الصنم هو جرزل.

نستنتج مما سبق أن أصل جرزل، إله الشمس، ينبع من تشخيص الظواهر الطبيعية وعبادتها منذ أقدم العصور وهو بذلك يشبه الإله الإغريقي هيليوس «Helius». أما ظهوره في الحروب فربما كان يرجع إلى اعتبار أتباعه له حامياً لهم ومبدداً للظلام عنهم. وهم عندما كانوا يدعونه لحماية قطعانهم فإنما كانوا يدعونه باعتباره رب الثيران. وهو على ذلك الاعتبار لا يمكن إلا أن يكون بطبيعته حامياً لقطعانها.

7- إله القمر: هذا هو الإله الوحيد الذي عبده الليبيون إلى جانبه إله الشمس حسبما ذكر هيرودوتس[79]. وفي الحديث عن عبادة القمر في شمال أفريقيا نشير إلى ما سبق ذكره من أن لحم الخنزير كان محرماً في الشمال الإفريقي حسبما رواه هيرودوتس[80] من أن أحداً من الليبيين لم يكن يربي الخنازير. وأن نساء برقة لم يكتفين بتحريم لحم البقر على أنفسهن بل حرمن لحم الخنزير كذلك. ونذكر بهذا الصدد أسطورتين ليبيتين قديمتين لما لهما من دلالة خاصة: الأولى تقول إن الناسامونيين الذين كانوا يعتبرون العقيق حجراً سماوي الأصل كانوا يخرجون للبحث عنه عندما يكون القمر بدراً. والثانية تقول إن الملح في سيوة كان يزداد أو ينقص تبعاً لازدياد القمر أو نقصانه

79- Herodotus iv, p. 305.
80- Ibid. 304.

– ولعل موقف المصريين القدماء من الخنزير يصلح لإلقاء بعض الضوء على موقف الليبيين القدماء منه؛ فقد كان المصريون يحرمون لحم الخنزير تحريماً قاطعاً ويعتبرونه نجساً. فإذا حدث أن لمسه أحدهم فقد كان عليه أن يسارع إلى نهر النيل ليغطس فيه بملابسه الكاملة تطهيراً لنفسه. وبالرغم من ذلك فإنهم كانوا يقدمون الخنزير قرباناً لإله القمر عندما يكون القمر بدراً. وكان يتحتم على مقدم القربان أن يأكل من لحم الخنزير في هذه المناسبة وإن كان محرماً عليه حتى أن يذوقه في الأحوال الأخرى. وربما كان للتحريم الليبي للحم الخنزير طابعاً مماثلاً.

8- الإله زيوس آمون. إله النبوءات:

يقدر بعض المؤرخين أن واحة سيوة ظلت ليبية حتى احتلها المصريون في منتصف القرن السادس قبل الميلاد. وعندما احتلوها وجدوا أن سكانها الليبيين كانوا يعبدون إلهاً مشهوراً لهم فأسماه المصريون زيوس آمونباسم رئيس الآلهة المصرية «آمون طيبة». والأساطير التي تدور حول أصل الإله الليبي تقول إنه كان راعياً وإنه أهدى عدداً كبيراً من المواشي للإله ديونيسوس «Dionysus» فكافأه الأخير بأن أعطاه أرضاً في طيبة ورفعه إلى مرتبة الآلهة. وتقول أسطورة أخرى إن ديونيسوس أو هراكليس «Heracles» كان يعبر الصحراء الليبية في طريقه إلى الهند فاشتد به العطش مما دعاه إلى الاستغاثة بأبيه الإله زيوس فأرسل إليه كبشاً. هو كبش آمون المقدس – دله على نبع ماء. وفي أسطورة ثالثة أن بعض الرعاة وجدوا في المنطقة بين قرطاجة وقورينة طفلاً جالساً على الرمل وهو يضع على رأسه قرني كبش ويتفوّه بالنبوءات – وعندما رفعوه عن الرمل توقف عن الكلام. فلما أعادوه إليه استأنف الكلام. وهكذا. ولمّا اختفى فجأة عرف الرعاة طبيعته الإلهية وبدأوا يعبدونه باسم الإله زيوس آمون. ويقول ديودوروس الصقلي[81] إن آمون كان ملكاً ليبياً أسطورياً كما أن عدداً من الكتاب الكلاسيكيين يشيرون بوضوح إلى أصله الليبي.

81- Diodorus Siculus. iii, 68.

وهذه الأساطير إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى التقارب الوثيق الذي حدث في الأذهان بين الإلهين: آمون سيوة الليبي وآمون طيبة المصري. وليس على الآثار المصرية ما يثبت أن الإلهين صارا إلهاً واحداً في وقت من الأوقات. وصحيح أن موكباً يحمل رمز آمون طيبة كان يطوف أنحاء ليبيا مدة اثنتي عشر يوماً ولكن هذه العادة متأخرة وتنبع أصلاً من نفس مصدر الأساطير المذكورة آنفاً. وإذا نحن رجعنا لهيرودوتس فإنا نلمح في كتابته تمييزاً واضحاً بين هذين الإلهين؛ فهو دائماً يسنى الإله الليبي باسم زيوس آمون بينما يسمى الإله المصري آمون باسم زيوس طيبة. وهو يظن أن أتباع زيوس في سيوة سموا إلههم زيوس آمون تأثراً بالتقليد المصري في تسمية إله طيبة زيوس آمون. ويؤيد هذا الفرق الذي أوضحه هيرودوتوس أن قمبيز الثالث الفارسي أرسل حملة ضد زيوس آمون الليبي وأتباعه في سيوة لمحقه واسترقاق أتباعه بينما لم يتعرض أبداً للإله آمون المصري في طيبة؛ وهذا التمييز في المعاملة له مغزاه في الدلالة على أن زيوس آمون الليبي في سيوة كان غير زيوس آمون في طيبة بمصر. وإذا صح افتراض المؤرخين أن سيوة لم تتبع لمصر إلا منذ القرن السادس قبل الميلاد فإن من المشكوك فيه أن يصبح إلهٌ جديد قدم إلى سيوة مع الفاتحين ذا شهرة عظيمة واسعة مثل الشهرة التي كان يتمتع بها الإله زيوس آمون الليبي.

وهذا الإله كان إله نبواءت في الدرجة الأولى فلقد أحرز موحاه في سيوة شهرة عظيمة إلى حد أن أهالي أثينا كانوا يبعثون إليه بأسئلتهم. كما أُقيمت له معابد في قورينة وفي أماكن متفرقة من بلاد اليونان ذاتها. ونحن ما زلنا نذكر الرحلة التي قام بها الاسكندر الكبير لمعبد هذا الإله في سيوة[82].

وعلى هذا فإن آمون الليبي كان يختلف اختلافاً كبيراً عن آمون المصري؛ فقد كان الأول إله نبوءات في المرتبة الأولى بينما كان الآخر إله زراعة وحصاد قبل أن يصبح رئيساً للآلهة المصرية باسم آمون رع. حامي الحمى ومانح

82- انظر قصة إنشاء موحى آمون في سيوة وشهرة هذا الموحى ص 661 – 662 و 664 – 665 الملحق «ب».

البركات. وهو وإن كان له موحى إلا أنه لم يبلغ من الشهرة كإله نبوءات ما بلغه آمون سيوة؛ وما دام أن وظائفهما كانت متغايرة فإن أصليهما كانا متغايرين دون ريب. وفي الحديث عن هيئة الإله الليبي يقول أوريك بيتس[83]: «من المهم أن نلاحظ حالياً أن هذا الإله لم يكن مشخصاً في أعين أتباعه تشخيصاً بشرياً ولا حيوانيّاً».

وكانت أجوبة آمون الليبي تنقل للمستفسرين بطرية مشابهة للطريقة التي كان الليبيون يتبعونها عند الاستعانة بأسلافهم على استطلاع المستقبل أي بالأحلام التي كانت تعتبر وحياً. وكانت طريقة الاستشارة في سيوة تتم بحمل رمز الإله في موكب يطوف به حدائق النخيل المجاورة لمعبده. وفي هذا الموكب كان ثمانون من كهنة هذا الإله يحملون على أكتافهم مركباً ذا ثلاثة صوارٍ – وهو طقس يظهر فيه تأثير الإله المصري آمون رع – وعليه المعبد الذهبي الخاص بهذا الإله. وكان ذلك المركب يحلى بصحاف فضية تتدلى من حافة المركب العليا بينما كان تمثال الإله ذاته يحلى بالحجارة الكريمة. وكان يسير خلف حملة المركب موكب طويل من العذاري والعقائل وهن يرتّلْن «ترانيم غريبة باللغة الليبية» من أجل كسب رضا الإله وإقناعه بإعطاء مستشيريه جواباً مرضياً. وكان الموكب يسير في الاتجاه الذي يبدي هذا الإله رغبته فيه. وبعد انتهاء هذا الاحتفال كان آمون سيوة يعطي جوابه بالإشارة على الأسئلة المطروحة عليه. وفي العصر الكلاسيكي كان أحد كهنته يفسّر تلك الإشارات. وكان ذلك الكاهن حراً في صوغ تلك الأجوبة شعرتً على طريقة أرقى المواحي الإغريقية. وكان الرجال والنساء من أتباع هذا الإله يقومون بخدمته وعبادته فكانت النساء تشترك في مواكبه إلى جانب الرجال. وقد ذكر هيرودوتس في قصته القائلة إن أصل إله سيوة من طيبة بمصر – يلاحَظ ان القصة ذاتها من طيبة أيضاً – ان موحى هذا الأله في سيوة إنما أسسته امرأة[84].

83- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin s St., London, 1914, p. 193.
84- Herodotus, ii, pp. 124 – 125.

ويقول أوريك بيتس[85] إن الحيوان المقدس لهذا الإله الليبي كان كبشاً. وهذه حقيقة تلقفها المصريون بنهم لدى استيلائهم على سيوة لأن الحيوان المقدس لإلههم آمون طيبة كان الكبش أيضاً. توافق يؤدي إلى تعزيز الروابط بين الإلهين.

وقد يشك المرء في أن تقديس أتباع آمون الليبي للكبش المقدس لدى المصريين إنما جاء نتيجة للأساليب والمؤثرات المصرية ولكن البينات المتوافرة بهذا الصدد تؤدي إلى استنتاج أن الكبش من الحيوانات المقدسة البارزة لدى الليبيين؛ أي إن يتقديس الليبيين لهذا الحيوان إنما هو ناتج عن دوافع أصيلة لا علاقة لها بتقديس المصريين للحيوان ذاته. أما كيف ارتبط تقديس هذا الحيوان بآمون سيوة فهي مسألة تسترعي النظر ويصعب تفسيرها. وإن كان من المرجح أن النظرة السائدة بخصوص آمون سيوة هي أنه يمثل فقط مرحلة في عبادة الكبش الإله. وما يؤيد وجهة النظر هذه أن عبادة الكبش لم تكن شائعة في ليبيا فقط وإنما في جميع الشمال الإفريقي.

والمعروف أن الكبش البربري وجد في ليبيا منذ القدم وأن قوته وسرعته واستحالة الوصول إلى أماكن تجواله في المناطق الجبلية التي كان يتعشقها جعلت منه في نظر العقول البدائية حيواناً جديراً بالإعجاب والتقديس.

ويجوز لنا أن نقول إن عبادة آمون سيوة ظلت محلية حتى اقترن هذا الإله في ذهن الناس بآمون طيبة المصري. وآنذاك شاعت عبادته وانتشرت على نطاق واسع في ليبيا. ومّا يدل على شيوعها على ذلك النحو كثرة الأماكن الليبية المسماة باسم هذا الإله فهنالك معبد آمون في أوجلة. وتل آمون جنوبي بنغازي. ومحطة آمون على ساحل خليج سرت الكبير. ومحطة آمون قرب القوس الرخامي عند نصب الأخوين فيليني «Philaenorum Arae». ويقول أوريك بيتس[86] إن أهم تطور أجنبي طرأ على الإله الليبي – المصري آمون هو تبني قرطاجة له تحت اسم «بعل حامون» (Ball Hammon).

85- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin s St., London, 1914, p. 195.
86- Ibid. pp. 198 – 199.

ويلاحظ بهذا الصدد أن عدم تسمية القرطاجيين لأبنائهم بأسماء مسندة لهذا الإله كان ناجماً عن أن هذا الإله احتفظ لديهم بطبيعته الليبية كإله للأموات مما جعلهم يتشاءمون من تسمية أبنائهم باسم يتصل بالموتت. ويتجنبون بالتالي تسميتهم على ذلك النحو. ولقد وجد أن ثلاثة أرباع الألواح التي عثر على آلاف منها في قرطاجة كانت مكرّسة للإله «بعل حامون» والإلهة تانيت «Tanit»؛ وهذا أمر مستغرب لأن المفروض الخالصة من أمثال بعليم وعشتار وإشمون وملكارت.

ولقد كان «بعل حامون» بالفعل شكلاً قرطاجياً من أشكاله الإله الليبي – المصري آمون. يدل على ذلك شكله الذي يظهر أحياناً على هيئة الكبش المقدس أو على هيئة التماثيل التي وجدت له في المقابر البونيقية والتي تظهره وهو يلبس قرني الكبش. وفي حالة واحدة فقط من هذه الحالات لم يكن يلبس القرنين ولكنه كان يحمل على ساعده الأيسر كبشاً قائماً. ويذكر بهذا الصدد أن مقدمات السفن القرطاجية كثيراً ما كانت تأخذ شكل إله رأسه رأس كبش. ويذكر سيليوس الإيطالي[87] في وصفه لمعركة بحرية بين القرطاجيين وأعدائهم أن قبطان إحدى السفن القرطاجية عندما رأى سفينته قد خرقت انتضى سكينته وطعن نفسه بها وقدم دمه قرباناً بسكبه بين قرني الكبش المقدس على مقدم سفينته. وفي المواقع الفينيقية في جزيرة سردينيا من مثل مستوطنة تَرَّس «Tharrus» وجدت عدة تماثيل لرؤوس أكباش على الطراز المصري مستوردة عن طريق القرطاجيين مما يثبت أن «بعل حامون» القرطاجي إنما هو آمون الليبي – المصري. ولا يعرف إلى متى استمرت إفريقية القرطاجية تعبد هذا الإله وإن كان يعتقد أن عبادته تلاشت إثر انتشار المسيحية في المنطقة.

وفي ليبيا ذاتها طرأ تطور جديد على طبيعة هذا الإله؛ ذلك أن اتساع رقعة البلاد وغلبة الطبيعة الصحراوية عليها وصعوبة معرفة المسالك بين واحة وأُخرى من واحاتها كانت جميعاً تستدعي وجود إله مواصلات يكون رفيقاً ودليلاً إلهياً للمسافرين. ولقد سبقت الإشارة إلى أسطورة

87- Silius Italicus, De Bello Punico, XIV. 452 Sq.

تلقي بعض الضوء على هذا التطور في طبيعة هذا الإله وهي الأسطورة المتعلقة بسفر ديونيسوس (أو هراكليس) عبر الصحراء الليبية إلى الهند واشتداد الظمإ به ثم استغاثته بأبيه الإله زيوس – آمون الذي أغاثه بكبش حفر بقائمتيه الأماميتين حتى استخرج الماء. وهنالك أسطورة أُخرى تشير إلى الإرشاد الإلهي وتتعلق برحلة الاسكندر المقدوني إلى سيوة. فقد وجد الاسكندر نفسه وجيشه، بعد أيام من مغادرتهم الساحل، وسط متاهة يستحيل عليهم الخروج منها. ولم يلبث ماؤهم أن نفد وكادوا يهلكون لولا أن تدخلت عناية آمون الربانية فجعلت السماء تمطر عليهم ما يبل ظمأهم ثم وجهت خطاهم حتى وصلوا سيوة وعادوا منها. وكان دليلهم في الحالتين زوج من الغربان وقيل من الأفاعي.

وفي تاريخ سيوة الذي ألفه شخص مجهول باللغة العربية قصة لها مغزاها بالنسبة لهذا الموضوع خلاصتها أن أحد حكام مصر قضى ببعض العقوبات على بعض أتباعه فهربوا من وجه العقاب إلى الصحراء وليس معهم إلا زاد قليل لم يلبث إلا قليلاً حتى نفد. وآنذاك رأوا كبشاً يركض مبتعداً بين التلال فساروا في أثره حتى وصلوا إلى مدينة مأهولة تحف بها البساتين والأشجار وتجري من تحتها الأنهار. وكان أهلها لا يدفعون أية ضرائب. وعندما سألهم القادمون عن البلد الذي ينتمون إليه أجابوا بأنهم لا علاقة لهم البتة بالعالم الخارجي. وعاش هؤلاء الغرباء فترة طويلة في تلك المدينة ثم عادوا لمصر. وحاولوا بعد ذلك أن يجدوا تلك المدينة الواحة ثانية دون جدوى. ولعل هذه القصة التي يظهر الكبش فيها دليلاً للمسافرين إنما هي واحدة من عدة قصص مشابهة لا بد أنها كانت متعددة في وقت قديم؛ وهي تدل على مدى عناية آمون الليبي، إله التنبؤات في سيوة، بالمسافرين في الصحراء.

9- إله السماء Deus Coelestis

أثبت أحد البحاثة الفرنسيين[88] وجود إله للسماء بين الليبيين القدماء. ولكنه كان إلهاً ذا طبيعة غامضة عامة. وأقدم مفهوم لليبيين عن السماء،

88- بحث بعنوان Toutain, J., De Saturni Dei in Africa Romana Cultus.

وهـو مفهوم اسـتمر سـائداً حتى بدايـة القرن السـابع قبل الميـلاد. هو أن السـماء، في نظرهم، كانت عبارة عن سـطح صلب معلق فوق الجو الأرضي. وقد أشـار هيرودوتس إلى هذه الفكرة في سـرده لقصة مسـاعدة الليبيين للإغريق في القدوم إلى موقع قورينة من أزيرس عندما قال إن الليبيين مدحوا ذلك الموقع للإغريق بقولهم «إن سـماءه مثقوبة»[89] أي غالباً ما تمطر. ولكن المؤسـف حقاً أنه لم توجد تفاصيل عن هذا الإله. ولعل أحسـن ما يدل على طبيعته هو ددراسـة الإله زحل الذي شـاعت عبادته في الشـمال الإفريقي خـلال القرنين الثاني والثالث للميلاد. فقـد وجدت على الألواح الخاصة بزحل رموز للظواهر السـماوية مثل قرص الشـمس والنجوم والهلال. وكان أبرز ما تتميز به طبيعته أنه كان أباً للسـماوات وإلهاً للطقس ولابد أن إله السماء الليبـي القديم كان يشـبه زحل في طبيعته العامة مـن مثل حماية الزراعة والقطعان، ولا بد كذلك أن أتباعه من قدماء الليبيين كانوا يقدمون له بواكير الفواكـه من أعناب وتمور، ثم زيت الزيتـون والنبيذ وأكواز الصنوبر، ثم الثيران والنعـاج والبقر. وكان الليبيون يعتقدون أن إله السـماء هـذا، وإن كان علياً عالميـاً لا يموت، كان يموت موتاً مؤقتاً في فصل الخريف ويحتفلون بانبعاثه في الربيع؛ ولعل عادة أكل الثوم خلال أُسـبوع كامل من شـهر أكتوبر – تشرين الأول في سـيوة ترجـع إلى أصل قديم ناشـيء عن الصيام حـداداً على الموت المؤقت لهذا الإله.

10- إلهة السماء «Dea Coelestis»:

كانت هذه الإلهة شـريكة لإله السـماء ومشابهة له في طبيعته. وقد التبـس أمرها في أيام القرطاجيين بالإلهة القرطاجية تانيت. أما في العصر الروماني فقد عرفت باسم إلهة الأغذية «Dea Nutrix»

11- لإثينا إلهة الأوزيين:

عبـد الأوزيـون الليبيون حول بحيـرة تريتونس إلهة أسـماها هيرودوتس وغيره أثينا. وقد كان لها معبد عند الأوزيين، ووصفها هيرودوتس كما يلي:

89- Herodotus, iv. P. 295.

«تقيـم عـذارى الأوزيين احتفالاً سـنوياً تكريماً للإلهـة أثينا فيقفن في صفـين متقابلين ويتراشـقن بالحجارة والهـراوات. وهن يقلـن إن هذه العادة العـادة طقـس مـوروث وإنهـن يكرمن بـه إلهتهـن التي هي نفـس الإلهة الإغريقيـة أثينا. وإذا ماتت إحداهن بسـبب ما يصيبها من جروح فإن الأوزيين كانـوا يعتبرون أنها لـم تكن عذراء حقيقة. وكان يسـبق بدء ذلك الاحتفال طقس آخر هو اختيار أجمل واحدة بين العذارى المشـتركات في الحفل. ومتى تم اختيارها فإنها كانت تلبَّس بحضور الجمهور خوذة كورنثية وبزة عسـكرية إغريقية ثم تمتطـي عربة حربية يقودونها بها في موكب يدور حول البحيرة. ويقـول الأوزيـون إن أثينا هي ابنة الإله بوزايدن، إله بحيـرة تريتونس، ويقولون إنها تشـاجرت مع أبيها واسـتغاثت بالأله زيوس فوافق على أن يعتبرها ابنة له فصارت كذلك»[90].

ويعلـق أوريك بيتس[91] علـى رواية هيرودوتس هذه ثم يسـتخلص منها النتائج التالية:

1- إن كون هذه الإلهة من نسـل بوزايـدن وتريتونس يمكن أن يعني أنها كانت إلهة بحر، إلا ارتباطها بزيوس لايؤيد هذه النتيجة. وإذن فإن التفسـير الوحيد لطبيعتها هو أن نقول إنها لم تكن طبيعة محددة واضحة المعالم. ولذلك فإن من المنطقي أن نلحقها إما بإله السماء أو بإله البحر.

2- تشير الحفلة السنوية لهذه الإلهة إلى أنها كإله السماء كانت على علاقة بفصول السنة.

3- مراسـم تسـليح العذراء: إن اختيار أجمل العذارى وتسليحها على الطريقة الإغريقية الممتازة أمر له مغزاه. فقد كانت هذه العذراء المسـلحة، المتطية عربة حربية بمناسـبة الاحتفال، إنما تمثل الإلهة المحتفل بها والتي لا بد أنها كانت ذات صبغة حربية.

90- قارن أيضاً برواية هيرودوتس هذه رواية ميلا (Mela I -7) الذي لا يضيف جديداً لما ذكره هيرودوتس سوى قوله إن هذا الاحتفال السنوي كان يقام يوم عيد ميلاد الإلهة. Herodotus iv, p, 302

91- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited. St. Matin s St., London, 1914, p. 204.

4- الموكب: كانت الإلهة، ممثلة في شخص العذراء المذكورة، تدور حول بحيرة ترتيونس ومن خلفها موكب المحتفلين.وكانت الغاية من هذا الطقس استنزال بركات الإلهة على البلاد. وكانت مسيرة الموكب تختتم بالمبارزة التي سبقت الإشارة إليها والتي كانت بديلاً لتقديم القوانين.

5- المبارزة: هي المناورة الحربية التي كان الاحتفال يختتم بها، وهي في الواقع ذات دلالة كبيرة على طبيعة هذه الإلهة. ونحن نلاحظ أن العذارى فقط كان يسمح لهن بالاشتراك في الحفل، ومن ماتت منهن نتيجة لما أصابها من جروح أثناء هذه المناورة كان يفترض أنها إنما تلقت ما تستحقه من عقاب لمشاركتها في الاحتفال وهي تعلم أنها كانت فاقدة لعذريتها وأنه لا يجوز لغير العذارى أن يشاركن فيه. ونحن نلحظ في هذه النظرة اهتماماً كبيراً بالعذرية مما يدل على أن طبيعة هذه الإلهة كان فيها جانب قوي من العذرية. وليس صعباً أن ندرك مغزى المبارزة ذاتها، فمن الواضح أنها كانت أشبه بصلاة استسقاء وأنها كانت تمثيلاً للكفاح بين الجفاف والمطر. ومثل هذه الظاهرة بين الشعوب البدائية تفضي بنا إلى القول إنها كانت عند الأوزيين تهدف إلى إبعاد الشر واستجلاب الخير والبركة لأرض القبيلة. ولذلك فقد كان الاحتفال يختتم بها بقصد تأمين سقوط كميات وافرة من المطر في فصل الشتاء التالي.

كل ذلك يرجح الظن أن هذه الإلهة لا تمثل إلا مرحلة محلية من مراحل عبادة إلهة السماء التي سبق أن ذكرنا أنها شريكة لإله السماء. وعند هذا الحد نلمح ارتباطاً محتملاً بين كل من إلهة الأوزيين المرسلة للمطر وإلهة السماء الليبية بشكل عام وبين إلهة الدلتا الغربية في مصر وهي نيث «Neith» إلهة مدين سيس «Sais» التي ألحقها عدد من الكتاب الحديثين بأثينا الأوزية. وقد عرفت عبادة نيث في مصر منذ عصر ما قبل الأسرات ووصف على تمثال محفوظ في الفاتيكان بأنها «أم الشمس» وبأنها «بدأت تنجب قبل أن تولد». وقد ذكر بلوتارك أن معبد هذه الإلهة في سيس يحمل نقشاً ترجمته كما يلي: «أنا كل ما وجد وكل ما هو موجود وكل ما سيوجد. ولم يكشف أحد طرف ردائي».

ويؤكد المصريون وجود النص السابق ذاته منقوشاً على مدخل معبدها ويضيفون إلى ما ذكره بلوتارك «والثمرة التي جئت بها هي الشمس»

مما تقدم يظهر أن نيث كانت أماً عظيمة للطبيعة تتصف بالعذرية، وهذه الصفة هي التي حملت الإغريق على اعتبارها أثينا.

وفيما يلي بيان بأوجه الشبه بين الإلهة نيث والإلهة الأوزية أثينا وهما اللتان أسمى هيرودوتس كلاً منهما باسم أثينا:

أثينا مدينة سيس المصرية (نيث)	أثينا الأوزيين الليبيين
-1 إلهة السماء	إلهة السماء
-2 الأم العذراء	عذريتها أكيدة ومهمة
-3 إلهة النباتات	باعثة المطر
-4 لها صبغة حربية مرحلية	تمثلها في حفلها عذراء مسلحة ويختتم الحفل بمناورة حربية
-5 شكلها شكل بقرة	لحم البقر محرم في ليبيا

ولقد ذكر بعض المؤرخين المعاصرين نظرية مفادها أن الإلهة نيث كانت إلهة ليبية لليبيين الذين كانوا يعيشون في مصر في عصر ما قبل الأسرات ثم اضطرت كما اضطروا هم أنفسهم إلى الرحيل إلى الشمال الغربي من مصر حيث استقرت واستقروا. والنظرية تتسم بالذكاء والمنطق ولكن لم يكتشف حتى الآن ما يؤيدها من الآثار. ومن المحتمل أن يكون هنالك نوع من الارتباط بين الإلهتين نظراً لظهور رمز الإلهة المصرية ( ) وشماً على أجسام الأسرى الليبيين دون سواهم في نقوش موقع سيس الجغرافي في الدلتا الغربية.

الطابع العام للديانة الليبية القديمة

مـا تقدم يتضح لنا أن الليبيين الذين بلغوا في الدين مرحلة تشـخيص الآلهة كبشـر ظلوا يتعلقون بقوة في عدد كبير من الأفكار الخاصة بألوهية الحيوانـات. ويظهر أن الديانة الليبية كانت إيقونية جزئياً وأنها كانت تتصف بالتنوع وبالميـزات المحلية الكثيرة كما أنها كانت تخضع إجمالاً لأفكار قليلة بسـيطة وشـائعة في جميع الشـمال الإفريقي. ولهذا فإنهـا جمعت بين السـحر وعبادة عدد مـن آلهة طبيعتهم واضحة محـددة وآخرين لم تعرف طبيعتهم إلا بشـكل عام كإله السـماء مثلاً. ولا شـك أن الليبيين القدماء كانوا يتحلون بفهم عميق لوجود حياة أُخرى بعد الموت.

ويبـدو مـن طبيعة هـذه الديانة أنهـا كانت مـن إبداع عنصـر متفائل بالنسـبة لهـذه الحياة وللحيـاة الأخرى. وبعكـس ما عليه الحـال في أغلب الديانات الإفريقية القديمة. وإذا اسـتثنينا أبسـط العقائـد فليس لدينا من البينـات ما يبرر القول إن الديانة الليبية القديمـة كانت ديانة عقائدية. فقد كانت بإيجاز ديانة بربرية. نصف متطورة. ونابعة مباشـرة من الاعتقاد بوجود أرواح في كل مكان ظواهر الطبيعة.

وإذا نحن فتشـنا عمّـا يناظر هذه الديانة في الديانـات القديمة المعروفة الأخرى فإنا نجد التشابه أكثر ما يكون بينها وبين الديانة المصرية. ففي مصر ارتبطت الشـمس بالثور كما هي الحال في ليبيا. وتطور الاعتقاد بوجود حياة أُخرى إلى حد كبير. واعتبر الكبش. كما هي الحال في بقية الشمال الإفريقي. حيوانـاً مقدسـاً. ولقد وجدنا تشـابهاً كبيراً بين الإلهـة المصرية نيث. إلهة مدينة سيس. ونظيرتها الليبية أثينا الأوزية. ويقول أوريك بيتس[92]: « إن أوجه الشـبه الكثيرة بين الديانتين توضـح أن العلاقة بينهما كانـت أقوى بكثير مما كانـت عليه مثلاً بين الديانـة الليبية والديانات السـامية القديمة. وكما ان عنصـراً ليبياً معينـاً اندمج في اللغة المصرية القديمـة فإن عناصر مماثلة

92- Ibid., p. 207

مـن الديانة الليبية القديمة دخلت. علـى الأرجح. الديانة المصرية القديمة وإن كنا لا نسـتطيع أن نتبينها في الوقت الحاضر نظراً لقلة المعلومات المتوافرة بالنسبة لليبيين القدماء بشكل عام».

الفصل الرابع

1- برقة في العهدين الإغريقي والبطلمي

2- طرابلس بين الفينيقيين والرومان

3- فزان منذ الجرامنتيين حتى بداية العصر الروماني

برقة في العهدين الاغريقي والبطلمي

(631 - 96 ق. م.)

كلمة لا بد منها:

سبق أن اشرنا إلى ليبيا في عصر ما قبل التاريخ كانت تنقسم إلى منطقتين حضاريتين أولهما غربية هي منطقة طرابلس وكانت واقعة تحت تأثير الحضارتين المجاورتين لها من الغرب: حضارة قفصه في تونس وحضارة وهران على طول الساحل من خليج قابس بتونس حتى نهاية ساحل المغرب الأقصى على المحيط الأطلسي. وثانيتهما شرقية هي منطقة برقة وكانت واقعة تحت تأثير الحضارة المصرية ومن ورائها تأثير الحضارة الآسيوية. وأشرنا في موضع آخر إلى أن اتساع رقعة الأرض الليبية. وطبيعتها الصحراوية. وصعوبة مواصلاتها. وقلة كُثافة سكانها. وعدم اتحاد قبائلها أدت جميعا إلى ضعف البلاد. والى عدم قيام سلطة مركزية قوية فيها مما أتاح للغزاة التغلب عليها دائما بسهولة. وسنحتاج إلى الإشارة لهذا الوضع بين الحين والآخر في الفصول القادمة لتفسير مواقف متعددة استطاعت قوى خارجية تتفاوت قوة وضعفاً أن تتغلب فيها على الديار الليبية بعضها أو كلها دون عناء كبير.

من هذا القبيل ما تم للإغريق حينما استوطنوا ساحل برقة وللفينيقيين حينما أقاموا لهم وجودا على ساحل طرابلس. ولقد تركت هذه القسمة المبكرة أثرها على البلاد حتى سنوات قليلة مضت؛ فقد راحت منطقة برقة تتطور حضاريا تحت تأثير الحضارة الإغريقية المزدهرة على ساحلها. بينما تأثرت منطقة طرابلس بالحضارة الفينيقية ذات الطابع التجاري عن طريق المراكز التجارية الفينيقية القائمة على الساحل الطرابلسي . وبقيت الأقسام الداخلية من البلاد حتى العهد الروماني بعيدة نسبيا عن المؤثرات الحضارية. ومتمتعة معظم الوقت بما يشبه الاستقلال الفعلي مما جعل تاريخها يتميز بالطابع البدوي القبلي. وحتى في العهد الروماني بشقيه الغربي والشرقي

أو البيزنطي ظلت هذه القسمة قائمة عملياً وان كانت غير قائمة رسمياً بحكم تبعية المنطقتين لسلطة واحدة. وبعد انقسام الإمبراطورية الرومانية لم تلبث منطقة طرابلس حتى خضعت للو ندال بينما ظلت منطقة برقة تابعة للامبراطورية البيزنطية. وحتى خلال عصر الأباطرة الرومانيين الأول نجد أن عنصرا جديدا قد طرأ على الصورة وهو نشوء مركزي قوة كبيرين مجاورين لليبيا: الأول في الغرب في ولاية افريقية الرومانية الجديدة التي حلت محل قرطاجة الفينيقية في تونس والآخر في الإسكندرية بمصر. وكان هذان الرومانيان يحرصان على إن يمدا نفوذهما على ليبيا. الأول على منطقة طرابلس والثاني على منطقة برقة. والذي كان يحدث نتيجة لهذا التنافس هو زيادة اتضاح القسمة السابقة للبلاد. وحتى في العهد الإسلامي نجد أن هذه الصورة الأساسية لم تتغير كثيرا فقد أصبحت مدينة القيروان مركز القوة الإسلامية في ولاية افريقية غربي ليبيا بينما أصبحت الفسطاط ومن بعدها القاهرة مركز القوة الإسلامية في مصر إلى الشرق من ليبيا. واستمرت ليبيا منطقة تنازع نفوذ بين هذين المركزين الإسلاميين. فوالي الفسطاط أو القاهرة يحاول دائماً أن يبسط نفوذه على برقة ويتولى تعيين ولاتها بينما يحاول والي القيروان أبدا أن يبسط نفوذه على منطقة طرابلس ويتولى تعيين ولاتها. وقد ينجح أحد المركزين في بسط نفوذه على ليبيا بأسرها إلى حين. إلا أن الغالب هو أن تكون برقة تابعة لوالي مصر بينما تكون طرابلس تابعة لوالي افريقية وتبقى الدواخل مستقلة فعلياً بشؤونها وان كانت تتبع رسمياً للسلطة المركزية وهي الخلافة.

ونحن اذا أمعنا في تتبع هذه الصورة الانقسامية سنجد أنها ترافق تاريخ ليبيا في العهد العثماني وأثناء الاحتلال الايطالي وخلال عهد الإدارة الحليفة وحتى في عهد الاستقلال وقيام المملكة الليبية المتحدة بولايتها الثلاث : برقة وطرابلس وفزان. ولم تختف هده الصورة الانقسامية إلا بعد إلغاء الدستور الاتحادي وإعلان وحدة البلاد وفقاً لدستور أبريل- نيسان 1963 مما أنهى رسمياً عهد انقسام طويل أسهم في عرقلة نهضة البلاد طيلة تاريخها الماضي. والمأمول أن تعمل الجمهورية العربية الليبية الفتية. التي

أقامها الجيش بعد ثورته البيضاء صباح اليوم الأول من سبتمبر-أيلول 1969. على تحقيق الوحدة الوطنية عمليا بربط أجزاء البلاد بشبكة حديثة من المواصلات المختلفة. بتطوير المجتمع الليبي تطويرا عصريا يخلصه من التركة الثقيلة التي خلفها له النظام القبلي القديم.

الإغريق في منطقة برقة

كانت بلاد اليونان. برها وجزرها. تخضع لحكومات مدينية كل منها مستقلة تماما عن حكومات المدن الأخرى. وكانت حكومة مدينة أثينا. على البر اليوناني. وحكومة مدينة اسبارطة. على شبه جزيرة البلويونيز . أشهر اثنتين من هذه الحكومات المدينية التى كانت علاقاتها ببعضها البعض علاقات عداء وحروب أكثر الوقت. ولما كانت بلاد اليونان جبلية. قليلة الموارد. فإنها كانت تشكو الفقر في معظم الأوقات. وكانت مشكلتها هذه تزداد حدة بتزايد عدد سكانها وبسبب قوانين الإرث التي كانت تعطي تركة الأب للابن الأكبر على حساب إخوته الآخرين فكان ينتج عن ذلك أن اعداداً كبيرة من الإخوة والأخوات كانوا يجدون أنفسهم فجأة ولا أملاك لهم. وبالتالي لا مناص لهم من الهجرة إن أرادوا البقاء على قيد الحياة. فإذا أضفنا إلى هذه العوامل عامل حب المغامرة والجري وراء المجهول لدى الإغريق. ثم وعي كهنة المواحي . خاصة موحى دلفي. بالمشكلة وشدة إيمان الإغريق بتلك المواحي. أدركنا إن توسعهم خارج بلادهم كان واقعا لا محالة كقضية حتمية في تاريخهم. ولذلك فان الدارس لتاريخهم يلاحظ أنهم بدأوا منذ القرن السابع قبل الميلاد يتوسعون ويقيمون المستوطنات على شواطئ آسيا الصغرى والبحر الأسود وعلى سواحل جنوب ايطاليا وفي صقلية وقبرص ثم مصر وليبيا[1].

1- تشير المصادر الكلاسيكية إلى أن برقة وبقية ليبيا عرفت عناصر قادمة من بلاد اليونان ممن سبقوا الغزو الدوري لبلاد اليونان في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وكانت تلك العناصر تنتمي إلى كريت وثسالي وشبه جزيرة البلوبونيز بالإضافة إلى عناصر أخرى قادمة من آسيا الصغرى (وربما كان هؤلاء هم الشردن أسلاف سكان جزيرة سردينيا الذين قدموا إليها أصلا من آسيا الصغرى).
ويذكر الشاعر الإغريقي بندار أن عناصر من أهل طروادة (في آسيا الصغرى) قدمت إلى برقة هاربة من طروادة المدمرة في الوقت ذاته. انظر أيضاً:
Cyrenaican Expedition of the University, of Manchester 1952,

وكان الديـــن يلعب دورا كبيرا في حياة الإغريق القدماء شـــأنهم في ذلك شأن معظم شعوب العالم. وكانوا يؤمنون إيمانا قويا بما تلقيه إليهم آلهتهم المختلفة على ألســـنة كهنة مواحيها وخاصة موحى دلفي. موحى الإله ابولو ابن الإله زيوس: فلقـــد طالما ذهب الإغريق زرافات ووحداناً إلى موحى أبولو في دلفي ليقدموا له القرابين. ويستشيروه في شؤونهم الخاصة والعامة. و كان مـــن الطبيعي أن يكون كهنة الآلهة المختلفة بمـــا فيهم كاهنة موحى دلفي على وعي بمشـــكلات بلادهم. وبضرورة تشجيع مواطنيهم على الهجرة إلى الخـــارج. باعتبار الهجرة أفضل حل لتلك المشـــكلات. ولذالـــك فان هيرودتس يخبرنـــا أن فكرة هجـــرة الإغريق إلى ليبيـــا إنما نبعت أصلا مـــن موحى ابولوا في دلفي. يقول هيرودتس نقلا عن أهالي جزيرة ثيرا (= ســـنتوريون الحالية) الذين كانوا قد بعثوا وفدا منهم لاستشارة موحى دلفي في سبب انحباس المطـــر عن جزيرتهم : ذهب جرنوس (Grinnus) بن ايزانيوس (Aesanius) ســـليل ثيراس (Theras) وســـيد جزيرة ثيرا إلى دلفي ليقـــدم قرباناً قوامه مائـــة ضحية نيابة عـــن أهالي الجزيرة. وكان بين الوفد الـــذي رافقه من أهالي الجزيرة شـــخص اسمه باتوس (Battus) ابن بولمنستون (Polymnestus) من أســـرة مينوية. وقد استشـــار جرنوس أثناء اقامته فـــي دلفي الاله أبولو فـــي امـــور عديدة. وتلقي من كاهنـــة الموحى جواباً لم تكن لـــه علاقة ظاهرة بموضوعـــات الاستشـــارة. ويتلخص في وجوب قيام جرنوس بتأســـيس مدينة فـــي ليبيا. وعندما ســـمع جرنوس ذلك الجـــواب احتج بقولـــه: ولكن يا إلهي أبولو. أنا رجل طاعن في الســـن وضعيف إلى درجة لا تســـمح لي بالبدء بمثل هذه الرحلة. أفلا تســـطيع أن تكلف واحدا من هؤلاء الشـــباب بالقيام بتلك الرحلـــة بدلا مني ؟. قال هذا وهو يشـــير باصبعه إلـــى باتوس. ولكن لم يطرأ أي جديد على الموقف في ذلك الحين. ورحل الوفد عن دلفي ونســـوا ما تفوه به الموحـــى ولم يتخذوا أي اجراء عملي بهـــذا الصدد لأنهم كانوا يجهلون موقع ليبيـــا. ولذلك فقد أحجموا عن ارســـال جماعة من المســـتوطنين إلى مكان كانوا يجهلون حتى موقعه.ولم تسقط في جزيرتهم خلال السنوات السبع

Manchester University Press, 1956,Manchester, England, Edited by: Allan Rowe with contributions by Derek Buttle and John Gray.

التالية نقطة مطر واحدة وجفت جميع اشـــجار الجزيـــرة ما عدا واحدة. وفي هذا الظرف القاسي أرسل أهالي ثيرا إلى موحى دلفي يتشيرونه ثانية فكان الجواب تذكيرا لهم بوجوب اقامة المستوطنة التى تناسوا أمرها في ليبيا. ولما جاءهم هذا الجواب لم يبق لديهم غير أن ينفذوا الأمر فبعثوا إلى جزيرة كريت يستفسرون عما اذا كان أحد أبنائها أو أحد الغرباء من المقيمين بها قد سبق لـــه ان زار ليبيا. وبينما كان وفدهم يتجول فـــي كريت. وصلوا إلى بلدة اتانس ((Itanus)) حيـــث صادفو تاجر أصبغة اســـمه كوربيُس ((Corobius)) فأخبرهم أن عاصفة دفعته في احدى سفراته إلى جزيرة بلاتيا[2] ((platea)) القريبة من الســـاحل الليبي. واتفق الوفد مع كوروبيس هذا أن يعود معهم إلـــى جزيرتهـــم ثيرا مقابل مبلغ من المال دفعوه لـــه. وبعد ذلك بقليل أبحرت من ثيرا جماعة استطلاعية تولى كوروبيس ارشادهم حتى وصلوا إلى بلاتيا. وهناك تركوا كوروبيس على شاطئها تركوا عنده مؤونة تكفيه لأشهر اتفقوا علـــى عددها وكروا عائدين بســـرعة إلـــى جزيرتهم ليزفوا إلى أهلها بشـــرى اكتشـــافهم للجزيـــرة. ولكنهم تجاوزوا المدة التى كانـــوا قد اتفقو عليها مع كوروبيس فبدأ الرجل يقاسي من قلة المؤونة حتى يسر له القدر سفينة من سفن جزيرة سامس كانت في طريقها إلى مصر بقيادة رجل اسمه كولايس ((Colacus)) فحملتها الرياح إلى جزيرة بلاتيا. وبعد ان اســـتمع ملاحوها إلى قصة كوروبيس تركوا له مؤونة تكفيه ســـنة كاملة واستأنفوا رحلتهم إلـــى مصر التى كانوا يتعجلون الوصول إليها. ولكن الرياح الشـــرقية حالت دون وصولهم إلى مصر وســـاقتهم غربا عبر أعمدة هرقل إلى ان اســـعفهم حـــظ يفوق حظوظ البشـــر بالوصول إلى طرطســـوس[3] ((Taressus)) وهو مـــكان لم يكن قد اســـتغل حتى ذلك الحين. وترتب على ذلك ان تجار ســـامُس الذين كانو في تلك الســـفينة ربحوا من الحمولـــة التى عادوا بها إلى بلادهم اكثر من أي تاجر اغريقي آخر نعرف اخباره الصحيحة باســـتثناء سوستراتُس ((Sostratus)) ابن لودامس ((Laodamus)) من جزيرة ايجينا فهو تاجر

2- كانت تفوم في خليج بمبا وتعرف باسم جزيرة خروف البحر «Seal Island»
3- إقليم في جنوب إسبانيا قرب نهر الوادي الكبير. وكان هذا الاسم يطلق على النهر نفسه وعلى مدينة في مصبه

لا يمكــن ان يقارن به في الربح أي تاجر آخر..... وكانت المســاعدة التى قدمها تجار ســامس لكوروبيس أصل الروابط الودية الوثيقة بين جزيرة ســامس من ناحية وقورينة وثيرا من الناحية الاخرى.

أمــا ابناء ثيرا الذيــن تركوا كوربيس على جزيرة بلاتيــا بعد وصولهم إلى جزيرتهم ابلغوا اهلها انهم اقاموا مستوطنة على جزيرةة قريبة من الشاطئ الليبي فتقرر ارسال جماعة اخرى لتنضم إلى المستوطنة على ان تكون تلك الجماعة ممثلة لاقســام ثيرا السبعة وأن يقترع الاخوة فيما بينهم لتقرير من الذي سيدهب منهم, وان يتولى السلطة المطلقة على تلك الجماعة باتوس. وبعد ذلك ابحرت الجماعة في ســفينتين من ذوات الخمســين مجدافا [وهما تحملان مائتي رجل] إلى جزيرة بلاتيا....

وتتفق رواية أهل ثيرا وأهل قورينة على أن باتوس كان بلســانه عقدة منذ طفولته, وأن والديه ســمياه بذلك الاســم منذ ولادته. ولكنني شخصيا أرى انه لم يسم بذلك الاسم الا بعد ذهابه إلى ليبيا حيث تسمى باتوس تحقيقا لما كان قد افضى به موحى دلفي وبســبب المركز الســامي الذي صار يشغله فــي ليبيا - ذلــك ان كلمة ((باتوس)) تعني ((ملــكاً)) في اللغة الليبية[4] ويخيــل إلــيَّ أن كاهنة موحــى دلفي انما أطلقــت عليه ذلك الاســم الليبي عندما خاطبته بما اوحى به إليها الإله ابولو لانها كانت تعرف أنه ســيصبح ملكا في ليبيا؛ ذلك ان باتوس عندما بلغ ســن الرشد ذهب إلى موحى دلفي ليستشــيره بشأن ما كان عليه لسانه من لعثمة فاجابه الموحى قائلا : اه يا باتوس ! انك من اجل صوتك جئت إلينا, ولكن الاله ابولو يبعث بك إلى ليبيا, مرتع القطعان, لتبني فيهــا مدينة, وهذا الخطاب باليونانية يعادل قول الاله : ((اه ! يا ايها الملك.....)) وكان جواب باتوس في هده المناسبة ان شكا أنه انما جاء يستشــير الموحي في كيف يتخلص مــن لعثمته فالقى عليه جوابا لا يناسب سؤاله وانما ينصحه بتأسيس مستوطنة في ليبيا[5], وذلك مشروع

4- اســمه الأصلي أرســطو طاليس «Aristoteles» ولكنه صار يعرف باســم باتوس فيما بعد.

5- قيل إنه شــفي من تلك العلة نتيجة لصدمة أصابته عندما وجد نفســه فجأة أمام أحد الأسود في ليبيا.

هو أعجز من ان يقوم به - فما الموارد التى كانت لديه ومن الذي كان يمكنه ان يقنعهم بمرافقته؟ ولكن شــكواه لم تجده نفعاً ولم يســتطع ان يستخلص مــن الموحي أي جــواب آخر بل ان الكاهنة كررت على مســامعه الجواب الأول. ولــم ينتظر باتوس حتى تفــرغ الكاهنة من إلقاء الجواب فــي المرة الثانية بل اســرع عائــدا إلى ثيرا. ولكن حالته لم تتحســن بعد ذلك فقــد ادبرت الدنيا عنه وعن غيره من أهل الجزيرة دون ان يتمكنوا من معرفة الســبب. ولما أعادوا الكرة واستشــاروا موحي دلفي من جديد اجابتهم الكاهنة بضمون جوابها الاول وان كان في كلمات جديدة اذ انها قالت انهم اذا انضموا إلى باتوس في تأســيس مســتوطنة في ليبيا فان حظوظهم ســوف تتحسن. وكانت هده النصيحــة كافية لحملهم على أرســال باتوس مع جماعة من المســتوطنين في سفينتين من ذوات الخمسين مجدافا كما سبق. وبعد ان وصلوا الشاطئ الليبي لم يتمكنوا من اتخاد قرار بالخطوة التالية فعادوا إلى ثيرا ولكن اهلها لم يســمحوا لهم بالنزول على شاطئها ورشقوهم بما وقعت عليه ايديهم عندما رأوهم يتجهــون إلى الميناء, وصاحو فيهم معلنين وجوب عودتهم من حيث اتوا. ولما راى باتوس ورفاقه موقف اقربائهم ذاك قرروا ان لا ســبيل لهم غير العودة فكرُّوا راجعين إلى ليبيا واســتقروا هذه المرة في جزيرة بلاتيا التى كانت قريبة من الشــاطئ الليبي, وهي جزيرة يقال ان مســاحتها مســاوية لمساحة قورينة في هدا الوقت [القرن الخامس قبل الميلاد].

واقــام هــؤلاء المســتوطنون في جزيــرة بلاتيا مــدة ســنتين ولكنهم لم يصادفوا أي ازدهار في وطنهم الجديد مما حملهم على الابحار إلى بلاد اليونان ليستشــيروا موحى دلفي تاركين وراءهم في بلاتيا رجلا واحدا فقط. وعندما بلغــوا موحــى دلفي اعلنــو ا امامه ان حالته لم تتحســن رغــم انهم كانوا يعيشون في ليبيا. وأجابتهم كاهنة الموحى ببيتين من الشعر قائلة بلسان أبولو انه هو زار ليبيا اما هم فأنهم لم يفعلوا. وبناء على ذلك فانهم ان كانوا يعرفون تلك البلاد اكثر منه هو فهم مفرطون في الذكاء دون شك! ولما سمع باتــوس ورجاله ذلك الجواب اعــادوا الكرة وابحروا إلى بلاتيا لانه اتضح لهم ان ابولوا لن يتركهم وشأنهم الااذا اقاموا مستوطنة حقيقية على البر الليبي.

ولهـذا فانهم مروا بجزيرة بلاتيا والتقطوا الرجل الذي كانو قد خلفوه عليها ثم عبروا إلى البر الليبي وأقاموا على شـاطئه مدينة على مسـافة قصيرة إلـى الجنوب مـن بلاتيا في بقعة اسـمها أزيـرس[6] «Aziris» - وهي بقعة خلابة يجري في احـدى جنباتها نهر وتحيط بها أودية بديعة. وأقاموا في هذا المكان سـت سـنوات ثم اقنعهم الليبيون بمغادرته وتعهدوا ان يدلوهم على مكان افضل منه. وبعد موافقتهم على الاقتراح الليبي سار بهم أصدقاؤهم الليبيون - وكانوا من قبيلة الجليجامي (Giligamae) - ووقتوا مسيرتهم بحيث يجتـازون بهم منطقة إراسـا (Irasa) [لعلها أم الـرزم] وهي أجود بقعـة في البلاد. تحت جنح الظلام وذلك حتى يحولـوا دون رؤيتهم لها [لئلا تعجبهم فيسـتقروا بها]. واخيراً وصلوا إلى النبع المسمى ((نافورة ابولو)) وهنـاك قـال الأدلاء الليبيون للإغريـق: ((هذا هو المكان الـذي يجدر بكم ان تستقروا فيه لان سماءه مثقوبة))[7].

وفي حياة باتوس، مؤسس قورينة وسيدها طيلة اربعين سنة، وفي حياة ابنه اركيسيلاوس (Arcesilaus) الذي كان سيدا للمدينة لمدة ست عشرة سـنة ظل عدد سكان قورينة مساويا لعدد المستوطنين الاصليين. وفي عهد ملكها الثالث المعروف باسـم ((باتوس السعيد)) اعلن موحى دلفى نبوءة تسببت في تزاحم الإغريق عامة على الهجرة لمتستوطنه قورينة؛ فقد حدث ان اهالي قورينة كانوا يقدمون هبات من الاراضي للمستوطنين الجدد عندما اعلـن موحى دلفي ((أن كل مـن يذهب إلى ليبيا البهيجـة بعد الفراغ من تقسيم الاراضي سيندم على عمله في يوم من الأيام))[8].

تلك هي رواية هيرودتس عن تأسيس الإغريق الدوريين لمستوطنتهم الأولى قورينة (= سيرين، شحات)، والمؤرخون متفقون على ان تأسيسها كان سنة 631 ق. م. في موقع من أراضي قبيلة الاسبستي (Asbystae) الليبية[9].

6- مـن المحتمل أن يكون ذلك المكان هو موقـع تميمي إلى الجنوب قليلا من درنة وربما كان وادي الخليج بعينه.

7- أي إنها كثيرة المطر. انظر أيضاً ص 224 أعلاه.

8- Herodotus, iv, pp. 292 – 296.

9- Smith, Captain R. Murdoch, R.E. & Commander E.A. Porcher, R.N., History of the Recent Discoveries at Cyrene – made during

ولقد عطف الليبيون في بداية الأمر على المهاجرين الإغريق ورحبوا بهم ونشـأت بين الفريقين علاقات صداقة أدت إلى تزوج شـباب الاغريق المهاجرين مـن فتيـات ليبيات، كما تجلـت فيما بعد فـي مجاملة النسـاء الاغريقيات لليبيـات بالامتناع عـن أكل لحم البقر الـذي كان النسـاء الليبيات يحرمنه على انفسـهن تقديسـا للالهة المصرية نيث ثم ايزيس التى أصبح النساء الاغريقيات ايضا يقدسـنها ويعتبرنها نظيرة لإلهتهن ديمتير (Demeter). وسيتضح لنا فيما بعد كيف بدات القبائل الليبية تهاجم الاغريق وتحاربهم بسـبب اشتداد هجرتهم، وتوسعهم الاقليمي على حساب الليبين، واتضاح نواياهم ومطامعهم الاستعمارية. ولقد ذكر هيرودتتس فيما تقدم مساعدة الليبين للإغريق في اختيار موقع قورينة. اما لماذا اسـموها قورينة فان احدى الاسـاطير الاغريقية تعطينا الجواب. تقول الاسطورة ان الإله ابولو شغف بفتاة اغريقية إسـمها قورينة (Kurana) فراح يجري وراءها من بلاد اليونان إلـى ليبيا حيث تمكن منها. وكانـت قورينة فتاة رائعة الجمال، متحررة الذوق، ولم تكن تحب السـير ذهابا وإيابا امام آلة الغزل، أو المشـاركة في الحفلات مع صواحبهـا داخل المنزل، وانما كانت مولعة بصيد الحيوانات الشرسـة وقتلها برمحهـا وسـيفها البرونزيين من أجل تأمين السـلامة لقطعان والدها. ولم تكن قورينة تسـمح للنوم ان يلمس جفونهـا الا لفترة قصيرة قبيل الفجر، وفيما يلي خلاصة للقصيدة التي نظمها الشاعر بندار في وصفها:

((بينمـا كانت قورينة ذات يوم تكافح اسـدا ضخمـا بيديها العاريتين، رأهـا الإله ابولو فاعجب بها ووقع فـي حبها ولكنه كان في حيرة من امره، لا يدري ماذا يصنع ، ولذلك فانه اسـتدعى مستشـاره وسأله قائلا: ((هل من الشـرع ان أباشـر الاتصال بها فـورا ام الافضل ان اقطـف الزهرة الحلوة على فـراش الزوجية ؟)) ويعلق المستشـار في رده بقولـه ان الإله أبولو يعرف كل الاجوبة؛ ويضيف المستشـار قولـه :((انك قدمت لهذا الـوادي لتتزوج هذه الفتاة وانه مقدر لك ان تحملها عبر البحر إلى احدى حدائق الإله زيوس المختارة حيـث تجعلهـا ملكة لاحدى المدن وذلك بعد ان تكون قـد جمعت أبناء احدى

an expedition to Cyrenaica in 18601861- under the auspices of her Majesty's Government – Day and son London 1864, p. 2.

الجزر ولمت شملهم على رابية تقوم وسط سهل رحيب. وآنذاك ستكون ليبيا ذات المروج الرحبة سعيدة باستقبال العروس البديعة في منزل ذهبي، وسيسعد ليبيا ان تقدم للعروس كهدية قطعة من الارض تعيش عليها متمتعة بشتى انواع الفواكه والمزروعات ومستأنسة شتى انواع الحيوانات.

وتم كل شيء بسرعة وفقا لارادة الإله؛ وزفت إليه العروس في صالة ليبة مذهبة. ومنذ ذلك الحين حتى الان وقورينة تتردد على مدينتها ذات الجمال الرائع وذات الإبداع في مختلف الألعاب)).

العهد الملكي 631 - 440 ق.م :

وهكذا أسس الإغريق مستوطنتهم الأولى كحكومة مدنية على غرار ما عرفوه في بلادهم الأم. وتولى الحكم فيها باتوس الذي أصبح ملكا لها. وتوالى حكمها في أسرته. رغم قيام عدد من الثورات. حتى سنة 440 ق.م. وكان عدد ملوك هذه الأسرة ثمانية؛ أربعة منهم حملوا اسم باتوسوالاربعة الآخرون حملوا اسم اركسيلاوس. وتعاقبوا جميعا على الحكم فكان أولهم باتوس الأول ثم توالاه ابنه اريلاوس الأول فباتوس الثاني. وهكذا. وفيما يلي أسماؤهم والفترة التي حكم خلالها كل منهم[10]:

1- باتوس الأول 631 - 591 ق.م.
2- أركسيلاوس الأول 591 - 575 ق.م.
3- باتوس الثاني ((السعيد)) 575 - 554 ق. م.
4- آركسيلاوس الثاني ((الطاغية)) 554 - 544 ق.م.
5- باتوس الثالث ((الأعرج)) 554 - 529 ق.م.
6- اركسيلاوس الثالث وأمه فريتيم 529 - 515 ق.م.
7- باتوس الرابع ((الوسيم)) حوالي 500 - 465 ق.م.

10- هذه التواريخ تقريبية ومبنية على أساس الإشارات التي وردت في المصادر الكلاسيكية لقورينة وسلوكها؛ فعلى سبيل المثال أعتبرنا سنة 631 ق.م. بداية حكم باتوس الأول لأن الكتاب أجمعوا أنها سنة تأسيس قورينة. واعتبرنا سنة 591 ق.م. نهاية لأن هيرودوتس ذكر أنه حكم قورينة مدة سنة أربعين سنة.

8- آركسيلاوس الرابع حوالي 465 - 440 ق.م.[11]

وفي السنة الثالثة من عهد باتوس الثاني ((السعيد)) أي سنة 572 ق.م. تضخم عدد سكان قورينة نتيجة لتحريض موحى دلفي للاغريق على الهجرة إلى ليبيا. ومن الطبيعي ان ينتج عن تضخم عدد السكان اشتداد الحاجة للمزيد من المواد الغذائية وبالتالي إلى الاراضي المنتجة لها وهذا يعني وجوب توسع قورينة على حساب قبيلة الاسبتسي الليبية المجاورة لها. وهكذا بدأت قورينة تتعدى على الأراضي الليبية المجاورة وتغتصبها. واستمرت تتوسع على هذه الصورة حتى اثارت نقمة الاسبتسي الذين أغضبتهم نزعة السيطرة القورينية من ناحية وفقدان اراضيهم من الناحية الاخرى مما حملهم في عهد شيخهم ادكران (Adicran) على إرسال وفد إلى بلاط ايرييز (Apries) ملك مصر. وقدم الوفد إلى مصر واعلنوا ولاءهم وتبعيتهم هم وقومهم لملك مصر ثم شكوا إليه أمر قورينة. وخفت قوات قورينة لمجابهة القوة المصرية القادمة فوقعت بين الفريقين معركة قرب بئر ثيستيس (Thestes) في اراسا سنة 570 ق.م هزم الجيش المصري فيها هزيمة منكرة بحيث لم يعد من جنده إلى مصر سوى عدد قليل. ويعلل هيرودوتس تلك الهزيمة بانها ((كانت ناجمة دون شك عن انعدام الخبرة لدى المصريين بحرب الإغريق وعن عدم استعداد المصريين لمعالجة الموقف معالجة جادة))[12] ونتيجة لفشل هذه الحملة أثار اتباع ايرييزعليه وحملوه شخصيا مسؤولية الكارثة. اما قورينة فقد توطد سلطانها وتأكدت سيادتها على الليبين نتيجة لانتصارها.

وتلا باتوس السعيد على عرش قورينة ابنة آركسيلاوس الثاني الملقب بالطاغية. وما ان استقر الحكم لاركسيلاوس هذا حتى بدا يضطهد أربعة من أخوته هم : بيرسيوس (Perseus) وارستوديموس (Aristomedon) وليكوس (lyecus) وزاكنتوس (zakynthus). وراح يمعن في تجريدهم من

11- See also: Cyrenaican Expendition of the University of Manchester, 1952, Manchester Univereisty Press, England, 1956, edited by Allan Rowe with contributions by Derek Buttle & John Gray, p.2.
12- Herodotus, iv, p. 296.

حقوقهم وامتيازاتهم الدستورية. فغضبوا عليه ورحلوا عن قورينة سنة 550 ق.م هم ومن آزرهم من الإغريق الذين كان بينهم عدد لا بأس به من أمهات ليبيات. وقاموا بمساعدة قبيلة الاوزخيزي (Auschisae) الليبية بتأسيس مدينة برقة (Barce) (= المرج)[13] في سهل المرج إلى الغرب من قورينة. وبينما كانت اعمال البناء لا تزال مستمرة في برقة اقنع الإغريق فيها من حولهم من الليبين بالتخلى عن ولائهم لقورينة مما دعا اركسيلاوس الثاني إلى محاربة من فعل ذلك منهم. فلما أحس هؤلاء بزحف قوات قورينة بقيادة اركسيلاوس الثاني تراجعوا مسرعين باتجاه الغرب وخف اركسيلاوس الثاني بجيشه لمطاردتهم حتى بلغ مدينة لوكن (Leucon) الليبية حيث التحم الفريقان في معركة حامية هزم القورينيون فيها هزيمة منكرة وفقدوا سبعة آلاف من جنودهم. وبعد هذه الضربة القاسية أصيب اركسيلاوس الثاني بحمى حاول التخلص منها بتناول شيء من الدواء ولكن القدر لم يمهله اذ ان اخاه ليارخوس (Learchus) قام بخنقه سنة 544 ق.م. وانتقمت له زوجته إركسو ((Erixo)) فقتلت ليارخوس فآل عرش قورينة لباتوس الثالث الأعرج بن آركسيلاوس الثاني.

هذه الاحوال المضطربة في قورينة اتاحت الفرصة امام مدينة برقة لتبسط نفوذها على القسم الغربي من المنطقة. وحفزت أهل قورينة على ارسال وفد إلى دلفي لاستشارة موحى أبولو هناك حول الجمع السبل لاقامة افضل انواع الحكم في مدينتهم. واجابتهم كاهنة دلفي بان عليهم ان يستدعوا أحد رجال مدينة منتينيا ((Mantinea)) في مقاطعة اركاديا (Arcadea) لينظم لهم شؤونهم. وعملوا بنصيحة الموحى فأعيروا خدمات المشرع ديمانكوس (Demonax) الذي كان يتمتع بشهرة ممتازة وسمعة طيبة في بلده. وقدم ديموناكس إلى قورينة فدرس أوضاعها وأحوالها ثم تقدم بالاصلاحات الدستورية التالية:

13- قال هيردوتس إن آركيسيلاوس الثاني وأنصارهم أسسوا مدينة برقة ولكن أوريك بيتس يعتقد أن برقة ليست إغريقية الأصل وإنما كانت قرية ليبية وكانت قائمة قبل مقدم الإغريق أو على الأقل. أن قبيلة الأوسخيزي الليبية التي أقيمت برقة في أراضيها قد شاركت في تأسيسها.

1- قسم قورينة إلى ثلاثة أقسام أو قبائل:

أ- المهاجرون من إغريق جزيرة ثيرا وجيرانهم.

ب- المهاجرون من إغريق شبه جزيرة البلوبونيز وكريت.

ج- المهاجرون من إغريق الجزر الاخرى.

2- خصص لباتوس. ملك المدينة. اراضي معينة ومهام كهنوتية معينة كذلك.

3- أباح لسكان المدينة عموما التمتع بالامتيازات التى كانت حتى مقدمه مقصورة على الملوك[14].

ثم انتخب من هذه القبائل الثلاث مجلس شيوخ انتقل إليه حكم المدينة من أُسرة باتوس بموافقة باتوس الثالث. وظلت هذه الاجراءات سارية المفعول طيلة حياة باتوس الثالث ولكن ضجة كبرى ثارت في المدينة حول المناصب والامتيازات الحكومية المختلفة في عهد اركسيلاوس الثالث. بن باتوس الثالث العرج من فريتيما ((Pheretima)) وخليفته في الحكم. ولما اصر اركسيلاوس الثالث هذا على تجاهل تشريعات ديموناكس وطالب بان ترد إليه امتيازات اسلافه وحقوقهم وقع نزاع بينه وبين أهل المدينة اسفر عن هزيمته وهربه إلى جزيرة سامس. وهرب أمه إلى مدينة سلاميس في قبرص حيث التجأت إلى بلاط الملك يولتن (Eulthon) الإغريقي وطلبت إليه امدادها بجيش يعيدها هي وابنها إلى عرش قورينة. وكان يولتن كريما في معاملتها فاغدق عليها الهدايا بسخاء ولكنه لم يكن ينوي اعطاءها جيشاً. وراحت هي من جانبها تمتدح كل هدية يقدمها لها وتؤكد في الوقت ذاته ان هديتها المفضلة هي ان تعطى جيشاً. فلما ألحت في هذا المطلب اهداها يولثن مغزلا من ذهب عليه بعض الصوف معلنا ان ذلك المغزل - وليس الجيش - أليق بها كامرأة.

وفي هذه الاثناء تمكن اركسيلاوس الثالث. بما بذله من وعود بانه سيقطع من يناصره ما يكفيه من الأرض في قورينة. من حشد قوة لا بأس بها من

14- Herodotus, iv, p. 297

جزيرة سامس، ابحر بها إلى قورينة وتكن من استرجاع عرشه. ولكنه ارتكب الفضائع ضد الاهلين فشرد بعضهم، ونفى بعضهم ونفى بعضهم إلى قبرص حيث اعدموا واحرق البعض الاخر، ثم تذكر ان كاهنة موحى دلفي كانت قد تنبات بموته اذا ارتكبت مثل تلك الاعمال فاستبد به الذعر وهرب من قورينة والتجا إلى حميه ألازير (Alazir) ، صاحب مدينة برقة. وبعد حين من مكوثه في مدينة برقة، وبينما كان يسير مع حميه في أحد شوارعها انقض عليهما عدد من أهل المدينة ومن كان فيها من لاجئي قورينة فقتلوهما.

وعندما كان اركيسيلاوس الثالث لاجئا في مدينة برقة كانت امه فيريتيما تقوم مقامه في قورينة فتتمتع بامتيازاته وتشرف على ادارة دفه الحكم وتختل مقعده في مجلس قورينة. فلما سمعت بمقتله هربت إلى مصر مستعينة بأرياندس (Aryandes)، حاكم مصر الفارسي من قبل قمبيز، واستندت في طلبها المساعدة من الحاكم الفارسي على ما كان ابنها قد قدمه لقمبيز من خدمات حينما اعلن ولاء قورينة له وعين الجزية التى كان على قورينة ان تقدمها لحاكم مصر الفارسي سنوياً.

ويسرد علينا هيرودوتس حكاية هذه الواقعة كما يلي:

((أعلن ارياندس عن حزنه العميق لما أصاب فريتيما ووضع كل قواته في مصر من مشاة وبحارة تحت تصرفها، وقبل ان يصدر امره لتلك القوات بالزحف أرسل رسولا إلى أهل مدينة برقة ليستفسر عن اسم قاتل اركيسيلاوس، ولكن أهل المدينة اجابوه بانهم جميعا يحملون مسؤولية قتله نظرا لما كان قد ألحقه بهم جميعا من اضرار، ووجد ارياندس في هذا الرد حجة تبرر غزوة لليبيا [منطقة برقة] من أجل تحقيق مطامعه في اخضاعها، خاصة وان القبائل الليبية كانت كثيرة ولم يكن يخضع منها لداريوس، ملك الفرس الا عدد قليل بينما لم يكن معظمها يعير ذلك الملك لحظة واحدة من التفكير))[15].

أمر ارياندس قواته بالسير في معية فيريتيما لمهاجمة برقة؛ فكان المشاة

15- Herodotus, iv, p. 299

تحت إمرة امازيس (Amasis) والبحارة تحت إمرة بدريس (Badres) . ولما وصلت تلك القوات إلى برقة حاصرتها وطلبت من أهلها ان يسلموا يسلموا قتلة اركيسيلاوس ولكن هؤلاء رفضوا ان يسلموا احدا. واستمر الحصار تسعة اشهر كان الفرس خلالها يحاولون احداث ثغرة في سور المدينة اما بالهجوم المباشر واما بالحفر تحته، ولكن محاولاتهم جميعا باءت بالفشل، ثم تمكن أحد عمال المعادن منهم من اكتشاف مواقع مجاري المدينة بالطريقة التالية: دار حول سور المدينة وهو يقرع على الأرض بدرقة برونزية فكانت تعطيه رنينا جامدا في كل المواقع التى دق عليها، فلما دق فوق المجاري كان لرنين درقته رجع أجوف، فدل قومه على الموقع وحفروا مدخلا يؤدي إلى داخل السور ليقتحموا منه المدينة ولكن اهلها كانو متنبهين للحركة فقاموا بحفر خنادق مضادة من الداخل وقتلوا المتسللين من الفرس، كما نجحوا في الوقت ذاته في صد الهجمات الفارسية المباشرة على السور. وطال امد الحصار وتصاعدت خسائر الجانبين فقرر امازيس، قائد المشاة، ان يغير تكتيكه الحربي بعد ان تحقق انه كان من المستحيل الاستيلاء على مدينة برقة بالقوة. ولذلك فقد لجأ للخدعة فانتظر حتى حل الظلام وامر رجاله فحفروا خندقا عريضا سقفوه بألواح خشبية ثم وضعوا عليه التراب حتى تساوي مع سطح الأرض. وفي صباح اليوم التالي دعا امازيس أهل برقة إلى مؤتمر مشترك فلبوا الدعوة بارتياح وأسفر المؤتمر عن اتفاق على الشروط التالية:

1- وقف ممثلوا الفريقين فوق الخندق المدفون واقسموا ان:

أ- يدفع اهالي برقة مبلغاً معقولاً من المال لملك الفرس.

ب- الا يلحق الفرس من جانبهم أي اذى بمدينة برقة.

2- وان تبقى تلك الاتفاقية سارية المفعول ما دامت الأرض التى كانوا يقفون عليها ثابتة.

وبمجرد ان فرغ الطرفان من عقد اليمين خرج أهالى برقة من المدينة وتركوا أبواب السور مفتوحة ودعوا الفرس لدخولها حسب ارادتهم؛ وانما فعل أهل برقة ذلك لانه لم يخطر في بالهم أن يكون الفرس قد بيتو اية خدعة. وقبل

الفرس الدعوة فدخلو المدينة مسرعين بعد ان هدموا الخندق متحللين بذلك من القسم الذي كانو قد قطعوه على انفسهم.

وبعد دخول المدينة ألقى الفرس القبض على قتلة اركيسيلاوس وسلموهم لفيريتيما وقامت هي بدورها بصلبهم على سور المدينة وعلقت إلى جانب كل منهم ثديي زوجته. اما بقية أهل المدينة. باستثناء من كانو يمتون لاسرة باتوس بقرابة ولم يتورطوا في مقتل اركيسيلاوس. فقد سلمتهم للفرس بينما سلمت مدينة برقة نفسها لمن أبقت عليهم من اقرباء باتوس. وعاد الفرس إلى مصر وهم يسوقون معهم معظم اهالى برقة عبيدا. ومن مصر سيق هؤلاء العبيد إلى بلاد فارس حيث قدموا للملك الفارسي داريوس فعين لهم قرية في مقاطعة بكتريا اسموها برقة باسم مدينتهم الاصلية وكانت لا تزال آهلة بهم وبنسلهم في أيام هيرودوتس[16].

ولما اطل الجيش الفارسي على قورينة قرر اهلها وفاء لبعض النصائح الالهية ان يتركوا مدينتهم مفتوحة والا يعترضوا مسيرة القوات الفارسية. وعندما كانت القوات الفارسية تعبر بقورينة اقترح بدريس. قائد البحرية. الاستيلاء على المدينة. ولكن امازيس. قائد المشاة. رفض ذلك الاقتراح محتجاً بان هدف الحملة كان مدينة برقة الاغريقية فقط. وبعد ان اجتاز الجيش قورينة ندم الفرس على عدم استيلائهم عليها وكرروا عائدين ولكن اهلها تصدوا لهم هذه المرة ولم يسمحوا لهم بالدخول. والغريب في الامر انه بالرغم من ان الجانبين لم يشتبكا الا ان الفرس أصيبوا بذعر شديد وتراجعوا مسرعين ولم يتوقفوا الا بعد ان ابتعدواعن المدينة مسافة سبعة اميال. وهناك اقاموا لهم معسكر مكثوا فيه بعض الوقت حتى وردتهم رسالة من اريانداس يامرهم فيها بالعودة إلى مصر. وآنذاك طلبوا من قورينة ان تمدهم بالماء والغداء فزودتهم بحاجتهم وبدأوا مسيرة العودة لمصر. وتجدر الاشارة هنا إلى ان القبائل الليبية راحت تهاجمهم على طول الطريق حتى حدود مصر. فكان افراد القبائل ينقضون على من يتأخر من الجنود ويجهزون عليهم طمعا في ملابسهم ومعداتهم[17].

16- Herodotus, iv, p. 310
17- Idem.

وكانت اقصى نقطة في ليبيا وصلتها هذه الحملة الفارسية هي مدينة يوسبيريدس (Euesperides) (= بنغازي).

اما الملكة فيريتيما فقد عادت مع القوات الفارسية لمصر حيث لقيت جزاء ما اقترفته من فظائع في انتقامها من أهل برقة كما ورد سابقا فلم تلبث ان ماتت ميتة منكرة بعد ان دبت الديدان في جسمها وظلت تنهشها حتى الموت. وكان موتها على تلك الصورة مثالا وبرهانا على ان من يفرط في القسوة انما يستنزل على نفسه غضب الآلهة.

عند هذا الحد لا يسعنا الا ان نتساءل عن مصير مدينتي قورينة وبرقة. لقد لا حظنا ان الفرس خربوا مدينة برقة في أعقاب قتل اهلها لاركيسيلاوس الثالث وحميه في أواخر سنة 516 ق.م. أو أوائل سنة 515 ق.م. ولم يبق في هذه المدينة سوى جالية قليلة ممن كانوا يمتون بصلة القربى للاسرة الملكية الحاكمة في قورينة ويؤيدونها. اما بالنسبة لقورينة فان الملكة فيريتيما لم تعد إليها بعد فتك القوات الفارسية بأهالي مدينة برقة وانما رافقت تلك القوات في عودتها إلى مصر مارة بقورينة. ولقد أخبرنا هيرودوتس ان قائد البحرية الفارسية بدريس اقترح أثناء عبور الحملة الفارسية بقورينة في طريق عودتها لمصر ان تقوم تلك الحملة بالاستيلاء على هذه المدينة. فهل كان اقتراحه ذاك بايعاز من الملكة فيريتيما؟ وبعد اجتياز الحملة لقورينة ندم قائداها على عدم استيلائهما على قورينة وحاولا ان يعيدا الكرة فتصدى لهما أهلها واغلقوا أبواب المدينة في وجه القوة الفارسية. فهل كان هذا الموقف من جانب أهل قورينة ناجما عن كرههم للفرس الذين نصبوا انفسهم حماة للنظام الملكي القوريني البغيض وحاولوا ان يفرضوه على برقة وقورينة بحد السيف؟ وهل كان ذلك الكره سببا في حمل أهل قورينة برقة على العدول مؤقتا عن النظام الملكي وعلى إقامة نوع من الحكم الديموقراطي في كل من المدينتين؟

ان النزاع بين الاسرة المالكة والشعب في قورينة بدأ منذ ان تضخم عدد سكان هذه المدينة في عهد باتوس الثاني السعيد (575 - 544 ق.م.) وبلغ ذروته في عهد باتوس الثالث الاعرج (544 - 529 ق.م) الذي قبل بإصلاحات

ديموناكس الدستورية التي ادت في واقعها إلى نقل سلطة الحكم من الاسرة المالكة إلى الشعب. وتركت للملك بعض الامتيازات والمناصب الكهنوتية فقط. وعلى ضوء هذه الحقائق القليلة والمعروفة عن هذه الفترة فأنا اميال للاعتقاد ان برقة وقورينة اجمعتا على كره النظام الملكي الموالي للفرس واقامت كل منهما نوعاً من الحكم الديمقراطي خلال الخمس عشرة سنة الباقية من القرن السادس ق.م. (515 - 500 ق.م.). فهل جربت قورينة من جديد ان تبعث الحياة في دستور ديموناكس؟ وهل حذت برقة حذوها؟

اما كيف أُعيد النظام الملكي إلى قورينة فان مصادرنا لا تسعفنا بشيء يذكر في هذا الخصوص. ولعل احسن ما يمكن ان نتكهن به هو ان نقول ان التجربة الديموقراطيةالثانية في قورينة آلت إلى الفشل مما مهد السبيل أمام باتوس الرابع ((الوسيم)) لاستعادة عرش اسلافه في قورينة مع نهاية القرن السادس قبل الميلاد. أو مطلع القرن الخامس قبل الميلاد. ونحن نكاد لا نعرف عن باتوس الرابع هذا شيئا سوى اسمه ولقبه وفوزه في الألعاب البيثية سنة 466 ق.م.

ونحن كذلك لا نعرف عن خلفه اركيسيلاوس الرابع (حوالى 465-440 ق.م) سوى انه كان منهمكا في استنفاز مزيد من المستوطنين الإغريق من مختلف أنحاء بلاد اليونان للقدوم إلى قورينة. وانه أرسل جماعة من هؤلاء المستوطنين الجدد إلى يوسبيريدس تحت قيادة أخيه كاروتاس (Carrhotas) ليجعل منها ملجأ امنا يأوي إليه ان دعت الحاجة من مثل قيام ثورة في قورينة ضده مثلاً. ولقد وقع ما كان يخشاه فقد اثار قدوم المهاجرين الجدد نقمة المهاجرين القدماء فثار هؤلاء على الحكم الملكي مما حمل اركيسيلاوس الرابع على الفرار إلى يوسيبريدس للنجاة بنفسه. ولكن المدينة الاخيرة خيبت آماله واثبتت له ان إجراءاته الاحتياطية السابقة لم تكن فعالة فقد قتل على يد أحد اتباعه سنة 440 ق.م. في المدينة التى كان يعتبرها ملجأه الأمين. وبمقتله انتهى عهد النظام الملكي في قورينة وانتهى بذلك حكم أُسرة باتوس التي تربعت على عرش قورينة ما يقرب مائتي سنة.

وقبل ان نمضي في محاولتنا لتتبع تاريخ قورينة يجدر بنا ان نلتفت إلى

الوراء قليلاً لنلقي نظرة عامة على بقية ساحل برقة وما أُقيم فيه من مستوطنات اغريقية أخرى.

منذ ان أسست قورينة اصبحت رأس جسر للاغريق فكانو يأتون إليها ثم ينطلقون منها إلى مواقع اخرى على ساحل برقة حيث يقيمون مستوطنات اغريقية جديدة. وقد تكون هنالك مستوطنات اغريقية اقامها إغريق قادمون مباشرة من بلاد اليونان الا ان الغالب هو ان يأتوا إلى قورينة أولاً ثم ينطلقون منها لاقامة المستوطنة الجديدة. ولقد سبقت الاشارة إلى مدينة برقة وكيف تم تأسيسها. والواقع ان الإغريق تابعوا اسلوبهم الاستيطاني ذاك حتى انتشرت مستوطناتهم على طول ساحل برقة فأقاموا بالاضافة لقورينة وبرقة مدن توكرة ويوسبيريدس وطلميثة وأبولوينا ودرنس وأنتيبرجوس[18] (=طبرق). وسنتحدث فيما يلي عن اهم هذه المدن بايجاز املين بذلك ان نوفق في تصوير حضارة هذه المنطقة وتاريخها.

1- قورينة (=سيرين، قرب شحات الحالية):

سبق ان بينا كيف نشأت قورينة في النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد وكيف راحت تتطور في ظل نظام ملكي من الطراز الإغريقي. ونضيف هنا انه ترتب على انقراض أُسرة باتوس ونظامها الملكي أمران رئيسيان :

الأول : تقلص نفوذ المدن الاغريقية القائمة هنا وهناك على ساحل برقة وانحصارها داخل اسوارها. واستمرار كل منها في حكم نفسها بنفسها وفق نوع من الحكم الإغريقي الديمقراطي مع قيام اتحاد إغريقي ينظم العلاقات فيما بين تلك المدن ذاتها من ناحية وفيما بينها وبين غيرها من الناحية الأخرى.

والثاني : ابتعاد القبائل الليبية عن الساحل وانفرادها بتصريف شؤونها.

وأدى هذا الوضع الجديد إلى قيام نوع من التفاهم والتعاون بين الليبيين والاغريق اقتضته المصلحة الاقتصادية المشتركة فقد كانت المدن الاغريقية

18- سميت كذلك لأنها تقابل جزيرة بيرجوس اليونانية ((Anti-Pyrgos))

في حاجة لما تنتجه القبائل الليبية وما يأتي عن طريقها من داخل ليبيا وأواسط إفريقيا خاصة السودان. كما ان القبائل الليبية لم تكن تستطيع ان تستغني عن الساحل ومدنه الإغريقية وما يأتي عن طريقها من وراء البحر. وعلى مثل هذه الحالة ظلت منطقة برقة بأكملها تخضع اسميا للنفوذ الفارسي في مصر وتصرف شؤونها بذاتها عمليا خلال ما يزيد عن قرن من الزمن (440- 333 ق.م) أي ما بين انقراض أُسرة باتوس في قورينة وظهور الاسكندر الكبير، ملك مقدونيا، الذي اكتسح الامبراطورية الفارسية ودخل مصر سنة 333 ق.م. حيث قام بزيارة معبد آمون في سيوة واضفى على نفسه صبغة الألوهية باعلان انه هو ابن الإله زيوس -آمون وفي ذلك الحين قدمت له القبائل الليبية والمدن الاغريقية في منطقة برقة فروض الولاء والطاعة مشفوعة بما امكنها من هدايا، واصبحت منطقة برقة جزءا من إمبراطورية الاسكندر الكبير. وبعد وفاته قسمت إمبراطوريته بين خلفائه الثلاثة فكانت مصر من نصيب البطالمة وظلت منطقة برقة تابعة لها وخاضعة لنفوذ البطالمة الإغريق، ملوك مصر.

ونحن اذا بحثنا عن عصر ذهبي لقورينة نستطيع ان نقول ان عصرها الذهبي هو الفترة التي بدأت قبيل انتهاء الملكية أي في مطلع الخامس قبل الميلاد وانتهت مع انتهاء القرن الرابع قبل الميلاد أي بعيد بداية العصر البطلمي بقليل. ففي هذه الفترة اقامت قورينة نظام حكم ديموقراطي وتخلت عن سياسة التوسع على حساب جيرانها الليبيين وهي السياسة التي رافقت تاريخها الملكي. وفي هذه الفترة كذلك بلغت ذروة ازدهارها الاقتصادي وتقدمها التجاري والزراعي إلى حد انها استطاعت وقت المجاعة الكبرى في بلاد اليونان (329 - 325 ق.م) ان تنقذ تلك البلاد من براثن الموت جوعا عندما امدت اكثر من اربعين مدينة فيها، بينها أثينا نفسها، بما يزيد عن مليون بوشل من القمح[19].

واثرى أهل قورينة نتيجة للاستقرار النسبي والازدهار الاقتصادي فالتفتوا

19- تدل على ذلك لوحة اثرية ترجع إلى سنة 330 ق.م. انظر أيضاً:
Le Veque, Pierre, The Greek Adventure, (English Translation), Weidenfeld & Nicolson, London, W1, England, 1968, p. 341.

إلى ترقية عقولهم واجسامهم مما أدى إلى قيام نهضة فكرية في المدينة حولتها إلى مركز للتعليم والثقافة والحياة الناعمة. ففيها نشأت مدرسة فلسفية كان قد اسسها ارستبوس (Aristeppus)، تلميذ سقراط وأستاذ أبي قورش، صاحب الفلسفة الابيقورية. وبعد وفاة سقراط سافر ارستبوس الظريف إلى مدن مختلفة. وقضّى بعض الوقت في مدينة اسكليوس (Scillus) بصحبة صديقه اجزينيفون (Xenephon) . ووقتا اطول من هذا في مدينة كورنث بصحبة صديقه لايس (Lais)، ثم القى عصا الترحال في مسقط رأسه في قورينة. وكان ثراء الطبقة العليا في هذه المدينة نصف الشرقية قد تكون عادات ارستبوس، ولذلك فقد كان اكثر ما يتفق فيه مع مباديء أستاذه هو قوله ان السعادة اعظم فضيلة. وكان ارستبوس وسيم الطلعة. دمث الاخلاق، بارعا في الحديث مما ساعده على ان يشق طريقه اينما كان؛ من هذا القبيل انه عندما تحطمت السفينة التي كان بها قرب جزيرة رودس ووجد نفسه في ضائقة شديدة على تلك الجزيرة ذهب إلى مدرسة للتدريب الرياضي هناك واخذ يخطب فيها، فافتتن به رجالها وقدموا له ولأصحابه جميع وسائل الراحة. وعندما فعلوا ذلك قال لهم : ان الاباء يجب ان يسلحوا ابنائهم بثروة يستطيعون ان يحملوها معهم إلى البر اذا تحطمت بهم السفن.

وكانت فلسفته بسيطة وصريحة؛ فقد كان يقول: ان كل ما نفعله انما نفعله طمعا في اللذة أو خوفا من الالم حتى اذا افقرنا انفسنا لخير اصدقائنا أو ضحينا بحياتنا من أجل قادتنا. وعلى هذا الاساس فالناس كلهم مجمعون على ان اللذة هي الخير الذي ما بعده خير، وان كل ما عداها، حتى الفضيلة والفلسفة، يجب ان يحكم عليه حسب قدرته على توفير اللذة. وعلمنا بالاشياء، غير مؤكد، وكل ما نعرفه معرفة مباشرة اكيدة هي حواسنا، فالحكمة اذن لا تكون في السعي وراء الحقيقة المجردة بل في اللذات الحسية. وليست اعظم اللذات الجسمية أو الحسية؛ ولهذا فان الرجل العاقل هو الذي يسعى وراءها اكثر من أي سعيه وراء أي شيء اخر، والذي لا يضحي بخير عاجل في سبيل خير آجل غير مؤكد، والحاضر وحده هو الموجود، واكبر

الظـن انه لايقل من حيث الخير عن المسـتقبل ان لم يتفوق عليه. وفن الحياة هو انتهاب اللذائذ وهي عابرة والاسـتمتاع بكل ما نسـتطيع الحصول عليه في الساعة التي نحن فيها. وليست فائدة الفلسفة في انها قد تبعدنا عن اللذة. بـل فائدتها في أنها تهدينا إلى ان نختار: أحسـن اللذات وننتفع بها. وليس صاحب السـلطان على اللذات هو الزاهد المتقشـف الممتنع عنها. بل هو الذي يستمتع بها دون ان يكون عبدا لها. والذي يستطيع بعقله ان يقارن بين اللذائذ التي تعرضه للخطر والتي لا تعرضه له.

وإذن فقـد كان محـور فلسـفة ارسـتبوس هـو دعـوة النـاس إلى ثقة بمشاعرهم وأحاسيسهم مع ضبطها بالحكمة القائلة: ان الانسان السعيد حقـاً هو الذي تعلم الحقيقة وانتصر على مشـاعره فأصبح سـيدا للمتعة وليس عبدا لها. ويقول ارستبوس نفسه في تلخيص فلسفته هذه:

((ان الحكمة ليسـت في السعي وراء الكمالات الخيالية. التي ليس لها وجود إلا في رؤوس الفلاسـفة. كما ان الحكمة لا تكون بالجري وراء الشـهوات واللـذات الحسـية التى تـورث صاحبها المـرض والندم ووخـز الضمير. ولكن الحكمـة في ان نحيا حياة معتدلة فلا نشـغل أفكارنا بالجري وراء حلم خادع من المثل العليا الزائفة أو في الجري وراء لذات حسـية تعرضنا للخطر. اذ اننا نكون في الأولى سذجاً مخدوعين. بينما نصير في الثانية أسرى لهذه اللذات أو عبيدا لها. والرجل الحكيم هو الذي يظهر الاحترام المقرون بالحكمة والدهاء تجاه الرأي العام والشرائع والعادات ولكنه يعمل بقدر المستطاع على الا يكون سيدا لاي إنسان أو عبدا له))

وفـي مجـال الادب نبغ فـي قورينة عـدد من فحـول الشـعراء كان من اوائلهـم أجاممنـون (Ajamemnon) فـي القـرن السـادس قبـل الميلاد. وكليماخـوس(310 – 240 ق.م.) والجغرافي العظيم ((اراتسـثنيس)) في القرن الثالث قبل الميلاد.

وإلى جانب الفلسـفة ولادب ازدهرت في قورينة فنون الرقص والموسيقى. وزاد عدد سـكانها حتى تجاوز المئة الف نسمة. وترقت فيها الالعاب الرياضية

حتى ان فريقها فاز بالمرتبة الأولى في سـباق العربات سنة 462 ق.م. وفاز في دورة الالعاب الاولمبية التى عقدت بعد هذا التاريخ بسنتين.

أمـا في المجـال الاقتصـادي المزدهر فقد كانـت قورينة ومينـاؤهـا ابولونيا (=سوسـة) همزة الوصل بين الدواخل الليبية واواسـط افريقيا من ناحية وعالـم ما وراء البحر من الناحيـة الثانية ؛ فكانت تصـدر إلى جانب القمح والخيـول الاصلية ونبات السـلفيوم (Silphium) البري الذي تظهر صورته على النقود القورينية خلال عدة قرون والذي كانت أُسرة باتوس المالكة تحتكر التجارة به نظرا لاهميته كعلف مسمن للمواشي من ناحية وكعقار مطهر وتابـل لذيذ من الناحيـة الاخرى. ويبـدو أن هذا النبات قد انقـرض في أواخر العهد الروماني نظرا لانتشـار رقعة الأراضي المزروعـة ولعد م رغبة الليبيين فـي الابقاء على نبات بري لا يسـتفيد منه غير الطبقـة الحاكمة البغيضة. وإلى جانب هذه السـلع كانت تروج سلع أخرى أهمها العبيد والذهب والعاج والتمور والخمور وزيت الزيتون والذرة والاغنام والمواشي وريش النعام.

هذا بالنسـبة للتجارة. أما الزراعة فلا شـك أن سـكان المناطق الخصبة من الأراضي الليبية قد تحولوا إلى مزارعين في وقت مبكر من التاريخ الليبي. ولندع هيرودوتس يحدثنا عن هذا الموضوع. يقول هيرودتس:

((لا أظـن أننا نسـتطيع أن نقارن مـن حيث خصوبة التربـة بين ليبيا وكل من اسيا وأوروبا باستثناء منطقة واحدة تسمى منطقة الكنبس [وادي كعام] وقد سـميت كذلك نسبة للنهر الذي ترتوي منـه. ولكن هذه المنطقة على أي حـال تختلف كثيرا عن بقية ليبيا ولا تقل جودة عن أي بلد في العالم بالنسـبة لانتـاج الحبوب؛ فالتربة هنا. بعكس ما هـي عليه الحال فـي أي مكان اخر. سـوداء وترويها الينابيع فهي لا يخشـى عليهـا من الجفاف مـن ناحية ولا من التلف بسـبب الفيضانات من الناحية الاخـرى (ويذكر بهذا الصدد ان المطر يسـقط في هـذه المنطقة من ليبيا). ويعـادل انتاج المحاصيل في هذه المنطقة انتاج نظيرتها في بابل. وهنالك تربة جيدة أيضا حول يوسـبيريدس. فهي في المواسـم الممتـازة تعطي من الغلة مائة ضعف ما بذر فيها. ومع ذلك فان منطقة الكنبس تعطي ثلاثة أضعاف

معدل انتاج منطقة يوسبريدس. أما أراضي قورينة الواقعة في أعلى قسم من المنطقة الليبية التي يقطنها البدو الرحل فتنفرد بميزة خاصة بها تتلخص في أنها تتمتع بثلاثة مواسم غلة في في السنة الوحدة: ويتمثل الموسم الأول في الأراضي القريبة من الشاطيء؛ فمحاصيلها تنضج مبكرة. وما ان يفرغ أهلها من جنيها حتى محاصيل التلال - المنطقة المتوسطة الواقعة فوق الحزام الساحلي - صالحة للجني. وعندما يفرغون الأهلون من جني هذا المحصول الثاني تكون محاصيل القسم الجبلي المرتفع قد نضجت وصارت صالحة للقطاف. وهكذا فانه في الوقت الذي يكون الاهلون قد اكلوا أو شربوا محصولات الموسم الاول يجدون ان محصولات الموسم الاول يجدون ان محصولات الموسم الاخير قد بدأت. مما يعطي أهل قورينة السعداء فصل خريف مستمر لمدة ثمانية أشهر متتالية))[20].

ومن الواضح من اقوال هيرودوتس ان أهل قورينة كانو يكثرون من زراعة الحبوب خاصة القمح والشعير ثم زراعة أشجار الفواكه وخاصة شجيرة العنب وأشجار النخيل. وهما صنفان كانوا يصنعون مشروباتهم من ثمارهما. وبالاضافة لذلك فقد اشتهرت برقة بالذرة وزيت الزيتون والتفاح والعصفر وروح الزهر وتربية الاغنام والمواشي والخيول السريعة بانتاج الأصواف ونبات السلفيوم (الأنجدان) الذي كان علفا ممتازا للحيوانات وكانت عصارته عقارا مفيدا في علاج الأمراض البشرية والحيوانية والنباتية. وكان اذا اضيف القليل منه للطعام. وخاصة إلى أطباق السمك. اضفي عليه نكهة خاصة مشهية. ولكن هذه الثروة الزراعية المزدهرة التى كانت بحق عماد ثروة قورينة كثيرا ما كانت تتعرض لغزو الجراد؛ وفي مثل تلك الحال كان على جميع السكان أن يخرجوا للاسهام في مكافحته والقضاء عليه. والذين يتهربون منهم من ذلك الواجب كانوا يتلقون نفس العقاب الذي كان يتلقاه الفارون من الخدمة العسكرية[21].

ومع نهاية القرن السادس قبل الميلاد كانت مدن برقة قد اصبحت مراكز

20- انظر الملحق «ب» ص 687 – 788 أو آخر الكتاب الرابع من تاريخ هيرودوتس.
21- Wright, John, Libya, The Nations of the Modern World series. London, Ernest Benn Limited, 1st Edition, 1969, p. 43.

تجارية هامة وان لم تبلغ مبلغ قرطاجة؛ فقد كانت قورينة تتاجر مع المدن الاغريقية في جزر البحر الابيض المتوسط وساحله الشمالي. وكانت تجارتها في الوقت ذاته تسير نشيطة مع افريقيا الوسطى عن طريق واحة أوجلة (الواقعة على بعد مائة وخمسين ميلا إلى الجنوب من اجدابيا) ومنها إلى الجنوب الغربي عبر الصحراء إلى مرزق أو إلى الجنوب الشرقي إلى واحة سيوة. ونتيجة لهذا الاقتصاد المزدهر في مجالي الزراعة والتجارة صارت قورينة في مطلع القرن الخامس قبل الميلاد تعتبر احدى العواصم المهمة في العالم الإغريقي.

نظام الحكم الإغريقي في قورينة في العصر الملكي:

لقد ألمحنا سابقاً بالشكل العام لنظام الحكم الملكي الوراثي الذي كان سائدا في قورينة خلال أول قرنين من حياتها. وبالرغم من قلة مصادرنا عن العصر الملكي في قورينة فانه لا بد لنا ان نتذكر حقيقة اساسية عامة تكاد تصدق على المجتمعات البشرية في كل مكان وزمان الا وهي ان الانسان حريص دائماً على ان ينقل معه تراثه وعاداته وتقاليده. ان هذا القول يصدق إلى حد كبير على حركة التوسع الاغريقية؛ فالمعروف بشكل عام ان المستوطنة الاغريقية خارج بلاد اليونان كانت ترتبط ارتباطا وثيقا بالمدينة الام وتتأثر بها تؤثر فيها إلى حد كبير. ولما كانت قورينة مستوطنة دورية فلا نعتقد اننا نجافي الحقيقة اذا افترضنا ان تنظيمها السياسي كان إلى حد كبير صورة عن التنظيم السياسي في البلد الأم وهي جزيرة ثيرا الدورية؛ وقوام ذلك التنظيم هو ان يوزع المواطنون في المدينة إلى ثلاث قبائل. ولقد سبق ان علمنا من هيرودوتس ان المهاجرين الأول من ثيرا كانوا يمثلون الاقسام السبعة لسكانها؛ واذن فلا بد انهم نظموا انفسهم على شكل قبائل ثلاث تضم الاقسام السبعة- على غرار التنظيم الذي كان سائدا في ثيرا- منذ ان استقرو في قورينة بزعامة ملكهم باتوس. ومما يؤيد هذا الرأي ان المشرع ديموناكس قسم مواطني قورينة إلى ثلاثة قبائل عندما استدعى لاصلاح دستورها في عهد باتوس الثالث الاعرج. ولعل ديموناكس انما كان يضفي الصبغة الشرعية على وضع كان قائماً. ومنذ نشوء قورينة قسمت اراضيها بين القبائل الثلاث

فتكونت بذلك أول طبقة من الارستوقراطيين المؤسسين، ملاكي الأراضي. ولكن لما كان عدد هذه الطبقة قليلاً[22] فان قورينة سارت بين الحين والحين الاخر على سياسة توزيع هبات من الأراضي لمن يرغب في الهجرة إليها من الإغريق، وذالك لكي تدعم مركزها وتقوي وجودها في منطقة ساحل برقة. وخير مثال عل هذا هو ما ذكره هيرودوتس من تحريض موحي دلفي للاغريق على الهجرة إلى قورينة في مطلع عهد باتوس ((السعيد))[23] وهنالك مثال اخر ما فعله اركيسيلاوس الثالث الذي اقطع الأراضي في قورينة لكل من التفّ حوله من الإغريق وآزره في استرجاع عرشه[24]. ولما كنا نعرف ان ملكية الأرض هي الاساس الذي ارتكزت إليه الارستوقراطية الأولى في قورينة فإنا نعتقد ان كل مهاجر اغريقي جديد قدم لقورينة بعد ان حصل سلفا على ملكية للارض فيها كان ينضم لاحدى قبائلها الثلاث ويسهم بذلك في تقوية ارستوقراطيتها الأولى وتوسيعها. وبهذا فنحن نعارض ما ذهب إليه البعض من قصر الطبقة الارستوقراطية على الملاكين الأول ونسلهم، وتقرير ان كل المهاجرين الذين قدموا لقورينة بعد قيامها وجدوا انفسهم في وضع التابع بالنسبة لطبقة المستوطنين الأوائل[25]. ولما كان لا بد من وجود الأتباع فالتفسير المعقول هو ان نقول ان المهاجرين الجدد الذين اجبرتهم ظروفهم الجديدة في قورينة على ان يكونوا اتباعا للارستوقراطيين الأوائل هم اولئك الإغريق الذين قدموا إلى قورينة دون ان يؤمنوا لانفسهم ملكية مسبقة. وهم ايضا صغار الملاكين الذين رأو بالتجربة أنهم لا يستطيعون البقاء دون الالتجاء إلى غيرهم من كبار الملاكين. وهم ايضا العمال الفنيون والصناعيون ان صح التعبير. ويضاف إلى هؤلاء جميعا بعض الليبيين الذين تأغرقوا وربما ايضا بعض الإغريق ممن كانوا من أمهات ليبية.

عند هذا الحد تتبلور في ذهننا صورة واضحة لمجتمع قورينة. فهو مجتمع

22- أنظر ص 239 أعلاه حيث يذكر هيرودوتس أن عدد المهاجرين المؤسسين كان عبارة عن حمولة سفينتين من ذوات الخمسين مجدافاً أي مائتي مهاجر

23- أنظر ص 244 أعلاه.

24- أنظر ص 247 أعلاه.

25- أنظر عبد العليم، مصطفى كمال، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، منشورات الجامعة الليبية، المطبعة الأهلية، بنغازي، 1966، ص 125 – 128.

طبقي هرمي تنقصه الطبقة المتوسطة بينما تتكون قاعدته من الأتباع وتتربع قرب قمته طبقة ارستوقراطية من الملاكين ويقوم فوق الجميع ملك مطلق جمع في يديه مقاليد السلطات الدينية والعسكرية والمدنية.

وازاء النقص في مصادر هذا العصر لا بد لنا لن ان نلجأ ثانية إلى القياس على ما كان يجري في المدن الاغريقية في بلاد اليونان ذاتها. ولابد انه كان لقورينة منذ مرحلة مبكرة في تاريخها مجلس شيوخ Gerousia، وهي كمستوطنة دورية لا بد ايضا انها كانت بها هيئة الإيفور الخمسة Ephors [26] الذين ربما كان الملك يعينهم ويعد إليهم ببعض سلطاته القضائية. وسنلاحظ انه بالاضافة إلى هذين المجلسين كان يوسيريدس مجلس ثالث هو مجلس الشورى Boule . ولما كان من المرجح أن الذين اقاموا مستوطنة يوسبيريدس هم إغريق من قورينة فان وجود مجلس شورى في يوسبيريدس يشجع الافتراض ان قورينة كان لها مثل ذلك المجلس.

واذا سلمنا بوجود هذه المجالس من وقت مبكر في تاريخ قورينة فانا لا بد ان نستنتج ان النزاع الذي كان يقع داخل أُسرة باتوس المالكة كالذي حصل بين اركيسيلاوس الثاني واخوته انما هو نزاع بين الملكية والارستوقراطية. وإذن فان اصلاحات ديموناكس الدستورية التي نقلت الحكم من الملك إلى الشعب كانت في الواقع انتصارا للاقلية الارستوقراطية على الملكية وليس ثورة ديموقراطية في دستور المدينة. ويذكر بهذا الصدد ان التطور نحو الديموقراطية في بلاد الإغريق الأم سار على نمط مشابه فانتقلت السلطات من يد الملك إلى يد طبقة النبلاء أو إلى يد طاغية تولى مقاليد الامور عن طريق غير شرعية ثم انتقلت بعد ذلك للشعب فصار يحكم نفسه بنفسه وهو ما نعنيه بالحكم الديموقراطي. لابد ان قورينة أقامت نوعاً من الديموقراطية فيها في الفترة التي انقضت بين نهاية أُسرة باتوس الحاكمة سنة 440 ق.م ودخول برقة في حوزة البطالمة بعد سنة 322 ق.م.

26- تشير مصادر العصر البطلمي إلى وجود هذين المجلسين في قورينة في عصر البطالمة. وربما كان الأول منهما هو الذي قصده هيرودوتس عندما ذكر أن الملكة فيريتيما كانت تأخذ مقعدها في مجلس قورينا نيابة عن آركيسيلاوس الثالث الذي كان لاجئاً في برقة. انظر أيضاً ص 247 أعلاه.

2- أبولونيا (=سوسة)

بعد تأسيس قورينة بقليل بدأ أهلها بتأسيس ميناء لمدينتهم في مكان مناسب وقريب فوقع اختيارهم على المكان الذي لا تزال آثاره قائمة إلى الان وسموا المستوطنة الجديدة أبولونيا تعتمد كلية على قورينة حتى العهد البطلمي عندما بدأت أهميتها كميناء تنمو وتزداد خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد. وطيلة العصر الذي كانت تعتمد فيه على قورينة كان ينظر إليها باعتبارها ميناء قورينة وكأنها جزء من قورينة وليس مستوطنة مستقلة. وعلى ذلك الاساس فان الحياة فيها كانت خاضعة لما تمليه قورينة. اما النشاطات التى كانت تجرى في هذا الميناء فكانت تصدير واستيراد ما تقرر قورينة تصديره واستيراده بالاضافة إلى تقديم الخدمات للمسافرين من قورينة والقادمين إليها. ومن المؤسف أن البحر ابتلع ما يزيد عن ثلث هذه المدينة فجعل من الصعب تحديد الميناء الإغريقي وارصفته وان كان من المحتمل انه اقيم إلى الشرق من النتوء الصخري البارز في البحر وانه كان يضم بركة كليوبترة.

3- برقة (= المرج) Berca, Barka:

لقد مر بنا كيف قامت جماعة من إغريق قورينة بتأسيس هذه المدينة بمساعدة قبيلة الأوسخيزي الليبية سنة 550 ق.م. وفيما عدا ذلك فنحن لا نعرف عن هذه المدينة سوى انها كانت دون شك تستغل السهل الخصيب المحيط بها بالزراعة وبتربية الخيول البرقية المشهورة بأصالتها وسرعتها وباحرازها قصب السبق في المباريات اليونانية كما حدث في عهد الملك باتوس الرابع عندما فازت قورينة فوزا باهرا في الالعاب البيثية سنة 366 وفي سباق العربات سنة 462 ق.م. بفضل الخيل البرقية. وقد حمل فوز قورينة في الألعاب البيثية الشاعر الإغريقي الكبير بندار على تخليد هذه المناسبة في قصيدتين رائعتين من قصائده.

4- طلميثة

تقع طلميثة على الساحل مقابل مدينة برقة من الشمال وقد

استخدمت كميناء لمدينة برقة. وكانت هذه المستوطنة في الأصل تقوم محل المدينة الحالية إلى جانب المرفأ. ويدل ما اكتشف من آثارها على أنها كانت قد خططت بعناية ولكن الآثار التى تم كشفها فيها حتى الآن ترجع إلى عصور لاحقة وسنعرض لها في حينه. وتدل أقدم الخزفيات التى اكتشفت في طلميثة وابولونيا على ان هاتين المدينتين أسستا بعد تأسيس قورينة سنة 631 ق.م بقليل. وعلى هذا الأساس فان طلميثة لا يمكن ان يكون أسسها أناس من برقة كميناء للمدينة الاخيرة لان طلميثة اقدم من برقة وان كانت صارت تؤدي غرض الميناء بالنسبة لبرقة وتسمى ((ميناء برقة))

5- توكرة:

نستدل من اقوال بندار على ان المهاجرين من قورينة هم الذين قاموا بتأسيس توكرة وأبولونيا. وقد أيد هذا القول ما اكتشف من حفريات يرجع تاريخها إلى ما بعد تأسيس قورينة سنة 631 ق.م. وكان المتعارف عليه عامة ان توكرة أسسها قادمون من برقة ولكن الاخيرة لم تؤسس الا في وقت متأخر في عهد اركيسيلاوس الثاني. وعلى ذلك فليس هنالك مايبرر ماذهب إليه البعض من ان توكرة كانت تشاطر برقة كراهيتها لقورينة في القرن الذي تلا تأسيس برقة. وانها لذلك تأثرت بالغزوة الفارسية لبرقة سنة 515 ق.م. وان كان الفرس قد مروا بها لا محالة أثناء تلك الغزوة وهم في طريقهم إلى يوسبيردس. وليس هنالك في الآداب الكلاسيكية ولا في الحفريات التى اجريت حتى الان ما يدل على أصل السكان الذين استوطنوا توكره ولكن يكاد يكون من المؤكد انهم قدموا من قورينة وان كان هنالك احتمال انهم كانوا اغريقا جاؤوا مباشرة إلى توكرة من بلاد اليونان دون المرور في أبولونيا مينا قورينة. ويقول اصطفانوس (Sephanus) ان هذه المستوطنة سميت باسم تويكيرا (Tcheria) ابنة اوتاندروس (Autandros). وهما اسمان لا يذكرهما أي كاتب آخر.

6- يوسبيريدس(= بنغازي)

يؤكد جودتشايلد ان مستوطنين من قورينة أو برقة قاموا قبل سنة

515 ق.م بتأسيس مستوطنة يوسبيريدس الأولى على الطرف الشمالى من سبخة السلماني الحالية حيث توجد الان مقبرة سيدي عبيد الفيتوري[27]. أما لماذا اختاروا ذلك الموقع على طرف السبخة فتعليله ان السبخة كانت آنذاك عبارة عن بحيرة ضحلة متصلة بالبحر وصالحة لملاحة القوارب والسفن الصغيرة التى كانت دون شك تصلها بالميناء القديم الذي ربما كان يقع إلى الغرب قليلا من المنارة الحالية.

واقدم اشارة ليوسبيريدس هي تلك التي أوردها هيرودوتس في حديثه عن الحملة الفارسية على مدينة برقة سنة 515 ق.م.[28]. واذن فلا بد ان هذه المدينة كانت قائمة قبل ذلك التاريخ. واقدم عمله وجدت لها حتى الان ترجع لسنة 380 ق.م ويظهر على أحد وجهيها نبات السلفيوم بينما تظهر سمكة دلفين على الوجه الاخر[29].

ولابد ان يوسبيريدس كانت معرضة اكثر من غيرها لغارات القبائل الليبية المقيمة حول خليج سرت الكبير لانه كان من السهل على تلك القبائل ان تتقدم عبر السهول إلى يوسبيريدس. ولعل البحيرة هي التى كانت توفر بعض الحماية لهذه المستوطنة. من هذا القبيل ما نسمعه من ثوسيديس (Thuecydidies) عن قبائل ليبية تضرب حصارا على يوسبيريدس سنة 414 ق.م. فلا يرفعه عنها الا وصول أسطول اغريقي كان في طريقه إلى سيراقوسة بقيادة رجل اسمه جيليبوس (Gylippus) فساقته الرياح إلى يوسبيرديس. إننا لا نشك في ان هذا الوضع القلق دعا إلى استقدام جماعة جديدة من المستوطنين الإغريق ولكنهم لم يمكثوا الا قليلا ثم عادوا إلى مدينتهم مسينا سنة 369 ق.م. واخر مرة ظهرت فيها يوسبيريدس على المسرح السياسي كانت سنة 322 ق.م. عندما ضلعت مع برقة في تأييد مغامر اسمه ثبرون (Thibron) كان يطمع في اقتطاع جزء من برقة يقيم فيه ملكا لنفسه. ولكن قورينة وحلفاءها من الليبيين تصدوا لذلك المغامر وتمكن أحد الليبيين من أسره في النهاية حيث قام أهل توكره بشنقه. ولا

27- أحد أبناء زليطن ورئيس نظام العروسية في برقة.
28- أنظر الصحفة 250 أعلاه.
29- ربما كانت صورة الدلفين رمزاً لبوزايدن إله البحر.

شك ان يوسبيريدس قاست نتيجة تورطها في ذلك النزاع وضلوعها مع الطرف الخاسر.

أما ما نعرفه عن التنظيم السياسي لهذه المدينة فهو قليل وينحصر في نقش مهم عثر عليه في موقع يوسبيريدس ويرجع تاريخه إلى سنة 350 ق. م. وهو يبين أن هذه المستوطنة كان لها مجلس قضاة (Ephors) ومجلس شيوخ (Gerousia) وفي النقش يقترح الشيوخ على مجلس الشورى (Boule) تكريم اثنين من أبناء مدينة سيراقوسة لقاء خدمات معينة كانا قدماها ليوسبيريدس. ولعل وجود هذه المجالس دليل على أن التنظيم السياسي ليوسبيريدس، وربما لمعظم المستوطنات الإغريقية في برقة، إن لم نقل كلها، كان بصفة عامة مشابهاً للتنظيم السياسي في قورينة.

وبالنسبة لاسم هذه المستوطنة فقد قطع جودتشايلد بأن يوسبيريدس (Euesperides) هو أصح وأقدم اسم لها[30]. وقد البس هذا الاسم أكثر من ثوب من ثياب الأساطير الإغريقية القديمة نظراً للشبه بينه وبين الأسماء الواردة في أساطير هي أقدم من المدينة ذاتها. فقد ذهب عدد من الكتاب القدامى إلى أنها سميت هسبيريدس (Hesperides) نسبة للأخوات الأسطوريات الأربع[31]. بنات هسبيروس، اللواتي كن يحرسن البستان المسمى باسمهن والذي كانت الإلهة هيرا «Hera» قد تلقته كهدية بمناسبة زواجها من الإله زيوس (Zeus). وتقول الأسطورة إن هذا البستان كان مليئاً بشجر التفاح الذي يثمر الذهب ولذلك فقد وكل الأخوات الأربع بحراسته نظراً لما كن يتحلين به من قدرة عجيبة على الغناء الساحر. ووضع الأفعوان المخيف لادُن (Ladon) تحت تصرفهن لكي يساعدهن في حراسة البستان. وإمعاناً في هذا الاتجاه فإنهم تعرفوا على بحيرة تريتونس (Tritonis Lacus)[32] وقالوا

30- Goodchild, R.G., Benghazi, The Story of a City, Department of Antiquities, Cyrene (Shahat), Cyrenaica, Libya, 2nd edition, Lamin Hasni s Press, 1962.
31- Their names were: Aegle, Erythcia, Hestia and Arethusa
32- After Triton, Son of Poseidon, God of the Sea.

إنهـا هي البحيـرة الواقعة إلى الجنوب من المدينـة القديمة. كما تعرفوا على البسـتان نفسه في أحد المنخفضات في موقع سواني بن عصمان على بعد حوالي عشرة كيلومترات إلى الشرق من بنغازي وإلى الشمال من الطريق إلى مطار بنينا. وقريبا من موقع البستان وجدوا كهفاً به بحيرة جوفية فاعتبروه نهر ليث. الذي هو نهر النسيان في العالم السفلي في الأساطير الإغريقية. وكان إلـى الشـمال الغربي من المدينة نهر سـماه الفينيقيون نهر لاثن وهي تسـمية تلفـت النظر لما فيهـا من توافـق عجيب مع التسـمية الإغريقية للأفعوان لادن الذي سبق ذكره.

ويعارض سـي. جـي. سـي هايسـلوب (C.G.C. Hyslop) في كتابه (Cyrene and Ancient Gyrenaica) الصادر في طرابلس شنة 1945 م. هذه الآراء ويقول إن المؤسسين الإغريق أسموا المدينة يوهسبيريدس ومعناها بالإغريقية «مدينة الغرب السعيدة» نظراً لخصوبة الأرض التي كانت تجاورها من الغرب. وإن تسـميتها هسـبيريدس ناجّة عن التباس هذه التسمية على الكتّاب القدامى تحت تأثير ما يعرفونه من الأساطير الإغريقية.

وبالإضافة إلى هذه المستوطنات المشهورة فلا شك أنه كانت هنالك مواقع أُخرى كثيرة على سـاحل برقة لا يمكن أن يكون قد فات الإغريق أن يستفيدوا منها ويسـتغلوها من مثـل درنة (Dernis) وطبـرق (Antipyrgos) وبما وعين غزالة والبردية. ولكن الحفريات لم تنشط في هذه المواقع لتوقفنا على أحوالها الماضية.

جمهوريات برقة في ظلال الفرس والبطالمة

(440 – 96 ق. م.)

اسـتولى الفـرس على مصر سـنة 525 ق. م. ولم يلبثوا حتى بسـطوا نفوذهم على برقة خاصة القسم السـاحلي منها أي المنطقة الإغريقية[33]. ويبدو أن الفرس لم يركزوا قوات فارسـية في برقة بل اكتفوا بإرسال الحملات العسكرية كلما دعت الضرورة. وقنعوا من هذه المنطقة بأن تعلم خضوعها لهم وتدفع لهم الجزية. وتركوا لها مهمة تصريف شـؤونها كما تشاء. وقد سـبق أن لمحنا في الحديث عن قورينة أن آركيسـيلاوس الرابـع (حوال 465 – 440 ق. م.) كان قـد أعلن تبعية قورينة. وهي أهم مدينة إغريقية في برقة. لحاكم مصر الفارسـي وحدد الجزية السنوية التي صارت تلك المدينة تدفعها للفرس. ولابـد أن بعض القبائل الليبية في برقـة. وخاصة القريبة منها من السـاحل. قد خضعت للفرس كذلك[34]. ومما يؤيد هذا القول أننا نسـمع عن وجود فرقة ليبية في جيش الملك الفارسـي كزركسيس عند زحفه على بلاد اليونان. وتجدر الإشـارة هنا إلى أننا لا نسمع شيئاً عن موقف المدن الإغريقية في برقة من الحرب بين الإغريق والفرس طيلة النصف الأول من القرن الخامس قبـل الميلاد. ولعل الـذي حدث هو أن تلك المدن كانـت خاضعة للحكم الذي أقامه الفرس في مصر مما حال بينها وبين مد يد المساعدة لبلاد الإغريق. هذه ناحيـة أمّا الناحية الأخرى فتتلخص في بُعدِ تلك المدن عن بلاد اليونان وعدم التزامها بالارتباط بها مائة بالمائة.

وبعد أن انقرضت أُسـرة باتوس حوالي سنة 440 ق. م. سادت منطقة برقة حالة من الفوضى وعدم الاستقرار ممّا شجع بعض القبائل الليبية على مهاجمة المدن الإغريقية كما حدث لمدينة يوسـبيريدس سـنة 414 ق. م.[35].

33- كان باتوس الرابع. ملك قورينة. قد اعترف بالتبعية للملك الفارسي قمبيز بعيد إستيلاء الأخير على مصر سنة 525 ق. م.
34- انظر ص 248 أعلاه.
35- انظر ص 265 أعلاه.

وفي الوقت ذاته كانت المدن الإغريقية ترزح تحت وطأة صراع داخلي احتدم بين الطبقة الأرستوقراطية، التي نصبت نفسها في مراكز القوة والحكم بعد زوال الملكية، وبين البقية الباقية من سكان تلك المدن. واستمرت برقة تقاسي من الفوضى والصراع الداخلي إلى أن حل عهد الاسكندر الكبير الذي اكتسح الإمبراطورية الفارسية ودخل مصر سنة 333 ق.م. فبادرت المدن الإغريقية في برقة وفي مقدمتها قورينة بإعلان تبعيتها له لدى سماعها عن بلوغه باريتونيوم «Paraetonium» (= مرسى مطروح). وقد أعربت قورينة بالذات عن ولائها له وترحيبها به بتقديم هدايا كان من جملتها ثلاثمائة جواد وخمس عربات حربية من ذوات الخيول الأربعة. وعندما زار الاسكندر الكبير معبد آمون في سيوة بادر عدد من القبائل الليبية بتقديم ولائهم له. والمعروف أن الاسكندر الكبير «عين – قبل مغادرته مصر إلى الشرق – أبولونيوس بن خارينوس (Apollonioos Charinos) حاكماً على ليبيا [منطقة برقة][36]. وإثر وفاة الاسكندر الكبير سنة 323 ق. م. تقاسم خلفاؤه الثلاثة إمبراطوريته فيما بينهم فوقعت مصر من نصيب حاكمها بطليموس بن لاجوس الذي صار فيما بعد الملك بطليموس الأول الملقب سوتر (Soter) أي المنقذ. وفي أواخر سنة 323 ق. م. اندلعت ثورة في قورينة وانتشر لهبها إلى بقية المدن الخمس التي كانت كغيرها من الجمهوريات الإغريقية فريسة للتطاحن الحزبي فاغتنم المغامر الاسبارطي ثبرون (Thibron) والمغامر الكريتي مناسكليس (Manasicles) تلك الفرصة فتزعم كل منهما فريقاً من الثوار. وتمكن ثبرون من دخول قورينة إلا أن الحزب الديموقراطي فيها لم يلبث أن استولى على السلطة وطرد ثبرون كما طرد عدداً من أغنياء المدينة الأرستوقراطيين. ولكن ثبرون عاد فحاصر قورينة بينما التف حوله عدد من الأثرياء المطرودين ولجأ عدد آخر منهم إلى مصر يستنجدون ببطليموس الأول. واغتنم بطليموس تلك الفرصة فأرسل رفيقه أوفلاّس الأولنثي على رأس قوة برية وبحرية لوضع حد للصراع في المنطقة. واتحد المغامران لمجابهة أوفلاّس ولكنه هزمهما وأسر ثيرون وصلبه.

36- نصحي، إبراهيم، تاريخ مصر في عصر البطالمة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة (ثلاثة أجزاء)، القاهرة، 1966، ج1، ص 32.

وبمناسبة هذا الانتصار قدم بطليموس نفسه إلى منطقة برقة ونصب أوفلاّس حاكماً عليها. ولكن مدنها ظلت تحتفظ بنظمها الجمهورية في ظل العهد البطلمي الذي كانت منطقة برقة خلاله ملكاً للبطالمة باستثناء فترة استقلالها الوجيزة من 283 – 273 ق.م. ولم يكن من السهل على أوفلاّس أن يخضع منطقة برقة فقد ثارت عليه سنة 313 ق.م. وكادت تطيح به لولا أن بطليموس الأول سارع بإرسال حملة أخمدت الثورة وأعادت أوفلاّس لكرسي الحكم من جديد. وفي سنة 311 ق.م. استقل أوفلاّس ببرقة بتشجيع من أنتجونس، قائد عام قوات آسيا الذي كانت علاقاته مع بطليموس الأول قد ساءت. وتحالف أوفلاّس مع أجاثوكليس السراقوسي ضد قرطاجة ولكنهما اختلفا في النهاية فقضى الأخير على أوفلاّس سنة 308 ق.م. وكان ذلك من حسن حظ بطليموس الأول. وفي هذه الأثناء وبينما كان بطليموس الأول يترأس حملة ضد بلاد اليونان سنحت له الفرصة، بمقتل أوفلاّس، لكي يستعيد برقة فكر عائداً لمصر من أجل تلك الغاية وأرسل ماجاس، ابن زوجته برنتشي، على رأس حملة نجحت في استعادة منطقة برقة. فكافأ بطليموس الأول ماجاس على ذلك النجاح بتعيينه سنة 300 ق.م. نائباً عنه في حجمها. ويدل كل هذا الاهتمام الذي أحاط به بطليموس الأول منطقة برقة على أن «قورينائية [منطقة برقة] كانت تعني مصر مباشرة... وقد أثبتت الأيام أن ضم قورينائية لم يزد في قوة بطليموس بل أصبح بمثابة شوكة في جانب البطالمة. فمن ناحية لم يمثل أهلها للخضوع لسلطة أجنبية لأنهم اعتادوا على الحرية والاستقلال، ومن ناحية أخرى كانت الأطماع الشخصية تغري حكامها بالخروج على طاعة الملك»[37].

37- المصدر نفسه، ج1، ص 80.

الحرب بين قورينة وقرطاجة:

نتيجة للازدهار الذي أصابته قورينة في المجالات المختلفة فإنها أصبحت، إلى جانب كونها مركز إشعاع ثقافي، مركزاً للقوة الإغريقية على ساحل برقة. وكان يقابلها بعيداً إلى الغرب على الساحل التونسي مركز ثقافة وقوة فينيقي هو قرطاجة. وبالرغم من أن قرطاجة كانت أعظم شأناً وقوة من قورينة إلا أنه كان لابد أن تتعارض مصلحتها باعتبار أن كلاً منهما كانت تنتمي إلى قارة مغايرة لقارة الأخرى فهما وإن قامتا على ساحل الشمال الإفريقي إلا أن قرطاجة كانت آسيوية بينما كانت قورينة أوروبية. وإذن فنحن لا نبالغ إن رأينا في اصطدامهما حلقة صغيرة في سلسلة التصادم بين أوروبا وآسيا. وبالإضافة لذلك كله فإن التنافس بين الفينيقيين القرطاجيين والمستوطنين الإغريق في جزر البحر الأبيض المتوسط كان لابد أن يؤدي إلى الاصطدام بين أولئك الإغريق والقرطاجيين وبالتالي بين القرطاجيين والقورينيين. ولم يطل الوقت بالمدينتين حتى تنازعتا على تعيين الحدود بينهما في منطقة طرابلس في أعقاب قصة الأخوين فيليني التي سنفصل القول فيها في موضع آخر. وفي هذه المرة توصلنا إلى اتفاقية على الحدود فيما بينهما إلا أن تلك الاتفاقية حسمت النزاع مؤقتاً ولم تحسم العداء الذي ظل قائماً في مكامنه في انتظار ظروف مناسبة تسمح له بالتعبير عن ذاته. وجاءت الفرصة المنشودة في عهد بطليموس الأول، خليفة الاسكندر الكبير، عندما استجاب أوفلاّس (Ophellas) حاكم قورينة الذي كان قد استقل بها، لدعوة تلقاها من أجاثوكليس (Agathocles) ملك سيراقوسة الإغريقي، الذي كان قد فاجأ قرطاجة ونزل بقواته على البر التونسي، يحثه فيها على مشاركته في مهاجمة قرطاجة ويؤكد له أنه سيؤيده، في حالة الانتصار على قرطاجة، في أن تكون له، أي لأوفلاّس، اليد المطلقة في برقة. وصادفت هذه الدعوة هوًى وطموحاً في نفس أوفلاّس فسار سنة 308 ق.م. بجيش يشبه مستوطنة متحركة برجالها ونسائها وأطفالها، وانضم إليه عدد كبير من أعوانه الليبيين، وتجشم الجميع مشقة السير المضني حول خليج

سرت الكبير في منتصف الصيف القاسي. ولا يعرف ما فعله هذا الجيش بالمستوطنات الفينيقية في منطقة طرابلس وإن كنا نظن أنها فتحت أبوابها أمام القادمين تجنباً للصراع وإراقة الدماء. والمعروف، على أي حال، أن عدداً قليلاً جداً من رجال أوفلاّس تمكنوا من العودة سالمين من تلك الحملة، أما هو نفسه فقد لقي مصرعه على يد حليفه في تونس إثر خلاف نشب بينهما مما أتاح الفرصة لقرطاجة فأجهزت على البقية الباقية من القوات المتحالفة؛ وانتهى بذلك التحدي الإغريقي الرئيسي لقرطاجة ولسلطانها في شمال إفريقيا، ذلك التحدي الذي ورثته روما بعد نصف قرن من الزمن كجزء من التركة الإغريقية فسارت به حتى نهاية الشوط ونهاية قرطاجة في موجة عدوان جديد لأوروبا على إفريقيا وآسيا ممثلتين في قرطاجة. وبمقتل أوفلاّس خضعت برقة للبطالمة من جديد. ولما كان البطالمة ورثاء الاسكندر وخليفته أو نائبه أنتيباتر فإنهم لم يرثوا عنهما جزءاً من الإمبراطورية فقط بل ورثوا أيضاً نظام الحكم والنظام العسكري ونظماً أُخرى وعادات وتقاليد تشكل في مجموعها طريقة حياة كاملة. ولتوضيح هذه النقطة نقول إن الإسكندر الكبير كان يعامل المدن الإغريقية أينما وجدت كحليفة حرة، ولكن خليفته أنتيباتر رغب في معاملتها كرعايا وكدول مغلوبة تابعة له يضع الحاميات فيما يشاء منها ونصّب في دست الحكم بها أوليجركيات (أقليات) تناصره، أو طغاة يمالئونه. وقد حذا البطالمة حذو أنتيباتر في هذه السياسة فصاروا يعينون حكاماً أو مندوبين للملك في المدن التابعة لهم، وفي بعض الأحيان كان الملك البطلمي يتولى بنفسه تعيين واحد أو أكثر من الحكام الرئيسيين الأول كما فعل بطليموس الأول بالنسبة لمنطقة برقة[38] ندما عين ماجاس حاكماً لها كما أسلفنا، وكما فعل بطليموس الثاني فيلادلفوس – وكان ماجاس المذكور إبناً لزوجة أبيه برنيتشي – عندما أقر ماجاس المذكور في منصبه حاكماً لقورينة[39] نيابة عن الملك.

38- تارن، وليم، الحضارة الهلينستية، الطبعة الثالثة، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1966، ص 73 – 75.

39- نصحي، إبراهيم، تاريخ مصر في عصر البطالمة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة (ثلاثة أجزاء)، القاهرة، 1966، ج 2، ص 334، حيث يقول: «إن المشكلة الرئيسية التي واجهت البطالمة في قورينائة قد واجهتهم كذلك في كل ممتلكاتهم التي كانت المدن الإغريقية

وفي مناسبة التعيين الأولى باشر ماجاس سلطات منصبه كحاكم لقورينة ابتداءً من سنة 300 ق.م. وبعد سنة 283 ق.م. (أي بعد وفاة بطليموس الأول) انتحل ماجاس لنفسه لقب ملك. ذلك اللقب الذي كان قد سقط من الاستعمال في قورينة منذ انتهاء أُسرة باتوس. ولم يكتف ماجاس بكل ذلك بل أعلن استقلاله ببرقة وزحف على مصر سنة 274 ق.م. وأشرف على الاسكندرية ولكن الملكة آرسينوي، زوجة بطليموس الثاني فيلادلفوس الذي أصبح ملكاً لمصر، نجحت بدهائها في إثارة قبائل المارماريدي الليبية ضده ووراء ظهره في ماريماريكا مما جعل حملته تبوء بالفشل ودفعه إلى التوصل لاتفاق مع بطليموس فيلادلفوس وذلك بعقد قران ابن بطليموس فيلادلفوس وخليفته على برنتشي ابنة ماجاس. وتخليداً لهذه المناسبة قام البطالمة بتغيير أسماء مدن برقة وسموها بأسماء ملكية كما سنبينه فيما بعد. وسقط اللقب الملكي من جديد وعاشت برقة طيلة المائة سنة التالية تحت حكم مصري لم تحدد معالمه[40].

وإذا نحن ألقينا نظرة على دستور المدينة الإغريقية المتمتعة بالحكم الذاتي من مثل المدن الإغريقية على ساحل برقة، فإننا سنلاحظ لأول وهلة أن ذلك الدستور يبدو وكأنه ظل على صورته الأولى دون أن تمسه يد التغيير[41]؛ فقد كان بكل مدينة جمعية تضم شمل أحرارها كما كان لها مجلسها

تقوم بالدور الرئيسي في حياتها. وإذا استبحنا لأنفسنا أن نستند إلى الوثائق القليلة التي لدينا في الحكم على موقف البطالمة من رعاياهم الإغريق بوجه عام، فإننا نرى البطالمة لم يعبأوا كثيراً باستقلال المدن الخاضعة لهم لأن سيطرتهم على هذه المدن تبدو بجلاء في وثائقها الرسمية. فديباجة هذه الوثائق لا تستهل عادة باسم المدينة وشعبها ومجلسها وحكامها بل باسم الملك».

40- Wood, Roger & Wheeler, Mortimer, Roman Africa in Colour, Thames & Hudson, London, 1966, p. 16.

41- حافظ البطالمة على جوهر دستور منطقة برقة واكتفوا بإدخال بعض التعديلات التي كانت تكفل لهم خضوع المنطقة فاحتفظوا لأنفسهم بالامتيازات التالية: 1) الحق في أن يدمجوا في القبائل بعض المواطنين الجدد الذين ربما كانوا من أرباب الإقطاعيات العسكريين في الجيش البطلمي. 2) الحق في أن يعيدوا إلى المنفيين من أنصارهم بعض حقوقهم. 3) الحق في اختيار أعضاء مجلس الشيوخ. 4) الحق في تولي منصب الحاكم العسكري «Strategos»، 5) التدخل في قضايا المنفيين. 6) الحق في منح حقوق المواطنة. انظر أيضاً: نصحي، إبراهيم، تاريخ مصر في عصر البطالمة، الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1966، ثلاثة أجزاء، الجزء الثاني، ص 333.

وحكامها وسلطاتها التشريعية، وماليتها غير المستقرة، وخلافاتها الداخلية... حتى إذا حل الربع الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد كانت الأوليجركية والديموقراطية كنظريتين سياسيتين قد لفظتا آخر أنفاسهما وأخذ الأساس الذي يقوم عليه تكتل الناس يتجه اتجاهات جديدة كالتشيع للبطالمة، أو للأحزاب الوطنية والروح القومية، أو للانضواء لطبقة الأغنياء أو الفقراء، وربما صارت السلطة تنتقل إلى مجلس الشورى أو يتولاها الحكام بعد أن يندمجوا في لجنة واحدة.

على ضوء ما تقدم يمكننا القول إن المدن الإغريقية الواقعة في ممتلكات البطالمة الأجنبية – أي خارج مصر – ومنها مدن برقة كانت خاضعة لهم خضوعاً لا شك فيه؛ وكانت الضرائب تفرض عليها على أساس تلك الصفة، كما ان شكل نظام الحكم كان مرتبطاً بأنموذجه المصري بحيث تخضع المدن في الممتلكات الخارجية لقواد إغريق أو مقدونيين مع جعل الرئاسة في المدن بيد حكام مدنيين. وربط الشؤون المالية بالديوكيتس (Dioiketes) أي وزير المالية البطلمي الذي كان مقره في الاسكندرية بمصر.

وقد تجلت نظرة البطالمة بصدد اعتبارهم لبرقة ملكاً شخصياً لهم فيما أدخلوه من تغيير على أسماء مدنها الإغريقية وما سموها به من أسماء ملكية:

1- فقد غيروا اسم توكرة وسموها آرسينوي (Arsinoe) باسم زوجة بطليموس الثاني فيبلدلفوس.

2-وغيروا اسم طلميثة الحالية وأسموها بطليموسة (Ptolemisa) لاباسم بطليموس الثاني فيلادلفوس.

3- وغيروا اسم يوسبيريدس وسموها برنتشي (برنيقة) باسم ابنة ماجاس زوجة بطليموس الثالث.

ومع كل ذلك فإن برقة ظلت دون شك تحتل مكانة خاصة بين ممتلكات البطالمة خارج مصر؛ فقد كانت عبارة عن ملحق لمصر يندب لحكمها أحد أعضاء الأسرة البطلمية. ومن الوجهة الإقتصادية كانت برقة ذات أهمية

بالغة لأنها منطقة زراعية شديدة الخصوبة إلى حد أنها كانت تعتبر أحد أهراء العالم القديم. أضف إلى ذلك أنها كانت موطن نوع من أفضل الخيول التي كانت البطالمة في أمسّ الحاجة إليها. كما ان قورينة كانت منذ تاريخ تأسيسهاا مركزاً مهماً للتجارة الخارجية. ونحن وإن كنا لا نعرف غير القليل عن التنظيم الاقتصادي في قورينة وبرقة إلا إنه مما يلفت النظر ذلك الشبه القوي في التركيب الاجتماعي بين قورينة وبرقة من ناحية – كما وصفه استرابوا – وبين الاسكندرية ومصر من الناحية الأخرى. فقد كان في قورينة عدد كبير من السكان غير الإغريق. وكان معظمهم من اليهود. إلى جانب مواطنين يتمتعون بحقوق المواطنة الكاملة وآخرين يتمتعون ببعض حقوق المواطنة فقط. وآخرين من الغرباء الذين لم تكن لهم حقوق مواطنة على الإطلاق. وربما كان بعض هؤلاء الأخيرين من السكان الليبيين الأصليين. أما سكان الريف فقد كانوا عبارة عن مزارعين يستغلون أراضي تابعة إما لقورينة وإما للملك. وربما كانت هذه الطبقة من المزارعين تشمل بين صفوفها الجنود المتقاعدين المستوطنين.

وإذا ما تذكرنا أن من أهم منجزات العصر البطلمي في مصر في مجال الزراعة إدخال عصر الحديد إلى البلاد على نطاق واسع يسمح للناس باستعمال الأدوات الحديدية استعمالاً شاملاً في حياتهم اليومية. فإنا لابد أن نستنتج من ذلك أن البطالمة شجعوا انتشار الأدوات الحديدية الزراعية في برقة كذلك[42].

أما القبائل الليبية في هذا العصر فإن سكايلاكس (Skylax) الذي تناول هذا الموضوع حوالي سنة 320 ق.م.. أي مع بدء العصر البطلمي في برقة. يخبرنا أنها كانت موزعة على النحو التالي:

42- كان الحديد نادر الاستعمال في مصر الفرعونية وكان البطالمة أول من أمد مصر على نطاق واسع بالادوات الحديدية التي كان معظمها مستوردا. أنظر أيضاً:
Rosotvtzeff, M., The Social and Economic History of the Hellenistic World, Oxford, Clarendon Press, 1st edition 1941, reprinted 1954, Three Vols., Vol. I, P. 362.

1- الأدرماخيدي: وكانت ديارهم تمتد فيما يلي مصر غرباً حتى مدينة أبيس (زاوية الرخم إلى الشرق من السلوم).

2- المارماريدي: وكانوا يعيشون إلى الغرب من الأدرماخيدي وينتشرون في داخل برقة حتى مشارف خليج سرت الكبير.

3- الناسامونيون: وكانوا يستوطنون المنطقة إلى الشرق من خليج سرت الكبير في الجنوب الغربي من برقة وينتشرون حتى نصب الأخوين فيليني حيث يقوم الآن القوس الرخامي التذكاري.

4- المكاي: وكانت ديارهم تقع بين ديار الناسامونيين في الشرق ونهر كينبس في الغرب.

5- اللوتوفاجيون أو أكلة اللوتس: وكانوا ينتشرون في المنطقة. من نهر كينبس إلى جيثس (Giethis) مقابل جزيرة جربة بتونس.

أما علاقة الليبيين بالإغريق في هذا العصر فقد كانت علاقة عداء مع المدن الإغريقية في برقة وكانت تتممثل في سلسلة الغارات التي ظلت القبائل الليبية تشنها على تلك المدن بين الحين والآخر. ليس في العصر البطلمي وحده بل أيضاً في العصور التالية حتى الفتح الإسلامي. وقد أكتشف في قورينة نقش مؤرخ بالقرن الثالث قبل الميلاد سجل عليه أن خمسة من قواد تلك المدينة أهدوا أبولو عشر الغنائم التي استولوا عليها في أعقاب انتصارهم على قبيلتي المكاي والناسامونيين. كما انهم شيدوا الستراتيجسوم في قورينة تخليداً لذلك الانتصار. ولكن علاقة الليبيين بالبطالمة كانت تتسم بالتبعية والخضوع رغم استمرارهم في تصريف شؤونهم الذاتية بأنفسهم. فنحن نسمع عن وجود ثلاثة آلاف مقاتل ليبي في جيش بطليموس الرابع فيلوباتر. ونسمع عن إسهامهم إسهاماً فعالاً في ترجيح الطفة لصالح بطليموس الرابع في معركة رفح التي خاضها سنة 217 ق.م. ضد قوات أنطيوخس الثالث ملك سوريا السلوقي. وبالرغم من ضآلة ما نعرفه عن النظم الإدارية والاقتصادية لبرقة في ظل البطالمة فإننا نستطيع أن نتصور. بالقياس على ما كان جارياً في مصر. وجود طبقة

من الليبيين العاملين في المزارع والمراعي والاحتكارات الملكية الأخرى، إلى جانب الليبيين المشتغلين بالزراعة والرعي والتجارة في ريف برقة وباديتها وفي ظل النظام الليبي القبلي المتين[43].

يتضح لنا مما تقدم أن القبائل الليبية في برقة ظلت مخلصة لنظامها القبلي الذي كان ينظم لها طريقة حياتها، وأنها كانت على علاقة متأرجحة بالمدن الإغريقية في برقة؛ تتحسن حيناً فيسود التعاون والتبادل التجاري، وتسوء أحياناً فيسود العداء والقتال والغارات. كما ان علاقتها بالبطالمة اتسمت بالتبعية الإسمية من ناحية وبالاستقلال الفعلي بشؤونها الداخلية من ناحية أُخرى. أما المدن الإغريقية في برقة فقد لاحظنا أنها جميعاً، وعلى الخصوص قورينة، كانت تخضع لنظام حكم ملكي مطلق حتى انقراض أُسرة باتوس سنة 440 ق.م. وتلت هذا التاريخ فترة صراع عنيف بين الأوليجيركية الأرستوقراطية والقوى الديموقراطية في مدينة قورينة؛ فقد روى كل من ديودورس الصقلي وأرسطو أن ثورة ديموقراطية انفجرت في قورينة حوالي سنة 401 ق.م. قتل فيها أكثر من خمسمائة من الأغنياء وفرّ الكثيرون منهم طلباً للنجاة. وقد ذكر أرسطو أن السبب الرئيسي في قيام تلك الثورة هو نقمة الطبقات الفقيرة على الحكومة الأوليجركية المستبدة بها. وفي أعقاب هذه الثورة آلت السلطة للحزب الديموقراطي في قورينة فبدأ بإعداد برنامج إصلاح شامل يستند إلى الأسس الديموقراطي في قورينة فبدأ بإعداد برنامج إصلاح شامل يستند إلى الأسس الديموقراطية التي كان كليستينس (Cleisthenes) قد سنها في إصلاحه للأوضاع في مدينة لإثينا. أما ديودورس فقد ذكر أن الأوليجركيين لم يستسلموا للهزيمة بل أعادوا الكرة في محاولة لاسترداد السلطة فتمكنوا في بداية الأمر من إقصاء الديموقراطيين عن مراكز السلطة في قورينة حوالي الربع الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد ولكن الديموقراطيين كروا عليهم من جديد فهرب فريق من هؤلاء إلى مصر واستغاثوا بحاكمها بطليموس ابن

43- انظر أيضاً: عبد العليم، مصطفى كمال، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، منشورات الجامعة الليبية، المطبعة الأهلية، بنغازي، يناير 1966، ص 77.

لاجوس فاستغل هذا فرصة النزاع بين الحزبين وتدخل عسكرياً فاحتل قورينة سنة 322 ق.م. وبسط نفوذه على منطقة برقة. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه تم العثور على لوح رخامي محفوظ في متحف شحاتت نقش عليه دستور لقورينة يعتقد أنه وضع لبطليموس الأول في السنة التالية لاستيلائه على قورينة. ويتكون هذا الدستور من خمس عشرة مادة وتغلب عليه النزعة الأوليجركية فهو لا يسنح للمدينة بالعودة إلى رحاب الديموقراطية خاصة وأن بطليموس إنما تدخل لصالح فريق من الأوليجركيين الهاربين ولكنه في الوقت ذاته لم يطلق يد هؤلاء الأوليجركيين ليعودوا أسياداً محتكرين كما كانوا قبل خروجهم[44].

وفي سنة 313 ق.م. ثارت قورينة على الحكم البطلمي ولكن بطليموس أرسل إليها حملة ساعدت أوفلاس على إخماد تلك الثورة وأعادته إلى كرسي الحكم في المنطقة. وفي سنة 311 ق.م. حفزت أوفلاس مطامعه الشخصية وما لقيه من تشجيع أنتيجونس على الاستقلال بمنطقة برقة. ولم يكتف بذلك بل تحالف مع أجاثوكليس، ملك سيراقوسة في حملة ضد قرطاجة وانتهت تلك الحملة بمصرعه على يد حليفه سنة 308 ق.م.[45] واغتنم بطليموس الأول هذه الفرصة وكلف ماجاس، ابن زوجته برنتشي، باستعادة منطقة برقة فنجح في ذلك وكافأه بطليموس الأول بتعيينه سنة 300 ق.م. نائباً عنه في حكمها. وقبل ذلك بقليل نسمع عن قيام بطليموس الأول بغزوة مجددة لمنطقة برقة سنة 301 ق.م. مما يرجح قيام ثورة في قورينة قبيل ذلك التاريخ. ولكن بطليموس الأول لم يلبث بعد القضاء على تلك الثورة إلا قليلاً ثم توفي سنة 282 ق.م. فنتهز ماجاس فرصة موته واستقل بمنطقة برقة وأعلن نفسه ملكاً عليها. وقد حفزه موقفه هذا إلى التقرب من ملوك سوريا السلوقيين فتحالف معهم ضد البطالمة وتزوج من أباما ابنة أنطيوخس الأول تعزيزاً لعرى الصداقة بينه وبينهم. وقبل وفاته بقليل مال إلى الاعتدال فاتبع سياسة المواعدة تجاه

44- راجع بشأن هذا الدستور المرجع السابق ص 138-151.
45- انظر ص 272 أعلاه.

بطليموس الثاني فيلادلفوس، ملك مصر. فعقد خطوبة ابنته برنتشي على ابن بطليموس الثاني وولي عهده. ولكن بعد وفاة ماجاس سنة 258 ق.م. تبنت أرملته أباما سياسة مغايرة لسياسته ومناوئة للبطالمة فاختارت الأمير ديمتريوس الجميل، أحد أمراء البيت المالك في مقدونيا، زوجاً لابنتها بدلاً من ولي عهد مصر البطلمي؛ وذلك لكي تبقى بعيدة عن البطالمة ومستقلة بمنطقة برقة. وقدم ديمتريوس إلى قورينة حيث وقع في غرام أباما نفسها مما دفع الأميرة برنتشي إلى تدبير مؤامرة له أدت إلى مصرعه. وتمكنت برنتشي من السيطرة على الموقف في منطقة برقة حوالي سنة 255 ق.م. ونفذت خطتها فتزوجت من ولي عهد البطالمة في مصر الذي أصبح الآن بطليموس الثالث، ملك مصر، مما أدى إلى تقارب جديد بين برقة ومصر لم يلبث أن انتهى بعد قليل بتبعية الأولى للثانية[46].

وتعتبر الفترة التي تلت وفاة ماجاس سنة 258 ق.م. فترة غامضة في تاريخ برقة ولعلها هي الفترة التي نشأ فيها اتحاد البنطابولس أو المدن الخمس، وقد كان اتحاداً فدرالياً لم يلبث أن شمل جميع مدن برقة وفقاً لدستور وضعه له الفيلسوفان أكديموس وديموفانيس سنة 250 ق.م.[47]

46- انظر أيضاً: إيمار، أندريه، تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف أسعد داغر ورفيقه، ثلاثة مجلدات، المجلد الثالث، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى، 1964، ص303-324.

47- لم يصل إلينا دستور هذا الاتحاد، ولعلنا لا نخطيء إذا افترضنا أنه كان على نمط دساتير الاتحادات الإغريقية التي جربتها بلاد اليونان في الفترة ما بين وفاة الإسكندر الكبير وظهور روما؛ وكان أهمها:

أ- الاتحاد الإيتولي (322 – 265 ق.م.): وكان على رئاسه قائد «Strategos» ينتخب كل عام وكانت السيادة فيه للجمعية الشعبية التي كانت تعقد مرة كل خريف أو عند الطلب كلما دعت الحاجة وكانت تفصل في المسائل الهامة كإعلان الحرب وإقرار السلم وعقد المعاهدات. وفي وقت الحرب كان الجيش الإيتولي يقوم مقام هذه الجمعية التي كان لكل إيتولي الحق في الاشتراك فيها. وإن كان من الطبيعي أن يقتصر الاشتراك فيها على الأثرياء حتى لا تتعرض الجمعية لاحتمال تسلط الغوغاء عليها. ومن المرجح أن التصويت لم يكن مقصوراً على الحاضرين من أعضائها بل كانلكل مدينة نسبة معينة من الأصوات تتناسب مع أهميتها. وكانن للحلف مجلس اسمه السنهدريون «Synhedrion» يتكون من حوالي ألف مندوب يمثلون المدن المختلفة. وكان هذا المجلس يجتمع أكثر من اجتماعات الجمعية الشعبية ويفصل في مسائل أقل أهمية من المسائل التي تفصل فيها تلك الجمعية. وكانت له لجنة يسمى أعضاؤها أبوكليتوي «Apokletoy» ويساعدون الستراتيجوس في تصريف أعماله العادية. وكان عددهم أكثر من ثلاثين عضواً. وكان الستراتيجوس في الواقع هو السلطة التنفيذية الرئيسية؛ فقد كان يعبيء القوات أو يسرحها. ويرأس الجمعية الشعبية ويتولى لمفاوضات

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هذا الاتحاد انتهى سنة 246 ق.م. بينما يذهب البعض الآخر إلى أن الاتحاد استمر قائماً كتنظيم داخلي محلي رغم تبعية برقة للبطالمة. أما المدن الأعضاء في الاتحاد فقد كانت قورينة وبرقة وتوكرة ويوسبريدس. وقد فصل المشرعان أبولّونيا، ميناء قورينة، عن قورينة ذاتها واعتبراها مدينة مستقلة هي العضو الخامس في الاتحاد. وقد ظل اسم المدن الخمس شائعاً في الاستعمال حتى العصر البيزنطي. أمّا عاصمة الاتحاد فكانت قورينة وفيها كانت تصدر العملة الخاصة به. وبعد هذا الحد لا نجد ما يوضح لنا علاقة برقة بالبطالمة. لكننا نعلم أن البطالمة كانوا أصدقاء للرومان في هذه المرحلة فنحن نقرأ في وصية بطليموس يوريجيتس الثاني مناشدته للرومان باسم جميع الآلهة، وباسم الشرف أن يقدموا كل ما في وسعهم من مساعدة ضد أي معتد على مدن مملكته أو أراضيها، وفقاً لمقتضيات العدالة ومعاهدة الصداقة والتحالف المبرمة بينه وبينهم؛ ولما كانت برقة جزءاً من ممتلكات البطالمة فإنها كانت دون شك تتمتع كغيرها من ممتلكات البطالمة بما كانت تنطوي عليه معاهدة الصداقة والتحالف بين البطالمة والرومان. ولهذا فإنا نجد بطليموس أبيون يوصي بمنطقة برقة إرثاً لروما قبيل وفاته سنة 96 ق.م. كما نلاحظ أن الرومان قبلوا الوصية واكتفى مجلس شيوخهم «السناتو Senato» بوضع يده على الممتلكات الملكية في برقة وترك للمجن حرية التصرف في شؤونها احتراماً لمعاهدة التحالف والصداقة التي كانت قائمة بينهم وبين البطالمة، واحتراماً للاستقلال الذاتي للمدن الإغريقية في برقة وللتقاليد التي كانت سائدة فيها.

وإلى جانب العنصرين: البربري الليبي – وهو العنصر الوطني – والإغريقي – وهو عنصر طارئ مستوطن – كان في برقة عنصر ثالث مهم هو العنصر اليهودي الطارئ. وقد ذكر المؤرخ اليهودي يوسف (Eusebius) أن «بطليموس

مع الدول الأخرى، ولم يكن يحق لأي فرد أن يشغل وظيفة الستراتيجوس هذه سنتين متعاقبتين وإن كان يحق للفرد الواحد أن ينتخب مرة كل سنتين دون قيد. وكان الستراتيجوس يتولى القيادة العليا لقوات الحلف الإيتولي في الميدان. وكان يليه مباشرة رئيس الفرسان «Hipparchos» ثم الوزير «Demosios Grammateus».

بعث بفريق من اليهود إلى مدينة قورينة ليستقروا بها، ذلك لأنه كان مهتماً بتشديد قبضته على هذه المدينة ومدن ليبيا (= برقة) الأخرى». ومعنى هذا أن اليهود بدأوا يتسللون إلى برقة بعد سنة 322 ق.م. بتشجيع من بطليموس حاكم مصر الذي أصبح فيما بعد ملكاً لمصر وتسمى بطليموس الأول. وغاية بطليموس من تشجيع اليهود على الاستقرار في قورينة ثم في بقية برقة واضحة فقد أرادهم مخلب قط له يستخدمهم في تحقيق أغراضه في السيطرة على برقة. وإذن فإن أصل الجالية اليهودية في برقة هم يهود مصر[48]. ويبدو أن الجالية اليهودية في كل من مصر وبرقة قد وجدت قبل عصر البطالمة وازدادت خلاله نظراً لمن كان يجلبهم بطليموس الأول إلى مصر من اليهود الذين يأسرهم في فلسطين في غزواته المتعاقبة لها، ونظراً لهجرة عدد من يهود فلسطين المتدينين الذين هربوا بدينهم لمصر وبرقة خلال المحنة التي تعرضوا لها في فلسطين عندما أراد الملك السلوقي أنطيوخس الرابع (175-164 ق.م.) أن يحملهم على التأغرق.

ولقد أثبتت المكتشفات الأثرية ما ذكره استرابو (Strabo) من أن البطالمة شجعوا اليهود على الانتشار في مدن برقة وقراها. أما المدن التي استقروا بها فهي، بالإضافة إلى قورينة، طلميثة وآرسنوي (= توكرة) وبرنيتشي (= بنغازي). ويلاحظ أن الجالية اليهودية في هذه المدن ظهرت قوية منظمة في أوائل العصر الروماني مما يشير إلى أنها كانت قد استقرت فيها قبل ذلك العصر بأمد كاف أي خلال العصر البطلمي. ولا شك أن البطالمة أقطعوا جندهم المرتزقة الأراضي في ريف برقة، كما كانوا يفعلون في مصر، مما يعني وجود جنود يهود بين أصحاب تلك الإقطاعيات. وإذا جاز لنا أن نقيس سلوك يهود برقة على نمط السلوك اليهودي العام في العصور التاريخية المختلفة فلابد لنا أن نرجح أنهم كونوا في برقة جاليات (Diaspora) أو تجمعات تكاد تكون مغلقة في وجه غير اليهود. وتتغلغل في الوقت ذاته في كافة ميادين النشاط الحيوية من عسكرية وزراعية وتجارية ومالية بالإضافة إلى التغلغل

48- تواجد اليهود في مصر منذ أن دخلوها مع النبي إبراهيم قادمين من أور في جنوب العراق في القرن التاسع عشر قبل الميلاد وتزايدوا بعد ذلك في أيام النبي يوسف بن يعقوب في القرن الثامن عشر ق.م.

في الجهاز الحكومي خاصة ما كان يتصل منه بالاحتكارات الحكومية وجباية الضرائب وإدارة الأراضي الملكية. ولا شك أن يهود برقة احترفوا المراباة في المدن التجارية كما فعلوا وما زالوا يفعلون في كل مكان يستقرون فيه. ولعل الذي ساعدهم في ذلك المضمار هو إتقانهم للغة الإغريقية واستعمالهم للزي الإغريقي وللأسماء الإغريقية[49]، محاولين بذلك كما هي عادتهم، ألا يظهروا كعنصر غريب في مجتمعات المدن التي استقروا بها.

ونحن نعلم أن البطالمة في مصر منحوا الجاليات الأجنبية الحرية التامة في مباشرة حياتها الخاصة كما اعترفوا لها بشخصيتها القانونية وبحقها في التملك وفي إدارة أملاكها. ونعرف كذلك أن هذه الحقوق ذاتها كانت تتمتع بها جالية يهود الاسكندرية. وعلى ضوء ذلك فنحن نستطيع القول إن البطالمة عاملوا الجاليات اليهودية في برقة بمثل تلك المعاملة فسمحوا لها بالاستقلال القضائي الخاص بتطبيق الشريعة اليهودية على الأحوال الشخصية كالزواج والميراث، كما سمحوا لها بجباية الضرائب من أفرادها وفقاً لتعاليم التوراة، وبإرسال ما يتجمع منها في خزينة الجالية إلى هيكل أورشيلم (= القدس)، وبإقامة الكنس أوالبيع[50]. ويؤيد ما ذهبنا إليه نقشان اكتشفا في مدينة برنتشي يرجع تاريخهما إلى أوائل العصر الروماني ويتحدثان عن جالية يهودية في المدينة لها أراخنة يصدرون القرارات ويعممونها باسم جاليتهم؛ مما يرجح أن وجود هذه الجالية لم يكن طارئاً وإنما كان استمراراً لوجودها في العصر البطلمي من ناحية، وأن الرومان إنما أبقوا على امتيازات دينية طائفية كانت لليهود في العصر البطلمي من ناحية، وأن الرومان إنما أبقوا على امتيازات دينية طائفية كانت لليهود في العصر البطلمي من الناحية الأخرى.

أما عن سلوك اليهود في برقة خلال العصر البطلمي فإنا لا نسمع عن

49- لم يعثر على أسماء إغريقية ليهود في برقة من العصر البطلمي ولكن هذه الظاهرة تتجلى في الأسماء الإغريقية التي تسمى بها قورينة وأبولونيا وتوكرة وبرنتشي في العصر الروماني.

50- انظر أيضاً: نصحي، إبراهيم، تاريخ مصر في عصر البطالمة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1966، ثلاثة أجزاء، ج2، ص 152-168 (سياسة البطالمة الدينية إزاء اليهود).

مشـاركتهم في أي مـن الاضطرابات الكثيرة في ذلك العصر مما يشـير إلى أنهم عاشوا عيشة هادئة مطمئنة في ظل أصدقائهم البطالمة. وفي الوقت ذاتـه ليس لدينا أي دليل علـى تعرضهم لأي اضطهـاد أو على اصطدامهم بأي من العنصرين السـكانيين الآخرين: الليبيين والإغريق. وليس لدينا كذلك ما يكشـف عـن الموقف الحقيقي الـذي وقفه يهـود برقة مـن الفتنة التي نشـبت بسـبب النزاع على عرش البطالمة في مصر فـي أعقاب مقتل الملك المصري بطليموس السادس فيلومتر سنة 145 ق.م. وزحف أخيه بطليموس الصغير حاكم برقة، على الاسـكندرية حيث تصـدت له أُخته وأرملة أخيه كليوبترة الثانية، يؤيدها في ذلك أرسـتوقراطية الإسكندرية ويهودها ويقود قواتهـا قائدان يهوديان. وقد اسـتطاع بطليموس الصغير أن يخرج منتصراً في هذه المجابهة فارتقى عرش مصر باسم بطليموس يورجيتس الثاني (145 – 116 ق.م.) وقـام بحملـة انتقام على أعدائه ومن بينهم اليهود. وقد ذكر المؤرخ اليهودي يوسف أنهم، أي اليهود، قد تعرضوا لمحنة قاسية لم ينقذهم منهـا، على ما يبدو، إلا عفو الملك عن خصومه بمناسـبة زواجه من كليوبترة المذكورة. ولكن ليس لدينا ما يكشـف عن موقف يهود برقة في هذه الفترة من الصراع على السلطة بين أعضاء الأسرة البطلمية الحاكمة.

ولقد اكتشـف في قورينـة مؤخراً نقش غير كامل يحتوي نسـخاً لأربع وثائق مختلفة على الأقل وهو مؤرخ بالسـنة التاسـعة من عهد بطليموس سـوتر وزوجته وشـريكته في الحكم كليوبترة، وربما كان المقصود بهما سوتر الثاني وكليوبترة سيلينة (109) (Selene-108 ق.م.). ومهما يكن من أمر فـإن تاريخ النقش غير متفق عليه وربما كان يرجع إلى فترة أقدم من المذكورة أي إلـى عهد بطليموس السـادس فيلومتـر. أما الوثائق الأربع المشـار إليها فهي:

1- مرسوم قوريني يقرر بالتفصيب إقامة احتفال ديني تركيماً للحكام وأُسـرهم وأسـلافهم، وذلك أعترافاً من قورينة بما أسـداه لها أولئك الحكام من جميل.

2- الجزء الأخير من مرسوم صادر عن قورينة، أو قرار من الحكام، بخصوص

جماعة بارزة من مواطني قورينة الذين وجهت لهم تهم خطيرة. وتنص هذه الوثيقة على أن الأوامر والقوانين الملكية سـوف تأخذ مجراها بالنسبة لتلك الجماعة شريطة ألا تصادر ممتلكاتهم بل يسمح بانتقالها لورثتهم.

أما الوثيقتان الثالثة والرابعة فهما في حالة جيدة وهما:

3- كتـاب مـن الحكام إلـى أهالـي قورينة أرفقـت به رسـائل معنونة للمسؤولين في برقة وأمرٌ من الحكام.

4- مقدمـة الوثيقة الثانية السـالفة الذكر: وربما كانت هي والرسـائل (المفقـودة) التي كانـت معنونة لحكام مدن برقة من قبـل البطالمة وتتعلق بالاراضـي التي أعلن رسـمياً أنهـا لا مالك لها. وبناء علـى ذلك الإعلان جرى ضمهـا لأمـلاك التاج؛ أو إنها ظلـت معلقة، بمعنى أن مُلاكهـا كانوا مازالوا متهمين وعلى ذلك فهي عرضة لأن تصادر أو تعلن لا مالك لها[51].

ويبدو أن قطعـاً من هاتين الفئيتين من الأراضي كانت لا تزال، إلى حد ما، في أيدي مُلاكها السـابقين. ويقرر الملوك أن أرضـاً مثل هذه لن «توضع تحت الخاتم» أي لن تصادر، ولن يجري اعتقال أصحابها وعبيدهم؟ بموجب إجراء إداري قبل أن تأخذ الإجراءات القانونية مجراها.

ومـن الواضح أن الأحـوال التي حملت ملـوك البطالمة علـى اتخاذ تلك الإجـراءات كانت أحوالاً غير عاديـة أي إن برقة كانت في حالة من الاضطراب؛ فهنالـك كثير من المواطنين البارزين في مدنها قد وجهت إليهم التهم وهم ينتظـرون المحاكمة. وهنالك أشـخاص آخرون غير مواطني المدن قد خسـروا، بسـبب خرقهم للقوانين على ما يبدو، ملكية أراضيهم التي أعلنت لا مالك لها (Adespota). وهنالك جماعة أُخرى لما يخسـروا ملكية أراضيهم بعد؛ ولكنهم متهمون وقد يخسرونها بعد قليل. ويبدو أن الجماعتين الأخيرتين لم تكونا من المزارعين الوطنيين وإنما على الأرجح من المسـتوطنين العسـكريين الذين عاملهم موظفو الملك تلك المعاملة القاسية.

51- Rosotvtzeff, M., The Social and Economic History of the Hellenistic World, Three Volumes, Vol. II, Oxford, Clarendon Press, 1st edition 1941, Reprinted 1953, Pp. 915916-.

إن هـذا النقش، بغـض النظر عن الفتـرة التي يرجع إليهـا تاريخها من القـرن الثاني قبل الميـلاد، يعكس اضطراب الأحوال فـي برقة ويتضمن وقوع أعمال الشغب وربما الحرب الأهلية، ولكن معرفتنا بتاريخ برقة في هذا العصر محـدودة إلى درجة أنها لا تسـمح لنا بـأن نربط وثائق هـذا النقش بحوادث معينة. وعلـى أي حال فإن من الواضح أن الحـكام المذكورين في هذه الوثائق قد خرجوا منتصرين من كفاحهم الذي ربما كان حرباً أسـرية أو أهلية. ويبدو أنهم راحوا يحاولون إعادة السـلام والنظام دون إصدار عفو عام شامل؛ فهم ينـوون معاقبة خصومهم لكن دون عنف وإنما عـن طريق المحاكم النظامية. ومـن المعـروف أن كثيـراً من أمثـال هذا الموقـف حدثت في مصـر في عهد فيلومتر بوريجيتس الثاني وسـوتر الثاني. ومن المؤكد أن برقة كانت متورطة في مشاكل مصر.

إن هذا النقش القوريني يكشف عن الحالة التعيسة وغير المستقرة التي تحولت إليها برقة الغنية المزدهرة نتيجة للحروب الأهلية ولسـوء الإدارة تماماً كما حدث في قبرص ومصر ذاتها؛ فإن الأحوال السـيئة التي سادت مصر في أواخـر القرن الثاني قبل الميـلاد وخلال القرن الأول قبل الميـلاد أدت إلى تدمير اقتصادها وتجميد تقدمها، كما أنها أفقرت الطبقة العاملة فيها وخفضت عائدات الدولة من الموارد الداخلية.

النهضة الثقافية في برقة في عهد البطالمة:

سبق أن أشـرنا للنهضة الشاملة لقورينة في عصرها الذهبي. ولابد أن نشـير هنا إلى أن النهضات الثقافية تستمر مزدهرة بعد الهبوط السياسي بأجل غيـر قصير. والنهضـة الثقافية في برقة تتجلى فـي هذا العصر في ظهـور أُدباء وعلماء من أبنائها كانوا في الصف الأول مع أقرانهم في العالم الهلينسـتي. وكان من أشـهرهم كليّماخوس (Callimachus) القوريني (310 – 245 ق.م.) وكان أحد تلاميذ فليتاس وقد اختير فيما بعد أميناً لمكتبة الاسكندرية ثم شـاعراً لبلاط بطليموس الثاني. ولقد أثبت كليّماخوس أنه أستاذ اللون الشـعري الذي اشتهر باسم «أُنشودة الرعاة»فقد كان الشاعر المبـرز فـي هذا اللون فـي أعين معاصريه. والشـاعر الإسـكندري الطراز إلى

أقصى حد. ولقد كانت أُنشـودة الرعاة الأسـلوب الشـعري الـذي امتازت به الاسـكندرية في هذا العصر. وهذه الأنشـودة كانت عبارة عن صورة صغيرة كاملـة في حد ذاتها؛ وربما اتخذت أشـكالاً كثيرة. وكان المقصود منها أحياناً هـو مجرد الإلقاء. وكليّماخوس هو الذي جعل شـعر المراثي الأداة الشـائعة الطـراز على الصورة التي قدر لها أن تظل عليها. ولدينا الآن بعض أناشـيده وأجزاء من قصيدته المسـماة «ضفائر برنيقة Coma Berenices» وأجزاء من ملحمته الصغيرة هيكالي (Hecale) ومن قصيدة حول موت آرسينوي، وفقرات من قصيدة هي أهم أعماله جميعاً وهي قصيدة الأسـباب (Aitla) أي أسباب مختلف أنواع العادات والعبادات. ولولا ما خلفه لنا من مقطوعات شـعر الحكمة لأوشـكنا أن نقول إنه لم يكن شاعراً بل عالماً تصدى لصياغة الشـعر. وقد ناقد حديث «بالمبـرإ من الخطـإ». وكان كليّماخوس من علماء فقه اللغة كما أنه كان الحكم وصاحب القول الفصل في زمانه فيما يتعلق بميادين علمه وأدبه.

ونبـغ من أبناء برقة كذلك في القرن الثالث قبل الميلاد الجغرافي العظيم أراتوسـثنيس (275 – 200 ق.م.) الذي تقول الرواية المأثورة إنه تلقى العلم على أيدي معلمين أفذاذ هم أرسنون (= زينون) الرواقي وآرسـلوس المتشكك وكليّماخوس الشـاعر وليسـنياس النحوي. وقبل أن يبلغ الأربعين من عمره ذاعت شـهرته في كثير منت فروع العلم المختلفة مما جعل بطليموس الثالث يعينه أميناً لمكتبة الاسـكندرية. ولقد ألف أراتوسـثنيس ديوان شعر وكتباً في التاريخ. وحاول في كتابة الكونوغرافيا (Conographia) أن يحدد أوقات الحوادث الكبرى في تاريخ بلاد البحر الأبيض المتوسط. وكتب كذلك رسائل في الرياضيات، واخترع طريقة آلية لإيجاد نسـب وسطى متناسبة تناسباً مطرداً بين خطين مسـتقيمين. وقد قاس ميل مسـتوى الفلك وحـدده بـ (2351) فلـم يخطئ إلا بنصف في المائة. لكن أعظم أعماله هو تقدير طول محيط الأرض بـــ (24662) ميلاً، وذلك قريب من التقدير الحالي (24847) ميلاً. وقد توصل إلى تلك النتيجة بأن لاحظ في ظهر يوم الانقلاب الصيفي أن أشـعة الشـمس عند مدينة سيبني (قرب مدينة أسـوان) كانت تقع عمودية على

سطح جدار ضيق. وعرف في الوقت ذاته أن ظل مسلة في الاسكندرية – وتبعد عن سيبني إلى الشمال بنحو خمسمائة ميل – يدل على أن أشعة الشمس كانت تقع مائلة عن سمت الرأس بنحو 7½ ° إذا قيست وقت الزوال على خط الطول الذي يصل بين البلدين. فاستنتج من ذلك أن القوس الذي يبلغ 7½ ° على محيط الأرض يساوي خمسمائة ميل وأن محيط الأرض بهذه النسبة يساوي360 ÷ 7½ × 500 أي 24000 ميل أضاف لها (662) ميلاً فرق حساب. وبعد أن قاس محيط الأرض بدأ بوصفها فجمع في كتابه جيوغرافيكا (Geographica) تقارير جميع علماء المساحة في الإسكندرية والرحالة البرين والبحرين[52].

وأخيراً يجدر بنا أن نشير إلى أن حديثنا كان مركزاً حتى الآن على منجزات العنصر الإغريقي في برقة. أما عدم تعرضنا للعنصر البربري الليبي بمزيد من التفصيل فهو راجع إلى قلة معلوماتنا عنه. ولقد سبق أن نوهنا بالقبائل الليبية في هذا العصر في بداية هذه المقالة وعلينا أن نضيف الآن تلك القبائل ظلت تعيش طراز الحياة الذي عالجناه في عصر هيرودوتس؛ أي إنها بقيت تعيش عيشة البدو الرحل بشكل عام وإن كانت قد بدأت تستقر في أقاليمها في هذا العصر وتتجه للزراعة والتجارة بالإضافة للرعي.

52- ديورانت. ول. قصة الحضارة. ج3 مجلد 2 . الطبعة الثانية. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. جامعة الدول العربية. القاهرة. 1962.

ثبت ببعض التواريخ المصرية الهامة

الأسرتان الأولى والثانية		3197 – 2778 ق.م.
عصر الدولة القديمة	حوالي	2778 – 2423 ق.م.
الأسرة الثالثة		2778 – 2723 ق.م.
الأسرة الرابعة		2723 – 2563 ق.م.
الأسرة الخامسة		2563 – 2423 ق.م.
نهاية الدولة القديمة		2423 – 2242 ق.م.
الأسرة السادسة		2423 - ؟
الأسرة السابعة		(وهمية)
الأسرة الثامنة		2242 - ؟

الأسرات الإهناسية

الأسرة التاسعة	2242 – 2150 ق.م.
الأسرة العاشرة	2150 – 2060 ق.م.
عصر الدولة الوسطى	2160؟ - 1580 ق.م.
الأسرة الحادية عشرة	2160؟ - 2000 ق.م.
ملوكها: انتف الأول	2160 – 2150 ق.م.
انتف الثاني	2150 – 2090 ق.م.
انتف الثالث	2090 – 2085 ق.م.
منتوحتب الأول	2085 – 2065 ق.م.
« الثاني	2065 – 2060 ق.م.
« الثالث	2060 – 2010 ق.م.

« الرابع	2010 – 2008 ق.م.
« الخامس	2008 – 2000 ق.م.
الأسرة الثانية عشرة	2000 – 1785 ق.م.
ملوكها: أمن م حات الأول	2000 – 1970 ق.م.
س ن وسرت الأول	1970 – 1936ق.م.
أمن م حاتت الثاني	1938 – 1904 ق.م.
س ن وسرت الثاني	1906 – 1888 ق.م.
س ن وسرت الثالث	1887 – 1850 ق.م.
أمن م حات الثالث	1850 – 1800 ق.م.
أمن م حات الرابع	1800 – 1792 ق.م.
سبك نفرو رع	1792 – 1785 ق.م.
الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة	1785 – 1680 ق.م.
الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة (هكسوس)	1730 – 1580 ق.م.
الأسرة السابعة عشرة	1680 ؟ - 1580 ق.م.
عصر الدولة الحديثة	1580 – 10900 ق.م.
الأسرة الثامنة عشرة	1580 – 1320 ق.م.
ملوكها: أحمس	1580 – 1558 ق.م.
أمن حتب الأول	1557 – 1530 ق.م.
تحتمس الأول	1530 – 1520 ق.م.
تحتمس الثاني + حتشبسوت	1520 – 1484 ق.م.
تحتتمس الثالث	1504 – 1450 ق.م.

أمن حتب الثاني	1450 – 1425 ق.م.
تحتمس الرابع	1425 ؟ - 1405 ق.م.
أمن حتب الثالث	1405 – 1370 ق.م.
أمن حتب الرابع (أخناتون)	1370 – 1325 ق.م.
الأسرة التاسعة عشرة	1320 – 1200 ق.م.
ملوكها: رمسيس الأول	1320 – 1318 ق.م.
ستي الأول	1318 – 1298 ق.م.
رمسيس الثاني	1298 – 1232 ق.م.
ستي الثاني	؟- 1200 ق.م.
الأسرة العشرون	1200 – 1085 ق.م.
ملوكها: رمسيس الثالث	1198 – 1166 ق.م.
رمسيس الرابع إلى الحادي عشر	1166 – 1085 ق.م.
المدة المتأخرة	1085 – 323 ق.م.
الأسرة الحادية والعشرون	1085 – 950 ق.م.
« الثانية والعشرون (ليبية)	950 – 730 ق.م.
« الثالثة والعشرون (ليبية)	817؟ - 730 ق.م.
« الرابعة والعشرون (نوبية)	730 – 715 ق.م.
« الخامسة والعشرون	715 – 656 ق.م.
« السادسة والعشرون	663 – 525 ق.م.
« السابعة والعشرون (فارسية)	525 – 404 ق.م.
« الثامنة والعشرون	404 – 398 ق.م.
« التاسعة والعشرون	398 – 378 ق.م.

« الثلاثون 378 – 341 ق.م.

فترة السيادة الفارسية الثانية 341 – 333 ق.م.

استيلاء الإسكندر الكبير على مصر - 332 ق.م.[53]

حكم البطالمة في مصر[54]

1- بطليموس الأول الملقب سوتر الأول (= المنقذ) 305 (حينما أتخذ لقب ملك) – 283 ق.م.

2- بطليموس الثاني فيلادلفوس 283 – 246 ق.م.

3- بطليموس الثالث «يورجيتس الأول» (= الخيِّر)246 – 221 ق.م.

4- بطليموس الرابع فيلوباتر «Philopator» (= المحب لأبيه) 221 – حوالي 205 ق.م.

5- بطليموس الخامس ابيفينس «Epiphanes» (= المتجلي) حوالي 205 – 181 أو 180 ق.م. مات مسموماً

6- بطليموس السادس فيلوميتر «Philometor» (= المحب لأمه) 181 أو 180 – 145 ق.م.

7- بطليموس السابع يورجيتس الثاني الطاغية شارك أخاه ابتداً من 163 - 145 ق.م. وحكم بمفرده من 145 – 116 ق.م.

8- كليوبترة الثالثة (أرملة يورجيتس الثاني)

بطليموس الثامن الشاحب الملقب لاثيروس «Lathyros» سوتر الثاني

بطليموس التاسع «الاسكندر» 116 – 80 ق.م.

نهاية الأسرة الشرعية

53- دريوتون، إيتين، وفاميه، جاك، مصر، ترجمة عباس بيومي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

54- تارن وليم، الحضارة الهلينستية، الطبعة الثالثة، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1966، ص 10 – 65.

بطليموس أبيون «Apion» الابن غير الشرعي ليورجيتس الثاني يرث عنه منطقة برقة ويحكمها 116 – 96 ق.م. عندما أوصى بها لروما.

9- بطليموس الحادي عشر (ابن غير شرعي للاثيروس) وقد نصبه أهل الاسكندرية ولقب ديونيسوس الجديد «Neos Dionysos» وكنى بالزمار «أوليتس Auletes» 80 – 51 ق.م.

10- بطليموس الثاني عشر وكليوبترة السابعة (ابنا الزمار) 1 5– 1 3 ق.م.

انتهى حكمهما بانتصار أوغسطس على أنطونيس في معركة أكتيوم وتبعية مصر لروما.

طرابلس في العهد الفينيقي

خلاصة تاريخ الفينيقيين في الشرق والغرب:

الفينيقيون قوم ساميون أصلاً إلى حد أن عدداً غير قليل من المؤرخين العرب يعتبرونهم عرباً. ويكاد المؤرخون يجمعون على أن شبه جزيرة العرب كانت أشبه بحوض ماء كلما زاد الماء فيه طفح الفائض على جوانبه. وهم يقدرون أن أول موجة سكانية طفحت بها شبه جزيرة العرب كانت حوالي سنة 3500 ق.م. نتيجة لازدياد عدد سكانها وقلة مواردها. وكان اتجاه تلك الموجة البشرية إلى مصر عبر البحر الأحمر. وإلى فينيقية على الساحل اللبناني حيث استقر القادمون على طول الساحل وتغلبوا على جنس البحر الأبيض السامية الأولى هجرات أُخرى صغيرة بعضها سامي وبعضها غير سامي كالأرمن والحثيين فاجتاحت منطقة الهلال الخصيب بأسره. ولكن الموجة السامية الكبرى التي غمرت منطقة الهلال الخصيب وتحكمت في مصيرها طيلة ألف سنة هي هجرة العموريين بين سنة 2300 ق.م. وسنة 2100 ق.م. والمعتقد أن هذه الهجرة غمرت فينيقية وسوريا وفلسكين ووصلت فيما بعد إلى منطقة الجزيرة في ما بين النهرين بالعراق؛ وهي هي التي طبعت بلدان الشرق الأدنى نهائياً بالطابع السامي. وبمضي الزمن انقسم هؤلاء المهاجرون إلى جماعتين متميزتين: الأولى ظلت تُعرف بالعموريين واستقرت في المناطق الداخلية. والثانية صارت تُعرف باسم الكنعانيين. أي سكان المناطق المنخفضة. أو الأقوام الحمر. أي الفينيقيين. واستقرت على طول الساحلين اللبناني والفلسطيني. وحوالي سنة 1194 ق.م. اجتاح الدوريون بلاد اليونان فدفعوا الإيجيين. أي شعوب البحر. إلى الهجرة منها فغزوا آسيا الصغرى وفينيقية وفلسطين وليبيا ومصر. ولكن رمسيس الثالث. ملك مصر. تمكن من هزيمتهم في معركة بلوزيوم (Pelusium) إلا أنه لم يتمكن من إلقائهم في البحر. فتركهم يستقرون في فلسطين التي راحوا ينتشرون منها شمالاً إلى فينيقية. وجرى امتزاج هذه العناصر المختلفة تدريجياً على أرض فينيقية فما إن حانت سنة 1100 ق.م. حتى كان العنصران الكنعاني

السامي وهو الفينيقي. والهندو أوروبي وهو الإيجي قد امتزجا امتزاجاً كاملاً ونتج عنهما جيل جديد يجمع بين صفات العنصرين هو الذي صار يُعرف باسم الفينيقيين الذين كانت دماء رجال البحر الإيجيين تجري حارة في عروقهم فلم يلبثوا حتى فرضوا سيطرتهم المطلقة على الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط طيلة ما يقرب من أربعمائة وخمسين سنة بحيث كانت لا تدخل إليه سفينة غريبة إلا أغرقوها أو أسروها وباعوا ركابها عبيداً. ومع مطلع القرن العاشر قبل الميلاد امتد نفوذ الفينيقيين البحري غرباً حتى شمل الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط فكانت سفنهم تأتي بالسلع الشرقية المنقولة إليهم من أواسط آسيا والهلال الخصيب عن طريق أبناء عمومتهم العموريين. سكان داخل سوريا. لتبيعها في إسبانيا مقابل المعادن الإسبانية – خاصة الفضة – التي كانت لا غنى عنها. ومنذ حوالي سنة 1110 ق.م. بدأت ذراع الأشوريين الآخذة في القوة تصل إلى فينيقية. فقد استولى تغلاث بلاسر (Tiglath Pileser) الأول في تلك السنة على أرواد وعلى بعض المدن الفينيقية الأخرى على ساحل فينيقية الشمالي. كما ان أشور – ناصر – بعل الثاني (Ashur – Nasirpal II) استولى على عدد من المدن الفينيقية سنة 883 ق.م. وحصل الجزية من صور وصيدا وبيلوس وأرواد. وتلاه في الحكم وفي تنفيذ هذه السياسة العدوانية التوسعية خليفته شلمانصّر الثالث (824 – 859) (Shalmaneser III ق.م.) فهاجم الفينيقيين والعموريين على السواء. واستمر الأشوريون بعد ذلك في سياستهم العدوانية الاستبدادية حتى استولوا على جميع المدن الفينيقية باستثناء صور فقد فشلوا في الاستيلاء عليها رغم تكرار حصارهم لها. ونتج عن تلك الأحوال هجرة فريق كبير من أبناء صور إلى الشمال الإفريقي حيث نزلوا بالقرب من تونس وأقاموا مستوطنة جديدة أسموها «القرية الحديثة» (Karat Hadasah)[55] وهي التي عرفت فيما بعد باسم قرطاجنة. والتاريخ التقليدي المتفق عليه لتأسيسها هو سنة 814 ق.م. ومنذ ذلك الحين بدأت قوة قرطاجة تنمو وتزدهر في الوقت الذي

55- Baramki, Dimitri, Phaenicia and the Phaenicians, Khaytas, Beirut, Lebanon, first edition, 1961, pp 6 - 8.

كانت فيه صور وبقية المدن الفينيقية في الشرق تضعف وتنحدر مما ألقى على عاتق قرطاجة عبء المسئولية في الدفاع عن المصالح والمستوطنات الفينيقية في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط. ولم تكن قرطاجة أول مستوطنة يقيمها الفينيقيون على سواحل هذا الحوض فقد سبق لهم أن اجتازوا أعمدة هرقل (= مضيق جبل طارق) وأسسوا في الجنوب الغربي من شبه جزيرة إيبيريا (= إسبانيا) مدينة قادس سنة 1110 ق.م. لاجتلاب الفضة. كما إنهم أسسوا مراكز ومحطات تجارية كثيرة على طول معظم ساحل الشمال الإفريقي الواقع على طريقهم التجاري بين صور في فينيقية وقادس في إسبانيا.

وكما هي الحال بالنسبة لتأسيس العديد من المدن في العالم القديم فإن تأسيس قرطاجة ارتبط بأسطورة الأميرة عليّسة (Elissa) وأخيها بجماليون (Pygmalion) الذي خلف أباه على عرش صور حوالي سنة 830 ق.م. وحكم في بداية الأمر تحت إشراف أُخته عليّسة أو «ديدو» التي تزوجت من خالها الثري، كبير كهنة الإله ملكارت. وطمع بجماليون في ثروة خاله فدبر مصرعه ولكن عليّسة حالت دون استيلاء أخيها على الكنوز التي كان زوجها قد دفنها في معبد ملكارت وذلك بأن أوهمته أنها كانت مسرورة بما فعل وأنها ستنتقل إلى منزله لتعيش معه. ثم غافلته وشحنت الكنوز في سفينةأبحرت بها إلى قبرص ومعها ثمانون رجلاً من كان جماليون قد أمرهم بمساعدتها. ومن قبرص حملت معها ثمانين عذراء ليكن زوجات لرجالها وأبحرت إلى الموقع الذي أسست فيه قرطاجة.

ولقد خلفت قرطاجة أُمها صور[56] في رعاية المصالح الفينيقية وزعامة الفينيقيين فبدأت ببسط نفوذا على المستوطنات والمحطات التجارية الفينيقية ثم راحت توسع نطاق نفوذا فسيطرت حوالي سنة 650 ق.م. على جزيرة يابة، إحدى جزر البليار الثلاث القريبة من إسبانيا، وأحلت محل الإغريق

56- كان نبوخذنصر «Nabukhodonosor»، ملك بابل، قد استولى على صور سنة 574 ق.م. كما إن الفرس استولوا عليها سنة 539 ق.م. وأخيراً اجتاحها الاسكندر الكبير سنة 333 ق.م. وهدمها مما أدى إلى هجرة من نجوا منها إلى قرطاجة.

الذين أجلتهم عن جزيرة كورسيكا حلفاءها الأثروريين. ووطّدت أقدامها في جزيرة سردينيا وفي إسبانيا. وحتى تكمل سيطرتها على غرب البحر الأبيض المتوسط وتحتكر التجارة فيه، عقدت أول محالفة صداقة مع القوة الرومانية الناشئة سنة 509 ق.م. وجددتها سنة 348 ق.م.. وقد نصت تلك المعاهدة المعقودة بين الرومانيين وحلفائهم من جهة والقرطاجيين وحلفائهم من جهة أُخرى على الشروط التالية:

«لا يجوز للرومان ولا لحلفائهم أن يتجاوزوا في إبحارهم الرأس الجميل [رأس سيدي علي المكي بتونس] إلا لأسباب قاهرة كالعواصف، أو مطاردة الأعداء. فعند ذلك يكونون مدفوعين غصباً عنهم ورغم أنوفهم. ولا يرخص لهم باشتراء أو اقتناء أي شيء إلا ما كان ضرورياً لترميم سفنهم وتقليفها أو لإقامة شعائرهم الدينية... ويجب عليهم أن يرحلوا بعد خمسة أيام...»[57] وأنشأت قرطاجة نظاماً سياسياً لها تطور مع الزمن إلا أنه كان إجمالاً نظاماً أوليجركيا يقوم على سلطات ثلاث هي:

1- السلطة العليا وتتمثل في ملكين أو سبطين ينتخبان لعام واحد.

2- السلطة الأرستوقراطية الممثلة في مجلس الشيوخ الذي كان يتألف من ثلاثمائة عضو ينوبون عن الأسر الغنية وكبار التجار والأعيان والمحاربين.

3- الشعب. ولم يقوم نفوذه إلا في أيام آل برقة، أي في فترة الحروب البونيقية.

وجدير بالملاحظة أ المال كان يلعب أهم الأدوار بالنسبة لهذا الدستور؛ فكان الأثرياء من التجار وغيرهم يجدون الباب مفتوحاً أمامهم إلى المراكز الحساسة في جهاز الحكم في المدينة وذلك عن طريق دخولهم في عضوية مجلس الشيوخ المذكور. وكانت للدين مكانة ممتازة في نفوس الفينيقيين تنعكس في أسماء الأعلام التي كانوا يطلقونها على أبنائهم وبناتهم من مثل معطبعل (أي عطية بعل) وباركعبل (أي باركه بعل) وبنتبعل (أي ابنة بعل) وعريسة بعل (أي خطيبة بعل) وأمة بعل (أي خادمة بعل)[58].

57- صفر، أحمد، مدنية المغرب في التاريخ، ج1، الناشر – بوسلامة، تونس، ص 94 و 113.
58- كلمة بعل الفينيقية تعادل كلمة رب العربية التي قد تعني الإله أو الصاحب.

وكانت أشهر الآلهة الفينيقية بقرطاجة هي الإلهة تانيت بنتبعل وكانت تماثل عشتار، إلهة القمر عند فينيقي مدينة صور، شكل إله أقرن، له قرنان كقرني الكبش مما يشير إلى صلته بالإله آمون الليبي في سيوة. ويأتي بعد ذلك الإله ملكارت (ملك – كارت) أي ملك المدينة، والمقصود بها في هذه التسمية هي مدينة صور التي ينسب إليها هذا الإله. وقد كان له هيكل في قرطاجة، كما إن القرطاجيين كانوا يبعثون إلى هيكله في صور القرابين والهدايا الثمينة في كل سنة. ثم يأتي بعد ذلك الإله ميلكن أو مولك بعل، وكانوا يمثلونه على صورة وثن قبيح الخلقة له رأس ثور فوق جسم إنسان. زكان القرطاجيون يمارسون أشد وأقسى عاداتهم الدينية على مذبح هذا الإله فيقدمون أطفالهم قرابين له بحرقهم أحياء؛ وغايتهم من ذلك تهدئة غضبه وسخطه ودفع نقمته. ونحن نعلم من ديودورس الصقلي أن القرطاجيين حين حاصرهم القائد الإغريقي أجاثوكليس حرقوا على مذبح هذا الإله مائتين من أطفال أُسرهم النبيلة بالإضافة إلى ثلاثمائة من خيرة رجالهم تطوعوا بحرق أنفسهم ليكونوا قرباناً لائقاً بقدر هذا الإله. وإلى جانب الآلهة الرئيسية المذكورة عبد الفينيقيون عامة والقرطاجيون خاصة آلهة أُخرى كثيرة ولكنها كانت ثانوية إذا ما قيست بالآلهة السالفة الذكر.

أما المجالات الاقتصادية المختلفة فقد كان القرطاجيون سادة التجارة البحرية في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط دون منازع. وعلينا بهذا الخصوص أن نتذكر أنهم، في سبيل التجارة، داروا حول إفريقيا ووصلوا إلى إنجلترا وإرلندة، وتغلغلوا في الصحراء الإفريقية. ويكفي أن نذكر أن الإغريق واليهود والرومان اعترفوا للفينيقيين في المجالات الاقتصادية المختلفة، وخاصة في مجال التجارة، بالحذق والدهاء، والنشاط الذي لا يعرف الملل. وعلى هذا النحو فإن قرطاجة ظلت سيدة النصف الغربي من البحر الأبيض المتوسط حتى بلغت روما أشدها وأدركت خطر قرطاجة عليها فدخلت معها في ثلاث حروب بونيقية انتهت سنة 146 ق.م. بتدمير قرطاجة وإزالتها من عالم الوجود في أبشع عدوان شنته أوروبا على آسيا وإفريقيا ممثلتين في قرطاجة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفينيقيين عامة والقرطاجيين خاصة لم يكونوت شعباً حربياً على نحو ما كان عليه الأشوريون وغيرهم من شعوب العالم القديم، وإنما كانوا شعباً تجارياً بحرياً في الدرجة الأولى. وهذه الحقيقة توضح عدم إقامة قرطاجة لجيش وطني إذ إن من المعروف أن محاربيها كانوا جلهم، إن لم نقل كلهم، من المرتزقة الليبيين وغيرهم ولكنها كانت تضع أولئك المرتزقة تحت تصرف قادة بارزين من أبنائها من مثل هنيبال.

الفينيقيون في طرابلس:

لابد أن الفينيقيين أثناء رحلاتهم التجارية للمتاجرة مع بلدان الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط قد اضطروا في مناسبات عديدة إلى اللجوء لنقاط مختلفة على الساحل الليبي احتماء من عاصفة أو طلباً للماء والغذاء أو من أجل الاستراحة. ويرجح هذا الرأي علمنا أن الفينيقيين كانوا يفضلون الإبحار قريبين من اليابسة نظراً لصغر سفنهم ذات المجاديف وخوفاً من التعرض للعواصف بعيدين عن اليابسة. وهم إن لم يكونوا قدموا للساحل الطرابلسي لغايات تجارية متعمدة منذ البداية فإنهم لم يلبثوا أن فتحو أعينهم على أهمية هذا الساحل كمنفذ لسلع السودان وغيره من أقطار أفريقيا الداخلية، تلك السلع التي كان من بينها الذهب والعقيق والحجارة الكريمة الأخرى والعاج والأبانوس والعبيد من الزنوج، هذا بالإضافة لكثرة النعام في منطقة طرابلس نفسها، وقد كان بيض النعام وريشه من السلع التجارية النادرة التي يشتد الأثرياء في طلبها.

ولقد دلت الحفريات التي أجريت في صبراتة على أن الفينيقيين كانوا قد أقاموا فيها خلال القرن السادس قبل الميلاد محطة تجارية (Emporium) يشغلونها في المواسم الملاحية عندما يكون البحر الأبيض المتوسط هادئاً نسبياً والملاحة مأمونة فيه وذلك ما بين شهري مارس/ آذار ونوفمبر/ تشرين الثاني من كل سنة. ومن المحتمل أنهم قاموا بإنشاء محطات تجارية أُخرى حوالي ذلك التاريخ نفسه في لبدة الكبرى (Leptis Magna) وفي طرابلس (= أويا Oea) وكان أسمها الفينيقي فيعات (Ui>at)، وفي شراكس (Charax) (= مدينة السلطان الحالية)، وفي مكومادس – يوفرانتا

(Macomades – Euphranta) (= مدينة سرت). وقد سبق أن أشرنا إلى أن قرطاجة التي ربما كانت أقدم محطة فينيقية كبرى على ساحل الشمال الإفريقي، نصبت نفسها حامية للمستوطنات الفينيقية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ومنها مستوطنات الشمال الإفريقي، ولذلك فإنها وقفت تدفع عنها التوسع الإغريقي بنجاح وإن كانت فيما بعد قد ذهبت ضحية محاولتها أن تضع حداً للتوسع الروماني. ويختلف قدماء الكتّاب في أي هذه المستوطنات الفينيقية أنشأته صور وأيها أنشأته صيدا، فالشاعر اللاتيني سيليوس الأيطالي (Silius Italicus) يخبرنا أن مدينة صور أنشأت لبدة وصبراتة وأن مهاجرين من صقلية من أصل فينيقي قاموا بإنشاء أويا، بينما يؤكد سالّوست (Sallust) أن لبدة أنشأها مهاجرون من صيدا رحلوا عن مدينتهم الأم نتيجة للاضطرابات التي كانت تسودها. وعلينا بهذا الصدد أن نتذكر أن المؤلفين والكتاب اللاتين كثيراً ما كانوا يستعملون النسبة لصور ولصيدا كمرادف لاسم الفينيقيين. وعلى أي حال، وأياً كانت الجهة التي قدم منها الفينيقيون المؤسسون فإنا نستطيع أن نقول إن هذه المستوطنات أُنشيت في فترة متأخرة نسبياً وبرعاية قرطاجة؛ فيرودوتس يفيدنا ضمنياً أن لبدة لم تكن قد تحولت إلى مستوطنة دائمة مع نهاية القرن السادس قبل الميلاد عندما حاول مهاجرون إغريق من إسبارطة بزعامة دوريوس (Dorieus) ابن ملكها أن ينشؤوا مستوطنة إغريقية عند مصب نهر كنبس سموها باسم ذلك الوادي حوالي سنة 517 ق.م.. فقد تدخلت قرطاجة في الحال ونجحت بالتعاون مع قبيلة المكاي الليبية في إجبارهم على التوقف عند خليج سرت الكبير وعدم تجاوزه إلى الغرب. ومن الواضح أن عدم ذكر هيرودوتس لمدينة لبدة في سياق سرده للحادثة السابقة يدعونا إلى الاعتقاد أن لبدة لم تكن قد أنشئت بعد؛ لأنها لو كانت موجودة لشاركت القرطاجيين وحلفاءهم المكاي في طرد القادمين من المستوطنين الإغريق، ولابد لهيرودوتس في مثل تلك الحالة أن يذكر مثل تلك المشاركة. ويؤيد هذا الرأي بعض الحفريات التي أجريت في لبدة إذ إن أقدم ما وجد في المقبرة الفينيقية تحت حلبة مسرح لبدة هي قطعة فخار كورنثية يعود تاريخها للقرن الخامس قبل الميلاد، وربما كانت أويا قد أُنشئت في فترة متأخرة

عن تاريخ إنشاء لبدة. وحتى صبراتة التي سبق أن أشرنا إلى وجود محطة تجارية على موقعها في القرن السادس قبل الميلاد لم تصبح مستوطنة دائمة إلا بعد وقت متأخر في القرن الخامس قبل الميلاد.

ولا شك أن قرطاجة برهنت بطردها لدوريوس ومن كانوا معه من الإغريق عندما حاولوا إقامة مستوطنة نهر كنبس سنة 517 ق.م. أنها إنما كانت تعلن أو تؤكد سياستها في اعتبار منطقة طرابلس محمية لها فدخلت بسبب ذلك في نزاع مع مدينة قورينة الإغريقية القوية. ونجد إشارة إلى الطيفية التي تمت بها تسوية النزاع على الحدود بين قرطاجة وقورينة في قصة الأخوين فيليني (Philaeni) (أي محبي الشهرة). تقول تلك القصة إن الجانبين الفينيقي القرطاجي والإغريقي القوريني بعد أن أبليا في سلسلة من المعارك غير الحاسمة لفرض سيطرتهما على الأرض الواسعة الممتدة بينهما، والتي لم تكن تتبع لأية سلطة معترف بها، سئما الحرب واتفقا على أن ينطلق من كل من مدينتيهما في وقت معين ممثلون لها سيراً على الأقدام وفي اتجاه المدينة الأخرى، على أن تكون نقطة التقاء الفريقين هي الحد الفاصل بين الطرفين. وأجاد الأخوان فيليني فقطعا ثلثي المسافة بين قرطاجة وقورينة حتى التقيا بفريق قورينة. وحاول الإغريق التنصل من الاتفاق باتهام الأخوين فيليني بأنهما بدءا مسيرتهما قبل الوقت المعين وبأنهما كان يجريان جرياً وليس مشياً، ولكن الأخوين فيليني أعلنا استعدادهما لإعادة التجربة من جديد. وهنا أعلن الفريق القوريني أنّه لن يقر الحدود عند تلك النقطة إلا إذا قبل الأخوان فيليني أن يدفنا حيين حيث كانا يقفان وإلا فإن على قرطاجة أن تسمح لممثلي قورينة بالتقدم إلى المكان الذي ترضى به قورينة حدّاً بين المدينتين مقابل موافقة ممثليها على أن يدفنا حيين في ذلك المكان ليضمنا بذلك إقرار الحدود بين الطرفين. وأمام هذا التحدي أعلن الأخوان فيليني موافقتهما على أن يدفنا حيين حيث كانا يقفان، وقد عرف المكان بعد ذلك باسم آري فيلينورم (Philaenorum Arae) نسبة للنصب التذكارية التي أقامها القرطاجيون فوق قبري البطلين. وقد أقام الإيطاليون أثناء احتلالهم لليبيا القوس الرخامي الحالي عند ذلك الموقع.

وهـذه القصة تبدو وكأنهـا مزيج من الحقيقة والأسـطورة؛ فقد ورد في مقالة جغرافية إغريقيـة أن الحدود بين قرطاجة وقورينة عينت في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد بطريقة سـلمية وربما تم ذلك في أعقاب سلسـلة من الحروب. وقبول قرطاجة بحل وسـط ينطوي على شـيء من المهادنة لقورينة الإغريقيـة يتفق مع سياسـة قرطاجة في هذه المرحلة مـن تاريخها عندما كانـت ترمي إلـى التفرغ لفتح صقليـة الإغريقية ولـو أدى تفرغها ذاك إلى مهادنـة الإغريق أنفسـهم في أي مكان آخر. أما الأخوان فيليني نفسـاهما فهما أسـطوريان وحتى اسـمهما نفسـه فهو إغريقي وليس فينيقياً، وربما كانت الأسطورة كلها من وضع الإغريق.

معاملة قرطاجة لمحمياتها الفينيقيات على الساحل الطرابلسي:

منـذ البداية اتضح لنا أن قرطاجة فرضت نفوذها على منطقة طرابلس والمحطات التجارية الفينيقية (Emporia) التي أُنشئت على طول الساحل الطرابلسـي والتـي بلغ عددها العشـر أو نحـو ذلك. ولابد أن هـذه المحطات كانـت بطيئة في نموها وتطورها فليسـت هنالك أية إشـارة لها في الكتب الكلاسـيكية السابقة للعهد الروماني باسـتثناء كتب الجغرافيا اليونانية. ومن ناحية أُخرى فإن الحفريات الحديثة في ثبراتة تدل على أن أول توسع ضخم لهذه المدينة إنما حدث في القرن الثالث قبل الميلاد. ولعل سر هذا الركود يكمن في السياسـة التي كانـت قرطاجة تنتهجها تجاه المسـتوطنات الفينيقية فـي ليبيا، تلك السياسـة التي أعلنتها قرطاجة بوضـوح في المعاهدة التي أبرمتها مع روما سنة 509 ق.م. وجددت سنة 348 ق.م.. وهي سياسة كانت تحظر على السـفن غير الفينيقية المتاجرة مع المراكز الفينيقية في الشمال الإفريقـي وبذلك فقد أصبحت صادرات وواردات تلك المراكز أو المحطات احتكاراً لقرطاجة على حساب مصلحة تلك المراكز الذاتية. وفي نفس الوقت فرضت قرطاجـة على تلك المراكـز ضرائب عاليـة؛ فنحن نعلم مـن ليفي (Livy) أن لبـدة، التـي كانت مركزاً مالياً إدارياً لمنطقة تشـمل أويـا وصبراتة، كانت تدفع لقرطاجـة ضريبة يومية مقدارها «تالنت» واحـد أي ما يعادل (224) جنيهاً اسـترلينياً، وهو مبلغ كان يعادل ما يكسبه (2500) عامل في اليوم

الواحد. وبالإضافة للضرائب النقدية كانت المحطات الفينيقية في ليبيا تدفع لقرطاجة ضرائب عينية ورسـوماً جمركية على صادراتها ووارداتها، كما كان عليهـا أن تقدم المحاربين والإمدادات لقرطاجة وقـت الحرب. وزيادة على كل ما تقدم كان محظوراً على تلك المسـتوطنات أن تحتفظ بأية قوات عسكرية أو بحرية خاصة بها.

ومن الناحية الأخرى تركت قرطاجة تلك المسـتوطنات حرة في تتصريف شـؤونها الداخلية بما في ذلك التشـريع والقضاء الذي كان ينحصر في أيدي أقلية من الأثرياء والأرستوقراطيين على غرار النمط المتبع في قرطاجة ذاتها. وكان اقتصاد المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي يعتمد على دعامتين أساسيتين هما:

1- المتاجرة في السلع التي تحملها إليها القوافل من أواسط إفريقيا.

2- الزراعة التي كان الفينيقيون من أبرع المزارعين القدماء فيها.

ولذلـك فإنا نجد هذه المسـتوطنات تتوسـع في مجـال الزراعة الكثيفة (زراعة الأرض بأكثر من حصول واحد في السنة الواحدة) وفي الزراعة الواحدة بمعنـى زراعـة النبات الواحد فـي المكان الواحد المناسـب له. ومـن الواضح أن أنسـب شـجرة لمناخ منطقة طرابلس المعرض للجفـاف والرياح اللافحة هي شـجرة الزيتون. ولذلك فإنّا نجد الفينيقين يدخلون زراعة هذه الشـجرة للمنطقة بأسـلوب علمي. وقد أدخلوا كذلك أشجار فواكه أُخرى كثيرة من مثل التين والرمان والخوخ واللـوز والكرمة. وفي المجالات الزراعية الأخرى أدخل الفينيقيون للمنطقة أدوات زراعية معدنية وأسـاليب أحدث من الأسـاليب التقليدية التي كانت سائدة فيها.

وحول هذا الموضوع يقول رسـتوفتزف: «لقد كان زيـت الزيتون والفواكه والنبيذ إلى حد ما، هي المنتجات الرئيسـية للمدن. فكان ساحل إفريقية في العصور الفينيقية حديقة غناء فسـيحة الأرجـاء، وهذه حقيقة لا تدعمها الأدلة الكثيرة المباشـرة فحسـب، وإنما أيضاً الأدلة غير المباشرة؛ فنحن نعلم أن واحـدة من أشـهر الرسـائل عـن الفلاحة هـي كتاب ماجـو القرطاجني

[القرطاجي] . . . . . وكان كتاب ماجو يبحث في الزراعة العلمية والرأسمالية، وقد وجه أكثر عنايته لا إلى زراعة الحبوب وإنما إلى غرس الكروم والبساتين. وعلى الأخص زراعة الزيتون. ومن المحتمل جداً أن اليد العاملة التي استخدمها مُلاك الأراضي من الفينيقيين في مزارعهم كانت على العموم من الأرقاء»[59].

ولابد كذلك أن الفينيقيين بدأُوا بعض المشروعات الرامية إلى التحكم في مياه الأمطار وتجميعها واستغلالها، وقد استكمل الرومان تلك المشروعات في مرحلة لاحقة. ودليلنا على ذلك هو ما ذكره استرابو (Strabo) عن وجود سد فينيقي على مصب وادي كعام.

أما فيما يتعلق بالفن والصناعة والدين فإن حفريات الآثار لم تصل إلى شيء يذكر بهذا الصدد حتى الآن وإن ككان يؤمل أن تؤدي قريباً إلى الككشف عمّا كانت عليه الحال بالنسبة لهذه الموضوعات في المستوطنات الفينيقية في ليبيا، إذ لابد أن هذه المستوطنات كانت تحذو حذو المدن الفينيقية الأصلية وحذو قرطاجة في فنها وصناعاتها، وفي عبادتها للآلهة الفينيقية المختلفة من مثل ملكارت وعشتار وبعل حامون وثانيث.

مواقع المستوطنات الفينيقية:

لما كان الفينيقيون تجاراً في الدرجة الأولى ومزارعين في الدرجة الثانية فقد كان من المنطق أن يختاروا مواقع مستوطناتهم الساحلية على مصبات الأنهار والأودية لتكون بمثابة مرافيء تمكنهم من البقاء على اتصال دائم مع البحر الذي كانوا لا يستطيعون الحياة بعيدين عنه. أما الأودية فكانت في غير مواسم المطر تصبح طرقاً طبيعية للقوافل القادمة بالسلع التجارية من أواسط إفريقيا. كما إنها كانت في مواسم المطر تؤمن كميات الماء اللازمة للناس والحيوانات والمزروعات. ولهذا فنحن نجد أن الفينيقيين أقاموا لبدة على مصب وادي لبدة في بقعة من أخصب بقاع منطقة طرابلس، وأقاموا أويا

59- رستوفتزف، م. «Rostovtzeff M.»، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي ترجمة زكي علي ومحمد سليم سالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 381.

على مصب «وادي لجينين» كما أقاموا صبراتة على رأس الطريق التجاري الهام الذي كان يحمل سلع أواسط إفريقيا إلى صبراتة ماراً بغدامس.

وإذا ما فكرنا في العمران فإنا قد نتساءل في أيامنا هذه عن السر في أن الإغريق والرومان تركوا آثاراً ضخمة في الأماكن التي استوطنوها في ليبيا بينما لم يترك الفينيقيون شيئاً يذكر. والذي يبدو لنا هو أن الفينيقيين، بالرغم من شهرتهم في هندسة البناء وبالرغم ممّا خلفوه من آثار في فينيقية وقرطاجة، كانوا خارج هاتين المنطقتين تجاراً وزراعاً ولم يكونوا عشاق بناء؛ بمعنى أنهم كانوا يكتفون بأبسط البنايات في المستوطنات التي أقاموها في ليبيا ما دامت تفي بأغراضهم، بينما كان الإغريق والرومان يكرسون حياتهم وجهدهم للأماكن التي يستوطنوها؛ لأنهم قد عقدوا النية مقدماً على البقاء فيها إلى الأبد؛ وإذن فلابد لهم من أن يؤمنوا فيها وجود كل المرافق الضرورية من حمامات ومسارح وساحات وطرق ومعابد على غرار ما تعودوا عليه في بلادهم الأم. هذه ناحية، أمّا الناحية الثانية فهي أن الأبنية الفينيقية في ليبيا كانت بسيطة إلى حد جعل اندثارها وتلاشيها أمراً سهلاً. وبالإضافة لذلك الاعتبار فإن علينا أن نتذكر أنّه لم تجر في مواقع المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي حفريات كافية لتقرير مدى ما وصل إليه العمران الفينيقي فيها.

بسبب هذا كله فإن المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي تشتهر حالياً في مجال الآثار والسياحة بآثارها الرومانية والبيزنطية أكثر مما تشتهر بأصولها الفينيقية ولذلك فسوف نؤجل الحديث المفصل عن آثار المستوطنات الرئيسية الثلاث (لبدة وأويا وصبراتة) التي سمى الإغريق المنطقة كلها باسمها أي طرابلس (Tripolis) أو منطقة المدن الثلاث إلى ما بعد الحديث عن الرومان في ليبيا.

بعد تدمير قرطاجة:

دمر الرومان قرطاجة سنة 146 ق.م. ولكن المستوطنات الفينيقية في منطقة طرابلس لم تصبح تابعة لروما إلا بعد سنة 46 ق.م. فماذا كان

يجري في تلك المستوطنات خلال المائة سنة التي انقضت بين تدمير قرطاجة وتبعية تلك المستوطنات لروما؟ إن مصادرنا لا تمدنا بالشيء الكثير للإجابة على هذا السؤال. والقليل القليل الذي نعرفه يتلخص في أن تلك المستوطنات استمرت تعيش حياتها الخاصة وتدير شؤونها الذاتية كما كانت تفعل في ظل قرطاجة. أي إن كلاً منها ظلت خاضعة لتنظيم حكومي على نحو التنظيم الذي عرفته في عهد قرطاجة والذي يعطي السلطة لأقلية أرستوقراطية في كل مستوطنة. وفي مجال الزراعة ظلت كل منها تقوم بنشاطها المعتاد. والجديد في الصورة هو أن تلك المستوطنات استراحت الآن من عبء الضرائب الثقيلة التي كانت تدفعها لقرطاجة. واستراح أبناؤها من الخدمة العسكرية التي كانت تتطلبها قرطاجة بين الحين والآخر. وفي الوقت ذاته انكسر سور الاحتكار الذي كانت قرطاجة تحيطها به فانفتحت على العالم الخارجي وأصبحت تسير تجارة نشطة خاصة بها مع روما ونوميديا وغيرهما من البلدان المجاورة. ولم يطل الأمر بالدولة النوميدية الناشئة حتى فرضت نفوذها في الستينات من القرن الثاني قبل الميلاد على إقليمم طرابلس والمستوطنات الفينيقية القائمة عليه. ولكنها تركت لها حرية تصريف شؤونها كالمعتاد مما أدى إلى انتعاش اقتصادي تلحظه في التوسع العمراني الذي سجلته كل من صبراتة ولبدة لأول مرة. واستمرت الحال على ذلك النحو حتى تغلب يوليس قيصر على منافسه بومبي في معركة فرسالس وبدأ بتنظيم الأملاك الرومانية في الشمال الإفريقي ومنها الإقليم الطرابلسي؛ وسنتعرض لذلك عند الحديث عن العصر الروماني.

هذا بالنسبة للمستوطنات الفينيقية. أما القبائل الليبية التي كانت تعيش عيشتها البدوية كالمعتاد؛ فكان بعض الليبيين القريبين من الساحل يحتكون بالفينيقيين ويتأثرون بهم فينقلون عنهم ما يستطيعون نقله في كافة المجالات من زراعية وتجارية وعمرانية وحتى في مجال اللغة والأدب والفنون. أما الليبيون البعيدون فقد ظل تأثرهم بالفينيقيين قليلاً وظلوا أكثر تعلقاً ببداوتهم ووأشد إخلاصاً لها. وتبعاً لذلك فقد ظل محور حياتهم يدور على الزراعة والرعي وتربية المواشي؛ وبالطبع فإنهم كانوا يتبادلون إنتاجهم

مع المستوطنات الفينيقية فيأخذون منها ما يحتاجون إليه من السلع المستوردة من الخارج ويعطونها ما يفيض لديهم من سلع زراعية وحيوانية كالزيتون والجلود.

فزان منذ مقدم الجرامنتيين
حتى بدء العصر الروماني

ليس من اليسير أن يحدد المرء المنطقة التي سكنها الجرامنتيون في دواخل ليبيا ولكن من المعروف أنهم استوطنوا عدداً كبيراً من الواحات التي كانت ولا تزال منتشرة هنا وهناك في إقليم فزان. وتركزت تجمعاتهم بشكل خاص في سلسلة الواحات في وادي الآجال[1]. وانتشرت قراهم شمالاً حتى المنحدرات الشمالية للحمادة الحمراء وهي سلسلة التلال القائمة إلى الجنوب من سهل الجفارة – وقد استقروا في المنطقة من غدامس – وغيرها من الواحات – في الغرب، إلى الكفرة في الشرق. وكانت الصحراء إلى الجنوب من مساكنهم تقوم، بالنسبة لهم، بمثابة الساحل للفينيقيين والقرطاجيين؛ فقد كانوا يقطعونها بعرباتهم ذات الخيول الأربعة ويقيمون الحصون على مصادر المياه التي كانوا يجدونها في أوديتها لحماية طرقهم التجارية، ولتكون بمثابة استراحات لهم ولحيواناتهم. أما كيف كانوا يقيمون تلك الحصون في مناطق رملية تكاد تكون خالية تماماً من مواد البناء الأولية فنحن نعلم أنهم كانن يحملون مواد البناء الضرورية معهم من مساكنهم وينقلونها على عرباتهم إلى مواقع المياه التي يريدون إقامة الحصون عليها[2].

ولقد سبقت الإشارة إلى أننا نفهم من هيرودوتس وبلايني وميلا وغيرهم من الكتّاب الكلاسيكيين أنه كان يسكن منطقة فزان قبل قدوم الجرامنتيين جنسان من الناس؛ أقزام من الزنوج أسماهم هيرودوتس «ترجلودايت» واكتشفت لهم قبور كثيرة غير عميقة بين تلال حمادة مرزق وقطع من فخارياتهم تشبه فخار عصر ما قبل الأسرات في مصر. ويعتقد أنهم أسلاف الدوّادة الحاليين الذين يعيشون بين كثبان أُباري، ورعاة من الزنوج الطوال الذين

1- يقع وادي الآجال إلى الجنوب من سبها بفزان ويمتد من الشرق إلى الغرب بطول يبلغ حوالي مائتي كيلومتر وعرض يتراوح بين اثنين إلى ثلاثين كيلومتراً.

2- انظر الملحق «ب» وانظر ايضاً: Ayoub, Excavations in Germa, A Stencil pamphlet at the Library of Antiquities, The Museums, Tripoli, Libya, .No: 3839, p. 3

اكتشفت لهم رسوم صخرية في تدرات – أكاكوس إلى الشرق من غات وهؤلاء هم الجنس الإثيوبي[3]. أما من أين جاء الجرامنتيون البيض إلى فزان ومتى وكيف فهي أمورٌ مازالت غامضة وتحتاج إلى مزيد من البحق والاستقصاء. والنظرية الدراجة والتي تجيب على تلك الأسئلة هي أن الموجة الدورية التي غمرت بلاد اليونان حوالي سنة 1194 ق. م. أحدثت تدافعاً سكانياً عمت آثاره آسيا الصغرى ومنطقة الشرق الأوسط بما فيها مصر التي تمكنت أن توقف تيار تلك الهجرات. ولعل أقواماً من أولئك المهاجرين القادمين من وراء البحر ومعهم مهاجرون من صقلية وسردينيا وجزر أُخرى من جزر البحر الأبيض المتوسط نزلوا ساحل برقة وخليج سرت، حيث لم تكن هنالك سلطة قوة مركزية تستطيع التصدي لهم، بعد أن صدتهم مصر عن سواحلها. ولم يلبثوا أن امتزجوا بالليبيين ثم اضطروا في ظروف لا نعرفها – وربما كانت لا تعدو قدوم مهاجرين آخرين ضغطوا على الجرامنتيين – إلى التوغل في دواخل ليبيا. وفي هذا الوقت كانت تعيش في واحات فزان وأوديتها الخضراء وحوش وحيوانات برية كثيرة كالغزال والودان. وكان الفزانيون المسالمون يربون مواشيهم ويعيشون عيشة إنسان العصر الحجري الحديث فيستعملون أسلحة بسيطة من الخشب والحجارة لأنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن أسلحة البرونز أو الحديد وكانوا يجهلون الخيل والعربات مما شجع أقوام البحر الجرامنتيين على غزوهم واحتلال ديارهم قادمين من شواطئ برقة وخليج سرت الكبير. وبعد أن استقر الغزاة الجرامنتيون في المنطقة جعلوا من أنفسهم طبقة عسكرية حاكمة واستعبدوا سكان المنطقة الأصليين ليسخروهم في مزارعهم وفي رعاية ماشيتهم وقضاء مصالحهم الأخرى. وكان ذلك حوالي القرن الثامن قبل الميلاد.

وقد دلت الحفريات على أن أول مستوطنة أقامها الجرامنتيون كانت على قمة جبل زنكرا حيث وجدت ثلاثة من جدرانهم السايكولبية (Cyclopic walls) وبقايا أكواخهم. وتجدر الإشارة هنا إلى أن كلمة زنككرا تعني «العسل» بلغة الطوارق. فهل كانت التسمية ترجمة من الطوارق لأصل

3- انظر أيضاً: Ayoub, The Excavations of Cornelins Bolbus, 1968 pp 9 - .10

جرامنتي؟ هذا الجبل يقوم في الحمادة الحمراء ويمتد شمالاً في وادي الآجال وهو عبارة عن قمتين: الجنوبية وهي الأقدم، والشمالية وهي التي استوطنها الجرامنتيون حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، فأقاموا عليها بيوتاً صغيرة وكونوا مزارع مدرجة على منحدراتها، وأحاطوها بجدار طويل علمت فيه مصارف للتحكم في توزيع مياه المطر المتجمعة أمامه والإفادة منها في أعمال الري – وكانت بيوتهم تتكون من غرف صغيرة مبنية بآجر الطين أو بالآجر الأحمر، وقد استعملوا روث البقر لطلاء جدرانها ومصاطبها وهي طريقة ما زالت مستعملة في كل من السودان والهند حتى اليوم[4] ولعل هذا المستوى من المساكن يمثل مرحلة متقدمة نسبياً لأن المعروف أن مساكن الجرامنتيين كانت في أول أمرها مساكن بسيطة لا تعدو كونها أكواخاً أو خياماً من جلود الحيوانات. وتأتي مرحلة النهضة الجرامنتية بعد قيام جرما القديمة فقد دلت آثارها على أنها كانت محاطة بسور وخندق وكان في داخلها بيوت كبيرة وحمامات ومعابد، كما كانت بها أسواق يظهر فيها أثر الطراز الروماني، ووجدت بها كذلك أعمدة تنتصب بتيجانها الكورانية والدورية شواهد على التأثير الإغريقي[5]. وفي هذه الفترة صار البيت الجرامنتي يتكون من شقة أو أكثر، وصارت جدرانه ومصاطبه تطلى بملاط من الجير أو الجبس الملون. وكشفت الحفريات كذلك عن أن جرما القديمة كانت تتمتع بامدادات مياه جيدة وبنظام ممتاز للمجاري وبشوارع تظللها الأشجار وبكثير من البساتين التي كانت تحيط بالمدينة وتضفي عليها رداء جميلاً من الخضرة.

ونحن وإن كنا لا نزال نجهل حدود مملكة الجرامنتيين التي لا بد أن تكون قد شملت فزان ومنطقة واسعة حولها إلا أننا بدأنا، بفضل علم الآثار، نتعرف في تاريخ هذه القبيلة القوية؛ فقد كشفت الحفريات عن وجود ما يزيد على أربعين ألف قبر بجوار عاصمتهم جرما، التي كانت عبارة عن مدينة صغيرة

4- Ayoub M. S., Fezzan, a short History, Controllery of Southern Governorates, Tripoli, 1968, pp 4246-.

5- لم توجد في أعمق طبقة كشفتها الحفريات في جرما القديمة حتى الآن أدلة على أبنية أقدم من القرن الميلادي الأول، ومعظم أبنية هذه الطبقة ترجع إلى النصف الأول من القرن الميلادي الثاني، وهي طريقة تدل على أن الجرامنتيين كانوا عند هذا الحد قد تأثروا في مجال العمران بالإغريق والرومان عن طريق احتكاكهم بالنوميديين وبلبدة وأويا وصبراتة.

تتألف من معابد حجرية وحصون ومنازل متباعدة وآبار رومانية حفرت فيها بعد دخول الرومان. وآثار جرما على غرابتها، ليست أغرب من آثار جرامنتية أُخرى هي عبارة عن حوالي مائة ضريح هرمية الشكل لا تزال قائمة في مقبرة الحاسيا المجاورة لجرما.

والجرامنتيون، كمجتمع مستقر، قطعوا شوطاً حضارياً لا بأس به. وتتجلى حضارتهم في العمران الذي أشرنا إليه وفي نظام الحكم والتجارة والزراعة – وكما كان المجتمع الجرامنتي يتكون من الفئات التالية: الملك وحاشيته ثم الأمراء والحكام، وتأتي بعد ذلك طبقة العمال فطبقة السكان القدماء الإفريقيين الذين كان بينهم بعض البربر – ولم يتأثر النظام الجرامنتي القائم على الأرستوقراطية العسكرية بالنظام الملكي اليوناني ولا بالنظام الروماني ولا بالقرطاجي بل ظل مخلصاً للطبيعة البدوية التي اكتسبها في ليبيا؛ فقد دلت آثار الأمراء والحكام المحليين على أنهم كانوا غير قابلين للتأثر بالنظم المجاورة ولذلك فقد كانوا مثلاً لا يترفعون عن ترؤس الغرف التجارية ولا عن العمل في التجارة، وهم لذلك كانوا أثرياء أقوياء إلى حد أنه كان باستطاعتهم أن يقاوموا حتى ملوكهم. وكان الملك الجرامنتي رأس الدولة وقائد الجيش والكاهن الأعظم للبلاد فكان بذلك مصدر للسلطة؛ فالأمراء والحكام المحليون إنما كانوا يتلقون سلطتهم منه مقابل تقديمهم الضرائب والمحاربين له. واكن الجيش الجرامنتي يتكون من المشاة وإن الفرسان الذين يمتطون العربات أو صهوات الخيول. ويبدو أنه كان في جيشهم ذاك فرقة كومادو تستخدم في الدرجة الأولى لقطع الطرق ولردم الآبار. اما الطبقة العاملة فكانت تتكون من العمال اليدويين وصغار التجار. وقد قال استرابو عن هذه الطبقة في وقت لاحق: «إن حياتهم لم تكن حياة فخفخة ورفاهية ولكنهم لم يكونوا فقراء فقراً مدقعاً وإنما كانوا طبقة متوسطة عادية». ويذكر استرابو وغيره من الكتّاب الكلاسكيين أن الجرامنتي كان يتزوج عدة زوجات مما ينقض ما ذهب إليه بعض الكتاب المعاصرين من أن الجرامنتيين هم أبناء الطوارق؛ لأننا نعرف أن الطوارق يجلون النساء إلى حد أنهم يقيمون نظام الإرث على جهة عصبية الأم وينتسبون للأم بدلاً من الأب

ولا يتزوج الرجل منهم أكثر من زوجة واحدة.

وفي مجال الزراعة والرعي يتحدث هيرودوتس[6] عن ديار الجرامنتيين في الصورة التالية: «على مسيرة عشرة أيام أُخرى من أوجلة نحو الغرب نأتي إلى تلة ملح أخرى بها نبع كغيرها من هذه التلال. وفيها أشجار نخل من النوع الذي يثمر كما هي الحال في الواحات الأخرى. وهنا يقطن الجرامنتيون. تلك القبيلة العديدة. التي يفرش أبناؤها طبقة من التراب فوق الملح. ثم يزرعون بذورهم فيها[7]. وعندهم كذلك البقر التي تسير إلى الوراء أثناء رعيها. والسبب في هذه العادة الغريبة هو أن قرون هذا النوع من البقر تنمو منحنية إلى الأمام ونحو الأرض. مما يمنع البقر من التحرك إلى الأمام. كما هي العادة. لأنها لو فعلت لاشتبكت قرونها بالأرض. وفيما عدا ذلك فإن بقر الجرامنتيين تشبه غيرها من البقر. وإن كانت تمتاز عنها بسمك جلدها وصلابته. ويقوم الجرامنتيون بأسر رجال الكهوف الإثيوبيين أي الترجلودايث (Trooglodytes) بمطاردتهم في عربات تجر الواحدة منها أربعة خيول. لأن هؤلاء الترجلودايت سريعو العدو إلى حد يفوق التصور. فهم أسرع من أي شعب نعرفه. وهم يأكلون الأفاعي والسحالي والزواحف الأخرى. ويتكلمون لغة ليس لها شبيه في العالم فهي كزعيق الخفافيش».

ولعل التجارة كانت أهم مرفق اقتصادي للجرامنتيين فقد دفعتهم إلى أن يصبحوا مهرة في الملاحة الصحراوية إن جاز التعبير. فعرفوا كيف يهتدون فيها بالنجوم. كما إنهم أقاموا الحصون والمحارس التي لا تزال آثارها ماثلة حتى اليوم على طول طرق قوافل الصحراء. والطرق التجارية عبر الصحراء الليبية ليست اكتشافاً من إنجاز الجرامنتيين أنفسهم فقد كانت فيها طرق ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ. كما إن نصوص العصر التاريخي في مصر القديمة تذكر أن أحد تجار أسوان استخدم ليبيين ليقطع الصحراء بقافلة مكونة من ثلاثمائة حمار. وقد استخدمت الحمير في القافلة نظراً لشدة

6- انظر الملحق «ب» ص 782.

7- لقد ذكر بلايني أن الجرامنتيين استعملوا روث البقر كسماد زراعي في القرن الأول قبل الميلاد حينما كانت لا تزال هنالك بعض بعض الأنهار الموسمية التي كانت مياهها تستغل في ري الأراضي الزراعية.

قدرة الحمار على تحمل الضمإ ولأن الجمل لم يكن قد عرف بعد. وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن ماجو (Mago) القرطاجي استخدم الحمير في أيام الجرامنتيين لعبور الصحراء. ولا شك أن الجرامنتيين في بداية عهدهم بالصحراء استخدموا الثور للنقل والسفر. ولذلك فقد ظهرت صورته مسرجاً في بعض رسوماتهم على الصخور. ولكن غلب على الجرامنتيين استخدام الحصان أكثر من غيره فاستخدموه لجر العربات إلى جانب ركوبه مباشرة؛ وسنجد أنهم ظلوا يعتمدون على الخيل حتى في القرن الميلادي الرابع عندما شاع استخدام الجمل الذي أبوا أن يستخدموه رغم ما يتميز به عن الحصان في الأسفار الصحراوية.

وبالنظر لموقع جرما القديمة ومهارة الجرامنتيين في الملاحة الصحراوية وقدرتهم – بسبب قوتهم وكثرة عددهم – على حماية القوافل التي يهمهم أمرها فقد أصبحت جرما. عاصمتهم. مركزاً تلتقي فيه القوافل الذاهبة لأواسط إفريقيا من الساحل الليبي والقوافل القادمة من أواسط إفريقيا باتجاه ذلك الساحل ولقد كانت الطريق العابرة بجرما من سرت إلى السودان أقصر تلك الطرق وبالتالي أكثرها استعمالاً. وكان قصرها ناجماً عن تعمق النتوء البحري في القارة عند سرت حتى خط عرض 30° شمالاً. أما بالنسبة للعبور من جرما إلى تشاد فإن الذي كان يجعل السفر ميسوراً هو وجود سلسلة من الواحات تنتشر من الشمال إلى الجنوب وعلى مسافات قصيرة ما بين فزان وتشاد. وأشهر طرق القوافل التي كانت تربط الساحل الليبي بجرما هي:

1- طريق صبراتة – غدامس – إدري – صحراء أُوباري – جرما.

2- طريق أويا – غريان – إلى يرغن عبر الجبال – كثبان أباري – جرما. وقد اشتهرت باسم طريق أكلة اللوتس.

3- طريق لبدة – غرزة – شوارف – براك – سبها – جرما.

4- طريق سرت – ودان – هون – عبر جبال السوداء إلى سبها – جرما.

وفي الوقت ذاته كانت أشهر الطرق التي تربط جرما بتشاد والسودان

هي:

1- جرما – زويلة – كفرة – إنيدي – إلى مورو في السودان.

2- جرما – قطرون – فايا – تشاد.

3- جرما – قصر مارا – شرابا – إلى كوار على نهر نيجر.

4- جرما – إمسك – نهر النيجر[8].

بالإضافة إلى تلك الطرق كان هنالك طريق آخر يربط جرما بالنيل شرقا وبشاطئ المحيط الأطلسي غرباً مبتدئاً من ممفيس أو الأقصر عبر الواحات الصرية إلى سيوة فأوجلة فجرما ومنها إلى متخندوش، ثم إلى أكاكاوس ومنها يسير عبر الهجار فأواسط الصحراء إلى الساحل الموريتاني على المحيط الأطلسي.

وكانت القوافل الجرامنتية تحمل إلى أواسط إفريقيا بعض الإنتاج الجرامنتي مثل الملح ثم بضائع ما وراء البحر كالخزفيات والزجاجيات والملابس والأدوات الحديدية والحجارة الكريمة والحلي. وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نتذكر أن الجرامنتيين كانوا يحتكرون تجارة الملح المتوافرة بكثرة في بلادهم والذي كانوا يستبدلونه بالذهب مع بلدان أواسط إفريقيا. أما السلع التي كانوا يعودون بها من أواسط إفريقيا كانت الحيوانات المفترسة، وجلود الحيوانات، والعاج، والأخشاب وخاصة الأبانوس، والعبيد، والذهب الذي كانوا يأتون به من النوبة أو النيجر، والفضة من منطقة تمبكتو. وكان من إنتاجهم الياقوت أو حجر الأمازون الذي عُرف باسم الحجر القرطاجي لأن قرطاجة هي التي كانت تصدره إلى العالم الخارجي بعد استيراده من الجرامنتيين. وجدير بالذكر في هذا الصدد أن الفراعنة كانوا يسمون ذلك الحجر بالحجر التمحي من الواوات، نسبة لقبيلة التمحو الليبية التي كانت تنتشر أو تتحرك في المنطقة بين شرق فزان وغرب النيل. ولقد أثبتت الحفريات صحة التسمية الفرعونية فقد اكتشف مونود (Monod) الفرنسي محجراً للأمازون على بعد قليل إلى الشرق من الواوات: واو الناموس، واو الكبير. وبالإضافة إلى تلك السلع تاجر

8- Ayoub, M.S. Fezzan, a Short History, Controllery of Southern Governorates, Tripoli, 1986, pp 77 – 88.

الجرامنتيون ايضاً في الخيل والحمير والمواشي.

وبحكم هذه التجارة وأهميتها للاقتصاد الجرامنتي نشأت بين الجرامنتيين والإغريق وبينهم وبين القرطاجيين علاقات ودية سلمية فساعدتهم على الإثراء. وقد زاد في أهمية جرما أن القبائل الليبية التي كانت تنظر إلى نوميديا كمثال يحتذى صارت بعد سقوط نوميديا سنة 40 م. تتطلع إلى جرما باعتبارها النموذج المثالي الجديد الذي صارت تلك القبائل تحدو حدوه.

وفي مجال الصناعة دلت الآثار على أنه كانت تقوم في جرما صناعات محلية محدودة من مثل صناعة الحلي الذهبية والفضية، وصناعة الأغواش والأساور والأقراط من حجر الأمازون الذي أسماه الرومان فيما بعد (Carbuncle) أي العقيق. وقد كان هذا الحجر في ذلك الوقت يعتبر كريماً كالجواهر في أيامنا هذه. ولا شك أنه كانت لدى الجرامنتيين صناعات أولية أُخرى مما يتعلق بالحاجات الضرورية كالمأكل والملبس والمسكن وبعض الأسلحة وما شابه ذلك.

وإذا ألقينا نظرة على فن الرسم عند الجرامنتيين في هذه المرحلة فإنا سنلاحظ أن الرسوم الجرامنتية الأولى كانت بدائية للغاية إذا ما قورنت برسوم الرعاة الذين احتل الجرامنتيون ديارهم وسخروهم في خدمتهم. ولعل خير ممثل لهذه المرحلة من الفن الجرامنتي هو تلك النقوش الصخرية التي وجدت في زجرا (Zigza) بشمال فزان، وبجبل غنيمة في جنوبها وفي جبل زنككرا في منطقة جرما، ويبرز بين النقوش المختلفة رسم عربة وخيلها، وقد مثل الجسم فيه بزاويتين قائمتين بينما مثلت الأيدي والسيقان بخطوط مستقيمة ومثل الرأس بنقطة. وسنلاحظ أن هذا الفن الجرامنتي لم يلبث أن ترقى فيما بعد ووصل حداً معقولاً من التقدم. والمعتقد أن الجرامنتيين لم يكونوا نحاتيين إذ لم يكتشف بين آثار جرما حتى الآن سوى تمثال نصفي من الحجر الرملي لرجل يلبس رداءاً.

ونحن وإن كنا لا نعرف الكثير عن حياة الجرامنتيين الدينية إلا أننا نعرف أنهم عبدوا الإلهة تانيت (Tanit) الليبية، التي كانوا يرون فيها سيدة

للصحـــراء، وحبيبة للقمر، ومرشـــدة للقوافل، وســـراً للينابيع المتدفقة. وقد حافظت هذه الإلهة على ليبيتها لدى الجرامنتيين بالرغم من أن القرطاجيين عبدوها ورأوا فيها نظيراً لإلهتهم عشـــتار الفينيقية فزوجوها لإلههم بعل حامون. ولا شـــك فـــي إن الجرامنتيين عبـــدوا كذلك الإله زيـــوس آمون الليبي الذي كان مقره في واحة سيوة بالإضافة إلى قوى مظاهر الطبيعة المتعددة. كما إنهم أخذوا عن الليبيين تقديس الأســـلاف والنوم على قبورهم من أجل الاســـتخارة واستطلاع المستقبل. ولو كنا نعرف على وجه التحقيق أين كان الجرامنتيـــون يقيمـــون فيما وراء البحر قبـــل قدومهم إلى ليبيا لاســـتطعنا أن نحـــدد الآلهـــة التي لابد وأنهـــم نقلوها معهم إلى فـــزان عند غزوهم لها واســـتقرارهم فيها. وإذا التفتنا إلـــى قبورهم وطريقتهم في الدفن وجدنا أن أقدم نوع اكتشف من قبورهم هو مجموعة من القبور المستديرة ذات اللحود الصغيـــرة وغيـــر العميقة؛ وكانوا يدفنون الميت فيها على وضع يشـــبه وضع الجنـــين فـــي الرحم. ولم توجد في تلك القبور ســـوى فخاريـــات قليلة وبعض أدوات الزينة المصنوعة من الحجارة والعظام.

الفصل الخامس
ليبيا في العصر الرومانى

ليبيا في ظل الرومان

تمهيد:

تحتل شبه جزيرة إيطاليا موقعا ممتازا على الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض المتوسط. وتزداد أهمية هذا الموقع بسبب امتداد الساق الإيطالية وقدمها وجزيرة صقلية إلى مسافة كبيرة في داخل حتى تكاد تقسمه إلى حوضين: حوض شرقي وآخر غربي. وقبل ظهور روما والرومان كانت في إيطاليا ثلاثة عناصر سكانية مهمة هي:

1- الإغريق في جنوب إيطاليا وفي القسم الشرقي من صقلية. وكانت حضارتهم هنا امتدادا للحضارات الإغريقية في بلاد الإغريق.

2- الإترسكان وكانوا في الشمال في تسكانيا بين نهر التيبر ونهر أرنو. ثم انتشروا عبر التيبر على الساحل الغربي حتى خليج نابولي. وكانوا أصحاب حضارة قديمة تشبه الحضارة الفينيقية في اعتمادها على التجارة والزراعة والصناعية.

3- اللاتين وكانوا يقيمون في الوسط في سهل لاتيوم الذي يجري فيه نهر التيبر. فكانوا بذلك واقعين تحت تأثير حضارتي الإغريق والإترسكان فتأثروا بهاتين الحضارتين وأنشأوا سنه 755 ق.م. مدينة روما على سبع هضاب تقوم بالقرب من مصب نهر التيبر. ومن روما راحوا يبسطون سيرتهم على القبائل المجاورة. ويوسعون دائرة نفوذهم شيئا فشيئا. حتى أقاموا دولة رومانية ملكية لم تلبث أن تحولت إلى جمهورية ثم إلى إمبراطورية.

حكومة روما الملكية:

تذهب الرواية الرومانية إلى أن الأخوين روموس (Romulus) وريموس (Remus) رضيعي الذئبة هما اللذان أسسا روما سنة 755 ق.م. وكان روموس الملك الأول عليها. ولم يكن النظام الملكي وراثيا بل كانوا ينتخبون ملوكهم بالهتاف والتصفيق تعبيرا عن الاستحسان والموافقة أو بالسكوت تعبيرا عن عدم الموافقة ولكنهم لم يكونوا قد عرفوا بعد نظام التصويت

والاقتراع. ومنذ هذه المرحلة المبكرة كان لهم مجلس شيوخ يتولى تحديد سلطة الملك وصلاحياته كما كانت لهم مجالس شعبية أُخرى. ولكن السلطة في مجموعها كانت في يد الملك وأيدي تلك المجالس التي كانت في واقعها إنما تمثل الأرستوقراطية المكونة من العسكريين والأثرياء. وكان الملك السابع والأخير هو الملك تاركوين الذي كان شديدا على الأغنياء. عطوفا على الفقراء والضعفاء. مما حمل الطبقة الأرستوقراطية على الثورة عليه وطرده هو وابنه من روما وإعلان الجمهورية الرومانية سنة 508 ق.م.

حكومة روما الجمهورية:

كان النظام الجمهوري يرتكز أساسا على نزعة أرستوقراطية أعطت كل شئ لطبقة النبلاء أو الأشراف وتركت طبقة البليبيانز أو الرعاع محرومة من المشاركة في الحكم والحقوق وحتى من التزاوج مع النبلاء. وكان الحكم في روما في هذه المرحلة في يد مجلس الشيوخ الروماني الذي كانت عضويته مقصورة على النبلاء. وفي كل سنة كان المجلس ينتخب قنصلين من الأشراف لمدة سنة ليتوليا قيادة الجيوش ويترأسا مجلس الشعب ويتوليا السلطة القضائية ويسنا القوانين والتشريعات بمشاركة مجلس الشيوخ ويقوما بتنفيذها بعد ذلك.

وظلت طبقة الرعاع تكافح من أجل العدالة والمساواة حتى فازت بأول نصر كبير سنة 369 ق.م. عندما صارت تتمتع بجميع حقوق المواطنة المدنية وكانت ذلك النصر فاتحة سلسلة من الانتصارات والمكاسب. ففي سنة 300 ق.م. فازت هذه الطبقة بحق التمتع بالحقوق الدينية. وتوالت هذه الانتصارات التي هي في الواقع انتصار لروما على نفسها حتى توحد الشعب الروماني وتساوي أفراده أمام القانون وحلت الثروة أو الفقر محل الانتساب إلى أسرة الأشراف أو إلى طبقة الرعاع كمقياس يقرر مركز الفرد الاجتماعي ويمنحه أو يحرمه حق الانتخاب.

ومن الواضح أن هذا التطور كان يسير في اتجاه ديموقراطي سليم لم يلبث إن أدى إلى منح كافة الحقوق بما فيها حق الانتخاب لكل مواطن روماني

له مسكن. وظل ومجلس الشيوخ الروماني يتألف من ثلاثمائة عضو ولم تفتح لطبقة الرعاع أو العامة إلا ابتداء من سنة 400 ق.م. وبعد هذه المرحلة بدأت سلطاته تتقلص وتنحصر في إعداد مشروعات القوانين التي لم تكن لتصبح نافذة المفعول إلا بعد مصادقة المجالس الشعبية عليها. وفي تسيير السياسة الخارجية ومراقبة خزينة الدولة.

حكومة روما الإمبراطورية:

بانتصار يوليس قيصر. أحد القنصلين. على منافسه وزميله بومبي. القنصل الأخر. سنة 48 ق.م. أصبح الأول دكتاتورا يجمع في يده جميع مقاليد الأمور طيلة حياته. وكان كذلك إيذانا بنهاية العصر الجمهوري في روما وبدء العصر الإمبراطوري. وعندما اغتيل يوليس قيصر سنة 44 ق.م. نشبت حرب أهلية ثانية بين أنطوني وأكتافيوس من جهة وقتلة قيصر وأنصارهم من جهة أخرى ثم بين أكتافيوس وأنطوني وانتهت بانتصار أكتافيوس الذي أصبح أول إمبراطور روماني وتلقب بأوغسطس أي العظيم (29ق.م – 14 م).

وفيما يلي جدول تاريخي بأسماء أباطرة الرومان الغربيين والشرقيين (البيزنطيين) وتواريخ حكمهم:

الأباطرة الغربيون

الأسرة اليوليسية:

1.	أكتافيوس أوغسطس	29 ق. م. – 14 م
2.	تايبيريوس كلوديس	14 – 37 م
3.	كاليجولا (جايس جيرمانيكوس)	37 – 41 م
4.	كلوديس (تايبيريوس دروسس)	41 – 54 م
5.	لوسيس نيرون كلوديس	54 – 68 م

الأسرة الفلافية:

6.	فلافيس فسبسيانس	69 – 79 م

7. تيطس فلافيس سابيينس	79 – 81 م
8. تيطس فلافيس دومتيانس	81 – 96 م

الأسرة الأنطونية:

9. ماركس نيرفا	96 - 98 م
10. ماركس تراجانس	98 – 117 م
11. هادريانس	117 – 138 م
12. تيطس أوريليوس أنطونينس	138 – 161 م
13. ماركس أوريليس	161 - 180 م
14. لوسيس كمودس	180 – 192 م

الأسرة الأفريقية:

15. سبتيميوس سويرس	193 – 211 م
16. كراكلا سويرس	211 – 217 م
17. أفيتس سويرس	218 – 222 م
18. اسكندر سويرس	222 – 235 م
الفوضى العسكرية	235 – 285 م
19. ديوقلتيانس	285 – 305 م
20. قسطنطين الكبير	306 – 337 م

نشأة القسطنطينية ونقل العاصمة من روما إلى بيزنطة

الأباطرة البيزنطيون

قسطنطينوس الثاني (Constantius II)	337 – 361 م
جوليان المرتد (Julian the Apostate)	361 – 363 م
جوفيان (Juvian)	363 – 364 م
فلينز (Valens)	364 – 378 م

الأسرة الثيودوسية (Theodosian Dynasty)

ثيودوسيس الكبير(the Great Theodosius)	379 – 395 م
أركاديوس (Arcadius)	395 – 408 م
ثيودوسيس الثاني (Theodosius II)	408 – 450 م
مارسيان (Marcian)	450 – 457 م

الأسرة الليونينية (Dynasty Leonine)

ليو الأول (Leo I)	457 – 474 م
ليو الثاني (Leo II)	474 م
زينو (Zeno)	474 – 491 م
أنسطاسيوس (Anastasius)	491 – 518 م

الأسرة الجستنيانية (Justinianian Dynasty)

جستين الأول (Justin I)	518 – 527 م
جستنيان الأول (Justinian I)	527 – 565 م
جستين الثاني (Justin II)	565 – 578 م
تيبيريوس الثاني (Tiberius II)	578 – 582 م
موريوس (Maurice)	582 – 602 م
فوكاس (Phocas)	602 – 610 م

الأسرة الهرقلية (Dynasty Heraclian) (وقع الفتح العربي في بداية عهدها)

هرقليوس (Heraclius)	610 – 641 م
قسطنطين الثالث (Constantine III)	(توفي) 641 م
هرقليوناس (Heracleonas)	(خلع) 641 م
قنستانس الثاني (Constans II)	641 – 668 م
قسطنطين الرابع (IV Constantine)	668 – 685 م
جستنيان الثاني (Justinian II)	685 – 695 م

انتهى بالنفي

ليونتيوس (Leontios)	695 – 698 م
تيبيريوس الثالث (Tiberius III)	698 – 705 م
(عودة) جستنيان الثاني (Justinian II Restoration)	705 – 711 م

انحطاط سلطة الأباطرة

باردينس (Bardanes)	711 – 713 م
أنسطاسيوس الثاني (Anastasius II)	713 – 716 م
ثيودوسيس الثالث (Theodosius III)	716 – 717 م

الأسرة الآيزورية (Dynasty Isaurian)

ليو الثالث (Leo III)	717 – 741 م
قسطنطين الخامس (IV Constantine)	741 – 775 م
ليو الرابع (Leo IV)	775 – 780 م
قسطنطين السادس(VI Constantine) (سملت أمه عينيه وخلعته)	780 – 797 م
إيرينة (نهاية الأسرة) (Irene)	797 – 402 م
نقفور (Nicephorus)	802 – 811 م
ستوراسيوس (Stauracius)	811 م
ميخائيل الأول (Michael I)	811 – 813 م
ليو الخامس (Leo V)	813 – 820 م

الأسرة الفرنجية (Dynasty Phrygian)

ميخائيل الثاني (Michael II)	820 – 829 م
ثيوفيلوس (Theophilus)	829 – 842 م
ميخائيل الثالث (Michael III)	842 – 867 م

الأسرة المقدونية(Dynasty Macedonian)

بسيل الأول (Basil I)	867 – 886 م
ليو السادس (Leo VI)	886 – 912 م
الاسكندر (Alexander)	886 – 913
قسطنطين بروفيروجينيتوس (Prophyrogenitus Constantine)	912 – 919 م
رومانوس الأول (Romnus I)	919 – 944 م
رومانوس الثاني (Romnus II)	959 – 963 م
بسيل الثاني (Basil II)	963 – 1025 م
قسطنطين الثامن (Constantine VIII)	963 – 1025 م
قسطنطين الثامن (منفردا) (Constantine VIII)	1025 – 1028 م
نقفور الثاني (Nicephorus II)	963 – 969 م
جون الأول تزيمسكس (John I Tzimisces)	969 – 976 م
رومانوس الثالث (Romnus III)	1028 – 1034 م
ميخائيل الرابع (Michael IV)	1034 – 1041 م
ميخائيل الخامس (Michael V)	1041 – 1042 م
زو و ثيودورا (Zoe & Theodora)	1042 م
قسطنطين التاسع مونوماخس (Constantine IX Monomchus)	1042 – 1055 م
ثيودورا (Theodora)	1055 – 1056 م
ميخائيل ستراتيوتيكوس (Michael Stratioticus)	1056 – 1057 م

(نهاية الأسرة المقدونية)

إسحاق الأول كمنينوس (Isaac I Comnenus) (تنازل)

1055 – 1059 م

قسطنطين العاشر دوكاس (Constantine X Ducas)

1059 – 1067 م

رومانوس الرابع ديوجينس (Romanus IV Diogenes)

1067 – 1071 م

ميخائيل السابع دوكاس (Michael VII Ducas)

1071 – 1078 م

نقفور الثالث بوتانياتس (Nicephorus III Botaniates)

1078 – 1081 م

الأسرة الكمينية (Commenian Dynasty)

ألكسيوس الأول كمينوس (Alexius I Commenus)

1081 – 1118 م

جون الثاني (John II) 1118 – 1143 م

مانويل (Manuel) 1143 – 1180 م

ألكسيوس الثاني (Alexius II) 1180 – 1183 م

أندرونيكوس(Andronicus) 1183 – 1185 م

الأسرة الإنجيلية (Dynasty of the Angeli)

إسحاق الثاني (Isaac II) (خلع) 1185 – 1195 م

ألكسيوس الثالث (Alexius III) 1195 – 1203 م

إسحاق الثاني(عاد مع ألكسيوس الرابع)(Isaac II restored with Alexius IV) 1203 – 1204 م

ألكسيوس الخامس دوكاس مرتزفيوس (Alexius V Ducas Murtzphius) 1204 م

(الحملة الصليبية الرابعة تستولي على القسطنطينية)

الأباطرة البيزنطيون في نيكايا (Nicaea)

ثيودور الأول لسكارس (Theodore I Lascaris)

1204 – 1222 م

جون الثالث دوكاس فتاتزيس (John III Ducas Vatatzes)

1222 – 1254 م

ثيودور الثاني لسكارس (Theodore II Lascaris)

1254 – 1258 م

جون الرابع لسكارس (John IV Lascaris) 1258 – 1261 م

ميخائيل الثامن بليولوجس (Michael VIII Palaeologus)

1259 – 1282 م

استرجاع القسطنطينية 1261 م

الأسرة البليولوجية (Dynasty of the Palaeologi)

ميخائيل الثامن (Michael VIII) 1261 – 1282 م

أندرونيكوس الثاني (Andronicus II) 1282 – 1328 م

ميخائيل التاسع (Michael IX) 1293 – 1320 م

أندرونيكوس الثالث (Andronicus III) 1328 – 1376 م

جون الخامس (John V) 1341 – 1376 م

جون السادس (John VI) 1341 – 1354 م

أندرونيكوس الرابع (Andronicus IV) 1376 – 1379 م

(عودة) جون الخامس (restored John V) 1379 – 1391 م

جون السابع (John VII) 1390 م

مانويل الثاني (Manuel II) 1391 – 1425 م

جون الثامن (John VIII) 1425 – 1448 م

قسطنطين الحادي عشر دراجاسيس (Dragases (Constantine XI 1449 – 1453 م

استيلاء الأتراك على القسطنطينية سنة 1453 م

وانتهاء الإمبراطورية البيزنطية[1].

1- Baynes, H. Norman & Moss, H. St. L. B. (Editors), Byzantium, Oxford University Press, Oxford , 1st issued as an Oxford University Press paperback 1969, pp 422423-.

الرومان في طرابلس وفزان

سبق أن أشرنا إلى التحدي الإغريقي بزعامة قورينة لسلطة قرطاجة الفينيقية في تونس. وقد بينا كيف فشل ذلك التحدي ثم أشرنا إلى روما ورثته فيما بعد ضمن التركة الإغريقية التي ورثتها فسارت بذلك الشوط إلى نهايته. لقد كانت قرطاجة تدرك من موقعها الاستراتيجي المهم أهمية مضيق مسينا الصقلي للتجارة العالمية في البحر الأبيض المتوسط. ولذلك فأنها أزعجها أن يبدأ الإغريق بإنشاء مستوطنات لهم في صقلية لأن سيطرتهم عليها كانت تشكل تهديدا خطيرا للتجارة الفينيقية في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط. وقد لاحظنا قبل قليل أن قرطاجة ذهبت إلى حدة مهادنة إغريق قورينة والتساهل في إقرار الحدود بينها وبينهم لتتمكن من التفرغ لحرب إغريق صقلية والسيطرة على هذه الجزيرة المهمة فاستولت قواتها على مسينا المتحكمة في المضيق المسمى باسمها سنة 264 ق.م. ولما كان الرومان في هذه المرحلة التاريخية قد أصبحوا قوة نامية بدأت تحل محل الإغريق في المرحلة الأولى من تكوين الإمبراطورية الرومانية. فإنهم لم يسكتوا على احتلال قرطاجة لمسينا بل خفوا لمكافحة ذلك الاحتلال بوصفهم حماة للإغريق والحضارة الإغريقية وان كان ذلك مجرد ستار لنواياهم التوسعية من جهة ولدفع الخطر عن أبوابهم من جهة أخرى. فكان هذا إيذانا ببدء حرب البونيقية بين روما وقرطاجة. واستمرت تلك الحرب طيلة ثلاث وعشرين سنة (264 – 241 ق.م.) وانتهت بخروج قرطاجة من صقلية. وبالرغم من هذه الخسارة الفادحة فقد استطاعت قرطاجة أن تشمر عن ساعدها من جديد. وبعد مضي ثلاث وعشرين سنة على انتهاء الحرب البونيقية الأولى. لتبدأ الحرب البونيقية الثانية ضد روما (218 - 202 ق.م.). وتميزت هذه الحرب الثانية بغزو القائد القرطاجي هانيبال لإيطاليا عبر جبال الألب ووقوفه على أبواب روما. ولكن الرومان استماتوا في سبيل الدفاع عن مدينتهم. ولم تلبث حملة هانيبال أن باءت بالفشل فاغتنم الرومان هذه الفرصة وغزوا شمال إفريقيا بحملة يترأسها سكيبيو أفريكانس (Scipio

Africanus). وما إن نزل القائد على الشاطئ الأفريقي حتى تحالف مع مسينسا (Massinessa) أحد رؤساء القبائل الليبية الغربية. وانتصرت القوات المتحالفة على القرطاجيين انتصاراً حاسماً في موقعة زاما فلم يبق أمام قرطاجة إلا أن تفاوض الرومان المنتصرين لتنفذ نفسها.

وانتهت المفاوضات مؤكدة معنى القول التاريخي «الويل للمغلوب» فقد فرض الرومان المنتصرين شروطا تضمن لهم عدم انتعاش قرطاجة مرة أخرى. فرضوا عليها أن تتخلى عن أسبانيا، وان تدفع غرامة كبيرة وتخفض عدد سفن أسطولها إلى عشرة سفن فقط. ولكي يشل الرومان قرطاجة نهائيا، شجعوا مسينسا في أطماعه الإقليمية فاعترفوا به ملكا لمملكة نوميديا المستقلة (= الجزائر وبعض أجزاء تونس). ورغم أنهم سمحوا لقرطاجة بالاحتفاظ بمستوطناتها الفينيقية على الساحل الطرابلسي، ألا أنهم ضمنوا اتفاقية الصلح بينهم وبينها هذه الجملة المطاطة: «تشمل مملكة نوميديا كل المدن والمناطق التي سبق لمسينسا وأجداده إن ملكوها». وفي الوقت ذاته حظرت المعاهدة على قرطاجة شن أية حرب إلا بعد الاستئذان من روما.

ولم يكن مسينسا في حاجة لمزيد من التشجيع. فقد كان يتمتع بذكاء خارق وقوة جسمانية فائقة استخدمها إلى أقصى حد ممكن في سبيل تحقيق حلمه في إقامة مملكة ليبية موحدة. ونجح في تحويل عدد كبير من البدو الليبيين إلى مزارعين مستقرين وعمم بينهم استعمال الأدوات والطرق الزراعية الفينيقية فتمكن بذلك من إقامة مملكة ليبية امتدت حدودها أثناء حياته من شرقي المغرب الأقصى إلى غربي برقة. ولكن بقاء قرطاجة مستقلة رغم عجزها كان بمثابة شوكة في جانب مسينسا فبدأ يتعدى على المناطق التي ظلت تابعة لقرطاجة بموجب المعاهدة، وبدأت قرطاجة تشكوه إلى روما بعد كل عدوان. ولكن روما كانت في معظم هذه المناسبات تقرر في صالح مسينسا. وفي الستينات من القرن الثاني قبل الميلاد أحس مسينسا أن بوسعه ضم المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي إلى مملكته، فادعى انه يريد المرور بها لمطاردة ثائر هارب إلى منطقة برقة.

ولكن قرطاجة رفضت أن تسمح له بذلك فاعتبر هذه الرفض حجة تبرر إعلان الحرب وهاجم المستوطنات الفينيقية على ساحل منطقة طرابلس. ولكن قرطاجة استطاعت، رغم ضعفها، أن تدافع عن محمياتها وتصد غارة مسينسا. كما أنها استطاعت بعد احتجاجات كثيرة لدى مجلس الشيوخ الروماني أن تنجح في إقناع المجلس بإرسال لجنة تحقيق تنظر في المشكلة. وجاءت اللجنة ودرست الموقف ولكنها قررت في صالح مسينسا، فأصدرت روما، بناء على توصيات اللجنة، أمراً لقرطاجة بالتخلي عن المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي وتسليمها لمسينسا سنة 162 ق.م. وبدفع غرامة له قدرها خمسمائة (تالنت)، نظير احتفاظ قرطاجة فيما مضى بتلك المستوطنات بصفة غير شرعية.

وفي سنة 150 ق.م. استفز مسينسا قرطاجة حتى اضطرها لمهاجمته بجيش غير نظامي استطاع مسينسا أن يقضي عليه بسهولة. واستغلت روما فرصة نقض قرطاجة للمعاهدة بمهاجمة مسينسا دون إذن مسبق من روما فقامت القوات الرومانية بمهاجمة قرطاجة في حرب ثالثة جديدة هي الحرب البونيقية الثالثة التي استمرت ثلاث سنوات وانتهت سنة 136 ق.م. بمأساة زوال قرطاجة من عالم الوجود وتسويتها بالأرض. وحتى تحول روما دون استشراء خطر خليفة مسينسا فيما لو استولى على بقية الشمال الأفريقي، شكلت ولاية رومانية ما كان قد تبقى لقرطاجة من أملاك في تونس، وعينت الحدود بين هذه الولاية وبين مملكة نوميديا بحفر خندق متصل فيما بينها عرف باسم خندق سكيبيو (Fossa Scipionis) واتخذت مدينة يوتيكا (Utica) الحرة، الواقعة على بعد عشرين ميلا إلى الشمال من موقع قرطاجة، عاصمة لهذه الولاية.

أما نوميديا فإنها أصبحت في عهد مسينسا مملكة كبيرة يسكنها شعب البدو القساة المتأخرين باستثناء سكان المدن الثلاث في القسم الشرقي من نوميديا؛ فقد كانوا متأثرين بالحضارة الفينيقية. وكانت الزراعة قبل مسينسا موجودة على نطاق ضيق ولكن مسينسا شجع انتشارها وفرضها على البدو النوميدين بعد أن فرض عليهم الاستقرار، فبدأ

النوميديون يقتبسون الكثير من أساليب الزراعة وأدواتها عن الفينيقيين. وكانت اشهر مزروعاتهم القمح والشعير. ولكن معظمهم –حتى المناطق الصالحة للزراعة – ظلوا يفضلون العمل بالرعي وتربية الحيوانات التي كانوا ينزلون بها من السهول في الشتاء ويصعدون بها إلى الجبال والغابات في الصيف. وكانت اشهر تلك الحيوانات. الخيل والنعاج والماعز والبقر.

وكان النوميديون يعيشون في خيام من الجلد أو أكواخ من الصيد والعيدان. وكان الرحل منهم يقيمون أكواخهم في بعض الحالات على العربات إما المستقرين فكانوا يقيمون في أكواخ دائمة ثابتة أو في بيوت ذات زوايا أربع أو في كهوف طبيعية أو صناعية.

وكان السكان آنئذ. كما هم اليوم. أشداء أصحاء. محبين للحرب. يعيشون أساسا على الحليب والجبن ولحم الصيد والمنتوجات البرية المتنوعة ودقيق القمح والشعير وربما أيضا زيت الزيتون. وكانوا كذلك يأكلون الحلزون والجراد والعسل. أما الأبقار والأغنام فإنها كانت عماد ثروتهم فلم يكونوا يذبحونها ليأكلوها وإنما كانوا يقدمون التضحيات للآلهة فيأكلها المتعبدون. وربما كانوا أيضا يأكلون لحوم الكلاب. وكان فقراؤهم يلبسون الجلود بينما كان الأغنياء يرتدون الملابس الصوفية. وكان النوميديون يتحلون بالعقود والأساور والقلائد التي تشبه التي سابقاتها في عصر ما قبل التاريخ وكانوا يلبسون خواتم اليد وخواتم أصابع القدم. وحلق الأذن المصنوع من النحاس أو البرونز أو الحديد.وكانت أدواتهم المنزلية في الغالب أما من الخشب أو من الفخار البدائي الذي كان يصنع باليد ويشوى على نار مكشوفة. وكان لونه أما رماديا أو بنيا أو اسود ولم يكن من حيث الجودة والإتقان يختلف عن فخار العصر الحجري الحديث.

ويبدو أن معظم أدواتهم وأسلحتهم كانت من الحديد غير أننا نجد من الصعب علينا أن نقدر إلى أي مدى استمروا في استعمال الأدوات الحجرية. والأرجح أن شمال غربي أفريقيا لم يمر بعصر النحاس ولا بعصر البرونز. وربما كانت الأدوات القليلة التي وجدت هنا من هذين المعدنين من صناعة أجنبية مستوردة.

وكانت الحربة ذات الرأس الحديدي هي السلاح الرئيسي الذي يستعمله النوميدي في الحرب أو الصيد. وكان النوميدي يحمل حراب وخنجرا وترسا صغيرا مستديرا. ولم يكن يحمي رأسه أو جسمه أي نوع من الدروع أو الخوذات.

ونحن نعرف أن الفرسان النوميديين الذي خدموا القرطاجيين أولا ثم الرومان ثانيا كانوا مسلحين على النحو الذي ذكر.

وبعد وفاة مسينسا في السنة الأولى من الحرب البونيقية الثالثة (149 ق.م.) تلاه على عرش نوميديا ابنه ميسبسا (Micipsa) الذي تخلى عن سياسة أبيه التوسعية وتابع سياسة تشجيع الزراعة وتحويل البدو الليبيين إلى مزارعين مستقرين.

وفي عهده تمتعت المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي بقسط وافر من الحرية. فهي وان كانت قد استمرت تدفع للملك الجديد ما كانت اعتادت على دفعه من ضرائب لقرطاجة إلا أنها سمح لها الآن أن تحكم نفسها بنفسها وفقا لشرائعها وعاداتها الفينيقية. ويعزى سبب تساهل الملك النوميدي الجديد في معاملة المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي إلى بعدها عن سرتا (Cirta) (=قسنطينة).عاصمة مملكته. ولكن ربما كان ذلك التسامح سياسة متعمدة تهدف إلى ترك هذه المراكز الحضارية الفينيقية تعيش في سلام حتى تبقى بمثابة مراكز إشعاع حضاري فتستفيد هي ذاتها وتفيد البلاد بأسرها. والواقع أن اكبر فائدة حققها الحكم النوميدي لها هو انه مكنها من الخروج عن العزلة التي كانت قرطاجة تفرضها عليها إلى الاتصال بنوميديا وروما في وقت واحد. وجدير بالملاحظة أن هذه المرحلة هي مرحلة التوسع والتقدم الكبيرين اللذين أحرزتهما صبراتة لأول مرة في تاريخها نتيجة لرواج تجارتها مع إيطاليا وغيرها من بلدان البحر الأبيض المتوسط.

وفي سنة 118 ق.م. توفي الملك ميسبسا تاركا مملكته ليشترك في حكمها ابناه اذربال (Adherbal) وهيميسال (Hiempsal) وابن أخيه

يوغرتا (Jugurtha) ابن مانستبال. وكان يوغرثا هذا طموحا وقاسيا فبدأ حكمه بقتل هيمبسال وطرد اذربال الذي هرب إلى روما مستنجدا بها لتسوية الموقف. ولكن يوغرثا كان له أصدقاء متنفذون من الرومان في مجلس الشيوخ الروماني مما جعل ذلك المجلس يتخذ حلا وسطا قسمت مملكة نوميديا بموجبه إلى قسمين: شرقي ويشمل منطقة طرابلس لاذربال وغربي ليوغرثا. ولكن يوغرثا لم يلبث أن استأنف القتال ضد اذربال وحاصره. واكتفت روما في بداية الأزمة الجديدة بالاحتجاج الشفوي. ولكن عندما قتل اذربال وذبح عدد من أعوانه رجال الأعمال الرومان المقيمين في مملكته تحركت روما وبدأت الحرب بينها وبين يوغرثا. ولكنها كانت حربا قصيرة انتهت بخيانة صاحب موريتانيا _ وهو حمو يوغرثا _ لصهره وتسليمه لروما حيث شنق. وعينت روما بدلا منه أخا وديعا له من أبيه اسمه جودا (Gauda).

وفي غمرة هذه الأحداث كانت لبدة قد حققت أن مصلحتها تقضي بإقامة علاقات حسنة مع الرومان. ولذلك فقد اتصلت بهم وعرضت عليهم عقد معاهدة صداقة وتحالف بينها وبينهم فوافق الرومان على هذا الطلب فورا سنة 111 ق.م. واغلب الظن أن أويا وصبراتة سلكتا سلوكا مشابها في الوقت ذاته وفي سنة 106 ق.م. ناشدت لبدة روما أن ترسل لها حامية للدفاع عن المدينة ضد مؤامرة قيل أن شخصا معينا اسمه هملقار (Hamilcar) كان يعدها داخل المدينة مع عدد أخر من أنصار يوغرثا. واستجابت روما للنداء وأرسلت حرسا رومانيا تمركز في لبدة لأول مرة في تاريخ طرابلس. ولابد أن يكون هذا الحرس قد سحب بعد انتهاء الإضطرابات لأننا لا نسمع عنه شيئا بعد ذلك؛ أما معاهدة الصداقة والتحالف فقد بقيت قائمة. ويبدو أن المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي أصبحت منذ مطلع القرن الأول الميلادي تتمتع باستقلال اسمي تحت الحماية الرومانية؛ فنحن نسمع قبيل منتصف ذلك القرن عن نجاح لبدة في إقناع روما بالتدخل لدى الملك جوبا الأول (Juba I). ملك نوميديا. ليتنازل عن بعض أجزاء منطقة لبدة التي كان قد استولى عليها بطريقة غير شرعية.

ولما نشبت الحرب الأهلية الرومانية بين يوليس قيصر وبومبي سنة 49

ق.م. وقف الملك جوبا الأول بكل ثقله إلى جانب بومي وبادر بمحاربة القوات التي كان يوليس قيصر قد بعث بها ضد قوات لبومي كانت قد استولت على ولاية افريقية الرومانية. فهزمها وقتل قائدها. وراح هو وقائد قوات بومي يعززان وسائل دفاعهما بينما استولى بعض أنصاره على لبدة. ولكن الحال لم يطل بهم ففقد انهزم بومي أمام يوليس قيصر في معركة فرسالس (Pharsalus) سنة 48 ق.م. ففر إلى مصر حيث قتله أعوان بطليموس الثاني عشر في مدينة الإسكندرية. ومع نهاية سنة 47 ق.م. كان يوليس قيصر قد فرغ من إقرار الأمور المعلقة في الشرق فقدم إلى تونس في شهر أكتوبر - تشرين الأول من السنة نفسها حيث مكث بعد العدة ويتدبر الأمر حتى شهر ابريل - نيسان من السنة التالية عندما اشتبك مع قوات بومي المتحالفة مع الملك جوبا الأول وهزمهم جميعا في معركة ثابسوس (Thapsus) (=رأس الدماس بتونس) مما حمل القائدين الرومانيين وحليفهما الملك جوبا الأول على الانتحار فوقع الشمال الإفريقي بأسره في يد يوليس قيصر.

وقبل أن يعود يوليس قيصر إلى روما تريث بعض الوقت لتنظيم الأمور في الشمال الإفريقي. ولكي يكافئ الأصدقاء ويعاقب الأعداء الذين كانوا ضالعين مع خصمه بومي. فألغى مملكة نوميديا وضم معظم أراضيها إلى روما وسماها ولاية افريقية الجديدة (Africa Nova) وعين المؤرخ الروماني سلوست (Sallust) أول حاكم لها بينما أعاد تنظيم ولاية افريقية الرومانية التي كانت قد أقيمت على أملاك قرطاجة بتونس وسماها افريقية القديمة (Africa Vetus). أما لبدة التي كانت قد ضلعت مع الملك جوبا الأول ودخلت في حلف معه ومع أنصار بومي من الرومان؛ فان يوليس قيصر فرض عليها جزية سنوية عينية قدرها عشرة آلاف هكتولتر من زيت الزيتون أي ما يعادل ثلاثة ملايين جنيه ليبي.

وهنالك ما يحملنا على الظن أن أويا وصبراتة كانتا شريكتين للبدة في سلوكها وبالتالي في تسديد هذه الجزية السنوية الضخمة التي يصعب علينا أن نتصور أن مدينة واحدة مثل لبدة كانت قادرة على تسديدها

بمفردها.

وهكذا أصبحت المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي جزءا من الإمبراطورية الرومانية مثلها في ذلك مثل بقية الشمال الإفريقي بما فيه مصر. وبعد مقتل يوليس قيصر سنة 44 ق.م. سادت روما اضطرابات وخصومات بين أنطوني وأكتافيوس؛ وانتهت بانتصار الأخير في معركة اكتيوم (Actium) سنة 31 ق.م. ولم تسلم الولايات الرومانية بإفريقيا من لم الفوضى وتلك الضربات خلال الثلاث عشر سنة المذكورة (44 – 31 ق. م.)؛ فكثيرا ما سفكت الدماء وانتقلت السلطة من يد لأخرى. ولكن منطقة طرابلس لم تتورط في شيء من ذلك. لأنها على ما يبدو كانت قد تعلمت الدرس من تورطها في النزاع بين يوليس قيصر وبومي. وبانتصار أكتافيوس الذي أصبح يلقب أوغسطس بدأ عهد سلام طويل عم أرجاء الإمبراطورية الرومانية فاستقرت الأحوال، وتفرغ الناس للبناء والعمران والتمتع بثمار الاستقرار والازدهار.

الحدود الرومانية في منطقة طرابلس:

كان أوغسطس رجلا يعرف (كيف يسرع في تريث) ويعرف (كيف يتراجع دون أن يريق ماء وجهه)[2] . ولذلك فقد خلف لإمبراطوريته نظاما جيدا ظل فعالا بعد وفاته سنة 14 م. حتى نهاية السلالة السويرية الأفريقية سنة 235م. وعاشت بعض أثاره. من مثل مشاركة مجلس الشيوخ للإمبراطور في الحكم. حتى نهاية القرن الميلادي التاسع ولذلك فان أوغسطس. بعد أن استقر له الأمر. قام بدراسة أحوال الولايات المختلفة وتوصل سنة 27 ق.م. إلى اتفاقية مع مجلس الشيوخ الروماني وضعت بومجبها كافة الولايات التي قدر أنها تحتاج إلى حماية عسكرية تحت إشراف الإمبراطور مباشرة بينما وضعت تحت إشراف المجلس جميع الولايات التي قدر أنها لا تحتاج إلى دفاع عسكري. وهكذا أصبحت ولاية افريقية القديمة (تونس) المسالمة تابعة إداريا لمجلس الشيوخ الروماني. وتجدر الإشارة هنا إلى أن موقع قرطاجة نفسها ظل

2- توينبي، آرنولد، تاريخ الحضارة الهلينستية، ترجمة رمزي جرجس وصقر خفاجة، سلسلة الألف كتاب، مكتبة الأنجلو المصرية، 1963، ص 217.

مهجورا منذ أن دمرت سنة 146 ق.م. وصب مدمروها اللعنة على موقعها.

ولكن ما كان يتحلى به ذلك الموقع من ميزات وما كان له من تقاليد جذب الرومان إلى أن يتناسوا اللعنة التي صبت عليه فبدأوا يخططون لإقامة مستوطنة جديدة تحت ستار اسم هو جونونيا (Junonia). وفي سنة 122 ق.م. تولى المصلح السابق جايوس جراكوس (Gaius Gracchus) قيادة حشود من المستوطنين الرومان بنفسه وسار الجميع نحو موقع قرطاجة رغم ما ظهر لهم من إشارات كبيرة كانت بمثابة أمارات تدل على عدم موافقة الآلهة على تلك الخطوة. ويخبرنا بلوتارك (Plutarch) «إن العلم الذي كان في مقدمة الموكب تنازعته زوبعة طارئة ومزقته قطعا بالرغم من أن حامله تمسك به بكل قواه. وفي الوقت ذاته أزاحت الزوبعة كل الضحايا التي كانت على المذابح وعصفت بها إلى خارج العلامات التي كانت قد أقيمت على حدود موقع المدينة. وحتى تلك العلامات نفسها انقضت عليها الذئاب وحملتها بعيدا عن أماكنها». وأذن فلا غرابة إذا فشل المشروع فقد كان مشروع من نوعه يحتاج إلى وجود حكومة اصلب من الحكومة التي كانت الآلهة الرومانية والساسة الرومانيون قد أقاموها في روما. وعندها انتصر يوليس قيصر على خصومه سنة 46 ق.م. في معركة ثابسوس (Thapsus) في تونس أعيد تأسيس قرطاجة لان اللعنة التي كانت قد صبها عليها مدمروها أصبحت الآن في طي النسيان. وفي عهد أوغسطس الطويل الذي تميز بالحكمة والتعقل (27 ق.م. – 14 م.) انتعشت مدينة قرطاجة من جديد وعادت إلى منزلتها كواحد من المراكز التجارية والدينية في العالم المتحضر. أما ولاية افريقية الجديدة فقد ألغيت وأعاد أوغسطس محلها مملكة نوميديا وعين ملكا عليها هو جوبا الثاني بن جوبا الأول مكافأة له على ما كان قدمه لأوغسطس من خدمات أثناء النزاع بين الأخير و أنطوني.

وكان يوليس قيصر قد بعث بجوبا الثاني مع التوأمين شمس وقمر. ابني مارك أنطوني وكليوبترة. وعدد أخر من الرهائن إلى روما بعد معركة ثابسوس. ونشأ هؤلاء الثلاثة في روما كرومانيين ثم زوج أوغسطس جوبا الثاني من الأميرة قمر. وعاش العروسان في روما حتى ابتسم لهما الحظ ثانية على

يدي أوغسطس فانتقلا إلى مقرهما الملكي في مملكة نوميديا التي بعثت من جديد. ولكن أوغسطس لم يلبث أن أعاد النظر في هذا الأجراء فطلب إلى جوبا الثاني سنة 25 ق.م. أن يتخلى عن مملكته وان يأخذ بدلا منها مملكة موريتانيا (=المغرب الأقصى). ولبى الملك الطلب فانتقل مع زوجته واختارا مستوطنة «إيول» القرطاجية القديمة عاصمة لها وسمياها قيصرية[3].

والمعروف عن الملك جوبا الثاني أنه (كان أديبا دارسا نذر نفسه للفن والعلم... وكان يتقن الكتابة في كل من اللغات الفينيقية واللاتينية واليونانية كما انه كان مستغرقا في دراسة الجغرافيا وعلوم النبات والتاريخ والآثار واللغات وكان الدارسون والفنانون دائما موضع الترحيب والتكريم في بلاطه. وتجمع كل الروايات على انه كان ملكا سعيدا مسالما محبوبا للغاية. ويبدو مع ذل انه كان منقادا لزوجته (فهل كانت قمر جميلة جمال والدتها ؟ لم ننبأ بشيء من هذا). إذ يظهر انه كان هناك بعض الخلاف بين الزوجين الملكيين. كخلافهما على أي منهما كان دمه أنبل أو اشد زرقة من دم الآخر فهي سليلة الفراعنة. وهو سليل الملك مسينسا الذي قاد هجوما للفرسان وأنجب عدة أطفال وهو في سن الثمانين. ومن الثابت أن الملكة قمر فازت في هذا النزاع لأننا نجد الملك جوبا الثاني يحاول تزوير الجغرافيا يجعل أنهار مملكة موريتانيا روافد تغذي نهر النيل المصري. وذلك ضرب من الاحتيال يشبه ما فعله علماء الأنساب المختصون بالعائلة البريطانية المالكة إذ أعادوا نسب هذه العائلة إلى الملك داود! ولاشك أن «قمر» لم تنس مولدها ولا موطنها الأصلي. ولذلك أصرت على أن يقام معبد لايزيس ضم تمساحا مقدسا جيء به خاصة من النيل. كما أنها نفذت رغبتها هي في تسمية طفلها الأول فسمته «بطليموس». ولكن لا «ايزيس» ولا «التمساح المقدس» كانا قادرين على إنقاذ الأمير الإفريقي من جنون غضب «كاليغولا» الذي أرداه قتيلا في سجن روما المظلم[4].

وبمقتل الملك جوبا الثاني انتهى عهد الملوك الإفريقيين سنة 40 م. عندما

3- مكانها اليوم قرية لصيد السمك تسمى تشرتشل على بعد حوالي مائة ميل إلى الغرب من مدينة الجزائر.

4- ويللارد. جيمس. الصحراء الكبرى. الطبعة الأولى. بيروت. 1967. ص 90-93.

قرر الرومان أن أفريقيا غنية إلى حد لا يسمح بالاستمرار في إشراك الملوك المحليين في حكمها. وانه لابد من فتح الأراضي الإفريقية أمام الاستعمار الروماني. وكان أول واجب على الحكومة الرومانية هو أن تشيع الطمأنينة في تلك الأراضي لجعلها صالحة للاستثمار. وقد درج الاستعمار الروماني على هذا النهج منذ عهد أوغسطس واستمر كذلك في عهد خلفائه. ويظهر أن الرأسماليين الرومانيين حازوا قصب السبق في هذا المضمار فأنشأوا الضياع الكبيرة الواسعة (Latifundia) في طول الأرض الإفريقية وعرضها. وقد لاحظ بلايي أن تلك الضياع كانت المظهر الواضح في حياة افريقية الزراعية[5].

أما مصير الأرض النوميدية. ومنها منطقة طرابلس. بعد انتقال جوبا الثاني إلى موريتانيا فكان أن ألحقت بولاية افريقية القديمة التي أصبحت تعرف باسم افريقية فقط. وظلت هذه الولاية تابعة إداريا لمجلس الشيوخ الروماني الذي كان يعين بروقنصلا (Proconsula) لحكمها. ولكن ضم معظم الأراضي النوميدية إليها إلى على البروقنصل مسؤوليات جسيمة في حفظ الأمن على حدودها الواسعة التي صار يقيم ضمنها عدد غير قليل من القبائل النوميدية البدوية الشرسة مما حمل أوغسطس على الخروج عن العرف السائد وعن مبدئه القائل بعدم وضع قوات عسكرية تحت تصرف الحكام الذين كان يعينهم مجلس الشيوخ فوضع فرقة أوغستا الثالثة (Legio III Augusta) المشهورة تحت تصرف حاكم الولاية.

واتخذت هذه الفرقة منذ سنة 81 م. حتى تاريخ حلها مؤقتا سنة 238 م. مدينة لمبيزي (Lambaesis) في الجزائر مقرا لرئاستها كما أنها عادت لذلك المقر بعد أن أعيد تشكيلها سنة 253 م. وكانت إحدى فصائلها. أي ما يعادل عشرها تقريبا. تتمركز عادة في قرطاجة لتكون بمثابة حرس لحاكم ولاية افريقية. وكانت روما تعزز تلك الفصيلة بفصيلة مدنية مكونة من ألف رجل غايتها القيام بإعمال الشرطة. وكانت الفرقة الرومانية

5- رستوفتزف. م. . تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي. ترجمة زكي علي ومحمد سليم سالم. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. ص 389.

تتألف إسميا من حوالي (5600) رجل روماني يضاف إليهم مثل عددهم من رجال القوات المساعدة من المرتبة الثانية. وكانت فرقة أوغستا الثالثة هذه كافية للشمال الإفريقي بأسره ابتداء من حدود مصر في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب يساعدها في ذلك عدد من الكتائب المساعدة التي كان بينها كتيبتان من أصل بريطاني: إحداها من الفرسان والثانية من المشاة. وعدد آخر من القوات المحلية غير النظامية لهذه الوحدات النظامية كان هنالك الجنود المتقاعدون الذين نشأت عنهم نواة سكان المزارع المحصنة والمستوطنات الزراعية. ويقدر أن القوات المسلحة في هذه المساحة الواسعة من الشمال الإفريقي لم تزد عن سبعة وعشرين ألف مقاتل باستثناء الجنود المتقاعدين العاملين في المزارع المحصنة. وباستثناء الفصائل التي كانت تعزز حراسة الحصون والمعاقل العسكرية في المرتفعات الداخلية المطلة على الصحراء.

ونشطت هذه الفرقة منذ قدومها فعينت حدود الولاية مؤقتا بحفر خندق حولها وأقامت لجنودها معسكرات في المواقع الاستراتيجية. وبدأ مهندسوها ببناء شبكة من الطرق والحصون. وكان على هذه الفرقة المؤلفة من حوالي اثني عشر ألف جندي روماني وحوالي خمسة ألف جندي إضافي من القوات المساعدة أن تحكم منطقة تزيد مساحتها عن مليون ونصف مليون ميل مربع لمدة قرنين ونصف قرن من الزمن قامت خلالها بدور الجندي والشرطي والمهندس والعامل؛ حتى إن قصة الشمال الإفريقي في عصرها إنما هي قصة هذه الفرقة نفسها. يقول جيمس ويللارد في حديثه عن الفرقة[6]:

«كانت الفرقة الرومانية عالما صغيرا كاملا قائما بحد ذاته. بعقلية تعاونية وروحية تعاونية بالفعل. فالجندي من بداية مدة الخدمة إلى أخرها (وهي 25سنة) لم يكن عرف عالما غير عالم المعسكر. إذ لم يكن له منزل ولا زوجة ولا عائلة. وليس في التاريخ وحدة عسكرية نظمت مثل هذا التنظيم الفعال لأداء واجباتها. فقد كانت الفرقة في الواقع معصومة عن الخطاء تقريبا عصمة الآلة. ونادرا ما نجد أعضاءها يتصرفون غير تصرف الدواليب

6- ويللارد، جيمس، الصحراء الكبرى، الطبعة الأولى، بيروت، 1967، ص 95-108.

وأسنان الدواليب المتشابكة بإحكام في آلة كبيرة من آلات الحرب. حتى إذا ثاروا على النظام كان عقابهم كما سنرى فيما بعد وحشيا».

والجيش الروماني الذي كان أقوى تنظيم عسكري ابتدعته البشرية في تاريخها القديم كانت قوامه الفرقة. وكانت مهمة القتال للفرقة شأنا عرضيا فقط. أما في وقت السلم فان هذا الجيش كان مؤسسة أغنى عنها بما كان يضم من مهندسين وبنائين ومعماريين وقائمين بمهمات التمدين والتحضير. وكان الانخراط في سلك ففرقة أوغستا الثالثة مقصورا على الرومانيين في بداية الأمر ثم فتح المجال أمام أبناء البلاد الأصليين للانخراط في سلكها. وكان عضو الفرقة بغض النظر عن جنسيته ينذر نفسه لوحدته كما ينذر الراهب نفسه للسلك الذي يختاره. وكان لكل فرقة مستشفى بهيئة طبية فيها الجراحون وأطباء الأسنان وأطباء العيون.

وإذا ما قومنا جهود الجيش الروماني في تمدين مناطق الإمبراطورية المختلفة فانا سنجد أن أفريقيا كانت الميدان الذي قام فيه هذا الجيش بأعظم إنجازاته. فقد نجح في تحويل منطقة من أكثر المناطق تأخرا إلى ولاية من أكثر ولايات الإمبراطورية تمدنا وغنى وازدهارا – ولاية أخذت تخرج الجنود والأباطرة والقديسين والفلاسفة والكتاب إلى أن دمرتها الحروب وردتها إلى حالتها الأولى. وكل تحولات أفريقيا هذه، من أرض (سكان الكهوف الذين ينعقون كالخفافيش) وأرض العشائر الذين كان طعامهم الرئيسي الجراد المجفف المسحوق، إلى أرض المدن والقرى والمزارع الرائعة – كل هذه التحولات كانت من صنع فرقة أوغستا الثالثة فهذه العصبة الصادقة من الجنود لم تحمل فقط القانون والنظام إلى المناطق الآهلة في الشمال الإفريقي بل غزت الصحراء وردت حدودها إلى الوراء حتى تخوم لم تبلغها من قبل ولا من بعد.

هذه الفرقة الجبارة لم يطل بها الانتظار بعد دخولها الأراضي الأفريقية لكي تمارس فنها العسكري؛ فقد سجلت أول انتصار لها سنة 21 ق.م. وفي السنة التالية كان عليها أن تخوض حربا بدأت بين القبائل الموريتانية وامتدت على طول حدود ولاية افريقية. وتحركت الفرقة برئاسة قائدها كرنيليوس بلبوس (Cornelius Balbus) إما من أويا أو من صبراتة وتوجهت إلى

فـزان عن طريـق غدامس – عبر جبـال الحمادة الحمـراء - إلـى إدري في وادي الشاطئ – عبر كثبان أباري إلى جرما. وقد نجحت هذه الحملة في هذه الحملة في الاسـتيلاء على غدامـس وفي مفاجأة جرما ودخولهـا وتخريب زنككرا[7]. وتبـدو لنا هـذه الحملة الرومانيـة ناجحة نجاحا مؤقتـا إذا اعتبرنا أنها كانت تهـدف للردع فقط. كما تبدو فاشـلة إذا اعتبرنا أنهـا كانت تهدف لإخضاع الجرامنتيـين وفتح بلادهم لأننا لا نلبث أن نسـمع عن حملة أخرى قامت بها الفرقة ضد الجرامنتيين سنة 15 ق.م.

وبعد موت نيرون سـنة 68 م. قاسـت الإمبراطورية الرومانية سنة حرب أهلية تتابع خلالها أربعة من الأباطرة على عرش الإمبراطورية وتورطت قيادة فرقة أوغسـتا الثالثة في الميـل مع هذا الإمبراطـور أو ذاك مما صرفها مؤقتا عن الاعتناء بشـؤون أفريقيا المحلية. فاغتنمت كل من لبدة وأويا تلك الفرصة لتسـوية خلاف على الحدود بينهما بالقوة فاشـتبكت قواتهما وتطور النزاع إلـى حرب كبيرة أجج نيرانها مـا كان بينهما من تنافس تجاري. ورأت أويا أنها لم تكـن كفوا لقوات لبـدة فاسـتعانت بالجرامنتيين الأشـداء. وقدم هؤلاء فحاصـروا لبدة وخربوا ودمروا كل منطقتها مما خارج أسـوارها. وتحركت روما فأرسلت قوة بقيادة فاليريوس فسـتوس (Valerius Festus) أنقذت لبدة وسـوت الخلاف بينها وبين أويا وطـاردت الجرامنتيين ودخلت فـزان في الأرجح عـن طريق بوخيم –هون[8]. ويبدو أن حملة فسـتوس هـذه نجحت في تحقيق أغراضها فنحن نسـمع بعدها بقليل عن اسـتخدام الرومان لفزان كقاعدة لحملتين بعيدتي المدى إلى دواخل القارة الأفريقية:

1- الحملة الأولـى قامت في عهد الإمبراطـور دوميتيان ((Domitian 81)-96 م) بقيـادة سـويليوس فلاكـوس (Suellius Flaccus) قائد عام فرقة أوغسـتا الثالثـة الذي توغل جنوبا عبر الصحراء الليبية لمسـيرة ثلاثة اشهر حتى وصل إلى بلاد من أسماهم «بالاثيوبيين» قاصدا بهم أبناء أفريقيا السوداء.

7- احتفل بلبوس بما احرزه من نصر في هذه الحملة بعد عودته في 27 مارس سنة 19 ق.م.
8- كانت هذه الحملة في بداية عهد الإمبراطور فسبسيان (69-79 م).

2- والحملة الثانية بقيادة يوليس متيرنس (Juliuss Maternus) أحد أبنـاء لبـدة. الذي سـار بقواته من لبدة حتـى بلغ جرما وقـام بصحبة ملك الجرامنتيـين بغـارة على الإثيوبيين لجلـب العبيد. وبعد أن سـارا طيلة أربعة اشـهر إلى الجنـوب وصلا إلـى منطقة (إثيوبية) أسـمياها «أجسـيمبا» (Agysimba) حيث «يتجمع العديد من وحيد القرن». ولاشك أن مترينس كان يهدف من القيام بهذه الحملة إلى التعرف عن كثب على طرق القوافل.

ويقول جيمس ويللارد في الحديث عن هذه الحملة:

«لقد انطلـق القائد الروماني من «جرما»، عاصمة الجرامنتيين القديمة، علـى بعد خمسـمائة ميل جنوبي مدينة طرابلس، ثم سـار بعد ذلك جنوبا مدة مائة وعشـرين يوما. وقد روى لنا أن الطوابير الرومانية قطعت مسـافة خمسـمائة ميل مـن طرابلس إلى «جرما» في عشـرين يومـا. وكان معدل سـيرها إذن خمسـة وعشـرين ميلا في اليوم، وهـو المعدل المألـوف للفرقة الرومانيـة حين تجد السـير. ولا يمكننا أن نتوقع محافظـة طابور «متيرنس» علـى هذه السـرعة عبر منطقة «آيير» [في النيجر] الجبليـة. ولكن لدينا قاعدة للمقارنة في الأوقات التي قضاها المسافرون الآخرون في اجتياز الطريق نفسـها وأول الأوروبيين الذين رحلوا بعـد «متيرنس» جنوبا من «جرما» هما الميجر «دنهام» والكابتن «كلابرتون» اللذان قطعا الألف ميل إلى بحيرة تشاد فـي ثمانية وسـتين يوما في رحلة الذهاب، وفي واحد وسـتين يوما في رحلة الإياب. وإذن فان دنهام وكلابرتون كانا يسـيران بسرعة معدلها أكثر قليلا من خمسة وعشـرين ميلا في اليوم، مما يعتبر سـيرا طبيعيا في الصحراء. فإذا اسـتطعنا أن نفترض أن رجال الدورية الرومانية كانوا يسيرون بمعدل خمسة وعشـرين ميلا في اليـوم (ولم يكن لهم عذر في التلكـؤ على الطريق نظرا للخلاء الذي يجتازونه) فإن مجموع ما ساروا يبلغ ألفا وثمانمائة ميل مما يمكن أن يكـون قـد بلغ بهم حتى نهـر الكنغو. ولكن هذا يصعـب تصديقه. فإذا سـمحنا لهذا الطابور ببعض أوقات الراحة والاستكشاف والتواءات الطريق أمكنه بسـهولة أن يصل إلى بحيرة تشـاد سـالكا طريق القوافل القديمة: مـرزق – مدامـه – بلمه – أغـادم، وهي كما يقول النص مسـافة تزيد قليلا

عــن ألــف ميل باتجاه الجنــوب. وهناك احتمال آخــر إذا كانوا قد ســاروا باتجاه الجنــوب الغربي ســالكين طريق غات –الهجار- أدرار. وهي مســافة تبلغ نحو ألف وثلاثمائة ميل. فعندئذ يمكن أن يكونوا قد بلغوا نهر النيجر في «بورم». أما الطريق الأولى فهي التي ســلكتها بعثة اودنــي – كلابرتون – دنهام عام 1822 م. وأما الطريق الثانية فهي تقريبا ســلكها الميجر لينغ عام 1826م. والحقيقــة المهمة التي يجب ألا يغفل ذكرها فــي تقرير من هذا النوع هي أن وحيد القرن لم يكن كثير العدد في شــمالي أفريقيا الوســطى. فلابد إذن أن يكون «يوليس متيرنس» قد اجتاز الصحراء الكبرى.

وإذا لــم يكن الأمــر كذلك فان الغمــوض يمكن أن يكتنف ســير الرحلة. ويمكن أن يكون سير الأشهر الأربعة «رحلة دائرية». وأكثر الشراح يرفضون أن يكون الرومان قد ذهبوا إلى ابعد من بحيرة تشــاد على الرغم من أن المرء حين يتذكر كيف كانوا يسيرون خلال المستنقعات والأراضي السبخة والغابات في أوروبا الشــمالية ينتفي لديه كل سبب يحمله على القليل من بعد المسافة التي كان بمقدورهم أن يقطعوها في أفريقيا»[9].

وبالإضافــة إلى هاتين الحملتين نســمع بــين ســنتي 85 و86 م.عن قيام سويليوس فلاكوس. الذي سبق ذكره. بحملة ضد الناساموسيين إلى الشرق مــن منطقة طرابلــس. وكان هؤلاء قد ثــاروا على جباة الضرائــب الرومانيين وقتلوا بعضهم. وفي بداية الاشــتباك هزم الناموســيون فلاكوس وجيشــه واحتلوا معسكره. ولكن دخولهم المعســكر الروماني بدلا من متابعة فلول الرومان أدى في النهاية إلى هزيمتهم. وذلك أنهم وجدوا في المعسكر المأكولات والخمور فأكلوا حتى شــبعوا وشربوا وسكروا. وفي هذه الغفلة كان فلاكوس قد تمكن من لم شــتات قواته فأعاد الكرة على الناموســيين واعمل السيف في رقابهم حتى لم ينج منهم إلا عدد قليل لاذوا بالفرار إلى الصحراء. وعلى اثــر هذا الانتصــار قدم الإمبراطــور دوميتيان تقريرا لمجلس الشــيوخ الروماني تباهى به بقوله: (أن الناموسيين اختفوا عن مسرح الوجود).

وكان القرن الميلادي الثاني قرن ســلم لمنطقــة طرابلس كما كان لغيرها

9- المرجع السابق. ص 73-75.

مــن أنحاء الإمبراطورية بشــكل عــام. ولكن غيــوم الحرب بــدأت تتلبد قرب نهايتــه؛ فقــد قــام لفيف من أبنــاء القبائــل الليبية بهجوم على ســواحل منطقة طرابلس في عهد الإمبراطور ســيبتيموس سويروس (Septimius Severus). ابن لبدة (-193 211 م)؛ ولكن هذا الإمبراطور سحق المغيرين بحملة ربما كان قد تولى قيادتها بنفســه عند زيارته لمســقط رأسه (203-204 م). واغتنــم الإمبراطــور فرصة وجــوده في لبدة فبدأ بإعــادة. تنظيم وســائل دفاع الحدود. وواصل خطته هذه من بعده ابنه كراكلا ((Caracalla 211)-217 م). ثم حفيده اســكندر ســويرس (Alexander Severus 222) (-235 م). وتشــكل هذه الخطوة من جانب أباطرة الأســرة السويرية الإفريقيــة نقطة تحول في السياســة الرومانية الخاصــة بالدفاع عن الحدود. فحتــى هــذا الوقت. أي طيلة الاقرنــين الأول والثاني من الحكــم الروماني في افريقية. كانت سياســة الرومان الدفاعية تقوم علــى مبدأ الإغارة بقواتهم الخفيفــة الحركة على مصادر الخطر. والقضاء عليها. ثم العودة إلى القاعدة. أما التنظيم الســويري الجديد فقد اعتمد على إنشاء نظام دفاع ثابت العمق فأصبحت الحدود الرومانية في جنوب طرابلس تتكون من ثلاثة أحزمة عميقة متميزة عن بعضها البعض:

1- الحزام الأول: وكان أكثر هذه الأحزمة الثلاثة تعمقا نحو الجنوب. ويقدر إن حــدوده كانت تنتهي بخــط يصل بين قلعة «بوجُيــم» وقلعة «الغربية» و«ســيدامي» «= غدامس». وهي قلاع ثــلاث أقيمت على خطوط المواصلات الثلاثــة التي كانت تربط الدواخل بالســاحل. وقام ببناء هــذه القلاع الثلاث جنود ومهندســون من فرقة أوغســتا الثالثة فبنوا قلعة «بوجُيم» في عهد ســيبتيموس ســويرس. وقلعة غدامس في أيام كراكلا وقلعة «الغربية» في عهد اسكندر سويرس.

2- الحزام الثاني: وقد أقيم في عهد اسكندر سويرس للدفاع عن الحدود. وكان يمتــد خلــف الحزام الأول من جهة الشــمال. ولم يكن ســوى سلســلة من المســتوطنات تنتشــر فــي حوضي وادي ســوف الجــين ووادي زمــزم. ولم يكن ســكانها ســوى قدماء المحاربين الليبيين الذي انهــوا خدمتهم في فرقة

أوغستا الثالثة فمنحوا، مكافأة لهم على خدماتهم قطعة ارض معفاة من الضرائب، وإعداد من العبيد والماشية، لقاء تعهدهم بالدفاع عن منطقة سكنهم، وصد غارات القبائل البربرية عنها. وتعتبر أثار المزارع المحصنة التي كان هؤلاء المتقاعدون يعيشون فيها وما تركوه فيها من نصب تخليدا لذرى موتاهم، من أهم المخلفات الأثرية في ليبيا.

وكان هذا الحزام يمتد ما بين شط الجريد في تونس وسبخة تاورغاء على خليج سرت الكبير، وهو أهم أجزاء خطوط الدفاع الرومانية في منطقة طرابلس من الوجهتين الجغرافية والتاريخية لأنه كان خط دفاع خلفي عن المدن الساحلية المزدهرة: صبراتة وأويا ولبدة، في وجه القبائل الليبية النوميدية التي كانت تسكن الدواخل، لأنه في الوقت ذاته وفر الحماية لأهم منطقة زراعية هي منطقة مزارع الزيتون في الجبل الغربي.

والواقع إن أصل خط الدفاع هذا ما زال يحف به الغموض؛ فالمصادر المكتوبة لا تعطي معلومات قاطعة عن بداية تأسيسه كجهاز دفاعي، والآثار لم تعط مزيدا من المعلومات بهذا الصدد عن فترة القرنين الأول والثاني للميلاد.

ونظرا لقلة البيانات بالنسبة لهذا الخط العسكري من ناحية ولتزايدها نسبيا في عهد سيبتيموس سويرس من الناحية الأخرى فانا نجد ما يبرر اعتبار هذا الإمبراطور مؤسسا لذلك الخط الدفاعي، وربما كان السبب الذي حمله على ذلك هو أن تهديد قبائل الدواخل أصبح أمرا وشيك الوقوع[10].

3- الحزام الدفاعي الثالث: وكان عبارة عن طريق استراتيجي يسير على طول حافة الجبل الغربي مبتدئا من لبدة حتى ينتهي في قابس بتونس مارا إلى الشمال من هضبة غريان وهضبة ترهونة الخصبة. وليس هنالك ما يدل على أن هذا الطريق كان معززا بحصون أو قلاع، إنما كان فقط مجرد خط مواصلات خلفي يتمم نظام الدفاع المذكور الذي اعتمد العمق ونقاط الدفاع

10- The Journal of Roman Studies, Vol.: XXXIX, 1949, Parts I & II, pp 8185-, an article under the title "The Limes Tripolitanus in the Light of recent discoveries, by R.G. Goodchild & J.B. Ward Perkins.

الثابتة أساسا له.

وبالرغم من وفاء سيبتيموس سويرس للمنطقة التي ولد فيها فان نظام الدفاع السويري السابق الذكر أدى في النهاية إلى إضعاف السلطة الرومانية في هذه المنطقة لأنه نمى روح الاستقلال الوطني لدى أصحاب المزارع المحصنة في الحزام الثاني وهم كما سبق أن لاحظنا من الليبيين المتقاعدين من الخدمة العسكرية. وقد أدت طبيعة عملهم الدفاعي إلى اعتمادهم على أنفسهم في كل شيء مما جعلهم ينزعون إلى الاستقلال عن السلطة الرومانية ويميلون فيما بعد إلى التفاهم وربما التعاون مع أبناء جلدتهم من القبائل الليبية[11].

وقبيل منتصف القرن الميلادي الثالث، أي في حمأة الفوضى العسكرية والحروب الأهلية التي غرقت فيه الإمبراطورية الرومانية بين سنة 235 م وسنة 285 م[12]، أي منذ نهاية الأسرة السويرية حتى تولي ديوقلتيانس عرش الإمبراطورية، سحبت فرقة أوغستا الثالثة من منطقة طرابلس نهائيا وطور نظام الدفاع عن المنطقة بإتباع النظام المركزي؛فقسمت المنطقة إلى مناطق دفاعية متعددة وأنيط أمر الدفاع عن كل منها بقوة محلية مقيمة فيها مع قائدها. ومن أمثلة مناطق الدفاع المذكور تلك البناية الصغيرة الحصينة في سانية ذويب بأعلى وادي سوف الجين حيث لا نزال نشاهد نصا منقوشا على البناية يقول أنها أقيمت في عهد الإمبراطور الروماني فيليب العربي الحوراني (244-289 م) لصد غارات البربر. ومنذ ذلك الحين استقر نظام الدفاع الروماني في منطقة طرابلس على هذا الحال حتى نهاية العهد الروماني، مع احتلال الوندال للساحل الطرابلسي سنة 445 م. انتهى هذا النظام الدفاعي، وليس هنالك ما يدل على إحياء البيزنطيين له.

11- Mathews, Kenneth D. Jr., and Cook, Alfred W. Cities in the Sand, Philadelphia, University of Pennsylvania Press, U.S.A., 1957, P. 25.

12- دفعت الولايات الرومانية ثمناً غالياً للحروب الرومانية الأهلية فمع أنها، باستثناء المواطنين الرومان الأحرار المقيمين بها، لم تشترك بنصيب فعال في تلك الحروب إلا أن الغرم الحقيقي وقع عليها إذ كان عليها أن تتحمل المصروفات الباهضة التي تطلبتها تلك الحروب.

عناصر ولغة السكان في منطقة طرابلس:

يبدو أن سكان الولايات الرومانية في افريقية كانوا قد ازدادوا بشكل ملحوظ خلال القرن الميلادي الثاني مما برر تقدير معدلهم بين 98 م و 244 م بما لا يقل عن ثمانية ملايين نسمة.

أما العناصر الرئيسية التي كانت تؤلف سكان منطقة طرابلس في العصر الروماني فهي العنصر الليبي البربري الذي سبق أن تعرضنا لذكر قبائله، والعنصر الفينيقي الذي كان مستقرا في المستوطنات الفينيقية على الساحل، والعنصر الروماني الذي كان كانت بيده السلطة. ويضاف إلى هذه العناصر الثلاثة التي كانت تشكل أغلبية السكان عنصران آخران يحتلان نسبة قليلة من مجموع السكان هما العنصر اليهودي والعنصر الإغريقي. ولقد سبقت الإشارة إلى أن علاقة الفينيقيين بالليبيين كانت علاقة اقتصادية أكثر منها سياسية ولذلك فان الفينيقيين – بعكس الإغريق في برقة- أفادوا الليبيين الكثير وعلموهم الكثير من المجالات العمرانية والاقتصادية خاصة ما كان يتعلق بالتجارة وبالبناء وبالزراعة[13]. وإذا ما تذكرنا التنافس والنزاع الذي تميزت به علاقة الفينيقيين والإغريق أمكننا أن نقرر باطمئنان أن الفينيقيين لم يسمحوا للعنصر الإغريقي بالدخول إلى منطقة طرابلس والاستقرار فيها. وعلى هذا الأساس فان الإغريق إنما قدموا إلى هذه المنطقة كأفراد وبإعداد قليلة للغاية في ظل العلم الروماني.

أما العنصر اليهودي فان مصادرنا لا تكاد تسعفنا بشيء يذكر عنه؛ فهيرودوتس لا يذكر اليهود عندما يعدد عناصر السكان في ليبيا وهذا يعني أنهم لم يكونوا قد دخلوها حتى وقته (القرن الخامس ق.م.). ولكن إذا تذكرنا العلاقات الطيبة التي كانت سائدة بين اليهود في فلسطين والفينيقيين في

13- صفر، أحمد، مدنية المغرب العربي في التاريخ، ج 1، دار النشر – بو سلامة – تونس، ص 145-165. انظر أيضاً:
Papers of the British School at Rome, Vol. XXXI, London, 1963, an article under the title "Wealth and Munificence in Roman Africa", by R.P. Duncan – Jones.

فينيقية خاصة أيام الملك سليمان وصديقه حيرام ملك صور، و افترضنا أن تلك العلاقة الودية ظلت قائمة بين الشعبين بشكل أو بأخر فانه لا يمكننا إلا أن نستنتج أن بعض اليهود رافقوا الفينيقيين في قدومهم إلى الشمال الإفريقي بصفة عامة وإلى منطقة طرابلس بصفة خاصة. وعلى هذا الأساس فلابد أن اليهود بدأوا يفدون إلى المستوطنات الفينيقية في منطقة طرابلس بعد القرن الرابع قبل الميلاد لكي يشتغلوا في التجارة والأعمال المالية المتعلقة بها أو في الصناعات اليدوية الأخرى أو في الزراعة. وفي هذا الصدد يحدثنا الأستاذ احمد صفر بقوله: «إن اليهود كانوا بدون شك رافقوا الفينيقيين في سفراتهم إلى الموانى والمصارف التجارية بافريقية، وان تشتت يهود فلسطين من أيام القدس [الآشوريين والبابليين] جلب إلى افريقية وإلى العالم الروماني بأسره عددا كبيرا من المهاجرين، وقد وقع تقدير عدد اليهود المبددين في العالم في القرن الأول من الميلاد بما يفوق ستة أو سبعة ملايين، منهم مليون بمصر، وكان عددهم مرتفعا أيضا بطرابلس، وكانوا يعيشون أحرارا طبق عوائدهم وتقاليدهم وقوانينهم، ويقومون بدعاية كبيرة تحت ظل بيعتهم، وكان التبشير ضاربا أطنابه والوثنيون يعتنقون دين اليهود بكثرة، ثم انتشرت الديانة اليهودية في بعض القبائل بالجنوب الغربي من البلاد التونسية[14] « ويقول أنطونيو مريغي في هذا الصدد أيضاً[15]: «إن ما نعرفه عن انتشار العنصر اليهودي في منطقة طرابلس قليل جدا، ولاشك أن بعض اليهود قدموا مع الفينيقيين واشتغلوا بالتجارة في المراكز التجارية الفينيقية في طرابلس ولكنهم إنما انتشروا في الأقسام الغربية من أفريقيا في أعقاب هجرتهم إلى برقة مما أدى إلى ازدياد عددهم في طرابلس في ظل الرومان حتى صار لهم في كل من المدن الثلاث جالية مزدهرة كما أن بعض جالياتهم الصغيرة وجدت مراكز صغيرة في بعض الأماكن البعيدة حول خليج سرت الكبير».

14- صفر، أحمد، مدنية المغرب العربي في التاريخ، ج 1، دار النشر – بو سلامة – تونس، ص 361-362.

15- Merighi, Antonio, Storia Della Libya – La Tripolitania Antica, Volume Second, A. Airoldi Editore Verbania, MCMXL – XVIII, PP 33- 34.

ويقول أنطونيو ميرغي في موضع آخر من كتابه: «وفي القرن الميلاد الرابع كان كثير من اليهود في أفريقيا الوسطي، يشهد بذلك وجود كنس لهم في مدنها المختلفة»[16].

ويقول بروكوبيس في حديثه عن مدينة بوريوم الواقعة على خليج سرت: «وقد عاش اليهود بالقرب منها منذ الأزمنة القديمة، وكان لهم معبد عتيق هناك أيضا يوقرونه ويكرمونه، منذ أن بناه سليمان - كما يقولون - حين كان يحكم الشعب العبري»[17].

وإذن فان اليهود كونوا في طرابلس ابتداء من أواخر القرن الرابع قبل الميلاد جاليات يهودية صغيرة نظمت شؤونها وحياتها وفقا لشرائعها وتقاليدها كما سنبينه عند الحديث عن اليهود في برقة. ويجدر بنا أن نلاحظ أن مقدمهم إلى إقليم طرابلس منذ أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الثالث قبل الميلاد يصادف فترة مقدمهم إلى برقة وبد العهد البطلمي في مصر، ويصادف كذلك مرحلة الصراع بين البطالمة والسلوقيين على فلسطين وما تلا ذلك من محاولة السلوقيين فرض الهلّنة على اليهود مما جعل بعضهم يفرون بحياتهم وأموالهم بمساعدة أصدقائهم الفينيقيين إلى الأماكن البعيدة عن الخطر فجاءوا إلى منطقة طرابلس وغيرها من أرجاء الشمال الإفريقي. ونحن لا نشك في أعداد أخرى منهم ظلت تتوافر على منطقة طرابلس في العصور اللاحقة وخاصة في أوقات المحن التي كانوا يتعرضون لها نتيجة لتصلبهم وثوراتهم؛ فقد ثاروا في فلسطين وفي برقة سنة 70 م. وبطش بهم الرومان وشتتوهم لكي يضمنوا عدم تكرار ثورتهم، وثاروا ثانية في برقة سنة 115 م. وفي مصر وقبرص وإنطاكية ومسوبوتاميا بالعراق فجلبوا على أنفسهم هذه المرة ما جلبوه عليها في الثورة السابقة، ثم ثاروا ثورتهم الثالثة والأخيرة على الحكم الروماني في فلسطين سنة 132-135 م. فكانت النتيجة وبالا عليهم فقد شتتهم الرومان في أراضي الإمبراطورية الرومانية في القارات الثلاث آسيا وإفريقيا وأوروبا.

16- Ibidem, p. 268.

17- خشيم، علي فهمي، نصوص ليبية، مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى، 1967، ص 218.

ومن الواضح على ضوء ما تقدم أن الجاليات اليهودية في منطقة طرابلس بدأت صغيرة ثم أخذت أعدادها تتزايد تدريجيا بانضمام قادمين جدد إليها، وأنها كانت تتمتع بحريتها الدينية، بالإمتيازات التي استطاعت الأقلية اليهودية أن تحوزها لنفسها دون غيرها من الأقليات في العصور والمجتمعات القديمة المختلفة. وإذا قدرنا أن الجاليات اليهودية في منطقة طرابلس عاشت بسلام طيلة عهد الفينيقيين الذين كانت تربطهم باليهود أواصر صداقة تقليدية قديمة، فان ما يدعو للتساؤل حقا هو سكوت مصادرنا عن رد الفعل الذي كان لابد أن تحدثه ثورات اليهود المتعاقبة في الشرق، وخاصة ثورة يهود برقة سنة 115 ق.م.، بين يهود طرابلس، وهو سكوت إن جاز يفسر بالرغبة في المحافظة على الهدوء والسلام في أية مناسبة أخرى فلا يجوز أن يفسر بذلك في هذه المناسبة؛ إذ كيف نفسر عدم ثورة اليهود في طرابلس على الرومان في وقت ثار فيه أبناء جلدتهم في قورينة ومصر وقبرص وأنطاكية ومسوبوتاميا ؟ إن المصادر المتوافرة لدينا لا تلقي أي ضوء على هذه النقطة؛ وربما لا تجافي الحقيقة إذا افترضنا أن الجاليات اليهودية في طرابلس لم تكن كبيرة؛وان أغلبية يهود منطقة طرابلس كانوا من غير المتعصبين لدينهم من ناحية، وكانوا مرتبطين بيهود الغرب (خاصة إيطاليا وأسبانيا) أكثر من ارتباطهم بيهود الشرق من الناحية الأخرى، وكانوا من العاملين في التجارة والحقول المالية من الناحية الثالثة؛فإذا صح ذلك فانه يفسر عدم قيامهم بثورات من أجل المحافظة على أموالهم ومصالحهم ولأنهم بعيدون عن يهود الشرق ولذلك فهم غير متأثرين كثيرا بهم.

أما بالنسبة للغة فان اللغة البونيقية أي الفينيقية الحديثة كانت سائدة دون شك في مدن الساحل الطرابلسي والمناطق القريبة منها خلال الوجود الفينيقي، وربما ظلت كذلك حتى أوائل القرن الميلادي الثاني. ولاشك كذلك أن اللغة البربرية ظلت سائدة بين القبائل الليبية البربرية التي كانت تنتشر في الأجزاء الداخلية من البلاد. ومع بدء العصر الروماني صارت اللغة اللاتينية تنمو تدريجيا في المنطقة. ومن المؤكد أن اللغة البونيقية تلاشت وانتهى أمرها، كلغة محكية على الأقل، مع مطلع القرن الميلادي

الثاني. ولعل آخر استعمال لها هو ما نجده في نقش من لبدة مؤرخ بسنة 92 م؛ وقد سجل هذا النقش باللغتين البونيقية واللاتينية[18]. ومع ذلك فإن اللغة اللاتينية لم تصبح لغة الريف الدارجة. ولا عبرة هنا قط لاستعمال القديس أوغسطين لكلمة «بونيقية» وصفاً للغة التي كانت محكية في عهده في ضواحي مدينة هيبونة الفينيقية (= عنابة بالجزائر). إذ يجب ألا نأخذ ذلك الوصف بحرفيته لأننا نعلم أن اللغة الليبية البربرية القديمة. وهي أم اللهجة البربرية التي لا يزال البربر يتكلمونها حتى الآن. ظلت قيد الاستعمال. وجدير بالإشارة هنا إلى أن اللغة الإغريقية كانت تلقى إقبالاً من الطبقة المثقفة ولذلك فإنا نستطيع أن نقول إنها كانت موجودة بين أبناء تلك الطبقة وعلى نطاق محدود.

أما بالنسبة لفزان فيبدو أن الرومان لم يحاولوا أن يفتتحوها ويستعمروها على غرار ما فعلوا بالنسبة لطرابلس وغيرها من مناطق الشمال الإفريقي الساحلي. ولكنهم في الوقت ذاته وجدوا أن مصالحهم التجارية مع أواسط إفريقيا كانت تحتم عليهم السيطرة على طرق القوافل التجارية التي كان لا بد لها أن تمر بفزان. كما ان حماية المزارع والمشروعات الأخرى القائمة في ريف منطقة طرابلس كانت قد حتمت عليهم مقاتلة البربر والجرامنتيين ومدافعتهم عن تلك المنطقة. وعند هذا الحد نجد أنفسنا مضطرين للتساؤل عن مدى تغلغل الرومان في أعماق الصحراء الليبية. وعن بقية الأسباب التي دفعتهم إلى التغلغل في منطقة مقفرة يكاد يستحيل على أية جماعة مستقرة أن تبقى على قيد الحياة فيها.

ونود أن نقرر منذ البداية أن من غير الممكن حتى الآن إعطاء جواب قاطع على هذا التساؤل. ولكن المسح الجوي الذي قام به الكولونيل الفرنسي «جان برادايز» للمناطق الجنوبية من الصحراء الجزائرية طيلة ثلاث سنوات (1946 - 1949) بيّن لأول مرة مدى ما كان عليه التنظيم الروماني العسكري والمدني على حدود تلك الصحراء.

18- إيمار، أندريه وأوبوايه، جانين، تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، ترجمة يوسف أسعد داغر ورفيقه، منشورات عويدات، الطبعة الأولى، بيروت، 1964، ص 462.

يقول جيمس ويللارد في تعليقه على ذلك التنظيم[19]:

«إنه مثال من الاستعمار ليس له مثيل في التاريخ من حيث التخطيط والفعالية والنجاح. ذلك أن بناء الخنادق والطرقات والحصون والقلاع ومراكز المراقبة وبراج المخابرة على حدود يبلغ طولها حوالي «1500 ميل». لم يضطلع به الرومان فقط من أجل صد بدو الصحراء عن مهاجمة المدن الكبرى المزدهرة في إفريقية التابعة للإدارة القنصلية. بل لتمهيد السبيل من أجل إسكان عدد كبير من المزارعين. ونجاح هذه الخطة تدل عليه صور الكولولنيل (برادیز) الجوية الرائعة التي تظهر بقايا المئات من القرى والمزارع حيث لا يوجد اليوم شيء سوى الصخور المتآكلة.

إن الخبراء أنفسهم لتستبد بهم الحيرة بشأن كيفية إنجاز الرومان هذا العمل الذي يفوق فيما يبدو طاقة البشر. بإقامتهم مثل هذا العدد الكبير من المراكز الأمامية في الخلاء ناهيك عن جر المياه الذي يعتبر بدونه كل عمل للإسكان إضاعة للوقت».

وبالرغم من أن أحدا لا يعرف على وجه الدقة ما الذي حمل الرومان على تجشيم أنفسهم نشاق استيطان الصحراء إلا أن اقرب نظرية للقبول هي تلك التي تقول أن روما منذ عهد أوغسطس كانت في حاجة ماسة إلى مصدر جديد للمؤن لتطعم مدنها المزدحمة بالسكان ولتطعم الآلاف المؤلفة من الجماهير الإيطالية التي أخذت تهجر الأرياف وتتكدس في روما لتتغذى وتشهد السيرك على حساب الإمبراطورية. ولهذا فان الرومان وجهوا أنظارهم لاستغلال شمالي إفريقيا بسواحلها وصحاريها في محاولة لتحويلها إلى أهراء لروما ومن ورائها إيطاليا. وبدا العمل كما أسلفنا على أيدي فرقة أوغستا الثالثة التي مهدت الطرق وأقامت القلاع والحصون وشبكات الري ومراكز الحراسة في المزارع المتعمقة في جوف الصحراء كما أثبتت صور الكولونيل «برادايز». وهنالك ما يدل على أن الرومان اتبعوا هذه السياسة نفسها في تمهيد الطرق وإنشاء الحصون وشبكات الري في المغرب

19- ويلـلارد، جيمس، الصحـراء الكبرى، مكتبة الفرجاني، طرابلس، الطبعة الأولى، بيروت، 1967، ص 116.

الأقصى وتونس وليبيا على نحو ما فعلوا في الجزائر. إلا انه لم يكتشف في أعماق الصحراء الليبية ما يدل على أن الرومان حاولوا استغلال هذه الصحراء على نحو ما فعلوا في الصحراء الجزائرية.

ويبدو لنا أن تمهيد الطرق كان مفتاح الحملات الإعمارية إلى قلب الصحراء أو أطرافها. لان وجودها كان يضمن وجود مواصلات آمنة وإمدادات كافية. والطرق الرومانية كانت على نوعين: واحد مدني والثاني عسكري. وكانت الطرق المدنية هي الطرق الرئيسية ولذلك فقد كانت ممهدة وكانت تستعمل للنقليات العامة وللبريد السريع. أما الطرق العسكرية فكانت ضيقة مستقيمة تخترق البلاد من حصن إلى أخر مباشرة. وكانت فرقة أوغستا الثالثة تقيم عند كل ميل روماني «أي كل 1480 متراً» شارة حجرية على شبكة الطرق الرئيسية تنقش عليها: «هذا النصب إقامته فرقة أوغستا الثالثة». وقد تم حتى الآن العثور على أكثر من ألفين من هذه الأنصاب في مختلف أرجاء الولايات الإفريقية الرومانية. وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى انه لم يعثر حتى الآن على أي شيء يدل على أن الطرق الرومانية في ليبيا كانت مرصوفة بالحجارة مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد أنها كانت طرقا ترابية[20].

وبعد إقامة شبكات الطرق وضمان وجود مواصلات مأمونة كانت الفرقة تبدأ بإقامة الحصون والأبراج في جميع المواقع الاستراتيجية بمعدل «حصن كل ميل» ثم تصل بين كل حصن والذي يليه بخندق أو بعدد من البروج وذلك لكي يبقى جنود كل حصن على مرأى من جنود الحصن الأخر لإجراء المخابرات بواسطة النيران في الليل والدخان أو الإشارات في النهار. وكان هذا النظام فعالا إلى درجة مكنت الرومان من حكم مليون ونصف المليون ميل مربع من الشمال الإفريقي لعدة قرون بقوة فرقة أوغستا الثالثة التي لم يكن عدد أفرادها يتجاوز اثني عشر ألف جندي يعززهم ما لا يزيد عن خمسة عشر ألف جندي آخرين من قوات محلية وغير نظامية.

20- Goodchild, R.G. The Roads and Milestones of Tripolitania, Discoveries and Researches in 1947, Department of Antiquities, British Military Administration, Tripoli, 1948, p. 7

والخطوة التي كانت تلي إقامة شبكات الطرق والحصون هي توغل جنود فرقة أوغستا الثالثة في الصحراء مطمئنين لمواصلاتهم وأمنهم. ومتفرغين لإقامة المعسكرات والحصون في الواحات الرئيسية على طرق القوافل المتجهة إلى أواسط أفريقيا من مثل حصن غدامس. وكانوا يصلون بين هذه الحصون بخنادق تحفر تدريجيا ويمدون وراء الخنادق طرقا لدورياتهم. على الجهة الداخلية من خطوط الحدود هذه وأحيانا على الجهة الخارجية. كان مهندسو الفرقة يصممون وينشئون سلاسل من المزارع المحصنة التي كانت تقطع للمحاربين المتقاعدين من الفرقة كما سبق أن ذكرنا. وتدل المخلفات الأثرية التي استخرجت من قبور رجال الحدود المستوطنين هؤلاء على أنهم كانوا يستخدمون الخيل أولا ثم الجمال في حراثة مزارعهم. وكان السيد المتقاعد يجلس على كرسيه ليراقب عمل عبيده وهم يقومون بجني المحصولات في المواسم المختلفة.

أما مشكلة الجفاف فقد سلك الرومان طرقا فذة للتغلب عليها: فهم مثلا كانوا يختارون لحصونهم ومعسكراتهم الرئيسية مواقع استراتيجية تتوافر فيها الينابيع أو الآبار أما في الأماكن الموغلة في أعماق الصحراء وحماداتها التي لم تكن فيها ينابيع أو آبار فكان الرومان يحسنون استغلال مياه الأمطار والوديان إذ أنهم كانوا بالعمل الشاق الدائب يسيطرون على الأمطار الساقطة في مناطقهم قبل أن تتمكن من بلوغ مجاري المياه وذلك بإقامة الجدران والمسطحات والخنادق والحواجز والسدود والخزانات والبرك لاحتواء كل نقطة من المطر تنزل على المنحدرات الصخرية قبل ضياعها في الرمال. فكانوا بذلك يحبسون المطر بحث يسقط. كما كانوا يحولون مياه الأخاديد إلى البرك والخزانات التي أقاموها حيث تبقى مجمعة ليستعملوها فيما بعد. أما مياه الوديان فإنهم كانوا يحجزونها بواسطة ما يقيمونه من سدود حجرية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرومان كانوا يقيمون نوعين من السدود لحفظ مياه الأودية: ففي الأودية الصخرية الضيقة كانوا يقيمون سدودا حجرية تقطع الأودية عرضا وتربط بجانبي الجبال المحيطة بها.

وهذا النوع من السدود كان يبنى بالصخور وبقطع الحجارة الكلسية

المعدة خصيصا لهذا الغرض والتي كانت تثبت بالجير القوي. وخير مثال على هذا النوع هو السدود التي كانت مقامة على وادي لجينين ووادي كعام. والنوع الثاني من السدود هو السدود الترابية التي كانوا يقيمون أكثر من واحد منها عبر الوادي الواحد. وبالإضافة للسدود فقد عمل الرومان بركا لتجميع المياه توجد في ليبيا وتكثر في منطقة طرابلس وخاصة في وادي لجينين ووادي زمزم[21].

وكانوا يقيمون قنوات للري تمتد من الوديان والخزانات إلى الحقول المقسمة إلى قطع مستطيلة بواسطة أخاديد تجري المياه فيها ببطء يسمح لكميات منها بالتفشي في باطن الأرض بدلا من ضياعها سدى. وبذلك تحتفظ التربة المحددة على هذا النحو بنسبة كافية من الرطوبة في الأوقات التي تكون فيها بقية التربة قد جفت تماما. ونظام الري هذا لم يجعل الزراعة في الصحراء ممكنة فحسب بل جعلها مجدية كذلك.

وبالإمكان القول إن هذه الجهود الجبارة والأعمال الشاقة التي تحملها الرومان مختارين لإقامة حصون ومزارع محصنة على طول تخوم الصحراء الكبرى في الشمال الإفريقي قد آتت أكلها فأصبحت تلك الحصون والمزارع تخدم أغراضا سياسية أهمها أنها كانت:

1- خط دفاع خارجي في نظام الدفاع العسكري الذي كان يشمل أفريقيا الشمالية بأسرها.

2- مراكز للجمارك ولضبط تنقلات المسافرين.

3- مظهر قوة يردع بدو البربر في الجنوب ويريهم بوضوح أن الرومان كانوا أقوى منهم وأغنى وأكثر تحضرا.

ولقد ظلت هذه الشبكة الدفاعية حتى حوالي سنة 400 م. وبعدها خضعت لهجمات البربر كغيرها من الأسوار والتحصينات الرومانية. ولعل

21- The Illustrated London News, December 16, 1961, article under the title "Ancient Systems for making the desert blossom as a rose: Water Conservation in Roman Tripolitania", by Olwen Brogan & Claudio Vita – Finzi, St. Jon's College, Cambridge, England.

أحسن ما قيل في وصف هذه الشبكة الرومانية هو ما أورده الكولونيل «باراديز» في تقريره النهائي عن نشاطاته خلال ثلاث سنوات قضاها في دراسة جادة لحدود التوغل الروماني في الصحراء الجزائرية: «يجب عليّ أن اشدد للمرة الأخيرة على التناقض المخيف بين ما كانت عليه هذه المنطقة بكاملها في يوم من الأيام وبين ما هي عليه الآن. إن المنطقة قد تأكلتها اليوم بشكل مرعب من الوهاد التي تزداد عمقا واتساعا في جميع الاتجاهات نظرا لهجر المنشآت الرومانية لحفظ التربة. والانطباع الذي ينشأ للمرء عن المنطقة هو الانطباع الناشئ عن صحراء مقفرة تبعث على الذهول أكثر من الصحراء الكبرى ذاتها: آن الخراب هنا لأبعث على الكآبة والحزن»[22].

من كل ما تقدم نستخلص أن الرومان جعلوا وجودهم ملموسا في فزان واستطاعوا بواسطة الحملات المؤقتة الناجحة التي كانوا يشنونها على الجرامنتيين بين الفينة والفينة أن يبسطوا عليهم نفوذهم ما كان يكفي لجعل الجرامنتيين حريصين على مخالفتهم اتقاء لشرهم من ناحية ولكي يفيدوا من التعاون التجاري معهم من الناحية الأخرى. ولعل خير شاهد على هذا هو قيام يوليس متيرنس وملك الجرامنتيين بالحملة المشتركة التي سبق أن تحدثنا عنها والتي كانت تهدف ليس فقط إلى تعريف متيرنس وقواته على إحدى طرق القوافل الرئيسية إلى تشاد وأفريقيا السوداء وإنما أيضا إلى جلب العبيد من تلك المناطق. وبكلمات أخرى فان كلا من الفريقين الروماني والجرامني قد اقتنع بعد التجربة انه لا يستطيع أن يقهر الفريق الثاني وانه في الوقت ذاته لا يستغني عنه. فالجرامنتيون لم يكن في مقدورهم أن يستغنوا عن الموانئ الرومانية على الساحل الطرابلسي لأنها كانت المتنفس الطبيعي لنشاطهم التجاري وهمزة الوصل بينهم وبين موانئ البحر الأبيض المتوسط. والرومان لم يكن في مقدورهم أن يستغنوا عن سلع أفريقيا السوداء التي لم تكن قوافلهم التجارية قادرة على الوصول إليها إلا عن طريق الجرامنتيين وبحراستهم. ولقد كانت حماية الجرامنتيين للقوافل أمرا لا يستغنى عنه لان بعض القبائل الليبية القاطنة في الداخل كانت تعيش

22- ويلارد، جيمس، الصحراء الكبرى، مكتبة الفرجاني، طرابلس، الطبعة الأولى، بيروت، 1967، ص 125.

على قطع الطرق ومهاجمة القوافل وسلبها. وقد تحدث ديودورس الصقلي عن ليبيين لم يكونوا يلتزمون بطاعة الملك ولا يراعون العدالة بل يعيشون على السلب والنهب ويقومون بغارات مفاجئة من مراكزهم الصحراوية ثم يعودون سريعا إلى تلك المراكز. ويقول ديودورس إن أولئك الليبيين كانوا يرتدون ألبسة من جلود الماعز ولم تكن لهم مدن أو قرى بل كانوا يقيمون أبراجا إلى جوار منابع المياه يحفظون أسلابهم فيها. كما أن الواحد منهم كان يتسلح بثلاث رماح وبقطع من الحجارة يحملها في حقيبة من الجلد. وهم لم يعرفوا استعمال السيف أو لبس الخوذة. ولقد كانوا قساة في معاملة أعدائهم إذ كانوا يعاملونهم وكأنهم لصوص فلا يتورعون عن ذبحهم وسفك دمائهم[23].

من هنا بدأت العلاقات تتحسن بين الجرامنتيين والرومان بعد سلسلة مضنية من المعارك ونشأ بينهما نوع من التفاهم والتعاون من أجل تأمين طرق قوافل التجارة الصحراوية. ولقد أثمر ذلك التعاون الصالح الطرفين فنشطت القوافل جوب طرق الصحراء الرابطة بين الموانئ الرومانية وأفريقيا الوسطى عبر فزان وأدى ذلك النشاط إلى ازدهار جرما وتوسعها فأقيمت فيها أبنية كثيرة جميلة على الطراز الروماني ما زلنا نشاهد منها حتى اليوم آثار المنازل الفخمة، والموسوليا[24] أو الأضرحة الكبيرة، والحمامات. واستمر هذا التعاون وذلك الازدهار في سلام حتى حوالي نهاية القرن الميلادي الرابع عندما قام غزاة مجهولون بالقضاء على مملكة الجرامنتيين وإحراق جرما. ولما كان هذا الحادث يصادف فترة النزاع بين الدوناتيين من البربر والكنيسة الكاثوليكية في روما وإتباعها في الشمال الإفريقي، فإننا قد لا نخطىء إذا إستنتجنا أن الدوناتيين من البربر الذين أصبحوا أكثر تطرفا وعنفا بعد وفاة

23- خشيم، علي فهمي، نصوص ليبية، مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى، 1967، ص 182-183.

24- الموسوليا أو الأضرحة الكبيرة نوع من القبور البارزة البنيان والمشيدة على طراز ضريح الملك الإغريقي موسولس «Maussollus» صاحب هليكارنسوس «Halicaranssus » في آسيا الصغرى وكانت قد بنته له زوجته آرتيمسيا «Artemesia» وشارك في تجميله أربعة من كبار النحاتين اليونانيين. وعن هذا الضريح أخذ القرطاجيون نموذج أضرحتهم الكبيرة ثم أخذ النوميديون هذا النمط عن القرطاجيين. وعن النوميديين أخذه الجرامنتيون.

زعيمهم الروحي دوناتس سنة 355 م. هم الذين حرقوا جرما وخربوا مزارع الجرامنتيين وبساتينهم وأطاحوا بملكتهم وذلك لنقمتهم على كنيسة روما من ناحية ولاستيائهم من تعاون الجرامنتيين وتحالفهم مع الرومان إلا انه بوسعنا أن نؤكد أن السلطة الرومانية كانت على حافة الانهيار في أفريقيا الرومانية وان جرما نفسها كانت قد ضعفت إلى درجة مكنت الغزاة من اجتياحها وتدميرها بسهولة ظاهرة سنة 395 م. ولعل هذا الضعف كان ناجما عن عدة عوامل تكالبت على إضعاف التجارة التي كانت الشريان الرئيسي للحياة الجرامنتية وهي عدة عوامل كان أهمها:

1- نفاذ المياه الجوفية جزئيا مما سبب جفاف بعض العيون والآبار وبالتالي الواحات.

2- في أعقاب تزايد الجفاف جف الكثير من الحشائش والنباتات فسهلت حركة الكثبان الرملية التي كانت النباتات تثبتها في أماكنها مما جعلها تنتقل مع الرياح فتسد بعض الطرق التي كانت تستعملها الخيول والعربات الجرامنتية.

3- أدى نقص عدد الآبار والعيون إلى تطويل المسافة بين مصدر ماء والذي يليه مما صعّب الأمر على حيوانات القوافل وأصحابها وحدّ من مقدرتها على الحركة.

4- اضطراب الأوضاع في المدن الساحلية والفقر الذي لحق بتجارها نتيجة لذلك أدّيا إلى إقعادهم عن المتاجرة مع الجرامنتيين.

5- مع نهاية القرن الميلادي الرابع بدأت قبائل البربر وخاصة هوارة ومزاتا ولواتا باستعمال الجمال للنقل عبر الصحراء فأصبحت بذلك في غنى عن جرما.

وزاد الموقف سوءاً أن الجرامنتيين أنفسهم لم يقبلوا على استعمال الجمال بل نفروا منها وظلوا أوفياء لخيولهم التي لا يمكن أن تقارن بالجمال في الأسفار الصحراوية.

وبعد هذا التاريخ خضعت مملكة الجرامنتيين كغيرها من المناطق الداخلية لسيطرة البربر حتى العهد البيزنطي.

ويظهـر التأثير الروماني جلياً في غير الموسـوليا من آثـار جرما. فهنالك قبـور مربعة ذات درجتين وهي مقصورة قصارة بيضـاء من الخارج ويبلغ عمق لحودها حوالـي أربعة أمتار. وقد وجد في تلك القبـور بعض الفخار الروماني الممتـاز إلى جانب الزجاج والحلي الذهبية واغواش مصنوعة من حجر الأمازون أي العقيـق. وقد لاحظ الأثريـون أن هذا النوع من القبـور و النوع المألوف في المقبـرة والملكية. وإن كانت أعداد منه قد وجدت في وادي الآجال إلى الشـرق والغرب من جرما. وبالإضافة إلى هذا النوع وجدت قبور هرمية بنيت أهراماتها التـي يتراوح ارتفاعهـا بين مترين وأربعة من اجر الطـين وحفرت اللحود تحت تلـك الأهرامات علـى عمق مترين أو ثلاثة؛ ويعتقد أن هـذا النمط من القبور منقـولا إما عن مصر وإما عن السـودان. وهنالك بعض المذابح المبنية بالحجر الرملي إما على شـكل مسـلة صغيرة وإما على شـكل فرن؛ وكانت تطلى باللون الأحمر وتوضع أمام القبور تجاه الشـرق أو الغـرب وإلى جوانبها موائد القرابين.

الرومان في برقة

ظلت منطقة برقة تابعة للبطالمة كما أسلفنا حتى عهد بطليموس أبيون (Apion)، الابن غير الشرعي لبطليموس السابع يورجيتس الثاني، وقد ورث ابيون منطقة برقة بناء على وصية يوجيتس الثاني وحكمها منذ سنة 116 ق.م. حتى أوصى بها لروما قبيل وفاته، دون وريث، سنة 96 ق.م. وكانت المنطقة التي ورثتها روما عن بطليموس أبيون تشمل الأراضي الواقعة بين بحر كتابتمو الكبير(Gran Catabatmo) (=خليج السلوم) في الشرق ونصب الأخوين فليني على خليج سرت الكبير في الغرب وتنتهي قرب (مقاطع الكبريت) على ذلك الخليج[25].

والمعلومات التي لدينا عن برقة بين سنة 96 ق.م. وسنة 75 ق.م. ليست كثيرة، ولكنا نعرف أن مجلس الشيوخ الروماني اكتفى في بداية الأمر بوضع يده على الأراضي الملكية في برقة بينما اعتبر المدن الإغريقية في تلك المنطقة كحليفات لروما فترك لها حرية تصريف شؤونها، ويخبرنا بلايني أن أول شحنة من نبات السلفيوم وصلت من برقة بعد وفات أبيون بثلاث سنوات أي سنة 93 ق.م. وأنها كانت عبارة عن إنتاج الحقول الملكية)Agri Regii(. ولكن لما كانت المدن الإغريقية في برقة كغيرها من المدن الإغريقية في وضع من الضعف والاضطراب لا يمكنها من حفظ أمنها واستقرارها فقد وقعت فريسة للفوضى وأعمال الشغب. وحيال هذا الوضع المضطرب اتخذت روما قراراً بضم المنطقة فعليا فعينت لها حاكما رومانياً لأول مرة سنة 75 ق.م. وكان برتبة كويستور (Quaestor)[26]، وباشر ذلك الحاكم، وكان اسمه كرنيليو لونتولو مارسلينو (Cornelio Lentulo Marcellino)، سلطاته سنة 74ق.م. وبالرغم من ذلك الإجراء الروماني فان قورينة تكبدت

25- Romanelli, Pietro, La Cirenaica Romana (96 a.c. – 642 d.c.), Centro Italiano di Studi Mediterranei, A. Airoldi – Editore, 1943 – XXI, page 27.

26- Ibid. Pag. 43. See also: Jones, A.H.M. Cities of the Estern Roman Provinces, Oxford, 1937.

خسائر اقتصادية فادحة في القرن الأول قبل الميلاد نتيجة القرصنة من ناحية وغزوات قبائل المارماريدي (Marmaridae) من ناحية أخرى. ثم نتيجة للحروب الرومانية الأهلية. ولم تبدأ تنتعش إلا منذ عهد أوغسطس. ويدل أحد نقوش الحمامات الكبرى في هذه المدينة على أنها تلقت معونات مادية في أواخر القرن الميلادي الأول.

ولا شك أنها بدأت تنتعش بعد ذلك؛ فنحن نسمع أن أحد أبنائها كان عضوا في مجلس الشيوخ الروماني في أوائل القرن الميلادي الثاني[27].

أما سبب عدول روما عن موقفها الأول من مدن برقة الإغريقية واتخاذها قرارا بضمها إلى أملاكها سنة 75 ق.م. فإن سلّوست[28] يخبرنا أن روما سلكت على ذلك النحو محتجة بان تلك المدن كانت بحاجة لحكومات اقل طموحا من حكوماتها القائمة آنذاك وبسبب نشوب حرب أهلية في قورينة وهي حرب تدل المصادر الأخرى على أنها لم تكن الحرب الأهلية الأولى والأخيرة منذ سنة 66 ق.م.[29] واختلف المؤرخون في أسباب ضم روما لبرقة فقال البعض انه تم تحت ضغط رجال الأعمال الرومان الذين كانوا في برقة. وقال آخرون بل لان روما ما أرادت أن تقفل جميع شواطئ البحر الأبيض المتوسط في وجه القراصنة الذين تمكن بومي من هزيمتهم وسحقهم في صيف سنة 96 ق.م.

وفي تلك السنة ذاتها وبعد أن قضى بومي على القراصنة بين برقة وكريت أقدم مجلس الشيوخ الروماني على ضم هاتين المنطقتين في ولاية واحدة باعتبار أنهما كانتا تخضعان لسلطة واحدة وهي سلطة البطالمة طيلة العهد البطلمي[30]. وقد اتسمت هذه الفترة بعدم الاستقرار ولم تفلح فكرة

27- The Jornal of Roman Studies, Vol. XLIX, 1959, Parts I & II, article under the title "Four Inscriptions from Roman Cyrenaica", by Joyce Reynolds, pp. 95101-.

28- Sallust, Hist. II, fra. 43.

29- The Jornal of Roman Studies, Vol. LII, 1962, Parts I & II, article under the title " Cyrenaica, Pompey and C.N. Cornelius Marcellinus", by Joyce Reynolds, pp. 97103-.

30- رستوفتزف، م.، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة زكي علي

دمج برقة وكريت في ولاية واحدة في تخليص برقة من الفوضى والإضطرابات التي كانت تعاني منها. ذلك لان عملية الدمج لم تكن تعدو توحيد الجهاز الإداري الروماني فيهما فظلت كل منهما تصرف شؤونها الداخلية كالمعتاد بينما انصرفت الإدارة الرومانية لاستنقاذ الأراضي الملكية في برقة من الذين وضعوا أيديهم عليها. والى تحصيل الضرائب المستحقة للخزينة الرومانية. وظلت برقة وكريت تكونان ولاية واحدة تابعة إداريا لمجلس الشيوخ الروماني حتى بعد توصل الإمبراطور أوغسطس إلى اتفاقيته المعروفة مع ذلك المجلس بخصوص اقتسام إدارة ولايات الإمبراطورية بينهما سنة 23 ق.م. ولكن حتى في هذا العصر الإمبراطوري نحن لا نسمع إلا القليل والقليل فقط عن الحياة في هذه الولاية. ويبدو لنا أنها أفادت كغيرها من الولايات من الاستقرار والازدهار اللذين كانا الطابع المميز للحياة في الإمبراطورية الرومانية ما بين سنة 27 ق.م. وسنة 68 م. والأمر الوحيد الذي نعرفه عن الحياة الاقتصادية في كريت وبرقة هو محاولة الأباطرة كلوديوس ونيرون وفسبسيان وضع حد للفوضى التي ضربت أطنابها في نظم امتلاك الأراضي التي كانت سائدة هناك. فقد وضع الأفراد ليديهم على مساحات واسعة من الأراضي في كل من القطرين. برقة وكريت. مع أنها من الوجهة القانونية كانت ملكا خاصا للمدن أو للأباطرة بوصفهم ورثة للبطالمة.

والواقع إن اهتمام الرومان الفعلي بمنطقة برقة لم يبدأ إلا في عهد الإمبراطور أوغسطس (27 ق.م._ 14 م.) فقد بقيت شبه مهملة بين سنتي 75- 24 ق.م. تستوفي منها الضرائب ولا تبذل فيها جهود رومانية تذكر من أجل إنعاشها والنهوض بعمرانها وحضارتها. وربما كان ذلك ناجما عن الأحوال المضطربة التي واكبت المرحلة الأخيرة من العهد الجمهوري في روما. ومع بدء عهد أوغسطس انطلق الرومان بنشاطهم المعهود على إنعاش منطقة برقة فضمنوا لها مواصلات آمنة. ووسعوا رقعة الأرض المزروعة مما أدى إلى تحرك اقتصادي زراعي كان السبب الرئيسي في نهوض المنطقة وتقدمها. ولا تزال آثار برك الماء الرومانية. وأبنية المزارع والحقول التي تظهر هنا وهناك في

وحمد سليم سالم. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. ص 378.

مختلف أنحاء برقة تقوم أدلة واضحة على النشاط الروماني العمراني في برقة في هذه الحقبة التاريخية وهو نشاط نلمسه أيضا فيما نلاحظه من إصلاحات وتحسينات وإضافات أدخلت في هذه الفترة على المرافق الإغريقية التي كانت قائمة آنذاك في مختلف المدن الإغريقية في برقة. ومن الواضح أن الرومان، الذين اعتبروا أنفسهم ورثة للإغريق وحماة للحضارة الإغريقية، كانوا حريصين على أن تستمر برقة في نموها الحضاري نموا طبيعيا يتجلى لنا في استمرار اللغة الإغريقية والطابع الإغريقي للمنطقة. فلقد ظلت اللغة الإغريقية تحتل المرتبة الأولى بينما جاءت اللغة اللاتينية في المرتبة الثانية، يدل على ذلك ما تم اكتشافه من نقوش سجل الموضوع الواحد من موضوعاتها باللغة الإغريقية أولا ثم باللغة اللاتينية ثانيا.

وعندما اعتلى الإمبراطور ديوقلتيان (285-305 م.) عرش الإمبراطورية أعاد تنظيم الولايات فجعل طرابلس ولاية قائمة بذاتها وكانت تشمل الأراضي الواقعة بين القوس الرخامي التذكاري وبين شط الجريد في تونس، وفصل برقة عن كريت وكون منها ولايتين جديدتين: ولاية ليبيا العليا (Upper Libya) وصارت طلميثة عاصمة لها[31] بدلا من سيرين. وكانت تتألف من منطقة البنطابولس ومعها القسم الشمالي من هضبة برقة، وولاية ليبيا الدنيا (Lower Libya) أو الجافة وكانت تشمل السواحل القاحلة بين درنة والإسكندرية. وقد ظلت هاتان الولايتان كذلك حتى وحدتا

31- Goodchild, R.G., The decline of Cyrene and rise of Ptolemais, Two new Inscriptions-in Quaderni Di Archeologia Della Libya, Roma, 1961. See also:
The Jornal of Roman Studies, Vol. XLV, 1953, Parts I & II, pp 106 – 115, article under the title "Diocletian's Price-Edict" at Ptolemais (Cyrenaica), by Giacomo Caputo and Richard Goodchild, wherein they say:
نمت طلميثة في العصر الهلينستي إلى مركز تجاري مستقل ذاتياً. وفي أيام ديوقلتيان صارت عاصمة لولاية ليبيا العليا ومركزا دينيا لأبرشيتها أي قسمها الإداري؛ شغله سينيسيون فيما بعد. وقد نقلت العاصمة إليها من قورينة في أيام ديوقلتيان؛ ونحن وإن كنا لا نعرف زمن عملية النقل هذه على وجه التحقيق إلا أننا نعتقد أنها تمت قبل تولية سينيسيوس سنة 410 م.

في دوقية واحدة سنة 381 م. وعندما قسمت الإمبراطورية الرومانية سنة 395 م. إلى قسمين: غربي وعاصمته روما، وشرقي وعاصمته بيزنطة أو القسطنطينية، تبعث منطقة برقة للإمبراطورية البيزنطية بحكم أن برقة كانت ترتبط بالحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط منذ قدوم الإغريق إليها.

الحدود الرومانية في برقة:

بالرغم من أن برقة كانت في بداية عهدها بالرومان تابعة إداريا لمجلس الشيوخ الروماني إلا أنها كانت معرضة للكثير من غارت القبائل الليبية. وهنالك إثباتات كافية تدل على أن برقة كان لها حرس حدود روماني ابتداء من القرن الأول قبل الميلاد. ولكن يبدو أن ذلك الحرس كان قليلا بحيث لم تكن له القوة الكافية لإيقاف الثورة اليهودية عندما بدأت سنة 115 م. مما حمل الرومان على إرسال مزيد من القوات لتعزيزه وتمكينه من كبح الثورة اليهودية. ولقد أوضحت الأزمة التي استفحلت في منتصف القرن الميلادي الثالث مدى الخطر الذي كانت منطقة برقة معرضة له عندما اغتنمت قبائل مارماريكا فرصة الفوضى التي كانت قد استفحلت في الإمبراطوري في أعقاب زوال الأسرة الأفريقية السويرية وأغارت على منطقة برقة واكتسحت قورينة[32].

ومنذ سنة 390 م. فصاعدا لم تسترح منطقة برقة من غزوات القبائل البربرية إلا قليلا؛ وكانت اخطر تلك الغارات غارات الاستوريين في المناطق الداخلية المجاورة لخليج سرت الكبير. وقد ظهر الاستوريون لأول مرة في التاريخ الروماني عندما قاموا بغزو منطقة طرابلس سنة 363 – 365 م. ومع حلول سنة 399 م. كانت غاراتهم تشمل جانبي خليج سرت الغربي (شرق طرابلس) والشرقي (غرب برقة). ولعلنا نستطيع أن نتصور ما وصلت إليه حالة البنطابولس من هزال عندما نتذكر أن أحد أبناء بنغازي واسمه

32- أصيبت قورينة سنة 262 م. بزلزال مدمر ولكنها عمرت بسرعة سنة 267 م. وسميت Claudiopolis باسم الإمبراطور كلوديس الثاني ولكن هذا الاسم لم يدم طويلا. وقد أصيبت قورينة بزلزال آخر سنة 365 م.

اندرونيكوس (Andronicus)، وكان صياد سمك، صار حاكما للبنطابولس سنة 410 م. ولعل تدني مستوى الطبقة الاجتماعية التي جاء من صفوفها هو الذي حمل سينيسيوس، أسقف طلميثة، على مناصبته العداء. وفي سنة 450 م. أي بعد حوالي نصف قرن من الغارات الاستورية الأولى، تجددت غاراتهم مما حمل الجنرال الروماني أرماتيوس (Armatius) على القيام بحملة ضدهم. أما في مطلع القرن الميلادي السادس فإن التهديد الرئيسي لهضبة برقة المعزولة جاء هذه المرة من قبائل المازيكي (Mazices) الذين استقروا في الواحات الواقعة إلى الغرب من وادي النيل وأغاروا على منطقة برقة مرة واحدة على الأقل حوالي سنة 513 م.

وكانت الطريق إلى برقة من خليج سرت محروسة منذ القدم، وكان أقصى حصن دفاع عنها من الغرب هو حصن بير أم القرنية قرب القوس الرخامي وكان يشغل مساحة 35 ×32 مترا مربعا، ولم يكن حوله خندق. والمعروف عنه أنه كان معمورا في القرن الميلادي الأول ولكنه أهمل وهجر قبل عصر جستنيان عندما صارت الحدود الغربية للبنطابولس تقوم قريبا من المدينة المسوّرة (بوقرادة) قرب مرسى البريقة، حيث وجدت مجموعة كبيرة من القلاع الصغيرة ذات الخنادق التي كان قصر العطيلات بمثابة قلب لها. وتجدر الإشارة هنا إلى مقاتلين سوريين كانوا يتولون حراسة أجدابية (Corniculanum) في القرن الميلادي الأول.

ولقد وجدت آثار قلاع ثلاث كانت تشكل خط دفاع غربي عن برقة من ناحية سرت ممتدا من الغرب إلى الشرق ومبتدئا بالقرب من الشاطئ ومتجها حتى سهل الاستبس في الداخل. وتلك القلاع الثلاث المهمة هي: زاوية طيلمون (=تل آمون) وقلعة زاوية الشليظمة وقلعة زاوية مسوس. وكان هذا الخط يشكل أقصى حد لمنطقة سرت نحو الداخل. وجدير بالملاحظة أن مراكز الدفاع في عهد الاحتلال الإيطالي الحديث كانت تقوم في تلك المواقع ذاتها[33].

33- The Jornal of Roman Studies, Society for promotion of Roman Studies, London, Vol. XLIII, 1953, The Roman and Byzanite Limes, R.G. Goodchild, pp. 6576-.

ونحن وإن كنا لا نعرف مواقع خط الدفاع الروماني في برقة بأسرها فنحن لا نستطيع إلا أن نجزم بوجود مثل ذلك الخط مما نراه من بقايا الحصون. فهنالك آثار مزارع محصنة كانت تحمي الجهتين الغربية والجنوبية لسهل المرج المحيط بمدينة برقة. كما توجد آثار بعضها على جانبي الوادي الممتد من الأبيار إلى المرج وهنالك مجموعة قصور أو حصون مقامة في وادي الكوف للحيلولة دون التسلل إليه من الجنوب وشطر منطقة برقة إلى شطرين. أما في شرق برقة فلابد أن التحصينات كانت قليلة وإن وجدت آثار منها تدل على خط دفاع كان يهدف لحماية الطريق الذي كان يؤدي من درنة إلى الداخل. كما نعلم أن الإمبراطور جستنيان حصّن طبرق مما قد يشير إلى أنها إنما كانت محصنة قبل عهده فجاء هو ليرممها ويجدد تحصيناتها في إطار سياسة الترميم التي سار عليها بالنسبة لمدن إمبراطوريته. ولعل وجود آثار كنائس محصنة يشير إلى تلك الكنائس، وخاصة ما كان منها في الدواخل، إنما حصّنت نفسها لتقوم بالدفاع عن ذاتها وعن أتباعها، بعد أن ضعف خط الدفاع الروماني في أواخر العهد الروماني، وهو نفس ما فعلته طلميثة بزعامة أسقفها سينيسيوس عندما قامت بتحصين كنيستها ومرافقها الحيوية دفاعا عن ذاتها.

ولا شك أن الرومان أوجدوا شبكة مناسبة من الطرق في برقة على غرار ما فعلوا في طرابلس وغيرها من ولاياتهم الأخرى. ولقد وجدت حجارة معالم الطرق الرومانية في عشرة مواقع في برقة حتى الآن، ويبدو انه كانت في البنطابولس ثلاث طرق رئيسية تلتقي جميعها في قورينة، ولابد أن المتطلبات العسكرية فيما اقتضت إيجاد شبكة أخرى من الطرق تربط الساحل بالدواخل كما كانت الحال في منطقة طرابلس[34].

اليهود في برقة:

كان إلى جانب العنصر الليبي والإغريقي والروماني في برقة عنصر رابع

34- Papers of the British School at Rome, Vol. XVIII (New series Vol. V) 1950, The British School at Rome, 1 Lowther Gardens, Exhibition Road, London, England, Goodchild, R.G., Milestones in Cyrenaica, pp 83 – 91.

هام هو العنصر اليهودي وقد سبقت الإشارة إليه في الحديث عن عناصر سكان منطقة طرابلس. وقبل أن نتحدث عن أوضاع يهود برقة وسلوكهم يجدر بنا أن نتريث هنيهة نلقي خلالها نظرة على تاريخ اليهود وكيف ومتى جاءوا إلى برقة.

إن المتعارف عليه بشكل عام أن اليهود. الذين ينتمون إلى الجنس السامي الذي ننتمي إليه بوصفنا عربا. وجدوا أول ما وجدوا في أور بجنوب العراق ولأسباب مختلفة هاجر بهم إبراهيم الخليل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد من أور إلى مصر ماراً بأرض كنعان (=فلسطين) ولكنهم لم يمكثوا في مصر غير قليل ثم عادوا إلى فلسطين واستقروا بها كجالية صغيرة. وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد هاجر بهم يوسف بن يعقوب من فلسطين إلى مصر حيث استعبدهم الفراعنة طيلة أربعة قرون. هاجر بهم بعهدها أي في القرن الثاني عشر قبل الميلاد موسى بن عمران إلى فلسطين فدخلوها بعد أربعين سنة من الضياع في صحراء التيه بشبه جزيرة سناء. وقد تمكن اليهود من الاستيلاء على مناطق محدودة من فلسطين أقاموا فيها في ظل نظام قبلي يتمثل في الأثني عشر سبطاً أو قبيلة التي انقسمت إليها قبائلهم. وكان يتولى سلطة الحكم عليهم قضاة منهم بين القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد. وعند هذا الحد من تاريخهم نجدهم ينجحون في إقامة مملكة لهم يعتبر أول ملوكهم عليها الملك شاؤول الذي لم يكن في الواقع سوى ملك رمزي. أما أول ملك حقيقي لهم فهو الملك داود الذي عمل على توسيع حدود مملكته بالقوة فحارب جالوت. ملك البربر. وانتصر عليه وشرد البربر واتخذ القدس عاصمة لمملكته التي أصبحت تشمل ضمن حدودها أرض اليبوسيين والكنعانيين والفلسطينيين من نهر الفرات إلى خليج العقبة وساحل البحر الأبيض المتوسط. والجدير الملاحظة أن اليهود حتى أيام الملك داود لم يوفقوا إلى إقامة حكومة مركزية قوية فظلت مملكتهم وكأنها مملكتان ترتبط الواحدة منهما بالأخرى ارتباطا هزيلا. هاتان المملكتان كانتا إسرائيل في الشمال ويهودا في الجنوب. وكان ملك يهودا لا يستطيع أن يحكم في إسرائيل إلا بموافقة الإسرائيليين ولكن الملك داود

نفسه منح تلك الموافقة مقدما قبل تتويجه. وعندما اعتلى ابنه سليمان عرش يهودا فجأة في أعقاب وفاة أبيه لم يعترف به الإسرائيليون إلا بعد أن ذهب إلى عاصمتهم شخيم (=نابلس) وتوج ثانية فيها. وبعد وفاة سليمان سنة 931 ق.م. خلفه ابنه رحبعام (Rehoboam) على عرش يهودا فقط ولم تعترف به إسرائيل مما حمله على شن حرب عليها ولكنها تمكنت من هزيمته بقيادة قائدها يربعام (Ieroboam) الذي استقل بها وبأسباطها العشرة بينما ظلت يهودا مملكة ثانية يسكنها السبطان الباقيان. وظلت هاتان المملكتان منقسمتين حتى القرن الثامن قبل الميلاد عندما استولت الدولة الآشورية الناشئة في العراق على مملكة إسرائيل. ولم تلبث مملكة يهودا أن لاقت مصيرا مشابها عندما اكتسحها نبوخذ نصّر في القرن السادس قبل الميلاد وسبى اليهود إلى بابل حيث ظلوا حتى أيام الفرس عندما سمح كورش لمن أراد منهم بالعودة إلى القدس فعاد بعضهم إليها وجددوا بناء الهيكل في القرن الخامس قبل الميلاد.

وبعد وفاة الإسكندر الكبير سنة 323 ق.م. قسمت إمبراطوريته بين خلفائه فكانت بلاد الشام من نصيب السلوقيين وكانت مصر وبرقة من نصيب البطالمة. ولم يلبث الصراع أن نشب بين البطالمة والسلوقيين من أجل الاستيلاء على فلسطين. ذلك الممر التاريخي الذي يربط آسيا بإفريقيا. وتمكن بطليموس الأول من الاستيلاء على يهودا سنة 301 ق.م. وظلت بعده تحت حكم البطالمة حتى سنة 200 ق.م. ولا ريب أن البطالمة جلبوا معهم لمصر أعداداً من اليهود الذين أسروا أثناء الحروب بين البطالمة والسلوقيين. كما أن البطالمة كانوا يحاولون توجيه هجرة اليهود إلى ممتلكاتهم. تلك الهجرة التي نشأت عن عدم وأد اليهود لا أي من أطفالهم مما أدى إلى تزايد عددهم وحملهم بالتالي على الهجرة كحل لمشكلة تزايد عدد السكان. وترتب على هذا الوضع بمجموعه قيام جاليات يهودية في مصر وفي برقة التابعة لها. ففي مصر كان لليهود مستوطنات منذ أزمان طويلة. ومنذ القرن السابع إلى الخامس قبل الميلاد عاش منهم بجزيرة إلفنتين (فيلة) في أعلى النيل جماعة أصلهم في البداية من المرتزقة وقد اسكنهم فيها أحد

الملـوك، وكان لهم هناك معبد لالههم يهوه. وسـكن يهود آخرون مصر في عهد أرميا، النبي العبراني الذي ناصر نبوخذ نصّر ثم أنسحب إلى مصر بعد سـقوط أورشليم (585 ق.م.)، كما أقامت جالية قديمة منهم في منف، ثم احضـر بطليموس الأول عددا منهم إلى الإسـكندرية فيما بعد. واسـتمرت هجـرة اليهود إلى مصر طيلة القرن الثالث قبـل الميلاد وكانوا إجمالا ينزلون بالإسكندرية، وأحيانا بريف البلاد حيث كان لهم في عهد بطليموس الثالث ثلاث كنس أو بيع.

وعندمـا نشـبت الحرب الأهلية بـين كليوبترة الثالثـة وابنها بطليموس لاثيـروس انحـاز اليهـود إلى جانـب الأم فـكان ذلك هـو بداية حالـة التوتر بالإسكندرية بين اليهود والإغريق لان الأخيرين كانوا يناصرون الابن. وكان يهود الإسكندرية في القرن الأول قبل الميلاد يشكلون اكبر جالية لهم خارج يهودا، وقـدر عددهم في مصر بعد الحقبة المسـيحية بمليون نسـمة؛ وكانوا يملأون اثنين من أحياء الإسـكندرية الخمسـة الموجودة داخل سور المدينة. ولقد كان وجـود الجاليات اليهودية أمرا مشـهورا بوضوح في الإسـكندرية وفي مدينة برنيقة بإقليم برقة. وكانت جالية برنيقة سـنة 13 ق.م. تحت حكم مجلس من تسعة من الاراخنة (Archonc) أي الحكام[35].

وفـي مطلع القرن الثاني قبـل الميلاد تمكن أنطيوخـس الثالث (الكبير) ملك السـلوقيين من انتزاع فلسـطين من أيدي البطالمـة وضمها لمملكته. وكان أنطيوخس هذا متسـامحا مع اليهود، بل انه أعطاهم في الوقع مزيدا مـن الحرية في تصريف شـؤونهم الذاتيـة، ولكن انتزاع فلسـطين من أيدي البطالمة لم يضع حدا للصراع بينهم وبين السلوقيين فقد مكان أنطيوخس الثالـث يطمح إلى الاسـتيلاء على مصر وتوحيد إمبراطورية الإسـكندر من جديد تحت رايته، ولكن القوة الرومانية الناشـئة كانت قد بدأت تمد حمايتها للبطالمـة ضد السـلوقيين فـي نطـاق لعبتها الجديـدة فـي المحافظة على تـوازن القوى مما اقنع أنطيوخـس الثالث بأنه لن يتمكن مـن هزيمة البطالمة

35- تـارن، سـير وليـم وود، الحضارة الهلينسـتية، ترجمة عبد العزيز توفيـق جاويد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1966، ص 223-253.

وحماتهم الرومان إلا إذا وحد الجبهة الداخلية في بلاده. ومن أجل هذه الغاية بدأ بهلنّة مملكته. إلا أن اليهود في فلسـطين رفضوا برنامج الهلنّة المقترح واحتجوا لدى انطيوخس الثالث بأنهم قد اثبتوا إخلاصهم له بدفع الضرائب بحمل السـلاح والانخراط في سلك قواته المقاتلة؛ ولذلك فإنهم لم يكونوا بحاجـة لإثبات إخلاصهم عن طريق إقامة التماثيـل له في معابدهم. وقبل انطيوخس الثالث وجهـة نظرهم هذه وغض النظر عن هلنتهم. ولكن ابنه الثاني انطيوخس ابيفينز (Epiphanes) الذي ورث العرش السـلوقي سنة 176 ق.م. بعد أن قتل أخاه لم يوافق على استثناء اليهود من برنامج الهلّنة ليس لأنه كان متحيزا ضدهم ولكن من حيث المبدأ؛ فما دام اليهود مواطنين في مملكته فان عليهم أن يخضعوا لقوانين السلطة كغيرهم من المواطنين. ولكن اليهود أصروا على التمسك بموقفهم في رفض برنامج الهلّنة.

وكان التقليد المتوارث هو أن يعين السلوقيون حكام الولايات المختلفة تعيينا مباشـرا، أما بالنسـبة لليهود فان السـلوقيين كانوا يكتفون بتعيين كاهن أعظم يرشـحه لهم اليهود أنفسـهم. وفي هذه المرحلة رأت الأرستقراطية اليهودية أن من مصلحتها أن تسـاد انطيوخس ابيفينز على هلّنة فلسطين وتمكنت بالرشوة وبالتغرير من حمله على تعيين كاهن يهودي اسمه جيسون (Jason) وفي منصب الكاهن الأعظم بفلسـطين. وكان جيسون هذا أحد زعماء الهلّنة البارزين في فلسطين فتمكن خلال اثني عشر شهراً من تحقيق ما عجزت مائة وخمس وعشـرون سـنة من الحكم البطلمي والسلوقي عن تحقيقـه ألا وهو فتح أبـواب هيكل اليهود في القدس أمـا الطقوس الوثنية حيـث أدخلـت إليه التماثيـل الإغريقية، وصـار الكهان اليهـود يرتدون الزي الإغريقي ويمارسـون الطقـوس الإغريقية، كما صار اليهود يمارسـون الألعاب الإغريقية في سـاحة الهيكل وهم عراة، وصارت القدس ترسـل وفودا تمثلها فـي الاحتفـالات الوثنية، ومـا آثار حفيظـة اليهود على اختـلاف طبقاتهم فراحـوا يتذمـرون من دعـاة الهلنّة خاصـة اليهود منهم. وفـي غمار إحدى حملات أنطيوخس ابيفينز على مصر راجت بين اليهود في فلسـطين إشاعة بأنه قتل في إحدى المعارك، فاغتنموا الفرصة، وانقضوا على كهانهم، الذين

كان السلوقيون قد عينوهم. فألفوا القبض عليهم في الهيكل وألقوا بهم إلى حتفهم من علو مائة قدم. ثم حملوا التماثيل الوثنية الموضوعة في الهيكل وألحقوها بالكهان. وراحوا يتتبعون دعاة الهلّنة ويذبحونهم. وتمكن حزب الهسدانيين (Hasidns). الذي انضوى تحت لوائه كل اليهود المحافظين المناهضين للهلّنة من الاستيلاء على السلطة في فلسطين.

ولكن إشاعة مقتل أنطيوخس ابيفينز كانت كاذبة. فالذي حدث هو أن الرومان انذروه بالخروج من مصر وكانت قد وصلت إلى مسامعه أنباء ثورة اليهود وراءه في فلسطين فقرر العودة. ودخل بقواته القدس فأدب اليهود الثائرين في اشتباك قتل منهم فيه عشرة آلاف. وإثر ذلك أعيدت تشكيلة الكهّان الموالين لحركة الهلّنة كما أعيدت التماثيل الإغريقية إلى الهيكل. ودعا إبيفينز كثيرا من الوثنين لسكنى القدس لتخفيف من صبغتها اليهودية. وألغى طقس اليهود في السبت وحرّم عليهم تطهير أبنائهم مما زاد في نقمتهم فانضمت أعداد جديدة منهم. حتى من الذين كانوا يتخذون موقفاً معتدلاً من الهلّنة. إلى حزب الهسيدانيين. وأدى ذلك إلى تمهيد الطريق أمام ثورة جديدة. وجاءت تلك الثورة بسرعة سنة 168 ق.م. إثر إقدام أحد الموظفين السلوقيين في قرية خارج القدس على محاولة إرغام كاهن يهودي على تقديم قربان لأحد الآلهة الإغريقية ففضل الكاهن أن يقتل ذلك الموظف على أن يرتكب تلك الخطيئة. كان ذلك الكاهن متاثياس الهسموني (Mattathias the Hasmonean). الذي أمر إبيفينز بعقابه فهب اليهود جميعا للدفاع عنه فأصبح هو وأبناؤه الخمسة يقودون الثورة الجديدة وعرفوا بالمكابيين (Maccabees) نسبة للتسمية العبرية التي تعني (مطرقة) باعتبار أنهم كانوا يضربون القوات السلوقية مطرقة اثر الأخرى في الحروب المتتالية. وفي سنة 166 ق.م. تمكن اليهود من هزيمة جيش كان يقوده إبيفينز بنفسه ولكن الحرب استمرت لمدة خمسة وعشرين سنة قتل فيها أبناء متاثياس الواحد تلو الأخر باستثناء سيمون الذي ظل يتزعم الثورة حتى بعد موت إبيفينز. وعرض خلف إبيفينز الاستقلال الذاتي على اليهود ولكنهم رفضوا العرض وأصروا على الاستقلال الكامل حتى رضخ السلوقيين فوقع

سيمون معهم اتفاقية الاستقلال التي بعثت مملكة يهودا من جديد سنة 143 ق.م. وأصبح سيمون الكاهن الأعظم للقدس وحاكم يهودا. وهو وإن كان لم يتوج رسميا ملكا عليها إلا انه كان يعتبر أول ملوك هذه الأسرة. ورأى سيمون من وجهة نظره أن البطالمة أو السلوقيين سيهاجمون مملكته في يوم ما فوقع اتفاقية دفاع مشترك مع روما التي كان يتوقع سطوع نجمها كقوة كبرى. فحق عليه بذلك قول الشاعر العربي:

ومن تخذ الضرغام بازاً لصيده تصيّده الضرغام فيما تصيدا

وقول الشاعر الإنجليزي:

There was a young Lady of Niger

Who smiled as he rode on a tiger;

They came back from the ride

With the Lady inside,

And the smile on the face of the tiger.

ذلك أن الابتسامة بقيت على ثغر اليهود طيلة ثمانيين سنة كانوا يمتطون النمر الروماني خلالها. ولكنها صارت على وجه ذلك النمر بعد أن صاروا هم في جوفه. فقد استعرت نار الحرب بين أبناء الأسرة اليهودية الحاكمة وكانت حربا قاسية دامية لم تنته إلا بعد تدخل بومي سنة 63 ق.م. اثر فتحه لسوريا وألغى المملكة المكابية وحولها إلى ولاية رومانية.

وكان الرومان يعينون حكاما للولاية اليهودية اشتهر من بينهم هيرود اليهودي الذي نصب نفسه ملكا عليها بمساعدة الرومان وحكمها مدة ست وأربعين سنة. وكان الرومان يخوضون حربا مضنية وغير حاسمة ضد البارثيين (الفرس) في الشرق. ولذلك فإنهم كانوا دائما يخشون من اقتحام البارثيين للحدود الرومانية في يهودا فبالغوا في حراستها وإخضاعها اعتقادا منهم أنهم في تلك الحالة يستطيعون أن يستوعبوا أي هجوم يشنه البارثيين. وأثارت تلك المعاملة اليهود كما أثارتهم الضرائب الكثيرة

التي كان الرومان يجبونها منهم فأعلنوا الثورة سنة 66 م. وبادروا بالقضاء على الحرس الروماني خارج القدس ثم انتشر لهيب ثورتهم حتى عم أرجاء فلسطين. وكان يوسف بن متاثياس (Joseph ben Mattathias)[36] يقود قوات الجليل اليهودية ضد الرومان. واستمرت الحرب بقيادة القائد الروماني فسبسيان الذي لم يلبث ان اعتلى عرش الإمبراطورية فكلف أبنه تيطس بمواصلة الحرب. واستطاع هذا الاخير أن يحتل القدس سنة 70 م. فانتقم من اليهود شر انتقام. وقد ذكر المؤرخ الروماني تاسيتوس (Tacitus)، الذي قال عن الرومان أنفسهم إنهم يخلقون الخراب ويسمون عملهم ذاك سلماً. إن تيطس قتل من اليهود في تلك الحرب ستمائة ألف نسمة. وفي عهد الإمبراطور تراجان ثار اليهود ثورتهم الثانية سنة 113 م. في كل من مصر وأنطاكية وقورينة وقبرص ومسوبوتاميا بالعراق مغتنمين فرصة انشغال تراجان في غزوة لبارثيا. ولما علم تراجان بالثورة قطع غزوته واندار لليهود فحاربهم طيلة ثلاث سنوات أدعنوا له بعدها.

وفي عهد الإمبراطور هدريان ثار اليهود ثورتهم الثالثة على الرومان سنة 132م. بزعامة باركشبة. فاستدعى هجريان يوليس سيويرس وجيشه من بريطانيا وأرسله لسحق الثورة اليهودية في فلسطين فدخلها بجيش يبلغ عدده خمسة وثلاثين ألفاً ولكنه لم يتمكن من إخضاع الثورة إلا بعد مضي ثلاث سنوات سنة 135 م. من الحرب القاسية المدمرة فأعدم الرومان باركشبه ومساعده الربي أكيبا. وبانتهاء هذه الثورة انتهت المرحلة الرومانية من تاريخ اليهود فقد قتلت أعداد كبيرة منهم بينما هرب من تمكن منهم من الهرب وتفرقوا في أرجاء المعمورة. وكان من الطبيعي أن يتوجهوا في المكانة الأولى إلى بارثيا حيث رحب بهم البارثيون أعداء الرومان. أما من ظلوا

36- يسميه الكتاب الرومان يوسيبيوس "Eusebius" . وقد استسلم للرومان فيما بعد واستأذنهم في مرافقة جيشهم المحاصر للقدس ليتسنى له تأريخ تلك الحرب عن كثب فأذنوا له ومنحوه حق المواطنة الرومانية مما جعله يغير اسمه إلى فلافيوس جوسيفوس "Flavius Josephus" . ومنذ ذلك الحين صار اليهود يتهمونه بالخيانة. ويتعبر كتاباه: تاريخ الحرب اليهودية وآثار اليهود أفضل مرجعين موجودين. وهما يتناولان تاريخ اليهود بين سنة 100 ق.م. وسنة 100 م. أما يوسف نفسه فقد عاش من سنة 38 إلى سنة 100 م.

منهم في فلسطين فقد بيعوا عبيدا في اسواق الرقيق[37].

إن الحرب اليهودية الثالثة وضعت مستقبل اليود السياسي والاقتصادي والاجتماعي على حافة الهاوية؛ فكان معظمهم دون جنسية في القرن الميلادي الثاني وكانوا منتشرين في عدة أقطار من القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا ما بين الهند شرقا والمحيط الأطلسي غربا. وكان المنطق والتاريخ يقضيان بان يفقد اليهود هويتهم كجنس ويختفوا عن مسرح الوجود ولكنهم تمكنوا من إيجاد صيغة جديدة وفرت لهم أسباب البقاء وهي صيغة (الجالية اليهودية) التي اشتهرت باسم (Diaspora Judaism)، والدياسبورا كلمة إغريقية تعني التشتت وهي حتى اليوم تعني الجاليات اليهودية خارج إسرائيل[38].

أما كيف ومتي نشأت تلك الجاليات التي تتميز بطريقتها الخاصة في الحياة فان بعض المؤرخين يردون ذلك إلى تحطيم مملكة يهودا لأول مرة والسبي والبابلي الذي تلا تحطيمها في القرن السادس قبل الميلاد.

وإذا صح ذلك فان كلمة دياسبورا تصبح مرادفة لكلمة (المنفى) فكأنما نفي اليهود إلى بابل ليعيشوا هناك في المنفى. والواقع أن الدياسبورا الحقيقية إنما بدأت بالنسبة لليهود بعد فتح الفرس لبابل وسماح كورش الفارسي لمن أراد منهم بالعودة إلى القدس. وآنذاك عاد منهم والي 25% فقط بينما آثر الباقون المعيشة في المنفى. أما وجودهم في بابل قبل كورش كان إجباريا وكان يعنى المعيشة في المنفى. أما وجودهم فيها بعد أن سمح

37- انظر أيضاً: توينبي، آرنولد، تاريخ الحضارة الهلينستية، ترجمة رمزي جرجس وضقر خفاجة، سلسلة الألف كتاب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1963، ص 242 - حيث يقول: «عندما أصر اليهود على الدخول في عراك مع الدولة العالمية الهلينية، ضاربين عرض الحائط بتحذيرات الملك هيرودوس، ورفعوا السلاح في وجهها بالجرأة ذاتها التي حملوا بها على الدولة السلوقية المتداعية، لم يلبثوا أن جلبوا على أنفسهم تلك الكوارث الماحقة المروعة التي وقعت فيما بين 66 – 70 م. و 132 – 135 م. فقد أبيد يهود فلسطين عن بكرة أبيهم، فيما عدا طائفتين تختلفا عنهم، هما مدرسة الحاخام يوحنا بن زكاي "Johanan ben Zakkai" والكنيسة المسيحية وهما الطائفتان اللتان نبذتا استخدام القوة كأداة لتنفيذ خططهما الدينية».
Dimont, Max 1., Jews God, and History, W.H. Allen, London, 1964, -38 .pp 94 – 121

لهـم كـورش بالعودة فقد أصبـح اختياريا أي (دياسـبورا). وهنالك فرق آخر بـين المنفى والدياسـبورا ذلك أن الشـعب المنفي لا ينتج حضـارة في العادة بـل يذوب فـي المجتمع الجديد أو يرتد إلـى حياة البدو الرحل. أمـا اليهود فقد ظلوا يحتفظـون بيهوديتهم وفي الوقت ذاته يسـهمون في حضارة المجتمع الـذي تعيش جاليتهم فيـه دون أن تنصهر أو تفقد هويتها. ولم يتحقق هذا التماسـك لليهـود صدفة أو تلقائيا بـل جاء نتيجة تطبيـق مبادئ وضعها اليهود لأنفسـهم: فقد قـرروا فيما بينهم أن أي يهودي يبـاع رقيقا لابد من أن يقـوم اليهود في اقرب جالية على مـكان وجوده بفديته وتحريره خلال مدة أقصاها سـبع سـنوات. ولكي يحفظوا لغتهم من الضياع والاندثار وضعوا كتـب القواعد الخاصة بها. وحتى يحفظوا دينهم من وحدوا طقوس العبادة في كل كُنُسـهم وأقامـوا تنظيما دينيـا اجتماعيا يحتم عليهـم ما يلي: أينما وجد عشـرة ذكور يهود فوق سـن الثالثة عشرة وعلى مسافة تسمح لهم بالاتصـال ببعضهم البعض فلهم الصلاحية فـي إقامة طائفة دينية أسـموها بالعبرية (مِنيـان) (Minyan). وإذا اجتمع مائة وعشـرون منهم فلهـم صلاحية إقامة طائفـة اجتماعية لها محكمتها الشـرعية الخاصة بها. وكان على كل طائفة من هذا النوع أن تلتزم بمبادئ أخرى أهمها:

1- أن تفـرض على أفرادها ضرائب غيـر الضرائب التي يدفعونها للدولة التي يعيشون على أرضها وذلك لكي يبقى اليهودي في غنى عن أن يستعين ماليـا بحكومة وثنية أو مسـيحية. وكانوا ينفقون حصيلـة تلك الضرائب فيما بينهم على التعليم وفي أوجه الخير.

2- إيجاد نظام تعليمـي يكون مجانيا لأيتامهم والمحتاجين منهم؛ وكان إجباريا للأولاد ومسموحا به للبنات.

3- لا يجـوز لليهـودي أن يطلب الإحسـان من أية دولـة وإنما يطلبه من جاليتـه فقط. ولكي يضمنوا عدم تناقـص أعدادهم فرضوا عقوبات صارمة علـى وأد الأطفـال والإجهـاض والرهبنـة وحرَّموا علـى اليهود التـزاوج مع غيرهم.

ولكـي يضمنوا لأنفسـهم حكمـا ذاتيـا ويحفظوا حقوقهـم ويحموا أنفسـهم من الاتهـام بالخيانة وضعـوا القوانين الأربعة التاليـة التي تعتبر فريدة من نوعها:

1- ليس على أي يهودي أن يلتزم بتطبيق أي قانون يهودي إذا كان تطبيقه فـوق طاقة اليهودي المتدين. وفي تلك الحالة يجب أن يعاد النظر في تفسـير ذلك القانون أو تعديله بحيث يساير الجيل الجديد.

2- علـى اليهود أن يعترفوا بصحة الوثائق غير اليهودية في محاكمهم وفي سـواها. وان يعتبروا أي قسـم يعقد في أي محكمة وبأية لغة قسـما صحيحا.

3- علـى اليهـود أن يطيعـوا قوانين البلد الذي يعيشـون فه مادامت لا تمنعهم من ممارسـة دينهم أو تحملهم على ممارسـة طقـوس دينية أخرى أو تدفعهم إلى القتل.

4- على اليهود أن يحاربوا دفاعا عن البلد الذي يعيشون فيه.

وإذا حاولنا أن نتتبع تشـتت وقيـام الجاليات اليهودية بإيجـاز فانّا نخرج بالصورة التالية:

أ - نشـأت أول جالية يهودية خارج فلسطين في بابل بالعراق من الأسرى الذين سـاهم نبوخذنصّر بعد أن اجتاح القدس وهدم هيكل سـليمان في القرن السادس قبل الميلاد.

ب - وفـي عصر البطالمة في مصر أي ابتداء مـن القرن الثالث قبل الميلاد بـدأت تتكون هناك جالية يهودية معظم أفرادهم من الأسـرى اليهود الذين كان البطالمـة يعودون بهم من فلسـطين التي كانت ميـدان صراع البطالمة والسـلوقيين. ولما كانت برقة تابعـة للبطالمة فان أعداداً مـن اليهود قدمت إليها من مصر بتشـجيع من البطالمة الذين كانوا يستغلون اليهود من أجل إخضاع برقة للسيطرة البطلمية. فقد ذكر المؤرخ يوسف أن بطليموس الأول أرسـل فريقا من اليهود إلى مدينة قورينة ليسـتقروا بهـا. لأنه كان مهتما

بتشديد قبضته على تلك المدينة ومدن ليبيا (برقة) الأخرى.

جـ - وبعد أن استولى بومبي على مملكة يهودا وحوّلها إلى ولاية رومانية أصبح اليهود يلازمون الرومان والجيوش الرومانية ملازمة الظل. فكان يسير وراء الجيوش الرومانية التي تحمل الأعلام الإمبراطورية المزينة بالنسر الروماني رجال الأعمال وأصحاب المشروعات اليهود. ولهذا السبب قويت الجاليات اليهودية التي كانت قد استقرت في إيطاليا في القرن الثاني قبل الميلاد وفي فرنسا في القرن الأول قبل الميلاد وفي أسبانيا مع مطلع تاريخ الميلاد. فما إن بدأ القرن الميلادي الثالث حتى كان اليهود قد توغلوا في أوروبا شمالا حتى كولون في ألمانيا. ولقد نقل يوسف عن استرابو. الذي كان معاصرا للإمبراطور أوغسطس. قوله: (إن اليهود على عهده كانوا قد وجدوا طريقهم إلى كل مدينة. ومن العسير ألا نجد في أي مكان في العالم المعمور موطناً لهم). وفي عهد أوغسطس الإمبراطور الروماني الأول. أصدر هذا الإمبراطور تصريحا أعلن فيه أن يهود الإمبراطورية اثبتوا ولاءهم للشعب الروماني في الماضي والحاضر خاصة عندما كان هيركاتس كاهناً أعظم لهم في زمن يوليس قيصر. وبناء على ذلك فإن الإمبراطور أوغسطس قرر السماح لليهود بمباشرة عاداتهم طبقاً لشريعة آبائهم على نحو ما كانوا يفعلون في عهد ذلك الكاهن. وقرر السماح لهم بتحويل أموالهم إلى القدس وتوعد كل من أقدم على سرقة أموالهم أو كتبهم المقدسة بالجلد وبمصادرة الممتلكات.

د - منح الإمبراطور كراكلا اليهود في الإمبراطورية الرومانية حق المواطنة الرومانية وساواهم بغيرهم من مواطني الإمبراطورية سنة 212 م.

هـ - أما هجرة اليهود إلى شبه الجزيرة العربية فقد نشأت على شكل جدول مستمر منذ بطش بهم القائد الروماني تيطس سنة 70 م.. وما لبثت أن تحولت إلى سيل كبير خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد وذلك هربا من الحروب التي كانت مستعرة بين الفرس والبيزنطيين في سوريا وفلسطين. وقد استقر معظم اليهود المهاجرين إلى شبه الجزيرة العربية في يثرب وخيبر وفدك وتيماء ووادي القرى. وبسبب اقتناع اليهود بان الحرب بين الفرس والبيزنطيين ستكون حربا طويلة الأمد. وبسبب تحذير اليهود لبعضهم

البعض بان الإمبراطورية البيزنطية لن تكون مأوى صالحا للحرية فقد هاجرت أعداد منهم إلى شبه الجزيرة العربية أعداد أخرى كثيرة إلى النصف الغربي من الإمبراطورية الرومانية.

و – وفي إيطاليا دعا ثيودورك الكبير (454-526 م.) اليهود إلى الاستقرار في كل مدن مملكته وخاصة في روما ونابولي وفينيسيا وميلان وعاصمته الجديدة رافنا. ويقول ماكس ديمونت عن يهود إيطاليا هؤلاء: (إنهم كانوا تجاراً ورجال مصارف وقضاة ومزارعين. وصاغة مجوهرات وحرفيين. وربما كان ثلث هؤلاء اليهود في إيطاليا لا ينحدرون من نسل أسلافهم كانوا وثنيين أصلا وبدءوا يعتنقون الديانة اليهودية منذ القرن الأول للميلاد)[39].

ز - ترجع مشكلة اليهود المرتدين في أسبانيا إلى القرن السادس للميلاد عندما حمل الملك ركارد (Reccared). الذي كان متحمسا للديانة المسيحية. تسعين ألفا منهم على اعتناقها بالقوة.

حـ- وفي نفس الوقت الذي تلقى فيه كولمبس الأمر بالقيام بالرحلة التي اكتشف فيها أمريكا سنة 1492م. وقع الملك فرديناند وزوجته الملكة إيزابيلا أمرا يقضي بطرد اليهود من إسبانيا. وتولى قيادة الهجرة اليهودية من أسبانيا الربيّ دون إسحاق ابرافانل (Don Isaac Abravanel) الذي كان وزيرا لمالية البلاط الإسباني. ويقدر أن خمسين ألفاً من المائة والخمسين ألف يهودي إسباني – وهم اليهود الذي كانوا ينحدرون من أسلاف عاشوا في أسبانيا منذ القرن الميلادي الأول – آثروا أن يدفعوا ثمن البقاء في ديارهم بإسبانيا فاعتنقوا المسيحية. أما المائة ألف الآخرون فقد مات منهم حوالي عشرة ألاف واستقر خمسة وأربعون ألفاً في وحوالي خمسة عشرة ألفاً في الشمال الإفريقي ومصر وعشرة ألاف في جنوب فرنسا وهولندا وعشرة ألاف في شمالي إيطاليا وخمسة ألاف في أقطار متفرقة في آسيا وإفريقيا وأوروبا وخمسة ألاف في أمريكا الجنوبية. وتمتع المهاجرون اليهود في ظل الإسلام في الشمال الإفريقي وفي مصر والإمبراطورية العثمانية لعدة قرون بحرية دينية واقتصادية كاملة لم يكونوا ليحلموا بها في عهودهم السابقة كما

39- Ibidem, p. 218.

لـم يكن يحلم بها معاصروهم من أبناء جلدتهم الذين انتهت بهم الهجرة إلـى أوروبا حيث لم يبق بلد أوروبي اسـتقروا فيه إلا واضطهدهم أو طردهم. وفي سـنة 1496 م. هددت البرتغال بطرد يهودها فهرب الكثيرون منهم إلى شمال أفريقيا وشمال إيطاليا والإمبراطورية العثمانية.

نلخص من كل ما تقدم إلى أن اليهود بدءوا يقيمون جاليات لهم في ليبيا فاسـتقروا في البداية في برقة قادمين إليها من مصر بتشجيع من البطالمة وكان المهاجرون الأوائل الذين اسـتقروا في برقة من الأسرى اليهود الذين كان البطالمة يعودون بهم إلى مصر في إعقاب غزواتهم المتكررة لفلسطين. وفي عهـد أنطيوخس الرابع السـلوقي (175 – 164 ق.م.) هاجرت أعداد جديدة مـن اليهود المتدينين من فلسـطين فراراً بدينهم وهرباً مـن الهلّنة التي أراد انطيوخـس هذا أن يحملهم عليها فقدموا إلـى برقة وانضموا إلى يهودها. ويبدو أن أعداد قليلة من اليهود تغلغلت في منطقة طرابلس في هذه الفترة وان كانت مصادرنا لا تكاد تفصح بشيء حول هذه النقطة بالذات.

أمـا في برقة فقـد أثبتت الآثار وجـود اليهود منذ العصـر البطلمي في طلميثـة؛ فقد عثرت بعثة المعهد الشـرقي بجامعة شـيكاغو على عملة برونزيـة يهودية من ذات ربع الشـاقل من النوع الذي كان سـيمون المكابي (139- 135 ق.م.) قد أصدره أثناء حكمه في مملكة يهودا بفلسطين. وتقدم مقابـر توكـرة الدليـل على أن اليهـود وجدوا فـي تلك المدينة منـذ العصر البطلمي. وهنالك أدلة كافية تثبت وجود جالية يهودية كبيرة في برنتشـي فـي أوائل العصر الروماني[40]. ويبدو أن الجاليات اليهودية في برقة لم تقتصر على سكنى المدن فقط بل تعدتها إلى سكنى القرى في مختلف أنحاء ريف برقة. وقياسـا على نشـاط الجاليات اليهودية الاقتصادي في البلدان المختلفة يبدو لنا أن يهود برقة شـغلوا عدداً لابأس به من الوظائف الحكومية وخاصة مـا كان يتصل منها بالاحتكارات الملكيـة وبجباية الضرائب والأعمال المالية

40- عثرت بعثة مانشسـتر على أسـماء يهودية منقوشـة بالأحـرف اليونانية على حجارة قبور توكرة وقورينة وبرقة. وكان معظمها أسـملاء يهودية صريحة وبعضها أسـماء يهودية مترجمة للغة الإغريقية وهي ترجع للفترة 31 ق. م. – 83 م.

الأخرى كالتجارة والمراباة وغيرها. أما من سـكنوا ريف برقة من اليهود فلابد أنهم اشـتغلوا بالزراعة والرعـي والمهن المتصلة بهما. ولم يقتصر نشـاط اليهـود الاقتصادي على شـغل الوظائـف الحكومية بل أنهـم دخلوا العمل الحر فكان منهم الصاغة ورجال المصارف والتجار وأصحاب السـفن والمرابون. ولا شـك أن الجاليات اليهودية في برقة كانـت منظمة على النحو الذي كان يقوم عليه نظام الدياسـبورا الذي تعرضنا لـه قبل قليل. ومما يؤيد هذا الرأي أن نقشـين اكتشـفا في برنتشـي يتضمن كل منهما قراراً أصدرته الجالية اليهوديـة هناك أفاد الأول منهما – ويرجع تاريخه إلى ما بين سـنة 30 ق.م. وسنة 100 م. – أنه كان يرأس الجالية اليهودية في تلك المدينة سبعة أرخنة (كهان). وأفاد القرار الثاني المؤرخ سنة 25 ق.م. أنه كان يحكم تلك الجالية تسـعة كهان. وورد في قرار ثالث يعود إلى عصر الإمبراطور نيرون أن عشـرة من الكهان اليهود أسـهموا في ترميم الكنيس اليهودي بتلك المدينة. وتجدر الإشـارة بهذه المناسـبة أن الجالية اليهودية في الإسـكندرية كان يحكمها تسـعة من كهانها في عصـر الإمبراطور أوغسـطس. وبالإضافـة إلى كل مـا تقدم فان اسـترابو يخبرنا أن سـكان قورينة في عهد أوغسـطس كانوا ينقسمون إلى أربع طبقات هي:

1- طبقة مواطني المدينة من الإغريق.

2- طبقة المزارعين.

3- طبقة الأجانب المقيمين في المدينة.

4- طبقة اليهود أي الجاليات اليهودية في قورينة.

ومـن الواضـح هنا أن اسـترابو رأى في يهـود قورينة فئة قائمـة بذاتها ومتميـزة عن غيرها من فئات السـكان ممّـا يدل على أنهم كانوا يشـكلون دياسـبورا منظمة. وقد اكتفى يوسـف بأن ينقل عن اسـترابو قوله إن يهود قورينة في عهد أوغسـطس كانوا يشـكلون طبقة منفصلة تماماً عن بقية طبقات السكان في المدينة؛ وتصرف يوسف على هذا النحو قد يشير إلى أن يهود قورينة لم يكونوا قد اكتسـبوا حقـوق المواطنة كاملة فيها. ويبدو لنا

أن ما يصدق على الجالية اليهودية بشكل عام لم تكتسب حقوق المواطنة الرومانية إلا في عصر الإمبراطور كراكلاّ الذي منح يهود الإمبراطورية ذلك الحق سنة 212 م.

ويبدو كذلك أن يهود برقة قد آثروا التزام جانب الهدوء والسلم بعدما تعرضوا له من قتل وتشريد فعاشوا في أمن وطمأنينة في ظل الحكم البطلمي.

ويؤيد هذا الرأي أن مصادر ذلك العصر لا تشير إلى أن اليهود كانوا طرفا في أي نزاع في برقة أو سببا له. كما إنها لا تشير إلى أنهم قد تعرضوا لأي اضطهاد أو التحموا في أي صدام مع الإغريق أو الليبيين طوال العصر البطلمي. ومع حلول العصر الروماني نجد الجاليات اليهودية قد استقرت وثبتت في الأماكن التي كانت تسكنها في برقة منذ العهد البطلمي. ولاشك أن تلك الجاليات قد قويت وتعزّزت في الأوقات التي كانت فيها على وئام مع السلطة الرومانية[41]. ولقد دلت الآثار على وجود جالية يهودية قوية في قورينة؛ فقد عثرت بعثة جامعة مانشستر[42] على قطعة عملة يهودية من ذات نصف الشاقل في قورينة يعود تاريخها إلى السنة الثانية من ثورة اليهود الأولى في القدس أي إلى سنة 68 م. كما وردت أسماء يهودية في نقش يتضمن قائمة بأسماء منظمة للشباب بالمدينة. وبالإضافة إلى قورينة وجدت على أثار طلميثة وتوكرة وأبولونيا أسماء منقوشة تثبت وجود جاليات يهودية في تلك المدن. وقد عثرت بعثة جامعة مانشستر في موسم حفرياتها سنة 1956 م. في محجر إلى الغرب من توكرة على مصباح نقشت عليه صورة الشمعدان اليهودي ذي السبعة فروع. وبالإضافة إلى الشواهد الأثرية يخبرنا بروكوبيس أن جالية من اليهود كانت تعيش بالقرب من بوريوم على خليج سرت منذ عصر قديم وأنها كان لها معبد هناك يقدسه أفرادها

41- انظر الفقرة (جـ) . ص 400 – 401 أعلاه.

42- تعتقد بعثة جامعة مانشستر أن المدن الساحلية في برقة مثل أبولونيا وطلميثة وتوكرة وبنغازي كانت كمراكز تجارية أنسب من غيرها لسكنى اليهود في عهود البطالمة والرومان والبيزنطيين. ويذكر أن سونسيوس أحصى بحارته في رحلة له من الاسكندرية إلى قورينة فكان أكثر من نصفهم بما فيهم القبطان من اليهود.

ويزعمون أن الملك سليمان هو الذي شيده. ويضيف بروكوبيس أن الإمبراطور البيزنطي جستنيان اجبر تلك الجالية على اعتناق المسيحية وحول معبدهم المذكور إلى كنيسة.

ولاشك أن يهود برقة في العصر الروماني استمروا يمارسون أوجه النشاط الاقتصادي التي كانوا يمارسونها في العصر البطلمي وخاصة في المدن والموانئ التجارية من مثل طلميثة وقورينة وبرنتشي. وقد ذكر يوسف أن حاكم قورينة الروماني ذبح حوالي ثلاثة آلاف من أثرياء اليهود بتلك المدينة في أعقاب فتنة أشعلها يهودها سنة 70 م. ونحن نعتقد أن فتنتهم تلك ما كانت إلا تجاوبا مع يهود فلسطين الذين كانوا ثائرين على الحكم الروماني هناك. وقد وجد في برنتشي نقش سجلت عليه أسماء عدد من اليهود الأثرياء الذين كانوا قد تبرعوا لترميم كنيسهم في المدينة. وعلى نقش آخر وجد في هذه المدينة سجل قام أحد الأثرياء اليهود بكسوة أرضية وحوائط المسرح الدائري في المدينة ممّا يدل على النجاح والتقدم الاقتصادي الذي حققته الجالية اليهودية فيها. ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا أيضا إن يهود ريف برقة أصابوا شيئا من الرخاء الاقتصادي وتملكوا الأراضي الزراعية وقطعان الماشية[43].

مسلك اليهود في برقة:

أولاً: نقل المؤرخ اليهودي يوسف عن استرابو أن الدكتاتور سُلاّ (Sulla) - تولى السلطة سنة 81 ق.م.- عندما كان في طريقه لمحاربة مثراديتس بعث قوة بقيادة لوكولّس (Lucullus) لإخماد فتنة قام بها يهود قورينة. ولكن بلوتارك، وهو أدم من استرابو، يشير إلى هذه الحادثة دون أي ذكر لليهود بقوله إن القائد الروماني لوكولّس عندما قدم إلى قورينة بناء على طلب رئيسه سُلاّ من أجل الحصول على سفن يعزّز بها أسطوله[44]، وجد نفسه مضطراَ

43- عبد العليم، مصطفى كمال، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، منشورات الجامعة الليبية، المطبعة الأهلية، بنغازي، يناير 1966 ، 171 – 182.

44- كانت برقة في هذه الآونة أربع مدن بحرية هي: أبولونيا، طلميثة، توكرة، وبرنتشي. ومع أن أساطيلها كانت تجارية فلا بد أنها كانت لها سفن حربية لحماية السفن التجارية من القراصنة.

للتدخل لإقرار الأمن والنظام ووضع حد للاضطرابات التي كانت مستشرية في المدينة قبيل سنة 74 ق.م. ويحاول الدكتور مصطفى كمال عبدالعليم[45] أن يبين نوع تلك الفتنة وأسبابها فيردها إلى الاحتمالات التالية:

1- أن إغريق قورينة أرادوا حرمان يهودها من بعض إمتيازاتهم أو منها كلها في أعقاب وفاة بطليموس أبيون عقابا لهم على جرم ارتكبوه.

2- أن يهود قورينة ربما كانوا قد انحازوا في الصراع الذي كان مستفحلاً فيها إلى جانب لم يرض عنه الحزب المنتصر، على نحو ما فعلوا في الإسكندرية بمصر، فاستحقوا بسلوكهم ذاك سخط المنتصر وعقابه.

3- أن قورينة لم تكن راضية عن حكم البطالمة، الذي كان يهودها ركيزة من ركائزه؛ فلما انتهى عهد البطالمة واستردت المدينة استقلالها بادر إغريقها إلى الانتقام من يهودها.

4- أن اليهود ربما كانوا قد أحدثوا الفتنة في قورينة لكي يلفتوا أنظار السلطات الرومانية إلى مدى ما كانوا يتعرضون له من خطر لو استمروا موضوعين تحت رحمة الإغريق.

ونحن نضيف إلى هذه الاحتمالات احتمالاً أخرا لا يقل عنها أهمية، ونجمله فيما يلي: إن مملكة يهودا الثانية التي خرجت للوجود على يد سيمون المكابي سنة 143 ق.م. كانت تربطها بمعظم الجاليات اليهودية خارج فلسطين روابط وثيقة أشبه بالروابط القائمة في عصرنا هذا بين إسرائيل والجاليات اليهودية الموجودة خارج فلسطين. ولقد سبقت الإشارة إلى أن الدولة المكابية كانت في أواخر سني حياتها، وقبل إلغاء بومبي لها سنة 63 ق.م.، تقاسي من صراع دام شرس دارت رحاه بين أفراد الأسرة الحاكمة المتطاحنين على السلطة[46]. أفلا يجوز والحالة هذه أن تكون ذيول ذلك الصراع قد امتدت إلى يهود قورينة كرد فعل عاطفي أدى إلى انشقاق الجالية اليهودية فيها لاختلافها حول من هو أَوْلى بالسلطة في القدس؟ وقد نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنّه ربما قدم إلى قورينة بعض من يهود فلسطين في أواخر عهد

45- المرجع السابق نفسه، ص 195 – 196.
46- انظر ص 395 – 396 أعلاه.

الدولة المكابية فجلبوا إليها معهم بذور ذلك الصراع الذي سبقت الإشارة إليه. وعلى أساس هذا الاحتمال فإن ما حدث في قورينة في هذه المناسبة قد لا يعدو كونه صراعا محلياً بين أفراد الجالية اليهودية نفسها ممّا سهّل على لوكولّس وضع حد له.

ثانيا: يبدو أن السياسة التي سلكها الإمبراطور أوغسطس نحو اليهود والتي سبق أن لمحنا طرفاً منها في تصريحه[47] الذي أقر فيه لهم بامتيازاتهم الطائفية ظلّت متبعة بعده حتى حوالي وفاة نيرون سنة 68 م. وفقد تمتعت برقة وغيرها من ولايات الإمبراطورية في هذه المرحلة بفترة من الهدوء والاستقرار ممّا أدى إلى إقبال الناس على أعمالهم في طمأنينة وبالتالي إلى انتشار الازدهار وعموم الرخاء ولكن تلك النعم لم تدم طويلاً إذ ما لبثت علاقات الرومان باليهود أن تعكرت وقام اليهود بثورتهم الأولى على الرومان في فلسطين سنة 66 م.[48] وقد ذكر سلوش أن يهود قورينة أسهموا في الدفاع عن القدس كما ذكر يوسف أنّه في المراحل الأخيرة من حصار القدس فر بعض زعمائها إلى قورينة وكان بينهم ثلاثة إخوة هم أبناء كاهن القدس الأعظم إسماعيل. ولدى وصول أولئك الإخوة إلى قورينة ألقي القبض عليهم وأعدموا شنقاً. وكانت بين اليهود الفارين من القدس إلى قورينة جماعة من المتدينين المتطرفين يتزعمهم يونثان النساج الذي وصفه يوسف أنه زنيم أشر وبأنّه استطاع أن يستميل إليه عدداً غير قليل من يهود قورينة من الطبقة الفقيرة وقادهم إلى الصحراء حيث راحوا يعيثون فساداً في الأراضي المحيطة بقورينة[49]. ويبدو أن بعض الأرستقراطيين من يهود قورينة من الطبقة الثرية ممّن كانوا ميالين للهلّنة ويستفيدون من تقاربهم مع إغريقها رأوا في تلك الثورة خطراً يهدد مصالحهم وكيانهم فتعاونوا مع كاتلّوس (Catallus) حاكم قورينة الروماني، حتى تمكن من إلقاء القبض على يونثان بالدور الذي لعبه ذلك النفر من أثرياء يهود قورينة

47- انظر ص 301، أعلاه.
48- انظر ص 396 أعلاه.
49- عبد العليم، مصطفى كمال، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، منشورات الجامعة الليبية، المطبعة الأهلية، بنغازي، يناير 1966 ، ص 198.

ضده فأراد أن يورطهم في قضيته بأن أبلغ الحاكم أنهم هم الذين خططوا لثورته وموّلوها. ووجدت هذه التهمة هوى في نفس الحاكم فراح تخير أثرياء اليهود في قورينة ويعدمهم. وقد حمل يوسف على كاتلّوس ونعى عليه سرعة تصديقه لأقوال يونثان. وعلل تصرفه بأنّه كان ناجٍاً عن حقده على اسكندر، أحد أثرياء يهود قورينة. ولذلك فإنّه أوعز إلى يونثان باتهام اسكندر وزوجته بالتورط في الثورة، ثم أعدمهما بتلك التهم وراح يمعن في الانتقام من أثرياء اليهود حتى ذبح منهم حوالي ثلاثة آلاف. ولكي يبرر كاتلّوس فعلته أوعز إلى يونثان أن يكيل التهم جزافاً للشخصيات اليهودية البارزة ليس من يهود قورينة فحسب وإنّما أيضاً من يهود الإسكندرية وروما. وكان المؤرخ يوسف من بين المتهمين فقد اتهمه يونثان أنه زوده بالمال والسلاح للمضي في الثورة. وعلل يوسف نفسه توجيه التهمة له[50] بأن المكانة الممتازة التي كان يتمتع بها بعد أن منح حق المواطنة الرومانية أثارت غيرة اليهود وحسدهم ودفعتهم إلى اتهامه بالخيانة لقضيتهم أولاً ثم إلى اتهامه بالتورط في مساندة يهود قورينة.

وسيق يونثان والأسرى من أتباعه مكبلين في الأصفاد إلى روما حيث قدموا إلى الإمبراطور فسبسيان فأمر بإطلاق سراحهم باستثناء يونثان الذي أمر بتعذيبه أولا ثم بحرقه.

مما تقدم يتضح لنا أن ثورة يهود قورينة كانت في الدرجة الأولى تجاوبا مع ثورة يهود القدس في فلسطين. أما موقف الأرستقراطية اليهودية في قورينة، وهو موقف معادٍ، فيفسره أمران:

الأول: أنها كانت حريصة على ثورتها وكيانها ومصالحها المتوقفة على وجود علاقات طيبة بينها وبين إغريق قورينة من ناحية ثم بينها وبين السلطة الرومانية الحاكمة من الناحية الأخرى. وقد رأينا أن حاكم قورينة الروماني كان مشككاً في ولاء هذه الطبقة من اليهود بالرغم من محاولتهم إثبات العكس بتعاونها مع السلطة ضد الثوار.

والثاني: أن غلاة اليهود الذين قدموا إلى قورينة هاربين من القدس ربما

50- انظر حاشية (1)، ص 396 أعلاه.

كانوا قد حاولوا إقناع الأرستقراطية اليهودية في قورينة بالانضمام إلى الثورة تخفيفا للضغط الواقع على القدس المحاصرة فرفضت الاستجابة لدعوتهم مراعاة لظروفها الخاصة. وكان رفضها الاستجابة لدعوتهم ذاك كافياً لجعل الثوار يعادونها ويتهمونها بالخيانة. وفي رأينا أن هذا الأمر بعينه هو الذي يعلل اتهام يونثان لأثرياء يهود قورينة بالتورط في الثورة كوسيلة للانتقام منهم بيد السلطة الرومانية كما يعلل اتهام يونثان للمؤرخ يوسف بالتهمة ذاتها لأن الأخير كان قد تخلى عن قيادة ثوار الجليل من اليهود بفلسطين واستسلم للرومان وقَبِل حق المواطنة الرومانية من دولة كانت تضطهد أبناء جلدته. وزاد الطين بلة فرافق القوات الرومانية التي كانت تحاصر القدس من أجل كتابة تاريخ تلك الحرب. وهي أسباب أدت مجتمعة إلى اتهام اليهود ليوسف بالخيانة حتى اليوم. وإذن فإن يونثان لم يوجه التهم إلى الأرستقراطيين من اليهود في فلسطين بناء على إيعاز حاكم قورينة الروماني وإنما فعل ذلك تعبيراً عن موقف الثوار اليهود في فلسطين أولاً ثم في برقة ثانياً. وبهذه الدوافع ذاتها أقدم كذلك على اتهام يوسف بالتورط في دعم الثورة الفاشلة على أمل الانتقام منه بيد السلطة الرومانية التي كانت ترعاه. ولعل هذا هو ما جعل الإمبراطور فسبسيان يفرج عن الأسرى من الثوار اليهود بتعذيب يونثان ثم بحرقه[51].

وترتب على هزيمة اليهود في القدس وهزيمتهم في قورينة في السنة ذاتها (70 م.) تغير السياسة الرومانية نحوهم؛ فقد بالغت السلطة الرومانية في تقتيل اليهود وتشريدهم ولم تكتف بذلك بل سعت لإذلالهم وذلك بفرض ضريبة نصف وشاقل على كل من كان في سن الثالثة فما فوق من ذكورهم في جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية على أن تدفع لمعبد الإله الوثني جوبيتر الروماني بعد أن كان مسموحاً لليهود أن يدفعوها لهيكلهم في القدس. وكان هذا الإذلال وما رافقه من صنوف الضغط وسوء المعاملة بمثابة بذور ثورة يهودية أخرى.

51- قارن هذا التعليل بالتعليل المغاير الذي أورده الدكتور مصطفى كمال عبد العليم في كتابه: دراسات في تاريخ ليبيا القديم، منشورات الجامعة الليبية، المطبعة الأهلية، بنغازي، يناير 1966، ص 198 – 199.

ثالثـا: ولم تلبـث الفرصة أن سـنحت عندما قـام الإمبراطـور تراجان بغـزو بارثيا فاغتنم اليهود فرصة انشـغاله وثاروا فـي كل من قورينة ومصر وقبرص وأنطاكية ومسـوبوتاميا. وكانت هذه الثـورة الكبرى الثانية لليهود على الحكم الروماني.ويبدو لنا أن السـبب الرئيسي الذي حدا باليهود للثورة من جديد وفي البلدان الخمسـة المذكورة هو إلغاء السلطة الرومانية لبعض الإمتيازات التي تعود اليهود أن يتمتعوا بها. وتعمدها إذلالهم بشتّى الطرق. وعجزهم عن إعلان الثورة في فلسـطين نظـراً لأنهم لم يكونوا قد التقطوا أنفاسـهم بعـد بسـبب ما ألحقـه بهم تيطس مـن بطش وتشـريد. وهدم للهيكل. ومصادرة للأموال والممتلكات. ونظراً للرقابة والحراسة المشددة التي كان الرومان يفرضونها على من تبقى من يهود فلسـطين في أعقاب ثورتهم الأولى. ولوجود الجيش الروماني بقيادة الإمبراطور نفسه على حدود بارثيا غير بعيد عن فلسطين. وإذن فإن ثورة الجاليات اليهودية في الأقطار المذكورة لابد أن تكون قد جاءت نتيجة لمؤامرة مدبرة شـاركت في طبخها الجالية الأم في فلسـطين بواسطة أفرادها الذين ظلموا ينزحون عن فلسطين بعد سنة 70 م. على شكل جدول مستمر من الهجرة.

وكانـت إلى جانب هذه الأسـباب أسـباب أخرى أهمهـا أن اليهود صاروا يكرهـون الإغريق وكل مـا هو إغريقي منـذ أن حاول الإغريق السـلوقيين أن يفرضـوا الهلّنة عليهم بالقوة. وممّا كان يؤجج لهيب تلك الكراهية جشـع اليهود واشـتغالهم بالمراباة وولعهم بالسـيطرة على رأس المـال. وثمة أمر آخـر هو أن ثورة اليهود السـابقة فـي قورينة لابد وأن تكـون قد ألحقت الأذى بإغريق قورينة وبمصالحهم بشكل مباشر ممّا زاد في كره الإغريق لليهود. ذلك الكره التقليدي الذي انبثق عن كون اليهود ركيزة للحكم البطلمي السـابق فـي برقـة. وكانت هذه الثـورة اليهودية في برقة عنيفة إلـى حد أن الحامية الرومانية عجزت عن إخمادها. واضطر الإمبراطور إلى سحب قوات من أماكن أُخرى من الإمبراطورية لتساعد في إخضاعها.

وفي البداية اتخذت هذه الثورة شـكل فتنة إما بين اليهود أنفسـهم أو بينهـم وبين الإغريق ثـم تحولت إلى صدام دامٍ بين اليهـود والرومان إثر تدخل

الحاميـة الرومانية لوضع حـد للفتنة. ولقد أكدت المصـادر المكتوبة أن هذه الثـورة لـم تقتصر علـى قورينة وحدها بل انتشـرت حتى عمّـت مدن برقة وقراهـا. وإن كانت مركزة في قورينة وضواحيها. كما إن المكتشـفات الأثرية أثبتـت صحة ما أوردتـه المصادر المكتوبة. والتف اليهـود جميعهم هذه المرة حول زعيمهم وملكهم لوقاس أندرياس «Lukaas-Andreas» لأنهم على ما يبدو لم ينسوا الدرس الذي تعلموه من ثورتهم السابقة والذي أثبت لهم أن تعاونهـم مع السـلطة ضد بعضهم البعض لا يمكـن أن يؤدي إلى ضمان مصالحهـم ومراكزهـم. فكأنّما رأوا هذه المرة أن الضمانـة الحقيقية الوحيدة لهم تكمن في اتحادهم وتكاتفهم في وجه الوثنيين الإغريق والرومان. وتمكن اليهود بقيادة زعيمهم المذكور أن يستولوا على مدينة قورينة ويستبيحوها ويحرقوهـا.. ولـم تلبث الجاليـات اليهودية الأخرى أن ثـارت في كل من مصر وقبـرص وأنطاكية ومسـوبوتاميا. ومع نهاية سـنة 115 م. أو بداية سـنة 116 م. كان التعـاون تامـاً بين يهود برقة ويهـود مصر فقد زحف يهود برقة – في شتاء سنة 116 م. على الأرجح – بقيادة زعيمهم واكتسحوا ودمروا وحرقـوا كل مـا صادفوه فـي طريقهم حتى بلغوا مشـارف الإسـكندرية. ولمّا عجزوا عن اقتحام الإسـكندرية انتشـروا في داخل مصـر وراحوا يؤازرون يهودها في تشـديد النكير على الإغريق والرومان هناك. ونحن وإن كنا نجهل التفاصيل العسكرية الخاصة بهذه الثورة إلا أنّا نعرف أنها كانت حرباً عنيفة تميزت بالشراسـة والوحشـية فقد ورد في كتاب لـ»ديوكاسـيوس» «Dio Cassius» فصـل شـرحه «كزيفيلينـوس Xiphilinus» يبين وحشـية اليهود ويصفهم بما يلي: «كانوا يأكلون لحم ضحاياهم من الناس. ويتحزمون بأمعائهـم. ويدّهنون بدمائهم. ويتدثرون بجلودهم. وكم من ضحية نشـروا جسـمه إلى نصفين من الفرق إلى القدم ! وكم مـن ضحايا أخرى ألقوا بها للوحوش الضارية وأجبروهم على مصارعة بعضهم البعض حتى الموت! وقد ذهب ضحيـة هذه الثورة في برقة حوالي مائتين وعشـرين ألفاً. وقام اليهود بأعمال وحشـية مشـابهة في مصر. وأخرى لا تقل عن غيرها وحشـية في قبرص بقيادة «آرتيميـون» «Artemion» حيث بلغ عدد ضحاياهم حوالي

مائتين وأربعين ألفاً»[52] .ويناقش «اسكندر فكس» «Alexander Fuks» مظهر هذه الوحشية فيذكر أن مراجع أخرى أصحاب تلك المراجع لم يكتبوا ما كتبوه بدوافع لا سامية. ثم يذكر أن اليهود تركوا البلاد وراءهم محروقة. وأن ليبيا (برقة) كان من الممكن أن تظل صحراء قاحلة بعد أن قتل اليهود معظم مزارعيها لولا أن الإمبراطور هدريان بذل جهوداً كبيرة وأرسل أعداداً من المستوطنين الجدد لتعميرها. وبعد ذلك يتساءل فكس عن دوافع اليهود للتصرف على النحو الذي تصرفوا به وعمّا إذا كانت حركتهم تهدف إلى تدمير البلاد والعودة إلى فلسطين. وهو وإن لم يذكر أسباب هذه الثورة فقد أشار إلى بعض أهدافها التي يقول إنّه ربما كان منها أيضا إبادة الوثنيين وآلهتهم.وفي رأينا أن أسبابها الرئيسية كانت سياسية واجتماعية وأنها جاءت تعبيراً عن تعصب اليهود الديني والعنصري.

واهتم الإمبراطور تراجان بهذه الثورة فأرسل قائده ماركيوس توربو في حملة على مصر وبرقة وأخمد بها الثورة في البلدين فقضى على الثورة في مصر في يوليو- أغسطس (تموز إلى آب) سنة 117 م. واقتحم أسوار قورينة وسحق ثورة برقة. ولا شك في أن العقاب الذي أنزلته القوات الرومانية باليهود كان متناسباً مع الجرائم التي اقترفوها فقد تعرضوا في قورينة وغيرها لحملة انتقامية استهدفت خلعهم من جذورهم حتى لا يعود بوسعهم القيام بأية ثورة جديدة في المستقبل. ونتج عن ذلك مقتل الكثيرين منهم بينما لاذ آخرون بالفرار إلى الدواخل طلباً للنجاة فالتجأوا إلى القبائل الليبية المناهضة للرومان وأسهموا في تنظيمها وتوجيه مقاومتها الطويلة للحكم الروماني. ويرى بعض الكتّاب أن هذا العنصر اليهودي اجتذب الكثيرين من البربر للديانة اليهودية وأسهم حتى في مقاومة الفتح العربي للشمال الإفريقي فيما بعد. فهذا هو جون رايت يقول في الحديث عن هذه النقطة بالذات: «ظهر في القرنين الخامس والسادس للميلاد في سهول الاستبّس على حاشية الصحراء في كل من تونس وطرابلس اتحاد

52- The Journal of Roman Studies, Vol. LXVIII, p. 32 and Vol LI parts I & II, Society for Promotion of Roman Studies, London, 1961, pp. 98 – 104, Aspects of the Jewish Revolt A.D. 115 – 117, by Alexander Fuks.

قوي لقبائل زناتة البربرية وكانت قوّته الرئيسية من الهجّانة الذين ربما كانوا يتوغلون نحو الصحراء بعد سقوط الأمطار الأولى بينما يقضون الصيف في الجبال. وقد سمي جبل نفوسة ذاته باسم عنصر يهودي مهم في اتحاد زناتة. وما زال الاعتقاد سائداً بالتأثير اليهودي، أو حتى القيادة اليهودية هما اللذان كانا السبب في ذلك التماسك غير العادي الذي تميز به اتحاد زناتة إذا ما قورن بغيره من اتحادات القبائل الصحراوية؛ فاللاجئون اليهود الذين هربوا إلى الصحراء في الجنوب والغرب من برقة بعد ثورتهم هناك سنة 115 م. ربما كانوا نواة الهجّانة الزناتيين الذين كانوا يكرهون الرومان ويناضلون ضدهم في القرون المتأخرة. والملكية الزناتية، الكاهنة داهية، التي حاربت العرب بعنف في القرن السابع الميلادي تحمل اسما يهودياً ربما كان صورة مبكرة لاسم (كوهن) الشائع حاليا بين اليهود»[53].

أما قائد الثورة لوقاس ـ أندرياس (لوقا أندريا) فلم يعرف كيف كان مصيره وإن كنا نجد إغريق الإسكندرية يمثلونه بشخصية هزلية على مسارحهم تعبيراً عن سخريتهم من آمال اليهود في الخلاص والتحرر[54]. وكان من الطبيعي أن يترتب هذه الثورة وما واكبها من أعمال تخريب وعنف. ثم ما تلاها من أعمال قمع مضادة أمران رئيسيان: مصير الجالية اليهودية في برقة والجاليات اليهودية التي كانت قد ثارت في نفس الوقت في مناطق أخرى من الشرق الأوسط. ثم مستقبل برقة بعد ما لحقها من تدمير وتخريب. أما بالنسبة للجالية اليهودية في برقة فإنّا لا نشك في أن أعداداً كبيرة منها فروا بحياتهم بعيداً عن عين السلطة الرومانية ويدها فالتجأوا إلى دواخل ليبيا بينما التجأ بعضهم إلى طرابلس حيث كانت أعداد منهم قد استقرت بعد مجيئها طلباً للتجارة والعمل في ركب الفينيقيين بينما آثر آخرون أن يبتعدوا قدر المستطاع عن برقة فوصلوا إلى بحيرة تشاد وحوض النيجر الأوسط والسنغال وغرب أفريقيا ومناطق أخرى من دواخل القسم

53- Wright, John, Libya, The Nations of the Modern World Series, Ernest Benn Limited, 1st Edition, 1969, P. 70

54- عبد العليم، مصطفى كمال، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، المطبعة الأهلية، بنغازي، 1966 ، ص 204.

الشـمالي من أفريقيا والسـودان. أما بالنسـبة للخراب الذي ألحقته الثورة اليهوديـة بمنطقة برقة فقد أسـرع الإمبراطور تراجـان ليقيلها من عثرتها وبدأ في الأيام الأخيرة من حياته يرسـل المهاجرين إلى منطقة قورينة لإعادة تعميرها. ونحن نعرف أنه عين قبيل وفاته في شـهر أغسـطس سـنة 117 م. عريفاً لمعسـكر فـي أراضي قورينة كان قد أنزل فيـه ثلاثة ألاف من الجنود المتقاعدين. وجاء بعده الإمبراطور هدريان فواصل سياسة سلفه الإصلاحية بكل جد ونشاط وأنزل أعداداً من الجنود المتقاعدين في كل من قورينة وتوكرة وأبولونّيا ومدن برقة الأخرى[55]. ولقد دلّت النقوش الكثيرة التي اكتشفت في قورينـة وبعض مدن برقـة الأخرى على أن أعمال هذا الإمبراطور قد شـملت مجالين أساسيين وهما:

أولاً: مجال العمارة: فقد نشط هذا الإمبراطور في ترميم المعابد والمباني العامـة والطرق التي خربت أثناء الثـورة. وأعاد إقامة التماثيل التي أُزيلت من أماكنها مع إصلاح أو استبدال ما هشم منها.

ثانياً: مجال الاقتصاد: فقد تبين للإمبراطور هدريان أن نسـبة كبيرة من القـوة العاملـة وخاصة المزارعين الإغريـق قد قتلوا ودمـرت مزارعهم؛ وعلى ضوء ذلك أصدر الإمبراطور قراراً يقضي بإدخال مسـتوطنين جدد للمنطقة. ولقد نشـر مؤخراً نقش يشـير إلى أن ثلاثة آلاف جندي مسـرح أحضروا إلى مدينـة قورينة. ولابـد أن بعض هؤلاء أو غيرهم قد أنزلـوا في المدينة الجديدة التي أقامها هذا الإمبراطور وسـماها باسـمه (هدريانوبولس)[56]. وإن دل هذا شـيء فإنما يدل على أن هدريان استقدم كثيراً من المستوطنين الجدد وأنزلهم فـي مختلف النواحي التـي كانت مأهولة قبـل قيام الثـورة اليهودية. إذ لا يعقـل أن يقتصر برنامج الإمبراطور الإصلاحي على مدن بعينها مثل قورينة وأبولونيـا وصفصافـة والقبة. ولعل من المفيد بهذا الخصوص أن نشـير إلى عبارة «مصلح ليبيا» «Restitutor Libyae» التي وردت على نقود هدريان.

55- The Journal of Roman Studies, Society for Promotion of Roman Studies, London, Vol. XL, parts I & II, 1950, pp 87 – 88.

56- عبد العليم، مصطفى كمال. دراسـات في تاريخ ليبيا القديم. المطبعة الأهلية. بنغازي. 1966 . ص 204 - 205.

ويذكـر أيضاً أن خلفاء هدريـان تابعوا برنامجه الإصلاحي من بعده لان عصره وحـده لم يكن كافياً لإصلاح الخراب الشـامل الذي أحاق ببرقة والذي جعلها «لفترة طويلة من الزمن منطقة شـبه خالية من السـكان. فقيرة جدا في الموارد وفي الإمكانات ولم تجد في إصلاحها وتعميرها بالسكان محاولات من خلف تراجان من أباطرة الرومان. وفقدت وإلى آخر العهد الروماني ذلك الوجه الحضاري الذي اشتهرت به قبل تلك الثورة في التاريخ»[57].

57- بازامه، محمد مصطفى. بنغازي عبر التاريخ. دار ليبيا للنشـر والتوزيع. بنغازي 1968. جـ 1. ص 188 – 189.

التنظيم الروماني الإداري والمدني في ليبيا

أولاً: في عهد الجمهورية (146 – 29 ق.م.)

بعد تهديم قرطاجة في أعقاب الحرب البونيقية الثالثة سنة 146 ق.م. ابتلعت مملكة نوميديا، حليفة روما، معظم الأراضي التي كانت تابعة لقرطاجة ولم يبق منها سوى موقع قرطاجة نفسها ومساحة صغيرة حول ذلك الموقع وبعض المدن الفينيقية مثل يوتيكا التي لم تقف إلى جانب قرطاجة في صراعها مع روما. وقامت روما بضم موقع قرطاجة والأراضي الملحقة به إليها كأول ولاية إفريقية وسمتها «إفريقيا الرومانية» «Africa Romana» وكانت حدودها تبدأ من مصب الوادي الكبير قرب طبرقة وتمتد حتى جنوبي طينة على خليج سرت الصغير (=خليج قابس). وقد عين سكيبيو أفريكانس حدود هذه الولاية بخندق أمر بحفره بينها وبين الأراضي النوميدية وهو الخندق الذي عرف باسم «Fossa Scipionis» أي خندق سكيبيو. ولكن الرومان كانت وساوسهم تمنعهم من استصلاح هذه الولاية واستعمارها خوفاً من اللعنة التي كانوا يعتقدون بحلولها على قرطاجة. ولذلك فهم لم يفعلوا شيئاً سوى حفر الخندق والقيام بمسح أراضي هذه الولاية ما عدا المدن السبع التي كانت روما قد منحتها حريتها مكافأة لها على تخليها عن قرطاجة أثناء الحرب البونيقية الثالثة[58]. وقد ظلت هذه الولاية على تلك الحالة حتى أيام الإمبراطور أوغسطس الذي كان يتمتع بشجاعة تكفي لتمكينه من إهمال مخاوف قومه ووساوسهم فعمر قرطاجة الرومانية على أنقاض قرطاجة البونيقية واستقدم لها عدداً كافيا من المهاجرين الرومانيين وصارت بعد ذلك عاصمة للولاية بعد يوتيكا[59].

58- المدن السبع هي: يوتيكا، حدرموت (= سوسة)، لبدة الصغرى (= لمطة)، ثابسوس (= رأس الدماس قرب المهدية)، إشولة (= جمة أو رأس بوطرية)، إسولة (= إنشيلة شمالي صفاقس) وثوداليس (= عين طلة؟).

59- صفر، أحمد، مدنية المغرب العربي في التاريخ، دار النشر – بو سلامة، تونس، ج 1، ص (297).

أما في ليبيا فإن المستوطنات الفينيقية في منطقة طرابلس كان مسينسا قد انتزعها من قرطاجة بموافقة روما في الستينات من القرن الثاني قبل الميلاد. وقد ظلت تابعة لمملكة نوميديا حتى سنة 111 ق.م. عندما عقدت روما حلفاً مع لبدة بناء على طلب الأخيرة. ويعتقد أن أويا وصبراتة حذتا حذوّ لبدة وبذلك دخلت هذه الحليفات الصغيرة تحت نفوذ الحليفة القوية روما. وفي برقة كان بطليموس أبيون قد أوصى ببرقة للرومان قبيل وفاته سنة 67 ق.م. فضموها إليهم بين سنتي 75 و 74 ق.م. دمجوها في ولاية واحدة مع كريت وظلت كذلك حتى عهد أوغسطس حينما بدأ الرومان يعتنون باستثمارها. وعندما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وبيزنطية في عهد قسطنطين الكبير ألحقت برقة بالإمبراطورية البيزنطية وظلت حتى فتحها المسلمون.

وفي أواخر العهد الجمهوري في روما أحدث يوليس قيصر بعد انتصاره على بومبي عدة تغيرات تنظيمية فجعل من نوميديا الشرقية ولاية إفريقيا الجديدة «Africa Nova » وضم لها منطقة طرابلس الساحلية. وكانت الولاية الجديدة تمتد موازية لولاية إفريقية الرومانية ويحدها من الغرب خط يمر غربي عنابة في الجزائر وغربي قالمة ويتجه جنوباً حتى سواحل خليج قابس.

أما ولاية إفريقية الرومانية فقد غير اسمها إلى إفريقية القديمة «Africa Vetus» وظلت رقعتها كما كانت، محصورة بين البحر وخندق سكيبيو.

ثانياً: في عهد الإمبراطورية (29 ق.م. – 439 م.)

في سنة 27 ق.م. دمج الإمبراطور أوغسطس هاتين الولايتين القديمة والجديدة في ولاية بروقنصلية أو إفريقية فقط.ولقد سبق أن أشرنا إلى أن الإمبراطور أوغسطس كان قد اتفق مع مجلس الشيوخ الروماني على اقتسام إدارة الولايات بحيث تكون الولايات المسالمة الهادئة التابعة لمجلس الشيوخ بينما تتبع الولايات الأخرى للإمبراطور. وكانت ولاية افريقية

البروقنصلية تابعة إدارياً لمجلس الشيوخ الذي يتولى تعين والٍ لها برتبة بروقنصل «Proconsul» أي نائب قنصل يشرف على سير الأحوال فيها فكان يشرف على تطبيق القانون داخل الحدود البلدية للمدن ويتولى تطبيقه خارج تلك الحدود. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان البروقنصل معنياً في الدرجة الأولى بشؤون الضرائب. والضرائب الرومانية كانت عبارة عن نوعين: ضرائب مباشرة وضرائب غير مباشرة. ولقد ظل أساس الضرائب المباشرة في منطقة طرابلس يستند إلى الضريبة التي كان يوليس قيصر قد فرضها على لبدة – وإن كان من المعتقد أنها خفضت فيما بعد نتيجة للمسح الذي أجري في عهد أوغسطس لتقدير مدى ما كان لكل ولاية من الولايات أن تتحمله من الضرائب. أما الضرائب غير مباشرة فكانت أربعاً:

1- رسوم جمركية تفرض على البضائع المستوردة براً وبحراً.

2- رسوم وفاة تؤخذ من تركة المتوفى بمقدار 5% وكانت تطبق على المواطنين الرومان فقط.

3- رسوم على تجارة جل الرقيق مقدارها 5% من ثمن الرأس الواحد.

4- رسوم على تجارة بيع الرقيق مقدارها 4% من ثمن الرأس الواحد.

وكانت هذه الضرائب غير المباشرة تحال على المتعهدين سواء كان المتعهد فرداً أو شركة. خلال القرن الميلادي الأول فيدفع المتعهد قيمة الضرائب ويجبي هو أقصى ما يستطيع جبايته من الأهالي. وقد بذل الإمبراطور أوغسطس جهوداً كبيرة في سبيل القضاء على ما في هذا النظام من عيوب ومساوئ كانت سبباً في الفضائح الكثيرة التي وقعت في أواخر العهد الجمهوري في روما. وفي أيام الإمبراطور فسبسيان (69-79 م.) كان لكل دائرة إفريقية مجلس ولاية «Concilium» له صلاحية تخطي البروقنصل وتقديم الظلامة مباشرة للإمبراطور. وفي عهد تراجان أوقف العمل بنظام المتعهدين في جباية الضرائب غير المباشرة وأصبح يتولى تحصيلها موظفون رسميون تابعون للإمبراطور. وكان مكتب الضرائب الرسمي في لبدة يتكون مكن دائرتين إحداهما مسئولة عن تحصيل الضرائب المستحقة على البضائع

المستوردة بحراً وعلى الوفيات. والأخرى تختص بتحصيل الضرائب المستحقة على البضائع المستوردة براً وعلى حلب وبيع الرقيق.

ولما كان البروقنصل وموظفوه القليلون لا يستطيعون القيام بالروتين الحكومي جميعه. فإنهم صاروا يعتمدون كثيراً على البلديات وأجهزتها المحلية. وهذا يفسر لنا عدم تدخل الرومان في الشئون البلدية في المدن الثلاث التي استمرت تحتفظ بنظامها البلدي ودساتيرها البلدية الفينيقية طيلة العصر الروماني. وقد رد الإمبراطور أوغسطس لهذه المدن الثلاث حريتها التي سلبها إياها يوليس قيصر فأبح الآن لا يجوز للبروقنصل أن يتدخل في شئونها البلدية. وفي القرن الميلادي الثاني رفع مستوى المدن الثلاث إلى درجة مستوطنات «Colonies» وبذلك نالت هذه المدن حقوق المواطنة الرومانية وأصبح سكانها مواطنين رومانيين لهم حقوق ابن روما وعليهم واجباته. وكانت أولى هذه المدن في الحصول على تلك الحقوق مدينة لبدة (109-110 م. في عهد تراجان) ثم أويا (حوالي 150 م.) ثم صبراتة في عهد الإمبراطور أنطونيوس بيوس (137-161 م.)[60] ولقد احتفلت المدن الثلاث بهذا التقدير الذي منحتها إياه روما فبدأت تضع صور الأباطرة على عملاتها إعراباً عن اعترافها بالجميل. ولابد أن نذكر بهذا الصدد أن روما كانت تمنح درجة مستوطنة «Colony» لمدن ولاياتها إرضاء لكبرياء تلك المدن عن طريق إشعارها بأنها صارت عبارة عن أجزاء من مدينة روما نفسها واقعة ليس في روما وإنما خارجها في الولايات المعنية. وإن دلَّ تزايد إقبال مدن الولايات على المطالبة بهذا الشرف خلال القرن الميلادي الثاني على شيء فإنما يدل على ارتفاع أسهم شعبية الحكم الروماني. كما أن انتشار تلك الشعبية على نطاق واسع يدل على تزايد أهمية الولايات بالنسبة للعاصمة. ولقد كانت العاصمة نفسها تستفيد معنوياً ومادياً من منح حق المواطنة الرومانية لمدن الولايات: فهي كانت تستفيد معنويا لتزايد شعبيتها بتزايد عدد المدن والجماهير المرومنة. وكانت تستفيد مادياً لأن تلك الجماهير التي

60- بالنسبة لمدن برقة ومسألة اكتساب حقوق المواطنة الرومانية سميت كل من سيرين وتوكرة باسم «Colonia» وذلك على لوح «Tabula Peutingeriana» ولكننا لا نعرف متى منحتا ذلك الحق ولا نعرف مدى تأثيره على دستوريهما الداخليين.

كانت تسكن مدن الولايات المرومنة صار ينطبق عليهم قانون تحصيل ضرائب الوفيات الذي سبق الإشارة إليه. أما مدن الولايات نفسها فلم تكن تجني من منحها حقوق المواطنة الرومانية سوى الفائدة المعنوية. وإن كانت هنالك ظروف خاصة تؤدي إلى منح مدينة من ذلك النوع امتيازاً إضافياً يعفيها من ضرائب العقارات وتصبح وكأنّها إحدى المدن الإيطالية. وقد تمتعت مدينة لبدة بهذا الامتياز الذي منحها إياه ابنها البار سيبتيموس سويرس مناسبة زيارته لها سنة 203 م. ومن باب العرفان بالجميل سمى أبناء لبدة مدينهم سبتيميا «Septimia» وسموا أنفسهم سبتيميين «Septimiani». ولكن تسرعت تحت تأثير ذلك المد العاطف فتعهدت مختارة أن تمد روما مجاناً بكمية سنوية من زيت الزيتون. فلم يلبث هذا التبرع حتى تحول إلى التزام على لبدة. وحقٍّ لروما تطالب به إن تأخر عن موعده.

ولما حصلت المدن الثلاث على حقوق المواطنة الرومانية وأصبحت بدرجة مستوطنات رومانية بدأت تغير حكمها المحلية أو على الأصح تغير أسماء تلك النظم. التي كانت لا تزال فينيقية. ولكي تنسجم مع التقاليد الرومانية. وصارت كل مدينة تقسم سكانها إلى دوائر انتخابية على غرار الحال في روما. ولقد سمت لبدة ثماني دوائر من دوائرها الانتخابية الإحدى عشرة المعروفة بأسماء أسرة تراجان اعترافاً بجميله في منحها حقوق المواطنة الرومانية كاملة. وربما كانت تسمية صبراتة لدوائرها بأسماء أسرة أنطونيوس بيوس ترجع لسبب مماثل. وكانت الدوائر الانتخابية في كل مدينة تشكل بمجموعها الجمعية الوطنية للمدينة. تلك الجمعية التي كانت تتولى القيام بالأمور الشكلية من مثل المصادقة على ما يقدم إليها من مشروعات. والتصديق على المرسومات التكريمية. وانتخاب القضاة من ضمن قائمة أسماء أشخاص جرى ترشيحهم مقدماً. ونتيجة لإصلاحات الإمبراطور ديو فلتيان (285-305 م.) أصبحت منطقة طرابلس ولاية قائمة بذاتها وأصبحت لبدة عاصمة لها.

الحياة في المدن الرومانية

سلكت المدن الثلاث في منطقة طرابلس والمدن الخمس في منطقة برقة على نحو ما سلك غيرها من المدن في الولايات المختلفة فبدأت تقلد روما ليس في نظمها وشرائعها فحسب وإنما أيضاً في كل وجوه حياتها. والمعروف عن المدينة الرومانية أن مركز الحياة فيها هو الفورم «Forum» وهو عبارة عن ساحى مرصوفة ومكشوفة لا تصل إليها وسائل النقل ذات العجلات. وتحيط بها المعابد الرئيسية والأبنية العامة بالإضافة للمكاتب والحوانيت. وبذلك فإن الفورم كان يقوم بوظيفة المركز الاجتماعي ومركز المعلومات وساحة الاجتماعات الشعبية: فكان الرجل يذهب إلى الفورم ليرى أو يسمع ما في مدينته من جديد وليتبادل الاحاديث مع أصدقائه في ظل الأعمدة المحيطة بالفورم أو ليتمشى في المساء بين التماثيل المقامة برسومات بلدية تكريماً للأباطرة والمحسنين من أبناء المدينة. وكان الناخبون يجتمعون في الفورم للسماع للقضاة أو للتصويت. وكانت منابر الخطابة تقام أغلب الأحيان أمام المعابد الخاصة «بروما» من مثل معبد «روما وأوغسطس» في لبدة وباستثناء المعابد كانت أهم الأبنية المقامة على الفورم هي بناء الكوريا «Curia» وبناء الباسيليكا «Basilica». وكانت الكوريا عبارة عن القاعة التي كان المجلس البلدي «Ordo Decuniorum» يعقد اجتماعاته فيها برئاسة القضاة السنويين. أمّا الباسيليكا التي يمكننا أن نقول إنها كانت امتداداً للفورم فقد كانت مسقوفة للوقاية من الشمس والمطر. وكانت تقوم فيها المحاكم والبورصة كما كان يسمح لعامة الشعب بالدخول إليها بحرية فيتسلون بالاستماع إلى المحاكمات. أو المساومات بين التجار. أو المحاضرات العامة.

ولم يكن الفورم المكان الوحيد الذي يمكن للأهالي أن يرتادوه فقد كانت أعداد كبيرة منهم ترتاد الحمامات بعد الظهر محققين لأنفسهم غايتين: واحدة اجتماعية والأخرى صحية. وكان «الروتين» المتبع في الاستحمام هو: حمّام حار. حمام فاتر ثم حمام بارد. وكان كل من هذه الحمامات في غرفة منفصلة فالحمام الحار في غرفة تسمى كلداريوم «Caldarium» والفاتر في غرفة تسمى تبيداريوم «Tapidarium» ثم يأتي الحمام الثالث وهو

البارد المسمى فريجيداريوم «Frigidarium» وفيه بركة للسباحة وأماكن للاستراحة يجلس فيها الخارجون من الحمامات الأخرى بعض الوقت قبل الخروج إلى الشارع. وكان المستحم في العادة يبدأ بالحمام البخاري المعروف باسم لكونكم «Laconicum» كما كان المستحمون يدهنون أجسامهم بزيت الزيتون بدلاً من الصابون. وكان الأثرياء منهم يحضرون عبيدهم معهم أو يستأجرون خدم الحمامات لتدليكهم وتجفيف الزيت عن أجسامهم.

وكان يتصل بالحمامات عدد من المراحيض العامة المعروفة باسم «فوريكا» «Forica» والتي لا تزال بقاياها قائمة في كل من لبدة وصبراته وقورينة وكان المواطنون عامة يستعملونها لقاء دفع رسوم ضئيلة على غرار ما هو معروف الآن في دورات المياه في أوروبا. ولما لم تكن المراحيض موجودة في المنازل، إلا في قليل من منازل الكبراء والأثرياء، فإن وجود المراحيض العامة كان ضرورة لا غنى عنها.

أما وسائل الترفيه الرئيسية فقد كانت: المسرح، المسرح المدرج وميدان سباق الخيل. وكان المسرح أشبه بقاعة الموسيقى من حيث أن النشاط داخله كان مقصوراً على التمثيل الإيمائي المصحوب بالموسيقى والأوركسترا. وكان الممثل الواحد يقوم بأدوار شخصيات الرواية جميعها إلا أنّه كان يغير قناعه بين دور وآخر. وكانت موضوعات مثل هذه التمثيليات تؤخذ من الأساطير الإغريقية كما ان الممثل الإيمائي البارع كان يحظى بشهرة واسعة على غرار ما هو الحال في أيامنا بالنسبة لنجوم السينما والمسرح.

وبالنسبة للمسرح المدرج فقد وجد تصوير للنشاط الذي كان يتم عليه في رصيف من الفسيفساء عثر عليه في «فيلا داربوك عميرة» قرب زليطن وهو موجود حالياً في متحف السراي الحمراء بطرابلس. ويصور جانبان من هذه الفسيفساء عملية صيد الحيوانات البرية التي كانت تتم عادة في الصباح في حلبة تحول إلى أشبه ما يكون ببقعة مكشوفة في وسط غابة. ثم يظهر الصيادون وكلابهم وهم يجهزون على غزال وبقرة وحشية وحمار وحش وعدد من النعام، بينما يظهر دب وثور، ربطا ببعضهما وهما يقتتلان

حتى الموت. وإلى جانبهما منظر هذلي لأحد الأقزام وخنزيره الأليف. ومن بين المناظر الأخرى منظر إعدام المجرمين وأسرى الحرب بتقديمهم للوحوش المفترسة. وفي هذا المنظر نرى اثنين من هؤلاء المنكودي الحظ وقد شدا إلى أعمدة خشبية مثبتة إلى عربتي يد. وقد دفعت إحدى العربتين وظهر نمر يجهز على إحدى الضحيتين بينما ظهرت العربة الثانية يدفعها أحد حراس الحلبة نحو وحش آخر. وفي منظر آخر يبدو شخص منكود ثالث يجره أحد حراس الحلبة من شعره ليقذفه أمام أسد ضارٍ. وقد فسر أحد الكتاب مناظر الضحايا الثلاث بأنها ترمز لمن أعدموا من الجرامنتيين في أعقاب حملة فاليريوس فستوس «Valerius Festus».

وعلى الجوانب الأخرى من هذه الفسيفساء مناظر للمصارعين الذين أخليت لهم الحلبة بعد الظهر، وهم يظهرون مسلحين بأنواع مختلفة من الأسلحة التقليدية في عصرهم. وكانت العادة أن تجري المبارزة بين متصارعين مسلحين بأسلحة متغايرة. وفي هذا المشهد الذي تصوره الفسيفساء المذكورة تجري المصارعة على أنغام فرقة موسيقية تستخدم طبلاً وبوقاً وأرغناً. ويظهر أن عدداً من المصارعين قد انتهوا. وكان المصارع المغلوب يرفع ذراعه اليسرى إشارة لاستسلامه، وآنذاك ينظر الحكم إلى القاضي المترئس للمكان مسترشداً بقراره الذي كان كثيراً ما يعطي وفقاً لرغبة المشاهدين. فإذا رفع القاضي إبهامه الأيمن إلى أعلى كان معنى ذلك الإبقاء على حياة المصارع المغلوب، أما إذ أشار بإبهامه ذاك إلى أسفل فمعنى ذلك أن على المنتصر أن يجهز على خصمه المغلوب بضربة الرحمة. وقد تستمر المصارعة عدة أيام متتالية فقد اكتشف نقش يرجع إلى حوالي سنة 200 م. وهو يذكر أنن عرض مصارعة استمر خمسة أيام متتالية في صبراتة، ولكنه يضيف أن ذلك العرض كان أول عرض بهذا الطول يجري في صبراتة.

وفي الحديث عن ميدان سباق الخيل أو السيرك «Circus» نذكر أن لبدة هي الوحيدة بين المدن الثلاث التي كان بها ميدان سباق دائم مرصوف بالحجارة مع احتمال أن كلا من أويا وصبراته كان بها ميدان مشابه ولكن مفروش بالخشب. ولا تزال آثار ميدانين مشابهين قائمة في سيرين وطلميثة. وكان

السباق الشائع في تلك الأيام هو سباق العربات التي تجرها أربعة من الخيول. وكان يشترك في الدفعة الواحدة عدد من العربات أقصاه اثنتا عشرة عربة تجري عادة سبع دورات حول الميدان باتجاه يعاكس عقرب الساعة. وفي وسط ميدان السباق هذا كانت تشهر على حاملات مرتفعة إما سبع بيضات أو سبع نوافير ماء على شكل سمكة الدُّلفين أو الدُّخس «Dolphin». ومع نهاية كل دورة حول الملعب كانت تؤخذ بيضة أو تسكر نافورة لإعلام الجمهور بعدد الدورات التي انتهت وعدد الدورات الباقية. وكثيراً ما كانت الحوادث تقع أثناء السباق فتصطدم عربة بأُخرى فتحطمها وتتحطم هي عليها صدفة أو عمداً؛ وقد وجد مشهد يمثل هذه الحوادث في أحد القبور في قرقارش. وممّا كان يزيد في حماس المشاهدين للسباق أن الرهان كان مسموحاً به. ولا نخطيء إذا افترضنا أن الحال في لبدة كانت تشبه الحالة في روما والمدن الكبرى الأخرى من حيث أن المتسابقين كانوا يحملون ألواناً مميزة هي: الأحمر أو الأبيض أو الأزرق أو الأخضر. ومن حيث أن الجمهور المشاهد كان ينقسم في حماسه وتشجيعه تبعاً لتلك الألوان. وما ينطبق على لبدة ينطبق على أويا وصبراته وسيرين وطلميثة.

ولعل خير ما يمثل الحياة الاجتماعية في مدن منطقة طرابلس حوالي منتصف القرن الميلادي الثاني هو أبولوجيا أو اعتذار أبوليس «Apuleius». وقبل أن نسرد قصة الأبولوجيا نجد لزاماً علينا أن نعرف بأبوليس لأنه كان شخصية غريبة جديرة بالتصوير. ولد لوسيوس أبوليس في مدينة مدورا «Madaurs» على بعد ثمانين ميلاً إلى الجنوب الغربي من قرطاجة سنة 124 م. من أسرة ثرية عريقة النسب. وتلقى دراسته في مدورا ثم في قرطاجة فأثينا. وبدد الثروة الكبيرة التي ورثها عن اسرته في تنقلاته من مدينة لأخرى. تلك التنقلات التي كان خلالها ينتقل من دين لآخر وينظم إلى الجماعات ذات الطقوس الدينية الخفية وقد مارس السحر. وألف كتباً كثيرة في موضوعات مختلفة من اللاهوت إلى مسحوق الأسنان. وألقى محاضرات في الفلسفة والدين في روما وغيرها من المدن. ولو قدر لأبوليس أن يبعث بعد وفاته لساءه أن يجد نفسه مشهوراً بين أبناء منطقته بسبب أقل أعماله

شأناً وهو كتابه المسمى «الحمار الذهبي». وكان الأسم الأول لهذا الكتاب هو «Metamorphoseon Lebri XI» أي «أحد عشر كتاباً في التحويل» والكتاب عبارة عن توسع غريب في قصة يرويها لوسيوس البتراسي عن رجل أنقلب حماراً. ويتألف من سلسلة غير مرتبطة من المغامرات. والوصف. والحوادث المحشورة فيه حشراً. يتخللها السحر والرعب والفحش في القول. والحديث عن التقوى المرجأ. ويروي لوسيوس. بطل القصة. كيف طاف بتساليا واستمتع فيها بعدد من الفتيات. وألفى نفسه اينما حل في جو من السحر. ومما جاء في ذلك الكتاب: «وما كاد الليل ينقضي ويبدأ فجر يوم جديد حتى كان من حظي أن أستيقظ. وأن أقوم من فراشي وأنا نصف مذهول. راغب حقاً في أن أعرف وأرى أشياء عجيبة محيرة... والحق إني لم أكن أرى شيئاً وأعتقد أنه كما أراه في الواقع. بل إن كل شيء بدا لي أنه قد تحول إلى صورة أخرى بتأثير قوة السحر الخبيثة. وبلغ من قوة اعتقادي هذا أن ظننت أن الحجارة التي قد تعثر بها قدماي تصلبت واستحالت من رجال إلى الصورة التي هي عليها. وأن الطيور التي سمعتها تغرد والأشجار والمياه الجارية. استحالت إلى هذا الرش والورق ومنابع الماء. من صور أخرى غير هذه الصور. وكذلك ظننت أن التماثيل والصور ستتحرك في مستقبل الأيام. وأن الجدران ستتكلم وتروي أخباراً عجيبة. وأني سأسمع من فوري وحياً من السماء ومن شعاع الشمس».

وعند هذا الحد كان لوسيوس قد أصبح مستعداً لأية مغامرة يريدها ولذلك فهو يدهن جسمه بمرهم سحري. وهو شديد الرغبة في أن يستحيل طائراً. ولكنه حين يدلك نفسه بهذا المرهم يستحيل حماراً. وتروي القصة بعدئذٍ ما يلقاه ذلك الحمار «الذي له إحساس الإنسان وإدراكه» من محن. وكان عزاؤه الوحيد «أُذني الطويلتين اللتين أستطيع بهما أن أسمع كل شيء ولو شديد البعد عني».

وقد قيل له إنه سيعود إلى صورته الآدمية إذا عثر على وردة وأكلها. وهي أمنية يدركها بعد أن يمر بطائفة كبيرة من الحظوظ الحمارية منها ما هو طيب ومنها ما هو سيء. ثم كره الحياة. فلجأ أولاً إلى الفلسفة. ثم إلى

الدين. وألف دعاء يشكر فيه «إيزيس» شكراً بينه وبين ابتهال المسيحيين إلى أم الرب شبه عجيب. ثم يحلق رأسه ويقبل في الطبقة الثالثة من أتباع «أيزيس» المبتدئين ويرصف طريقاً يعود به إلى الأرض بعد أن يفسر حلماً يأمره فيه «أوزوريس» – أعظم الآلهة – بأن يعود إلى وطنه ويشتغل بالقانون.

وقدم أبوليوس في أحدى رحلاته إلى أويا من مدورا في طريقه إلى الإسكندرية ولكن المرض قعد به في أويا حيث كان يسكن صديقه وزميله في الدراسة في أثينا سيسينيوس بونتيانوس «Sicinius Pontianus» مع والدته الأرملة الثرية إميليا بودنتيلاّ (Emelia Pudentilla). وعندما سمع بونتيانوس بمرض أبوليس عرض عليه السكنى معه ومع والدته في منزلهما الواقع على البحر فقبل أبوليس ذلك العرض شاكراً. وكان بونتيانوس يهدف من وراء هذه الدعوة إلى إقناع صديقه أبوليس بالزواج من والدته إميليا حماية لثروتها من الوقوع في يد زوج غير مرغوب فيه. واحتفظ بونتيانوس باديء الأمر بخطته هذه سرا حتى حانت اللحظة المناسبة وذلك عندما دعي أبوليس لإلقاء محاضرة في باسيليكا أويا. وكانت محاضرته ناجحة وسعد مستمعوه بما تجلى فيها من فصاحة إلى حد أنهم بدأوا يتوسلون إليه أن يقيم في أويا وأن يقبل أن يصبح أحد أبنائها. وبهذه المناسبة تقدم بونتيانوس بخطته لصديقه ونجح في أقناعه بالبقاء في أويا وبالزواج من والدته. وبدأ زواجهما سعيداً ولكنه لم يلبث أن تعكر نتيجة المؤامرات التي بدأ أقارب إميليا يدبرونها لأن مطامعهم في ثروتها قد خابت بسبب هذا الزواج. ولذلك فقد شنوا حملة تشهير ضد أبوليس انتهت باتهامه رسمياً بأنه إنما حمل إميليا على الموافقة على الزواج منه بوساطة السحر. وبموجب تلك التهمة قدم أبوليس للمحاكمة في صبراته حيث وقف يدافع عن نفسه أمام رئيس المحكمة البروقنصل «كلوديوس مكسيموس» «Claudius Maximus» الذي كان صديقاً له. والأبولوجيا هي الخطبة التي ألقاها أبوليس في محكمة صبراته ففي هذه المناسبة. وتجلى ذكاؤه وبلاغته بشكل أدهش مستمعيه من أبناء الولاية ومكنه من الفوز بالبراءة. ولكنه لم يلبث بعد ذلك أن رحل عن أويا مع زوجته إميليا إلى قرطاجة حيث قضّى بقية حياته يمارس صناعتي

الطب والمحاماة. وكتابة الرسائل. والخطب. ولكن معظم ما كتبه كان في الموضوعات العلمية والطبيعية. وقد أقامت له مدينته نصباً تذكارياً نقش عليه باللاتينية الكلمتان: «الفيلسوف الإفلاطوني».

وأبوليس هو الشخصية الأدبية اللامعة الوحيدة التي لها ذكر في منطقة طرابلس في هذه الفترة. ونحن لا نجد أثرا لتلك الفورة الفكرية التي تميزت بها إفريقية الرومانية بشكل عام والتي أدت إلى ظهور كتاب من مستوى رفيع مثل أبوليس نفسه وتيرتوليان (Tertullian) وأوغسطس (Augustine). وهذا يعني أنه بالرغم من وضوح الرومانية الشديدة في المظاهر الخارجية للحياة في المدن الثلاث إلا أننا نجد المحافظة الشديدة تسيطر على الحياة الفكرية كما أننا نجد هذه المنطقة فينيقية أكثر منها رومانية في مجال الأدب والدين وصحيح إن اللغتين واللاتينية طكانتا مستعملتين رسميا ولكن اللغة الفينيقية كانت أكثر شيوعا كما أنها كانت لغة التخاطب بين الناس. وبالرغم من إن اللغة الإغريقية كانت تحتل المرتبة الأولى كلغة للمفكرين والأدباء والمثقفين ثقافة عالية. إلا أننا نجد مبادئها الأساسية فقط تدرس في منطقة المدن الثلاثة. فإذا أراد أحد أبناء المنطقة أن يتابع تعليمه العالي كان عليه أن يطلبه في قرطاجة الرومانية أو في روما أو في أثينا. ومن الناحية الدينية أستمر أبناء منطقة المدن الثلاثة متمسكين بآلهتهم وطقوسهم الفينيقية وإن كانوا قد بدأوا يطلقون عليها أسماء رومانية فسموا ملكارت هيركوليس وأسموا أشمون أبولو وأسموا عشتار منيرفا وقينوس وهكذا. وظلت هذه الحالة سائدة حتى دخول المسيحية إلى هذه البلاد. فنحن نسمع عن وجود أسقف مسيحي في لبدة في نهاية القرن الميلادي الثاني كما نسمع عن وجود مركز معمداني في كل من أويا وصبراته وقت انعقاد مجمع قرطاجة سنة 256 م.

الزراعة والتجارة:

كان اقتصاد منطقة طرابلس خلال العهد الروماني يرتكز في الدرجة الأولى على تصدير زيت الزيتون. وبالرغم من أن زيت الزيتون الإفريقي كان

يعتبر ثقيلا بالنسبة لأغراض الطبخ إلا أن الطلب عليه في تزايد بسبب استعماله للتدليك في الحمامات ولأغراض الإضاءة. ولعلنا نستطيع أن نتصور النطاق الواسع الذي كانت زراعة شجرة الزيتون قد بلغته مع بدء العصر الروماني عندما نتذكر مقدار الغرامة السنوية الضخمة التي فرضها يوليوس قيسر على لبدة والتي كانت عبارة عن عشرة ملايين لتر من الزيت؛ فقد قدر ذوو الاختصاص أن تلك الكمية كانت تعادل إنتاج ما لا يقل عن مليون شجرة من الزيتون[61]. ولقد أدى وجود رؤوس أموال رومانية ضخمة في منطقة طرابلس في العصر الروماني إلى تشجيع زراعة شجرة الزيتون وتوسيع الرقعة المزروعة بها. فلما أهل القرن الميلادي الثاني كان جميع الجبل الغربي من ترهونة إلى البحر ومن حافة الجبل إلى وادي ترغلات مكسواً بمزارع الزيتون الكثيفة. ولا نكاد نشك في أن مزارع واسعة من الزيتون كانت تكسوا القسم الشرقي من سهل الجفارة خاصة حول أويا وصبراتة. ولقد تم التأكد كذلك من وجود مزارع للزيتون في منطقة الزنتان وفي مناطق مصراته الداخلية، وحول خليج سدرة. ونحن نعرف أن الإمبراطور هدريان شجع البدو على استغلال الأراضي الداخلية التي لم تكن قد شجرت حتى ذلك الوقت فكانوا يشجرونها على حسابهم الخاص مقابل تأمين ملكيتها لهم من ناحية وإعفائهم من الضرائب التي كانت تجبى عادة من أشجار الزيتون وكروم العنب من الناحية الأخرى. ولا بد أن هذا التشجيع أدى إلى ظهور إعداد جديدة من المزارع. أما على الساحل فإن المزارع التي كانت شائعة عي المزارع المتنوعة الإنتاج التي كانت تهدف إلى أن تكون مكتفية ذاتيا أو إلى أن تزود الأسواق بالمنتجات المختلفة.

وفي الوقت الذي نرى فيه إن الزراعة كانت تشكل المورد الرئيسي لثروة منطقة طرابلس في هذه الفترة فنحن نعلم أن تجارة القوافل عبر الصحراء لقيت تشجيعا كبيرا نظرا لاستتباب الأمن وانتشار شبكة الطرق الرومانية

61- أنظر أيضا ديورانت . ول . قصة الحضارة . ترجمة محمد بدران . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . الطبعة الثانية. 1959 . القاهرة ج3م3 . ص31 . حيث يقول : « وجد العرب حين قدموا إلى الشمال الإفريقي في القرن السابع الميلاد أن في وسعهم أن ينتقلوا من طرابلس إلى طنجة دون أن يبتعدوا عن ظلال أشجار الزيتون» .

المترامية الأطراف. ولذلك فقد نشطت القوافل العابرة للصحراء من أواسط إفريقيا ناقلة الفيلة والعاج والذهب والرقيق إلى صبراته وأويا ولبدة. وإذا تذكرنا أن عدد الحيوانات التي كانت تقتل في اليوم الواحد في المسرح المدرج في روما كان يصل إلى خمسة آلاف. استطعنا أن نكون فكرة عن أهمية المتاجرة في الحيوانات البرية كالفيلة والأسود والنمور التي كان لا بد لها أن تمر في أحد موانئ طرابلس. تلك الموانى التي كانت مدخلا للسلع المستوردة من وراء البحر لتسير في الاتجاه المعاكس أي إلى الدواخل. ولقد أثبتت الحفريات التي أجريت في مقابر جرما وجود مصابيح رومانية وأواني فخارية وزجاجية تتراوح تواريخها بين أواخر القرن الميلادي الأول والقرن الميلادي الرابع.

وفي المجال الصناعي لم تكشف الحفريات حتى الآن عن شيء ذي بال باستثناء بعض قطع الآنية الفخارية التي يرجع تاريخها إلى القرن الميلادي الرابع. وهي تدل على أن هذه الصناعة كانت متأخرة وتنتج للاستهلاك المحلي فقط. والصناعة المحلية الوحيدة التي ذاع صيتها في الخارج هي صناعة الجروم «Garum»، وهو نوع من المشهيات كان يستحضر من السمك المملح؛ وقد اشتهرت لبدة بهذه الصناعة بشكل خاص.

عصر الانحطاط

بمقتل اسكندر سويرس سنة 230 م. انتهت أسرة سويرس وانتهى معها عهد الأباطرة الإفريقيين وغرقت الإمبراطورية الرومانية في فوضى عسكرية دامت نصف قرن وأوصلت الإمبراطورية إلى حافة الهاوية مما شجع الأعداء المتحفزين خارج حدودها على مهاجمتها. وكان أول ضحايا هذه الحرب الأهلية، التي تعاقب خلالها أكثر من عشرين إمبراطورا على عرش روما، هم أبناء الطبقة البرجوازية من الملاكين والتجار في مدن الولايات المختلفة؛ فقد أدت النفقات العسكرية الباهظة إلى التضخم المالي وبالتالي إلى فقدان النقد لمعظم قيمته الشرائية وركود الحركة التجارية. وارتفعت الضرائب ارتفاعا خياليا لسد حاجة الأباطرة العسكريين ولكن لما أصبحت النقود لا قيمة تذكر لها فان الضرائب صارت عينية. وزاد الحال سوءا أن تحصيل هذه الضرائب صار عملا إلزاميا لموظفي البلديات الذين أصبحوا مسؤولين شخصيا عن تحصيل ضرائب مدنهم ومناطقهم مما حول منصب رئيس البلدية «Decurion» من منصب شرف يعتز به صاحبه إلى عبء بغيض، ثقيل على كاهل من يشغله. ولم تسلم المدن الليبية الرومانية من هذا البلاء بل قاست منه مثلما قاسى غيرها من مدن الإمبراطورية واستمرت الحال تسير من سيء إلى أسوأ حتى عهد ديوقلتيان (285-305 م) فتصدى هذا الإمبراطور للمشكلة المستفحلة وحاول إصلاح الوضع المتدهور بإشراك ثلاثة آخرين معه في الحكم. ولكن الفوضى عادة فنشبت من جديد إثر استقالته سنة 305 م. ولم تستتب الأمور إلا في عهد الإمبراطور قسطنطين الذي واصل إصلاحات ديوقلتيان بكل عزيمة وجد حتى صار يصعب على المرء أن يعزو إصلاحاً معينا لأحدهما دون الآخر. وفي سنة 313 م. رأي قسطنطين أن حرب الدولة للديانة المسيحية وأتباعها إنما هي حرب خاسرة، فأصدر مرسوم ميلان المشهور الذي أعطى المسيحيين حرية العبادة الكاملة وتعهد بتأييد الدولة لهم. ولكن أمل قسطنطين خاب عندما وجد المسيحيين منشقين على أنفسهم ومختلفين فيما بينهم. ففي الشمال الإفريقي مثلا كان

المسيحيون مختلفين على الموقف الخاص بمعاملة المسيحيين الذين كانوا قد ارتدوا تحت الضغط والتهديد وسوء المعاملة التي كان يلقاها المسيحيون عامة قبل صدور مرسوم ميلان المذكور. ونشأت عن هذا الخلاف كنيستان أفريقيتان إحداهما كاثوليكية تأخذ بوجهة نظر كنيسة روما القائلة أن المسيحي المرتد يبقى مسيحيا اذا ندم على ارتداده، والأخرى دوناتية – نسبة لزعيمها دوناتس[62] (Donatus) -، وكانت تتخذ موقفا متشددا وتقول أن المسيحي المرتد لا يجوز اعتباره مسيحيا إلا إذا عمِّد من جديد، صحيح أن هذا الخلاف كان خلافاً دينياً في ظاهره ولكنه كان في باطنه وحقيقته قناعا يتستر وراءه الاتجاه الوطني بقدر ما كان نتيجة للاضطراب الاجتماعي والاقتصادي مما جعله يصبح مظهراً من مظاهر الحركة الوطنية وتعبيرا عن الشعور الوطني الذي بدأ يقاوم الكنيسة الكاثوليكية لارتباطها بروما والإمبراطور والعناصر الرومانية الحاكمة.

وعلى هذا الأساس فان الحركة الدوناتية ارتبطت باللغات المحلية فجاء هذا تعبيرا عن مناهضتها للكنيسة الكاثوليكية التي كانت مرتبطة باللغة اللاتينية لغة العنصر الحاكم. وكان من الطبيعية، والحالة هذه، أن تتحالف الدوناتية مع الثورة الثقافية لمناطق نوميديا وللطبقات الدنيا من سكان المدن بينما تحالفت الكاثوليكية مع الطبقات العليا التي كانت قد صبغت بالصبغة الرومانية من مثل كبار الملاكين والنبلاء من سكان المدن. ولما صارت الكاثوليكية دعامة للأباطرة والحكومة المركزية في إفريقية فان الكنيسة الكاثوليكية صارت بؤرة تتركز عليها الشكاوي الاجتماعية والسياسية. ومن الناحية الأخرى فقد لوحظت صلة رجال الدين الدوناتيين بثورات المزارعين التي هزت أسس النظام الزراعي في نوميديا في الأربعينات من القرن الميلادي الرابع، وهددت بأعمال مماثلة في كل أرجاء الشمال الأفريقي. والواقع أن هذه الحركة إنما قامت في جميع ولايات الإمبراطورية، باستثناء فرنسا، تعبيرا عن

62- كان دوناتس أسقف قرطاجة ومؤسس مذهب الدوناتية الذي ظهر سنة 311 م . وكان أتباع دوناتس يذهبون إلى أنهم هم وحدهم خلفاء الرسل وأنهم يمثلون الكنيسة الكاملة الحقيقية وأن عمادة وسيامة رجال الكنيسة التابعين لروما غير صحيحتين وقد حكم على هذا المذهب وأتباعه بالهرطقة.

ثـورة الثقافات المحلية ورفضها للصبغة الإغريقـو – رومانية مما مهد الطريق أمام الإسلام كبديل للإمبراطورية الرومانية[63].

ومع مضي السـنوات كانـت هذه الحركـة الدوناتية تـزداد تطرفا وعنفا وتجتـذب لصفوفهـا الكثيريـن من اللصوص وقطـاع الطرق ممـا أدى بها في النهاية إلـى الانحراف عن اتجاهها الوطني والتحول إلـى أداة تخريب وتدمير مما ألحق أضرارا فادحة باقتصاديات البلاد وعمرانها. ولقد سـبقت الإشارة إلى احتمـال أن يكون الدوناتيـون هم الذين حرقوا جرمـا وخربوها فقضوا بذلك على مملكة الجرامنتيين.

ولقد عجل في انحطاط منطقة المدن الثلاث وتقهرها إن القبائل الليبية المتلاحمة إجمالا مع الحركة الدوناتية اغتنمت الفرصة لتهاجم تلك المنطقة ابتداء من منتصف القرن الميلادي الرابع. ففي سـنة 363 م. شن الأستوريون (Austurians) هجومـا علـى منطقـة لبدة انتقاما لثائر أسـتوري كانت سـلطات لبدة قد قتلته فقتلوا كل من صادفوه في طريقهم وأحرقوا كل ما وصلت إليه أيديهم. ولم ينقذ لبدة نفسها إلا أسوارها التي كانت لها هيبة فـي نفوس المهاجمين أدت إلى رحيلهـم عنها بعد حصار لم يتعد ثلاثة أيام. وراحـت لبدة تسـتنجد بالإمبراطور دون جدوى ربما راحوا الأسـتوريون يكررون غاراتهـم عليها ثانيـة وثالثة وفي كل مرة يدمرون ويخربـون ويقتلون الناس، ويقطعون الشـجر. وقـد امتد حصارهم للبـدة في غزوتهـم الثالثة طيلة ثمانية أيام رحلة عنها بعدها[64].

ونتيجـة لهذه العوامـل مجتمعة أخذت منطقة المـدن الثلاثة تتقهقر

63- The Journal of Roman Studies, Society for promotion of Roman Studies, article under the title: "Christianity and Local Culture in Late Roman Africa" by Peter Brown,. Vol . LVIII, Parts I & II, London, 1968, pp 85 – 95.

أنظـر أيضا : ويللارد . جيمس . الصحراء الكبرى . مكتبة الفرجاني . طرابلس . الطبعة الأولى. بيروت 1967 . ص128 – 147 .

64- أثبتت الدراسـات الاثرية أن الخراب الذي حاق بلبدة لم يكن كله من صنع الأستوريين. بل إن كثيرا منه كان بسبب الزلزال الشديد الذي أصاب جميع منطقة وسط وشرق حوض البحر الأبيض المتوسط سنة 365 م .

وتقفـر إلى حـد أنها كانت فـي منتهى الهـزال عندما بدأ الغـزو الوندالي. والفئـة الوحيـدة من أبناء هذه المنطقـة، التي ظلت منتعشـة خلال القرن الرابـع والخامـس للميلاد هي فئة أصحـاب مزارع الحدود الذيـن ظلوا بعيدين عـن الأحـداث، في مزارعهم المتعمقة داخل البلاد يعيشـون عيشـة شـبه مستقلة بعد انحسار السلطة الرومانية عنهم. وربما لا نخطئ إذا قلنا إنهم ضمنوا أمنهم وسـلامتهم تجـاه القبائل المغيرة بأن ضلعـوا معها أو وقفوا منها موقـف الحياد. وتدل آثار الكنائس التي وجـدت في مناطقهم من مثل «كنيسة القصر اللوطي» على أن الكثيرين منهم تحولوا للديانة المسيحية في مطلع القرن الميلادي الخامس.

احتلال الوندال لمنطقة طرابلس

(من 439 – 834 م)

1- جنسريك 430 – 477 م.

2- هونريك 477 – 484 م.

3- جونتاموند 484 – 496 م.

4- ترانسامواند 496 – 523 م.

5- هلداريك 523 – 530 م.

6- جليمر 530 – 534 م.

الوندال قبائل من أصل جرماني زحفوا من بلادهم بجوار بحر آزوف فعبروا بألمانيا ثم غالة «فرنسا» واستقروا في أسبانيا – حيث سميت الأندلس باسمهم: وندالوسية – ومن أسبانيا قدموا إلى الشمال الإفريقي سنة 429 م. بقضهم وقضيضهم فكان عددهم بما في ذلك النساء والأطفال ثمانين ألف بينهم عشرون ألف مقاتل. وقصة قدومهم إلى الشمال الأفريقي هي أن الكونت بونيفيس (Boniface) كان حاكما لولاية أفريقية سنة 429 م. وحدث أن اشتد سوء التفاهم بينه وبين الإمبراطورة بلاسيديا (Placidia) نتيجة لمؤامرات منافسة إيتيوس (Aestion). وتطور ذلك الخلاف حتى خلع الكونت بونيفيس طاعة روما ودعا الملك جنسريك (Genseric). ملك الوندال في أسبانيا للقدوم إلى افريقية ومساعدته. ولما كان جنسريك ينتظر مثل هذه الدعوة فإنه لباها فورا وخف لنجدة الكونت. وبعد نزول جنسريك في الشمال الإفريقي زال الخلاف بين الكونت بونيفيس والإمبراطورة بلاسيديا وحل بينهما الوئام فطلب الكونت من جنسريك الانسحاب من البلاد ولكن الأخير لم يكن ليقنع في حال من الأحوال بأن ينسحب من إفريقية مما دعا الكونت بونيفيس إلى الإقدام على محاولة طرده بالقوة؛ وعندما فشلت المحاولة وجد الكونت نفسه مرغما على مغادرة البلاد سنة 431 م. وحاول

الإمبراطور فالنتيان الثالث أن يروج لفكرة تبعية الوندال له من باب التشبث بمظاهر السلطة ولكن الحكم الروماني في الشمال الأفريقي كان في الواقع قد انتهى فعلا عندما استولى الوندال على قرطاجة سنة 439 م. ومند البداية شكل الوندال طبقه عسكرية حاكمة صغيرة وفرضوا أنفسهم على شعوب عربية في الشمال الأفريقي حيث راحوا ينظمون شؤونهم الذاتية على أساس الحكم شبه العسكري الذي كانوا قد جلبوه معهم. ولكنهم لم يحاولوا قط أن يغيروا النظام الإداري الروماني الذي كان سائدا بين شعوب المنطقة بل تركوا تلك الشعوب تحكم نفسها حكما ذاتيا على خير ما تهيأ لها. وكان الوندال أثناء تجوالهم قد اعتنقوا المذهب المسيحي الاسكندري المنسوب إلى آريوس (Arius) الإسكندري المتوفي سنة 336 م – وهو مذهب كان مناهضا لكنيسة روما ولهذا فقد حكم عليه بالهرطقة – ولذلك السبب فان الوندال كانوا أعداء ألداء للمذهب الكاثوليكي فراحوا يضطهدون الكاثوليك في الشمال الإفريقي ويصادرون ممتلكاتهم الدينية والخاصة وينفون رجال الدين الكاثوليك. ومن الناحية الأخرى فإنهم اعتبروا الدوناتيين حلفاء طبيعيين لهم ضد الكاثوليك بالرغم مما في مذهب الدوناتيين من الأصول الدينية الأرثوذكسية. وكانت الكنيسة الكاثوليكية في روما بعد سلسلة طويلة من الاجتماعات والمناقشات بينها وبين أتباع الكنيسة الدوناتية قد اعتبرت الدوناتيين هراطقة خارجين عن القانون سنة 411 م. وجردتهم من حقوقهم وممتلكاتهم بناء على ذلك الاعتبار. ولكن الوندال الآن أعادوا للدوناتيين كل ما كانوا فقدوه وعوضوهم عما كانوا خسروه. على حساب منافسيهم الكاثوليك المضطهدين.

وبالنسبة لمنطقة المدن الثلاثة فان الوندال لم يعلقوا عليها أهمية اقتصادية أو استراتيجية كبرى. وهم في الواقع لم يحتلوها فعلا إلا حوالي سنة 455 م. عندما جهزوا جيشا كان فيه كثير من النوميديين واستولوا على طرابلس وجزر البحر المتوسط ودخلوا إيطاليا واستولوا على مدينة روما نفسها واستباحوها مدة خمسة عشر يوما عادوا بعدها إلى قرطاجة ومعهم كثير من الأسرى والسبايا اللواتي كانت بينهن الإمبراطورة نفسها

وابنتاها. وحتى بعد هذا التاريخ فان احتلال الوندال لمنطقة المدن الثلاثة كان احتلال غير مباشر. ويجدر بنا في هذا الصدد أن نشير إلى أن الوندال لم يخلفوا لنا ما يدل على احتلالهم للبدة سوى عدد من قطع النقود وجدت في سوق المدينة. وفيما عدا إقامة حرس قليل العدد في لبدة فلا يبدوا أن الوندال بدلوا أية محاولة لإعادة تنظيم الدفاع عن هذه المنطقة بل بالعكس فإنهم قاموا بهدم أسوار لبدة وصبراتة وربما أويا أيضا تنفيذا لسياسة ملكهم جنسريك التي كانت تهدف إلى هدم جميع التحصينات للحيلولة دون استفادة القبائل المحلية منها في حالة قيامها بثورة على الحكم الوندالي. وحتى يتجنب جنسريك خطر قيام القبائل البربرية الشرسة بالثورة على حكمه أوجد لها متنفسا يمكنها من التعبير عن شراستها لمصلحتها ومصلحة الوندال وذلك بأن أشركها في حملات القرصنة التي كان يشنها على جزر البحر الأبيض المتوسط وساحله الأوروبي. وفي أعقاب كل حملة كانت الأسلاب والغنائم تفرغ في قرطاجة وتوزع تحت نظر الملك جنسريك وإشرافه المباشر. وقد أدت هذه السياسة تجاه القبائل الليبية إلى إراحة الوندال، ولو إلى حين، من شرها، وإلى جعلها في الوقت ذاته تابعة لجنسريك وخاضعة لأمره. ولكن هذه السياسة كانت ذات حدين فقد ظلت مفيدة للوندال ما دامت فرص القرصنة والسلب والنهب قائمة. ولكن عندما انتهت القرصنة الوندالية انعكست الآية وانقلبت تلك القبائل البدوية البربرية منذ موت جنسريك سنة 477 م. ترضى غرائزها البدوية العنيفة بالسلب والنهب والتخريب في داخل البلاد ذاتها مما أدى إلى انهيار النظام الروماني وإحلال الفوضى وأعمال العنف بدلا منه؛ وأدت تلك الفوضى بدورها إلى إحياء السكان الوطنيين للنظام البدوي القبلي الذي كانوا قد اعتادوا عليه قبل قدوم الرومان في المنطقة. فعاد ذلك النظام – الذي كان يلائم البيئتين الطبيعية والاجتماعية ويلائم العقلية البدوية – إلى أصله بمجرد اضمحلال النفوذ والنظام الرومانيين وحلت بذلك إفريقيا البربرية أي الليبية محل أفريقيا الرومانية. وكانت النتيجة الاقتصادية المحتومة هي تخريب مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية التي كان الرومان قد استصلحوها.

وزحف الصحراء على حساب العمران. ومسؤولية هذا الخراب وتلك النكبة الاقتصادية لا تقع على عاتق جنسريك وقومه وحدهم بل تقع على عاتق القبائل البدوية البربرية كذلك. والواقع إن جنسريك لم يوجه ضربته القاسية إلا لأفراد الاستقراطية الرومانية سواء كانوا من رجال الدين أو من غيرهم أما الفلاحون فانه لم يمسسهم هو وقومه بسوء لأنهم كانوا يرون فيهم ركيزة للازدهار الاقتصادي وبالتالي مصدرا ممتاز للدخل. ولكن جنسريك وقومه قصروا تجاه هؤلاء المزارعين في أمر جوهري هو أنهم لم يؤمنوا لهم الحماية الكافية من غارات القبائل البدوية وهجمات الدوناتيين والعناصر المتطرفة والمتحالفة معهم من مثل الدوارين وغيرهم. وإذن فان القضاء على الفلاحين والفلاحة وإحلال الصحراء محل المزارع والعمران إنما جاء نتيجة لغارات القبائل المحلية؛ تلك الغارات التي بلغت أوج عنفوانها في أيام الملك الوندالي الثالث والتي أدت إلى مقتل أعداد كبيرة من الفلاحين وهرب من استطاع الهرب منهم إلى أماكن أخرى يجدون فيها الأمن والطمأنينة.

ولقد أتضح ما كانت سياسة جنسريك في هدم التحصينات تنطوي عليه من حماقة عندما جرد ليو البيزنطي سنة 468 م. حملة ضد جنسريك للقضاء على حركة قراصنته التي كان إرهابها قد امتد إلى الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط. إذ بالرغم من أن القوة الرئيسية من الأسطول البيزنطي قد حطمت أثناء مهاجمتها لقرطاجة إلا إن مفرزة صغيرة من ذلك الأسطول كانت قد وجهت بقيادة هراكليوس (Heraclius) ضد منطقة المدن الثلاثة تمكنت بسهولة من الاستيلاء على المدن الثلاثة لأن الوندال، كما تقدم، كانوا قد هدموا أسوارها وتحصيناتها. وقد طردت تلك القوة البيزنطينية الصغيرة الحرس الوندالي من المدن الثلاث وطلت تحكمها دونما معارضة مدة ثلاثة سنوات ثم انسحبت تلقائيا.

ظهور القبائل الهجانة:

نجحت سياسة جنسريك في استقطاب القبائل الليبية ومسالمتها للوندال طيلة حياة ذلك الملك. وما إن توفي جنسريك حتى بدأت القلاقل

والاضطراب تدب بين تلك القبائل التي كانت مع هذه المرحلة قد أتقنت استخدام الجمل في السلم والحرب مما زاد في سرعة حركتها ومقدرتها على المناورة وعلى مفاجأة العدو وضربه. ويبدوا إن أول من ساعد على تربية الجمل وانتشاره في الشمال الأفريقي هو الإمبراطور سبتيميوس سويرس. ابن لبدة لأنه رأى أن الجمل «سفينة الصحراء» كان ضروريا لاقتصاد منطقة طرابلس، تلك المنطقة التي كان الإمبراطور يحيطها بعنايته. والتي كان اقتصادها التجاري يعتمد إلى حد كبير على قوافل الصحراء التي كانت بمثابة همزة وصل بينها وبين غدامس وجرما وأواسط أفريقيا. ولهذا فان تربية الجمال كانت قد بلغت شأوا بعيدا في منطقة طرابلس لدى استيلاء الوندال على الشمال الإفريقي. وأول ثورة خطيرة قامت بها القبائل الهجانة في منطقة المدن الثلاث واستخدمت فيها الجمل في القتال بنجاح كانت في عهد الوندال الرابع ترانسامونـد (Transamund). وكان يقود القبائل الليبية في هذه الثورة واحد من أذكى رؤسائها وأنشطهم اسمه كاباون[65] «Cabaon»، وكانت هذه الثورة عنيفة إلى حد أن الوندال اضطروا لإرسال حملة من قرطاجة لإخضاعها. ومما يلفت الانتباه في هذه الثورة ذلك الدور البارز الذي لعبته الجمال فيها والذي سنبرزه بعد قليل. لقد علم كاباون بأن الوندال كانوا في طريقهم إليه من قرطاجة فراح يستعد لمجابهتهم. ومن أجل ذلك فرض على أعوانه أشد أنظمة التقشف من مثل فصل الرجال عن النساء والتهديد بإعدام من يخرج عن تلك التعليمات. وفي الوقت ذاته بعث أعدادا من عملائه السريين إلى قرطاجة وأمرهم أن يقتفوا أثر الحملة الوندالية وأن يصلحوا أية أضرار تلحقها تلك الحملة بالكنائس الكاثوليكية وعند مرورها بها. ولم يكن عمل كاباون هذا صادرا عن إيمانه بالكنيسة الكاثوليكية بل عن نظرته المصلحية؛ فقد عرف عنه أنه كان يقول إنه مع جهله بالآلهة الذي كان النصارى الكاثوليك يبعدونه إلا انه كان يرى أن ذلك الإله – إن كان قويا كما قيل عنه – فلابد أن ينتقم من الذين يتطاولون عليه أو ينالون منه. ولابد أن يدافع عن الذين يمجدونه ويقدسونه.

65- لعل بين هذا الاسم وقرية « كاباو» في جبل نفوسة شيئا من الصلة .

ويخبرنا المؤرخ البيزنطي بروكبيس (Procopius) أنه عندما اقترب الوندال أمر كاباون بجماله فأنيخت خلف بعضها البعض في اثنتي عشر دائرة مركزها واحد. ثم انه وضع في الفراغ الداخلي حول مركز هذه الدوائر جميع الأمتعة والنساء والأطفال وأمر رجاله بأن يقفوا بين الجمال برماحهم الطويلة. وتروسهم. وقسيهم. وحيال هذه الكتيبة الصلبة لم يستطع فرسان الوندال بسيوفهم وحرابهم القصيرة وخيولهم أن يفعلوا شيئا. خاصة وأن الخيل نفرت من الجمال ولم تجرأ على الدنو منها بدرجة كافية. وهكذا وقع الوندال فريسة للنبال الليبية التي راحت تنهال عليهم والرماح الطويلة التي كانت تنوشهم فوقع الكثير منهم صرعى وقتل الكثيرون وهم يحاولون الفرار وانتهت حملتهم بهزيمة مخزية لهم ونصر مؤزر لليبيين.

وما يؤخذ على بروكوبيس في سرده لقصة هذه الثورة الليبية هو انه لم يذكر اسم القبيلة الليبية التي قامت بها برئاسة كاباون. والمرجح أن قبيلة الهيلاجواز (Hilaguas) هي التي تزعمت الثورة وبدأتها ثم انضمت إليها أعداد كبيرة من قبيلة لواته البربرية. التي كانت تنتشر في منطقة طرابلس. لمؤازرتها في وجه الحملة الوندالية المنتظرة. وقد تمكنت لواتة بين سنة 527 م. وسنة 533 م. من هزيمة الوندال مرة ثانية في منطقة المدن الثلاثة. وفي هذه المرة قامت لواتة باستباحة لبدة وبنهبها ثم غادرتها مهجورة خربة. وكان عجز الوندال عن القضاء عن المقاومة الليبية إيذاناً بقرب انتهاء عهدهم المظلم إن كان تميز بشيء فإنما تميز بالعنف والقسوة. وبالتدمير والتخريب.

الفصل السادس
ليبيا في العصر البيزنطي

ليبيا في العصر البيزنطي

موجز تاريخ البيزنطيين:

نبتت فكرة تقسيم الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور ديوقلتيان في أواخر القرن الميلادي الثالث وفي أعقاب نصف قرن من الفوضى العسكرية والحروب الأهلية. وكان ديوقليان نفسه يعتبر الإمبراطورية أضخم من أن يستطيع إمبراطور واحد أن يحكمها. وقد أحس القوم مند أيام القياصرة الأول بضرورة وجود وزير لاتيني وآخر يوناني. ومضى ديوقلتيان في تنفيذ هذا التقسيم الأساسي إلى ابعد من ذلك حينما أمر أن يكون للإمبراطورية إمبراطوران اثنان يقيم أحداهما في شطر من شطريها ويقيم الثاني في الشطر الأخر. ولكي يتجنب المشاكل التي كانت عادة ترافق انتقال العرش. جعل لكل إمبراطور قيصرا يساعده ويكون وريثه بعد موته. وفي الوقت ذاته أعيد تقسيم الولايات وتنظيمها فقسمت الإمبراطورية إلى إيالات كبرى هي: غالة (فرنسا). إيطاليا. إليريا (البلقان). والشرق: ووضعت كل إيالة تحت إمرة حاكم برايتوري (Praetorian Prefect) كان أعلى موظف في الدولة وكان بمثابة نائب للإمبراطور ولكن مركزه في الأيالة. وكانت بيده سلطات إدارية ومالية وقضائية مطلقة ولكن لم يكن له سلطان على الجيش. وكان هذا الحاكم العام يتولى تقسيم إيالته إلى دوقيات (Dioceses) ويعين دوقا على كل دوقية. وكانت الدوقية تقسم إلى أبرشية أو أكثر يترأس كلا منها حاكم غلبت عليه الصفة المدنية. وقد ظل هذا التقسيم الإداري قائما طيلة الفترة التي ندرسها أي حتى القرن الميلادي السابع عندما قسمت الايالات الكبرى الأربعة إلى تسعة وعشرين إقليما (Theames) وصار الستراتيجوس (Strategos) أي قائد الإقليم يجمع في يديه السلطتين المدنية والعسكرية في إقليمه. وبالإضافة للإيالات الأربعة الكبرى كانت هناك إيالتان أخرتان هما إيالة أسيا وايالة افريقية وكان على رأس كل واحد

منهما حاكم عام بلقب بروقنصل وله حق الاتصال المباشر مع الإمبراطور.

وفصل ديوقلتيان السلطة المدنية عن العسكرية فأنشأ إلى جانب التنظيم المدني تنظيما عسكريا ضخما وكون جيشا إمبراطوريا سريع الحركة. ولكي يضمن استقرارا للمجتمع. وضمانا لانتظام دخل خزينة الإمبراطورية من الضرائب فانه بعث من جديد فكرة الإمبراطور أوريليوس ووضعها موضع التنفيذ حينما أمر بأن يلتزم كل ابن حرفة أبيه ولا يتزحزح عنها أيا كانت. ولكي يتخلص من خطر النبلاء بدأ يشكل جيشه من أبناء الطبقة المتوسطة دون النبيلة. ثم انه حاول أن يثبت النقد على ما كان عليه أيام أوغسطس فأصدر عملة من ذات الوزن الكامل ولكن ذلك أدى إلى عكس ما كان ينتظر منه أي إلى ارتفاع الأسعار؛ مما حمل ديوقلتيان على إصدار مرسومه الشهير سنة 301 م. والذي حددت بموجبه أسعار السلع كل على حدة.

أما فيما يختص بعلاقة الإمبراطور برعاياه فان ديوقلتيان كان يرى أن من الأصلح للإمبراطور والرعية أن يصبح الإمبراطور نص إله وقد أدى به ذاك إلى الاصطدام مع أتباع الديانة المسيحية من رعاياه واضطهادهم.

بهذه التنظيمات بذر ديوقلتيان بذرتين لم تلبثا أن نمتا وشكلتا الاتجاهات الأساسية للإمبراطورية فقد أثمرت أحداهما تقسيم الإمبراطورية إلى شرقية وغربية وأثمرت الأخرى إرساء قواعد الحكم الأوتوقراطي المطلق في الإمبراطورية البيزنطية؛ إذ أن الحكم الديارکي (Dyarchy) أي الثنائي الذي أقامه الإمبراطور أوغسطس جاعلا من مجلس الشيوخ الروماني شريكا له في الحكم لم يدم كثيرا وان كانت آخر آثاره لم تزل من الدولة الا في نهاية القرن التاسع. وواقع الحال أن الإمبراطور صار منذ أيام ديوقلتيان يحكم البلاد بمفرده فكان هو السلطة العليا في البلاد وأعلى مرجع فيها. وكان يستطيع تعيين جميع الوزراء وعزلهم بمطلق إرادته كما كانت بيده مقاليد التصرف المطلق في الشؤون المالية. وكان التشريع محصورا فيه وحده. وصار هو القائد الأعلى لجميع القوات العسكرية في الإمبراطورية. وهو فوق ذلك رئيس الكنيسة والقسيس الأعلى للإمبراطورية. وكانت سياساته ونزواته هي التي

تصوغ مصير الملايين من رعاياه.

وكان حق انتخاب الإمبراطور محصورا في مجلس الشيوخ «السيناتو» وفي الجيش. وشعب القسطنطينية؛ فكان لا بد من موافقة هذه الجهات الثلاثة على تولي الإمبراطور للحكم ليكون نائبا لله شريطة أن يحكم وفقا للقانون الروماني. ولكن متى تمت تلك الموافقة وتم تتويج الإمبراطور فانه يصبح حاكما مطلقا ما دام حائزا رضا الناس. فإذا ظهر أنه غير قادر على بمهام منصبه جاز لأي واحد من الجهات الناخبة الثلاث أن تعزله وتعلن بدلا منه إمبراطورا جديدا. وكان الذي يقوم بذلك عادة هو الجيش أو فريق منه. وتجدر الإشارة هنا إلى انه كان يحق للإمبراطور بعد انتخابه وتتويجه أن يضم إليه في الحكم أباطرة آخرين يختارهم هو.

أما مجلس الشيوخ فقد بلغ أوج ازدهاره في القسطنطينية في القرن السادس والسابع للميلاد. وهو إن كانت القسطنطينية قد ورثته عن روما إلا انه لم يكن مماثلا لسناتوا روما القديم رغم انه منح امتيازات الأخير جميعها بما فيها حق الانتخاب سنة 390 م. ذلك أن السناتو البيزنطي كان يتألف من جميع أرباب الوظائف والرتب الحاليين والسابقين ممن كانوا فوق مستوى معين. ثم من ذريتهم؛ فكأنه كان بذلك هيئة غير محددة الشكل تجمع بين ذوي النفوذ وأهل الثراء وأرباب المراكز المسئولة في الإمبراطورية. وبذا فان سلطانه في الواقع كان ينحصر في أنه هيئة شبه دستورية تعبر عن آراء أغنى عناصر الدولة وأقواها.

وجاء قسطنطين الكبير (توفي سنة 337 م.) فواصل السير على خطة ديوقلتيان وأنشأ عاصمته الجديدة القسطنطينية علة موقع قرية بيزنطة الإغريقية. وقد أصبحت العاصمة الحديثة صورة جديدة لروما القديمة فحق لمؤسسها أن يسميها «روما الجديدة» وإن كانت تختلف عن القديمة في أنها أصبحت عاصمة مسيحية ليست لها الارتباطات الوثنية التي كانت لروما. ولقد تأكدت في العاصمة الجديدة من البداية المبادئ الأساسية الثلاثة للإمبراطورية البيزنطية: التقاليد الإمبراطورية. الكنيسة الأرثوذكسية والثقافة الإغريقية؛ وقد كانت هذه هي القوى الثلاثة الدائمة التي ظلت

توجه الحكم والدين والأدب في الإمبراطورية البيزنطية. وكانت الخطة الكبيرة الأخرى التي اتخذها قسطنطين الكبير بعد بناء القسطنطينية هو الميل نحو الديانة المسيحية. ذلك الميل الذي أدى خلال القرون الثلاثة التالية إلى إقامة وحدة وثيقة بين الكنيسة والحكومة في ظل الإمبراطور مما أدى إلى خلق الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية على أسس مغايرة في مجموعها ومحصلتها لتلك التي عرفتها الإمبراطورية الرومانية الغربية تحت زعامة روما. ولذلك فان الفترة بين قسطنطين وهرقل (توفي عام 641 م) تعتبر مرحلة تكوينية راحت بيزنطة خلالها تبتعد تدريجيا عن روابطها بالغرب حتى اتخذت. بعد القرن الميلادي السابع في الشرق الأدنى وبعد التفاعلات الداخلية في بيزنطا نفسها. الطابع التاريخي الذي تميزت به.

ويعتبر حكم ثيودوسيوس الكبير (379 – 390 م) نقطة تحول في هذه الفترة: فهو آخر حاكم مفرد امتد سلطانه على سائر الإمبراطورية الرومانية بحدودها الأصلية. وبعد وفاته بجيل كانت القبائل المتبربرة قد استولت على بريطانيا وفرنسا واسبانيا وافريقية. وفي عهد ابنيه أركاديوس وهنوريوس انفصل نصفا الإمبراطورية الشرقي والغربي عن بعضهما انفصالا فعليا لم يتحدا بعده حقيقة وان اتحدتا اسميا. وكان عهد قسطنطين واضح الاثر في تقرير نوع ومدى علاقة الكنيسة بالدولة فقد أصدر هو وشريكه الإمبراطور ليسينيوس بيانا هاما سنة 313 م. يدعو إلى التسامح تجاه العقيدة المسيحية وأصدر مجمع نيقية تحت تأثيره بيانا سنة 325 م. ندد فيه بآريوس. أسقف الإسكندرية الذي كان ينادي بوحدانية طبيعة المسيح. وكان ابنا قسطنطين قد ربيا تربية مسيحية ولذلك فان قسطنطيوس الثاني (337 – 361 م) تبنى تفسيره الخاص للعقيدة المسيحية وان كانت قوة المعارضة قد ظهرت جلية في عهد يوليان المرتد (361 – 363 م). وأظهر حلفاء يوليان المرتد حذرا وحكمة فيما يتعلق بالمسائل الدينية. ولم تصبح الإمبراطورية الرومانية دولة مسيحية أرثوذكسية رسميا إلا في عهد ثيودوسيس الأول الكبير. ومنذ ذلك الحين انتهى عهد التسامح المشروع تجاه

الوثنية والوثنيين. وفي الوقت ذاته لم يسمح لأتباع آريوس[66] بنشر مذهبهم داخل الإمبراطورية مما جعلهم يتجهون بدعوتهم إلى القبائل البربرية الغازية. وفي عهد ثيودوسيوس الثاني أنزل هذا الإمبراطور بالوثنيين سنة 431 م. ضروبا شتى من التعجيز السياسي والحرمان من الحقوق حتى إذا وافت سنة 438 م وجدناه يدعي أنه لم يبقى منهم احد في الإمبراطورية.

وتعددت البدع والدعوات خلال القرن الميلادي الخامس وتبلور الخصام الديني على شكل نزاع مثلث بين القسطنطينية وروما والإسكندرية. وتمكنت روما والقسطنطينية في مجلس خلكيدون سنة 451 م. من هزيمة الإسكندرية

66- الآريوسية نحلة جديدة ظهرت في الاسكندرية وكانت مرتبطة بطبيعة المسيح. فالمعروف أن الكنيسة المسيحية منذ نشأتها تعتقد بوجود ثلاثة أقانيم: الأب والابن والروح القدس. وأن هؤلاء الثلاثة ليسوا الا واحدا في الجوهر. غير انه ظهر في الكنيسة من حين لأخر أناس يخالفون هذه العقيدة. فكانت الكنيسة الكاثوليكية. وهي كنيسة الدولة. تحكم عليها بالهرطقة. وكان من جملة هؤلاء سابيليوس (القرن الميلادي الثالث) أسقف ليبيا الذي قال ان اللوجوس (الكلمة) هو المسيح وانه مظهر من مظاهر اللاهوت شأنه في ذلك شأن الأب والروح القدس. منكرا بقوله ذلك التميز بين الاب والابن والروح القدس. وكان منهم أيضا آريوس الذي كان على رأس كنيسة صغيرة في الاسكندرية سنة 318 م. وكان آنذاك شيخا معروفا بالتصوف متمتعا باحترام عدد كبير من الاتقياء والصالحين. وكان آريوس قد تعلم في حداثة سنه في أنطاكية بسوريا المذهب العقلي الذي يقول إن «الكلمة التي اتحدت بالمسيح ليست من نفس جوهر الرب وإن المسيح ليس الا مخلوقا. جاء من العدم. لا من نفس المادة الإلهية . وأنه مر عليه وقت لم يكن موجودا. وأنه تبعا لذلك وبوصفه ابن الله لا يشارك الرب في شيء ولا يشبهه في شيء لأن الله ليس له شبيه». كان آريوس بذلك يرمي إلى تأكيد وحدانية الله وقد فاته انه انما وضع المسيح في مرتبة ثانوية وجرده مما اتصف به من انه منقذ للعالم فمحا فكرة المسيحية الأساسية وهي فكرة الخلاص.
واختلف آريوس عن سابيليوس في أن الأخير كان يعتقد بألوهية المسيح بينما كان آريوس يرى غير ذلك. وأدت دعوة آريوس هذه إلى انقسام كنيسة الاسكندرية بين مؤيد ومناهض. فانعقد بها سنة 320 م مجمع شهده نحو مائة قسيس وأسفر عن اتخاذ قرار بحرمان آريوس وعزله كما أمر بعزل جماعة من القسس والشماسة الذين تمسكوا بآرائهم الأريوسية. إثر ذلك غادر أريوس مصر إلى فلسطين حيث راح يدعوا لمبدئه مما أدى إلى اتساع الخلاف حتى شمل جميع الكنائس المسيحية. وعند هذا الحد تدخل الامبراطور قسطنطين لتسوية النزاع فعقد مجمعا مسكونيا في نيقية سنة 320 م انتهى بإدانة آريوس وسجنه وبتحديد العقيدة الأرثوذكسية باعتبار المسيح الابن من نفس مادة الأب أي أنه يستمد صفة الألوهية من الرب. ولكن المسالة لم تنته عند هذا الحد فقد اضطر الامبراطور قسطنطين فيما بعد أن يفرج عن آريوس بل وبدا يميل إليه فانبعث النزاع الديني من جديد وكان محوره مسألة «كيف تجتمع في شخص المسيح الطبيعتان الإلهية والبشرية».

والقضاء على خطر زعامتهم الدينية ولكن مصر وسوريا ظلتا تؤيدان مذهب الإسكندرية في القول بوحدة طبيعة المسيح متخذين الخلاف الديني ستارا لمقاومة الحكومة المركزية. وظل الأباطرة البيزنطيون يحاولون عبثا التوفيق بين رؤوس هذا الثالوث إلى أن قدم الفاتحون العرب فانتزعوا مصر وسوريا من البيزنطيين وأزالوا بذلك سببا من أسباب النزاع بين القسطنطينية وروما. ذلك النزاع الذي كان ناجما عن محاولة القسطنطينية التوفيق بين الإسكندرية وروما. وهكذا نشأت في القسطنطينية وحدة وثيقة بين الكنيسة والدولة بينما راحت البابوية تقيم أساسا لاستقلالها عن السلطة الزمنية في روما. ومن هنا افترقت حظوظ الإمبراطوريتين فتعرضت الغربية منهما لغارات القبائل المتبربرة التي لم تلبث أن قضت عليها مع أواخر القرن الميلادي السادس بينما استمرت الشرقية قائمة حتى سقطت على أيدي العثمانيين سنة 1453 م. وكان استمرارها يرجع إلى وحدة الكنيسة والدولة فيها وإلى مواردها الاقتصادية الجمة ولبعدها عن السبل التي سلكتها القبائل المتبربرة.

وفي سنة 518 م. أصبح أحد الفلاحين المقدونيين رئيسا للحرس الإمبراطوري فتمكن بذلك من اعتلاء العرش البيزنطي باسم جستين الأول. وخلفه على العرش ابن عمه جستيان الكبير (527 – 565 م) الذي يغلب اسمه على التاريخ البيزنطي خلال القرن الميلادي السادس؛ فهو آخر إمبراطور بيزنطي كان يتمتع بعقلية رومانية صرفة فقد كانت لغته اللاتينية وكانت أفكاره لاتينية كذلك. وهو بسبب ذلك كله كان أقوى تعبير وأعنف تطبيق لفكرة السيادة الرومانية. وكان في نظره يعني استرداد مناطق الإمبراطورية من أيدي القبائل الجرمانية التي كانت قد استولت عليها. ويعني ذلك تعميم المذهب الأرثوذكسي وانتصاره وتأكيد الإشراف المطلق للإمبراطور على الكنيسة. وتحقيقا لهذه الأهداف فقد استرجع افريقية من الوندال سنة 534 م. وايطاليا من القوط سنة 537 م. واسترجع جنوب أسبانيا فأصبح البحر الأبيض المتوسط جمعيه مفتوحا أمام الملاحة البيزنطية. وأقام جستنيان نظام دفاع واسع على حدود إمبراطوريته واعاد تنظيم قوات

الحراسة على الحدود وشدد الأنظمة الإدارة في الولايات كما أقام الكثير من الأشغال والمباني العامة التي لا تزال آثارها ماثلة في القارات الثلاثة: أفريقيا وآسيا وأوروبا. ولقد كانت أفكار جنستنيان ذاتها الدافع الذي حفزه على القيام بعمليه العظيمين الآخرين: جمع وتبويب القوانين الرومانية. وبناء كنيسة القديسة صوفيا.

ولكن حروب جستنيان وخلفائه من بعده في المناطق الغربية من الإمبراطورية أدت إلى إفلاس خزينة الدولة وزيادة الضرائب. ومما زاد الطين بله أن القوات البيزنطية المحاربة ساءها أن تبقى في الشتاء على نهر الدانوب فأعلنت التمرد سنة 602 م. ونصبت قائدها فوكاس إمبراطوراً. فقام من فوره بإعدام سلفه موريس وأسرته ونشر الرعب في أنحاء الإمبراطورية في وقت كانت فيه الفوضى المستشرية في الداخل. والخزينة الخاوية. والغارات الفارسية تتهدد الكيان البيزنطي بالزوال.

وجاءت حركة الإنقاذ من ولاية افريقية التي كانت أكثر ولايات الإمبراطورية الرومانية في هذه المرحلة. ففي سنة 610 م. أبحر هرقل ابن حاكم قرطاجة إلى القسطنطينية ونجح في خلع فوكاس وارتقاء عرض الإمبراطورية. وبعد ذلك أعاد تنظيم الجيش وأعاد النظام للعاصمة وأصلح أمور الخزينة ثم تفرغ لمقاتلة الفرس الذين كانوا قد استولوا على إنطاكية سنة 611 م. وعلى دمشق سنة 613 م. وعلى القدس سنة 614 م. وعلى الإسكندرية سنة 619 م. وتحرك هرقل فتوغل في الحدود الفارسية ابتداءا من سنة 626 م. وهزم الفرس في معركة قرب الموصل سنة 627 م. ولم تلبث أن حدثت في فارس ثورة أودت بحياة ملك الفرس مما حمل خلفه على عقد صلح مع هرقل الذي دخل القسطنطينية محتفلا سنة 629 م. ولكن فرحة هرقل لم تدم طويلا اذ لم تلبث الجيوش الإسلامية أن اجتاحت بلاد الشام (635 – 636م) ومصر وليبيا (641 – 643 م).

الإدارة البيزنطية:

مع تطور النظام الإمبراطوري إلى النظام الإمبراطوري الأوتوقراطي

البيزنطي جرى تعديل النظام الإداري للإمبراطورية من اجل إيجاد وسائل الدفاع عنها وإدارة شؤونها الداخلية ودمج عناصرها المختلفة في وحدة متماسكة. ومن أجل هذه الغايات هدف التعديل إلى إقامة بيروقراطية دقيقة منبعها إرادة الإمبراطور وغايتها التعبير عن تلك الإرادة بصورة فعالة. ولقد سبق أن اشرنا إلى أن أسس هذا النظام البيروقراطي كانت قد وضعت أيام ديوقلتيان وقسطنطين الكبير. وقد ظلت قائمة بعد ذلك مع إدخال تعديلات وتفصيلات ضرورية اقتضتها ظروف الإمبراطورية وما تعرضت له من ضغوط خارجية. ولقد تسببت النفقات الكثيرة الناجمة عن الصرف على هذا الجهاز الإداري البيروقراطي ونفقات الدفاع عن الإمبراطورية والإنفاق على بلاط الإمبراطور الفخم في إلقاء عبء كبير على موازنة الدولة ومواردها مما استدعى إقامة سياسة مالية لا ترحم. ومن أجل حماية الإمبراطور من ظهور أي منافس له جرى فصل السلطة العسكرية عن المدنية وجرى كذلك تقسيم الإيالات الكبرى إلى دوقيات تتألف الواحدة منها من أبرشية أو أكثر وفقا لمساحتها. وكان أعلى موظف مدني على رأس الإيالة هو الحاكم البرايتوري (praetorian prefect) وكانت له السلطة العليا في الإيالة وعلى الشرطة وعلى ضرائب الأرض المعروفة باسم أنونا (Annona) التي كان يدفع من ريعها رواتب الموظفين والجند ويغذي الجيش. وكان هذا الحاكم البايتوري يتولى تقسيم إيالته إلى دوقيات (Dioceses) ويعين دوقا على رأس كل واحدة منها. وكانت الدوقية ذاتها تقسم إلى أبرشية أو أكثر يترأس كلا منها حاكم غلبت عليه الصفة المدنية. ومع أن رئيس الأبرشية كان مسئولا مباشرة أمام الدوق فقد كان له الحق أيضا أن يكتب للإمبراطور مباشرة كما كان يحق للأهالي أن يستأنفوا ضد أحكامه للبلاط الإمبراطوري. وكان للإمبراطور حق الاتصال المباشر مع الدوقات ورؤساء الأبرشيات كما إنه كان يرسل نوابا عنه إن دعت الضرورة ليتفقدوا سير الإدارة. وهكذا فإن هذا التنظيم كان يتيح قيام إشراف متبادل بين الحكومة الإمبراطورية المركزية وحكومات الولايات. وقد ظل هذا النظام قائما حتى غُيّر في القرن الميلادي السابع في أيام هرقل الذي ربما كان قد اقتبس عن أعدائه الفرس نظام

الأقضية العسكرية مما أدى إلى إعادة جمع السلطتين المدنية والعسكرية في يد الحاكم العسكري (Strategos) للقضاء أو الإقليم (Theames).

الجيش:

نظم قسطنطين الكبير القوات المسلحة فأقرّ بقاء قوات حراسة الحدود (Limitanei) الذين كانوا عبارة عن ميليشيا من العسكريين الفلاحين الذين كانوا يؤدون الخدمة العسكرية مقابل ما يقطعهم إياه الإمبراطور من أرض. وأنشأ قوة متحركة تحت قيادته الشخصية. وكان لهذه القوة متحركة تحت قيادته الشخصية. وكان لهذه القوة عمليا رئيسا أركان (Magistri Militum) يترأس أحدهما الفرسان ويترأس الآخر المشاة. وكان مركز الأول أعلى من مركز الثاني نظرا لتفوق قوة الفرسان على قوة المشاة. وكانا يأتيان في المرة الثانية بعد الحاكم البرايتوري وإن كانا يساويانه في لقب الرتبة. وكان كل من هذين الرئيسين الفعليين للأركان هو المفتش العام لقوته. ولما كان يترأس قوته تحت إمرة الامبراطور في حالة تولي الأخير قيادة الجيش وقت الحرب. أما في حالة تكليف أي منهما بمأمورية خاصة فانه كان يحق له قيادة قوات مختلفة من الفرسان والمشاة. ومنذ أيام ثيودوسيوس الأول الكبير صار في النصف الشرقي من الإمبراطورية خمسة رؤساء أركان يتمتع كل منهم بالسلطة على المناطق التي عينها له الامبراطور. وكان كل منهم مستقلا عن الآخرين وتابعا مباشرة للإمبراطور. وكان اثنان منهم يقيمان في البلاط في القسطنطينية بينما كان الثلاثة الآخرون موزعين كما يلي: واحد لقيادة جيش ايالة الشرق. والآخر لقيادة جيش ثراسيا والثالث لقيادة جيش إليريا. وقد أضاف جستنيان في أيامه رئيسا جديدا لقيادة جيش أرمينيا.

وكان التجنيد يتم من بين أبناء الجنود وأبناء المزارعين عن طريق الخدمة الإجبارية بينما كان الملاكون يستطيعون إن يدفعوا مبلغاً من المال بدلاً من المجندين الذين كان عليهم أن يرسلوهم للخدمة من بين المزارعين العاملين في أملاكهم. وهكذا فان كثيراً من الجنود كانوا يتقدمون للخدمة طواعية مقابل المعاش مما أدى إلى كثرة وجود الجنود المرتزقة من البرابرة (= الأجانب) وخاصة الجرمان في صفوف الجيش البيزنطي. وفي القرن الميلادي السابع

سمح الإمبراطور هرقل لجنوده بالاستقرار في المناطق التي كانت مهددة بالغزو الفارسي أكثر من غيرها. ويذكر بهذا الصدد أن عدد القوات البيزنطية بلغ في عهد جستنيان مائة وخمسين ألف جندي بينما انخفض هذا العدد إلى مائة وعشرين ألف جندي في القرن الميلادي التاسع.

المالية البيزنطية:

إن مؤرخ الدولة البيزنطية لا يشعر بضيق الحدود التي يحبسه فيها صمت مراجعه بقدر ما يشعر به عندما يحاول أن يبحث المسائل المالية؛ فليس لدينا معلومات مفصلة أكيدة عما كان الثراء العريض في بيزنطة يتكون منه وإن كنا نعلم أن وظيفة القنصل. عندما ألغاها جستنيان في القرن الميلادي السادس. كانت تكلف شاغلها حوالي تسعين ألف جنيه في السنة. وهذا مبلغ لا نظن فردا عاديا كان يستطيع أن يتحمل أعباءه. وعلى الجملة كانت نفقات الدولة تصرف على أشياء أساسية ثلاثة:

1- البلاط الإمبراطوري في القسطنطينية.

2- القوات المسلحة ووسائل الدفاع.

3- الجهاز الإداري البيروقراطي والمباني العامة.

وليست هناك وثائق قاطعة بتقديرات الموازنة السنوية وان كان بعض المؤرخين قد ذكروا أنها بلغت 640 مليون فرنك ذهبي بينما ذكر البعض الآخر أنها بلغت بين مائة وخمسة عشر مليون فرنك ذهبي فقط.

أما العائدات فكانت ترد الخزينة من الموارد التالية[67]:

أ- عائدات أملاك الدولة من صناعية وزراعية ومدنية (كرسوم الجمارك بنسبة 10 % وضرائب السلع الاستهلاكية وبازارات الدولة والمناجم والملاحات).

ب- الضرائب غير المباشرة: وكانت هذه تثير كثيرا من الاحتجاج الشديد.

67- Byzantium, an Introduction to East Roman Civilization, edited by Norman H. Baynes & H. St. L.B. Moss. Oxford University Press, Paperback, 1969.

الذي يستدعي إجراء تعديلات مالية. وبالتالي فإن السجلات البيزنطية الرسمية نادرا ما كانت تشير إلى هذا النوع من الضرائب.

ج- الضرائب المباشرة: وكانت أوضح ما تكون في المناطق الريفية. وهي أنواع منها:

1- ضريبة الأراضي: وكان من ضمنها ضريبة تفرض على الأرض ذاتها وتقدر على أساس مساحة الأرض وقيمتها وطبيعة استغلالها الزراعي طبقا لتقويمات المقدرين التي كانت تجري مرة كل خمسة عشرة سنة. ثم ضريبة المحاصيل وهي ترجع في أصولها إلى الضريبة الرومانية التي كانت تعرف باسم أنونا (Annona) ويختلف مقدارها تبعا لاختلاف عدد الحيوانات المستخدمة في حراثة أرض محصول معين. وكانت القرية تعتبر وحدة ضرائبية متكاملة؛ فاذا اختفى أحد الملاكين فرض على اقرب جار له في الأرض أن يدفع الضريبة المقررة على المالك الغائب.

2- ضريبة المراعي: وكانت تفرض على المراعي وعلى الحيوانات ما عدا المستخدم منها في الحراثة.

3- الضريبة الشخصية؛ وكانت تجبى على كل أسرة من أسر أرقاء الأرض بينما كانت ضريبة مشابهة تحصل في حالات الحرب من الأسرة الحرة وضريبة ثالثة مشابهة تجبى من غير المسيحيين خاصة اليهود.

وكانت الضرائب الآنفة الذكر تجبى من الأرياف فقط. أما المدن فكانت تجبى منها الضرائب التالية:

1- ضريبة الأرباح التجارية. وقد ألغيت في مطلع القرن الميلادي الخامس واستعيض عنها بعد ذلك بضريبة الرخص.

2- ضريبة عرفت باسم ايريكون (Aerikon) وهي ذات طبيعة غامضة بالرغم من كثرة ما كتب عنها. وقد قيل إنها وضعت في عهد جستنيان وكانت تدل على أنواع مختلفة من الضرائب.

3- ضريبة الإرث: ويصدق عليها ما قيل عن سابقتها.

والحق أن النظام المالي البيزنطي وخاصة نظام الضرائب كان نظاما صارما شديدا. فنحن وان لاحظنا حدوث انتعاش في الرخاء التجاري خلال العقود الأولى من القرن الميلادي السادس وفي عهد جستنيان نتيجة للجهود الكبيرة التي بذلها الإمبراطور لتنمية التجارة والنهوض بها. فانا لا نستطيع إن نقول إلا أن ذلك الجهد قد قضي عليه وهو بعد في أكمامه اذ أن فوائده لم يسمح لها قط إن تؤتي أكلها أو تثمر لأن جباة الضرائب هبطوا على الناس سراعا. مما جعل سكان الإمبراطورية يزدادون على الأيام ارهاقا وامتعاضا وقد زادهم مصيبة على مصائبهم انتشار الطاعون الكبير سنة 544 م. وقد انعكست هذه الحقيقة في تصرف الشعوب في ليبيا ومصر وبلاد الشام وقت قدوم الفاتحين العرب فلم يحاول أهل هذه الأقاليم الذين كانت بيزنطة تتهمهم بالزندقة وتضطهدهم وترهقهم بالضرائب أن يحافظوا على سيادة الإمبراطور بل رحبوا بتغيير السيد[68].

وفي أثناء القرن الخامس استخدمت في الولايات طريقة شراء الوظائف وهي الطريقة التي اشتهرت باسم سفراجيا (Suffragia) حيث كان حاكم المقاطعة يشتري منصبه بمال كان بعضه يذهب إلى الإمبراطور والبعض الآخر يذهب إلى الحاكم البرايتوري العام. وعندئذ كان حاكم المقاطعة يعود فيعوض نفسه بما هو فوق الكفاية من الضرائب المحلية. وقد حمل هذا الوضع الإمبراطور جستنيان على إلغاء بيع بعض الوظائف ومنح كل حاكم مرتبا كان يتحتم عليه أن يعيش عليه وأعيد تنفيذ القانون الذي كان يقضي على الحاكم بالبقاء بمقاطعته مدة خمسين يوما بعد التخلي عن منصبه للإجابة على ما قد يوجه إليه من تهم. وصار يعين لكل مدينة موظف باسم حامي المدينة (Defensor Civitatis) ينتخب محليا ليكون شبه كابح لغلواء حاكم المقاطعة وليقوم بالنظر في القضايا الصغيرة. وفي الفترة ما بين سنة 536 م. و 537 م. أعيد توزيع الولايات من جديد بحيث ربطت المقاطعات الغنية بالفقيرة حتى تقوم الأولى بتسديد بعض ما على الثانية. ومن ناحية أخرى اتبع جستنيان مبدأ ديوقلتيان في ربط الناس بمهن آبائهم

68- رنسيمان، ستيفن، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1961، ص 35.

حتى يضمن استقرارا للشعب من ناحية واستقرارا للضرائب التي تجبى منه من الناحية الأخرى.

وبالنسبة للتركيب الاجتماعي لسكان الريف في هذا العصر فان بوسعنا القول أن المجتمع الريفي كان يتكون من فئتين هما: المزارعون الأحرار والمزارعون الأرقاء من أقنان الأرض. وكان مولى الأرض مرتبطا بها كما إن أبناءه كانوا يرثون مهنته فيصبحون موالي أرض مثله. وكان السيد، مالك الأرض، يدفع عن مواليه الضرائب ويستولي على ثمار الأرض. وكان هنالك أيضا مزارعون مستأجرون في كثير من مزارع الأغنياء يدفعون الأجرة نقدا أو عيناً أو يعتبرون أحراراً. والواقع أنهم كانوا يجدون من المحال عليهم أن يغيروا أحوالهم إلى أفضل منها فهم ثابتون حيث هم. أما القروي الحر فلم يكن اقل ارتباطاً بالأرض من رفاقه سالفي الذكر وكان يكلف هو وورثته بأنواع من ضرائب الأملاك سبق الإشارة إليها. ولقد كانت قرى أرقاء الأرض أكثر شيوعا في أيام كبار الملاك في القرنين الرابع والخامس الميلاديين. على أن هذا المجتمع الريفي أعيد تنظيمه إبان الفوضى التي سادت أواخر القرن الميلادي السادس وخلال القرن الميلادي السابع. وبذلك التنظيم صارت المجتمعات الحرة هي الأصل والقاعدة المرعية. وقد تعودت الدولة أن تدفع أعطيات الجند بوجه خاص على شكل منح من الأرض فخلقت بذلك طبقة من صغار الملاك الوارثين من العسكريين. ولكن المالك الكبير لم يلبث إن ظهر مع استتباب الأمن والنظام من جديد. وعندئذ صار الغني يتحمل على كاهله التزامات الفقير، فيدفع عنه الضرائب مقابل الاستيلاء على محصولاته، فيحيله بذلك إلى مستأجر أو إلى مولى أرض. وقد يخفق المحصول أحياناً. وعندئذ لم يكن مالك الأرض الصغير ليستطيع أن يعيش كرجل حر[69].

69- المرجع السابق، ص 249 .

طرابلس في العهد البيزنطي

تولى الإمبراطور جستنيان عرش الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية سنة 527 م. وفي هذا الوقت ذاته كان قد مضى على النصف الغربي من الإمبراطورية الرومانية نصف قرن وهو يرزح تحت نير القبائل المتبربرة. وكان جستنيان منذ البداية يحلم باستعادة ذلك النصف المفقود ليضمه إلى إمبراطوريته؛ وله في ذلك غايات ثلاث:

1- إيماءة رومانطقية لإحياء ماضي الإمبراطورية وتراثها العظيم.

2- إنقاذ النصارى الكاثوليك من ربقة الطغيان والظلم الذي فرضه عليهم الهراطقة.

3- ملء خزينته الخاوية بما يمكن أن يحصل عليه من دخل وجباية من البلدان التي يستردها.

وكانت أولى الولايات المفقودة التي يمكن أن تتيح لجستنيان الفرصة لتحقيق أحلامه ومطامعه هي ولاية افريقية حيث توفي الملك الوندالي ترانسامون وتلاه في الحكم هلدريك (Hilderic) سنة 522 م. وكان هلدريك هذا حاكما رحيما متسامحا فنشأت بينه وبين جستنيان صداقة شخصية. ولكن هلدريك فشل في كبح زمام القبائل الثائرة مما شجع جليمر (Gelimer) ابن أخيه، على خلعه من الحكم بعد فترة قصيرة. وكانت حركة جليمر فرصة ذهبية بالنسبة لجستنيان فحشد أسطولا ضخما في القسطنطينية تحت إمرة بليزاريوس (Belizarius) استعدادا للإبحار إلى افريقية بحجة مساندة صديقه المخلوع. وعشية إبحار هذا الأسطول وصلت القسطنطينية أنباء من منطقة المدن الثلاثة تفيد أن بدنتيوس (Pudentius)، أحد القادة الوطنيين من أبناء المنطقة، قد أعلن الثورة على الوندال باسم الإمبراطور جستنيان ودعا الإمبراطور لمساندة الثورة فورا. وبناء على ذلك سارع الإمبراطور بإرسال قوة صغيرة تحت إمرة رجل اسمه تتيموت (Tattimuth) ساندت بدنتيوس في الاستيلاء على منطقة المدن

الثلاثة التي كانت خيالية من الوندال آنذاك لأن جليمر لم يشأ أن يرسل لها أية قوة ونداية. وفي هذه الأثناء كانت حملة جستنيان الرئيسية قد نزلت بسلام على الساحل التونسي وزحفت باتجاه قرطاجة التي سقطت في يد بليزاريوس في سبتمبر – أيلول سنة 533 م. ولكن جليمر أعاد تنظيم قواته واستأنف القتال إلا انه هزم هزيمة ساحقة في شهر ديسمبر – كانون الأول من السنة ذاتها. ولما فشلت محاولته النهائية للصمود في جبل بابوا (Papua) سلم نفسه لقوات بليزاريوس. وبتسليمه انتهت مملكة الوندال في الشمال الإفريقي سنة 534 م.

ولكن الوندال لم يكونوا الخصم الوحيد الذي كان على البيزنطيين أي يحسبوا حسابه في الشمال الإفريقي فالقبائل الوطنية لم تتدخل مباشرة في الحرب التي قام بها بليزاريوس، بل نحن نسمع عن استئناف قبيلة لواتة لضغطها على منطقة المدن الثلاث حتى قبل انتهاء حملة بليزاريوس إلى ما انتهت إليه من نجاح مما حمل بليزاريوس على إرسال التعزيزات العسكرية لمساندة تيموث وبدنتيوس. وبعد تسليم جليمر بوقت قصير، وعندما كان بليزاريوس يستعد للإبحار إلى القسطنطينية نشبت ثورتان عنيفتان واحدة في جنوب تونس والثانية في منطقة جبال الأوراس، وازدادت الحالة سوءاً عندما تمرد قسم كبير من الجيش البيزنطي. ولكن الحظ أسعف جستنيان في هذا الظرف الطارئ بضابطين من ألمع الضباط أنقذا الموقف وهما سليمان الداراسي (Solomon of Daras) خليفة بليزاريوس في رئاسة أركان الجيش البيزنطي (Magister Militum) وجرمانوس (Germanus) الذي حل محل سليمان في هذه الفترة العصيبة. وقد استطاع هذان الضابطان سنة 539 م. بفضل ما بذلاه من جهود مخلصة أن يجنبا الإمبراطورية البيزنطية ما كان يتهددها من أخطار وتدعمت بذلك سلطة جستنيان على الجيش البيزنطي نفسه وعلى قبائل الشمال الإفريقي.

ولكن هذا السلم الذي أمكنت المحافظة عليه بصعوبة لم يلبث أن خرق بعد هذا بخمس سنوات أي سنة 544 م. بسبب حادث وقع في لبدة؛ ذلك أن سيرجيوس (Sergius) ابن أخي سليمان، كان قد عين مؤخرا حاكما عسكريا

(Dux) لمنطقة المدن الثلاث ولكنه لم يكن كفؤاً لذلك المنصب فقد قدمت إلى لبدة، بعد حلوله فيها بقليل، قوة كبيرة من قبيلة لواتة وعرضت أن تعلن صداقتها للحاكم الجديد مقابل أن يقدم لها الهدايا المعهودة في مثل هذه المناسبة والتي كان يقدمها كل حاكم جديد رمزاً لاحترامه وتقديره لسلطة القبيلة[70]. وبناء على نصيحة بدنتيوس تعهد سيرجيوس بتلبية طلب رجال القبيلة ودعا من أجل هذه الغاية ثمانين من وجهائهم ورؤسائهم إلى مأدبة داخل لبدة. وتلا تلك المأدبة مؤتمراتهم الليبيون أثناءه البيزنطيين بنهب محصولاتهم وسرقتها. وعندما تحول سيرجيوس لينصرف دون أن يرد على تهمتهم أمسك به أحد رؤسائهم من كتفه فأنقض أحد أفراد الحرس البيزنطي على ذلك الرئيس وضرب عنقه بسيفه. وتلت هذا الحادث مذبحة قتل فيها كل الوجهاء الليبيين إلا واحدا أفلت من الحرس ونقل النبأ لأبناء القبيلة الذين كانوا ينتظرون خارج لبدة فانقض هؤلاء على المدينة ولكنهم فوجؤوا بالحرس البيزنطي يهاجم معسكرهم ويستولي عليه بعد معركة دارت وجها لوجه بين الفريقين. وفي آخر ذلك النهار أعاد الليبيون الكرة وشددوا النكير على البيزنطيين في هجوم قتل فيه بدنتيوس وأرغم سيرجيوس على الانسحاب داخل المدينة للاحتماء بأسوارها.

ونحن لا نستطيع أن نقرر ما إذا كانت هذه المذبحة قد وقعت صدفة أو نتيجة للغدر والخيانة المدبرة من قبل البيزنطيين. ولكن تأثيرها على أي حال كان الشرارة التي أشعلت برميل البارود في الشمال الإفريقي من منطقة المدن الثلاث حتى جبال الأوراس؛ ففي وقت لاحق من السنة ذاتها (544 م) سقط سليمان صريعا في إحدى المعارك في ولاية افريقية وحل سيرجيوس محله في رئاسة الأركان ولكنه فشل في إخماد الثوار مما أدى إلى استبداله. ولكن خليفته وقع ضحية مؤامرة محلية قام بها جنثارس (Guntharis)، حاكم نوميديا العسكري، واستولى على قرطاجة. وأسعف الحظ جستنيان من جديد فلم يلبث مغتصب قرطاجة أن قتل على يد احد الضباط الأرمنيين

70- كانت تلك الهدايا عبارة عن صولجان بالفضة وقبعة مفضضة وعباءة بيضاء وحذاء مذهب.

المخلصين للإمبراطور. وبالإضافة لذلك فقد وفق جنستيان في اختيار رئيس جديد لأركان القوات الإمبراطورية المسلحة في شمال أفريقيا هو جون ثروجليتا (John Troglita)، الحاكم العسكري لمنطقة المدن الثلاثة. وكان جون رجلا قديرا يتمتع بخبرة من الطراز الأول في شؤون حرب الصحراء.

توجه جون إلى قرطاجة فوصلها في نهاية سنة 546 ليجد القبائل الثائرة قد استحكمت في روابي تونس الوسطى بحشود كبيرة من النوميديين والأفارقة تعززها حشود لواتية وأستورية قدمت من منطقة المدن الثلاثة. ومكث جون في قرطاجة المدة التي كانت ضرورية لحشد قواته ثم تحرك نحو القبائل الثائرة وحاول أن يصانعها في البداية فلما فشلت جميع محاولاته الدبلوماسية اشتبك مع قوات القبائل واستطاع أن يحرز عليها نصرا ساحقا بالقرب من سبيلطة في مطلع السنة الجديدة (547 م) فمزقها كل ممزق وشتت من ظلوا أحياء من مقاتليها. وكان بين القتلى على أرض المعركة رئيس لواتة وكاهنها جرنا (Jerna) الذي قتل وهو يحاول إنقاذ صورة الثور غرزل (Gurzil)، إله لواتة. وبعد هذه الواقعة رجع جون إلى قرطاجة حيث استقبل استقبال الفاتحين.

ولكن انتصاره هذا جاء سابقا لأوانه فقد نشأت بعده بأشهر قليلة، أي في منتصف صيف سنة 547 م. ثورة جديدة في منطقة المدن الثلاثة حيث نجح كركاسان (Carcasan)، ملك الأفارقة، في إعادة لمّ شتات إتباع جرنا وفي كسب تأييد الناسامونيين والجرامنتيين وقام بهجوم خاطف على ساحل المنطقة ثم واصل حملته باتجاه الشمال الغربي نحو تونس إلا أنه وجد جون يقف في وجهه كالسد عند الحدود فاتجه هذا الثائر إلى الدواخل المقفرة في جهات شط الجريد. واقتفى جون أثره بقواته ولكنها لم تلبث أن رفضت التقدم عندما اشتدت عليها حرارة النهار فاضطر جون إلى العودة. وهنا اغتنم رجال القبائل الثائرة تلك الفرصة فراحوا يتعقبون جيش جون خفية ثم فاجأه بهجوم مركز في مكان يبعد أربعين كيلومترا إلى الجنوب الشرقي من قابس وأنزلوا به هزيمة منكرة. ولكن جون التجأ إلى مكان اسمه لاربوس (Laribus) قضّى فيه الشتاء منهمكا في إعادة تنظيم قواته.

وفي الربيع التالي اشتبك مع الثوار في معركة في مكان اسمه معسكرات كاتو (Campi Catonis) وانتصر عليهم انتصارا حاسما قتل نتيجة له ملكهم كركاسان وهزموا هزيمة حاسمة. ومنذ هذا التاريخ حتى الفتح العربي لليبيا سنة 643 م. لم تسجل أية معارك أو اشتباكات في منطقة المدن الثلاث واستتب الأمر في شمال إفريقيا للبيزنطيين.

وأحس البزنطيون الآن أن عليهم أن يعيدوا تنظيم الإدارة في شمال إفريقيا فأقاموا فيه أجهزة إدارية على غرار نظام ديوقلتيان وذلك بأن قسموا الشمال الإفريقي إلى سبع دوقيات كانت منطقة المدن الثلاث واحدة منها وكانت عاصمتها لبدة. وكانت الدوقيات السبع تخضع لحاكم بروقنصلي عام مسئول تجاه الإمبراطور مباشرة ومركزة في قرطاجة. وكان هذا البروقنصل يعين دوقا على رأس كل دوقية يكون مسؤولا أمامه عن دوقيته كما كان للدوق الحق في الاتصال بالإمبراطور مباشرة. وكانت هذه الدوقيات تقسم إلى أبرشيات على رأس كل منها رئيس أبرشية. والمرجح أن المدن الثلاث كانت مكونة من أبرشية واحدة يعتبر رئيسها موظفا من موظفي الدوق. وكان رئيس الأبرشية ومجلسها الاستشاري المكون من خمسين عضوا يساعدون الدوق في القيام بشؤون الدوقية التي كانت تقسم إلى وحدات إدارية صغيرة بحيث تكون كل مدينة والأرض التابعة لها وكل قرية والأراضي التابعة لها وحدة إدارية واحدة. وأول عمل قام به الإمبراطور جستنيان بعد استعادة شمال إفريقيا وضمه من جديد للتاج الإمبراطوري هو إرسال اثنين من الموظفين من القسطنطينية إلى الشمال الإفريقي لتقدير الضرائب التي تتوجب جبايتها. وقد وصف سكان الشمال الإفريقي هذين الموظفين بأنهما كانا «غير معتدلين وغير محمولين».

وتبدي مدن منطقة طرابلس في هذا العهد آخر خفقة حياة كالخفقة الأخيرة التي تصدر عن السراج قبل أن ينطفئ؛ فقد أعيد تحصين لبدة وإن كان سورها البيزنطي لم يظم إلا جزءا بسيطا من لبدة الرومانية التي أصبح معظمها الآن مدفونا تحت الرمال الزاحفة. وبالإضافة للسور كرس جستنيان هيكلا مقدسا في لبدة لأم الرب «أي لمريم العذراء» وشيد أربع

كنائس أخرى كما رمم قصر سويرس. وربما كان الهيكل وقصر سويرس معا يكونان ما نعرفه بالباسيليكا السويرية التي حولها البزنطيون إلى كنيسة. وربما كانت أسوار أويا قد جددت كذلك وأقيمت فيها حمامات عامة جديدة وأدخلت على منشآتها المدنية تحسينات أخرى. أما بالنسبة لصبراته فان أسوارها جددت كذلك كما أقيمت فيها كنيسة بيزنطية.

أما في داخل طرابلس فإنه لم يكتشف حتى الآن ما يدل على أن البيزنطيين قد حصنوا حدودها أو رموها مما يؤدي الاستنتاج أن سلطان البيزنطيين لم يتعدى الشريط الساحلي في منطقة المدن الثلاثة. ولكن المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس يذكر أن البيزنطيين كانوا نشيطين في مجال نشر الديانة المسيحية بين أبناء القبائل الليبية التي ذكر من ضمنها أهل غدامس والجرامنتيين. وحتى الآن لم يكتشف أي أثر يثبت أن أهل فزان اعتنقوا الديانة المسيحية ولكن قيل أنه وجدت في غدامس بعض الآثار المسيحية. ولعل أهم من ذلك كله أن ثلاثا من كنائس القرن الميلادي الخامس في داخل منطقة طرابلس (الخضراء، الأصابعة، وخفاجي عامر) زودت في هذا العهد البيزنطي بأجرمان معمدانية جديدة مصلبة من النوع البيزنطي مما قد يعني تحول أبناء هذه المنطقة عن المذهب الدوناتي إلى المذهب الكاثوليكي.

وبالرغم من إصلاحات البيزنطيين الإدارية وإنعاشهم للكاثوليكية فان الحضارة البيزنطية لم تضرب جذورها عميقة في المنطقة، والواقع أنها لم تكن أكثر من مظهر يخفي ورائه الانحدار السريع الذي كانت البلاد تتردى إليه في تحولها إلى مستوى الرعاة الرحل. وفي هذا العصر تشكلت الجماعات القبلية البربرية في منطقة طرابلس من مثل نفوسة وهوارة الذين أبدوا قدرا من المقاومة في مدافعة العرب الفاتحين عن بلادهم. ولقد انهار المظهر الحضاري البيزنطي بسرعة تحت وطأة جيش عمرو ابن العاص، فاتح مصر، عندما غزا برقة وطرابلس (642 – 643 م.) ولم تبد أية مدينة بيزنطية أدنى مقاومة باستثناء ضئيلة أبدتها مدينة طرابلس.

برقة في العهد البيزنطي

التنظيمات الإدارية حتى عهد جستنيان:

انقسمت ليبيا[71] وفقا لتنظيمات ديوقلتيان (285 – 305 م.) الإدارية إلى ولاية في منطقة طرابلس وولايتين في منطقة برقة هما ولاية ليبيا العليا التي أصبحت طلميثة عاصمة لها بدلا من سيرين وولاية ليبيا الدنيا التي كانت تشمل السواحل القاحلة بين درنة والإسكندرية وكانت باريتونيوم (= مرسى مطروح) عاصمة إدارية لها. وظلت هاتان الولايتان كذلك حتى وحدتا في دوقية واحدة في مطلع عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (379-395 م.) وكان ذلك سنة 371 م. وبعد وفاة ثيودوسيوس الكبير انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية أو بيزنطية فانعكست تلك القسمة على ليبيا إذ إن طرابلس استمرت تابعة للإمبراطورية الغربية ثم للوندال حتى استردها منهم جستنيان بينما تبعت دوقية برقة للإمبراطورية البيزنطية. ومن هنا اختلفت حظوظ المنطقتين الليبيتين: فإن طرابلس لم تلبث أن خضعت للوندال طيلة قرن كامل عادت بعده للتاج البيزنطي في انتظار مقدم الفاتحين العرب بينما ظلت برقة تابعة للبيزنطيين طيلة الوقت حتى فتحها العرب سنة 642 م.

ورغم قلة المعلومات المتوافرة لدينا عن برقة البيزنطية فإنا نرجع أن المنطقة من خليج سرت الكبير في الغرب حتى الإسكندرية في الشرق صارت منذ سنة 381 م. تشكل دوقية واحدة مكونة من أبرشيتين واحدة تشمل منطقة البنطابولس وكانت عاصمتها الإدارية طلميثة والأخرى تشمل المنطقة الساحلية بين درنة والاسكندرية وعاصمتها الإدارية باريتونيوم كما أسلفنا[72]. ولعل الأبرشية الأولى حملت أسم البنطابولس بينما حملت الثانية أسم ليبيا. وعلى هذا الأساس فإن برقة كانت دوقية بيزنطية يترأسها دوق واحد ويساعده في حكمها وإدارة شؤونها رئيسا الأبرشيتين ومجلساهما الاستشاريان. ويبدو لنا أن دوق برقة كان مسئولا

71- انظر ص 372 – 381 أعلاه .

72- صارت درنة في وقت من الأوقات عاصمة لهذه الولاية

تجاه الدوق الأوجستال (أي نائب الإمبراطور في مصر) بالإضافة إلى مسؤوليته المباشرة تجاه الإمبراطور. وفي زمن الإمبراطور أنسطاسيوس (491_518 م.) انقسمت برقة إلى دوقتين تتألف كل منهما من أبرشية واحدة وصارت دوقية البنطابولس تابعة لحاكم إيالة الشرق البرايتوري الذي كان نائبا للإمبراطور في حكم الأملاك البيزنطية في آسيا ومصر بينما ظلت دوقية ليبيا (من درنة حتى الاسكندرية) تابعة إداريا للدوق الأوجستال بمصر وصارت تعتبر إقليما من أقاليم الحدود (Limes) نظرا لما كانت تتعرض له من غارات رجال القبائل. ولم تكن لدوق هذه المنطقة إلا السلطة المدنية وقد استمر هذا الوضع حتى أيام جستنيان عندما ألغى هذا الإمبراطور وظيفة الدوق الأوجستال في مصر وقسم مصر بموجب القانون رقم 13 الذي أصدره سنة 538 م أو 539 م. إلى خمس دوقيات هي: مصر. أوجستامنيكا. أركاديا. طيبة وليبيا. وبموجب قانون جستنيان المذكور صارت دوقية ليبيا تخضع لدوق يجمع في يديه السلطتين المدنية والعسكرية ويكون مسئولا تجاه الإمبراطور مباشرة وتجاه الحاكم البرايتوري لايالة الشرق (Oriens).

وبعد منتصف القرن الميلادي الرابع[73] كانت الأجهزة الإدارية الرومانية بشكل عام وفي منطقة برقة بشكل خاص فقد دب فيها الفساد والتعفن خاصة فيما يتعلق بالنظام المالي ونظام جباية الضرائب. وبالطبع وقع السكان ضحايا لجباة الضرائب وما ورائهم من سلطات الجهاز الإداري الذي بدأ يتجه حثيثا نحو التحول إلى بيروقراطية صارمة لا ترحم إلى حد إن الإمبراطور فالنتيان الأول عجز عن حماية السكان من استبدال الموظفين وظلمهم فلجأ في سنة 364 م. إلى استحداث وظيفة حامي المدينة (Defensor Civitatis) لحماية دافعي الضرائب وأصحاب الشكاوي والضعفاء بشكل عام. وكان حاكم الشرق حتى سنة 387 م هو الذي يعين الحماة لمدن دوقية إيالته. وفي تلك السنة صدر قرار إمبراطوري يقضي بأن

73- بالرغم من أن برقة سلمت من شر الوندال الا أن حالتها ساءت بسبب تكرار غارات القبائل الليبية عليها مما أدى إلى نقل عاصمتها الادارية من قورينة إلى طلميثة أولا عندما صار الأسقف سورينيوس أسقفا لها من 410 إلى 413 م. ثم إلى أبولونيا إلى سميت سوسا (Sozusa) أي مدينة المنقذ

تقــوم المدن بانتخاب حماتها. وظلت الحالة كذلك حتى ســنة 409 م. عندما أدرك الأباطرة أن الفقراء من المساكين كانوا في حاجة ماسة للحماية فعدلت اختصاص حماة المدن وطريقة انتخابهم بحيث صاروا ينتخبون من قبل رجال الديــن والأعيان والملاكين ونواب البلديات. ولكن ذلك كله لم يجد نفعا لأن ما تحمله الحماة من مسؤوليات ثقيلة جعلهم لا يقلون عن نواب البلديات رغبة فــي التخلص من الالتزامات المفروضة عليهم. وعلى الرغم من المحاولات التي قام بها أباطرة مختلفون لتحســين وضــع حماة المدن أملا في الإبقاء عليهم ليدافعوا عن سكان مناطقهم الا ان وظيفة حامي المدينة اختفت قبل عصر جســتنيان؛ ومما يؤكد اختفاءها قبل زمنه هو أن جســتنيان كثيرا ما فكر في احيــاء تلك الوظيفــة ومن ناحية أخرى فان تفكيره فــي إحياء تلك الوظيفة دليل آخر يضاف للأدلة الكثيرة التي تشــير إلى استشــراء الفساد في الجهاز الإداري واشــتداد الظلم الواقع على الأهلــين. «والواقع إن ما رفع من الأقاليم من الشــكاوي، وما تكرر إصداره من الأوامــر الإمبراطورية، ليس دليلا على أن كل مــا جرى مــن محاولات للإصلاح فــي القرنين الرابع والخامــس لم يؤد إلى نتيجة طيبة»[74].

النظام المالي:

كان النظــام المالــي لاســيما مــا كان يتعلق منــه بالضرائب مشــكلة بالغــة التعقيــد؛ فالخزائن خاوية مــن الأموال، والحاجة جد ماســة لها. فلما تربع جســتنيان على عــرش الإمبراطورية لم تكن النظــم المالية إلا ما أجراه المصلحــون في القرن الميلادي الرابع فيما يتعلق بنظم الضرائب وطرق الجباية والمســؤولية عــن الجباية؛ وهي إصلاحــات وتعديلات لم ينجــح النظام المالي معها في إصلاح الأحوال الاقتصادية. ولم يحســن الموكلون بجباية الضرائب استخدام السلطة التي بأيديهم فكانت النتيجة أن دافعي الضرائب تحملوا فــوق طاقتهــم وصــاروا يؤدون أكثــر مما هو مقــرر عليهم مــن الضرائب ولم يجدهــم نفعا كلما لجأ إليه الأباطرة الذيــن توالوا عن العرش البيزنطي قبل جســتنيان من التهديدات وفرض العقوبات على الموظفــين الذين لم يتركوا

74- العربي ، السيد باز ـ مصر البيزنطية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1961 ، ص 144

حيلــة إلا ولجئــوا إليها من أجــل التخلي عــن القيام بواجباتهــم. ولقد دفع هذا الموقف الســيء أعدادا كبيرة من الســكان إلى هجــر مدنهم وأراضيهم واللجــوء إلى الصحراء حيــث لا تصل اليهم أيدي جبــاة الضرائب. ولم تكن تلك هي الوســيلة الوحيدة التي لجــأ اليها دافعوا الضرائب للتهرب من جباة الضرائب فقد التمسوا كل الوسائل التي كانت كفيلة بتخليصهم من دفع الضرائب وتأدية ما عليهم من التزامات فلجئوا إلى استخدام أساليب الخداع والغش ولكي يفلتوا من قبضة عمال الخراج. فالملاكون من الأهالي رأوا أنه من الخير لهم ان يتخلوا عن أراضيهم حتى لا يدفعوا ما تقرر عليهم من ضرائب جائرة فخربت حقول وقرى عديدة بعد أن لجأ أصحابها إلى الصحراء أو الأديرة أو انخرطوا في سلك الجيش.

ولقد ذهبت سدى كل الوسائل والإجراءات التي اتخذتها الحكومة المركزية لمنع هذا الفســاد كمــا أن النظم والإصلاحات والتعديــلات التي أجرتها تلك الحكومــة عجزت عن إيجاد العلاج الناجع لذلك الفســاد المستشــري. ونحن نجد في مقدمة القانون رقم 13 الذي أصدره جســتنيان إشارة إلى خلاصة ما كان عليه الموقف قبيل إجراء إصلاحات جســتنيان؛ ففي مقدمة ذلك القانون إشــارات إلى ما كان يتصف بــه جباة الضرائب من أخلاق جعلت جســتنيان يفكــر طويلا في حقيقة اســتقامتهم واخلاصهم؛ فقد اســتغلوا ما أصاب الإدارة المالية من اضطراب وصاروا يســتفيدون من ذلك لمصالحهم الخاصة فلا يرســلون إلى خزينة القســطنطينية من الضرائب التي يجبونها سوى النزر اليســير كما إن ما كانوا يرســلونه إلى العاصمة من القمح صار ضئيلا إلى درجــة جعلته يبدو كأنه صدقة. ومع ذلك فان دافعي الضرائب كانوا يؤكدون دائما أنهم كانوا يؤدون كل ما كان مقرر عليهم من ضرائب. وعلى الرغم من كل المحاولات التي قامت بها الحكومة المركزية في القســطنطينية لمناهضة التقاليد الإدارية الســيئة، بما أجرته من إصلاحات جديدة، فانه كان لزاما على جســتنيان – بعــد أن تعرضت تلــك الإصلاحات للتداعي والانهيــار – أن يبدأ مــن جديد بإجراء إصلاحات شــاملة تصلح لتحقيق نتائج مثمرة. ولا شــك ان جســتنيان قد أفاد في وضع إصلاحاته مــن كل التجارب والإصلاحات التي

سبقت عصره.

الجند:

في مستهل القرن الميلادي السادس أصدر الإمبراطور أنسطاسيوس مرسوما موجها إلى الدوق دانيال، دوق البنطابولس، يوضح بعض الأمور الهامة المتعلقة بالإدارة لا سيما ما يرتبط منها بحقوق وواجبات الجند الذين كانوا يرابطون في هذه المنطقة.

ويتضح من ذلك المرسوم ما كان عليه الوضع الحربي في البنطابولس حيث كانت ترابط فئتان من الجنود: الجنود النظاميون، والفلاحون من جنود الحدود الذين كانت الحكومة تمنحهم الأراضي على الحدود مقابل تعهدهم بالدفاع عن مناطقهم وبحراسة الطرق ومراقبة القبائل المتمردة ومنع الرعايا البيزنطيين من العبور إلى أراضي البربر الا بعد الحصول على الإذن من الدوق. وهكذا كان جيش من حرس الحدود الفلاحين يرابط على طول امتداد الحدود التي أقيمت عليها قلاع وحصون متقاربة. والراجح أن ما حدث في دوقية البنطابولس من إقامة جيش حدود، أو أطراف، من الجنود الفلاحين جرى أيضا في دوقية ليبيا وعلى الحدود الشرقية والجنوبية لمصر. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الخدمة في جيش الحدود كانت وراثية تنتقل من الأب إلى الأبناء.

تنظيمات جستنيان الإدارية

وفقا للقانون رقم 13 الذي أصدره هذا الإمبراطور

(سنة 538 م أو سنة 539 م.)

سبق أن بيّنا أن منطقة برقة صارت في عهد جستنيان تنقسم إلى دوقيتين تابعتين للحاكم البرايتوري لإيالة الشرق، وهما دوقية البنطابولس وعاصمتها الإدارية طلميثة، ودوقية ليبيا وعاصمتها الإدارية باريتونيوم (= مرسى مطروح)، ورجحنا أن كلا من هاتين الدوقيتين كانت تتألف من أبرشية واحدة[75].

الدوق:

ولقد كانت للدوق في دوقيته سلطات واسعة للغاية فقد كان يمثل السلطة الإمبراطورية، وكأنه بذلك يعتبر نائبا محلياً للإمبراطور، فهو يلي كل الأعمال المدنية والعسكرية، ويعتبر الرئيس الأعلى للإدارة والقضاء والشرطة. وما اجتمع تحت إمرته من عساكر في دوقيته هيأ له بوجه خاص أن يقوم بحفظ الأمن العام في المدن وأن يقدم المساعدة المطلوبة لعمال الخراج لتمكينهم من تحصيل الضرائب. ومن الناحية العسكرية كان الدوق يعتبر رأس كل ما ويتعلق بالجيش من الوظائف فكان يتولى إدارة فرق من الجيش ويحرص على انتظام صرف رواتب العساكر وملابسهم. ومن أعماله أن يوالي الطواف بإقليم دوقيته ليتفقد أحوال الناس به وليقف على أحوال الحاميات والاستحكامات. وعندما كانت دوقيته تتعرض للخطر كان يتولى قيادة قواته في الميدان أو يعهد بقيادتها لأحد نوابه لحماية دوقيته والدفاع عنها. وكان على الدوق إن يسهر على حدود دوقيته ويحافظ عليها ويحميها من غارات البدو. كما أنه كان مخولا بعقد معاهدات الصلح مع الأعداء.

ولقد زاد سلطان الدوق داخل دوقيته بفضل ما ركزه الإمبراطور جستنيان في يديه من سلطات حتى أصبح الدوق كأنه ملك في دوقيته. والراجح أن وظيفة الدوق لم تكن مقيدة بمدة معينة فكان متى عين لا يصرف عن

75- أنظر ص 474 أعلاه .

منصبه إلا بناء على مرسوم إمبراطوري أو إذا نقل إلى وظيفة أخرى.

وحتى تبقى يد الدوق نظيفة طاهرة عمل جستنيان على زيادة راتبه لاسيما بالنسبة لكل من دوق مصر ودوق ليبيا فقد كان المرتب السنوي للأول أربعين صولدا أو دينارا ذهبيا أي ما يقابل (2880) دينارا. بينما كان المرتب السنوي لدوق ليبيا (1453) دينارا. وكان مرتب دوق افريقيا (1582) دينارا. ولم يكتف جستنيان بذلك بل غمر الدوقات بكرمه من ناحية وفرض عقوبات صارمة على المخالفين منهم من الناحية الأخرى.

وكان الدوق يتولى بنفسه التنظيم الفعلي لديوانه ثم يرفع تشكيلات الديوان للإمبراطور للمصادقة عليها. وكان ديوان الدوق يشمل الإدارات التالية:

1- الإدارة المالية وتتولى الشؤون المالية في الدوقية وجباية الضرائب والخراج وتحويل ما يجب تحويله منها إلى القسطنطينية.

2- إدارة التجنيد وقد أشار إليها مرسوم انسطاسيوس الموجه لدوق ليبيا ولكن لم يرد لها ذكر في النصوص المعروفة عن عهد جستنيان. وكان مدير هذه الإدارة. بالاتفاق مع مدير الإدارة المالية. يتولى إصدار الشهادات للمجندين بأنهم أصحاء وأنه لم يلتحقوا بالجيش تهربا بالالتزامات البلدية.

3- إدارة الشؤون القضائية: وكانت لمديرها السلطة العليا في القضاء الجنائي.

4- إدارة المحفوظات أو ديوان الإنشاء حيث كان يجرى تحرير الوثائق وحفظ السجلات.

5- إدارة المظالم وإليها ترفع الالتماسات والشكاوي.

6- إدارة المنشآت العامة وكانت تنظر فيما يتعلق بالعمائر والمباني.

7- إدارة الخزينة وكانت تتولى الإشراف على ما يجبى في الدوقية من ضرائب عينية أو نقدية.

وكان يرتبط بحاشية الدوق موظفون آخرون كالموثقين والرسل ورجال البريد ورجال الحرس والمقومين والمقدرين (Assessors) والأطباء والمدرسين.

وكانت نفقات ديوان دوقية ليبيا حوالي 187½ دينارا ذهبيا في السنة أي ما يعادل (13500) دينار.

رئيس الأبرشية:

كانت الدوقية الواحدة تتألف من أبرشية أو أكثر حسب مساحتها وظروفها وقد سبق لنا أن اشرنا إلى وجود دوقيتين في برقة تتألف كل منهما من أبرشية واحدة عليها رئيس أبرشية. وليس في مصادرها ما يوضح عمل رئيس الأبرشية ويحدده ولكنا نرجح أنه كان ينوب عن الدوق في قيادة شرطة الأبرشية وربما كانت له بعض الصلاحيات القضائية. ونحن نعرف انه بعد أن ضمت لدوقية ليبيا منطقتا مينالياتس ومربوط المصريتين عهد الإمبراطور لدوق ليبيا أن يتولى مسؤولية اختيار موظف نشيط ينوب عنه في حكم هاتين المنطقين ومباشرة القضاء وحفظ الأمن فيهما. وقد عرف هذا الموظف باسم توبوتيريت (Topoterete). وقد ندب دوق ليبيا عشرين من موظفي ديوانه لمساعدة التوبوتيريت في أعماله كما حتم على العساكر المرابطين في المنطقتين أن يقدموا له كل ما يحتاجه من مساعدة. والذي دعي إلى تعيين هذا الموظف هو كون المنطقتين المذكورتين بعيدتين عن باريتونيوم. العاصمة الإدارية للدوقية. وكونهما مضطربتين مما جعل سكانهما يقاسون كثيرا من المصاعب في سبيل تقديم شكاواهم لمحكمة الدوق. ولعل وجود دوق على رأس منطقة تشمل أبرشية واحدة فقط كان يقلل من شأن رئيس الأبرشية حتى يصبح مجرد موظف في ديوان الدوق.

الباجرك:

على ضوء ما كان معمولا به في مصر نستطيع أن نقول إن الباجرك وجدت في دوقيتي برقة. وكان الباجرك موظفا يستمد سلطاته من الإمبراطور مباشرة فإذا لم يقم بتأدية واجباته لم تكن للدوق السلطة في عزله وكان أقصى ما يستطيع القيام به في مثل تلك الحالة أن يكتب تقريرا بشأن الباجرك للإمبراطور فيتخذ الأخير بحق الباجرك ما يراه مناسبا. أما عمل الباجرك فمن المرجح أنه كان يختص بجباية الضرائب من القرى

والأراضي التابعة لعاصمة النوم (Nome) أو الإقليم باستثناء القرى والضياع التي كانت تتمتع بحق الجباية الذاتية. وفي القانون رقم 13 ما يشير إلى أن الطابع المالي هو الذي كان يغلب على طبيعة عمل الباجرك وإن كان هذا الأخير. على ما يبدو. يشارك في الأمور القضائية من مثل تنفيذ القرارات والأحكام الصادرة عن محكمة الدوق. وكانت تحت إمرة الباجرك جماعة من الموظفين كالجباة والمراقبين والكتاب والمساعدين. كما كانت توضع تحت تصرفه وسائل المواصلات المناسبة ليتمكن من الطواف بالبلاد والوقوف على أحوالها.

وحتى يلتزم الباجرك جانب الأمانة والإخلاص فرض الإمبراطور عقوبات مالية على كل باجرك أهمل واجباته أو تهاون فيها أو خان الأمانة وكان من بين تلك العقوبات أن يقرر الإمبراطور مصادره أموال ذلك الباجرك.

إدارة المدن والبلديات:

كان في كل مدينة من مدن الأبرشية إلى جانب الباجرك نواب البلدية الذين ورد ذكرهم في القانون رقم 13 على أنهم نواب لجباية الخراج. وكان يجوز لهم أن يقدموا إلى عاصمة الدوقية للتشاور مع ممثلي السلطة المركزية في أمور الضرائب. وكان يساعدهم في أداء أعمالهم مجلس البلدية الذين كان من جملة أعضائه كتاب الحسابات والكاتب العام ومتولي الدعاوي والخزائن المكلف بحفظ الضرائب بعد جبايتها. وكان يرتبط بالمدينة وبلديتها أيضا كبير الأطباء. والموظفون الموكلون بالإشراف على المرافق العامة كالحمامات والجسور.

ولقد اهتم الإمبراطور جستنيان بإعادة تنظيم إدارة المدن. بعد أن كانت قد تعرضت منذ القرن الميلادي الثالث للانهيار والتداعي؛ إذ إن نواب البلدية – بعد أن تجردوا من سلطانهم وتخلوا عن واجباتهم لممثلي الحكومة – أخذوا بالتدريج يخضعون لنوع من الوصايا الحكومة التي كانت تهدف إلى الوحدة وإلى اقرار الأمن.

ثم أخذت أعمال البلدية في التضاؤل. بسبب وجود وظيفة حامي

المدينة التي طالما فكر جستنيان في بعثها وتعديلها بصورة تضمن الحيلولة دون ابتزاز الأموال. وهو ما عجز الحماة السابقون عن تحقيقه بل صاروا هم أنفسهم يمارسون عمليات الابتزاز. ولكن محاولة جستنيان لم يكتب لها النجاح نظرا لتداعي نظام البلديات بشكل عام وبسبب ازدياد نفوذ كبار الملاك.

وازداد نفوذ الكنيسة في القرن الميلادي السادس بازدياد مشاركتها في الإدارة البلدية إذ صار الأسقف يشترك مع الأعيان في اختيار بعض الموظفين كحامي المدينة مثلا. وفي الإشراف على الموارد المالية للمدينة وصيانة مرافقها العامة.

أما بالنسبة للقرى فقد ظلت القرية بمثابة وحدة إدارية تابعة للمدينة التي هي المركز الإداري للمنطقة أو الإقليم؛ فكانت القرية هي التي تملك الأرض وتتحمل مسؤولية زراعتها وتأدية ما يتقرر عليها من الضرائب.

وكانت لكل قرية هيئة أشبه ما تكون بمجلس محلي يتكون من أعيانها ويتولى مسؤولية تسيير أمورها الداخلية كإدارتها المالية وجمع المؤونة اللازمة للجند وتنظيم شرطة القرية. وفي حالة كون القرية تتمتع بحق الجباية الذاتية كان أعضاء مجلسها المحلي يصبحون على علاقة دائمة بديوان الأبرشية فيما يتعلق بالشؤون المالية.

وفي القرن الميلادي السادس بلغ الاهتمام بتأدية بعض الخدمات العامة حد الإلزام أو التكليف الذي كان يقع على كاهل بعض أبناء الطبقة الثرية مما جعل بعض أعمال السخرة تصبح وراثية من مثل وظيفة جابي الخراج وفئة المجدفين في سفن الدوق. وتعتبر وظيفة حامي المدينة من أهم أعمال السخرة والإلزام فقد كان على شاغلها أن يتولاها لمدة سنتين لا يستطيع أثناءها أن يتخلى عن الأعباء الملقات على عاتقه مهما انتحل من أعذار.

التنظيم المالي منذ جستنيان:

لقد سبق أن أشرنا إلى مدى ما كان عليه التنظيم المالي وخاصة نظام الضرائب من تعقيد. وسنحاول فيما يلي أن نستعرض أنواع الضرائب

البيزنطية المعروفة وطرق تقديرها وجبايتها.

كانت هناك ضرائب مباشرة تجبى عينية أي في نفس المحصول أو نوعية أي نقدية مقدرة على محصول من المحصولات. وكانت هناك أيضا ضريبة الرأس أو الضريبة الشخصية (Capitatio) ولكنا لا نعرف عنها سوى أنها فرضت في الفيوم في مصر على الذكور البالغين من العمل 12 – 45 سنة ولكن لم يصلنا من الوثائق ما يثبت أنها دفعت فعلا. ويظن بعض المؤرخين أن هذه الضريبة لم تكن إلا ضريبة الأرض نظرا لأن الناس كانوا مرتبطين بأراضيهم بصفة دائمة.

وبالإضافة لهذه الضرائب المباشرة كانت هناك ضرائب غير مباشرة من مثل مكوس الجمارك على الواردات والصادرات. وما كان يتحمله دافعي الضرائب من السخرة كصيانة الجسور وزراعة الأراضي العامة وتزويد الجيش بالمؤن.

وقد كانت لجان خاصة تقوم وفقا للعرف والعادة بتقدير الضرائب حسب طبيعة الأرض وقوتها الإنتاجية. وخير مثال على هذا أن دوقية ليبيا حينما اختلت بها زراعة القمح صارت ضريبتها نوعية.

ونظرا للمسؤولية الجماعية التي تحملها دافعوا الضرائب منذ زمن الإمبراطور قسطنطين في كل الإمبراطورية ازداد الاهتمام بتوزيع الضرائب على جميع أراضي الإقليم سواء كانت مهملة أو لا مالك لها فألزم من تبقى من المزارعين في القرى أن يدفعوا الضرائب المطلوبة كما ألزموا بزراعة الأراضي المهملة أو المهجورة المجاورة لأراضيهم. ومن المرجح أن الأباطرة الذين جاءوا بعد جستنيان لم يلغوا هذا الإجراء.

أما أساليب جباية الضرائب الغير عقارية فليس لدينا معلومات تذكر عنها. أما الضرائب النوعية التي كانت برسم الخزينة فقد كان على الدوق وديوانه القيام بجبايتها.

وقد جعل جستنيان لدوق مصر ودوق ليبيا. اللذين لم تتجاوز سلطة الواحد منها حدود دوقيته. الحق في التدخل في أمر الدوقيات الأخرى المجاورة والحق في أن يستخدما القوة لإرغام الملاك الهاربين على العودة واستخلاص الضرائب منهم.

ومع انخفاض قيمة العملة لجأت الحكومة في القرن السادس إلى تحصيل الضرائب عينا بدلا منها نقدا. وصارت إجراءات الحكومة لتحصيل الضرائب على ذلك النحو تشتد أكثر فأكثر ابتداء من سنة 559 م. مما جعل العاجزين عن دفع الضرائب وحتى مختلسيها يلجئون للكنائس من أجل الحماية.

إيداع الضرائب والنفقات العامة:

أصر جستنيان في قانونه رقم 13 على ضرورة إقامة موازنة دقيقة للإيرادات والمصروفات في برقة حتى يتجنب الوسائل التي حاول بعضهم بمقتضاها زيادة النفقات على الإيرادات. وأشار الإمبراطور في ملحق مرسوم هذا القانون إلى ما ينبغي أن يرد إلى خزينة الشرق من برقة ومناليتس ومريوط ومقدار ما ينفق محليا فيها على الموظفين والدواوين وجراية الجند المرابطين في مواضع مختلفة منها والأموال المخصصة لملاهي المدن.

ولما لم يكن بدوقيتي برقة خزينة تحفظ فيها الأموال التي يجب أن تؤدى للإمبراطور. تقرر نقل تلك الأموال إلى الإسكندرية حيث كان يتسلمها مندوب الخزينة العامة ويحولها إلى القسطنطينية. وكان الدوق هو المسؤول عن التصرف في النفقات في دوقيته على أنه كان هو وديوانه يتحملان المسؤولية عن تنظيم صرفها في النواحي الثلاث المقررة: نفقات حربية. نفقات مدنية من مثل مرتبات الدوق وموظفيه ونفقات البريد والمدارس وبقية المرافق العامة. ثم نفقات عامة كانت تعرف باسم سلمنيا (Solemnia).

وحدد جستنيان أنواع العقوبات التي تلحق بالمخالفين؛ وقد كان من بينها التغريم والعزل ومصادرة الممتلكات والتعذيب حتى الموت.

ضريبة القمح أو الميرة المدنية (Annona Civica):

فرضت هذه الضريبة منذ أيام ديوقلتيان ولكن مقدارها لم يحدد مما جعلها عرضة للتعديل المتعاقب لكي تلائم أغراض الدولة كإطعام العاصمة أو تموين الجيش. وقد اهتم جستنيان بإعادة تنظيم هذه الضريبة المهمة، التي قدر إن دوقية مصر وحدها كانت تشحن بموجبها من الإسكندرية للقسطنطينية كل سنة ثمانية ملايين إردب «ولم تشترك في ذلك ليبيا[76] لأنها لم تنتج من وافر القمح مثلما تجود به مصر. ويعتبر هذا الإقليم مديناً باستمرار للخزانة».

التنظيمات القضائية زمن جستنيان:

1- محكمة الدوق: وكانت تنعقد في عاصمة الدوقية وتعتبر أهم محاكمها. وكان للدوق صلاحية ممارسة القضاء الجنائي العالي والقضاء المدني كما كان يفصل في الخصومات التي تقع بين الموظفين كالنظر في الدعاوي المالية والحكم في القضايا المدنية الهامة وينظر في المظالم.

والذي حدث هو أن السلطة القضائية وبقية السلطات المدنية تجمعت في يد الدوق ففقد رئيس الأبرشية بذلك كل امتيازاته تقريبا ولم يعد الا مجرد قاض موظف عند الدوق ربما كقائد للشرطة له بعض الصلاحيات القضائية المحدودة.

وكانت اختصاصات الباجرك أن ينظر في عقود الضمان وفي الشكاوي فيرد الحقوق إلى أصحابها. أما حامي المدينة فكان له حق القضاء الجنائي والمدني من مثل النظر في قضايا المعاملات المالية التي لا تتجاوز قيمتها (350) صولدا ذهبيا. ومنذ سنة 535 م. صار اختصاص حامي المدينة مطابقاً لاختصاص رئيس الأبرشية. وبموجب ملحق جستنيان رقم 15 صار للحامي الحق في أن ينظر في القضايا التي لم تكن الجرائم فيها بالغة الخطورة وأن ينفذ ما أصدره من عقوبات. أما إذا كانت الجناية كبيرة فإن الحامي كان لا يستطيع أن يفعل شيئا حيالها سوى أن يأمر بالقبض على الجاني وإيداعه

76- العريني، السيد الباز، مصر البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1961 ، ص 203 .

السجن ثم يقدم إلى محكمة رئيس الأبرشية. وبعد صدور القانون رقم 13 صار الجاني يقدم لمحكمة الدوق بدلاً من محكمة الأبرشية وبالإضافة لذلك فقد كان حامي المدينة يقوم بوظيفة قاضي الصلح.

أما في القرى فان رجال الشرطة كانوا يباشرون السلطة القضائية في بعض الأمور. فإذا عجزوا عن الإصلاح بين المتخاصمين أرسلوهم إلى المدينة حيث يتولى البارجك وحامي المدينة محاكمتهم. وفي بعض الحالات كانت قضايا الريف تحل عن طريق التحكيم.

وقد نشأ القضاء الكنسي منذ زمن الإمبراطور قسطنطين الكبير فكان المتخاصمون – إذا كان أحدهم رجل دين أو كانت الخصومة في أمور دينية – يحتكمون للأسقف. وكان القانون يقر ما يتخذه الأساقفة من قرارات.

وكان يحق للمشتكي بعد ذلك كله أن يستأنف أي حكم صادر ضده لمحكمة الإمبراطور في بيزنطة فيكون القرار الصادر عنها بمثابة أمر لابد من تنفيذه. وبالرغم من إن محكمة الدوق كانت تنظر فيها القضايا العسكرية إلا أنه كانت هناك محاكم عسكرية خاصة تنظر في القضايا المختلفة بما فيها القضايا العسكرية إلا أنه كانت هناك محاكم عسكرية خاصة تنظر في القضايا التي يكون أحد الجنود طرفا فيها.

وحتى يوفر جستنيان على أصحاب الدعاوي مشاق ونفقات الاستئناف لمحكمة القسطنطينية قرر إنشاء محاكم متوسطة بين الأخيرة ومحاكم الأقاليم كانت تفصل نهائيا في القضايا التي لا تزيد الدعوى فيها عن (500) صولد من الذهب.

الشرطة والجيش:

كان الدوق يعتبر الرئيس الأعلى للشرطة في دوقيته بينما كان رئيس الأبرشية يعتبر قائداً للشرطة فيها تصدر عن ديوانه أوامر القبض والاعتقال ويودع في سجنه المذنبون والمجرمون. وقد درج دوق ليبيا على أن يرسل نائبا عنه إلى منطقتي مينالیتس ومربوط المضطربتين بسبب قربهما من الإسكندرية المضطربة. وكان ذلك النائب يلقي القبض على من يلجأ لهاتين المنطقتين

من مثيري الشغب بالإسكندرية ثم ينفذ ما صدر من محكمة نائب ليبيا من أحكام أو يسلم المقبوض عليهم لمندوبي أوجستال الإسكندرية. وكان لدى ذلك النائب بالإضافة إلى الموظفين المدنيين الذين يؤلفون ديوانه خمسون جندياً اتخذهم من بين الحامية العسكرية التي كانت ترابط في منطقته.

ويذكر بهذا الصدد أن البربر كانوا يعتبرون من أخطر المغيرين على مصر. ومعروف إن أريستوماك. دوق مصر. قاد في عهد الإمبراطور موريس (582 – 602 م) حملة ضد المغيرين منهم الذين كانوا قد بلغوا النيل فألحق بهم هزيمة منكرة. وهاجم المازيكي (Maziques) الليبيين الذين كانوا قد عرفوا بإثارة القلق والاضطراب في برقة وسيوة وأديرة وادي النظرون خلال القرنين الميلاديين الخامس والسادس.

ولما كانت الطريق مفتوحة إلى مصر من دوقية ليبيا فإن الحكومة البيزنطية بذلك جهداً شاقاً في تنظيم الدفاع عن الحدود في القرنين الخامس والسادس للميلاد؛ فقد أصدر الإمبراطور أنسطاسيوس الثاني بالنسبة لدوقية ليبيا مرسوماً شرح فيه بالتفصيل ما يجب أن تؤديه القوات المرابطة بتلك الدوقية. ولذلك فان الجند الفلاحين كانوا يرابطون على طول الحدود في القلاع والحصون المتقاربة التي قامت على أطرافها. ومن المرجح إن جستنيان أبقى على هذا الاتجاه.

وكان جستنيان حريصاً على توفير الأمن والسلام على حدود دوقية ليبيا. فلم يكتف بإعادة تنظيم الجيش بل أنشأ الفرقة المعروفة بفرقة جستنيان الليبية ورمم وعمر أسوار المدن والحصون العديدة في برقة البيزنطية. ومن الدليل على متانة تلك التحصينات ما حدث بعد قرن من الزمن حينما قاوم فلافيان. دوق البنطابولس. الغزو العربي من خلف أسوار توكرة. والمعروف انه كانت في دوقية ليبيا ثلاثة مواضع ترابط فيها القوات البيزنطية الحربية فكان في كل مدينة من مدنها الثلاثة حامية يتراوح عددها بين (300) إلى (500) جندي. وتلك المدن الثلاثة هي بتريتونيوم وأنتيرغوس (= طبرق) وربما كانت المدينة الثالثة هي مدينة تافوزيرس التي يخبرنا بروكوبيس أنها كانت على مسيرة يوم من الإسكندرية وأن جستنيان أقام فيها منشآت

كثيرة منها محلات أقامة الحكام والحمامات.

اقتصاديات منطقة برقة
في عهد الرومان الشرقيين والغربيين

سبق أن تحدثنا في اقتصاديات منطقة برقة في العصور السالفة وفقد بينا أنها ظلت متطورة مزدهرة في العهدين الإغريقي والبطلمي في المجالات الاقتصادية الرئيسية الثلاث: الزراعة والتجارة وتربية المواشي[77]. ومع أواخر العصر البطلمي كان هذا الاقتصاد قد تضعضع نتيجة للاضطرابات الداخلية والحروب الأهلية ومغامرات المغامرين وغارات القراصنة. وزادت الحالة سوءا خلال النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد وخاصة بالنسبة للتجارة فقد اتخذ القراصنة جزيرة كريت قاعدة لعملياتهم وراحوا يغيرون وينهبون ويخربون كل ما تصل إليه أيديهم فوقعت تجارة مدن ساحل برقة المقابل لكريت ضحية لتلك الأعمال التي ظلت تشل التجارة البحرية خاصة في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط إلى أن تمكن بومبي سنة 67 ق. م. من وضع حد للقرصنة والقراصنة بالقضاء على قواعدهم في كريت وعلى سفنهم في عرض البحر قبيل ضم برقة وكريت في ولاية واحدة. وكانت تجارة برقة مزدهرة بين أواسط إفريقيا وبلدان الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط قد شلت تماما خلال المدة التي اشتد فيها نشاط القراصنة. وهي لم تبدأ تنتعش وتنهض من تلك العثرة إلا بعد أن حل عهد أوغسطس وحل مع السلام والأمن في الداخل والخارج ليس في برقة وحدها بل في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية. ولكن تجارة برقة ظلت دون المستوى الذي كانت عليه بالرغم من انتعاشها النسبي ذلك أن تبادلها التجاري أصبح الآن ينحصر تقريبا مع روما. أما الرعي وتربية المواشي فقد كانت حظوظها أوفر من حظ التجارة لأن أهالي برقة استأنفوا ممارسة نشاطهم المعهود في ظل الأمن والسلام اللذين ضمنهما لهم عهد أوغسطس فصاروا يربون الخيول والمواشي وينتجون القمح والشعير والذرة والتمور والعسل وزيت الزيتون والنبيذ والسلفيوم ودام ذلك الانتعاش في تصاعد وتقدم حتى قيام الثورة اليهودية (115 – 117 م.). وقد أكد بيتروا رومانلي أن «حقول قورينة

77- أنظر ص 253 – 259 أعلاه

وطلميثة كانت تجود بإنتاج الحبوب والزيت والنبيذ في أيام نيرون (54 – 68 م.) وفسبسيان (69 – 89 م) »[78]؛ وتلك هي المحصولات التي كانت المنطقة تنتجها في أحسن عصورها. ونحن نرى أن ما يصدق على هاتين المدينتين كان يصدق على بقية المناطق الزراعية في منطقة برقة.

ويظهر القرن الميلادي الأول وكأنه فترة خصصت لزراعة الحبوب لاسيما القمح والشعير. ويشير كايوس بلايني الكبير في كتابه «التاريخ الطبيعي» إلى هذه الحقيقة بقوله: «ان الطبيعة منحت أرض إفريقية بتمامها وكمالها للآلهة سيريس [إله الزراعة والفلاحة والحصاد عند الرومان]»[79] وإذن فليس من المستغرب أن يصف الرومان منطقة الشمال الإفريقي بأنها أرض الحبوب.

ونظرا لإقبال إيطاليا في القرن الميلادي الأول على زراعة الأشجار وتربية الحيوانات فان روما والمدن الايطالية الاخرى صارت تعتمد على سد حاجاتها من الحبوب. خاصة القمح. فيما تجبيه وما تستورده منها. على صقلية وسردينيا وأقطار الشمال الإفريقي التي صارت تعرف في روما باسم «ولايات الحنطة». وبناء على هذا فان السياسة الرومانية صارت تعتمد تشجيع زراعة الحبوب في برقة فازدهرت تلك الزراعة نتيجة لتضافر جهود الأهلين والحكومة على النهوض بها. ولم تقتصر جهود الدولة على تشجيع زراعة الحبوب فقط بل شملت مختلف المجالات الزراعية. ومما يؤيد هذا القول ويؤكده تلك البرك الرومانية التي وجدت في برقة وفي بقية الشمال الإفريقي لتجميع مياه المطر واستغلالها في الزراعة وفي سقاية المواشي. وما وجد من آثار معاصر زيت الزيتون من مثل معصرة الكويفية قرب بنغازي. ولقد اشرنا في موضع آخر من هذا الكتاب إلى أن زيت الزيتون الإفريقي. رغم ثقله. كان يلقى إقبالا

78- Romanelli, Pietro, La Cirenaica Romana (96 a. c. – 642 d. c.). Centro Italiano di Studi Mediterranei, A. Airoldi – Editore, 1943 – XXI, pag. 41.

79- بلايني الكبير كاتب روماني كان عالما في التاريخ الطبيعي. ولد بمدينة قومة سنة 23 م. وهلك ضمن من هلكوا نتيجة لثورة بركان فيزوف سنة 79 م. أي بعد نشر كتابه (التاريخ الطبيعي. 36 جزءا) بسنتين.

ورواجا للاستعمال في أغراض الإضاءة ومن أجل التدليك في الحمامات. وبعد هذا الازدهار الذي شهدته منطقة برقة في القرن الميلادي الأول ازداد عبء الضرائب الرومانية مما أدى إلى بدء تلاشي صغار الملاكين وظهور كبار الملاكين الذين صاروا يكدسون الأراضي في أيديهم فيستغلونها ويستولون على معظم إنتاجها وهم يسكنون بعيداً عنها خارج المنطقة أو في مدنها مما أدى مع نهاية القرن الميلادي الرابع إلى اختفاء الزراعة العلمية لتحل محلها الأساليب التقليدية المتأخرة[80].

أما فيما يتعلق بتربية الحيوانات فقد استمرت برقة تربي الخيول البرقاوية المشهورة بأصالتها وسرعة عدوها، بالإضافة للبقر والحمير والأغنام والنعاج والطيور الداجنة كالحمام والدجاج، ثم النحل، كما أنها كانت تتاجر في الأفيال وفي الحيوانات الضارية كالأسود والنمور والفهود فتجلبها من السودان وأواسط إفريقيا بواسطة القوافل وتصدرها من موانئها إلى روما لاستعمالها في المسارح المدرجة. وحتى نكوّن فكرة واضحة عن أهمية الحيوانات الضارية والفيلة كمادة لتجارة برقة نشير إلى ان ثلاثة آلاف وخمسمائة من تلك الحيوانات قتلت خلال حفلة واحدة جرت في مسرح روما المدرج واستمرت مدة ستة وعشرين يوما متتالية وذلك في بداية العصر الإمبراطوري في أيام أوغسطس. ولا شك أن ذلك الرقم قد تصاعد فيما بعد. وجدير الإشارة هنا إلى أن المتفرج الروماني العادي في روما كان يعرف تلك الحيوانات باسم الحيوانات الليبية[81].

ولكن هذه النهضة التي شهدتها منطقة برقة في القرن الميلادي الأول سرعان ما تحطمت في بداية القرن الميلادي الثاني إثر ثورة اليهود التي لم تسفر عن حرق وتخريب المدن والقرى والمزارع الإغريقية التي كانت قائمة على ساحل برقة فحسب بل تعدتها وامتدت يدها المخربة إلى المناطق الداخلية المجاورة للساحل بالقتل والحرق والتدمير فأنزلت بمنطقة برقة كارثة عجزت جهود الأباطرة الرومان بمن فيهم هدريان عن إقامة تلك المنطقة من عثارها.

80- أنظر أيضا الصفحات 529 – 531 أدناه

81- صفر، أحمد، مدنية المغرب العربي في التاريخ، ج1، دار النشر – بوسلامة – تونس، ص 322 – 331

ومنذ ذلك الحين صارت قَدَما منطقة برقة بأسرها تغوصان أكثر فأكثر في حمأة الفقر، وراحت هي تتردى من المستوى الحضاري الرفيع الذي كانت قد بلغته إلى مستوى المجتمع البدوي الفقير الذي يعتمد في معيشته على رعي الماشية. ومنذ النصف الثاني من القرن الميلادي الثالث حتى نهاية العهد البيزنطي أضيف إلى كل العوامل السابقة عامل جديد مدمر هو أن كراهية القبائل البربرية الليبية للرومان والبيزنطيين بدأت تعبر عن نفسها عمليا على شكل هجمات راحت تلك القبائل تشنها على مدن منطقة برقة المختلفة فتقتل وتنهب وتخرب كل ما تصل إليه أيديها. ولقد سبق أن أشرنا إلى غارات الأستوريين بشكل خاص وبينا كيف إنها لم تقتصر على برقة بل امتدت إلى طرابلس كذلك. ومن الواضح مما نقلناه من بروكوبيس إن غارات القبائل الليبية لم تتوقف حتى في عهد جستنيان، الذي اتسم بكثرة التحصينات والاستعدادات العسكرية بل ظلت متواصلة حتى نهاية العصر البيزنطي. ولم يكن الأستوريين وحدهم هم الذين يشنون الهجمات على منطقة برقة، فقد كان جميع البربر الذين يسكنون الأجزاء الداخلية من المنطقة – والذين أشار إليهم بروكوبيس باسم المور – يمارسون نشاطا مماثلا. وقد سبق الإشارة للحملة التي قام بها أريستوماك، دوق مصر، ضدهم في عهد الإمبراطور موريس (582 – 602 م.)، وإلى هجومه على على قبيلة المازيكي الليبية التي كانت تواصل إثارة الاضطرابات والمتاعب في برقة وسيوة ووادي النظرون طيلة القرنين الميلاديين الخامس والسادس. ومما كان يزيد المأساة أسى وقوع الزلازل وغزوات الجراد من حين لآخر. والواقع أن الحالة استمرت تسير من سيء إلى أسوأ على ذلك النحو الذي وصفنا حتى قيض الله لبرقة من انقذها من براثن الفقر والفوضى والاستبداد والاستغلال فدخلها عمر بن العاص صلحا ودون أية مقاومة وضمها لحوزة الإسلام سنة 462 م.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن دوقية ليبيا البرقية أصبحت في العصر البيزنطي عاجزة عن تقديم أية كميات من الحبوب للدولة بل هي بالعكس

صارت دائما مدينة للخزينة البيزنطية. ويصور بروكوبيس القيصري[82] حالة برقة في أيامه بقوله: «ويتفق أن يكون الجزء الأعظم من أرض ليبيا هذه [برقة] لم يعتن به على وجه العموم. غير أن إمبراطورنا [جستنيان] نظر إلى هذه البلاد كذلك بعين الاهتمام حتى لا تكون عاثرة الحظ فتقاسى من غارات المور الذين يسكنون البلاد المجاورة. فأسس من أجل هذا حصنين بحاميتهما يدعى أحدهما بتريتونيوم. بينما أطلق على الآخر الذي يقع بعيداً عن المدائن الخمس. اسم انتيبرغوم [طبرق]»[83] وعندما يتعرض بروكوبيس لطلميثة يقول أنها كانت في الأزمنة الغابرة مزدهرة وآهلة بالسكان ولكنها أصبحت بعهده شبه مهجورة بسبب افتقارها الشديد للماء مما جعل سكانها ينزحون عنها. وهذا ما دعا جستنيان إلى إعادة بناء قناطرها وربما إصلاح قناة الماء الرئيسية التي كانت تمد المدينة بالماء فأعاد لها بذلك شيئا من ازدهارها القديم.

والواقع أن جستنيان لم يدخر جهدا في سبيل تحصين برقة وضمانة أمنها الداخلي والخارجي كأساس لإنعاشها من جديد حتى تسهم بنصيب أوفر في ملء الخزينة البيزنطي. ولكن جهوده. كجهود أسلافه لم تحقق النتائج المتوجاة منها لأن فساد البيروقراطية البيزنطية كان مستشريا إلى درجة أثبت معها إن العطار لا يستطيع أن يصلح ما أفسده الدهر والناس معاً.

82- مؤرخ بيزنطي ولد في قيصرية بفلسطين حوالي نهاية القرن الميلادي الخامس. وفي سنة 527 م. عين أمين سر خاص للقائد البيزنطي المشهور بليزاريوس ورافقه في حملاته على الشمال الإفريقي وإيطاليا وفارس. ثم عاد إلى القسطنطينية سنة 540 م. وكل ما عرف عنه بعد ذلك أنه كان لا يزال على قيد الحياة في سنة 559 م.

83- خشيم. علي فهمي. نصوص ليبية. دار مكتبة الفكر. طرابلس ليبيا. الطبعة الأولى. 1967. ص 213 – 213 .

فزان منذ حريق جرما سنة 395 م.
حتى الفتح العربي سنة 644 م.

لقد سبق أن بينا أنه مع نهاية القرن الميلادي الرابع الميلادي كانت السلطة الرومانية في الشمال الإفريقي قد بلغت حدا خطرا من الضعف. وأن مملكة الجرامنتيين كانت في منتهى الضعف مما سهل على الدوناتيين المنحرفين اجتياح جرما وحرقها وتدميرها[84]. وعندما استولى الوندال على الشريط الساحلي من منطقة طرابلس لم يحاولوا بسط نفوذهم على غير مدن ذلك الساحل. وتلا الوندال البيزنطيون فاكتفوا أيضا بالشريط الساحلي وفشلوا في فرض سيطرتهم على القبائل الليبية التي ما انفكت تهاجم مدن ذلك الساحل. وعلى ضوء هذا كله. ونظرا لعدم توافر معلومات كافية لدينا عن أحوال فزان وبقية المناطق الداخلية من ليبيا في هذه الفترة فنحن لا نستطيع إلا أن نقول إن فزان والمناطق الداخلية من ليبيا قد ارتدت من جديد إلى الانغماس في الحياة البدوية التي يسيطر عليها النظام القبلي الصرف. وحتى المناطق المجاورة للشريط الساحلي في طرابلس وبرقة فإنها تقهقرت إلى نفس المستوى المعيشي والاجتماعي والسياسي نظرا لحيلولة الحدود الساحلية البيزنطية بين سكان تلك المناطق والاحتكاك بسكان المدن الساحلية وحضارات ما وراء البحر. وكانت النتيجة المنطقية لمثل هذا الموقف أن قبائل الدواخل الليبية انكفأت على أنفسها وأصبحت معزولة عن العالم المتحضر فتفرغت لشن الغارات على المناطق البيزنطية والمزارع والواحات الجرامنتية. ومحاربة بعضها البعض في مضمار تنازع البقاء مما أدى إلى سيادة قانون الغاب وقفار المزارع وانحطاط السكان إلى مستوى الرعاة الرحل. ونحن نعرف ان قبائل هوارة ومزاتة مثلا – وهي قبائل كانت تسكن حول خليج سرت الكبير – راحت تهاجر واحات فزان وأفلحت في انتزاع واحات الجفرة ووادي الشاطئ وزويلة من أيدي الجرامنتيين بفضل استخدامها

84- انظر ص 377 أعلاه .

للجمال واستمرار الجرامنتيين في الاعتماد على الخيول والعربات[85].

ونتيجة لذلك فان تلك القبائل لم تنزع مصادر الثورة الزراعية فقط من أيدي الجرامنتيين بل استولت أيضا على طرق التجارة عبر الصحراء ففقد الجرامنتيون بذلك الموردين الاقتصاديين الذين كانا شريان النهضة الجرامنتية التي سبقت نهاية القرن الميلادي الرابع.

ولقد حاول الجرامنتيين أن يدرأوا عن أنفسهم أذى القبائل المغيرة بتوفير نوع من الحماية البيزنطية لعاصمتهم جرما ولما بقي في أيديهم من مزارع وممتلكات فتوصلوا إلى نوع من التفاهم مع البيزنطيين تم بموجبه إرسال حامية بيزنطية رابطت في قلعة لوروكوا بوادي الآجال، على بعد ستين كيلومتر من جرما، لحماية جرما وبقية واحات ذلك الوادي مقابل أن يدفع الجرامنتيين نفقات تلك الحامية وان تتحول جرما إلى الديانة المسيحية. ولكن مملكة جرما الهرمة عجزت عن دفع نفقات الحامية البيزنطية مما أدى إلى انسحاب تلك الحامية تاركة جرما والجرامنتيين ليواجهوا مصيرهم بأنفسهم.

وبوسعنا أن نتصور إن فزان وبقية المناطق الداخلية من ليبيا ظلت نهباً لنزوات القبائل وغاراتها على بعضها البعض منذ ذلك الحين حتى الفتح العربي. وفي مثل تلك الحالة فان سبيل الحماية الوحيد للفرد والجماعة هو النظام القبلي بوصفه بديلا للفوضى المطلقة.

ومن الطبيعي إن تزايد الإخطار يؤدي في مثل هذه الحالة إلى تقوية الرابطة بين الفرد وقبيلته مما يزيد وحدة العصبية القبلية وعمقها فيزيد بالتالي ضراوة التناحر القبلي وعنفه. ولذلك فانا يجب إن نستغرب قلة المقاومة التي لقيها الفاتحون العرب عند استيلائهم على ليبيا لأن هذه البلاد ولا سيما أجزائها الداخلية كانت قد بلغت أقصى درجات الضعف والانحطاط مع مطلع القرن السابع للميلاد.

85- أيوب، محمد سليمان، مختصر تاريخ فزان منذ أقدم العصور حتى سنة 1811 م، المطبعة الليبية، طرابلس الغرب، ليبيا، 1967 ، ص 56 – 57 .

اليهود والنصرانية في ليبيا

لقد سبق أن تحدثنا عن اليهود في ليبيا وقدرنا أنهم بدأوا يتوافدون إلى منطقة طرابلس مع الفينيقيين بعد القرن الرابع بعد الميلاد. وعلى برقة خلال عهد الاسكندر وخلفائه البطالمة. ومن المؤكد إن اليهود كونوا لهم جاليات منظمة في هاتين المنطقتين كانت لها كنسها أو بيعها حيث كان اليهود يمارسون طقوسهم الدينية دون تدخل من أحد. ويكاد يكون من المؤكد أنهم كانوا يبشرون بدياناتهم بين الوثنيين من البربر القدماء. فقد رجح أوريك بيتس أن البربر كانوا يندمجون مع اليهود بسهولة وان الكثيرين منهم اعتنقوا الديانة اليهودية «وتلك ظاهرة تفسر لنا اشتراك أعداد كبيرة من الثوار في ثورة اليهود في برقة سنة 115 م.»[86].

ولعل اليهود هم أول من نقل فكرة الديانة المسيحية لبرقة فنحن نعرف إن سيمون القوريني هو الذي حمل صليب المسيح على طريق الآلام في القدس[87].

وعلى هذا فان الديانة المسيحية لابد ان تكون قد دخلت برقة وبقية الشمال الإفريقي في وقت مبكر. ولقد دلت الآثار على أن أتباع الديانة المسيحية كانوا منتشرين في مساحة واسعة من الشمال الإفريقي. ولكن المسيحيين ظلوا يقاسون من الاضطهاد الوثني على أيدي السلطة الرومانية حتى سنة 313 م. عندما أصدر الإمبراطور قسطنطين مرسوم ميلان المشهور الذي ضمن للمسيحيين الحرية الدينية. إلا أن ذلك المرسوم لم يحل المشكلة لأن أتباع الكنيسة المسيحية كانوا قد أصبحوا كثيرين وفي الوقت ذاته منقسمين فيما بينهم. وقد سبق وأن أشرنا إلى ظهور مذهب دوناتس

86- Bates, Oric, Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Marein>s ST., London, 1914, p. 208

87- Romanelli, Pietro, La Cirenaica Romana (96 a. c. – 642 . d . c), . Centro Italiano di Studi Mediterranei, A. Airoldi – Editore. 1943 – XXI, pag. 229.

وانتشاره في منطقة طرابلس سنة 311 م. كتعبير عن ألماني الوطنية في وجه السلطة الرومانية وكنيستها الكاثوليكية. وقبل أن ينتهي القرن الميلادي الرابع كانت الدوناتية قد انحرفت عن مبادئها وأصبحت محورا يلتف حوله اللصوص وقطاع الطرق. وان صح ما سبق أن ذهبنا إليه من أن الدوناتيين هم الذين حرقوا جرما وخربوها فان ذلك يعني امتداد المسيحية إلى منطقة فزان ولو في شكلها الدوناتي. وفي موضع آخر من هذا الكتاب تعرضنا كذلك للمذهب الآريوسي الذي انتشر في الإسكندرية ومصر والشرق ولم يلبث أن امتد لبرقة حوالي نفس الفترة التي انتشر فيها المذهب الدوناتي[88]. وبالرغم من انتشار الديانة المسيحية على نطاق واسع في الشمال الإفريقي إلا أن الوثنيين كانوا لا يزالون موجودين في عهد جستنيان – القرن الميلادي السادس – الذي حملهم على اعتناقها تنفيذا لسياسته في نشر الديانة المسيحية وتعميمها في الإمبراطورية. ويحدثنا بروكوبيس عن هذا الموضوع. بعد ذكره لجالو وأوجله. بقوله: «أنهما احتفظتا بعبادات الأقدمين. إذ كانوا جميعا في ظلال الشرك حتى يومي هذا». وتوجد هنا معابد من الأزمنة الغابرة مكرسة (لآمون) و (الاسكندر المقدوني). وقد تعودوا الأهالي فعلا أن يقدموا لها القرابين حتى عهد جستنيان. وكان في هذا المكان عدد كبير ممن يدعون (عبيد الهيكل). لكن الإمبراطور أخذ أهبته الآن. لا لأمن أشخاص رعاياه فحسب. بل هو وضع في اعتباره إنقاذ أرواحهم كذلك. فاعتنى من كل سبيل بمن يعيش هناك من الناس. والحق انه لم يترك وسيلة للتفكير في حاجاتهم المادية تفكيرا يفوق العادة. وهو علمهم كذلك مذهب العقيدة الحقة فحوّل السكان جميعهم إلى المسيحية ومهد السبيل لتبديد عادات أجدادهم الرجسة. وبنى لهم فضلا عن ذلك كنيسة لأم الرب. لتكون حارسا لأمن المدينتين والعقيدة الحقة.

أما مدينة بوريوم. التي تقع بالقرب من المور. فإنها لم تدعن قد لدفع الجزية حتى الوقت الحاضر. كما لم يأتها جامع جزية أو ضرائب منذ أن خلق الإنسان. وقد عاش اليهود بالقرب منها منذ الأزمنة القديمة. وكان لهم معبد

88- أنظر هامش (1) ص 457 – 458

عتيق هناك أيضا يوقرونه ويكرمونه. منذ أن بناه (سليمان) – كما يقولون – حين كان يحكم الشعب العبري. لكن الإمبراطور جستنيان مهد الطريق إلى أن يغير جميع هؤلاء عبادة أسلافهم كذلك ويصبحوا نصارى. وحول معبدهم إلى كنيسة[89]. وعندما يشير بروكوبيس إلى غدامس يقول: «وفيها يعيش المور الذين كانوا متسالمين مع الرومان منذ غابر الأزمان. وقد كسب الإمبراطور جستنيان هؤلاء جميعا واعتنقوا العقيدة المسيحية طوعا»[90]. وبعد إن يستعرض بروكوبيس أعمال الترميم التي قام بها جستنيان في لبدة الكبرى يقول إن جستنيان «جعل من أهل القبائل التي تعيش بالقرب منها. والتي تدعى (الغادابيتاني Gadabitani) – وكانت حتى ذلك العهد منغمسة فيما يسمى شكل الإلحاد الإغريقي [الوثنية] – جعل منهم الآن مسيحيين. متحمسين «[91].

ولكن بالرغم من جهود جستنيان وغيره من الأباطرة فإن الديانة المسيحية لم ترسخ في المنطقة. ولذلك فإن المسلمين لم يصطدموا بأية معارضة عقائدية مسيحية عندما استولوا على ليبيا (642 – 643 م.).

89- خشيم. علي فهمي. نصوص ليبية. دار مكتبة الفكر. طرابلس. ليبيا .الطبعة الأولى. 1967. ص 216 – 218 .
90- المرجع السابق . ص 221 .
91- المرجع السابق . ص 226 .

الفصل السابع
المدن والمواقع الأثرية في ليبيا

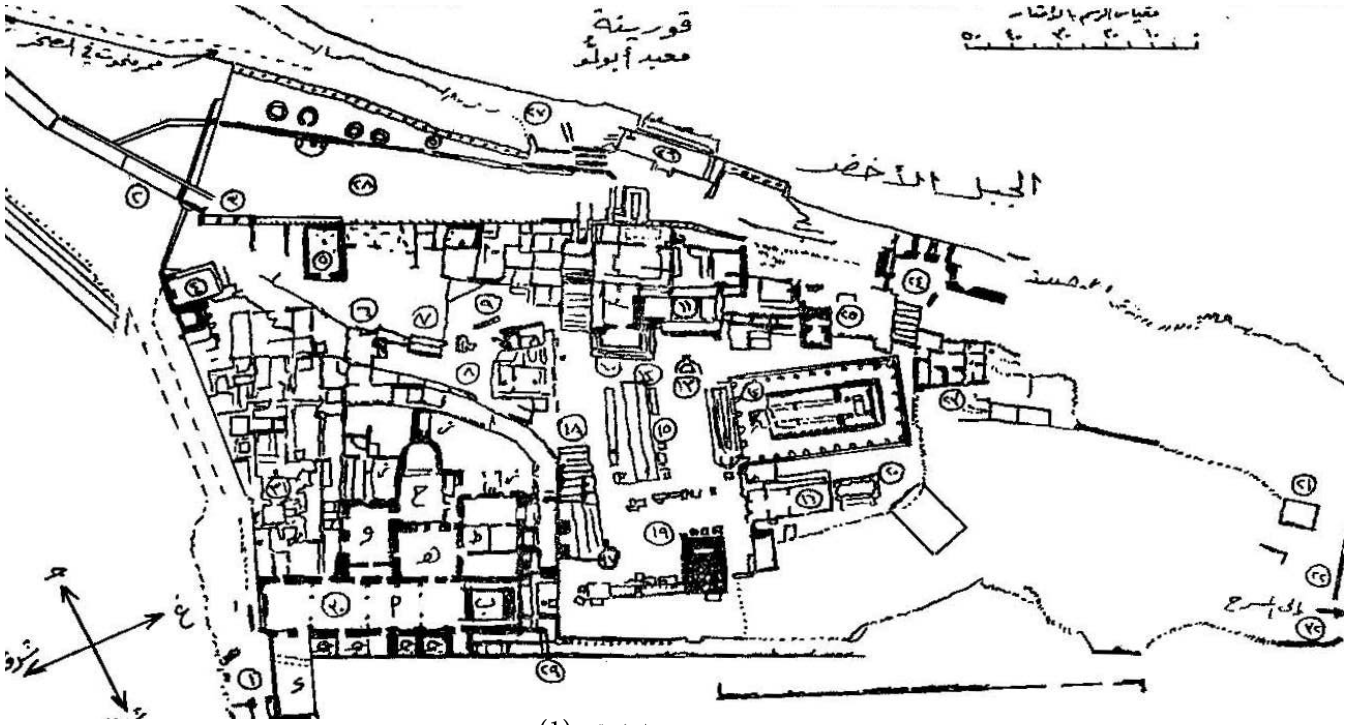

مخطط رقم (1)

عن هايسلوب

المدن والمواقع الأثرية في ليبيا

أولاً: في برقة:

قورينة = سيرين = شحات:

إن مظهر قورينة الرائع والمناظر الطبيعية الفذة التي تحيط بالمدينة لا بد أنهـا كانت تذكر الإغريق من أبناء المدينة بموحى دلفي ذاته. والواقع أن قورينة أصبحـت دلفـي إفريقيا بما كان فيها مـن مواحٍ في مقبرة باتـوس وبمغاورها المقدسة الموجودة في الصخور إلى الجنوب الشرقي من معبد أبولو. وتنقسم قورينـة الإغريقيـة إلى قطاعـين أحدهما يشـغله معبد أبولـو والآخر على رأس التلة المشـرفة على المعبد وتشـغله الأبنية العامة الرئيسـية أو المركز الشـعبي في المدينة. وقد كان من بين تلك الأبنية المنازل والمتاجر التي كانت تمتد شمالاً حتى حافة الصخور المشرفة على معبد أبولو. والآثار القائمة في هـذا القطاع الآن تعود إلى العهد الروماني لأن الآثار الإغريقية اختفت نتيجة للاندثار وإعادة البناء من جديد عبر العصور التاريخية المتلاحقة.

معبد أبولو الإغريقي (زيوس الروماني فيما بعد):

كان معبد أبولو في البداية يشمل المعبد نفسه والمذبح والنافورة الخاصة بطقوس التطهيـر. ومع مرور الزمن. واسـتجابة لمتطلبات العصور المختلفة. نشـأت حول هذا المعبد معابد أخرى كثيرة. وكان المدخل الأصلي لمعبد أبولو يسـير مع الوادي في الجنوب الشـرقي. وهو الطريق المقدس الذي كان يفضي إلى سـاحة المعبد بوسـاطة البوابة الإغريقية بروبيلايـا (Propylaea) من ناحيـة وبوسـاطة المدخل الحالي في الشـمال من الناحيـة الأخرى وكانت منطقـة المعبد جميعها محاطة بالصخـور من الجنوب وبالجدران من الجهات الثـلاث الأخرى. وإلى حرم أبولو هـذا كانت تهـرع الآلاف المؤلفة من الليبيين والأفارقـة المتأثريـن بالحضارة الإغريقيـة بالإضافة للإغريق أنفسـهم. وكان عامتهم يقومون بطقوس الغسـل المقـدس في صفوف الحياض القائمة في القسم العلوي. بينما كان علية القوم يقومون بالطقوس المماثلة في المغاور

الأرضية التي ما زالت معرفتنا عنها محدودة. ولكنهم جميعاً كانوا يبتهجون ويسنيرون بأداء العبادة لإلههم الكبير أبولو. مؤسس المدينة وراعيها. كما انهم يستشعرون الراحة والطمأنينة لمجرد دخولهم رحابه المقدسة.

واستمرت العبادة في هذا المعبد على ما كانت عليه حتى في العهد الروماني عندما أدخلت عليه تعديلات كثيرة كان من جملتها إقامة الحمامات الكبرى في عهد الإمبراطور تراجان (98 – 117 م) وذلك في أعقاب ما حل به من حرق وتدمير وتخريب أثناء الثورة اليهودية (115 – 117 م). ولقد دلت النقوش المكتشفة في آثار قورينة على أن هذا المعبد. والأبنية الأخرى. والمدينة بصفة عامة لحقتها أضرار بالغة ولم تستكمل الإصلاحات الرئيسية فيها قبل (172 – 175 م) عندما كانت قورينة قد تمتعت لبضع سنوات باسم متروبولس بمعنى العاصمة بدلاً من اسم بولس «Polis» أي المدينة فقط[92].

ولكن نهاية هذا المعبد الزاهر لاحت للأنظار بعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للبلاد في منتصف القرن الميلادي الرابع مما أدى إلى تحريم الديانات الوثنية. فأصبح هذا المعبد مهجوراً. ولم تلبث غارات القبائل الليبية المتتالية وغزوات الجراد أن قضت على موارد قورينة الزراعية. وتلا ذلك زلزال عظيم صدع المدينة والمعبد؛ فكان نذيراً باندثار الديانة القديمة وغرق المعبد في عالم النسيان. وبشيراً بانبلاج نور الإسلام في ربوع ليبيا والشمال الإفريقي بأسره.

مركز المدينة الشعبي:

لا تزال ترى على الرابية المشرفة على معبد أبولو آثار القطاع المدني من قورينة فهنا ميدانها الرئيسي. ومجلسها بقاعته العامة. والمباني العمومية الأخرى ومقبرة باتوس. مؤسس المدينة. وهنا كانت المتاجر والشوارع والمسارح. كما ان المحاكم كانت تنعقد في الباسيليكا (Basilica) الكبيرة المتصلة

92- Papers of the British School at Rome, Vol.XXVI, p. 33, article under the title "The Temple of Zeus at Cyrene", by R.G. Goodchild, J.M. Reynolds and C.T. Herington, London, 1958.

بالفورم (Forum) الذي كان قد أقامه سوفيناس بروكيولس (Sufenas Proculus) في القرن الميلادي الأول. وتنتشر مباني السكن في أماكن متعددة وهي تمتاز بأرضها المبلطة بالرخام وبزخارف الفسيفساء. وأبرز تلك المنازل هو منزل جيسون ماجنوس (Jason Magnus). ولكن تغيرات كثيرة طرأت على هذه المباني عبر العصور التاريخية التالية لإقامتها. فقد أقام الرومان منازل على أنقاض منازل الإغريق وتلاهم الرومان الشرقيون أو البيزنطيون فأقاموا منازلهم على أنقاض منازل أسلافهم الغربيين.

وإلى الشرق من شحات الحالية تقوم أنقاض معبد كبير للإله زيوس. وهو من مخلفات القرن الخامس قبل الميلاد. وقد كان على جانب كبير من العظمة يؤهله لمنافسة أي أثر آخر في بلاد اليونان نفسها. وإلى الشرق من هذا المعبد كان يقع الملعب الكبير الذي يجري فيه سباق الخيل.

وكان يطل على المدينة جميعها الأكروبولس أو القلعة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من شحات الحالية. وقد استخدم البطالمة في عهدهم هذه القلعة مقر الحرس من جنودهم المصريين والمرتزقة من أجل إخضاع الأهالي. وليس من قبيل الصدفة أن الإيطاليين اختاروا هذا الموقع نفسه ليكون قلعة لهم أثناء احتلالهم لليبيا؛ ذلك أن هذا الموقع هو عبارة عن نقطة استراتيجية مهمة يمكن لقوتها المتمركزة فيها من السيطرة على المنطقة المجاورة لها.

مفتاح مخطط معبد أبولو وملاحظات على أهم الآثار:

1- المدخل الرئيسي:وهو مدخل حديث ولكنه أقيم قرب موقع بوابة قديمة كانت تتفرع منها الطرق إلى أبولونيا والشمال.

2- الطريق المقدس: وكان الحجاج يسلكونه إلى المعبد قادمين عن طريق الوادي من الجنوب الشرقي. وكان يقوم على شمال الحجاج القادمين جدار عالٍ يستر مكان الأسرار. وكان هذا الطريق ينتهي بهم إلى السطحية العليا (28) أو يدورون عند نهايته إلى اليمين متجهين نحو معبد أبولو عن طريق البوابة الإغريقية (3) (Propylaea). وقد مدت هذه الطريق فيما بعد

إلى البوابة الرومانية (6). ولكن شيدت عليها في فترة لاحقة الحمامات الصغرى وإلى الشمال الشرقي من الطريق المقدس حفر مجرى في الصخر لا يزال يحمل مياه المطر إلى الوادي.

3- البوابة الإغريقية: هذه البوابة التي أعيد نصبها ذات أعمدة دورية قد تكون من مخلفات العصر الهلينستي ولكن نقوشها تشير إلى أنها ترجع إلى تاريخ أقدم من ذلك العصر. وربما كانت قد هدمت قبل تشييد البوابة الرومانية رقم (6).

4- معبد أفروديت (فينوس): معبد هذه الإلهة يرجع إلى تاريخ قديم ولكن بناءه جدد في العصر الهلينستي وهذه الإلهة هي إلهة الحب والجمال والزواج وحماية البحارة وإلهة الحرب.

5- معبد القادة الثلاثة (Strategeion): أقيم هذا المعبد تكريماً لأبولو وتخليداً لانتصار ثلاثة من القادة في القرن الرابع قبل الميلاد. وقد نقشت أسماؤهم بالإغريقية على إفريزه ويذكر النص المنقوش فوق الباب أن سوفيناس بروكيولس أعاد بناء هذا المعبد وكرسه للإمبراطور تيبيريوس (37 – 14) (Tiberius م.). وقد أعيد بناء هذا المعبد وسقفه.

6- البوابة الرومانية: أقيمت في العصر الروماني ورمت في عهد هدريان (117 – 139 م.) إثر ما أصابها من تلف في الثورة اليهودية. ولعل هذا هو الوقت الذي مدت فيه الطريق المقدسة إلى هذه البوابة ذات الأعمدة الكورنثية.

7- النافورة الهلينستية: ويقوم عليها سقف يرتكز على أعمدة دورية صغيرة وتظهر عليه آثار الدّهان.

8- معبد هادس (Hades-Pluto) أحد أخوة زيوس: وقد كان هادس إلهاً حزيناً عبوساً يطبق العدالة الصارمة على مملكته في عالم الأموات السفلي الذي كان يشمل النار. ويظهر على أحد أعمدة هذا المعبد نقش يشير إلى أن المعبد رمم في أواخر القرن الثاني أو الثالث للميلاد.

9- معبد بيرسيفون (Persephone = Proserpine): كانت بيرسيفون زوجة لهادس وابنة لديميتر (Demeter) إلهة الحبوب. ولذلك فإن الإلهة بيرسيفون كانت ذات طبيعة ثنائية فهي ربة الأموات وفي الوقت ذاته ربة الخصوبة. ومعبدها المقام بجوار معبد زوجها ببني في العصر الروماني ولكن على أساس قديم.

10- المعبد الصغير لأبولو: على هذا المعبد نقش ينص على أن بناءه جدد على يدي جيسون ما جنوس في أواخر القرن الميلادي الثاني. وجيسون هذا كان مواطناً بارزاً وثرياً كما أنه كان كاهناً لأبولو.

11- معبد أبولو – موساجيتس (Apollo – Musagetes): هذا معبد آخر لأبولو حيث كان يعبد بوصفه زعيماً لإلهات الفنون التسع (Muses) كإلهة الموسيقى وإلهة الشعر... الخ. وقد أعيد بناء هذا المعبد في العصر الروماني.

12- عمود براتوميدس (Pratomedes): وهو عمود تذكاري يرجع تاريخه إلى القرن الرابع قبل الميلاد. ويقال إن الأوراق التي تزين قاعدته هي أوراق نبات السلفيوم وإن كانت أشبه بأوراق الأكانثوس العادي.

13- النمفية أو نافورة الحوريات (Nymphaeum): يرجع تاريخها إلى القرن الميلادي الثالث وعليها قطعة منحوتة تمثل حورية وهي تصارع الأسود.

14- معبد أبولو: هذا هو أقدم معبد في قورينة. وهو النواة التي نشأ حولها حرم أبولو. وما زال أساس المعبد الأول الذي بني في القرن السابع قبل الميلاد موجوداً كما أن أعمدته لا تزال تشاهد مطروحة لتكوّن أساس مصطبة هذا المعبد عندما أعيد بناؤه فيما بعد. وقد حرق هذا المعبد في الثورة اليهودية ثم أعيد بناؤه خلال القرن الميلادي الثاني. والآثار التي تشاهد اليوم إنما هي آثار هذا البنيان الروماني الأخير الذي جاء نسخة عن البناء الدوري السابق. وقد حول هذا المعبد في العهد البيزنطي إلى كنيسة مسيحية. والنقوش المحفورة على جانبي مدخله هي قوائم بأسماء كهنة أبولو في أيام

الرومان. وقد اكتشف تمثال لأبولو في هذا الموقع سنة 1861 م. وهو الآن في المتحف البريطاني. وتبدو على شظايا المعبد آثار الدهان الأزرق مما يشير إلى أن الإغريق بشكل عام كانوا يدهنون أبنيتهم.

15- مذبح أبولو: يقوم هذا المذبح أمام المعبد. وكانت المذابح في الأزمنة القديمة تقام خارج المعابد حيث تجري الاحتفالات الدينية. ومذبح أبولو الذي يعتبر نموذجاً ممتازاً للمذابح كان بناؤه قد أعيد في القرن الرابع قبل الميلاد وصفح بالرخام الذي وجد مستعملاً في تبليط الحمامات الرومانية الصغرى التي أقيمت فيما بعد. ولا يزال جزء من المصرف الذي كان يحمل دماء الأضحيات بعيداً موجوداً في نهاية المذبح الشمالية. وهنالك بين المذبح والمعبد حجر كبير فيه بقايا من الحلقة المعدنية التي كانت الأضحيات تربط فيها.

16- معبد آرتيميس (= ديانا) (Artemis - Diana): بني هذا المعبد في القرن الخامس قبل الميلاد مكان معبد بدائي قديم. ثم أعيد بناؤه بعد تدميره في الثورة اليهودية. وكانت آرتيميس هذه أخت أبولو وربة العذرية والولادة. وحامية الصيد. وهي ترتبط بالنساء إلى حد ما ويبدو أنها أصبحت في قورينة نظيرة للإله أبولو. فكان النساء يضحين لها تماماً كما يضحي الرجال لأبولو.

17- مذبح آرتيميس: وكان يؤدي نفس وظيفة مذبح أبولو. ومازال درجه قائماً. وهو يرجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

18- معبد ديوسكوري (كاستر + بلُّوكس) Disoscuri (Caster & Pollux): وكان مكرساً للأخوين المذكورين. ابني ليدا (Leda) وأخوي هلين طروادة (Helen of Troy) وليس مؤكداً أن هذين الأخوين كانا إلهين خفضت مرتبتهما إلى مرتبة الأبطال أو بطلين رفعا إلى مرتبة الآلهة. ولكنهما كانا حاميين للبحارة مما جعل أهل جزيرة ثيرا يقبلون على عبادتهما. أما في قورينة فكانا يعتبران جالبي نبات السلفيوم. والبناء الحالي لهذا المعبد هو بناء روماني لواحدٍ من أقدم معابد قورينة.

19- معبد هيكاتي (Hecate): كانت هيكاتي تعبد في قورينة كوصيفة لابنة عمها آرتيميس. ولقد أضيفت على هذه الإلهة صفات مختلفة في أوقات مختلفة. وكان من بين تلك الصفات اعتبار هذه الإلهة ملكة السحر والأشباح. وقد أقيم هذا النعبد تخليداً لذكرى انتصار الإمبراطور تراجان على الداسيين (Dacians) الذين كانوا يسكنون رومانيا الحالية.

20- قاعة المجلس: وهي قاعة تلحق عادة بمعابد أبولو في بلاد اليونان.

21- معبد مجهول: اكتشفه سميث وبورتشر (Smith & Porcher) سنة 1861م.

22- جدار نيكودامـوس (Nikodamos): يكوّن هذا الجدار الحد الغربي للحرم المسمى باسم بانيه وقد أعيد بناؤه في القرن الميلادي الثالث ضمن حركة ترميم عامة لهذا الحرم.

23- منزل روماني: يرجع تاريخه إلى القرن الميلادي الخامس.

24- التريكلينيوم أو كهف العبادة (Triclinium): هذا كهف كانت فيه مقاعد حجرية. وتدل بعض طقوس أبولو وأحد النقوش على أنه كان خاصاً بستعمال الكنهة فقط.

25- معبد إيزيس (Izis): وهي إلهة مصرية كانت عبادتها شائعة في الشرق ثن انتشرت بين الرومان. ويدل أحد النقوش على أن معبدها هذا شيد من عائدات أبولو في القرن الميلادي الأول.

26- نافورة أبولو: هذا النبع الذي قيل إن لمياهه ميزات شفائية استخدم في طقوس الغسل والتطهير الخاصة بعبادة أبولو. وهو متصل أيضاً بالحورية قورينة أو سيرين. وقد اشتهر عند الإغريق أن الحوريات كانت أرواحاً مائية. ولا يزال يرى في جانب الخزان المجاور للنافورة ما يشير إلى وجود مقاعد كان الزائرون للنافورة يجلسون عليها من أجل الأستشفاء أو التطهر.

27- طريق باتوس: طريق صخري يفضي إلى القسم العلوي من المدينة.

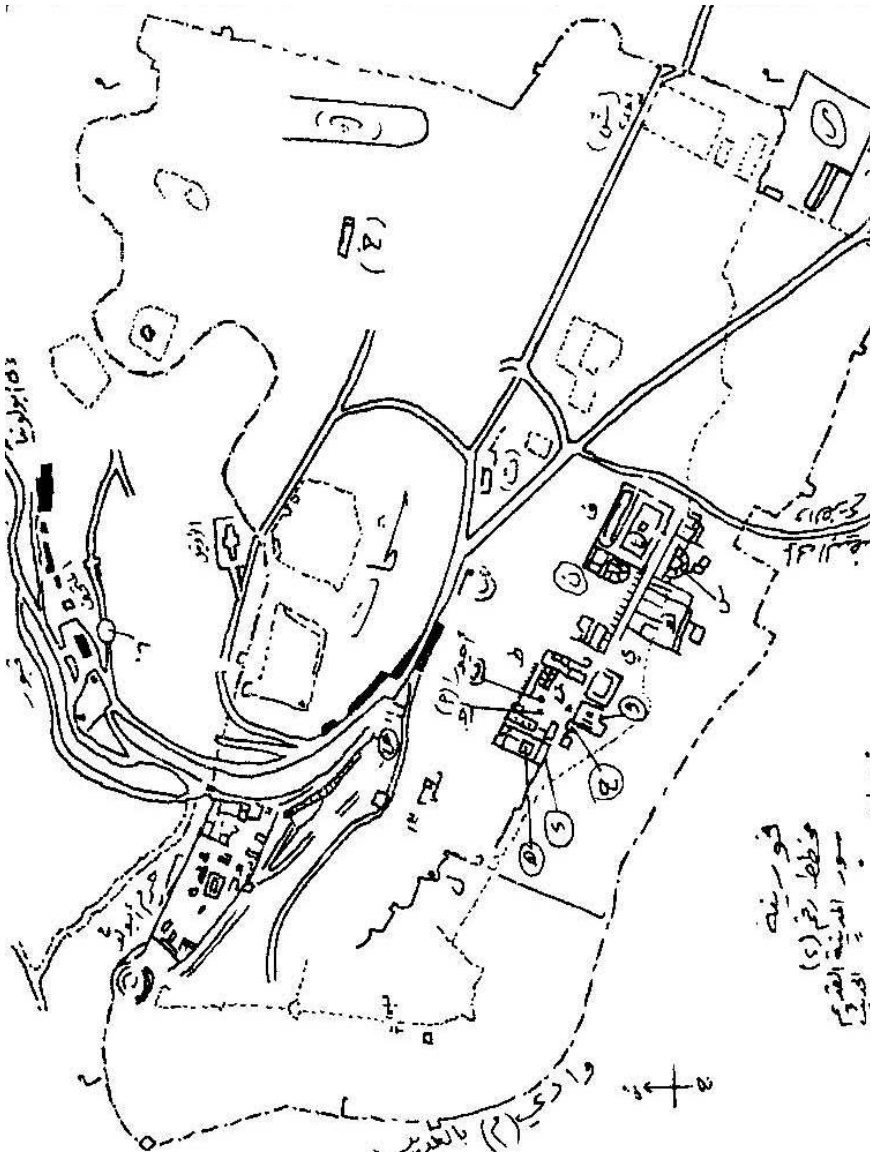

28- سطحية المعبد العليا: تركت السطحية العليا من حرم أبولو خالية من المباني وذلك حتى تكون ساحة رحبة تتسع لجمهور الحجاج للتجمع فيها. وهنالك جدار منخفض جنوبيها يحجز قاعات العبادة القائمة في الركن الجنوبي الشرقي. والممر المتصل بها والمحفور في الصخر. وصفّاً طويلاً من حياض الماء التي كان الحجاج يقومون بالاغتسال المقدس منها. وتظهر هنا أيضاً الحفر التي كانت قطع الرخام والحجارة الأخرى تحرق فيها لصنع الجير اللازم لبنايات القرنين الخامس والسادس للميلاد.

29- الجدار الاستنادي: وكانت الغاية منه المحافظة على تربة سطحيات حرم أبولو. كما أنه كان يشكل جزءاً من سور المدينة في الوقت ذاته. وكان يقوم على طول السطحية صف من الأعمدة الإغريقية.

الحمامات:

في نقش لا يزال موجوداً قرب الطريق بجوار المدخل الرئيسي أن الحمامات الأولى. وكانت عبارة عن بناية واحدة في الأصل. شيدت للإمبراطور تراجان سنة 98م. ولما كانت قد دمرت كغيرها من المرافق في الثورة اليهودية فقد أعيد بناؤها بإيعاز من الإمبراطور هدريان سنة 119 م. وهنالك نقش في القاعة الكبرى يسجل هذه الذكرى ويتفق تاريخه مع صدور المرسوم الذي منع الاستحمام المختلط. ولعل ذلك هو الذي أدى إلى إقامة وحدتين منفصلتين من الحمامات: الوحدة الكبرى (30) للرجال. والوحدة الصغرى للنساء في الشرق (31).

30- الحمامات الكبرى: تدل بقايا الرخام والفسيفساء على ما كانت عليه هذه الحمامات من فخامة عندما كانت تتحلى بكثير من المنحوتات التي تم اكتشاف بعضها وعندما كانت بمثابة نادٍ يلتقي فيه رجالات المدينة الرومانية:

أ- القاعة الكبرى: لاحظ طبقتي الفسيفساء المستخدمتين في مصاطب 98 م. و 119 م.. والمغسلتين اللتين قدمهما جيسون ماجنوس ونقشت عليهما الكلمات: «على حسابه الخاص».

ب- مغاطس للماء البارد.

ج- غرف لتغيير الملابس.

د- بناء منفصل ربما كان مكتبة. أعيد بناؤه. لاحظ الفسيفساء.

ه- كاليداريوم (Calidarium): أو الغرفة الحارة: لها مصاطب مرتفعة وأنابيب في الجدران يدور فيها الهواء الحار الآتي من الموقد. وتتصل بممر مباشر مع (أ) حتى لا يضيع الهواء الحار.

و- الموقد.

ز- لكونيكم (Laconicum): أو غرفة البخار الحار مع مغاطس للماء الحار في الطرفين الجنوبي والغربي. كانت تحمى كما في حالة (هـ).

ح- غرفة حارة أخرى، قسمت فيما بعد إلى إثنتين.

ط- آثار دائرة الأعمدة التي كانت جزءاً من بناية تراجان.

31- الحمامات الصغرى: أعيد بناؤها في وقت متأخر من العصر الروماني عندما امتد مدخلها الجنوبي فوق الطريق المقدس. ولا تزال ترى بها الغرف الحارة بينما تظهر دورة مياه (ي) في طرفها الشرقي وهي من النوع الذي كان يكسح بالماء؛ لاحظ مقاعد الأطفال. وفي القرن الميلادي الخامس بدأت الحمامات الكبرى تهجر جزئياً وصارت الحمامات الصغرى تكفي لعدد السكان الذي تضائل. وهذه هي المرحلة التي استخدم فيها رخام مذبح أبولو (15) في تبليط المصاطب.

32- المسرح والمسرح المدرج (Theatre & Amphitheatre):

هذا المسرح الروماني لحقت به أضرار بالغة في ثورة اليهود ثم أعيد بناؤه كمسرح مدرج صغير. والفرق بين المسارح الرومانية والمسارح الرومانية المدرجة هو الصنف الأول كان به قاعة استماع وخشبة مسرح (Stage) وراء منتصف القطر يستند إلى بناء مرتفع للمناظر، وكان يستخدم لعرض التمثيليات. أما الصنف الثاني أي المدرج فكان بيضوي الشكل أو، كما في حالتنا هذه، دائرياً. وكانت تجري في القسم الأوسط منه الاستعراضات التي

يحارب فيها المتصارعون بعضهم بعضاً أو يصارعون الوحوش الضارية، أو يلقى بالمسيحيين والأشرار وأسرى الحرب فيها ليجابهوا تلك الحيوانات المفترسة. وبوسعك أن ترى أساس خشبة المسرح الذي كانت مصطبته من الخشب ومن ورائه الأبنية المستخدمة للمناظر؛ وهو بناء كان يتألف من عدة طبقات وكان يرتفع بقدر ارتفاع قاعة الاستماع ويمثل مقدمة قصر فخم بمداخله وشرفاته التي كان يستعملها الممثلون. كما أنه كان مزيناً بالأعمدة والتماثيل. وفي الوقت الذي كان فيه هذا البناء يحجب السهل الواقع إلى أدنى المسرح حتى لا يرى إلا من خلال فتحات الأبواب، فإنه كان يساعد أيضاً على تقليل الصدى وبالتالي على وضوح الصوت.

وفي المرحلة التي حول فيها هذا المسرح إلى مسرح مدرج أزيل منه موقع خشبة المسرح وبناء المناظر ثم أكملت دائرته. وبعد ذلك أزيلت الصخور وتم إحداث ممر دائري حول الحلبة (Arena) يدخل إليها منه اللاعبون. ثم وضعت مقاعد جديدة لا تزال ترى قائمة على أصول المقاعد القديمة. وخلافاً للعادة لم يكن ممكناً بالنسبة لهذا المدرج أن تمتد المقاعد حول الحلبة جميعها لأن الانحدار الشديد في الأرض في الجانب الشمالي حال دون ذلك.

وكثيراً ما سمي هذا المسرح خطأ بالمسرح الإغريقي لأنه يشابه المسارح الإغريقية في أنه منحوت في سفح تلة. بينما كانت المسارح الرومانية تقام على مواقع منبسطة. وكانت قاعة الاستماع الإغريقية أكثر من نصف دائرة. كما ان النشاط كان يجري بصفة رئيسية في وسطها حيث كانت الأوركسترا (Orchestra) تأخذ أماكنها أمام بناء منخفض للمناظر لم يلبث أن نشأت أمامه تدريجياً خشبة المسرح. ولقد استمر الممثلون يستخدمون مكان الأوركسترا هذا بينما كانت توضع فيه في المسارح الرومانية مقاعد كبار المسؤولين. ولا بد أنه كان في سيرين مسرح إغريقي، ومن المرجح أنه كان في موقع هذا المسرح ذاته. ولكن المسارح كانت تخضع للتعديل والتغيير من عصر لعصر لكي تناسب الأنواع الجديدة من الدراما. وإذن فإن من غير المعقول أن يكون المسرح الإغريقي في سيرين ظل دون تغيير رغم بقاء سيرين أكثر من سبعة قرون في يد الرومان الغربيين والشرقيين.

مفتاح مخطط مركز المدينة الشعبي وملاحظات عليه:

أ- الأجورا (Agora):

وهي الميدان الرئيسي في أية مدينة إغريقية وتناظر الفورم في المدينة الرومانية. وكانت تقوم حول الأجورا المباني المدنية الرئيسية كما ان الأسواق ربما كانت تنعقد فيها. وكان يقوم على جنباتها عدد كبير من المعابد التي لا تزال بقايا أسسها شاهدة على وجودها. وبالإضافة لذلك فقد كانت الأجورا تزين بالتماثيل المختلفة.

ب- ضريح باتوس الأول:

يرجع هذا الضريح إلى القرن السابع الميلاد قبل الميلاد عندما كرّم باتوس الأول، مؤسس المدينة، تكريماً خاصاً فسمح بدفنه في الميدان الرئيسي في المدينة. ونجد عدداً من الدرج يؤدي إلى غرفة الضريح المنخفضة كما نجد على أحد الجانبين قاعدة تمثال بينما نجد مذبحاً من الجانب الآخر. واهذا المذبح مصرف تتسرب منه دماء الأضحيات. وبوسعنا أن نلمح الترتيبات التي كانت تتعلق بغسل مصطبة الغرفة. وكان ضريح باتوس هذا يستخدم كموحى.

وإلى الجنوب الغربي منه يقوم الضريح الآخر وهو ضريح دائري صغير.

ج- ضريح أوناماستوس (Onamastus):

أوناماستوس كاهن لدلفي، مركز عبادة أبولو في شمال بلاد اليونان، كان معاصراً لباتوس الأول وقدم لسيرين لينظم الحياة الدينية فيها. ولا تزال بعض تشريعاته التي ترجع إلى القرن السابع قبل الميلاد منقوشة حتى اليوم على الرخام. وتتجلى أهمية أوناماستوس في شرف موقع ضريحه الذي استخدم كموحى أيضاً.

د- معبد ديمتر (الأم العظمى):

لا تزال هنا آثار رخامية لبوابة تعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد. وفي الداخل جزء من تمثال للإلهة وهي جالسة. وقد كانت ديمتر تعرف باسم سيرس (Ceres) كما انها ربة الحبوب التي سميت باسمها (Cereals)

وأم بيرسيفون.

ه- الجمناسيوم (Gymnasium):

بناء هليّنستي أقيم حول فناء (Palestra) كان يستخدم لإجراء التمارين، وكان مدرسة لعلية شباب الدولة تحتل مكانة مرموقة بينها. وكان يدير الجمناسيوم واحد من كبار الموظفين في المدينة. وفي بعض الأحيان كانت المرأة تشغل هذا المنصب كما ان الفتيات – على نحو ما كان معروفاً في اسبارطة – كان يسمح لهن بالالتحاق بهذه المؤسسة.

و- البريتانيوم (Prytaneium):

كانت هذه عبارة عن المركز الإداري للمدينة، وكان لها ممر كورنثي معمد ومسقوف. وهي مبنية حول فناء مما يجعلها أشبه بمنزل خاص. وعلى ذلك، ولوجود الشعلة المقدسة فيها، فإنها كانت تقوم كرمز لكونها بيتاً للأمة. أما المكان الذي كان يحتفظ فيه بالشعلة المقدسة، فربما كان هو تلك الفتحة التي تشبه المحراب إلى الشرق من الطابق الأسفل وإلى الجنوب من الفناء.

وكان موظفو مجلس المدينة يعيشون ويعملون في هذا البناء، كما ان الزوار وذوي الامتيازات من المواطنين كانوا يتناولون وجبات طعامهم هنا على حساب الدولة. وكان المجلس البلدي (Municipium) للمدينة خلال القرنين الأول والثاني من العصر الروماني يضطلع بمهام حكم المدينة وريفها من هذا المكان، ولكن الموظفين الإمبراطوريين انتزعوا منه تلك السلطة فيما بعد.

ويعود تاريخ هذا البناء إلى أواخر العصر الإغريقي كما تظهر فيه بعض الإضافات الرومانية. وإلى الشرق من هذا البناء يقوم بناء آخر اكتشف فيه مؤخراً رصيف من الفسيفساء رسم عليه رأس مدوزة (Medusa)[93].

ز- النصب التذكاري البحري:

93- مدوزة هي إحدى الغرغونات «Gorgons» الثلاث اللواتي كانت شعورهن من الأفاعي وكان كل من تقع عيناه عليهن مباشرة يتحول إلى حجر. وتروي الأسطورة الإغريقية كيف نجح بيرسيوس «Perseus» في قتل المدوزة في ليبيا وحمل رأسها إلى أثينا.

تمثيل لسفينة حربية معاصرة للبناء الذي ربما كان قد شيد في النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد تخليداً لذكرى انتصار بحري. وقد أقيم على مقدمة البناء – السفينة شكل مجنح لإلهة النصر اكتشف جسمه مؤخراً.

ح- الكابيتول (Capitolium):

بناء يرجع تاريخه إلى أواخر العصر الهلينستي وبه أربعة أعمدة دورية من الرخام الأبيض. وقد حوله الرومان إلى كابيتول وهو معبد كان يشغل المكان الرئيسي في الفورم في معظم المدن الرومانية ويعبد فيه آلهة الإمبراطورية جوبيتر (Jupiter) وجونو (Juno) ومنيرفا (Minerva). وقد تم التعرف على هذا المعبد بعد أن اكتشف تماثيل لتلك الآلهة في موقعه. وقد تم التعرف على هذا المعبد بعد أن اكتشف تماثيل لتلك الآلهة في موقعه. أما النقوش الإغريقية التي عليه فهي تسجل شكر المدينة للإمبراطور هدريان على مساعدته في إعادة تعميرها بعد أن خربها اليهود في ثورتهم. وبجوار الكابيتول من الجنوب الغربي توجد آثار بناء المحكمة.

ط- ممر أوغسطس المعمد:

لا يزال عمودان إيونيان كبيران يدلان على هذا الممر المعمد الذي كرس للإله زيوس وروما والإمبراطور أوغسطس. وقد أضيف فيما بعد بعض المتاجر على الأرض المنخفضة الواقعة إلى الشمال من هذا الممر.

ي- شارع كاریاتيدس (Caryatides):

فتح هذا الشارع حوالي القرن الرابع ما بين الأجورا في الشرق إلى فورم بروكيولس. وفي مطلع العصر الروماني أقيم على موازاته من جهة الشمال جدار مزخرف بأشكال قائمة على قواعد وحاملة الكرنيش على رؤوسها. وقد سقطت كل تلك الأشكال على وجوهها وأصبح من الصعب التعرف عليها.

ك- منزل جيسون ماجنوس (Jason Magnus):

هذا منزل فخم كبير يبدو أنه يخص تيبريوس كلوديوس جيسون ما

جنوس (Tiberius Claudius Jason Magnus)، كاهن أبولو في نهاية القرن الميلادي الثاني. وهذا المنزل عبارة عن منزلين عُدلا ودمجا ليكونا منزلاً واحداً. وكانت في المنزل الكبير القائم على موقع مرتفع من الغرب غرف الاستقبال التي بنيت حول فناء تحيط به الأعمدة. وفي غرفة الاستقبال الكبرى في الطرف الجنوبي بقايا رصيف فخم من الرخام الملون بينما تقوم خارجها تماثيل إلهات الفنون التسع. وفي غرف وممرات أخرى مصاطب من الفسيفساء الجيدة وبقايا رخام كانت الجدران مصفحة به، وزخارف بالدهان.

أما المنزل الصغير في الناحية الشرقية، وهو مقام كذلك حول فناء، فقد كان مخصصاً لاستعمال الأسرة، وغرفتاه الغربيتان لهما مصاطب ممتازة من الفسيفساء التي لا تزال في حالة جيدة: ففي الجنوبية منهما، وهي ربما كانت حجرة نوم، أحسن مصطبة من الفسيفساء رسمت في وسطها صورة إلهة البحر وفي زواياها أشكال ترمز لفصول السنة الأربعة.

وقد دمجت في هذا البناء ثلاثة معابد صغيرة كانت إلى الشمال من المنزل الكبير. وظل المعبد الغربي منهما يحتفظ بطابعه الديني كمعبد خاص لصاحب المنزل فقد وجد فيه رصيف من الفسيفساء نقش عليه «إلى الرب العظيم هرمس» (Hermes) من إنفاريوس (Invarius)، العبد الذي طالما صلى من أجل سلامة وانتصار تيبيريوس كلوديوس جيسون ماجنوس.

ل- الأكروبولس أو القلعة (Acropolis, Citadel):

تقوم هذه القلعة على أعلى نقطة في التلة وهو موقع لا بد أن المستوطنين الأول اختاروه كموقع استراتيجي قوي. والجدران الباقية عبارة عن خليط من البنيان وترجع لأقدم عهد للإغريق في هذا المكان. والآثار الماثلة حالياً هي في معظمها هليّنستية وترجع للفترة التي أكثر فيها ماجاس والبطالمة من البنيان. ويدل أحد النقوش أن الجانب الشرقي أعيد بناؤه سنة 12 م. وقد أقيم في الجانب الشمالي فيما بعد معبد صغير لإيزيس مستنداً إلى جدران القلعة. وقد وجد في هذا المعبد تمثال صغير لهذه الإلهة من الرخام المدهون.

م- أسوار المدينة:

تمتد أسوار المدينة مسافة كبيرة وإن كانت آثارها الباقية ليست ذات ارتفاع يذكر. وبالإمكان تتبع مواقع السور في معظم امتداده. وقد خضع هذا السور لتغييرات وتعديلات كثيرة عبر القرون بحيث أصبح من الصعب تعيين تاريخ له. والأجزاء الظاهرة منه هي في معظمها من العصر الهلينستي وإن كان الرومان كثيراً ما جددوا وشيدوا خلال عصرهم.

ن- المسرح الواقع غربي فورم بروكيولس:

حفر هذا المسرح بصورة مكشوفة على بقايا الفورم. وهو من النوع الروماني المعتاد وبه صفوف من المقاعد التي يتم الوصول إليها من خمس ممرات مسقوفة تتفرع من ليوان حول محيط قاعة الاستماع وتمتد حتى تقترب من الصف الأوسط الكائن على مستوى الأرض ثم تنحدر إلى صف آخر دون مستوى الأرض وإلى مكان الأوركسترا الذي لم يتم كشفه بعد.

س- المسرح الواقع إلى جنوب فورم بروكيولس:

ربما كان هذا المسرح أحدث المسارح الثلاثة في سيرين ولعله قد بني في القرن الميلادي الثالث كبديل للمسرح رقم (32) الذي ورد ذكره سابقاً. في أعقاب تحويل الأخير إلى مسرح مدرج. وقد أقيم هذا المسرح على أسس قديمة ولم يبق منه إلا الجزء السفلي. ولعل سبب تلاشي بقية بنيان هذا المسرح يرجع إلى الحفرة الموجودة في وسطه والتي حرقت فيها معظم حجارته لتحول إلى جير في عصور لاحقة.

ع- السيزاريوم (Caesareum) وفورم بروكيولس:

يرجع الاسم الأول الذي يشير إلى عبادة عدة قياصرة. للقرن الميلادي الثاني. أما الاسم الثاني فإن نقوش الدكة الجنوبية تشير إلى أن الذي قام ببنائه هو سوفيناس بروكيولس الذي عاش في مطلع القرن الميلادي الأول. أما طابع البناء فهو هليّنستي من فترة ما قبل السنة السادسة للميلاد. وهي السنة التي أدخلت فيها تعديلات على هذا البناء إن لم يكن البناء كله قد جدد.

إن هذا البناء بما يحيط به من أعمدة دورية. وبجداره الخارجي البسيط المتوج بإفريز وكرنيش دوري يثير في النفس إعجاباً بعظمته خاصة عندما يتذكر المرء الفورم الجديد في لبدة. الذي لا بد وأن يكون قد تأثر بهذا البناء بالرغم من أنه متأخر عنه زمناً ويرجع إلى نهاية القرن الميلاددي الثاني.

وقبل أن يعيد الأثريون الإيطاليون نصب هذا الأثر كان معظم جدرانه وأعمدته وكل وسطه مغموراً تحت الجدران الرومانية المتأخرة التي تدل هي وفتحات الرمي الموجودة في الجدران الخارجية على أن هذا البناء استعمل كقلعة في القرنين الميلاديين الرابع والخامس لصد هجمات القبائل البربرية التزايدة. وترجع الفسيفساء الجذابة الموجودة في الزاوية الجنوبية الشرقية إلى الفترة التاريخية ذاتها عندما انتقل كثير من المواطنين إلى المناطق المحصنة حيث واصلوا الاهتمام بتجميل مساكنهم الجديدة.

وفي وسط هذا البناء توجد أسس معبد صغير كان قد كرس لعبادة الإله ديونيسوس (Dionysos) أي باكوس (Bacchus).

ف- الباسيليكا:

كان بناؤها قد أعيد في عهد الإمبراطور هدريان (117 – 138 م) وفيها مذبح له. وكانت تستعمل كمكان يلتقي فيه التجار ليتبادلوا المعلومات ويعقدوا الصفقات. كما ان القضاة كانوا يعقدون محاكمهم فيها.

ص- المنزل الذي به رصيف ديونيسوس (باكوس):

هذا منزل عادي متوسط الحجم يرجع تاريخه إلة أواخر القرن الميلادي الثاني. وفيه بهوان مبلطان بالفسيفساء كما ان إحدى حجراته التي ربما كانت غرفة طعام تحتوي رصيفاً من الفسيفساء صور عليه ديونيسوس وهو يبحث عن حبيبته أريادني (Ariadne).

ق- برك الماء

هذه آثار برك رومانية كانت تستخدم لتجميع مياه الأمطار أو الينابيع.

ر- الخزان

أقيم في إحدى زوايا سور المدينة، وفيه حياض ماء مسقوفة بالحجارة. ويبدو أن كل المنطقة كانت مزودة بخزانات دائرية تستخدم لخزن الزيت أو الحبوب.

ش- كنيسة مسيحية

هذه البناية عبارة عن باسيليكا من ثلاثة أجنحة ترجع للقرن الميلادي الرابع أو ما بعده. وهي وإن كانت تشبه الباسيليكا المسيحية في طلميثة إلا أن فيها ما يدل على أنها كانت تستخدم لأغراض دنيوية.

ت- الجمناسيوم

الآثار الباقية هنا هي بعض الرخام وبعض الأعمدة الكورنثية وجدران من القرن الميلادي الثاني قد تشير إلى أن البناء هنا كان عبارة عن جمناسيوم.

ث- السيرك أو مضمار السباق (Circus or Hippodrome):

كان هذا عبارة عن ميدان روماني لسباق العربات. وكانت العربات المتسابقة تجري فيه باتجاه يعاكس عقرب الساعة حول جزيرة في وسطه.

خ- معبد زيوس-جوبيتر (Zeus-Jupiter):

تقوم هنا آثار أجمل معبد إغريقي في برقة، وهو معبد أقيم في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وكرس لزيوس، أبي الآلهة. (وكان الإغريق قد وصلوا بين إلههم هذا والإله الليبي آمون الذي يظهر رمزه على النقود المحلية بقرون كبش). وهذا المعبد يماثل في عدة وجوه المعبد الدوري لزيوس في أولمبيا ببلاد اليونان وفي عهد الإمبراطور كمودس أعيد بناء هذا المعبد من الداخل في نهاية القرن الميلادي الثاني وزينت جوانبه بأعمدة كورنثية. وهو مبني بالحجارة الصفراء التي تظهر عليها علامات حمراء من أثر النار. وفي أواخر القرن الميلادي الرابع تهدم هذا المعبد في أعقاب زلزال أصاب المنطقة. وقد اكتشف في هذا الموقع رأس تمثال لزيوس وهو نسخة عن الأصل القديم يرجع تاريخها إلى القرن الميلادي الثاني، وقد لوّن لكي يبدو وكأنه ينبض بالحياة.

مقبرة سيرين

إن القبور الموجودة حول سيرين كثيرة للغاية وقد قدر أنها تغطي مساحة تبلغ خمسين كيلومترا مربعاً. ولا غرابة في هذه إذا تذكرنا أنها تقابل الفترة الزمنية ما بين القرن السابع قبل الميلاد والقرن الميلادي الخامس. وكان الإغريق والرومان على السواء يمارسون الحرق والدفن بالنسبة لموتاهم حتى وقت متأخر من العصر الإمبراطوري ولكن عادة الدفن غلبت عليهم تحت تأثير الشرق. وفي سيرين كان دفن الموتى ممنوعاً داخل المدينة فصار الإغريق يدفنون موتاهم في حقولهم خارج المدينة. وهذه القبور، وإن لم تكن قد استكشفت، إلا أنه يمكن تقسيمها إلى أربعة أنواع هي:

1- لحود في غرف حفرت في الصخور تحت الأرض ويرجع بعضها إلى القرن الرابع قبل الميلاد.

2- أضرحة معابد أو موسوليا وهي في الغالب هليّنستية.

3- موسوليا مستديرة، وهي من أواخر العصر الهلينستي وبداية العصر الروماني.

4- توابيت حجرية مفردة، وهي في الغالب رومانية.

وجدير بالذكر في هذا الصدد أن نسجل النص الذي نقش على قبر الشاعر كليّماخوس وكان قد نظمه وأوصى بأن ينقش على قبره:

هنا يرقد سليل باتوس Here lies the son of Battus

وقد كان يجيد معرفة فن الشعر.

He knew well the art of poesy

كما كان يعرف كيف يجمع في الموسم المناسب

And how in season to combine

بين ضحكة الصداقة وكأس النبيذ

Friendly laughter with his wine

ضواحي سيرين

تنتشر في كل المنطقة إلى الجنوب من سيرين وعلى مرتفعات الجبل الأخضر من الطرف الشرق لوادي الكوف شرقاً حتى (Giovanni Berta) بقايا آثار إغريقية وهلينستية ورومانية غربية وشرقية بعضها آثار مساكن وبعضها آثار طرق أو جدران استنادية أو تحصينات أو قبور أو برك ماء وقد استعملت الحجارة كمادة بناء في تلك المرافق. والذي يلفت النظر أن كل تلك المخلفات خالية من عنصر الزينة الذي يبدو أنه خصص للقبور فقط. وأهم المخلفات هي:

1- قصر بني قديم (Gdem) وهو عبارة عن قلعة ممتازة كانت تقوم على حراسة الطرف الغربي من وادي الكوف. ويعتقد أن هذه القلعة كانت بطلمية في الأصل ثم أيد بناؤها في العصر الروماني وعدل ورسم في العصر البيزنطي.

2- الصفصافة: إلى الشمال من الطريق بين مفرض سيرين وسفوة (Savoia) توجد بركة رومانية مسقوفة يبلغ طولها حوالي ثلاثمائة متر كانت تتجمع فيها مياه الأمطار الساقطة على الأرض الصخرية المجاورة والتي كانت قد مهدت بشكل أولي بحيث تسيل كل الأمطار الساقطة عليها إلى مصارف متعددة في جنبات البركة.

3- مغيرنس (Meghernes): فيها آثار متنوعة تشير إلى أنها كانت مستوطنة زراعية صغيرة. ويمكن للناظر أن يراها من سفوة إذا توجه إلى الجهة الشمالية.

4- للودة (Limniadis): توجد هنا آثار مستوطنة زراعية رومانية الغاية منها عصر زيت الزيتون. وفيها آثار عدة مجموعات من المعاصر.

5- رأس الهلال (Naustathoms) يقع إلى الشمال من للودة وهو مرفأ طبيعي جميل. وإلى الشرق من الطريق عدد من القبور من نوع أضرحة المعابد. وهي ترجع إلى العصر الهلينستي.

وأول ما تستنتجه من هذه المخلفات أنها دليل على كثرة المستوطنات في هذا القطاع الريفي الذي كان يعتمد في اقتصادياته على الزراعة وتربية المواشي. ومن المعروف أن معظم العنصر السكاني في تلك المستوطنات كان من الليبيين الذين تعلموا الكثير من عادات الاستقرار من المستوطنين الأجانب فصاروا يعيشون في مساكن ثابتة إلى جانب استمرارهم في سكنى الكهوف. ويعتقد أن العنصر الليبي كان يسكن المحوطات الصغيرة المنية من حجارة طويلة قائمة والتي نلاحظ وجودها خارج المستوطنات الأجنبية المجاورة لها. وكان سكان هذه المنطقة من الليبيين والإغريق ثم الرومان فيما بعد يعتمدون على مياه المطر التي كانت كافية لأغراض الزراعة والرعي طيلة الفصل الممطر (ستة أشهر) ويعتمدون في الفصل الجاف أي في النصف المتبقي من السنة على ما كانوا قد جمعوه من مياه المطر في الآبار والبرك وعلى مياه الينابيع؛ وكان ذلك كافياً لهم ولماشيتهم وللبساتين المحيطة بمساكنهم. وهم هنا لم يحاولوا إقامة مشروعات ري زراعية بل اقتصروا على الزراعة الشتوية التي كانت في معظمها تنحصر في زراعة القمح والشعير والعنب والزيتون وأشجار الفواكه. وتأتي في المرتبة الثانية بعد هذه الأصناف أنواع أخرى من الحبوب ثم الخضروات المتعددة وشتى أنواع التوابل والعقارات والزهور التي كانت تستخرج منها العطور. ولقد سبقت الإشارة إلى نبات السلفيوم وقيمته وفوائده المتعددة. ونذكر هنا أيضاً نبات الزعفران الذي كان ينمو بكثرة في هذه المنطقة والذي كانوا يستخرجون منه الأدوية والصباغ الأصفر. كما ان الإغريق والرومان كانوا يستخرجون منه بهاراً لا يغيب عن موائدهم. وإلى جانب هذه المنتجات الزراعية كانت المنطقة تنتج العسل بكثرة. كما كانت تصدر الكثير من الأصواف والجلود.

ويشير ما تبقى من خطوط تقسيمات الأراضي الزراعية إلى أنها كانت منهم قرية. وكان نظام توزيع تلك المزارع وتأجيرها أو تمليكها يتغير باستمرار فكان بذلك سبباً من أسباب الاضطرابات الكثيرة في المنطقة؛ ففي نهاية القرن الثاني قبل الميلاد كان القسط الأكبر من الأراضي الزراعية قد تركز في أيدي البطالمة مما حول صغار الملاك من المزارعين إلى مستأجرين للأرض

التـي كانوا يملكونها والتـي أصبحت الآن ملكاً للملـك البطلمي الذي كان يسـتولي على معظم إنتاجها. وعندما آلت برقـة للرومان أصبحت الأراضي الملكية البطلمية ملكاً للحكومة الرومانية ثم ملكاً للتاج الروماني فصارت تؤجر للمضاربين من أصحاب رؤوس الأموال الاسـتغلاليين الذين لم يلبثوا أن أثبتوا أنهم أسـوأ من سـادة الأرض السـابقين وصاروا يعتبرون الأراضي التي اسـتأجروها ملكاً خاصاً لهـم. وفي النصف الثاني من القـرن الميلادي الأول أثبت التـاج الإمبراطوري حقه فـي ملكية هذه الأراضـي الزراعية من جديد وفـرض المزيد من الضرائب عليها مما أضاف عبئـاً جديداً إلى الأعباء التي كان صغـار المزارعين ينوؤون بحملها. وأسـهم في قيام الثـورة اليهودية. وما أهلّ القرن الميلادي الرابع حتى كان معظم تلك الأراضي قد تكدس في أيدي كبار الملاكين الذين صاروا يسـتغلونها ويستولون على معظم انتاجها. وعند هذا الحد تتلاشـى الزراعة المتقدمة التي كانت تعتمد على رأس المال والأسـاليب الزراعية العلمية. والجدير بالذكر أنه لم تكشف حتى الآن منازل ريفية كبيرة في المنطقة كتلك التي كانت شـائعة فـي أجزاء أخرى من الريف في القرون الثلاثـة الأولى من تاريخ الميلاد مما يشـير إلى أن كبار مـلاك الأراضي الزراعية كانوا يعيشـون إما خارج ليبيا وإما في المدن القائمة على السـاحل الليبي. وإن كان مـن النعتقد أن بعظهـم كان يعيش في المنازل المتوسـطة الحجم والمحصنة في ريف سيرين.

وقد حسن الرومان في عصرهم الوسائل والموارد المائية؛ يشهد على ذلك ما بقي من خزاناتهم المائية في سـيرين وصفصافة وغيرهما. وعمل الرومان كذلك على تحسين المواصلات وتوطيد الأمن العام الذي أصبح مزعزعاً بشكل مسـتمر خلال القرن الميلادي الرابع عندما صـار الليبيون يغيرون على أطراف المنطقة كلما سـنحت لهم الفرصة. ولذلك فقد حـوّل الرومان كل مزرعة إلى أشبه ما تكون بقلعة مصغرة. وصارت القرية تتجمع حول معقل حصين تلجأ إليه كلما دعت الحاجة. ووضعت الطرق العامة تحت الحراسـة. ووسعت رقعـة الأرض المزروعـة إلى الجنوب من الجبـل الأخضر حيث لا تـزال تقوم آثار سلسـلة من الحصون التي كانت تصد خطر البدو الرحل عن المنطقة. ولكن

الغـارات المتتاليـة والاضطرابات المتعاقبـة أدت في القرن الميـلادي الرابع إلى انهيـار ذلك الأمن الذي كان الرومان قد ضمنوه إلى حين. وبالرغم من صرخات الاسـتغاثة الموجهة إلى إمبراطور القسـطنطينية فإنه لم يرسل أية قوات إمبراطورية لبرقة. وقد وصف الأسقف سونسيوس في مطلع القرن الميلادي الخامس حرب العصابات التي كان يشـنها الأسـتوريون على المنطقة وبين أن أيـة حكومة حازمة كان بوسـعها أن تضع حداً لتلـك الفوضى دون صعوبة تذكـر. وقد تمكن الإمبراطور جسـتنيان فـي مطلع القرن الميلادي السـادس من تحقيق ما كان سونسـيوس قد تمناه؛ فأعيـد بناء كثير من المباني والمرافق والتحصينات ولكن الأوضاع لم تلبث أن ساءت بعد انقضاء عهد جستنيان.

أبولونيا = سوسة:

تقع على السـاحل على بعد عشرة أميال إلى الشمال من سيرين وعلى انخفـاض (1800) قدم عنها. وقد زادت أهميـة أبولونيا كميناء في القرنين الثاني والثالث للميلاد. وفي القرن الميلادي الرابع أخذت أهمية سيرين تتضاءل بينما اسـتمرت أبولونيا تنمو وتزدهر حتى بلغـت ذروة مجدها في هذا القرن عندما صارت عاصمة لولاية ليبيا العليا. وبالرغم من أن البحر قد ابتلع ثلث هـذه المدينـة الآن. إلا أننا لا نزال نرى آثار سـورها الذي أعـاد الرومان بناءه في القرنين الأول والثاني للميلاد.

وبالرغـم من قلة أعمـال التنقيب التي أجريت في هـذه المدينة إلا أنه تمَّ التعرف على آثار كنيسـة مسـيحية كبيرة يرجع تاريخها إلى القرن الخامس الميلادي وقد أخذت أعمدتها الرخامية الخضراء المتفاوتة الطول من بناء روماني أقـدم منها. وإلى الغرب منها جدار حجري من طـراز رفيع لا بد أنه كان جزءاً من بناية هلينسـتية مهمة. وفي الركن الشمالي الشرقي توجد المعمدانية بجرنهـا المصلب الكبير الذي كان يسـمح بغمر الجسـم جميعه. وفي هذه الكنيسة بعض الفسيفساء التي تعبر عن موضوعات تتعلق بالحيوانات.

وإلى الغرب من هذه الكنيسـة كنيسة أخرى ترجع إلى عهد جستنيان. وبين آثار هذه الكنيسـة الثانية أعمدة رخامية نقشـت على جنباتها صلبان

ترتكز على دائرة – ترمز للعالم – وهذه الأعمدة استوردت جاهزة من مقاطع الرخام الإمبراطورية في بروكونيسوس (Proconnesus) على الهليسبونت (الدردنيل).

برقة = المرج:

لم يبق من آثار مدينة برقة ما يوضح ماضيها في العصور الإغريقية والرومانية. وأغلب الظن أنها لم تزدهر بعد أن خربها الفرس سنة 515 ق.م. وفي العهد البطلمي ازدادت هي تضاؤلاً وطغت عليها طلميثة التي كانت تزداد تقدماً وازدهاراً حتى إنها أصبحت عضواً في اتحاد المدن الخمس في القرن الثالث قبل الميلاد.

ولقد وجدت إلى الجنوب من طريق بنغازي وعلى بعد ستة كيلومترات إلى الشرق من برّاقة. وفي برّاقة نفسها. آثار تدل على وجود مستوطنة رومانية في هذه الجهة حيث ما زالت تشاهد مزارع محصنة وأعمدة رخامية وجرار فخارية ثبتت في حفر في الأرض ليخزن فيهها الزيت أو النبيذ.

بطليموسة = طلميثة:

تقع على الساحل إلى الشمال من برقة. وقد كانت أسوارها في عهد البطالمة تضم مساحة أكبر من مساحة مدينة سيرين. ولقد دلت الحفريات على أن شوارع هذه المدينة كانت مستقيمة ومتعامدة. وتدل كثرة البناء وكثرة التعديلات التي أدخلت على الأبنية القائمة في العصر الروماني على أن هذه المدينة كانت لا تزال مهمة بعد الاحتلال الروماني. والواقع أنها هي وأبولونيا أصبحتا المدينتين الرئيسيتين في برقة ابتداء من القرن الميلادي الثالث. وفي القرن الميلادي الرابع صارت طلميثة مركز أسقفية ثم عاصمة ولاية. ولكن غارات القبائل البربرية عليها اشدت ابتداء من ذلك القرن مما أدى إلى نقض عدد كبير من مبانيها من أجل إقامة قلعة وحصون لتعزيز سورها الطويل الذي لم يكن الدفاع عنه أمراً سهلاً. ولقد ورد في رسائل سوسيوس: أسقف هذه المدينة (373 – 414 م.) وصف مفصل للأحوال المصطربة في هذه الفترة. وكان سونسيوس هذا فيلسوفاً على طريقة الافلاطونية

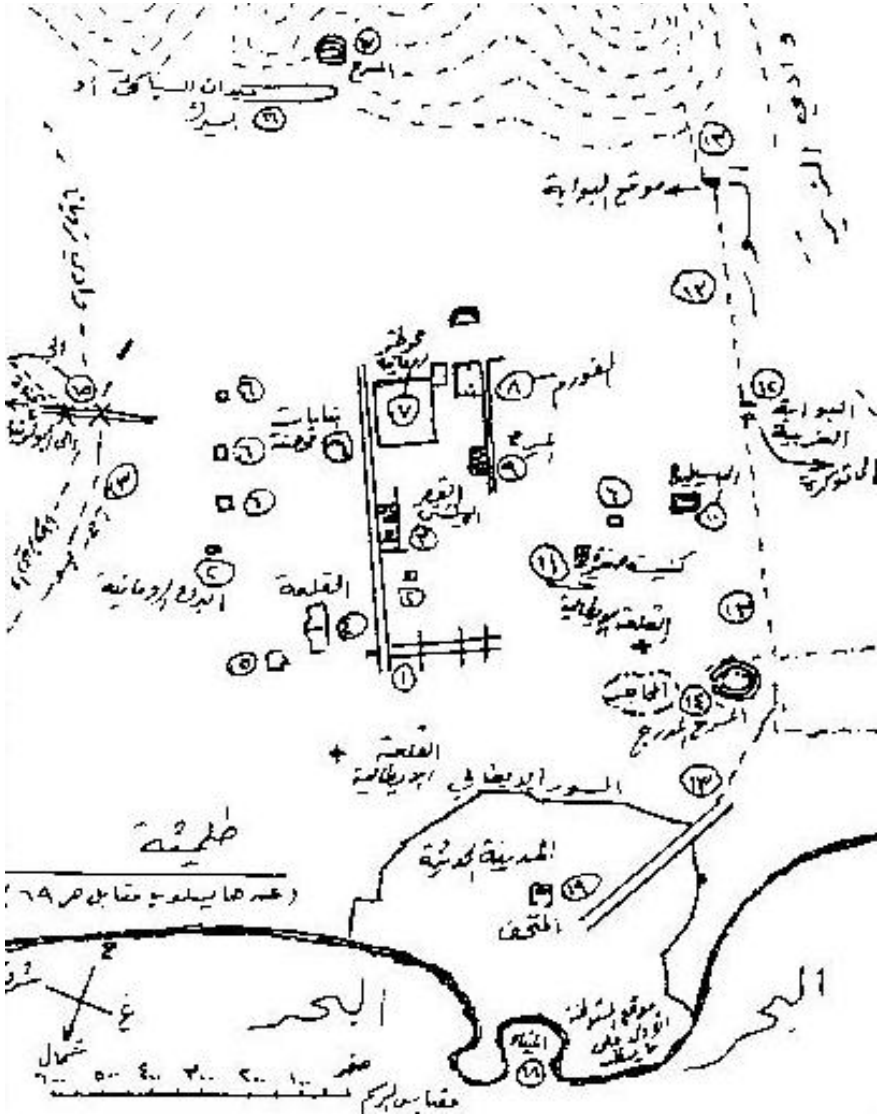

الحديثة كما أنه كان صياداً. وهو لم يعمَّد إلا بمناسبة تعينه أسقفاً للمدينة سنة 410 م.. وحتى آنذاك فإنه قبل ذلك التكريم متردداً واشترط أن يسمح له في الاستمرار بالاحتفاظ بزوجته. وكان سونسيوس زعيماً قديراً كما إنه كان ماهراً في التكتيك العسكري. ولا شك أنه قام بدور فعال في تنظيم الدفاع عن المدينة وفي بناء التحصينات وبناء كنيسته التي تشبه القلعة في طلميثة. ولقد عززت وسائل الدفاع والتحصينات التي أقيمت في أيامه في طلميثة خلال بقية العصر البيزنطي.

مفتاح مخطط طلميثة وملاحظات على آثارها:

1- شارع النصب التذكارية: يمتد من الغرب إلى الشرق ويرجع تاريخه إلى العصر الروماني كما تظهر فيه أبنية من القرن الميلادي الرابع وما بعده. ويبدو أن هذا الشارع كان له طابعه الخاص اذ كانت توجد على طوله ممرات مسقوفة ونوافير وتماثيل تكريمية ونقوش. ويلاحظ أن قوس النصر الروماني الحديث في الطرف الغربي من هذا الشارع به ثلاثة أقواس – وهذا أمر غير مألوف في الأقواس الرومانية في افريقيا – وإلى جانبه على الأرض أعمدة رخامية كانت تقوم أزواجا متقابلة على مدخل القوس.

2- البرك الرومانية: وهي من أصل روماني ولها سقوف معقودة بشكل غير عادي.

3- القصر الهلينستي: يرجع تاريخ هذا القصر إلى القرن الأول قبل الميلاد وتظهر عليه تعديلات ترجع إلى القرنين الأول والثاني للميلاد. ويقدر من حجمه وما فيه من زينات معقدة أنه كان منزلا لأحد كبار الشخصيات. وفي طرفه الجنوبي عدد من قاعات الاستقبال المبلطة بالفسيفساء والتي تفضي في الشمال إلى فناء معمد في وسطه بركة ماء للزينة. وفي جهتيه الشرقية والغربية كانت غرف أخرى تشكل طابقا ثانيا كان يقوم فوق مساكن الخدم والمرافق المنزلية الأخرى التي لا تزال موجودة وإلى الشمال يبدو أنه كان هنالك فناء ثان بأعمدة كورنثية زينت قواعدها بأوراق نبات الأكانثوس. ولا تزال كان يحيط بهذا الفناء الثاني وكانت به حمامات خاصة بأصحاب المنزل.

ومن الناحية الشمالية من جهة الشارع كان صف من الحوانيت مما يشير إلى العرف السائد آنذاك في تأجير أجزاء من المساكن الواقعة على الشوارع كمتاجر.

4- القلعة: (Citadel) هذه هي القلعة الرومانية الرئيسية التي بدئ ببنايتها في القرن الميلادي الرابع وبالإمكان ملاحظة التعديلات والإضافات البيزنطية التي أدخلت عليها في القرن السادس للميلاد والتي تتميز بصغر حجارتها.

5- أثر يرجع لنفس الفترة الخاصة بالقلعة (4) وفيه بقايا عقود داخلية مقوسة.

6- بنايات محصنة: ترجع لأواخر العصر الروماني وللعصر البيزنطي. وقد كانت قلاعا أو مستودعات محصنة.

7- محوطة رومانية: ربما كانت فورم أو قوسا بداخله بناء معمد.

8- الفورم: فناء مربع ومحاط بالأعمدة. أعيد بنائه في القرن الميلادي الأول على موقع الأجورا الهلينستية وفوق أربعة عشر خزانا كبيرا أزيلت سقوفها القديمة المكونة من البلاط الحجري وعوضت عنها بسقوف من العقود الرومانية وكانت المياه تأتي لهذه الخزانات من الركن الجنوبي الشرقي الذي ربما كان متصلا بالقناة المائية رقم (15). ولا تزال آثار بلاط الفسيفساء بادية في الجهة الجنوبية كما يقوم في الجهة الشمالية معبد أجريت على بنائه تعديلات كثيرة.

9- المسرح: مسرح روماني صغير وبه قاعة استماع صغيرة شبه دائرية يحيط بها مربع من البنايات.

11- الباسيليكا: كنيسة مسيحية يرجع تاريخها إلى مطلع القرن الخامس الميلادي. وربما كان بناؤها على يدي الأسقف سونسيوس. ويدل بناؤها على أنها حولت عن بناية قديمة إلى كنيسة حصينة يسهل الدفاع عنها. وفي زاويتها الشمالية الشرقية معمدانية مقببة. وإلى الشمال الشرقي

توجد آثار كنيسية أخرى (11) مشابهة للباسيليكا المذكورة.

12- البوابة الغربية: بناء هلينستي من القرن الثاني قبل الميلاد تظهر عليه آثار اصلاحات متأخرة. لاحظ حجر الحدود خارج البوابة. وكان قد أقيم في عهد دومتيان (81 – 96 م.) ليسجل عودة الأراضي البلدية لهذه المدينة.

13- سور المدينة: تظهر آثار سور المدينة في الجهة الغربية منها وربما كانت تعود إلى زمن البوابة الغربية. وتدل نقوش على بعض الحجارة التي استخدمت قي ترميم السور فيما بعد على أنه رمم في القرن الميلادي الثالث. وبالامكان تتبع خط السور الجنوبي على طول حافة الجبل. ولعل هذه الجهة من السور أصبح الدفاع عنها مستحيل في القرن الرابع الميلادي نظرا لطولها. ولعل ذلك يعلل بناء كثير من القلاع في المدينة في هذه الآونة.

14- المسرح المدرج: هذا مسرح روماني مدرج من القرن الأول والثاني للميلاد وكان يستخدم لعروض المصارعة والحيوانات المفترسة. والجدار الرئيسي الذي لا يزال موجودا في الداخل هو الجانب الخارجي للممر المعقود الذي كان يحيط بالحلبة. وعلى الجهة الشمالية الشرقية من هذا الجدار لا تزال توجد آثار زنار من الدهان رسمت عليه صور المصارعين.

15- الجسر: فوق وادي زوينة (Zuiana) وهو روماني من أواخر القرن الميلادي الأول وربما كان قد أقيم في عهد الإمبراطور تراجان (97 – 117 م.) وبه قوسان وتظهر على جزئه الشمالي بقايا قناة مائية كانت تحمل المياه للمدينة من التلال على مسافة خمسة وعشرين ميلا إلى الشرق.

16- السيرك أو ميدان السباق: وتدل آثاره بوضوح على أنه كانت به حلبة مستطيلة لسباق الخيول والعربات. قارن هذا مع سيرك سيرين.

17- المسرح: مكون في تجويف طبيعي في إحدى التلال وهو من النوع الهلينستي وربما كان تاريخه يرجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد.

18- الميناء: ربما كان الميناء القديم في نفس موقع الميناء الحديث. ويظن أن

المستوطنة الأولى هنا كانت إلى الغرب من هذا الميناء. وإلى الغرب من المدينة شمالي الطريق الرئيسي عدد كبير من القبور والمحاجر. وضريح كبير يرجع للقرن الثاني قبل الميلاد. وربما كان خاصا بأصحاب القصر الهلينستي (3).

19- المتحف: فيه تماثيل ومنقوشات وقطع من تماثيل مصرية الأسلوب جيء بها من القصر الهلينستي (3) وهي تشير إلى ارتباط برقة بمصر في عصر البطالمة. وتجدر الاشارة إلى انه وجدت في كل من طلميثة ولبدة وطبرق فسيفساء تمثل أورفيوس (Orpheus) وهو يعزف على قيثارته وحوله الوحوش والطيور تصغي إليه. ويعتقد انها ترجع إلى أواخر القرن الرابع الميلادي أو أوائل القرن الخامس الميلادي[94].

تويكيرا (Teuchira) = توكرة (Tocra):

في القرن الثالث قبل الميلاد صارت توكرة عضوا في إتحاد البنطابولس. ومع أنها سميت آرسينوي في عهد البطالمة فقد عرفت لفترة قصيرة من ذلك العصر باسم كليوباتريس (Cleopatris) نسبة لابنة كليوبتره من مارك أنطوني. وقد اشتهرت في هذه المدينة عبادة الالهتين سيبيل (Cybele) وريا (Rhea) وهما إلهتان كانتا ترمزان لخصوبة الطبيعة. ومنذ عهد البطالمة سارت هذه المدينة على النحو الذي سارت عليه طلميثة التي تبعد عنها بخمسة وعشرين ميلا.

أما ما تبقى من آثار هذه المدينة فهو دائرة السور الكاملة وقد تهدم السور في معظم نواحيه وإن كانت أجزاء منه لا تزال قائمة بارتفاع معقول حيث تشاهد أبراج ذات زوايا أربع وبوابتان واحدة شرقية والأخرى غربية. وهذا السور من بناء الامبراطور جستنيان في القرن الميلادي السادس وتظهر فيه حجارة على بعضها نقوش تدل على أنها أخذت من بنايات أقدم من السور. وليس داخل السور الكثير مما تمكن مشاهدته خاصة وان الحفريات لم تبدأ هنا الا سنة 1938م. ولكن المرء لا يستطيع أن يتتبع آثار الشوارع والأبنية بما في

94- The Journal of Roman Studies, Vol. LII, 1962, an article under the title "An Orpheus Mosaic at Ptolemais in Cyrenaica", by R. M. Harrison, pp. 13 - 18.

ذلك كنيستان مسيحيتان كانت إحداهما في الركن الشمالي بالقرب من القلعة التركية التي ربما كانت قد أقيمت على أسس الأكروبولس الاغريقي.

وهنالك أيضا مجموعة من المنازل أجريت فيها حفريات قليلة ويوجد قربها حوض ماء طويل مما قد يشير إلى وجود اسطبل. ويظهر بين البساتين إلى الشمال من البرج الحديث القائم على تلة بها البوابة الجنوبية. فناء هلينستي معمد وعلى جانبه الجنوبي ممر معمد مسقوف. كما يوجد عدد من القبور في المحاجر الواقعة في الجهتين الشرقية والغربية من المدينة. وهي قبور بسيطة منحوتة في الصخور وتدل نقوشها على انها استعملت في القرن الأول قبل الميلاد. وضمن هذه القبور بعض قبور مسيحية وأخرى يهودية. وتشير نوعية هذه القبور وندرة شظايا الرخام في هذه المواقع على ان مجتمع توكرة كان مجتمعا فقيرا يعيش عيشة بسيطة اذا ما قورن بمجتمعات المدن الأخرى. ولعل أهمية هذه المدينة كانت تكمن في كونها مركز حماية للممر الذي يتجه منها إلى الشرق.

وعلى الطريق من توكرة لبنغازي، شرقي برسيس (Bersis) وبجوار المسجد الصغير القائم جنوبي الطريق توجد بقايا قلعة ترجع إلى أواخر العصر الروماني أو إلى العصر البيزنطي. وإلى الغرب من هذا الأثر يوجد أساس بناء دائري كبير ربما كان موسوليم ضخما. ولا تزال بعض آثار المستوطنة الرومانية الجديدة هدريانابولس (Hadrianapolis) قائمة بين تنصولة ودريانة. وتشير تلك الآثار إلى وجود نقاط حراسة للطريق العام ووجود مساكن للمزارعين الذين كانوا يستغلون هذه المنطقة والذين كان الامبراطور هدريان قد جاء بهم لإنعاش برقة بعد ما لحقها من خراب في أعقاب الثورة اليهودية. وفي الكويفية بالقرب من بنغازي توجد آثار مزرعة إلى الجنوب من الطريق مقابل السجن الايطالي وفيها آثار جيدة لمعصرة زيت زيتون.

يوسيبريدس = برنتشي = برنيق = بني غازي = بنغازي:

في العصر البلطمي سميت يوسبيريدس باسم برنتشي (Berenice)

تكريما للأميرة برنتشي إبنة الحاكم ماجاس بمناسبة زواجها من بطليموس الثالث يورجيتس أي الخير. ويرى أن الأميرة نذرت أن تكرس شعرها الجميل للإلهة أفروديت اذا رجع زوجها سالما من حملة له على سوريا 246 ق. م. وعندما تحققت أمنيتها وفت بنذرها ولكن شعرها اختفى عن تمثال أفروديت في اليوم التالي لتكريسه. وقد أعلن كونون (Conon) الفلكي الأسكندري المشهور، أن العناية الربانية هي التي رفعت جدائل الأميرة برنتشي إلى السماء لتكون منها مجموعة جديدة من النجوم. ومنذ ذلك اليوم حتى الآن صارت مجموعة النجوم القريبة من ذيل الأسد (Leo) تعرف باسم جدائل برنتشي (Corea Berenices).

وقبيل هذا الوقت من القرن الثالث قبل الميلاد صارت هذه المدينة عضوا في اتحاد البنطابولس. وفي القرن السادس الميلادي جرى تحصينها في عهد جستنيان الذي أمر أيضا باقامة عدد من الحمامات فيها.

أما آثارها فلم يبقى منها شيء يذكر لأن حركة العمران فيها منذ العصر التركي وخاصة أثناء الاحتلال الايطالي أدت إلى القضاء على الآثار القديمة. ولقد اكتشف على جزيرة في بحيرة تريتونس (Tritonis Lacus) تمثال للإلهة أفروديت (=فينوس) قرب معبدها الذي كان قائما على الجزيرة. أما الميناء الأصلي فربما كان إلى الغرب من المنارة الحالية وغير بعيد عنها. وكانت المقابر القديمة تشغل مساحة إلى الجنوب الشرقي من البحيرة. ولا تزال القبور البطلمية والرومانية المنحوتة في الصخور تشاهد في مفلوقة على مرتفع حرجي إلى جانب البحيرة.

وعندما بني ذلك الجزأ من المدينة الذي سمي برنتشي بني سنة 247 ق. م. على النتوء الذي يفصل البحر عن البحيرة وعلى بعد ميلين اثنين من يوسيبريدس. ولا بد انه بني قبيل زواج الأميرة برنتشي من بطليموس الثالث ملك مصر فنحن ما زلنا نذكر أنه لما توفي والدها ماجاس، حاكم برقة الذي كان قد استقل بها، سنة 258 ق. م. كانت الأميرة برنتشي في الرابعة عشرة من عمرها وكانت معطاة للأمير البطلمي الذي أصبح فيما بعد ملكا لمصر باسم بطليموس الثالث. ولكن الحزب القومي في قورينة عارض

قيام ارتباط وثيق مع مصر ونجح في اقامة نوع من الحكم الديمقراطي في قورينة. وبعد ذلك بحوالي عشر سنوات تزوج بطليموس الثالث من برنتشي فعادت منطقة برقة تابعة لمصر وغيرت أسماء بعض مدنها تخليدا لتلك المناسبة[95].

وتجدر الاشارة إلى ان بنغازي كانت مسقط رأس صياد السمك أندرونيكوس (Andronicus) الذي صار حاكما للبنطابولس حوالي سنة 410 م. وكان على علاقة خصام مع سونسيوس، أسقف طلميثة.

وبالاضافة للمدن الرئيسية التي مر ذكرها فان الاغريق والبطالمة ومن بعدهم الرومان والبيزنطيون قد استغلوا كل المواقع المناسبة على طول ساحل برقة من مثل أجدابية التي لا تزال ترى بها بقايا كنيسة مسيحية من مخلفات القرن الميلادي السادس، والأسقفة (Asgafah) إلى الشمال الغربي من الأبيار حيث يرى ضريح منحوت في الصخر من القرن الرابع الميلادي وعلى جدرانه رسوم تمثل صاحبه وزوجته وهما يتسلمان العائدات العينية من المزارعين الذين كانوا يعملون في أرضهما بالأجرة. وعلى مسافة قصيرة من هذا الموقع تقوم أثار بناية كبيرة بين الخرائب يعتقد انها كانت منزلا لذلك الملاك. ثم هنالك درنة حيث قضت حركة العمران الحديث على الآثار الاغريقية والرومانية وعلى الميناء القديم الذي لم يرد له ذكر قبل القرن الميلادي الثاني مما يرجح الاعتقاد بأنه لم تكن له أهمية تذكر. ولقد كانت المستوطنة الأصلية إلى الغرب من وادي درنة. ويلاحظ أن سقف المسجد الرئيسي في درنة يقوم على أعمدة رومانية. وهنالك أيضا طبرق التي لا شك أنها كانت ميناء اغريقيا ثم رومانيا ولكن لم يبق من آثارها شيء يذكر. وإن كان بعضهم قد روى أن الامبراطور جستنيان جدد تحصيناتها. ولا بد أن الاغريق والرومان لم يفتهم أن يستفيدوا من المرافئ الصغيرة النافعة في بمبا وعين غزالة والبردية[96].

95- Goodchild, R.G., Benghazi, The Story of a City, Department of Antiquities, Cyrene (Shahat), Cyrenaica, Libya, 2nd Edition, Lamin Hasni's Press, 1962

96- Hyslop, C.G.C., in collaboration with Applebaum, S., Cyrene and Ancient Cyrenaica, A Guide Book, Government Press, Tripolitania, 19945.

ثانيا: في طرابلس:

لبدة:

إن الآثـار الفينيقية التي تم اكتشـافها في لبدة حتـى الآن هي عبارة عن عدد من القبور تحت المسرح الروماني. ومن المحتمل أن المقبرة الفينيقية كانت تقوم خارج المدينة الفينيقية التي نكاد نقطع بأنها كانت تقوم على المرتفع الواقـع بين الفورم القـديم ومصب وادي لبـدة. وهي منطقة لم تكتشـفها الحفريات بعد.

أما لبدة الرومانية فقد كانت مشـيدة حسـب الهندسة الرومانية التي تعتمـد مبدأ الشـوارع المتقاطعة عموديا وتحتفظ بتناسـب قطاعي المدينة القائمين على جانبي شـارع واحـد هو محور المدينة. ومحـور لبدة الرومانية هـو شـارع النصر الذي يبدأ من الفـورم القديم، نواة المدينـة الأصلية، ويتجه إلى الجنوب الغربي. وبامكاننا أن نكون فكرة عن النمو السـريع الذي حققته لبدة من ملاحظة تواريخ إقامة عدد من آثارها: فالسـوق أقيم سـنة 8 ق. م. والمسرح في سنة الميلاد والكلسيديكم (Chalcidicum) بين سنتي 11، 12م. وقوس صغير لأوغستا سـالوتارس، إلى الشمال من القوس السويري، بين سـنتي 27، 30 م. ولم تكن لبدة الرومانية الأصلية تتمتع بأية تحصينات حجرية وإنما كانت تحيط بها دائرة كبيرة من وسائل الدفاع الرملية.

وفـي القرن الميلادي الثاني توسـعت المدينة شـرقا وغربـا: فهنالك فورم تراجان والباسـيلياكا الخاصة بهذا الإمبراطور وهما ما زالا لم يكتشـفا بعد ولكنهما ذكرا في بعض النقوش وربما يقومان في القطاع الغربي من المدينة الذي لم يكتشف علميا حتى الآن. وهنالك حمامات هدريان التي شيدت على محور جديد للمدينة (شـمالي – جنوبي تقريبا) في سـنة 126 – 127م. بـين القطـاع الجنوبي من مدينـة القـرن الأول للميلاد ووادي لبـدة الذي لابد أن تكـون قد أقيمت عليه سـدود قبل هذا التاريخ لتحـول دون فيضانه على هذا الموقع. وفي مطلع القرن الميلادي الثالث أقيمت في المنطقة الواقعة إلى الشـمال الشـرقي من حمامات هدريان، بين المدينة ومجرى الـوادي، البنايات

السـويرية المؤلفة من شـارع الأعمـدة، والنمفية (مقر الحـواري). والفورم الجديد والباسيلكا. وفي هذا الوقت ذاته أخذ المرفأ شكله النهائي كما أقيم السـيرك والمسـرح المدرج خارج المدينة في الناحية الشـرقية من المرفأ الذي كان يصلهمـا به صف من المباني القائمة على طول الشـاطئ. ونظرا لعدم اسـتكمال الحفريات فان مساحة المدينة السويرية ما زالت غير معروفة. وإن كان يعتقـد أن تقاطع الطرق الذي يقوم عليه قوس سـبتيميوس سـيويرس كان يقـع داخلها وأنها كانت تمتـد باتجاه الغرب حتى حمامـات الصيد على أدنى تقدير.

ومن الواضح أن توسـع لبدة السويرية ونموها السـريع إنما هما انعكاس لتوسـع سياسـي متكلف نشأ عن ارتباط الأسـرة السويرية بلبدة. مسقط رأس مؤسس تلك الأسـرة. فعندما انهارت الأسرة سنة 235 م. بدأت المدينة السـويرية تتقهقر وتنحط. وإن كان تقهقرها ذاك قد أوقف مؤقتا في عهدي ديوقلتيان وقسـطنطين الكبير لينقض على المدينة من جديد وبعنف أشـد في أعقاب غارات الأسـتوريين عليها (363 – 367 م.). وبوسـعنا أن نكون فكرة عن مساحة لبدة بين 250 و 350 م. بتتبع آثار السور الروماني، وهو أول سور حجري للمدينة ويرجع تاريخه إلى هذه الفترة ذاتها.

وحوالي منتصف القرن الميلادي الخامس هدم الوندال سور المدينة الروماني المذكـور وتركوا المدينـة عرضة لزحف الكثبان الرملية عليها. ولم يسـتطع مـن ظلوا بها من السـكان أن يفعلوا شـيئا أكثر من الابقـاء على مداخلها الرئيسية مفتوحة وذلك بازالة الرمال. والواقع أن السور البيزنطي الذي أقيم في عهد جسـتنيان لم يضم بين أحضانه سوى المرفأ والفورم القديم والفورم الجديد.

وفي الحديث عن حجر البناء المستعمل في لبدة نستطيع أن نقول بشكل عام أنه كان من صنفين:

الأول: حجـر كلسـي صلـب يغلب عليـه اللـون الرمادي الفـاتح ونجده مسـتعملا في المنحوتات الزخرفيـة التي تميزت بها لبدة فـي القرن الميلادي

الأول، كمـا نجـده على وجوه الجـدران وفي الأماكـن التي كان مـن المتوقع أن تتعرض للضغط أو للتآكل.

والثانـي نوع من الحجـر الرملي وهو اقـل صلابة مـن الأول ولذلك فقد اسـتعمل في أماكن أقل أهميـة من الاماكن التي اسـتخدم فيها الصنف الأول.

والمعتقـد أن هذين الصنفين كانا يقلعان من موقع رأس الحمّام الذي يقع علـى بعد خمسـة كيلومتـرات إلى الجنوب مـن المدينة حيث لا تـزال المحاجر القديمة ماثلة حتى الآن. أما كتل الحجارة الكلسية الضخمة المستعملة في بنـاء المرفأ فيعتقد انها كانت تقطع من أماكـن قريبة على المرفأ في مصب وادي لبدة ولكن مواقعها لم تحدد حتى الآن.

وفـي القـرن الميـلادي الثاني شـاع اسـتعمال الرخـام كعنصـر تجميل فأسـتخدم في الأعمدة وفـي تصفيح الجدران وتبليـط المصاطب؛ ونجد بينه كثيـراً من الرخـام الملون الـذي كان يجلب من مناطق حـوض البحر الأبيض المتوسـط الشـرقي، ومن أجل الاقتصاد في الوزن كانت الأعمـدة وقواعدها تعـد في أماكنها قبل نقلها ثم يقوم النحاثون اليونانيون باجراء اللمسـات الأخيرة عليها في مواقع البناء في لبدة. ويلاحظ أن الاسـمنت الروماني (إن جازت التسـمية) والآجر اللذيـن يتميز بهما العمـران الروماني في إيطاليا كانا نادرين في لبدة التي ظلت اقرب إلى الطابع الإغريقي منها إلى الروماني فيمـا اقامته من أبنية. ومع ذلك فنحن نجد الاسـمنت مسـتعملا في عقد قاعة المسـرح ثم بعد ذلـك في حمامات هدريان وحمامـات الصيد. كما نجد الاسمنت الموجه بالآجر في الباسيليكا السويرية وفي النمفية (مقر الحواري Nymphaeum).

آثار لبدة:

إذا اتجهـت من المدخـل الحالـي (1). المقابل للمتحف وسـرت نحو الآثار فإن الممر سـيؤدي بك إلى درج حديث من الاسـمنت ينتهي بك عند آخره إلى الشارع المحوري الرئيسي (Cardo) للمدينة القديمة. وبعد مسافة قصيرة

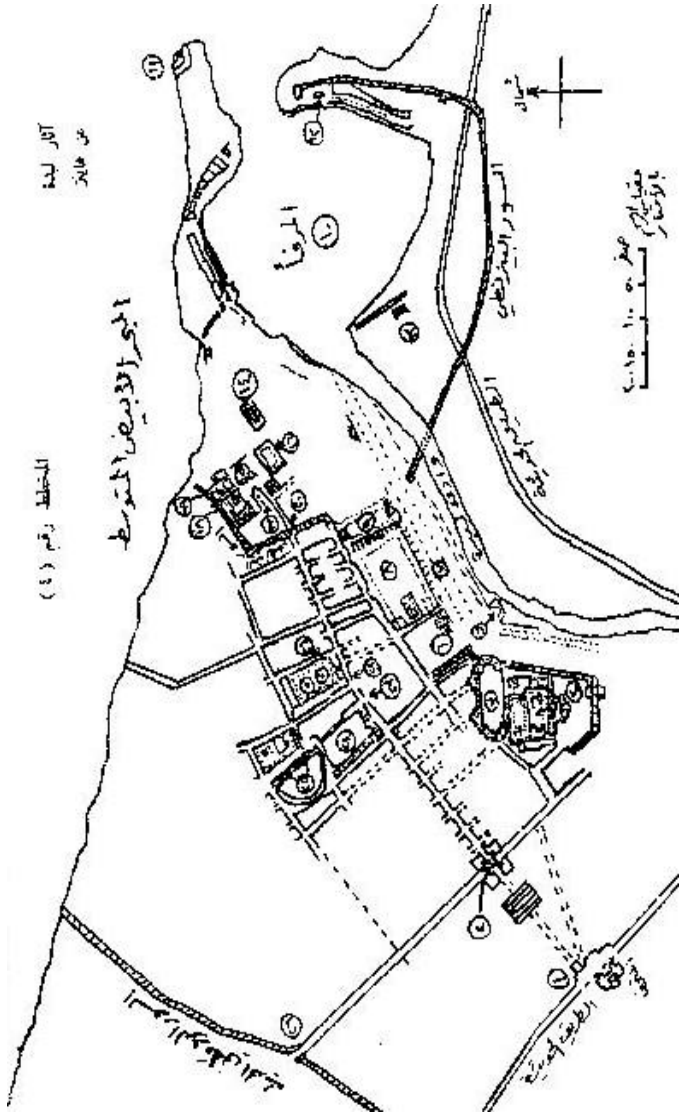

يتقاطع هذا الشارع مع شارع لبدة الرئيسي (Decumanus Maximus) مكونا بذلك أول تقاطع طرق في المدينة حيث تجري إعادة نصب قوس سبتيميوس سيويرس (2). الآن. ويبدو أن هذا القوس أقيم على وجه السرعة وربما كان ذلك بمناسبة الزيارة التي قام بها الامبراطور سبتيميوس سيويرس للبدة سنة 203 م. وهذا القوس من النوع ذي الأربعة جوانب وممرين اثنين وتدل مصطبته المرتفعة على أن العربات لم تكن تمر من تحته. وكان بنائه بالحجر الكلسي المصفح بالرخام وقد زين بكثير من الأباريز ذات المحفورات البارزة. وكان على كل جانب من جانبي الممرين عمود كورنثي. وقد نقلت عدة قطع من زخارف هذا القوس المزينة بالمحفورات والأشكال البارزة إلى متحف السرايا الحمراء بطرابلس حيث ما زالت تشاهد حتى الآن. وبالإمكان تقسيم الزخارف ذات الأشكال إلى مجموعتين كبيرتين:

الأولى: وتتكون من اربعة زنانير كبيرة قائمة الزوايا وعليها رسوم وأشكال تمثل موكبي النصر. ومشهد تضحية. والامبراطور سبتيميوس سيويرس ممسكا بيد ابنه الكبير كراكلا ومعه ابنه الصغير جيتا (Geta). وهذه الصورة ترمز لوحدة الأسرة الامبراطورية.

والثانية: تتكون من ثمانية زنانير صغيرة قائمة كان كل زوج منها مثبتا مقابل زوج آخر على وجوه الجدران الداخلية لكل من الممرين اللذين يقوم عليهما القوس. وأشكال هذه المجموعة تمثل جماعات تقليدية من الآلهة وإن كانت أشكال أحد زنانيرها – وهو مع الأسف محروق ومكسور – تظهر الجنود الرومانيين وهم يحاصرون مدينة شرقية.

وبين زخارف هذا القوس الأخرى تظهر أشكال لأسرى من البربر. ولأسلابهم. ولعدد من إلهات النصر وهن يحملن التيجان وسعف النخيل. ولعدد من النسور التي مثلت وقد فردت اجنحتها ووقفت على عدد من الكرات الارضية. وإلى جانب هذا كله تظهر على الزنانير الكبيرة التي كانت تزين زوايا القوس الخارجية الأربع لفائف من أغصان العنب تنتشر بين أوراقها أشكال لعدد من العصافير وعدة أشكال لإله الحب كيوبيد (Cupid).

وبوسع المرء أن يلاحظ تعدد أساليب النحت المتبعة في هذا القوس مما يشير إلى أن النحاتين الذين أسهموا في عمله كانوا متعددين وينتمون إلى مدارس فنية مختلفة. ويكاد يكون في حكم المؤكد أن الأعمدة المربعة في الزوايا بعض عناصر الزينة الأخرى هي من نحت فنانين من أبناء مدينة أفروديسياس (Aphrodisias) في آسيا الصغرى بمعاونة مساعديهم من تلاميذهم المحليين في لبدة. ويظهر أثر هؤلاء مرة ثانية في الأعمدة المربعة في الباسيليكا السويرية التي انتقلوا للعمل فيها بعد فراغهم من أعمال القوس. ومن الواضح أن أعمال هذا الفريق تتباين تباينا كبيرا من حيث الأسلوب ومستوى المهارة الفنية. وإلى جانب ذلك نجد زنانير منحوتة تتميز بالطابع الكلاسيكي، وأخرى يظهر فيها أثر فن النحت السوري والعراقي القديم. ويشير الأسلوب الذي نحتت به عربة سبتيميوس سيويرس في أحد مواكب النصر إلى الميل العام لجعل كل الصور والأشكال تلتفت إلى أمامها بغض النظر عن الوجهة التي يجب أن تلتفت إليها طبقا لما يتطلبه الموقف. ويبدوا هنالك ميل آخر يتجلى في مشهد التضحية وهو جمع الأشكال الأمامية المتساوية الارتفاع في صفوف مما يؤدي إلى إحداث أنماط متساوية بتكرار هذه العملية.

وبالإضافة إلى تأثير روما نفسها وهو واضح في الزنار الذي يحمل مشهد الحصار؛ هذا الزنار بنوعيته القصصية وبالنظرة الشاملة للموضوع تقترب من فن النحت الذي نراه في أعمدة تراجان وماركوس أوريليوس وفي قوس سبتيميوس الذي أقيم في نفس الفترة في الفورم الروماني بروما.

وبعد أن تتوجه من قوس سبتيميوس سيويرس إلى الشرق في الشارع الرئيسي فإن الأولى بك أن تسير مع أول منعطف على يدك اليسرى لتصل إلى موقع أجريت فيه دراسات أثرية شاملة هو الطرف الغربي من الباليسترا (3) (Palaestra). أي الملاعب. وقد كانت هذه عبارة عن فناء مستطيل مكشوف. جوانبه الأربعة مستقيمة وأركانه شبه دائرية ويحيط به ممر مستور من الأعمدة الكورنثية.

وبجوار الملاعب إلى الجنوب توجد حمامات هدريان (4) وكانت قد

افتتحت بين سنة 126 م. وسنة 127 م. ثم جرى ترميمها وتعديلها في عهد الامبراطور كمودس (193 – 180) (Commodus م). وقد صممت حمامات هدريان هذه على نفس خطة الحمامات الكبرى في روما فأقيمت وفقا لمخطط متناسب متناسق بحيث تشغل غرفتها الرئيسية المحور المركزي بينما تقوم الغرف الثانوية على جانبي ذلك المحور. وتقع في الطرف الشمالي من البنايات المركزية النتاتيو (Natatio). (أ) أي بركة السباحة الكبيرة المكشوفة التي كان مدخلها في وسط الجدار المحيط بها من الشمال بينما كان يحف بها من الشمال والغرب والشرق ممر مستور ومعمد بأعمدة كورنثية وردية اللون. وتظهر في الجهة الجنوبية من الجدار نتوءات يرجع تاريخها إلى فترة لاحقة وربما كانت تمثل تعديلات أجريت في عهد كمودس. وفي هذا الجدار ذاته أربعة أبواب: اثنان في الوسط وواحد في كل من الطرفين وهي تفضي جميعاً إلى الممر المحيط بالفريجيداريوم (Frigidarium) (ب) التي يتمثل فيها، بالنسبة لفن النحت، أبرز مظهر للحمامات؛ لأنها كانت عبارة عن بهو فخم مبلط ومزنر بالرخام ومظلل بثلاثة سقوف متقاطعة من الاسمنت ترتكز أسسها على ثمانية من الأعمدة الكورنثية الضخمة.

وقد وجدت شظايا من قطعة رخام جرى تثبيتها على جدار البهو الجنوبي وهي تحمل نقشا يشير إلى ان ترميم الغرفة الباردة وأجزاء أخرى من الحمامات وتزيينها «بالرخام والأعمدة» قد تم على يدي روزونيانوس (Rosonianus) بموجب إذن من الإمبراطور خوله فيه التصرف في بعض مخصصات المصارعة. وبعد وفاة كمّودس، محي اسمه الذي كان في أصل هذا النقش وحفر مكانه اسم سبتيميوس سيويرس. وفي الطرفين الشرقي والغربي من البهو الرئيسي كانت تقوم أروقة مقوسة تفضي إلى مغاطس ماء بارد يعود تاريخ ما عثر عليه من زخارفها، بما في ذلك بعض الأعمدة الكورنثية، إلى أواخر القرن الميلادي الثاني. وفي وسط الجدار الجنوبي للغرفة الباردة باب يفضي إلى التيداريوم (Tepidarium) أي الغرفة الدافئة (ج)؛ وقد كانت في الأصل تحوي حماما واحدا فقط يقع في وسطها. أما الحمامان الآخران فقد أضيفا فيما بعد باقتطاع جزء من الممر الموجود في القسم الجنوبي من

الغرفة الباردة. وعلى جانبي الحمام الواقع في منتصف الغرفة الدافئة ممران تستره عنهما أزواج من الأعمدة الكورنثية المصنوعة من الرخام الرمادي. ويؤدي هذان الممران إلى دهليز خلف الحمام كان يستخدم كمنظم حراري بين الغرفة الدافئة والكلداريوم (Caldarium) أي الغرفة الحارة (د). وكانت هذه الأخيرة عبارة عن غرفة لها سقف كأنه جانب اسطوانة ويدخل إليها النور من نوافذ مقوسة. وقد وجدت في هذه الغرفة قطع من حجر كلسي اللون تشير بقايا كتابة منقوشة عليه إلى ان هذا الحمام كرسه للامبراطور هدريان يوبيليوس سلر (Popilius Celer) مندوبا عن البروقنصل فاليريوس بسكوس (Valerius Piscus). وفي الطرفين الشرقي والغربي المتناسبة (هـ. هـ) التي كانت تسمى لكونيكا (Laconica) والتي استخدمت في أواخر عهدها كحمامات هوائية حارة تحمى بواسطة هواء حار يدور تحت مصاطبها المرتفعة بلاط جدرانها. ويلاحظ هنا أن هذه الترتيبات ليست أصلية وانما جرى استحداثها في فترة لاحقة. وكان في الجدار الشمالي لكل من غرفة الـ (لكونيكا) الخارجية مدخل يفضي إلى صالة في الممر الجنوبي يستطيع المستحم أن يرجع منه إلى الغرفة الباردة مباشرة. ولسنا نعرف بالتأكيد الأغراض التي كانت الغرفة الأخرى تستعمل من أجلها وإن كنا نفترض أن بعضها كان يستخدم لتغيير الملابس والبعض الآخر للقيام بالتمارين الرياضية وربما للمكتبة والمطالعة. والغرفتان الوحيدتان اللتان يظهر عرضهما واضحا هما غرفتا المراحيض (و – و) اللتان تشغلان الزاويتين الشمالية الغربية والشمالية الشرقية من البناء. وهذان المرحاضان كانا على النمط الروماني العادي فمقاعدها كانت من الرخام وكانت في كل منها قناة عميقة تحيط بثلاثة جوانب من الغرفة وتستخدم مياهها في كسح المرحاض. أما الجانب الرابع من الغرفة فكان يشغله تجويف كالمحراب موجود ما بين المدخلين ومخصص ليوضع فيه احد التماثيل. وكانت المنطقة الوسطى من المرحاض الشرقي مكشوفة لولا وجود حاجز ذي ثلاثة جوانب مكون من عدد من الأعمدة الكورنثية. أما المرحاض الغربي، وهو أصغر من المرحاض سابق الذكر، فقد كان يغطيه تماما سقف قائم على أعمدة ذات

قواعد.

ولا تزال بقايا المواقد وغرف التسخين، التي كانت بها سخانات تستخدم لتسخين مياه الحمامات الحار والدافئ، ماثلة على طول امتداد الجدار الجنوبي (ز –ز). وعلى مسافة قصيرة إلى ما وراء البناية من الجنوب يوجد صف من الأحواض أكتشف عنده نقش يفيد ان رجلا من لبدة اسمه كوينتوس سيفيليوس كانديدوس (Quintus Servilius Candidus) «وجد الماء فاستخرجه وجره إلى مستوطنة لبدة (ربما بواسطة قناة مائية) على نفقته الخاصة» بين سنة 119 – 120 م.

وينتهي الطرف الشرقي للملاعب بساحة متعددة الأضلاع مصممة كجزء من برنامج البناء السويري لتكون محورا بين الشارع الموجود على الجانب الشرقي من حمامات هدريان وشارع الأعمدة الجديد الذي كان يمتد على محور ينحرف قليلا لكي يتجاوز الفورم السويري. وفي الجهة الشمالية الشرقية والجهة الجنوبية للساحة المذكورة مدخلان مقوسان يفضيان إلى هذين الشارعين. ولا تزال آثار قوسين ملتويين قائمين في الجهة الشمالية الغربية ولكن هذه المنطقة أصابها كثير من التغير نظرا لمرور السور البيزنطي بها. ويصل مدخلي هذين الشارعين في الجهة الجنوبية الشرقية مقر الحواري السويري (5) وهو مكان رحب، شبه دائري وفيه صحن نافورة وتحيط به جدران عالية.

وعلى بضعة أمتار من الساحة المذكورة وفي الزاوية الواقعة بين الجدار الشمالي الغربي لشارع الأعمدة الجديد والجدار الجنوبي الغربي للفورم السويري تظهر آثار كنيسة (6) ربما كانت واحدة من الكنائس الصغيرة الأربع التي شيدها جستنيان في لبدة. ويتبع بناء هذه الكنيسة خطة الباسيليكا من حيث التصميم فهو عبارة عن بهو مستطيل ينقسم طولا إلى صحن وممر عليه صفان من الأعمدة يتكون كل منهما من ستة أعمدة، بينما اقيمت المعمودية وجرنها المصلب في الزاوية الشمالية الشرقية من البناء.

شارع الأعمدة (7):

يصل حمامات هدريان بالمرفأ ويدور حول الفورم والباسيليكا السويرية. وقد كان الشريان الرئيسي للبدة السويرية. ويعتبر هذا الشارع العريض الذي كانت تحف به ممرات مستورة معمدة مثالا ممتازا للشوارع الرومانية التذكارية المتوافرة بكثرة في سوريا الرومانية. وكانت أعمدة ممراته تقوم على قواعد مربعة. ولها تيجان على شكل زهرة اللوتس أو زهرة الأكانثوس. تخرج منها أقواس صغيرة جميلة كانت ذات أثر بعيد في فن النحت الاسلامي وفن النحت الأوروبي فيما بعد.

فإذا سرت مع شارع الأعمدة هذا باتجاه المرفأ وجدت نفسك بعد مسافة الباب الأول والأوسط والأخير من تلك الأبواب عبارة عن مداخل للفورم السويري (8) الذي يشبه إلى حد كبير مثيلاته في روما في كونه عبارة عن ساحة مستطيلة (100 × 60 مترا مربعا) تحف بها ممرات مستورة معمدة ويشرف عليها معبد مرتفع يبرز من وسط طرفها الجنوبي الغربي. وتشبه أعمدة ممرات هذه الساحة تلك المستخدمة في شارع الأعمدة من حيث صنعها ونحتها وإن كانت قد أثبتت بين أقواسها بالتوالي رؤوس المدوزة والنيريد (Nereid)[97]. المصنوعة من الرخام.

ولسنا نعرف لمن كرس ذلك المعبد وإن كان من المحتمل انه كرس لأسرة سبتيميوس (Gens Septimia). وهو من الطراز الايطالي الذي يقوم على قاعدة مقوسة وأمام مقدمته درج ذو ثلاثة جوانب بينما يبرز الجزء الخلفي منه ليطل مباشرة على الجدار المحيط بالفورم. وكانت تحيط بمقدمة وجوانب صحن هذا المعبد أعمدة من الطراز الكورنثي بجذوع من الجرانيت الأحمر ثمانية منها في المقدمة وتسعة على الجوانب. وكانت أعمدة المقدمة الثمانية تقوم على قواعد رخامية مربعة حفرت عليها أشكال تمثل معركة دائرة بين الآلهة والعمالقة. أما صحن المعبد فكان مربعا ولا تزال قطع من بلاط مصطبته الرخامي الأخضر تشاهد حتى الآن.

97- النيريد في الأسطورة الإغريقية هي حورية البحر أو أبنة نيريوس «Nereus»، إله البحر.

أما الباسيليكا السويرية (9) فقد كانت عبارة عن قاعة كبيرة مستطيلة تنتهي عند كل من طرفيها بتجويف شبه دائري أقيم عليه نصف قبة. وكانت تقسم هذه الباسيليكا طوليا إلى صحن وممرات جانبيه أعمدة مقامة على شكل طابقين كما كانت تمتد فوق الممرات الجانبية صالات خشبية للصور ترتفع إلى مستوى تيجان الطابق الأول من الأعمدة. وليس هناك ما يدل على مخطط القسم العلوي من هذا البناء. ومن المحتمل ان الصحن كان أعلى من الممرات وكانت إنارته تتم بواسطة صف خاص من النوافذ. ومهما كان شكل هذا القسم العلوي من البناء فلا بد أن الصحن والممرات كانت مسقوفة بالخشب.

وكانت أرض الباسيليكا مبلطة بالرخام كما أن جدرانها كانت مكسوة به إلى مستوى ارتفاع صالات الصور على الأقل. وكانت أعمدة الممرات من الطراز الكورنثي بجذوع من الجرانيت المصري الاحمر. وقد أفادت نقوش على بعض تلك الأعمدة انه بدىء بهذا البناء في أيام سبتيميوس سيويرس وفرغ منه في أيام كراكلا سنة 216 م. وكانت الفجوات فيما بين الأعمدة تزين باقامة التماثيل فيها وعندما حول جستنيان هذه الباسيليكا إلى كنيسة أقيم المذبح في الركن الجنوبي الشرقي منها وهو الركن الذي وسعت مصطبته المرتفعة بمدها إلى الامام. وقد أحيط المذبح بست قواعد أعمدة وبقطع أعمدة مأخوذة من قوس سبتيميوس سيويرس كما أقيم له منبر بنفس الطريقة في صحن الكنيسة.

وهنالك أبواب مقوسة في نهاية الممرات الجانبية تفضي إلى غرف أربعة تطل على نهاية جدران الباسيليكا: منها غرفتان قائمتان في الشمال الغربي وهما مربعتان. والغرفتان الأخريان تقومان في الجنوب الشرقي وتبدوان غير منتظمتي الشكل. وقد كانت هذه الغرف الأربعة في حالتها الأصلية مبلطة ومزنرة بالرخام وكانت لها سقوف خشبية يرتكز الواحد منها على أربعة أعمدة قائمة في الزوايا الأربع على قواعد مربعة. ومزينة بتيجان على شكل زهور اللوتس والأكانثوس. وفي القرن الميلادي السادس جدد البيزنطيون سقوف الغرف الجنوبية. والشرقية. والغربية بعقود من الحجر الرملي.

واستعملوا الحجرة الغربية كغرفة تعميد بعد أن حفروا جرن معمودية في مصطبتها.

وإلى الجانب الشمالي الشرقي من الباسيليكا ممر تذكاري يربط شارع الأعمدة بالقسم القديم من المدينة في الشمال الغربي. ويتميز هذا الممر في كلا طرفيه بقوس كما يقوم على طول جهته الجنوبية الغربية صف من الأعمدة القائمة على قواعد مربعة أمام جدار الباسيليكا.

المرفأ (10):

كان مرفأ لبدة في الأصل عبارة عن مصب واديها الذي كانت تحميه من الجهة الشمالية والشرقية حواجز خارجية. وبعد ذلك حولت ضفاف المصب إلى أرصفة ميناء. وخلال العهد السويري وصل بين حواجز المرفأ الخارجية ببناء حجري لحماية المرفأ من جهة البحر في الشمال والشرق. وهكذا كان هذا المرفأ عبارة عن شكل متعدد الأضلاع وغير منتظم يبلغ محيطه حوالي ثلاثة أرباع الميل وله ثغر ضيق في القسم الشمالي الشرقي منه يحميه ذراع بارز من جهة الشمال. وحوض المرفأ ذاته مملوء الآن بالرمال كما ان أرصفته لا تكاد تبدو للعين الا في جزئه الشرقي.

المنارة (11):

تقوم على رصيف حجري، وهي عبارة عن برج ذي أربعة أوجه، ولا بد أنه كان مكونا من عدة طبقات وفقا لما كان معروفا من هندسة المنارات القديمة. وكان بناء هذه المنارة يضيق شيئا فشيئا باتجاه رأسها حتى ينتهي إلى القمة التي كانت قاعدة لمصباح الانارة. ومن المؤسف أنه لم يبق من هذه المنارة إلى الآن سوى أساس برجها وزاويته الجنوبية الغربية. ولقد كان مدخلها في وسط جدارها الغربي الذي قد انهار منه ما يقارب نصفه. ويمكن مشاهدة كتلة كبيرة من الاسمنت في البحر غير بعيد عن مكان المنارة يعتقد أنها كانت جزءا من القسم العلوي للبرج.

وفي القسم الشرقي من المرفأ كان رصيف ترسو إلى جانبه السفن

وتشد إلى مرابط مثبته في جداره الخلفي. وكانت تطل على هذا الرصيف المستودعات وأبنية المرفأ الاخرى التي كان بينها معبد دوري صغير (12) حوّل فيما بعد إلى كنيسة. وإلى الجنوب من هذا المعبد كان صف من المستودعات خلف ممر معمد مستور. وبالامكان مشاهدة آثار السور البيزنطي الذي أقيم في وقت لاحق بحجارة من الآثار السابقة حول هذا الجزء الشرقي من المرفأ. أما الجزء الجنوبي من المرفأ فان الدراسات الحفرية لم تستكمل بالنسبة له وإن كان يتميز بمعبد كبير (13) لم يكتشف منه حتى الآن سوى درجاته الامامية ومصطبته.

الكوريا (Cnria) أو المجلس البلدي (14):

يقوم هذا البناء في ساحة مربعة سويت أرضها ورفعت. وكان مدخله من الجهة الجنوبية الغربية حيث يوجد درج عريض. كما كان يحيط به ممر مستور من أعمدة الحجارة الرملية. ولقد كان هذا البناء مربعا كبناء المعابد وامامه درج ومصطبة بها ستة أعمدة كورنتية: أربعة منها في المقدمة واثنان خلفيان يقوم كل واحد منهما خلف عمود الزاوية الأمامي. وكانت هنالك ثلاث أبواب تفضي إلى قاعة المجلس التي لا تزال تشاهد فيها بقايا الدرج المنخفض العريض حيث كانت توضع مقاعد القضاة. أما تاريخ هذا البناء فربما كان القرن الميلادي الثاني.

الفورم القديم (15):

يقع الفورم القديم غربي الكوريا مباشرة وقد كان مركزا للحياة الشعبية في المدينة. وكان عبارة عن ساحة مكشوفة ذات أربعة أضلاع قائمة الزوايا من الجهة الجنوبية والغربية ولكن جانبها الشمالي الشرقي كان ينحرف حتى يكون زاوية حادة في نهايته الشمالية. وتبدو، في الوضع الحالي لهذا الفورم، آثار رصيف في ركنه الشمالي يرجع إلى عهد الامبراطور أوغسطس. وكانت تحيط بهذا البناء معابد المدينة الرئيسية ومبانيها العامة. وتقوم إلى جانبه الجنوبي الشرقي الباسيليكا القديمة (16) التي كانت تستخدم كمحكمة وكبورصة. وهي عبارة عن قاعة مستطيلة لها مدخلان رئيسيان

في جهتها الشمالية الشرقية ومداخل فرعية في وسط ضلعيها الطويلين. وكانت أرضها مبلطة بالرخام. أما أعمدتها الأصلية فكانت من حجر الكلس ولكن أعمدة الجرانيت الرومانية التي أعيد نصب اثنين منها مؤخرا ترجع إلى عهد الامبراطور قسطنطين الكبير. وكان بنائها الأصلي الذي أقيم قبل سنة 53 م. قد اصيب بأضرار بالغة بسبب صاعقة أصابته في أواخر القرن الميلادي الثالث ولكنه أعيد بناؤه إلى ما كان عليه في عهد جستنيان. وفي الطرف الجنوبي للواجهة الجنوبية الغربية من الفورم. تقوم آثار معبد صغير للإلهة سيبيل (Cybele) أو الأم الكبرى في ساحة خلف ممر الفورم (2). وبعد هذا المعبد. وعلى الجانب الآخر من شارع الكاردو تقوم كنيسة الفورم القديمة القائمة على أنقاض معبد تراجان. وهي في خطتها أشبه بالباسيليكا إذ إنها مقسومة إلى صحن وممرات بواسطة صفين مستطيلين من الأعمدة. كما أنها لها خمسة أبواب.

وتقع خارج هذه الكنيسة مباشرة مقبرة مسيحية صغيرة لا تزال بعض نصب قبورها ماثلة وعليها أسماء من دفنوا فيها ومعظمهم من الاطفال.

وفي الزاوية الغربية من الفورم ممر مستور ذو ثلاثة جوانب (د) وهو مبلط بالرخام ويرجع تاريخه إلى منتصف القرن الميلادي الثاني. وكانت تقوم في الطرف الشمالي الغربي للفورم ثلاثة معابد الواحد منها إلى جانب الآخر. وأقصاها إلى الجنوب هو معبد ليبر باتر (18) (Liber Pater) وهو أقدم الثلاثة وربما كان يرجع إلى عهد الامبراطور أوغسطس. وقد بني في الأصل بالحجر الكلسي ولكن ما بقي قائما من آثاره يدل على أنه اعيد بنائه بالرخام في منتصف القرن الميلادي الثاني. وقد وصل هذا المعبد في وقت لاحق بمعبد روما – أوغسطس المجاور بواسطة جسر قائم على اقواس حجرية فوق الممر الفاصل بين المعبدين.

معبد روما – أوغسطس (19).

كرس هذا المعبد بين سنة 14 م. وسنة 19 م. وكما هي الحال بالنسبة لمعبد ليبر باثر فان معبد روما – أوغسطس بني في الأصل بالحجارة الكلسية

ولكنه زين بالرخام عندما جدد بناؤه في القرن الميلادي الثاني. وهو يقوم على مرتفع مستطيل ينخفض قليلا من الامام بحيث يسمح بتكوين روسترم (Rostrum) أي منبر للخطابة يطل على الفورم ويتم الدخول إليه بوساطة سلمين صغيرين من الدرج مخفيين في تجويف في جانبيه بينما كان في مؤخرة المنبر سلم قصير ذو درج عريض يفضي إلى مصطبة المعابد. وخطة هذا المعبد هي نفسها التي تظهر في معبد فينوس القيصري في فورم يوليس قيس بروما مما يدل على أن هذا المعبد الأخير هو الذي أوحى لمهندسي معبد روما – أوغسطس في لبدة بخطتهم. ويمر السور البيزنطي بالقسم الخلفي من هذا المعبد شاملا ركنه الشمالي وسائرا في خط مائل إلى نقطة متوسطة في ركنه الغربي. وكانت أعمدة هذا المعبد الإيونية في الأصل من حجر الكلس ولكن الأعمدة الرخامية أدخلت عليه في القرن الميلادي الثاني. وكانت في هذا المعبد تماثيل للإلهة روما ولأوغسطس وتيبريوس وليفيا (Livia) وآخرين من أعضاء الأسرة البولبو – كلودية. وقد وجدت بقايا من تلك التماثيل قريبة من المعبد وهي الآن في متحف السرايا الحمراء بطرابلس. وكان هنالك جسر آخر يصل هذا المعبد بمعبد صغير إلى الشمال منه (هـ).

البوابة البيزنطية (20):

هي أصلح بوابة باقية تؤدي إلى المدينة البيزنطية ويقوم على جانبها برجان مربعان يبرزان من وجه الجدار الخارجي. وكانت هذه البوابة قد شيدت بحجارة مأخوذة من الأبنية السابقة وعلى بعضها نقوش تدل على أصلها من مثل تلك التي تشير إلى نصب كان قد كرس للإمبراطور فسبسيان.

وإذا واصلت سيرك من البوابة البيزنطية في شارع الكاردو. فانك ستجد نفسك بعد قليل عند السوق (21) الواقع على يمينك. وكان أحد اثرياء لبدة واسمه انوبال روفس (Annobal Rufus) قد أقام سوقها الأصلي بين السنة الثامنة والسنة التاسعة قبل الميلاد. ولكن تعديلات كثيرة أدخلت عليه فيما بعد. وكان هذا السوق في الأصل عبارة عن ساحة مستطيلة تحيط بها

الممرات المستورة المعمدة من جوانبها الأربعة. وبها كشكان اثنان فقط. أما مدخلها الرئيسي فكان في منتصف ضلعها الجنوبي الغربي الطويل. وفي الفترة السويرية فتحت لهذا السوق بوابة رئيسية جديدة في طرفه الجنوبي الشرقي. ولا يزال عدد من مناضد السوق الحجرية موجودا حتى الآن. وقد حفرت على بعضها أسماء وعلى البعض الآخر أسماك وعلى واحدة منها المقاييس. ومن وراء الممر المستور في الزاوية الجنوبية الشرقية صف جميل من المناضد الرخامية. وإلى جانب الكشك المبني من الحجارة الكلسية توجد قاعدة تمثال على شكل قوس مصلب مزينة بمراكب تجارية محفورة حفرا بارزا. وعليها نقش يرجع إلى القرن الميلادي الرابع. ولكنك اذا دققت النظر اكتشف أنه حل محل نقش أقدم منه. ويخلد هذا النقش ذكرى تكوين مجموعة عربات سباق تكريما لشخص يدعى بورفيريوس (Porfyrius) بمناسبة تقديمة أربعة من الفيلة الحية هدية للمدينة.

واذا أنت غادرت السوق إلى الشارع المحوري، الكاردو، فانك ستصل مباشرة إلى قوس تيبيريوس (22) الذي يشرف على الركن الجنوبي من موقع السوق. وهو قوس بسيط من الحجر الكلسي خال من كل زخرف باستثناء كرنيش بسيط. وعلى هذا القوس نقش يفيد ان القوس اقيم تخليدا لعملية رصف جميع شوارع المدينة في عهد البروقنصل روبليوس بلاندوس (Rubellius Blandus) .35-36 م. وأن جميع نفقاته غطيت من الدخل الناجم عن أراض معينة كان البروقنصل نفسه قد استعادها من الجرامنتيين الذين استولوا عليها أثناء ثورة تكفارناس (Tacfarinas). وقد وجدت آثار قوس آخر عليه هذا النقش نفسه في الشارع الذي يأتي مباشرة بعد الممر المستور المعمد والكائن خلف المسرح. ولا شك أن هذين القوسين كانا حدودا للمنطقة التي رصفت مجددا من المدينة.

قوس تراجان (23):

يقوم إلى الجنوب من قوس تيبيريوس وعلى امتداد الكاردو وهو من أحدث

أبنية المدينة وأبدعها. وقد بني كله من الحجر الكلسي على نقطة تقاطع طرق؛ ولذلك فهو دو أربعة أوجه. وقد كرس البروقنصل بمبونيوس روفس (Pomponius Rufus) (109 – 110 م.) تخليدا لرفع الامبراطور تراجان مدينة لبدة إلى مستوى مستوطنة رومانية.

ويتصل قوس تراجان بالركن الشمالي الشرقي للكالسيديكم «Chalcidicum» (24) وهو عبارة عن ممر طويل مستور ومعمد وخلفه ساحة مستطيلة مكوفة تحيط بها الممرات المستورة المعمدة. وربما كانت هذه الساحة سوقا آخر. وكان بناء هذا الممر قد تم بالحجز الكلسي بين سنة 11 م. وسنة 12 م. ثم زين فيما بعد بالرخام. والأعمدة الباقية من أعمدته ذات تيجان كورنثية يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الميلادي الثاني أو أوائل الثالث. ولكن جزءا من حجارته الكلسية الأصلية ظل موجودا حتى الآن وعليه ثلاثة نقوش يشير النقش الأوسط منها إلى ان الكالسيديكم كان قد كرس للامبراطور أوغسطس.

المسرح (25):

إن لبدة مدينة باقامة هذا المسرح للشخص ذاته الذي أقام السوق وهو أنو بال روفس وكان تشييده في السنتين الأولى والثانية للميلاد؛ وهو يتكون من قاعة استماع شبه دائرية تتصل بحلبة المسرح وفيها مداخل ذات أقواس في مستوى الأرض يؤدي بعضها إلى ممرات وأدراج تفضي إلى المقاعد الحجرية وإلى الدهاليز الجانبية المسقوفة التي ربما كانت تستخدم كمخازن للأدوات المسرحية ويوجد في كل من نهايتي شبه الدائرة، وبعد بناء حلبة المسرح، مدخل يؤدي خلال ممر مسقوف إلى مركز الأوركسترا. وتحيط بالأوركسترا شبه الدائرية أدراج منخفضة كانت توضع عليها الكراسي للشخصيات الممتازة من المتفرجين. وكانت الصفوف الدنيا من مقاعد قاعة الاستماع تقوم على منحدر طبيعي بينما تقوم الصفوف الوسطة منها على مرتكز صناعي من التراب والحجارة. والصفوف العليا على مرتكز ضخم من الاسمنت والبناء الحجري وتنقسم المقاعد أفقيا إلى ثلاثة قطاعات بواسطة

ممرين بينما تنقسم عموديا بواسطة سلالم من الدرج إلى عدة قطاعات كل منها على شكل اسفين. وكان على جانبي حلبة المسرح مدخل يوصل إلى غرف تغيير الملابس. وما زالت تشاهد تحت أرض الحلبة التي بنيت على موقع مقبرة فينيقية قديمة. آثار خندق كانت تنزل فيه الستارة عند بدء العمل على المسرح.

واذا تابعت سيرك على الشارع الممتد إلى الجنوب الغربي من الجهة الغربية للمسرح وموازاة الكاردو الرئيسي فانك ستصل إلى الدكيومانوس الرئيسي الذي توجد عبره وعلى مسافة مائتي ياردة إلى الغرب منه البوابة الغربية (26). وقد كانت هذه البوابة في الأصل قوسا تذكاريا يرجع تاريخه إلى النصف الأول من القرن الميلادي الثاني. ثم حولت فيما بعد إلى بوابة محصنة للسور الروماني الجديد.

من هذه البوابة يمكنك أن تعود باتجاه الدكيامانوس إلى قوس سبتيميوس سيويرس ومنه إلى الخارج أو أن تواصل سيرك إلى حمامات الصيد.

وحمامات الصيد هذه تقوم على منتصف المسافة بين السور الروماني الجديد ووادي رصيف (Rsef) على بعد حوالي مائة ياردة من البحر. وربما كان تاريخ بنائها الأصلي يرجع إلى نهاية القرن الميلادي الثاني ولكنه غير ووسع فيما بعد. وعندما تم اكتشافها كانت في حالة في غاية القابلية للاصلاح. وهي نموذج صغير كامل على كيفية استعمال الاسمنت الروماني في العقد الذي تميزت به أبنية روما. وبناء هذه الحمامات. وشأنه شأن القصور والحمامات الرومانية. تتحكم في هندسته ومظهره الحاجة إلى المساحة الداخلية التي استوجبت أن يكون شكله الخارجي محدودا من ناحية وغير كلاسيكي من الناحية الأخرى. وبغض النظر عن الأجزاء الخارجية التي أضيفت للحمامات في تاريخ متأخر (وهي الآن دون سقوف). فان المدخل إلى البناية الرئيسية يتم من ممر مسقوف في الركن الشمالي الشرقي يؤدي إلى الفريجيداريوم أو الحمام البارد الذي كان به بركتان واحدة في كل طرف. أما الحمام المصلب السقف والمفتوح من جانبه الشمالي فإنه لم يكن واردا في الخطة الأصلية وانما حل فيما بعد محل غرفتين صغيرتين متجاورتين وموازيتين لممر المدخل.

وتظهر في فسيفساء البركة الشرقية بقايا خطوط رسم حورية ترضع جديا. ورأس وأكتاف إلهة بحر ومنظر من النيل يظهر فيه أحد التماسيح. وفي رسومات الطلاء المتأخرة تظهر مشاهد مصورة فنحن نرى على الجدار الجنوبي للفريجيداريوم مشهدا في حالة جيدة يصور صيد الفهد. ونرى على جدارها الشمالي مشهدا في حالة رديئة يصور صيد الأسد. وإلى جنوب الفريجيداريوم غرفتان مثمنتا الأضلاع وتعلو كلا منهما قبة مثمنة كذلك. وكانت الغرفتان الجنوبيتان تحويان الحمامين الحارين بينما كان الحمامان الدافئان في الغرفتين المثمنتين وكانت أرضهما فقط هي التي تحمى. أما تحويل الغرفة المثمنة الشرقية إلى حمام حار ثالث باضافة شبكة حرارية تحوى جدرانه وأرضه بواسطتها فهو اجراء جاء متأخرا ومرافقا للتغيير الذي طرأ على الشبكة الحرارية الداخلية في الوقت الذي أضيف فيه حمام بارد ووحدة من الحمامات الساخنة كانت عبارة عن دهليز تحمي مصطبته وحجرتان تحمي أرضهما وجدرانهما.

وفي تاريخ لاحق أضيفت بنايات متعددة ذات سقوف خشبية على الجانبين الشمالي والشرقي من البناء الرئيسي. وأقيم ممر مستور معمد على طول مقدمة البناية من جهة الشمال في مواجهة الشارع. وكان لهذا الممر مدخلان أمام كل منهما سلم قصير من الدرج. وكان المدخل الشرقي ينفتح على النهاية الشمالية لبهو مستطيل زينت جدرانه بزنانير من الطلاء المصور تظهر عليها جلود الحيوانات وصور الصيادين. وربما كان هذا البهو مقرا لنقابة الصيادين وهو غالبا الذي أدى إلى تسمية هذه الحمامات بحمامات الصيد. وكان المدخل الغربي ينفتح على الجانب الشمالي لبهو مستطيل طويل يتوسطه صف من الأعمدة والمقاعد المثبتة على طول جدرانه وبين أعمدته. وبالرغم من أنه هذه المقاعد اضيفت في وقت لاحق إلا انها تدل على ان هذا البهو كان يستعمل كقاعة لتغيير الملابس.

وفي الجهة الجنوبية من الحمامات غرفتا نار في حالة جيدة وأربعة أحواض ماء كبار.

أما السيرك أو ميدان السباق فإنه يقع على بعد نصف ميل إلى الشرق من المرفأ، قريبا من البحر. ويمكن الوصول إليه باتباع الطريق الذي يتفرع من طريق الخمس – مصراته إلى الشرق من جسر وادي لبدة مباشرة ويدور حول الجهة الجنوبية من المرفأ. ويرجع تاريخ هذا الميدان إلى آخر القرن الميلادي الثاني على وجه التقريب. وتبلغ أبعاده حوالي (450 مترا × 100 متر) وهو بذلك أكبر الميادين القديمة المعروفة. وفي طرفه الجنوبي الغربي المستقيم كان يقوم صندوقا إشارة البدء بالسباق (Starting Boxes). هما وإن كان لم يبق منهما الآن أي أثر فإن فتحتيهما المقوستين كانتا لا تزال قائمتين في القرن السابق عشر الميلادي عندما شاهدهما الرحالة الفرنسي ديران (Durand). وكان هنالك مدخل مقوس كبير في نهاية الطرف الشمالي شبه الدائري شاهد ديران بقاياه كذلك. أما بقية الميدان فقد كان محاطا بمقاعد حجرية تقوم الجنوبية منها على منحدر طبيعي بينما تقوم الشمالية على بناء من الاسمنت والحجارة. أما خط المضمار الذي كان يسمى يوريبوس سبينا (Euripus Spina) فكان يتحدد بصف من خمسة أحواض مائية مستطيلة طويلة تقوم على قواعد مصبوبة. وبمعبد صغير كان مقاما بين الحوضين الثاني والثالث من الجنوب الغربي. وهذا النوع من خط المضمار معروف في الآداب والكتابات القديمة. ولكن النموذج المادي الحقيقي الوحيد منه، والذي تم اكتشافه حتى الآن، هو هذا الخط الموجود في ميدان لبدة. وكانت جوانب المضمار تزين ببناء ثابت، اكتشفت آثاره، وكان ينتهي من كلا طرفيه ببناء شبه دائري يسمى ميتا (Meta) أي نقطة الدوران وعليه أبراج ثلاثة يتوج رأس كل منها كوز صنوبر.

وإلى جنوب الميدان يقع المسرح المدرج (Amphitheatre). وإلى الجنوب الغربي من المسرح المدرج وفي المنطقة الواقعة بينه وبين طريق الخمس – مصراته توجد بقايا قبور مشهورة متعددة أصلحها حالا القبر المسمى «قصر شداد».

وعلى الضفة اليمنى لوادي لبدة وإلى الجنوب من طريق الخمس – مصراته يقوم خزانان كبيران للماء في حالة جيدة، ويبعد الأول منهما

حوالي (150) ياردة عن الطريق بينما يبعد الثاني ضعف تلك المسافة. وهما مبنيان بالحجارة الكلسية والاسمنت، والشمالي منهما هو الكبير وفي داخله خمسة أحواض متجاورة ومسقوفة بينما نجد في الجنوبي ثلاثة أحواض فقط لكل منها باب كان عمال الصيانة والتنظيف يدخلون منه للقيام بأعمالهم. وقد أستخدم الباب الشمالي من الأبواب الثلاثة ليكون نهاية لفتحة قناة أقيمت في وقت لاحق لتصل بين الخزانين. وكان سطحا الخزانين يستخدمان مياه المطر بينما مدت من الخزانين قناتان من الاسمنت أمكن تتبع آثارهما مع مجرى الوادي إلى الشمال حتى مجموعة الأحواض الموجودة إلى جنوب حمامات هدريان في لبدة.

وعلى مسافة حوالي ربع ميل من الخزان الجنوبي صعودا مع الوادي تقوم آثار السد الذي شيده الرومان لتحويل مياه وادي لبدة إلى الغرب حتى تصب في وادي رصيف وذلك لحماية مرفأ لبدة من الطمي الذي يحمله إليه واديها، ولحماية منطقة حمامات هدريان والفورم السوبري من فيضانات ذلك الوادي. وهذا السد هو عبارة عن بناء ضخم من الاسمنت وتبدو عليه علامات الترميم في مناسبات مختلفة. وإلى الغرب قليلا من السد وعلى إمتداد قناة التحويل المذكورة لا يزال المرء يشاهد الجسر الذي كانت تعبر عليه الطريق الرئيسية من لبدة إلى الداخل. ويذكر أن المناطق الدنيا من وادي كعام (نهر كنبس القديم Cynips) وعلى بعد حوالي اثني عشر ميلا إلى الشرق من لبدة تزخر بآثار الأعمال المائية الهامة التي كانت موصولة بلبدة؛ فهنالك إلى الشمال من النقطة التي تعبر عنها طريق الخمس – مصراته هذا الوادي بركة محفورة في الصخر يغذيها جدول موسمي جوفي تخرج مياهها عندها إلى سطح الأرض. واذا توغلت إلى الداخل مع مجرى الوادي وجدت آثار سدود ضخمة من الاسمنت. وقد ذكر استرابو جسرا فينيقيا أو سدا على نهر كنبس، ولكن الآثار الباقية حتى الآن لا يوجد بينها ما يرجع إلى قبل العصر الروماني. وليس بالإمكان تبيين الكيفية التي كانت شبه السدود الرومانية تعمل بموجبها إلا إذا أجري مسح مفصل لهذه المنطقة من مجرى الوادي، وإن كان يبدو أنها كانت بمثابة خزان هائل تنقل منه المياه

بواسطة قنوات جوفية إلى لبدة. ولقد كانت تلك القنوات تخترق الوادي في خطوط مائلة ولا تزال بعض بقاياها ماثلة على جانبيه وإن كانت أجزاؤها الموجودة على الجانب الأيسر أصلح حالا من الاجزاء الأخرى. وقد أكتشف تقريبا كل خط هذه القنوات بين وادي كعام ولبدة الا أن مصبها في لبدة لا تزال غير معروفة حتى الآن.

فيعات = أويا = طرابلس:

يختلف موقع أيا عن موقعي لبدة وصبراته في انه كان ولا يزال ماهولا باستمرار منذ القدم. واذا استثنينا قوس ماركوس أوريليوس فان كل عمران أويا القديم قد اختفى تحت عمران القرون الوسطى والعصرين الحديث والمعاصر. وبناء على ذلك فان اعمال التنقيب لم تكن واردة. ولكن وجدت آثار قليلة هنا وهناك أثناء عمليات هدم وتجديد الأبنية. وربما أمكننا كذلك التوصل إلى بعض النتائج من دراسة مخطط المدينة عن فترة لاحقة.

إن أويا الفينيقية لم تكتشف أي أثر من آثارها وربما كانت قد أقيمت في القطاع الشمالي الشرقي من المدينة القديمة الحالية. أما أويا الرومانية فإن شوارعها الطويلة المتعامدة ما زالت تنعكس في شوارع المدينة القديمة إلى يومنا هذا؛ فهنالك الكاردو (الشارع المحوري) والديكومانوس أو الشارع الرئيسي الممتد باتجاه الشمال. ولعل هذين الشارعين يتمثلان في الشارعين الطويلين اللذين يلتقيان عند قوس ماركوس أوريليوس. باب الحرية من الجنوب الشرقي وشارع الكبيرة من الجنوب الغربي. ونستطيع القول ان ديكومانوس آخر أقرب في اتجاهه إلى الجنوب ما يزال خطه ملموسا في شارع حومة غريان. وقد أكتشفت آثار أبنية رومانية في مواقع متفرقة من المدينة القديمة وضواحيها القريبة: بيوت بمصاطب من الفسيفساء، زخارف بالدهان بين باب الجديد والبحر؛ بناء ربما كان منزلا خاصا، على البحر إلى الشمال الغربي من القلعة، وأواني فخارية تحت بناية شركة الكهرباء. وقد أظهرت الحفريات التي أجريت تحت القلعة وجود أساس معقد لبناء واسع وأرصفة من الحجارة الرملية وقطع من الفسيفساء وأعمدة كورنثية كبيرة. وربما كانت هذه كلها مخلفات بنايات عمومية كبيرة كوحدة حمامات مثلاً.

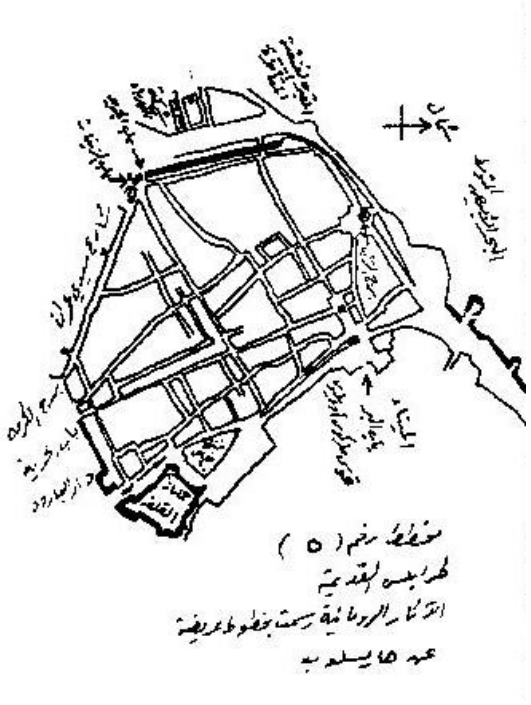

مخطط رقم (٥)
لطرابلس القديمة
الأثار الرومانية رسمت بخطوط عريضة
عدد ١٥ يسلم به

والمساحة التي كانت أويا الرومانية تشغلها في ذروة توسيعها غير معروفة بشكل قاطع. ويعتقد خط السور الإسلامي إنما قام على خط السور الروماني من باب الجديد إلى برج الكرمة بموازاة خط شارع سيدي عمران الحالي ومن ثم يتجه إلى الشمال الشرقي حتى دار البارود.

أما قوس ماركوس أوريليوس فيقوم في ساحة تواجه باب البحر والمرفأ قرب نهاية المدينة القديمة من الجهة الشمالية. وقد شيد على نفقة قاض من أبناء المدينة اسمه كايوس كلبورنيوس سلسوس (Caius Calpurnius Celsus) كرسه للامبراطورين ماركوس أوريليوس ولوسيوس فيروس (Lucius Verus) سنة 163 م. ويفيد الاهداء المنقوش على هذا القوس أنه أقيم على أرض عمومية. وقد سبقت الإشارة إلى أن هذا القوس كان ملتقى الشارعين الرئيسيين في المدينة. ولذلك فقد كانت له أربعة جهات ومدخلان مقوسان يتقاطعان مكونين زوايا قائمة. ويدل طول الواجهتين الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية على ان مدخل هذا القوس من ناحية المرفأ كان يعتبر أهم من المدخل الآخر. وقد بني هذا القوس بأكمله من الرخام وهذه حقيقة حرص نقش الاهداء على ذكرها. ويكاد يكون من المؤكد أن بناته كانوا من البنائين الإغريق.

ويزداد الوجهان الشمالي الشرقي والجنوبي الغربي لهذا القوس بنقوش منحوتة كما أن كلا منهما كان يزداد بعمودين كورنثيين يقومان على قاعدتين بارزتين طويلتين. وكانت فجوات ما بين الأعمدة مزينة بتماثيل للأباطرة فقد وجد تمثال لوسيوس فيروس أمام الوجه الجنوبي الغربي. وكانت تظهر على القوس صور محفورة تمثل كيوبيد إله الحب. حاملا إكليلا كما تمثل إلهة النصر المجنحة وقد نقشات تحت صورها الصفات الحسنى للإله أبولو والإلهة منيرفا. وهما الإلهان اللذان يحرسان مدينة أويا. كما يظهر قائم أبولو الثلاثي وغرابه على الشمال وخوذة الالهة وترسلها وحربتها وبومتها على اليمين.

ويتشابه الوجهان الشمالي الغربي والجنوبي الشرقي تشابها كبيرا وتظهر عليهما صور محفورة لأسر بربرية مأسورة تتجمع حول كومات من الأسلحة التذكارية التي أخذت من البربر بعد هزيمتهم. وتظهر على اليسار

صورة أبولو يسوق عربة يجرها زوج من أفراس الملائكة المجنحة (Griffins). ويظهر تحت هذه الصور غراب الإله وقوسه وحقيبته وغصن الغار. وتقابل أبولو في الجهة اليمنى الالهة منيرفا في عربة يجرها اثنان من أبي الهول المجنح. وعلى الأرض تحت هذه الصورة تظهر خوذة الالهة وقد حطت عليها بومتها وإلى جانبها الحربة والترس وغصن زيتون.

وتغطي القوس كله قبة مثمنة مكونة من ثلاث حلقات وغالق ذي ثمانية ضلوع.

وفي قرقارش[98]. إحدى ضواحي طرابلس من جهة الغرب. قبر على الجهة السادسة. وهو مغلق دائما ولا يفتح الا للزائرين الذين يحصلون على إذن خاص من دائرة الآثار بطرابلس. ويرجع تاريخ هذا القبر إلى القرن الميلادي الرابع وهو محفور في صخر رملي ناعم ما زال يستخدم لقطع الحجارة في الجهات المجاورة. ومدخل القبر في هذا الصخر الرملي هو عبارة عن ممر ضيق ينحدر إلى غرفة أشبه بمستطيل غير منتظم أقيمت في محجر غير مستعمل كان أعمق من أرض القبر الحالية بخمسة أمتار وكان يظللها. وعندما حول هذا المحجر إلى مدفن افرغ فيه التراب إلى ارتفاع المصطبة الحالية وأقيم له سقف لم يبقى له اثر الآن مما دعا إلى اقامة السقف الحالي الجديد وإلى بناء دعائم من الطوب تسند الجانب الصخري من السقف.

وإذا ما استعرضنا داخل غرف هذا المدفن فإنا نجد في جدارها الشمالي فتحتين بني داخل كل منهما لحد. وأهم اللحدين هو الذي يقع مقابل المدخل وهو لحد ايليا أريسوث (Aelia Arisuth) التي يظهر اسمها منقوشا على الجدار فوق هذا اللحد على قطعة دائرية مدهونة يرفها حارسان عبارة عن روحين مجنحتين. وعلى الوجه الداخلي لفتحة هذا اللحد تظهر صورة أخاذة لأريسوث يحيط بها إكليل زهر غني بالزخارف وترفعه وصيفتان صغيرتان. وتذكر ملامح وجه أريسوث الصارمة من ينظر اليها بصورة المومياء المصرية

98- سميت قرقارش بهذا الاسم نسبة لقراقوش. أحد مماليك المظفر تقي الدين ابن أخي صلاح الدين الأيوبي . وكان قراقوش قد هرب بقسم من جيش تقي الدين المتوجه إلى برقة. وراح يقوم بمغامرات وأعمال قرصنة في ليبيا وتونس تمكن خلالها من الاستيلاء على طرابلس مرتين: الأولى سنة 571 هـ. والثانية سنة 586 هـ.

في ذلك الزمن. وعلى كلا جانبي فتحة اللحد تظهر صورة روح حارسة وهي متكئة على مشعلة منكسة رمزا للحياة التي انتهت. ونلاحظ على السقف صورة طاووس وكرمة قد حط عليها عدد من الطيور. وما ذلك كله الا رمزا للعبث والحياة الأخرى. وعندما اكتشف هذا المدفن في أوئل القرن الحالي كان غطاء اللحد الملبس بالقصارة لا يزال في حالة جيدة وقد رسمت عليه بالدهان صورة لبوة كتب تحتها باللاتينية (Qua Lea Jacet) (= هنا ترقد لبوة). ومن المعروف أن كلمة «أسد» كانت احدى درجات الدخول في اسرار إله النور الفارسي مثراس (Mithras) الذي انتشرت عبادته في أرجاء الامبراطورية الرومانية. وقد كان الرأي السائد قبل اكتشاف مدفن قرقارش هذا هو أن النسوة كن مستثنيات من الدخول في أسرار الاله مثراس ولكن إعطاء لقب «لبوة» لأريسوث لا يمكن أن يعني الا أنها كانت قد بدأت تدخل تلك الأسرار. وفي النهاية الغربية لغطاء اللحد أي من جهة رأس الميت وجدت بقايا طشت من الفخار في قعره ثقب نصب التقجمات السائلة من خلاله. وعلى جانبي فتحة الضريح صورتا شماسين يرتديان مسوحهما الدينية ويحملان شمعتين مشتعلتين. أما مقدمة اللحد وأجزاء الجدار القريبة من تلك المقدمة فان عليهما مشهدا من ميدان سباق تمثله نقطتا الدوران في المضمار. وعلى كل من هاتين النقطتين ثلاثة بروج صغيرة. وتبدو في المشهد أربع عربات خيل متسابقة كل منها بلون من ألوان السباق الأربعة. والعربة الزرقاء هي السابقة بينما تظهر البيضاء وقد انتهت بفاجعة. وراحت الخضراء تحاول كبح جماح خيلها لتتجنب الاصطدام بحطام العربة البيضاء بينما جاءت الحمراء في المؤخرة. ويظهر بين العربتين الحمراء والخضراء شخص يحمل كأس السباق ويتجه به نحو الفائز. ولا بد ان نستنتج هنا ان اللون الأزرق كان اللون المفضل لدى أريسوث التي عدت وكسبت مسابقة الحياة.

وتحتوي الفتحة الثانية في الجدار ذاته لحد ايليوس (Aelios) بن يوراثانوس (Jurathanus) الذي يبدو أنه كان زوجا لأريسوث. وقد نقشت كتابة قبره فوق الفتحة على بلاط صور على كل من طرفيها طاووس.

ويظهر ايليوس على الجدار الداخلي للفتحة وهو يرتدي المسوح ويتكئ في جنة رمز لها بشجرة وعدة زهور. أما جوانب جدران الفتحة فقد زينت بصور العديد من الأرواح الحارسة المتكئة على مشاعل مقلوبة. وقد زين السقف بصور الكرمة والطيور وبصورة سلة معلقة ومملوءة بالفواكه. وقد زود غطاء لحد ايليوس. كما في حالة غطاء لحد أريسوث. بطشت فخار للمتقدمات السائلة ورسمت عليه بالدهان صورة أسد تحمل الكلمات (Qui Leo Jacet) (= هنا يرقد أسد).

وفي النهاية الشرقية للجدار الجنوبي فتحتان مقوستان فيهما فسقيتان يبدو أنهما لم تستعملا.

صبراته

وجدت بعض آثار صبراته الفينيقية تحت صبراتة الرومانية في المنطقة ما بين الفورم (5) والبحر: فقد وجدت تحت أقدم المنازل الدائمة مصاطب أكواخ مؤقتة بين الواحدة والتي تحتها طبقة من الرمل الذي كانت تأتي به الرياح مما يدل على أن تلك المواقع كانت تقام عليها أكواخ في الموسم المناسب ثم تنتهي بانتهاء الموسم فتبقى مصاطبها المكونة من التراب المدكوك مكشوفة فتغمرها الرياح بالرمل. ثم تقام تلك الأكواخ في موسم لاحق وهكذا. وقد وجدت في مصاطب هذه الأكواخ فخاريات يونانية يرجع تاريخها إلى القرن السادس وأوائل القرن الخامس قبل الميلاد. وربما كانت أول مستوطنة فينيقية دائمة في صبراتة قد أنشئت في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد حينما كانت تتألف من منازل صغيرة الحجرات مبنية إلى حد ما بآجر الطين ومحاطة بسور سميك اكتشفت أُسسه تحت الجهة الشمالية من ساحة معبد ليبر باتر (6). وخلال القرنين التاليين توسعت هذه المستوطنة حتى الجهة الجنوبية الجنوبية من معبد أنطوني (4). ويبدو أن سوق المدينة الفينيقية كان يقع في المنطقة التي اقيم عليها فيما بعد الفورم الروماني الذي وجدت تحته آثار بناية فينيقية عامة كبيرة وعدد من المنازل الأخرة. ولم تنشأ المستوطنة الفينيقية في صبراته وفق

خطــة منظمة، يدل على ذلك خطوطها التي ظلت قائمة إلى الشــمال من معبد ليبر باتر بالرغم من الأبنية التي أقامها الرومان أو أعادوا بناءها. وقبيل نهايــة القــرن الأول قبل الميلاد بدئ بتحويل المدينة مــن فينيقية إلى رومانية ولكن عملية التحويل هنا ســارت أبطأ مما ســارت عليه في لبدة. وكانت نواة المدينة الرومانية في صبراتة تتالف من الفورم ومعبدي ليبر باتر وســيرابيس (9) (Serapis). ومــن ثم راحت تتوســع باتجاه الداخل وفقا لخطة منظمة إلى حد ما وقائمة على أســاس وجود شــوارع مستقيمة متعامدة. وما زالت حــدود هذه المدينة الامبراطورية غير معينة من الجهة الجنوبية. وفي النصف الثانــي من القرن الميلادي الثاني أقيمت في صبراته ضاحية جديدة إلى جانب البحر والى الشرق من الآثار الحالية. واعتمدت في انشاء هذه الضاحية خطة الشــوارع المســتقيمة المتعامدة ابتداء من البحر إلى المســرح (18). وهكذا كان محورها الرئيسي يشكل زاوية قائمة مع الطريق الساحلي الذي إحتوته الضاحية الجديدة وجعلته أهم شارع من شوارعها.

ولم يكن من أبناء صبراتة – كما كان من أبناء لبدة – أباطرة يشجعونها على العيش في مســتوى أضخــم من مواردها، ولذلك فنحــن لا نلاحظ هنا تدهورا وانحطاطا سريعا خلال القرنين الميلاديين الثالث والرابع. تشير نشاطات أبنــاء صبراته في مجال إعادة تشــييد الأبنية العامة التــي هدمت إثر غارات الأســتوريين إلى أن المدينة كانت لا تــزال تحتفظ بكثير من حيويتها. والانهيار الخطير الذي أصيبت به المدينة انما يظهر في القرن الميلادي الخامس تحت حكم الوندال عندما هجرت منطقة المسرح جميعها (باستثناء الكنيستين 14 و 15) بالاضافــة إلى منطقة كبيرة من المدينة الامبراطورية القديمة. والواقع أن السور البيزنطي لم يكن يشمل الا جزءا صغيرا من المساحة التي بلغتها هذه المدينة في ذروة عمرانها.

ومادة البناء الرئيســية المســتعملة في صبراته هو الحجر الرملي المأخوذ من المنحدرات الجنوبية للحافة الساحلية. ولكي يحال بين هذا الحجر الرملي والتفتت فقد كان الوجه البارز منه يطلى بالقصارة. وبزداد استعمال الرخام ابتداء من القرن الميلادي الثاني فصاعدا ولكنه لا يبلغ من الكثرة الحد الذي

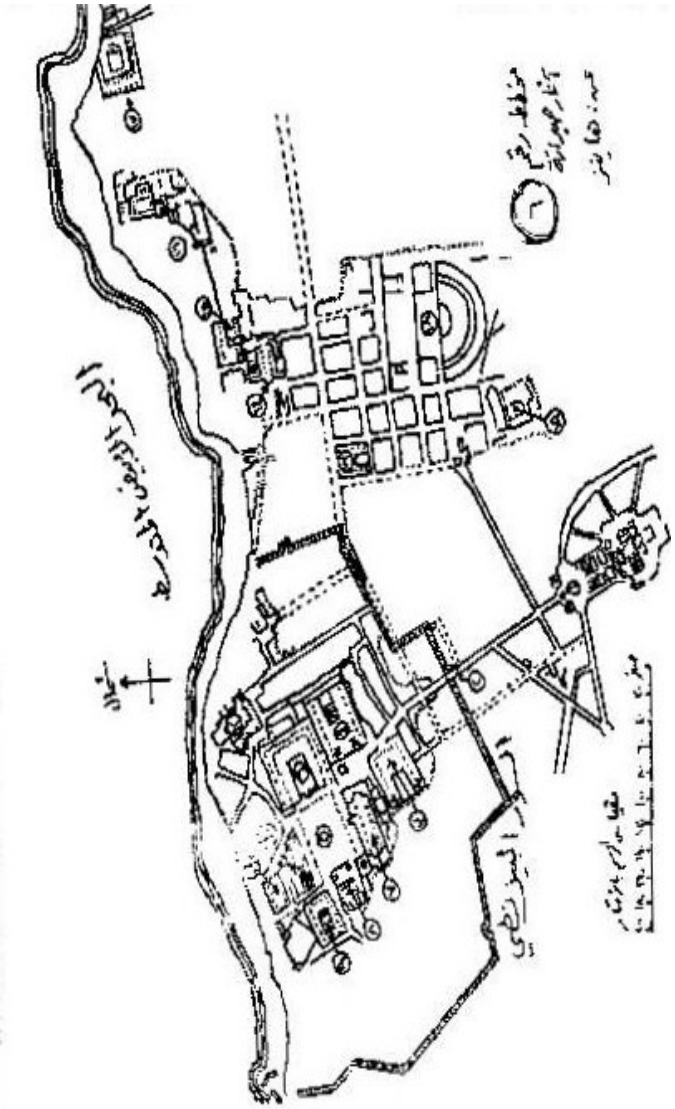

بلغه في لبدة. ويمكن الكشف عن تعمد الاقتصاد في استعماله هنا حتى في الأبنية العامة من مثل معبد الفورم الجنوبي (3) ومعبد انطونين فقد اقتصر استعمال الرخام في المعبدين على تزيين الواجهة الأمامية. اما الجوانب والخلف فقد اكتفى بقصارتها.

وكشفت الحفريات في صبراتة عن وجود عدد كبير من المنازل الخاصة. خلافا لما حدث في لبدة، مما يساعد على تكوين فكرة واضحة عن حياة المدنيين المنزلية. فهذه المنازل غالبا ما تكون وفقا لمخطط ضيق ولكن ما تبقى من آثارها يدل على ان الكثير منها كان يتألف من طابقين والعديد منها كانت لها آبار ماء تحت الطابق الأرضي تتجمع فيها مياه الأمطار الساقطة على السطح. وكانت مصاطب الفسيفساء واسعة الاستعمال كما أن وجوه الجدران من الداخل كانت تدهن غالبا وتزين. ولا يزال بعض تلك الزينة والفسيفساء في الأماكن التي كانت فيها أصلا وإن كان أفضلها قد نقل إلى المتحف المجاور حيث تحتفظ كذلك مجموعة كبيرة من الأشياء الصغيرة المستعملة في المنازل في الحياة اليومية من مثل الأواني الفخارية والزجاجية والبرونزية وما شابهها.

آثار صبراتة:

يقع مدخل الآثار (1) مقابل المتحف الحالي مباشرة على بداية شارع الكاردو أي الشارع المحوري الرئيسي للمدينة القديمة الذي يؤدي إلى الفورم ممتدا باتجاه الشمال الغربي. فاذا سرت من هناك فاجتزت تقاطع الطرق ومنزلا كبيرا له حمام (على اليسار) فانك تصل إلى البوابة البيزنطية (2) التي بنيت بمواد مأخوذة من الآثار السابقة. وكانت هذه البوابة بشكلها الأصلي عبارة عن مدخل ضيق يقوم على جانبيه برجان مربعان. وما زالت عتبة هذه البوابة قائمة في موقعها وهي من الحجر الكلسي. وتظهر على البرج الشرقي آثار كشك حراسة. ومن هذه البوابة تجد درجا حديثا يؤدي بك إلى الشارع الروماني الذي كان مستواه منخفضا إلى حد كبير عن مستوى الشارع البيزنطي. وفي وقت لاحق أقيمت بوابة جديدة إلى جنوبي القديمة. ومن الملاحظ أن مستوى الأرض عند بناء هذه البوابة الجديدة كان قد ارتفع

بشكل ملحوظ عما كان عليه مما دعا إلى وضع درجة للصعود إلى البوابة الجديدة. وهذه الدرجة عبارة عن قطعة من عمود سابق.

واذا تابعت سيرك على شارع الكاردو المذكور وجدت نفسك حول الجهة الغربية من حي سكني يلفت النظر ثم تصل إلى معبد الفورم الجنوبي (3) على يسارك. وهذا المعبد الذي لم يعرف لمن كان تكريسه يرجع في تاريخه إلى النصف الثاني من القرن الميلادي الثاني. وكان مقاما في مؤخرة ساحة مستطيلة ضلعه الشرقي والآخر في منتصف ضلعه الجنوبي. وعلى مقدمة الساحة وجوانبها ممرات مستورة معمدة بأعمدة كورنثية ومرصوفة بالرخام الذي زينت به بعض جدرانها كذلك. باستثناء جدار الممر الشرقي فقد كان مقصورا ومزينا بالدهانات. والساحة امام المعبد مرصوفة ببلاط الرخام الكبير. اما بقية اجزائها فهي مرصوفة بقطع رخامية صغيرة مستطيلة تظهر بينها فتحات المجاري التي كانت تستوعب مياه المطر. وكان مدخل المعبد نفسه عبارة عن درج عريض من الرخام. وتدل قطعة من عتبة رخامية موضوعة الآن امام هذه الدرج على ان التسوية الأمامية لهذا المعبد كانت كلها من الرخام وإن كان يبدو أنه اكتفى بكسوة الجانبين بالقصارة فقط.

وإلى الشمال من معبد الفورم الجنوبي يتسع الكاردو ليكون فناء مربعا يقوم في ضلعه الشرقي مدخل تذكاري يؤدي إلى معبد أنطونين (4). وهذا المدخل يرتفع عن مستوى الفناء فوق سلم عريض من خمس درجات. والمعبد نفسه يقوم مستندا إلى الجدار الخلفي للساحة التي كانت محاطة من الجهات الأخرى بممرات مستورة معمدة باعمدة كورنثية. وما زالت على هذا المعبد بقايا كتابة تدل على أنه كرس لماركوس أوريليوس ولوسيوس فيروس ما بين سنة 166 – 169 م. ولدى مغادرة الفناء المربع المذكور يمر المرء ببقايا نافورة مربعة وضعت في مركزها وعلى زواياها الأربع قواعد تماثيل. وهذه النافورة هي واحدة من اثنتي عشرة نافورة كان رجل اسمه فلافيوس تولوس (Flavius Tullus) قد أهداها للمدينة في أواخر القرن الثاني الميلادي. وتدل الكتابات الأثرية على أن هذه النوافير جميعها كانت مزنرة بالرخام ومزينة بالتماثيل. وكان فلافيوس تولوس المذكور يدفع نفقات امداد تلك النوافير

بالماء. والى الغرب من النافورة المذكورة ممر ضيق مقدس يصل بين الفناء المربع والفورم (5) الذي كان في العهد الامبراطوري عبارة عن ساحة مكشوفة مستطيلة تحيط بها ممرات مستورة معمدة. وكانت أعمدة الممر الشرقي من هذه الممرات كورنثية بينما كانت جذوعها من الرخام الأبيض مما يشير إلى أنها ترجع إلى الربع الأخير من القرن الميلادي الرابع عندما رممت أبنية المدينة إثر الدمار الذي ألحقته بها غارات الأستوريين.

ويقوم مقابل الفورم معبد لبر باتر أوديونيسوس الفينيقي. ويرجع تاريخه إلى أواخر القرن الأول الميلادي. وقد كان بهوه محاطا بأعمدة حرة ستة منها على النهايتين. وثمانية على الجانبين اذا ما عددنا أعمدة الأركان مرتين. وأعمدة هذا المعبد التي أعيد نصب بعضها في الجهة الجنوبية هي من النوع الكورنثي وهي من الحجر الرملي المقصور. وفي داخل هذا المعبد آثار بنايتين قديمتين إحداهما كانت في الأرجح منزلا والأخرى كانت معبدا ربما كان تاريخ بنائه يرجع إلى أوائل القرن الميلادي الأول.

وفي الجهة الجنوبية من الفورم كانت تقوم الباسيليكا (7) التي تدل بقاياها على ثلاث مراحل مختلفة من البناء: الباسيليكا رقم (9) التي قد تكون شيدت حوالي منتصف القرن الميلادي الأول وهي عبارة عن بهو مستطيل كبير لها مدخل في وسط ضلعها الشمالي الطويل المقابل للفورم. وكانت محاطة من الداخل على جوانبها الأربعة باعمدة ذات قواعد ضخمة وربما كان يرتكز على هذه الأعمدة سقف خشبي يظلل الممرات الجانبية. وكان الجانب المقابل للمدخل ينفتح على صف من الحجرات المتناسبة كانت الوسطى منها تستعمل كمحكمة وربما كانت هي القاعة التي وقف فيها أبوليوس أمام القضاة ليدافع عن نفسه ضد تهمة السحر التي أسندت إليه. ولكن اكتشاف تماثيل لبعض الأباطرة في هذه القاعة. وهي تماثيل تعود إلى القرن الميلادي الأول. يدل على أنها استعملت أيضا كمعبد للأباطرة. وكانت هذه القاعة وبقية الباسيليكا مبلطة بالرخام. واستمر استعمالها حتى ظهر أنها أصبحت أضيق من أن تتسع للناس اللذين كانوا يجتمعون فيها في شتى المناسبات. وآنذاك أقيمت قاعة محكمة جديدة في الجانب الغربي

منها. وظلت هذه الباسيليكا الموسعة تستخدم حتى دمرت في أواخر القرن الميلادي الرابع. وبعد تدميرها بقليل أعيد بنائها على طراز الباسيليكا السويرية في لبدة أي على شكل بهو مستطيل يقسمه طوليا صفان من الأعمدة إلى صحن وممر جانبي. وقد جاءت الباسيلكا الجديدة أقل عرضا من سابقتها بحوالي أربعة أمتار كما انها جاءت أقصر منها بكثير. واستخدم في تبليطها بلاط رخام أخذ من الباسيليكا القديمة. ويدل وجود سلم درج خلف جناحها الشرقي على انه كان بها صالات صور كتلك التي كانت في باسيليكا لبدة. ولكن هذه الباسيليكا الجديدة لم تعمر طويلا اذ إنها حولت حوالي سنة 450 م. إلى كنيسة رقم (111) يجري الدخول إليها من ثلاثة مداخل مقوسة ومتتالية في نهايتها الشرقية. وفي العهد البيزنطي أقيم مذبح للكنيسة في الجانب الغربي من الصحن وهو ربما كان من الخشب في البداية ولكن ما تبقى من الآثار يدل على أن مذبحا من الرخام كان قد أقيم في الكنيسة وقت ترميمها على أيدي البيزنطيين. ويلاحظ أن أرض الكنيسة البيزنطية أعلى من أرض كنيسة القرن الميلادي الخامس. كما ان المذبح البيزنطي رفع على أساس من تسع قواعد أعمدة مقلوبة. وكان بناة القرن الميلادي قد حولوا قاعة المحكمة إلى معدانية باقامة جرن مستطيل في فجوة في حائطها الخلفي. ولكن البيزنطيين أقاموا معمدانية جديدة في بناية قريبة من الزاوية الشمالية الغربية للكنيسة. أما نافورة المحكمة الغربية فقد سدت وحل محلها مذبح.

وفي الجانب الغربي من الفورم كان الكابيتوليوم (8) (Capitolium) أي معبد الثالوث الالهي (جوبيتر. جونو. منبرفا). وكان هذا المعبد في البداية. أي في النصف الأول من القرن الميلادي الأول. مبنيا من الحجر الرملي المقصور. وفي النصف الثاني من القرن الميلادي الثاني تم تصفيحه بالرخام على نطاق واسع وأقيم أمامه وعلى امتداد أساسه منبر للخطابة زود بسلم من الدرج العريض على كل من جانبيه ليسهل الوصول إليه عن السلمين من الفورم. ولقد رمم هذا المنبر وسلمه الجنوبي في وقت لاحق. وقد أقيم خلف المنبر درج عريض يفضي إلى المعبد نفسه. وما زالت درجات الحجارة الأصلية

تشاهد تحت الدرج الرخامي الذي أقيم فيما بعد. وكانت لصحن هذا المعبد مداخل ثلاثة ما زالت عتباتها قائمة في أماكنها الأصلية وتدل تقسيمات أساس هذا المعبد على أن الصحن نفسه كان مقسما إلى ثلاثة صحون خصص واحد منها لكل من أعضاء الثالوث الالهي.

وإلى الشمال من الكابيتوليوم، وخلف الزاوية الشمالية الغربية من الفورم توجد آثار معبد سيرابيس (9) وفنائه. وقد تم التعرف على هذا المعبد إثر اكتشاف رأس تمثال لهذه الإلهة الاسكندرية بين أنقاضه. وهذا المعبد هو من أقدم معابد صبراته الرومانية، ويرتفع فناؤه المستطيل عن مستوى الشوارع المجاورة. كما أن جانبه الشرقي كانت به ثلاثة مداخل تواجه مقدمة المعبد. وفي الأصل كانت أعمدة الممرات المستورة حول أضلاع الفناء من الحجر الرملي المقصور، ولكن أعمدة المقدمة والجانبين استبدلت فيما بعد بأعمدة من الرخام الرمادية متوجة بتيجان كورنثية. ولقد أنشئ هذا المعبد وفقا للتقليد الهلينستي أي في وسط الفناء، ولكنه رفع عن مستوى الفناء وزود بدرج حجري من الجهة الشرقية فقط. وقد كسي هذا الدرج بالرخام في وقت لاحق.

وتقوم وراء الممر الشمالي للفورم آثار للكوريا أي المجلس البلدي (10) وقد جرى بنائه في آخر القرن الميلادي الرابع على انقاض بناء سابق يغلب على الظن أنه تهدم على أيدي الأستوريين. وكان هذا المجلس عبارة عن قاعة اجتماعات مستطيلة تفتح إلى الشرق مقابل أحد رؤوس فناء مثلث صغير يدخل إليه الناس مباشرة من الفورم بواسطة مدخلين في ضلعه الجنوبي الطويل: واحد في الوسط والثاني بجوار الزاوية الجنوبية؛ ولا تزال ثقوب مزلاجيها ماثلة للدلالة عليها. وربما كان هنالك مدخل ثالث بجوار الزاوية الجنوبية الشرقية.

ويتصل هذا الفناء بالكوريا بواسطة مدخل في طرفه الغربي، تبدأ بعده مباشرة مصطبة بعرض الغرفة مكونة دهليز يقوم وراءه وعلى مستوى أعلى قليلا من مستواه ممر عريض يسير حتى منتصف المصطبة. وعلى جانبي هذا الممر كانت أدراج منخفضة توضع عليها مقاعد أعضاء المجلس.

وفي الطرف الغربي من الغرفة تشرف الدرجتان الأولى والثانية على منصة مكونة من امتداد الدرجة الثالثة عبر الجدار الخلفي؛ كان القضاء يجلسون عليها. ويظهر على طول مؤخراتها نتوء كالرف ربما كان قاعدة مستطيلة تثبت عليها التماثيل. وكانت أرض الغرفة والمنصة والدرج مكسوة بالرخام ولكن القسم الأكبر منه قد اختفى.

وبين الكوريا والبحر فناء غير منتظم الشكل يقوم على جانبه الغربي منزل بيزنطي قد شمل بعض موقع معبد سيرابيس. وعلى الجانب الشرقي لهذا الفناء كانت تقوم باسيليكا جستنيان أي كنيسته المشهورة. ويلاحظ أن القسم الأكبر من منبر هذه الكنيسة في الجانب الشمالي من الصحن إنما هو عبارة عن قطعة من كرنيش الكابيتوليوم. ولعل أبرز ملامح هذه الكنيسة هي الفسيفساء الموجودة حاليا في متحف صبراته؛ وتظهر على زنار منها، أخذ أصلا من صحن الكنيسة، كرمة رمزية محملة بالعنب وعلى غصونها الملتوية أعداد كبيرة من الطيور بينها عنقاء وسلوى في قفص وطواويس. أما الزنانير الأخرى فهي مزخرفة تقليدية وهندسية لا تقل أثرا عن زخرف الزنار الأول المذكور. وتدل نوعية هذه الزخارف على أن صناعها لم يكونوا محليين وانما كانوا من فناني الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.

والى الشرق من باسيليكا جستنيان يقوم حي سكني وتجاري مهم ما زال يحتفظ بشيء من طابع الخطة غير المنتظمة للمدينة التي سبقت قيام المدينة الرومانية. واذا سرت في الجانب البحري من هذا الحي فانك تصل إلى زنقة (زقاق) تقطع هذا الحي من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. وأول بناء في الجهة الشرقية هو معصرة زيت زيتون قديمة صغيرة تحتوي قصعة الدرس وفراغا للعصارة وعددا من الأحواض المبطنة بالاسمنت. فاذا درت على شمالك في الطرف الجنوبي من هذه الزنقة ثم دخلت أول دورة على يمينك وجدت نفسك في مكان مكشوف وغير منتظم الأضلاع وهو موقع الحمامات البحرية (12) التي كانت أكبر مؤسسة حمامات في صبراته وان كانت لا تقارن بشيء مع حمامات هدريان في لبدة. ولقد تأثرت بناية

الحمامات كثيرا بعوامل التعرية إلى حد أن خطة انشائها لا يمكن استعادتها كاملة. وكان المدخل الرئيسي يفضي إلى قاعة مستطيلة كسيت أرضها وجدرانها ببلاط الرخام. وعلى اليسار دهليز قصير يؤدي إلى دورة المياه التي رصفت أرضها ببلاط الرخام وأقيم سقفها على عمودين كورنثيين وما زالت ترتيبات السيفونات (المقاعد) وشبكات المجاري في حالة جيدة. ومن ميمنة هذه القاعة يبدأ ممر طويل غطيت أرضه بالفسيفساء السوداء والبيضاء وهو يفضي إلى صف من الحجرات جانب البناية الشرقي. كما أنه ينتهي بغرفتين صغيرتين خلفهما حجرة كبيرة رصفت أرضها بالفسيفساء الملونة. والى جانب هذه الغرفة الأخيرة من الجهة الشمالية غرفة فيها حمام مستطيل يشغل طرفها الغربي.

فاذا عدت إلى المدخل ودرت على شمالك أولاً وثانياً فانك ستجد نفسك في شارع مهم على يمينك يمتد موازيا لشارع الكاردو وتقوم عليه منازل كبيرة تعتبر نماذج للمنازل التي كانت سطوحها معمدة لكي تجمع مياه الأمطار الساقطة عليها في آبار تحت أسسها. وفي الطرف الجنوبي من هذا الشارع ثغرة حديثة في السور البيزنطي تنفتح على الديكومانوس الذي يمتد مع السور البيزنطي باتجاه الشرق نحو حي القرن الميلادي الثاني من المدينة. وعلى مسافة ثلاثين ياردة شرقي هذه الثغرة توجد بقايا ضئيلة لقوس ذي أربعة أوجه كان مقاما على تقاطع الطرق ويحجب إلى الغرب منه كوعا في الديكومانوس كان ناجما عن التقاء الحي القديم بالحي الجديد. وكانت المنطقة إلى الشرق من هذا الكوع تستعمل كمقبرة مسيحية.

ويلاحظ وجود قبر مقصور بارز في وسط الطريق وهو مدهون باللون الأحمر وعليه شعائر مسيحية (صليب، طواويس، حمائم) ونقش يسجل دفن طفلين أحدهما عمره ثلاث سنوات والآخر ست سنوات. ويعتبر هذا القبر نموذجا مبكرا لهذا النوع من القبور وربما كان تاريخه يرجع للقرن الميلادي الخامس.

وأول بناية على يمين الديكومانوس بعد الدخول إلى الحي الجديد هي معبد هيرقوليس (13). وهي تقوم في مؤخرة ساحة مستطيلة مقابل المدخل

الوحيد من جهة الشارع. وعلى طول جوانب الساحة كانت ممرات مستورة ذات أعمدة كورنثية. وتدل كتابة تكريس هذا المعبد على انه كرس سنة 186 م. ويلاحظ الدرج تمثال لهرقوليس وهو جالس، وجدت قطعة منه في الموقع نفسه.

والى الشرق من معبد هيرقوليس مباشرة مؤسسة حمامات غير منتظمة تعرف باسم حمامات المسرح. وكان هنالك ممر يتفرع من الشارع ويسير تاركا دورة مياه على جهته اليسرى حتى ينتهي إلى شقة مكونة من ثلاث غرف أمامية ربما كانت تستعمل لتغيير الملابس. وفي الجهة الشرقية مدخل ربما كان يؤدي إلى القريجيداريوم؛ وهي هنا غرفة مستطيلة تنفتح من جهتها الجنوبية الطويلة على مغطسين باردين مسقوفين. وكانت بين فسيفساء هذا الحمام ميداليتان (هما الآن في المتحف) تمثلان الأدوات التي كان المستحمون يستعملونها من مثل زجاجات الزيت. وقد كتب على الميدالية الأولى (Bene Lava) (= حمام سعيد)، وكاتب على الأخرى (Salvom Lavisse) (= الاستحمام مفيد لك). وكانت جدران الغرفة مزنرة ببلاط الرخام كما كان في الجانب الشمالي من الفريجيداريوم بابان سد الشرقي منهما في وقت لاحق. أما الباب الغربي فإنه كان يؤدي إلى ممر يفضي إلى صالتين صغيرتين ومن ثم إلى الكالداريوم التي كان بها حمام ساخن يحمى بشبكة تسخين تحت أرض الغرفة. . ولا تزال آثار الموقد، الذي كان له مدخل من الخارج فقط، ماثلة عند الطرف الشمالي للمغطس.

وإذا تابعت الديكومانوس شرقا وأخذت الدورة الثالثة على يسارك، معتبرا الشارع المحاذي للجانب الشرقي من حمامات المسرح الدورة اليسارية الأولى، فانك ستجد نفسك عند كنيستين مسيحتين (14، 15) تدل حالتهما الأصلية على أنهما ترجعان إلى اواخر القرن الميلادي الرابع الاأنهما أدخلت عليهما تعديلات واسعة في وقت لاحق ربما كان بعد استعادة البيزنطيين لطرابلس من الوندال.

وكان أمام الطرف الشرقي من الكنيسة الكبرى الواقعة إلى الجنوب

فناء مستطيل استعملت في بنائه مواد من جدران سابقة وكان القسم الأوسط المكشوف من هذا الفناء محاطا بممر مستور ذي أربعة أوجه واعمدة ذات أربعة زوايا في أركانه الأربعة. ومن هذا الفناء كانت أبواب ثلاثة تفضي إلى الجهة الشرقية من الكنيسة. أما الكنيسة ذاتها فهي في خطتها كالباسيليكا العادية في أن لها صحنا وممرين جانبيين وقد استعملت في بنائها مواد بنايات سابقة. ولكن البيزنطيين أقاموا جدراناً جانبية جديدة داخل الجدران القديمة ليضيقوا مساحة السقف. وأعمدة الصحن كورنثية وذات جذوع من الجرانيت الرمادي كانت قد اخذت من بناء يرجع تاريخه إلى حوالي سنة 200 م. وكان فيها مذبح من الخشب أولا ثم من الرخام في عهد البيزنطيين؛ ولا تزال بعض أجزاء قاعدته ومنصته محفوظة. وتظهر في القاعدة ثقوب للأعمدة الصغيرة التي كانت تحمل قمة المذبح الرومانية. وكانت أرض الصحن مغطاة بفسيفساء ملونة هي من عصر الكنيسة الأصلية.

وهناك باب في الزاوية الجنوبية الغربية يفضي إلى حجرتين من بناية قديمة ولكنهما أدمجتا في الكنيسة. وكانت الثانية منهما ذات سقف يقوم على عمودين كما انها كانت تستعمل معمدانية؛ يدل على ذلك وجود جرن معمدانية مربع حفر في وسط المصطبة. وتدل فسيفساء مصطبتي هاتين الحجرتين على أنهما كانتا معاصرتين للكنيسة الأصلية اذ إن أسلوبها يشبه اسلوب فسيفساء صحن الكنيسة. وقد أقيمت في وقت لاحق معمدانية جديدة في شقة من الغرف في الجهة الشمالية من الكنيسة.

وتقع الكنيسة الصغرى على بعد بضعة أمتار إلى الشمال الشرقي من الكنيسة الكبرى وعلى الجانب الآخر من شارع ضيق. وقد بنيت هذه الكنيسة في الركن الجنوبي الشرقي من موقع مستطيل كانت تشغله قاعة كبيرة ذات أجنحة ثلاثة ربما كانت مستودعا. وقد تم كشف أساسها ووجدت في الموقع منصة المذبح ويرجع تاريخها إلى فترة البناء في العهد البيزنطي عندما رفع مستوى أرض الكنيسة جميعها.

وعلى بعد مائة ياردة إلى الشرق من هذه الكنيسة على امتداد الشاطئ

تقوم بقايا حمامات أوكيانوس (16) وفيها غرفة كبيرة في الجهة الشرقية من البناية لابد أنها كانت حمامات باردة «فريجيداريوم» أو دافئا «تبيداريوم». ونلاحظ في هذه الغرفة حوضين للماء البارد كلا منهما في جهة. وقد وجدت في أرض هذه الحجرة وعلى حافتي الحوضين فسيفساء من نوعية عالية نقلت منها إلى متحف صبراتة قطعة تمثل رأس اله البحر الذي سميت هذه الحمامات حاليا باسمه. وفي الزاوية الشمالية الغربية لهذه الحجرة باب صغير زينت عتبته بالفسيفساء التي تصور نظام الاستحمام (صورة صندل وزجاجة زيت). وهو يفضي إلى غرفة الحمامات الساخنة التي كانت تتمتع بجهاز تسخين يثير الاهتمام وهو عبارة عن دورة هواء ساخن كان يمر خلال آجر مجوف تحت وجوه الجدران.

وعلى بعدة مائة ياردة أخرى إلى الشرق من هذه الحمامات تقوم آثار معبد ايزيس الذي تم التعرف عليه باكتشاف تمثال صغير وقطعة من تمثال كبير لايزيس بين أنقاضه. ويرجع تاريخ هذا المعبد (14) إلى أواخر القرن الميلادي الأول وهو مشيد على أنقاض معبد صغير وكان يحيط به فناء مستطيل معمد له مدخل تذكاري في نهايته الشرقية. ويقوم صف من الغرف على طول نهايته الغربية. ولم يبق من صحن هذا المعبد شيء ولعله كان عبارة عن قاعة مستطيلة مقسومة طوليا إلى قسمين متناسبين مع القاعتين المسقوفتين من تحتهما. ولا بد أنه كان محاطا من الخارج بصف من الأعمدة الكورنثية.

وعلى بعد نصف ميل إلى الشرق من هذا المعبد أي على بعد مائتين وخمسين ياردة من البحر يقع المسرح الروماني المدرج الذي ربما كان أنشئ في أواخر القرن الميلادي الثاني. وتبلغ مساحة حلبته البيضاوية ثلثي مساحة نظيرتها في مدرج الكولوسيوم بمدينة روما. وتدل ضخامة هذا المدرج على مدى ما كانت صبراتة قد بلغته في هذه المرحلة من تقدم وثراء.

أما المسرح (18) فهو من أبرز آثار صبراتة وهو مركز الحي الجديد الذي أُنشيء في أواخر القرن الميلادي الثاني. وعندما اكتشف هذا المسرح لم يكن

قائما منه سوى أجزائه الدنيا؛ ولكن الإيطاليين القائمين بالعمل تمكنوا بعد دراسة دقيقة لآثاره المبعثرة ان يرمموه ترميما شاملا ودقيقا. وكان هذا المسرح من الطراز الروماني المألوف: تتصل قاعة استماعه شبه الدائرة المكونة من ثلاث طبقات بمسرح مستطيل طويل يوازيها ارتفاعا. ويقوم البناء كله على منبسط صخري في وسط منخفض استغل ليكون الجزء الأدنى من قاعة الاستماع. وكانت مادة البناء الرئيسية المستعملة فيه هي الحجر الرملي الذي كسيت الأجزاء الظاهرة منه بالقصارة البيضاء.

وكانت مقاعد قاعة الإستماع مقسمة إلى ثلاثة قطاعات بواسطة ممرين شبه دائريين. كان الممر الأعلى يتصل بالممر الأرضي الداخلي بواسطة خمسة ممرات رأسية. ومن هذين الممرين كان المتفرجون يصعدون أو ينزلون إلى الصف المعين الذي يجلسون عليه بوساطة الممرات الرئيسية التي كانت تقسم كلا من القطاعات الثلاثة إلى قطاعات أخرى من المقاعد كل منها على شكل اسفين كبير. وكانت حول محيط الأوركسترا المبلطة بالرخام أربع درجات رخامية منخفضة توضع عليها كراس للشخصيات البارزة. وكانت الأوركسترا تنفصل عن قاعة الإستماع بستارة منخفضة من الرخام في وسطها فتحة وعلى طرفيها شكل سمكة دلفين.

وإلى الجنوب الغربي من المسرح يقع المنزل المسمى بيريستايل (Peristyle) نسبة للفنان – البستان الذي بني المنزل حوله. وهذا الفناء – البستان مستطيل في الشكل وان كان منحنيا قليلا في إحدى نهايتيه. وقد كان محاطا بالاعمدة. إن منزل البيريستايل هذا أقدم من حي القرن الثاني للميلاد. والأرجح أنه أنشيء خلال القرن الميلادي الأول كفيلاً خارج المدينة.

وعلى بعد مائتي ياردة إلى الجنوب الغربي من مدخل الحفريات (1) توجد آثار وحدة حمامات صغيرة تابعة لفيلات خاصة. وهي على طراز الحمامات الرومانية التي سبق التحدث عنها.

آثار أخرى

الطرق الرومانية:

لقد سبقت الإشارة إلى الطرق الرومانية في برقة[1]. أما بالنسبة لمنطقة طرابلس فنحن نعتمد فيما نعرفه عن شبكة الطرق الرومانية فيها على الوثائق القديمة والمخلفات الأثرية. ووثائقنا في هذا الصدد هي:

1- خارطة مصورة تبين الطرق في الإمبراطورية الرومانية وترجع على الأرجح إلى عصر الإمبراطور كمودس (180 – 193 م.) وهي المسماة تابُلا بيوتنجيريانا (Tabula Peutingeriana).

2- رحلة أنطونين (Antonine) في مطلع القرن الميلادي الثالث.

أما المخلفات الأثرية فتنحصر في حجارة الطرق.

وحتى الآن لم تكتشف خارج المدن الساحلية في منطقة طرابلس آثار أية طريق رومانية مرصوفة، مما يجعلنا نفترض أن تلك الطرق كانت، حتى الرئيسية منها، طرقاً ترابية. وأقدم حجارة الطرق في هذه المنطقة يرجع تاريخها إلى عهد كراكلا (211 – 217 م.)؛ وهي في العادة عبارة عن حجارة كلسية أسطوانية الشكل يبلغ ارتفاع الواحد منها حوالي سبعة أقدام، ويبلغ نصف قطره حوالي خمس عشرة بوصة، وكان يثبت في ثقب مناسب في قاعدة حجرية مستطيلة ومنفصلة عنه. وقد وجدت حجارة بيضوية الشكل وأخرى على شكل أعمدة قصيرة ذات أربعة أوجه. وكان ينقش على هذه الحجارة أسماء ولقب الإمبراطور الحاكم وطول المسافة بالأميال الرومانية[2]. وقد نجد في المكان الواحد أكثر من حجر واحد يرجع إلى عهود أباطرة مختلفين. والجدير بالملاحظة أن الحجر الكراكلّي ظل حتى وقت متأخر مستعملاً أكثر من غيره في ضواحي المدن الساحلية ولكن الأنواع الأخرى شاع استعمالها في بقية أنحاء منطقة طرابلس. أما الجزء الذي لم يلحقه تغيير كبير فهو القاعدة الحجرية.

1- انظر ص 387 – 388 أعلاه.
2- كان الميل الروماني يساوي (1480) متراً أي (1616) ياردة.

وتشير الوثائق والحجارة الأثرية إلى وجود خمس طرق رئيسية في منطقة طرابلس:

1- الطريق الساحلي: وكان عبارة عن الجزء الطرابلسي من الطريق الساحلي الكبير الذي كان يربط الاسكندرية بقرطاجة. وقد تم التعرف على ما يزيد عن ستة عشر حجراً من حجارة هذا الطريق داخل منطقة طرابلس.

2- طريق الجبل: وهي طريق عسكرية استراتيجية كانت تسير على محاذاة خط توزيع المياه على طول الجبل من لبدة إلى قابس. وقد شملت طريقاً أقدم منها ترجع إلى أيام البروقنصل ل. إيليوس لاميا «L. Aelius Lamia» . وكانت تمتد من لبدة إللى نقطة تقع قرب ترهونة الحديثة؛ وقد اكتشف عدد من حجارة هذه الطريق.

3- طريق دورة الجبل الشرقي: وهي طريق كانت تصل لبدة بأويا وكانت تسير إلى الجنوب من الطريق الساحلي الرئيسي مارة بالجبل الشرقي حتى تقطع طريق الجبل (رقم 2). ومن هناك تستمر إلى عين شرشارة ومن ثم تتجه إلى الشمال الغربي عن طريق وادي الرملة وتعتبر سهل الجفارة إلى أويا.

4- الطريق الوسطى: وهي طريق كانت تربط أويا بمزدة مارة بجوار غريان وليس لهذه الطريق ذكر في أية وثيقة قديمة ولكن ثبت وجودها باكتشاف حجارة أميال في القسم الواقع بين غريان ومزدة حيث كانت الطريق القديمة تساير الطريق الحالية.

5- طريق سوف الجين: هذه الطريق أيضاً لم يرد لها ذكر في أية وثيقة قديمة. ولكن ثبت وجودها باكتشاف عدد من حجارتها. وقد كانت تصل مزدة بنقطة على طريق الجبل في منطقة الزنتان عبر أعالي وادي سوف الجين.

محطات الطرق:

كانت محطات الطرق تختلف في حجمها وطبيعتها؛ فبعضها كانت

مجرد علامة بارزة على الطريق. وبعضها كانت تقام فيها قلاع محصنة للدفاع عنها باعتبارها مواقع استراتيجية. والبعض الآخر منها كان في مناطق زراعية مما جعلها تنمو وتتحول إلى قرى عامرة على جانبي الطريق. وقد تم مؤخراً مسح ثلاث من هذه القرى:

القرية الأولى تقع على بعد ثمانية كيلومترات إلى الشمال الشرقي من ترهونة وعلى بعد كيلومترين إلى الجنوب من قصر دوغا (Doga). وفيها آثار كثيرة منتشرة ولكنها لم تكتشف وتدرس إلا أنها على أي حال تدل على أن هذه القرية كانت عبارة عن مستوطنة قديمة. وربما لا نخطيء إذا قلنا إنها هي مستوطنة مسفي (Mesphe) التي تظهر كأول محطة على طريق الجبل بعد لبدة في رحلة أنطونين. وهي تعرف الآن محلياً باسم مدينة دوغا. وموقعها موجود في منخفض وسط كروم الزيتون وتقطعه طريق تمتد باتجاه الشمال الشرقي من ترهونة. ويمكن مشاهدة حمام بين الآثار الظاهرة الواقعة إلى جنوب هذه الطريق. وحمام آخر أصغر حجماً إلى الشمال منها. وبعد هذا يمكن مشاهدة بناية كبيرة معمدة وساحة مستطيلة ربما كانتا تشكلان مؤسسة عسكرية. وإلى الشمال الغربي من موقع هذه القرية أثري اكتشف فيه مناضد حجرية كان الجرامنتيون يستخدمونها ليقدموا عليها ما يقدمونه لموتاهم.

والقرية الثانية كانت إلى الغرب من محطة مسفي وهي قرية تنداسا (Thenadassa) وفقا لرحلة انطونين وقد تم التعرف عليها مؤخرا بين مجموعة مهمة من الخرائب في عين ويف على بعد كيلو مترين إلى الجنوب من طريق ترهونة – غريان في مكان يبعد خمسة عشر كيلومتر غربي قرية تزولي (Tazzoli) و تقوم أنقاض هذه الخرائب على مرتفع يطل من الشرق على العين التي سمي الموقع باسمها. و تخترق هذا الموقع من الشمال إلى الجنوب الطريق الحديثة القادمة من وادي حمام. و بالرغم من انه لا يوجد بين آثار هذه القرية ما يدل على أنها كانت محصنة عسكريا إلا أن بعض النقوش التي وجدت على أثارها و هي من عهد سيبتيموس سيويرس وتوجد حاليا بمتحف السرايا الحمراء بطرابلس – تدل على أن هذه المحطة كانت ذات

طابع عسكري. أما المستوطنة الثالثة فتوجد أثارها إلى جانب طريق الجبل في منطقة قصر الداوون (Gasr ed Dauun)عند ملتقي وادي الملي(El me) برافد صغير وهو شعبة الخيل (Sciabet el Kheil) على يسار طريق القصبات – ترهونة الحديثة. وتدل الأساسيات المنتشرة هنا و هناك. ومصاطب الاسمنت على أن هذه المستوطنة كانت تقوم على جانبي الطريق الرومانية على كلتا ضفتي الوادي. ويبدو أن هذه المحطة كانت ذات طابع تجاري لان موقعها كان مهما تجاريا أكثر منه عسكريا.

القلاع:

اكتشفت في مستّين بوادي مردوم على بعد حوالي ثلاثين كيلومترا إلى الشرق من بني وليد قلعة من النوع الروماني الشائع تبلغ مساحتها (28 × 28) مترا مربع. وتعرف هذه القلعة محليا باسم قصر بو الأركان (Bularkan) وهي تقوم على أساس مربع وتبرز منها سبعة أبراج مربعة: واحد في كل ركن وواحد في منتصف كل ضلع من أضلاعها باستثناء الضلع الجنوبي الشرقي التي يوجد به مدخلها الوحيد الضيق الذي يؤدي إلى ممر قصير يفضي بدوره إلى فناء مربع تحيط به «البراكات» والاصطبلات. ولا تزال أجزاء كثيرة من جدرانها قائمة بالارتفاع التي كانت عليه في الأصل. ويتكون بناؤها من وجهين ملئ الفراغ فيما بينهما بحشوه من الطين و قطع الحجارة. و الوجه الخارجي مبني من حجارة كلسيه كبيرة مكعبة هذبت قليلا. ويرجع تاريخ هذه القلعة إلى القرن الميلادي الرابع.

وكان خط الدفاع السويري الأول يتكون من ثلاث قلاع كبيرة وجدت آثار كثيرة لاثنتين منها هما قلعة بوجيم وقلعة القرية الغربية. أما القلعة الثالثة فهي قلعة غدامس التي لم يعثر عليها حتى الآن. وتقع قلعة بوجيم في واحة صغيرة على بعد حوالي مائتي كيلومتر إلى الجنوب من مصراتة على طريق القوافل الشرقي المار بالجفرة (giofra) إلى فزان و الجدار المحيط بهذه القلعة من الخارج مبنى من حجارة الأنقاض والطين ومطلي بالقصارة. وهو يشكل مستطيلا مساحته (36×91) مترا مربعا ولكن أركانه ليست زوايا وإنما نحتت على شكل جانب اسطوانة وربما كان يقوم على كل ركن

منها برج داخلي وكانت في كل ضلع من أضلاع هذا الجدار الأربعة بوابة واحدة تفضي إلى القلعة وكانت كل واحدة من هذه البوابات عبارة عن مدخل ذي قوس واحد يقوم برج على كل من جانبيه وكانت البوابة الشرقية كبرى هذه البوابات.وقد نقشت على حجر الغالق في كل من الأقواس الأربعة صورة نسر ونقش فوق الصورة إن القلعة بنيت سنة 200 – 201 م. من قبل كوينتوس انيسيوس فاوستوس (Anicius Faustus Quintus) قائد فرقة أوغستا الثالثة وتوجد الآن ثلاثة من هذه النقوش في متحف السراي الحمراء في طرابلس.

إما قلعة القرية الغربية فهي في واحة على بعد ثلاثمائة كيلو متر إلى الجنوب من طرابلس وبالقرب من الحافة الشرقية للحمادة الحمراء في موقع استراتيجي على طريق القوافل الوسطى إلى فزان.وكانت هذه القلعة تقوم على نتوء من الأرض يرتفع على شكل مهماز ذي جوانب شديدة الإنحدار ويبرز باتجاه الجنوب الغربي مطلا على الوادي الذي تقع فيه الواحة وكانت هذه القلعة تشبه قلعة بوجيم في مخططها ولكنها تبلغ ضعفها من حيث المساحة (132×183) مترا مربعا وقد أثير موقع هذه القلعة إلى حد كبير بسبب بناء قرية بربرية عليها والبوابة الوحيدة التي مازالت في حالة جيدة هي البوابة الشمالية الشرقية ويتكون مدخلها من باب ذي قوس ثلاثي كما يقوم برج على كل من جانبيه وعلى غالق هذا القوس حفرت كلمات لم يعرف المقصود بها حتى الآن وهي: (PRO AFR ILL) ويدل النقش على حجر وجد في قرية البربرية على ميل من الموقع (والحجر الآن في متحف طرابلس) على إن هذه القلعة بنيت في عهد اسكندر سيويرس بين 230 – 235 م وتظهر على القوس الأيسر رسوم كانت بارزة ولكنها أمحت إلى حد كبير وهي عبارة عن صورة نسرين تحف بهما صورة آلهة النصر المجنحة و يظهر دونهما في الزاوية اليمني مذبح ملتهب والبوابتان الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية أدمجتا في أبنية أقيمت في وقت لاحق ولكن لا يزال باديا منهما ما يقيم الدليل على أن كلا منهما كانت ذات مدخل واحد ينتصب برج على كل من جانبيه أما البوابة الجنوبية الغربية فلم يعثر لها على اثر

وبالنسبة للجدار الخارجي الذي كان يحيط بالقلعة فإن ركنه الشمالي لا يزال قائما ويبلغ سمكه مترا ونصف المتر وهو مبني من حجارة خشنه وقد وجه القسم السفلي منه بحجارة متوسطة الحجم بينما بني القسم العلوي بحجارة اصغر حجما نحتت لها حواش أفقيه وكما هي الحال في قلعة بوجيم فان أركان هذه القلعة لا تشكل زوايا وإنما نحتت على جانب اسطوانة ويدل وجود نافذة مقوسة في الطابق العلوي على إن القلاع كانت مزودة ببروج داخلية.

وفي ختام حديثنا عن القلاع لا بد أن نشير إلى ذلك النوع من القلاع الرومانية الصغيرة التي تتمثل في قلعة الحراس المعروفه باسم قصر ذويب وسنتحدث عن النوع ضمن حديثنا عن المزارع المحصنة.

مزارع الزيتون ومعاصره:

تنتشر آثار مزارع الزيتون ومعاصر زيت الزيتون بكثرة في منطقة طرابلس وخاصة في مناطق زراعة الزيتون في الجبل الشرقي ويبين المخطط رقم (7) نموذجا لمعاصر الزيتون الرومانية التي كانت شائعة في منطقة طرابلس وكانت حبوب الزيتون توضع في وعاء مخرم يرتكز على فرشة حجرية تؤدي بالزيت المعصور إلى مستودع متصل بها وكان يقع فوق حبوب الزيتون الموضوعة في الوعاء المخرم مكبس متصل بذراع طويلة برافعة خشبية ثبت طرفها السميك إلى أسفل بقضيب خشبي مثبت بإحكام في ثقوب بين عمودين حجريين ضخمين وترك طرفها الأخر طليقا بحيث يسمح بشد الذراع إلى الأسفل بواسطة حبل أو بكرة مثبتة في قطعة حجر ضخمة داخل حفرة في مصطبة المعصرة. والعمودان الحجريان اللذان كثيرا ما كان يظن إنهما نصب ترجع إلى عهد ما قبل التاريخ هما عادة أبرز آثار معصرة الزيت الرومانية وكان ارتفاعهما عشرة أقدام أو أكثر وقد يتكونان من قطعة واحدة أو من عدة قطع حجرية وكان هذان العمودان يقومان متقاربين وعلي أساس واحد وتضمهما من أعلاهما قطعة حجرية واحدة غالبا ما توضع عليها قطع أخرى لتزيد الثقل وقد تدخل أطراف بارزة لبعض تلك القطع في جدار خلفها زيادة في المتانة وكانت تعمل الثقوب لقضيب التثبيت الخشبي

في العمودين على ثلاثة ارتفاعات مختلفة وفي بعض الحالات كان وعاء حجري يوضع إلى جانب العمودين ليسحب إليه قضيب التثبيت الخشبي عند عدم الحاجة لاستعماله.

إما آثار مزارع الزيتون القديمة فنحن نجدها في أحسن حالاتها في المناطق الخارجة عن حدود مزارع الزيتون الحالية ولنأخذ واحد منها كمثال وهي هنشير سيدي حمدان وتقع على بعد عشرة كيلو مترات إلى الجنوب الشرقي من قصر داوون على الطريق إلى وادي ترغلات وهذه المزرعة من اكبر مزارع الزيتون التي اكتشفت في هذه المنطقة وربما كانت ترجع في تاريخها إلى القرن الميلادي الثاني.

وبالإمكان استنتاج ما كان عليه مخططها العام من المعالم الحجرية لجدرانها وهي معالم مازالت قائمة في أماكنها الأصلية في الوقت الذي تحول فيه باقي البناء إلى ركام فقد كانت نواة البناء جميعه ساحة مستطيلة محاطة على جوانبها الأربعة بصفوف من الغرف إلى ربما كانت مساكن للعمال ومخازن وما شابة ذلك. وخلف الطرف الجنوبي الغربي للساحة صغيرة مكشوفة يجرى الدخول إليها من البوابة مقوسة تفضي إليها مباشرة من الخارج من الزاوية الجنوبية للجدار الخارجي المحيط بقلعة المزرعة. ويدل وجود أحواض سقاية حجرية على أن هذه الساحة ربما كانت حظيرة للحيوانات. وكان يحيط بجوانب هذه القلعة الثلاثة: الشمالي الغربي، والشمالي الشرقي، والجنوبي الغربي ممر يتم الدخول إليه من الخارج من بوابة مقوسة في الطرف الغربي للجانب الجنوبي الغربي وكان هنالك ممر أخر داخلي يفتح في مواجهة الفراغ الجنوبي الغربي من الممر ويسير بين الساحة الرئيسية وبناء مستطيل يشمل عدة غرف ويشغل الجزء الشمالي الغربي من القلعة وتبدو في هذه البناء المستطيل آثار لسبع معاصر زيتون مما يشير إلى أن هذا البناء كان مصنعا لزيت الزيتون مقام في هذه المزرعة. أما الغرف الواسعة بين المعاصر فيبدو أنها كانت تستخدم مخازن لحبوب الزيتون. وكانت في الركن الشرقي من البناء معصرتان زيت منفردتان وكان فيه أيضا جناح يعتقد انه كان منزلا لصاحب المزرعة أو وكيلها. وكان هذا الجناح محاطا من

الجهة الجنوبية الشرقية بممر له بوابة في نهايته الشمالية. ويمتد على طول الجانب الجنوبي الشرقي للقلعة. وكانت هذه القلعة تتلقي مياهها من خزان قائم على سفح تله تقع على بعد مائة وأربعين ياردة إلى الجنوب الشرقي من القلعة.

الفيلات:

تتميز الفيلات التي كان الأغنياء يشيدونها في ممتلكاتهم الريفية عن بقية منازل المزرعة العادية بوجود صفوف من الأعمدة وبالفسيفساء وبزخارف الدهان على جدران وبالحمامات المنزلية وغيرها من المرافق والتسهيلات الكمالية. وكان الموقع المثالي للفيلا أن تكون قريبة من البحر بحيث يسهل على صاحبها الوصول إليها من المدينة التي يقيم فيها عادة وبالرغم من ان العدد الذي وجد من هذه الفيلات داخل الريف هو عدد قليل إلا انه لم يتم التعرف بشكل قاطع على أية فيلا خارج الشريط الساحلي. وقد تتمكن الحفريات في المستقبل من إثبات وجود فيلا في عين الشرشارة على بعد حوالي ستة كيلو مترات إلى الشمال الغربي من ترهونة حيث اكتشفت مؤخرا آثار ممر معمد مستور وبقايا فسيفساء رصفت بها أرضه. ويبدو من المحتمل أنهدا الممر كان يصل العين ببناية كانت فيلا على الأرجح على مسافة قريبة إلى الجهة الجنوبية الغربية.

ومعظم الفيلات الساحلية وجدت في حالة من الخرب لم تسمح بإعادة تخطيطها والمحافظة عليها كمواقع أثرية ولذلك فانه بعد أن جرى مسح هذه المواقع ونقل الفسيفساء المهمة منها أعيد دفن تلك المواقع من أجل المحافظة عليها وهنالك نموذج جيد لهذه الفيلات يمكن للزائر أن يشاهده في فيلا داربوك عميرة القائمة على رابية منخفضة من الصخور الرملي تطل على خليج صغير على بعد حوالي كيلومترين ونصف الكيلو متر إلى الغرب من مرفأ زليطن وتشمل هذه الفيلا غرفا وساحة واسعة ومكشوفة يقوم على طول جهتها الغربية صف من الغرف ووحدة حمامات منزلية وتقوم جدران هذه الفيلا ومصاطبها مباشرة على أساس ممهد من الصخر الرملي وكانت الجدران نفسها مبنية من الحجر الرملي الأحمر الذي طلي بالقصارة

نظرا لخشونتها وقد وجدت بعض مخلفات الفسيفساء وصور الدهان في الغرف هذه الفيلا ونقلت إلى متحف طرابلس ونذكر هنا أننا سبق أن اشرنا إلى قطعة الفسيفساء المشهورة التي تصور نشاهد من المسرح المدرج والتي وجدت في هذه الفيلا ونقلت أيضا إلى متحف طرابلس هي وقطعة أخرى تمثل فصول السنة مشخصة.

المزارع المحصنة:

تنتشر المزارع المحصنة بكثرة في الجبل الشرقي وعلي طول الأودية الواقعة على جنوبه وخاصة وادي سوف الجين وروافده وقد وجدت أمثلة متعددة منها كذلك في منطقة سرت الساحلية بين بويرة الحسون ومدينة السلطان وليس هناك أي فرق أساسي بين أبنية المزارع المحصنة المختلفة باستثناء أن مزارع الجبل كانت في الأغلبية تحاط بخندق.

وكانت بناية المزرعة المحصنة عبارة عن بناء على شكل مربع أو مستطيل له مدخل واحد يفضي إلى فناء داخلي يتقابل فيه طبقان أو ثلاثة من الغرف ويعطينا المخطط رقم (9) نماذج تمثل المخططات المتنوعة الأبنية المزارع المحصنة. ويمكن تميز أبنية المزارع القديمة من غيرها من نوع حجارتها. ومن أحسن أمثلة هذا النوع قصر البنات القائم الضفة اليسرى من وادي نفد على بعد خمسة كيلومترات إلى الجنوب من جبل سدادة. وهو بناء يشغل مساحة مستطيلة تبلغ حوالي (25×21) متراً مربعاً. ولكن أركانه لا تكون زوايا بل نحتت على شكل جانب أسطوانة. ومدخله الوحيد في جداره الطويل المواجه للوادي. وهو قائم إلى اليسار قليلاً عن وسط الجدار. والأجزاء من هذا البناء مهدمة مردومة. إما جدرانه الخارجية فلا تزال قائمة بارتفاع ستة أمتار تقريبا وهي مبنية بنوع جيد من الحجر الكلسي. ومستوى النحت المستخدم في الأبنية السويرية كالقوس المثلث في بوابة قلعة القريات الغربية. وليس بين ما اكتشف من أبنية المزارع المحصنة حتى الآن ما يشبه هذا البناء إلا بنايتان هما: قصر القريات الشرقية وقصر الفاسقية الخرب في وادي زمزم. وربما كانت هذه البنايات الثلاث من أقدم البنايات التي شيدت وفقا لخط الدفاع

الطربلسي الذي أقامه اسكندر سيويرس فهي بذلك نماذج أولى لقلاع المزارع المحصنة وكان تشييدها على أيدي مهندسين عسكريين من الرومان.

والمزارع المحصنة التي أقيمت في وقت لاحق وهي الأكثرية ليست ذات قيمة كبيرة من حيث فن النحت والبناء. والتفحص لقصر ذويب وهو رسميا قلعة حراسة، يستطيع إن يتبين السرعة الهائلة التي انحط بها فن النحت والبناء؛ فهذا القصر لا يختلف من حيث فن النحت والبناء عن المزارع المحصنة. ويقع هذا القصر في وادي ذويب على بعد خمسة كيلومترات من نقطة التقائه مع وادي سوف الجين وعلى بعد خمسة وثلاثين كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من الزنتان. وتدل النقوش على أنه بني بين سنة 244 م. وسنة 246 م. ويدل مخططه الذي يتميز بعدة أمور غير مألوفة على أنة كان يشغل مساحة مربعة تقدر بحوالي (16×16) متراً مربعاً. وله مدخل واحد في وسط جانبه الجنوبي الشرقي يفضي إلى ممر ينتهي إلى فناء مركزي أقيمت الغرف حوله على شكل طابقين. وكان هنالك بيت درج خشبي يوصل إلى باب في الواجهة المقابلة للمدخل ويتم الصعود منه إلى الطابق العلوي. وقد أدخلت على هذا القصر تعديلات وإصلاحات كثيرة في أوقات لاحقة وخاصة مقدمته من ناحية الجنوب الشرقي التي أقام لها المسلمون فيما بعد واجهة خارجية جديدة. والمدخل الرئيسي الأصلي يقوم الآن في الجدار الإسلامي، ونصفه الأيسر هو الروماني فقط. أما باقيه فقد أدمج في الواجهة الإسلامية. وسقف الممر الحالي المقوس هو إسلامي أيضا وقد كان سقفه في الأصل خشبياً مستوياً يرتكز على دعائم خشبية. كما أن بعض غرفه الداخلية كانت في الأصل ذات سقوف معقودة بينما كان البعض الآخر منها مسقوفا بالخشب المستوي منذ البداية. وربما كان هنالك برج يبرز فوق المدخل منفصلا عن الطابق الثاني.

ولم تكن المزارع المحصنة التي أقيمت في وقت لاحق مبنية بعدم اهتمام كما في حالة قصر ذويب؛ فهنالك قرب بير شدوة (Scedeua) في وادي سوف الجين وعلى بعد حوالي خمسين كيلومتراً إلى الشرق من مزدة مجموعة من البنايات في حالة جيدة. وهي وإن كانت تشبه قصر ذويب بشكل عام إلا

أن حجارتها نحتت بعناية فائقة، ولا تزال واحدة منها، تشبه البرج وتتكون من ثلاث طبقات، قائمة بارتفاعها الطبيعي تقريبا. وهنالك مزرعة محصنة أخرى على الضفة اليسرى من وادي سوف الجين وعلى مسافة قليلة إلى الغرب من بئر النسمة وهي غنية بالزينة وبالأعمدة. ويرجع تاريخها إلى أواخر القرن الميلادي الثالث أو إلى أوائل القرن الميلادي الرابع. وهي دليل ساطع على التقدم الزراعي الذي أحرزته مزارع الحدود.

والغالب على المزارع المحصنة أن توجد منتشرة على جوانب الأودية وبمعدل واحدة كل كيلومتر أو أكثر منه قليلا. وفي بعض الحالات التي يلتقي فيها رافدان أو ثلاثة من روافد الأودية في نقطة معينة مما يؤدي إلى وجود أراض زراعية واسعة كان يحدث أن تدمج عدة مزارع في قرية واحدة كما هي الحال في قصر السوق اللوطي في وادي بزرة. وفاسقية الحبس في وادي مردوم وقصر الخنافس في وادي شظاف. وربما كان أحسن الأمثلة على هذا الاتجاه هو ما نجده من آثار في وادي غرزة على بعد حوالي خمسة كيلومترات من نقطة التقائه بوادي زمزم حيث لا تزال توجد آثار ما يزيد عن ثلاثين بناية كبيرة وعدد آخر من البنايات الصغيرة كانت تقوم جميعا حول مصب رافد صغير على الجانب الأيسر من الوادي الرئيسي. وبنايات مزارع هذا الوادي تشبه ما سبق أن وصفناه من مثيلاتها. والجدير بالملاحظة في هذا الصدد هو أن الخشب مستعمل على نطاق واسع في هذه البنايات ولا تزال قطع منه تشاهد في مواقعها الأصلية. وقد تم التعرف مؤخرا على عينة من هذا الخشب فتبين أنه من نوع من شجرة الأكاسيا المعروفة محليا باسم «طلحة» وهي لا تزال تنمو في مجرى هذا الوادي إلى أيامنا هذه. وإذا ما قارنّا بين أبنية هذا الوادي وبناء مزرعة بئر النسمة من حيث فن النحت والبناء فإننا سنجد أن الزينة والزخرفة غير موجودة في الأبنية ومقصورة فقط على الأضرحة في هذا الوادي.

السدود:

لقد سبقت الإشارة إلى سد التحويل في وادي لبدة والسدود الأخرى التي

كانت تكوّن خزانات مائية في أجزاء وادي كعام السفلي. وهنالك سدان آخران بأحجام مشابهة مبنيان من الأسمنت في موقع سيدي الجيلاني في وادي المجينين وعلى بعد أربعة وخمسين كيلومترا جنوبي طرابلس. وهما يقومان متلاصقان في أدنى مجرى الوادي بعد السد الحديث مباشرة. وأقدم هذين السدين وأقربهما إلى الشمال – وهو في حالة جيدة على امتداد مائة متر تقريباً– يمتد شمالا وجنوبا. ويعود تاريخ إنشائه إلى الوقت الذي كان فيه تيار الوادي ينصب عموديا. تقريبا. على مجراه الحالي. ويبلغ سمك هذا السد في أجزائه العلوية مترا واحدا. ولكن هذا السمك يزداد إلى ثلاث أمتار عند الأساس. وقد أضيفت إلى هذا السد بنايات تقوية في أوقات لاحقة وخاصة عند نهايته الجنوبية الشرقية التي يبدو أن قوة التيار كانت تنصب عليها. وفي نهاية الأمر دار التيار حول السد من نهايته الغربية وذلك عندما تحول مجرى الوادي إلى ما هو عليه حالياً. ولهذا السبب أقيم السد الثاني الممتد من الشرق إلى الغرب. وكان طوله الأصلي مائة وعشرين مترا إذا ما استثنينا جناحا طوله خمسون مترا يمتد باتجاه الجنوب الشرقي من النهاية الشرقية لهذا السد. وقد أحدثت في هذا السد عدة ثغرات بسبب التيار من ناحية ولإقامة القناة الخاصة بالسد الحديث من ناحية أخرى. وكان هذا السد يشبه في بنائه السد الأول بشكل عام. وكان هذان السدان القديمان قد أقيما لغرض حماية واحة طرابلس. كما هي الحال بالنسبة للسد الحديث. من فيضان وادي لمجينين المعروف بأنه أعنف أودية منطقة طرابلس. ولتحويل مياه هذا الوادي الفائضة إلى سهل الجفارة الذي يمكن تحويله إلى ذرة خصبة إذا ما توافرت له المياه الكافية. وهنالك أيضا بقايا سد كبير أقيم من أجل أغراض الري في وادي الحيرة على بعد ستة عشر كيلومترا إلى الجنوب الشرقي من العزيزية.

ومعظم السدود الباقية الكثيرة التي نجد آثارها في أودية طرابلس كانت صغيرة. وكان الغرض من إقامتها حماية التربة من الانجراف. وكان حجمها وشكلها يتقرر وفقا لطبيعة مجرى الوادي الذي تقام عليه؛ فحيث كان مجرى الوادي متسعا وغير عميق كانت مثل هذه السدود لا تعدو أن تكون جدرانا حجرية منخفضة وغير سميكة. فنحن نجد وادي غرزة مثلا يتسع

عند غرزة إلى ثلاثمائة ياردة. ولذلك فقد قسم إلى عدة حقول مستطيلة بسدود من هذا النوع الحجري المنخفض وكان بين الحقل والذي يليه مسافة ستين ياردة. أما في الأودية العميقة الضيقة فإن قوة التيار كانت تستدعي إقامة سدود ممنعة من الإسمنت بحيث تأتي متتالية عبر الوادي ويسمح السد الأعلى مناه بفيضان شيء من الماء إلى السد الذي يليه ويقل عنه ارتفاعاً وبذلك تكون قوة التيار قد أضعفت تدريجيا. ولعل أحسن أمثلة لهذا النوع من السدود هي تلك الموجودة في وادي الزميط عند تقاطعه مع الطريق الرئيسي بين طرابلس والخمس إلى الشرق من فندق النقازة. وتلك الموجودة في وادي المي على يسار طريق القصبات - ترهونة وبعد قصر الداوون بقليل.

الأضرحة:

إن عادة بناء الأضرحة أو القبور المشهورة كانت شائعة في معظم الولايات الرومانية. ومما زاد في انتشارها في شمال إفريقيا عادة عبادة الليبيين لموتاهم. ولذلك فنحن نجد هذه الأضرحة في معظم أنحاء منطقة طرابلس كما نجد أمثلة منها في برقة وفزان. ولكن ما كان منها على الساحل الطرابلسي قد خرب تخريبا شنيعا ونقلت حجارته واستعملت في أماكن أخرى. وإذا أردنا أمثلة لا تزال في حالة جيدة فعلينا أن نتوجه إلى الجبل الغربي. والأودية الواقعة جنوبيه. ومزارع الحدود. وبالامكان تصنيف هذه الأضرحة إلى صنفين: أضرحة معابد وأضرحة مسلات وأحسن مثال على الصنف الأول في شكله البسيط هو الضريح المشهور في جرما بفزان. وربما كان الأحد التجار الرومانيين المقيمين. ويرجع تاريخه إلى حوالي سنة 100 م. وهو يقوم على أساس مستطيل تحيط به درجات ثلاث ويتكون من غرفة لحد قائمة الزوايا أمامها مصطبة ذات عمودين إيونيين طليقين. وكان اللحد مبنيا من الإسمنت بينما كان باقي الضريح مبنيا من الحجر الكلسي.

وهنالك نموذج ممتاز لأضرحة المعابد. لا يزال في حالة جيدة. في المقبرة الشمالية في غرزة على بعد قليل إلى جنوبي المزرعة المحصنة وعلى نفس الضفة من الوادي الرئيسي. وقد بني بالحجارة الكلسية وبرز جانباه الشمالي

والجنوبي نحو الشرق ليتصلا بأدراج تفضي إلى المصطبة الأمامية. أما غرفة اللحد فهي محاطة من جوانبها الأربعة بأعمدة طليقة: أربعة منها في المقدمة ومثلها في المؤخرة. وخمسة على كل من الجانبين إذا ما عددنا أعمدة الزوايا مرتين. ولهذا الضريح إفريز من النوع الدوري مزين بنقوش من باقات الزهر والتروس سعف النخل. وعلى نهاية غرفة اللحد من الجهة الشرقية نقشت الكتابة الخاصة بالضريح بين نسرين مفرودي الجناحين. وكان المدخل الحقيقي لهذه الغرفة في القسم العلوي من الواجهة الجنوبية. وقد كان يوصد بمزلاج حجري يقفل بعد إدخال الجثمان إلى غرفة اللحد العارية من الداخل. ويرجع بناء هذا الضريح إلى القرن الميلادي الرابع. ولدينا مثال آخر على هذا النوع من الأضرحة وهو أقدم من المثال السابق ولكنه غير كامل. وهو موجود في قصر البنات في وادي نفد قرب المزرعة المحصنة هناك. وهي المزرعة التي سبقت الإشارة إليها. وفن النحت المتبع في الضريح وفي المزرعة متشابه إلى حد كبير. وربما كان بنيان الضريح يرجع إلى نفس الضريح الذي أنشئت فيه المزرعة أي إلى النصف الأول من القرن الميلادي الثالث. وأثار الضريح التي لا تزال في مواضعها الأصلية هي عبارة عن غرفة لحد مستطيلة في حالة جيدة وأمامها درج وفي داخلها أقواس حجرية مزينة. وكانت غرفة اللحد هذه بأعمدة يربطها ببعضها البعض إفريز من الطراز الدوري سقطت قطع منه على الأرض أمام الضريح. وقد نقش عليه أسماء الشخصيين اللذين أقاماه.

وبالإضافة إلى هذه الأمثلة توجد أضرحة كثيرة مختلفة الأحجام في مقبرتي غرزة الشمالية والجنوبية بحمل معظمها زخارف منقوشة نقشا بارزا وتمثل مشاهد منتزعة من الحياة اليومية للمستوطنة نفسها من مثل الحراثة على الجمال والثيران والخيل. وحصد الشعير ودرسه. ومناظر قوافل الجمال. ومشاهد الصيد من الموضوعات المفضلة وتظهر فيها الأسود والفهود والبقر الوحشية والنعام بالإضافة إلى رسومات حيوانات رمزية كأسود رسول الآلهة والسمك الذي يرمز الأرواح الموتى. وتظهر على إفريز مشهور من أفاريز غرزة. موجود حاليا في اسطنبول بتركيا. صورة الرئيس

المتوفى وهو جالس على عرشه ومن حوله أفراد أسرته يقدمون له الطعام والشراب. ويتجلى مدى العناية التي كانت تكرس لمبدأ تغذية الموتى في وجود قنوات في العديد من أضرحة غرزة تؤدي إلى قلب اللحد وتسمح بأن تصب فيها المشروبات والأغذية السائلة.

والنوع الثاني الرئيسي من الأضرحة في منطقة طرابلس هو الأضرحة التي تشبه المسلات في شكلها. فالضريح من هذا النوع هو عبارة عن بناء مرتفع كالبرج. زواياه قوائم أو قريبة من ذلك ويتكون من ثلاثة طوابق الثالث منها يشبه مسلة هرمية رقيقة. ومن الأمثلة القديمة على هذا النوع ضريح قصر أم أحمد في وادي نَفَد. ويدل مستوى النحت الرفيع الذي يتجلى في بنائه على أن تاريخه يرجع إلى القرن الميلادي الثالث. وتتحلى زوايا طابقه الأول بأعمدة كورنثية صغيرة متوجة بإفريز دوري وكرنيش. وقد زين الإفريز بصورة نصفية وباقات من الزهور. وتبرز من زوايا الطابق الثاني أعمدة كورنثية يقوم على رؤوسها إفريز مزين بالخضروات وفي واجهته الشرقية باب غير حقيقي. وترتفع فوق كرنيش الطابق الثاني مباشرة مسلة الضريح التي هي عبارة عن الطابق الثالث.ويتجلى هذا المخطط بصورة مبسطة في ضريحين أحدث من الضريح السابق ويعرفان باسم المسلتين وينتصبان متجاورين في وادي مردم على بعد ثلاثين كيلومترا إلى الشرق من بني وليد.

ويظهر تنوع شديد في الأضرحة المسلية الأخرى خاصة في الطابق الثاني منها. ففي ضريح في وادي مسوجي على بعد حوالي أربعين كيلومترا إلى الغرب من بني وليد نجد الطابق الثاني مكونا من تسعة أعمدة كورنثية سميكة مرتبة في ثلاثة صفوف: ثلاثة منها في كل صف. وفي أحد جوانب طابقه الأول يظهر باب غير حقيقي بينما تظهر صور نصفية وصور حيوانات مفترسة منقوشة على الإفريز الذي تحمله أعمدة الزوايا. وفي حالات كثيرة يتخذ الطابق الثاني في الأضرحة المسلية شكل هيكل صغير. وفي سنة 1933 م. كان ضريح من هذا الطراز لا يزال قائماً بحالته الأصلية في المقبرة الجنوبية في غرزة. ولكن هزة أرضية حدثت بعد ذلك دمرت الطابقين الثالث والثاني منه. ويلاحظ وجود باب غير حقيقي في أحد جوانب الطابق الأول

كما تنتصب في زواياه أعمدة كورنثية يعلوها إفريز. وعلى جدار الباب غير الحقيقي صورتان نصفيتان بينهما صورة طفل وإلى يمينهما صورة في وضع طائر وهي تمسك تاجا بيد وقرطاسا مطويا باليد الأخرى، ولعلها تمثيل غير متقن لآلهة النصر. أما المعبد الصغير الذي هو الطابق الثاني من هذا الضريح فهو يرتكز على قاعدة رقيقة وتتجه مقدمته بحيث تكون زواياه قائمة مع الباب غير الحقيقي الموجود أسفل منها. وغرفة اللحد فيه غير عميقة وهي مفتوحة من الأمام ويتصل بكل من زاويتيها الخلفيتين عمود كورنثي بينما تقوم أمامها مصطبة ذات أقواس، مرتكزة من ناحية مقدمتها على عمودين كورنثيين طليقين. وفوق كرنيش الطابق الثاني تنتصب مسلة رقيقة توج رأسها على غرار تيجان الأعمدة الكورنثية.

وقبل الفراغ من الحديث عن الأضرحة لابد لنا من أن نشير إلى ثلاثة أضرحة مهمة لا تتبع لأي من الأنواع الثلاثة التي سبق ذكرها. وأول هذه الثلاثة هو ضريح هنشير سوفيت (Henseir suffit) الواقع على مسافة قصيرة من طريق يفرن _ غريان على بعد خمسة كيلومترات إلى الشرق من يفرن وقرب المزرعة المحصنة التي لا تزال قائمة هناك في حالة جيدة. ويحمل الطابقان اللذان لا يزالان قائمين من هذا الضريح أوجه شبه قوية لنظيريهما في الأضرحة المسلية ذات المعابد الصغيرة المقامة في طوابقها الثانية. ولكن من الشكوك فيه أن بناء ضخما مثل هذا البناء كان ينتهي بمسلة إذ أن الأقرب للعقل أن يكون منتهيا بهرم منخفض. وهو يقوم على أساس بسيط من البناء المقام كتسوية لسطح الصخر المائل. وفي هذا الأساس غرفة لها باب مقوس في جزئها الأمامي. وفي جدرانها الداخلية ستة تجاويف صغيرة، ربما كانت لحفظ القوارير. ويقوم الطابق الأول من هذا الضريح على قاعدة ترتكز على التسوية المذكورة، وقد زينت زوايا هذا الطابق بأعمدة كورنثية تحمل إفريزا مزخرفا وكرنيشا. وترتكز مصطبة الطابق الثاني على عمودين مربعين طليقين وهما من النوع الكورنثي الضخم يصلهما قوس من الأمام ويتصلان مع جدران جوانب غرفة اللحد بوصلات أفقية قصيرة. وكانت الأوجه الأمامية والجانبية لكل من هذين العمودين مزينة بأعمدة كورنثية صغيرة

كما كان هنالك عمود واحد متوسط الحجم وله جانبان فقط في كل من الزاويتين الخلفيتين لغرفة اللحد.

والضريح الثاني يعرف باسم (الصنمة) ويقع فوق وادي البئر الوعر في منتصف الطريق بين غريان ووادي الحمَّام على الطريق الجنوبي من غريان إلى ترهونة. ومخطط هذا البناء مربع ويقوم على أساس منخفض ومدفون جزئيا. ولا بد أنه كان يتكون من ثلاث طوابق على الأقل؛ بقي منها اثنان في حالة جيدة. وفي منتصف الجانب الجنوبي الشرقي من الأساس دهليز نفق يقضي إلى غرفة القبر المقوسة التي توجد في مؤخرتها ثلاث تجويفات لبقايا الموتى: واحد يواجه المدخل وواحد في كل من جداري الجانبين الآخرين. وقد عومل الطابق الأسفل كأساس له كرنيش بارز. أما الطابق الثاني فقد زين بأعمدة كورنثية صغيرة، أربعة منها على كل جانب من الجوانب الأربعة، ويلاحظ أن ما أقيم من هذه الأعمدة في الزوايا له وجهان فقط. وعلى الجانب الجنوبي الشرقي مثل العمودين المتوسطين بتاجيهما فقط بينما حفر على الفراغ الناتج تحت التاجين باب غير حقيقي له إطار مزخرف وعلى جانبيه صور نصفية لفتاتين، على شكل ميداليتين. ويعلوه حزام أبيض معد للكتابة. وأمام الباب الغير حقيقي رسم بطريقة الحفر البارز حيوان مفترس يطارد حيوان آخر ثم حيوان ثالث بين قوارين. أما الطابق الثالث على شكل مربع من الأعمدة التي كانت على ما يبدو تحيط بأحد المعابد الصغيرة. ويدل مستوى فن النحت الرفيع المستخدم في هذا البناء على أنه يرجع إلى فترة القرن الميلادي الثالث.

وأخيرا لابد ن الإشارة إلى الضريح الفخم المعروف باسم قصر دوغا، الذي تقع آثاره على بعد ثمانية كيلومترات إلى الشمال الشرقي من ترهونة وعلى بعد أقل من كيلو متر واحد من مدينة دوغا (مسفى القديمة). وبناء هذا الضريح قائم الزوايا وهو يقوم على أساس مستطيل يرتفع بمقدار درجتين عن سطح الأرض. وكان في الأصل يتألف من ثلاث طوابق لا يزال اثنان منها قائمين وهما متشابهان بشكل عام في أساسهما وفي أعمدتهما ذات الوجهين التي زينت بها زواياهما. وفي أن كلاً منهما توج بإفريز أبيض وكرنيش. وأعمدة

الطابقين لا تقوم على قواعد مستقلة عن أساس الطابق. ولكن أعمدة الطابق الثاني تختلف في تيجانها عن أعمدة الطابق الأول. وكانت تحيط بالطابق الثالث أعمدة كورنثية عددها جميعاً ثلاثون عموداً موزعة حسب الترتيب الآتي (إذا ما عددنا أعمدة الزوايا مرتين): ستة في المؤخرة. أربعة في المقدمة. تسعة على كل من الجانبين واثنان خارجيان في فتحات البناء. ومن المحتمل انه كان وسط هذا المحيط المعمد غرفة لحد من نوع ما. ولكن لم يبقى لها أثر. وتحت هذا البناء فسقيتان متصلة كل منها الأخرى. ويوجد في الداخلية منهما مقعدان حجريان منخفضان بمحاذاة جدارهما الخلفي. وفي الجدار المقابل للجدار الخلفي ثلاث تجاويف صغيرة فوق المدخل ربما كانت قد أعدت لكي توضع فيها المصابيح. ويدل مستوى فن النحت المستعمل في هذا البناء على أن تاريخه يرجع للقرن الميلادي الثالث.

القبور المستديرة في قورينة ومغيرنس (Meghernes):

تقسم القبور في قورينة إلى نوعين: نوع قائم منفرد. وهو أما مدور أو مربع أو له درج. ونوع محفور في الصخور. وقد قامت بعثة جامعة مانشستر بحفر وتخطيط ثمانية قبور ودراسة وتخطيط أربعة عشر قبرا آخر في مدينة قورينة.

ومن المتعارف عليه أن أقدم قبرين في قورينة هما قبر باتوس الأول وقبر أحد مصارعيه من أبناء دلفي وهو رجل اسمه أونوماستوس (Onomastus). والقبر الأول أكبر من الثاني وقد تم التعرف عليه بناء على اشارة الشاعر الإغريقي بندار (حوالي 518 – 438 ق. م.) الذي يتحدث عن باتوس الأول ثم يقول: «إنه الآن يستريح منفردا بعد موته. في الطرف البعيد من السوق في قورينة». ويقوم فوق هذا القبر بناء إسطواني الشكل يتكون من صفوف أفقية من الحجارة المنحوتة التي قدر الأثريون الإيطاليون معدل أبعاد الواحد منها بـ 125 سم طولا و35 سم ارتفاعا. وهذا طراز لا يمكن أن يكون معاصرا للقبور المستديرة التي كانت شائعة الاستعمال في بداية استيطان الإغريق لقورينة في بداية القرن السابع قبل الميلاد. والتي كانت عبارة عن دائرة منخفضة من الحجارة القائمة كان الجثمان يدفن بداخلها ثم تقام كومة من

التراب على شكل مخروط. ويظهر من أسلوب قبر باتوس أنه يرجع إلى عصر هدريان الذي جدد أبنية كثيرة في قورينة وغيرها من المدن الليبية في أعقاب تخريب اليهود لها. وربما كان هذا البناء المجدد قد أقيم مكان بناء سابق شيد في مطلع العصر الروماني ثم دمر خلال الثورة اليهودية في عهد تراجان. وقد يكون هذا القبر بني عدة مرات فوق المكان الذي دفن فيه باتوس أصلا. ومما لا شك فيه انه كان في البداية سطحيا وبسيطا. ويبلغ نصف قطر هذا البناء الاسطواني تسعة أمتار وارتفاعه أربعة أمتار وخمسة وعشرين سنتيمترا وله مدخلان واحد في الجهة الشمالية الغربية والآخر في الجهة الجنوبية. وفي داخل هذا البناء الخارجي من جهة الشرق توجد بقايا مذبح شبه دائري لا تزال أجزاء من أساسه تغطي الدرجات العليا من سلم الدرج الحجري الدائري الخاص بالقبر الروماني المذكور سابقا. ومقابل هذا المذبح مصرفان صغيران كان دم القربان، أو ما يقدم من السوائل، ينزل خلالهما إلى الميت. وهناك مصرف آخر كبير يؤدي من الداخل إلى الخارج لتصريف المياه التي كان هذا النصب يغسل بها.

وفي المقبرة الغربية في قورينة خمسة قبور مستديرة ومرتبة على شكل هلال يرجع تاريخها جميعا إلى حوالي القرن السادس قبل الميلاد. وأسلوب هذه القبور قديم اذ ان الواحد منها هو عبارة عن دائرة من الحجارة الكبيرة المنفرجة والتي يبلغ ارتفاع الواحد منها حوالي 115 سم ويدل مظهرها على أنها قطعت قطعا خشنا ولم تهذب. وقد عبئت الفجوات التي بينها بحجارة صغيرة. وتتراوح أنصاف أقطار هذه الدوائر بين 532 سم و 932 سم. وكان الجثمان يودع داخل لحد تغطيه البلاد في وسط دائرة. وبعد الدفن كانت تقام على اللحد كومة من التراب على شكل مخروط تنتهي أطرافه السفلى بحجارة الدائرة.

القبور المربعة:

في نهاية أول الوادي في على يمين الطريق من قورينة إلى أبولونيا يوجد قبر يرجع تاريخه إلى النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد. وتتكون

جوانب اللحد الأربعة من أربعة قطع ضخمة من الحجارة وضعت أفقيا على أساس ذي أربعة درجات. وقد قسم داخل هذا القبر إلى قسمين مستطيلين ومتوازيين ثم قسم كل من هذين القسمين إلى قسمين متشابهين وسقف جميع هذه التقسيمات ببلاط من الحجارة يشبه الطوب.

القبور ذات الدرج:

هنالك عدد من القبور من هذا النوع في المقبرة الشرقية في قورينة يعود تاريخها إلى العهد البطلمي. وهي من النوع الذي وجد بكثرة في الإسكندرية في نفس العهد. وكان رماد الجثمان يوضع في وعاء من الفخار يدفن تحت الدرجة السفلى.

القبور المحفورة في الصخور:

في الناحية الجنوبية من أول واد على اليمين بالنسبة للذاهب من قورينة إلى أبولونيا قبر من القرن الرابع قبل الميلاد. له فناء مكشوف. وفي مؤخرة الفناء ثلاثة تجاويف. وعلى أحد جوانبه سلم درج قصير يفضي إلى لحد خشن مستو من وجهه العلوي. وكان هذا القبر خاصا بامرأة كما تدل كتابة منقوشة على أحد جانبية وتكاد ان تمحى الآن. وهناك رف بين هذا اللحد ومقدمة التجاويف خاصة بالتماثيل. وقد نقش اسما صاحبي اثنين من التجاويف فوق بابيهما:

الأوسط كان لأرخيبا (Archipa) ابنه مينودورس (Menodoros). والأيمن كان الأصل لجثمانين هما جثمان دراكون (Drakon) بن بوسيدبوس (Poseidippos) وجثمان ابنة أجليمونا (Aglemona). وقد وجدت في هذا القبر بعد العاديات وزجاجة دموع ومرآة برونز ودبوس شعر من العاج[3].

المعابد والهياكل والأصنام في منطقة طرابلس:

إن طبيعة الديانة الليبية القديمة لم تكن تتطلب بناء المعابد. والمعابد

3- Cyrenaican Expedition of University of Manchester, 1952, Manchester University Press, 1956, edited by Alan Rowe, with contriputions by Dererk Buttle & John Gray, pp. 19 – 26.

التي وجدت خارج المدن الساحلية في المنطقة طرابلس كانت قليلة. كما أنها كانت جميعا. باستثناء واحدة منها. عبارة عن هياكل ريفية متواضعة لا تمت إلى فن النحت بصلة. ويتمثل أبسط أنواع هذه الهياكل في بقايا بناء صغير في الجديدة (Sghedeida) في الطرف الجنوبي من واحة طرابلس. وتدل آثاره على أنه كان بناء مربع تقوم في وسط واجهته الأمامية فتحة أشبه بالنافذة. وكانت تقوم في زواياه أعمدة ذات وجهين. ونستدل من الهدايا المقدمة لهذا الهيكل على أن تاريخه يرجع إلى القرن الميلادي الثالث. وقد كان في مواجهته مذبح أُحيط فيما بعد بجدار مربع.

وهناك مثال آخر على هذه المعابد هو الأثر المسمى قصر تنيناي في وادي تنيناي على بعد حوالي تسعة عشر كيلومتر إلى الشمال الغربي من نقطة التقاء هذا الوادي مع وادي سوف الجين. وهذا المعبد أفخم من المعبد السابق وكان مبنيا بحجارة كلسية. وهو يتكون من صالة مستطيلة تتقدمها أمام مدخلها مصطبة قائمة على عمودين كورنثيين. وبالاضافة إلى هذا الباب الذي يفضي إلى المصطبة كانت للصالة نافذة مقوسة في أحد جوانبها. وربما كان الغرض منها تمكين الناظر من رؤية تمثال المعبود عندما يكون الباب مقفلا. وما يثبت أن هذا البناء كان معبدا وليس ضريحا قطعة افريز وجدت قريبة منه كتب عليها ان الذي بناه هو تيطس فلافيوس كابيتو (Titus Flavius Capito). ويرجع تاريخ الكتابة إلى حوالي سنة 200 م. وهناك آثار ربما كانت أسس معبدين آخرين من هذا النوع: الأول منهما لا يزال أساسه موجودا في رأس الحداجية على بعد كيلومتر واحد إلى غرب من الخضراء (قرب ترهونة). وقد وجدت في موقعه كتابه بالأحرف البونيقية الحديثة تقول إن المعبد وتمثال المعبود الذي كان فيه وسره المعمد المستور كرسها الليبيون جميعها للإله آمون بين سنتي 15 و 16 للميلاد. أما المثال الثاني فيقع في قراريط قصير التراب (= نصب الأخوين فيليني) بالقرب من آثار النصب الذي أقامه الإمبراطور ديوقلتيان علامة للحدود.

والمعبد الريفي الوحيد المهم هو المعروف بقصر الجزيرة وهو يقع على بعد أربعة كيلومترات باتجاه الشمال من الكيلومتر 166 على طريق يفرن

– جادو. وهذا المعبد في حالة جيدة نسبياً وهو مبني بالحجر الكلسي الجيد وربما كانت قد شيد في مطلع القرن الميلادي الثالث. أما بناؤه فهو عبارة عن مستطيل في وسطه صالة يقوم على جانبيه جناحان مفتوحان من الأمام. وكان البناء جميعه مسقوفاً بعوارض خشبية ثبتت أطرافها في فتحات مناسبة في أعالي الجدران. وأغلب الظن أن هذا السقف الخشبي كان مغطى بطبقة من الطين. ولصالة هذا المعبد الرئيسية باب واحد في واجهتها الأمامية. وقد وجد بالقرب من موقع هذا المعبد نقش (هو الآن في متحف طرابلس) يخلد ذكرى إقامة تمثال لهرقوليس. الإله الروماني الذي حل محل ملكارت الفينيقي.

أما بالنسبة للأصنام فان المستر هـ. س. كوبر. الإنجليزي الجنسية. قام بين 1895 و 1896 بزيارة ستة وسبعين موقعاً أثرياً في هضبة ترهونة كان معظمها يشمل هياكل من نوع الأصنام. وهو يقول في حديثه عنها[4]:

«ومع انه يلوح أن مواقع الأصنام موجودة في كل مكان ضمن هذا البلد إلا أننا قد نكتشف شيئا من قائمة أسماء المناطق التي توجد فيها الأصنام فعلاً:

1- وادي دوغا.

2- وادي ترقورت الموازي للوادي الأول.

3- السهل المجاور لمصب وادي ترقوت من جهة الشمال.

4- هضبة ترهونة.

5- الأرض المرتفة إلى غرب ترهونة حيث تتصل بغريان.

6- هضبة فرجانة ومناطق عزة ومعمورة إلى الجنوب حيث يمر القسم العلوي من وادي ترغلات.

7- وادي كسية وداوون.

8- الأراضي المنحدرة من القصبات ومسلاته إلى خوائب لبدة بما في ذلك

4- كوبر . هـ. س. . مرتفع الاهات الجمال : استكشاف الهياكل الثلاثية والمواقع المغليثية في طرابلس . (ترجمة انيس زكي حسن . نشر مكتبة الفرجاني . طرابلس ليبيا) . ص115 – 164 .

الخراب أيضا.

وللمواقع المختارة للأصنام ميزات متشابهة. فهي غير موجودة على القمم العالية فان وجددت على بعض سفوحها. كما أنها غير موجودة في الأراضي المنخفضة أيضا. وإنما تنحصر في المرتفعات المتوسطة في السهول. وفي التلال الصغيرة التي تواجه الشمس فوق الهضاب».

ويقسم كوبر آثار الخراب في المواقع التي زارها إلى صنفين:

1- محوطات.

2- أصنام.

1- المحوطات:

وهي عبارة عن أبنية هياكل أو مذابح أو أصنام محاطة بجدار. وفي معظم الحالات نجد جدران المحوطات ممهدة حتى أسسها. وتبين مخططات المحوطات إنها كانت في الغالب تشغل مساحة مستطيلة يتراوح طولها بين 70 إلى 250 قدما. وكانت تستخدم في بناء المحوطات الكبرى حجارة كبيرة مرصوفة رصفا جميلا. ولكن ارتفاع جدرانها في الأصل لا يمكن تعيينها نظرا لتهدمها جميعا باستثناء وجود أبنية في بعض المواقع ما زالت بعض أجزائها قائمة إلى ارتفاع أربعة عشر قدما من مثل صنم عارف.

2- الأصنام:

يتراوح ارتفاعها بين ستة أقدام وخمسة عشر قدما. وهي توجد عادة بالقرب من جدران المحوطات الخارجية على جانب واحد أو أكثر وتتألف من أبنية مسطحة الحجارة يبلغ الواحد منها ضخامة الباب العادي أحيانا. والشكل الغالب على بنيان الأصنام هو شكل الهيكل المغليثي المؤلف من عمودين قائمين[5] ويتكون الواحد من حجر واحد أو من حجرين وفوقهما حجر أفقي وأكثر. وتتراوح سعة الفجوة بين العمودين ما بين 13 إلى 25 بوصة. وكان العمودان يثبتان في قاعدة حجرية تنقر إلى عمق بوصتين أو أكثر قليلا. ثم

5- نحن ميالون إلى القول ان هذه الآثار التي اعتبرها كوبر أصناما انما هي بقايا معاصر زيتون رومانية صغيرة درست معظم آثارها الأخرى . أنظر أيضا ص597 اعلاه .

تنحت حواشي العمود من جهته السفلى حتى تصبح مناسبة للدخول في القاعدة. وتلاحظ في جوانب أعمدة الأصنام ثقوب تكون نافذة في عمود ونصفية العمق في العمود الآخر. وربما كانت الغاية منها وضع المزاليج أو العوارض الخشبية المربعة بحيث توضع الواحدة منها في الثقب الجانبي النافذ في أحد العمودين وتثبت نهايتها في الثقب النصفي العمق في العمود الآخر. وبالإضافة إلى تلك الثقوب الجانبية في الأعمدة كانت في عدد كبيرة من الأصنام ثقوب محفورة في الزوايا لابد أنها كانت تستخدم أيضا لتثبيت عوارض خشبية من اجل أغراض البناء المختلفة كإقامة وصلة بين الصنم والمذبح مثلاً. وما يؤيد هذا الرأي أننا نجد ثقوب الزوايا. في معظم الحالات. في مواجهة المذبح.

ويقارن كوبر بين شكل هذه الأصنام وأشباهها في طقوس الديانات القديمة الأخرى من مثل المسلات الثنائية أمام المعابد المصرية. والتماثيل النحاسية أمام هيكل سليمان. والأعمدة الذهبية والزمردية أمام معبد ملكارت بصور في فينيقية. وصنم فينوس المخروطي الذي يظهر على القطع النقدية القديمة في قبرص. وهو يجد شبها كبيرا بين شكل الصنم وبين شكل الرمز الذي يظهر على الأختام البابلية المخروطية التي يظهر عليها «كاهن يتعبد أمام حسيكة من أوتاد خشبية تربط بين رمزين: الأول عمود في رأسه مخروط. والثاني يتألف من عمودين فوقهما عارضة أفقية. وعارضة أفقية أخرى في الأسفل. فهذا الشكل شبيه بالصنم بالضبط (مع عارضة داخلية في الثقوب الجانبية). وقد وضع هذا خلف المذبح بنفس الطريقة»[6].

وواضح من هذا التشابه القوي بين شكل الأصنام الليبية والرمز على الختم البابلي أن الليبيون القدماء ربما كانوا قد اخذوا بعض الطقوس الدينية عن البابليين منقولة بوساطة الفينيقيين الذين كانوا همزة الوصل بين بلدان المشرق والمغرب في هذه الفترة. ولقد سبق أن أشرنا إلى أن الليبيين نقلوا كثيرا من الآلهة عن غيرهم من الشعوب التي احتكوا بها من مثل المصريين والفينيقيين والإغريق والرومان. ونضيف هنا ملاحظة جديرة بالاهتمام هي أن

6- المرجع السابق ص 154 – 155

الرومان لم يكونوا يتعرضون بسوء لديانات الشعوب الداخلية ضمن حدود إمبراطوريتهم ما دامت تلك الديانات لا تتعارض مع السياسة والمصالح الرومانية.

ولما كنا لا نعرف على وجه التحقيق شيئا عن الطقوس التي كانت تجري في هذه الأصنام فانا نرى هنا أن نقتبس شيئا ذا دلالة نظرية كوبر حول هذا الموضوع حيث يقول:

«وإذا سمح لي القارئ بمزيد من النظريات فقد يكون في وسعي أن أشير إلى أن الثقوب المحفورة في الزوايا في ناحية المذبح من الصنم تصلح لنصب هيكل خشبي من النوع الذي يظهر في الختم البابلي ولربطه بمحوطة تجري في داخلها بعض تلك الطقوس الفظيعة المتعلقة بعقيدة مولك [= ملكارت = إله النار الفينيقي]. فإذا كانت الفجوة بين عمودي الصنم هذا المكان الذي يقوم الكاهن بإدخال الضحية منه. وكانت الثقوب الجانبية تحتوي عوارض تغلق بعد ذلك لتدل على أن العالم قد ترك في الخلف. فيمكننا أن نتصور تفسيرا رهيبا لذلك الغموض. فالمدخل بين العمودين يعني هنا التناسل أو المولد الجديد. وتتبع ذلك تضحية أو عملية تطهير بالمرور وسط النار. لأنه بالرغم من كون الفجوات ضيقة بحيث إنها لا يمكن أن تستعمل كأبواب اعتيادية. إلا أنها تكفي لهذا الغرض لأن الضحايا كانوا دائما من صغار السن... وفي حالة التطهير بالنار نجد مجالا كافيا بين الصنم والمذبح لإشعال نارين متجاورتين»[7].

وتاريخ هذه الأصنام مازال غامضا لقلة الحفريات التي أجريت في المنطقة. ويذهب كوبر. بالاعتماد على القليل المعروف من تاريخها. إلى أنها لم تشيد في وقت واحد بل خلال الألف سنة التي سبقت سيطرة الرومان على منطقة المدن الثلاث. كما يشير إلى أن الليبيين الذين شيدوها بدأوا يمارسون طقوسهم فيها منذ البداية. وظلوا كذلك طيلة العهد الفينيقي وحتى بعد خضوعهم للسيطرة الرومانية قبيل تاريخ الميلاد.

7- المرجع السابق ص 158 – 159 .

ونشـير فيما يلي إلى عدد قليل من الأصنـام التي تحدث كوبر عنها على سبيل المثال لا الحصر:

1- صنم بو سيدة: ويقع على تل صغير على مسافة قصيرة من مصب وادي دوغا في الناحية الشمالية من ترهونة.

2- صنم العارف: ويقع على مسيرة عشرين دقيقة من الصنم السابق، فـي وادي دوغا بين جبل العـارف وجبل الأحمر، وهو فـي الناحية الجنوبية من الوادي تحت التل وبالقرب من مجرى مائي فرعي صغير.

3- صنم قرب قصر دوغا: ويقع على قمة تلة على مسيرة نصف ساعة إلى الشـمال الشـرقي من قصر دوغا، وارتفاعه غير مألوف إذ يبلغ ارتفاع كل من عموديه تسـعة أقدام ونصف القدم وسـمكهما مـن الخارج إلى الداخل قدمين، ومعدل اتساع الفجوة التي بينهما ستة عشر بوصة.

4- صنم كوم أسـلاس: يقع على قمة بـارزة في هضبة ترهونة مما يمكن المسـافر من رؤيته عن مسـافة بعيدة في مختلف الاتجاهـات لأنه أعلى من القمـم المحيطة به، وفي جميع أنحائـه، وخاصة في الجنوب الغربي، توجد آثار مختلفـة بعضها مـن نوع الأصنام وبعضهـا الأخر بنايـات رومانية. وارتفاع عمـوده الأيمن سـبعة أقدام أما الأيسـر فهو أطـول مـن الأول بنصف قدم، والفجوة بين العمودين تبلغ عشـرين بوصة. والحجر الأعلى الأفقي مكسـور الآن ولكنه كان قطعة واحدة سمكها خمس عشرة بوصة.

5- صنم الغرابة: يقع في وسـط كنسـية إلى الجنوب الغربي من جبل مسـيد والشـمال الشـرقي من فرجانة. ونصل إليه في فرجانة عبر شعبة الخيل ووادي داوون وكرمة الحثية. ويبلغ ارتفاع كل من عموديه أحد عشر قدما، وسـمك عارضته العليا عشرين بوصة، واتساع الفجوة بين العمودين ثمانية عشرة بوصة. وأبرز ميزات هذا الصنم وجود نقش على الوجه الجنوبي لعموده الأيسـر يمثل حيوانا غريبا ذا جسـم مطول ورأس مرفوع نسـبيا وذيل قصير. وتـدل خطوط النقش العميق على أن هذه الصور تعود إلى نفس الفترة التي شيد فيها الصنم.

الكنائس المسيحية:

تم حتى الآن اكتشـاف آثار تسع كنائي مسـيحية في منطقة طرابلس: أربعـة منها في حالة أثريـة مرضية وخمس في حالة سـيئة. والأربع الأولى هي في مواقع الخضراء والأصابعة وشـفاجي عامر وقصر السوق اللوطي. أما الخمس الأخرى فهي في مواقع:

1- قصر المعمورة في وادي جزي على بعد سـبعة عشر كيلومترا شرقي قصر داوون.

2- عين ويف أو ثنداسا القديمة (Thendasa)، وهي مبنية على أسلوب الباسيليكا.

3- قـرب تبـادون (Tebedut) على بعد حوالـي كيلومترين إلى الجنوب الشرقي من قرية الأصابعة، وهي أيضا على أسلوب الباسيليكا.

4- قرب بئر الكور على بعد (18) كيلومترا إلى الشـرق من غريان، وهي كذلك على أسلوب الباسيليكا.

5- في وادي كريمة بالقرب من التقائه مع وادي زريت (Zaret) وعلى بعد حوالي عشرة كيلومترات إلى الغرب الشمالي من الأصابعة، وهي أيضا على أسلوب الباسيليكا.

أما الأربع الأولى فهي في المواقع التالية:

1- الخضـرا: علـى رأس تلة إلـى الجنوب من طريق ترهونـة – القصبات، وعلـى بعد ثمانيـة كيلومترات إلى الشـرق من مركز قريـة الخضراء، وكانت في الأصل عبارة عن بناء مسـتطيل بسـيط له مدخل في الطرف الشـرقي من الواجهة الشـمالية، وكان يقسـمها طوليا إلى صحن وممرات صفان من الأعمدة في كل منهما أربعة أعمدة، وقد أضيفت لهذه الكنيسة فيما بعد الغرف وجرن معمودية مصلب من النوع البيزنطي.

2- غربـي مديريـة الأصابعة وعلـى بعد كيلومتر واحد إلـى الجنوب من رأس الـوادي، وهنالك طريق تؤدي إليها وتتفرع مـن طريق غريان – يفرن على

مسافة قصيرة إلى الغرب من المديرية. وكان بناء هذه الكنيسة مستطيلا على غرار الباسيليكا. وقد وجدت فيها مجموعة من النقود التي تدل على أن الكنيسة وجدت قبل العهد البيزنطي.

3- وادي بزرة: على بعد حوالي عشرين كيلومترا إلى الجنوب الشرقي من بني وليد بالقرب من المستوطنات المحصنة الثلاث المعروفة باسم قصر السوق اللوطي. وقد كانت على غرار الباسيليكا كما أنها حولت بعد الفتح الإسلامي إلى مسجد.

4- شفاجي عامر: على احد روافد وادي سوف الجين على بعد حوالي خمسة وعشرين كيلومترا إلى الشرق من مزدة. وهي أيضا على غرار الباسيليكا ويرجع بناؤها إلى ما قبل العهد البيزنطي.